

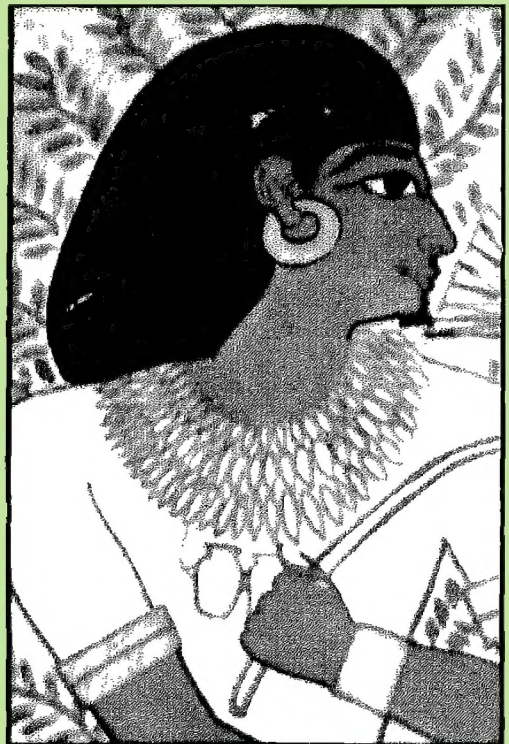
تاريخ مصر

من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي

ترجمة
الدكتور حسن كمال

تأليف
الأستاذ جيمس هنري برستد

راجعته وصححه: محمد حسنين الغمراوي بك



تاريخ مصر

من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي

حقوق الطبع محفوظة لمكتبة مندوبولي

الطبعة الثانية

١٩٩٦م - ١٤١٦هـ

الناشر

مكتبة مندوبولي

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج ٤

تليفون ٥٧٥٦٤٢١

صَفَحَاتٌ مِنْ تَارِيخِ مِصْرَ

④

تَارِيخِ مِصْرَ

مِنْ أَقْدَمِ الْعُصُورِ إِلَى الْفَتْحِ الْفَارِسِيِّ

تَأَلَّفَ

الْأَسْتَاذُ جِيمْسُ هَنْرِي بَرَسْتَدُ

أَسْتَاذُ عِلْمِ التَّوَارِيخِ الْمِصْرِيَّةِ وَتَارِيخِ الشَّرْقِ بِمَجَامِعَةِ سِيكِلِيَجُورِ ، وَمَدِيرُ دَارِ
التَّحْقِيقِ الشَّرْقِيَِّّةِ بِمَدِينَةِ هَامْبُورْغِ ، وَالضَّمِيرُ الْمُرَاسِلُ لِلْمَجْمَعِ الْعَالَمِيِّ بِبِرلِينِ

تَرْجَمَهُ

الدُّكْتُورُ هَسَّسُ كَالِ

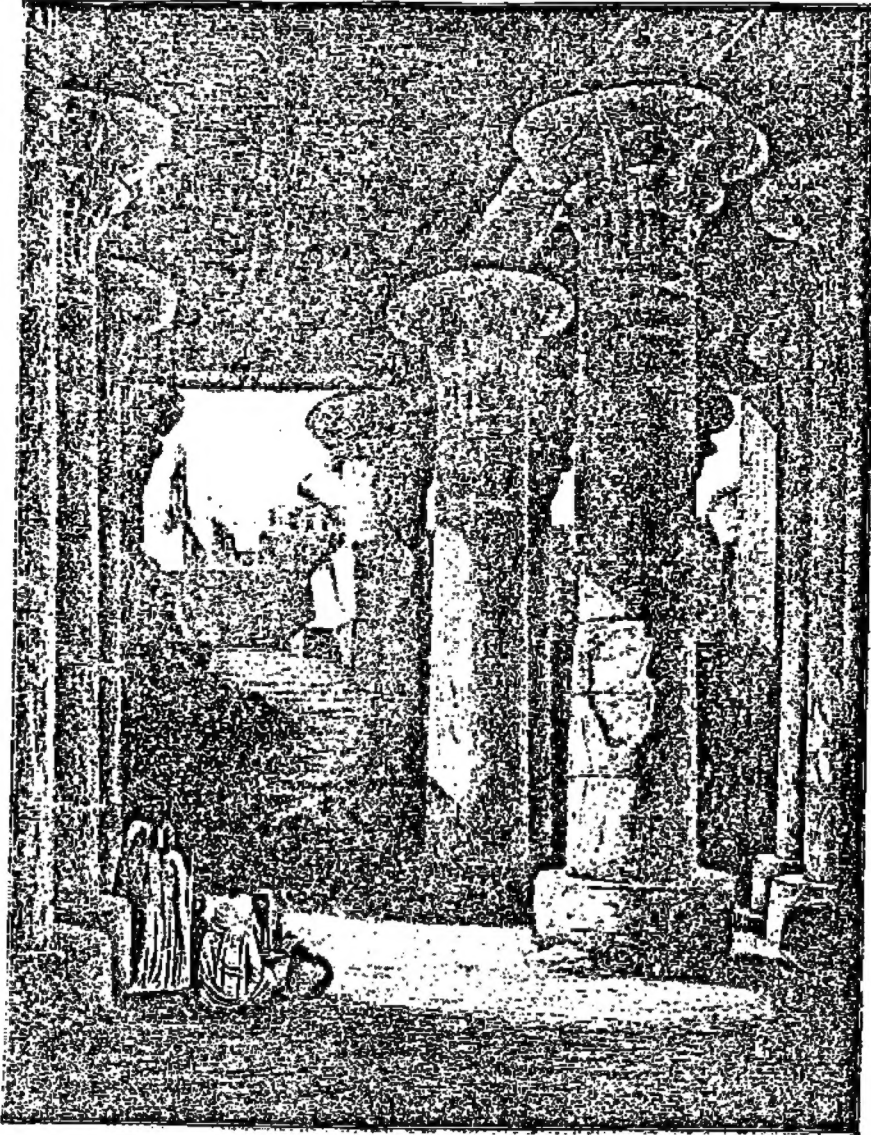
رَاجَعَهُ وَصَحَّحَهُ

مُحَمَّدُ حَسَنُ بْنُ الْغَمْرَاوِيِّ بَاكِ

مَكْتَبَةُ مَدْبُولِي

الْعِيسَاةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الساحة ذات العمود بمعبد إسنا



الملك فؤاد الأول

مقدمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القديم المتعال . وبعد : فلما اشترأت نفوس المصريين الى الاطلاع على أسرار تاريخهم الجليل ، رأيت أن أقدم لهم سفرا يروون به ظمأهم ، ويشتقون به أذهانهم ؛ ومن دواعي الأسف أنه لا يوجد بين مصنفاتنا العربية الحديثة ما يسد فواغ هذا السفر . نعم ان المرحومين أحمد كمال باشا وأحمد نجيب بك وضعا كتابين قيمين في هذا الموضوع سماهما "العقد الثمين" و"السفر الجليل" منذ نحو ثلاث وأربعين سنة ، غير أن تقادم العهد عليهما ، أفقدهما ما كان لهما من المنزلة السابقة ، لكثرة توالي الاستكشافات الأثرية منذ ظهورهما .

ولما أردت القيام بهذا العمل سألت «الأستاذ برستد» مديرالقسم الشرقي بجامعة شيكاغو ليسمح لي بترجمة سفره الى العربية ، فأظهر جنابه في ذلك ارتياحا واستعدادا للمساعدة . ولا يخفى أن هذا الكتاب فذ في نوعه باعتراف المؤرخين الغربيين ، فهو لذلك مرجع علمي قيم ، وعلى كل حال فاننا نؤكد للقارئ مقدما أنه سيجد في هذا السفر ضالته المنشودة . وفقنا الله للصواب ما

الدكتور حسن كمال

مقدمة المؤلف

كانت الزيادة المطردة للسياح الوافدين الى القطر المصري في شتاء كل سنة باعثا لى على وضع كتاب في تاريخ هذا القطر، يتفق تماما هو والاستكشافات المصرية، والمعلومات الأثرية الحديثة؛ وليس هؤلاء السياح السعداء وحدهم هم الذين تأقت نفوسهم الى مصر، بل هناك فريق آخر من رجال العلم انشأت اعناقهم لمعرفة أهمية الشرق القديم، وتأثيره في التاريخ البشرى. ولا يخفى أن العالم الغربي مدين بكثير من علومه وآدابه الى أهالى وادى النيل، كيف لا وهم الذين زودوا أوروبا بالجنوبية بالمدينة والمعارف، فأخذت هذه تنتشر شمالا متبعة سير النيل الى أقاليم البحر الأبيض المتوسط . والمعينة الواحدة التي حالت دون وصول حضارة بابل الى أوروبا هي عدم اتصال القرات بالبحر الأبيض المتوسط، إذ لولا ذلك لأصبح العالم الغربي مدينا لبابل بمقدار ما هو مدين لمصر القديمة . وهكذا صارت مصر أقدم وأهم المراكز التي على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، كيف لا وقد اجتمعت فيها السيادة الحربية والمدنية، من أقدم عصور التاريخ الى ظهور مدينتنا وحضارتنا الحديثتين . ولقد كان من أهم واجباتنا المقدسة ونحن من سلالة سكان أوروبا الأقدمين، أن نرفع الستار ونزيل الحواجز التي تحجب عنا حوادث العصور السالفة، تلك العصور التي تسلم فيها أجدادنا ودبعة هذا التمدن الحديث . وهناك فريق ثالث وهم العلماء الروحانيون يهتمهم معرفة تاريخ مصر القديم، ليتبحروا في دراسة العهد القديم من الكتاب المقدس . لذلك جعلت نصب عيني عند وضع هذا الكتاب، استيفاء أغراض قارئيه على اختلاف مراتبهم، لئتم فائدته فلا تقتصر على فريق دون سواه .

في وضع هذا الكتاب اتبعت طريقة معينة ميزته عن أمثاله من كتب تاريخ مصر القديم . ولا يخفى أن معلوماتنا عن التاريخ القديم لسكان وادى النيل ضئيلة ومن الصعب علينا التوليف بينها كما سيأتى الكلام فيما بعد (راجع صحيفة ٢٣ والفقرات ٣-٢٢ من الجزء الأول من كتابي المسمى "نصوص مصرية قديمة") . ومن السهل الحصول على معظم هذه المعلومات لأنها مطبوعة ومعروضة في كل المكتبات الأثرية، لكن معظم هذه المطبوعات ظهرت قبل التحقق من محتوياتها، والتأكد من أخبارها وقصصها المنقولة عن القدماء^(١) . وليس لي القارئ أن أذكره بأن نسخ النقوش الأثرية بدقة ليس بالأمر الهين، انا أريد تجنب الخطأ والاحتراس من النسيان . حذ مثلا ما أتاه الأستاذ «رسكن» (Ruskin) من الخطأ الفاحش لما دؤن في كتابه الفريد المسمى "أيام بمدينة فلورنس" (Mornings in Florence) بعض نصوص وجدها على لوح من الرخام بمقبرة استحسنتها في كنيسة "سانتا كرومي" ومع أن هذه النصوص قليلة لم تتجاوز الثمانية الأسطر لما قارنتها بالأصل، وجدت بها

(١) ما على هذا المكان من الكلام منقول من كتابي المسمى نصوص مصرية قديمة "Ancient Records of Egypt"

(ح)

خطأ في هجاء إحدى الكلمات وأسقاط كلمتين (et magister) من النصوص اللاتينية الأصلية التي يرجع تاريخها إلى القرون الوسطى للعهد اللاتيني . ولا يخفى أن حصول مثل هذا الخطأ من عمدة في قته كالأستاذ «رسكن» برهان كبير على جواز ما يقع فيه غيره من العلماء المدققين وقت قراءتهم لأي نصوص قديمة . واليك مثلاً آخر يزيدك تأكيداً : ذلك أنه بالرغم من طبع نصوص «بولتارخ» (Politarach) عدة مرات واختلاف كل طبعة عن الأخرى في قطع مهمة متعددة، فإنتا لم تفصل إلى معلومات صحيحة إلا بعد ظهور الطبعة المنقحة . وهاك مثلاً ثالثاً يتناول نسخ النقوش اليونانية واللاتينية التي وجدت على قطعة البرز في قاعدة مسلة نيويورك، فإن هذه النقوش قرئت أولاً خطأ من زمن بعيد، واستمر الأثريون يتداولونها بهذه الصورة حتى أتى «مومسن» (Mommsen) واتخذ تلك القراءة غير الصحيحة أساساً على عليه إحدى نظرياته بشأن ولاية الرومان الأولى في مصر . لهذه الأسباب قلت ثقة القوم في النقوش الهيروغليفية التي نسخت وقت حل غوامض ذلك الخط ، ما لم يكن الناصح لها رجلاً أثرياً مشهوراً بدينه وعيانيته . والسبب في ذلك يرجع إلى عدم التدقيق بادئ الأمر، ولولا ذلك الإهمال ما بقى للخطأ أثر في مؤلفات هذا الفن، ولكن استمرار الحال كما ذكرنا أكثر من الخطأ في المصنفات الأثرية . والحق يقال إن بعضاً من المصنفات الحديثة خلا من الخطأ والسهو لشدة العناية والدقة اللتين بذلتا فيها . ومن دواعي الأسف أنه ليس في كتب اللغات القديمة من الخطأ أو السهو مثل ما زحرت به مؤلفات اللغة الهيروغليفية وآثار مصر القديمة .

لهذه الأسباب الجوهرية كنت دائماً أرجع في كل ما أكتبه عن تاريخ مصر القديمة إلى المظان الأصلية ، لأقترب من الحقيقة جهد الاستطاعة . ولا يخفى أن هذا العمل تطلب مني سنوات عدة، أمضيتها في الفحص عن المجموعات الأثرية في عواصم أوروبا جميعها . وكان أعظم مساعد لي في ذلك ما قامت به البعثة العلمية التي صوّرت جميع النقوش المصرية القديمة المحفوظة بمتاحف أوروبا ، والتي كلفت هذا العمل من قبل أربعة معاهد علمية ملكية ألمانية (هي معاهد برلين وليبتج وجوتينجن وميونخ) للتمكن من عمل معجم تام للغة المصرية القديمة . ثم تعطف جلالته لبراطور ألمانيا بمساعدة هذا المشروع من الوجهة المالية لسرعة إنجازها . ومن النسخ التي جمعها هذه البعثة واجعت جميع النصوص التاريخية المصرية التي بأوروبا . أما من حيث النصوص الهيروغليفية المحفوظة بمصر، فقد اعتمدت على ما نسخته من نقوشها التاريخية، ولا سيما نصوص طيبة وتل العمارنة ودار الحف المصرية . وأما النصوص المحفوظة بمصر، التي تعذر على نسخها، فقد اعتمدت لأجلها نسخ الأستاذ «ليسيوس» المحفوظة بدار التحف ببرلين . وتمكنت من معرفة النصوص الأثرية التي في جهات أخرى، بإطلاعي على نسخ تلك النصوص، التي جمعها أعضاء البعثة الأثرية الألمانية، القائمة بعمل المعجم الهيروغليفي الضخم المشار إليه سابقاً . ونسخ لي بعض الأصدقاء الأثريين نقوشاً هيروغليفية كان من الصعب «دلي» الوصول إليها . وطلبت كذلك صوراً شمسية مكبرة لنصوص أثرية بعيدة الوصول ومستحيلة النسخ . وفي حالة تعذر وصولي إلى بعض النصوص الأثرية بالطرق السالفة، كنت أتعهد على المطبوعات الحديثة الدقيقة الحاوية لها، لأن الخطأ في مثل هذه الكتب غير متظر . هكذا تمكنت من جعل مؤلفي مطابقاً لما ورد بصحيح الآثار المعروفة الآن .

(ط)

وبالرغم من تقدم علماء الآثار في اظهار غوامض اللغة المصرية القديمة، فان معلوماتنا التاريخية لم تتأثر بذلك، لأن هذا التقدم اللغوي لا تنتظر منه أية ثمرة تاريخية، ما لم تراجع جميع النصوص المصرية القديمة بدقة تامة ، ثم تترجم ترجمة جديدة .

ولقد قمت بهذه الجهود فترجمت جميع النصوص التاريخية التي توصلت اليها بالطرق المذكورة، وراغبت في ترجمتها أحدث المعلومات، متخذاً طريق الحياذ التام ، فلم ألتجأ الى ترجمة سابقة لأحد النصوص إلا بعد فراغى من ترجمته .

بعد ذلك جمعت هذه التراجم ورتبتها على حسب القدم، مبتدئاً بأقدمها عهداً، ومنتهياً بنصوص العهد الذي فقدت فيه مصر استقلالها عندما غزاها الفرس عام ٥٢٥ قبل الميلاد ، وشغفت هذه المباحث بمقدمات تاريخية وملاحظات تفسيرية، وسميتها "نصوص مصرية قديمة" (١) بعد طبعها . هكذا يشرئ لكل مالم باللغة الانجليزية الاطلاع على تراجم جميع النصوص الأثرية المشتتة في مئات المطبوعات التي لا يتيسر اقتناؤها ، وسهلت عليه معرفة مرجع كل حقيقة تاريخية يريد استطلاعها . وقد جاءت هذه التراجم في أربعة أجزاء، وانى أحيل القارئ الى الملاحظات التي بأسفل كل صحيفة ، كلما تطلب الأمر ذلك ، والأرقام السوداء تشير الى الأجزاء والصغيرة التي تليها تشير الى الفقرات . بهذه الطريقة أمكننى أن أحيل القارئ الى مراجع الكتاب الأصلية، الموجودة بكتابى المسمى "نصوص مصرية قديمة" متجنباً ذكر المصادر التاريخية بالطرق العقيمة المتبعة في بعض الكتب ، ومجتهداً في الوقت نفسه أن أصل ذهن القارئ بسلسلة المباحث التاريخية اللازمة .

ومن رأى أن قراء هذا الكتاب ينقسمون الى ثلاثة أقسام : قسم يطالعها بلا اهتمام الى مراجعته المدونة في أسفل صحفه، فيفهم مضمونه بدون أن يستفيد من مراجعته . والقسم الثانى كثير الاهتمام بمراجع الكتاب فقط، قليل الاهتمام بما حواه من الاستنتاجات والملاحظات . أما القسم الثالث فكثير الاهتمام بالتحقق والتثبت من تلك المصادر ، ومراجعة الأصول ومقارنتها بمتحويات هذا الكتاب . وبديهى أن القسم الأخير هو الأكثر استفادة مما بذله المؤلف من جهود الجمع والترجمة في كتابه "نصوص مصرية قديمة" لكن قراء القسم الأخير أقل عدداً من القسمين السابقين . واذا أراد القارئ أن يتأكد من عظم الفائدة من جمع تلك النصوص الأثرية وترجمتها ترجمة جديدة ، وتأثير ذلك في معلوماتنا الأثرية الحديثة، فليقارن هذا الكتاب بكتابى المسمى "نصوص مصرية قديمة" ليتحقق أن النتائج الجديدة التي اهتدى اليها المؤلف من مباحثه العلمية ، كافية وحدها لإظهار قيمة هذا العمل الفذ .

ولم أتعرض كثيراً في مؤلفى هذا لطرق باب علم العاديات بالإقدام والصبر اللذين بذلتهما في نسخ ترجمة النصوص التاريخية القديمة ، لأن علم العاديات لا يزال في حدائنه والكتب العلمية المؤلفة فيه

(١) See *Ancient Records of Egypt: The Historical Documents*, by James Henry Breasted, University of Chicago Press, Chicago, 1906. Volume I, *The First to the Twentieth Dynasty*. Volume II, *The Eighteenth Dynasty*. Volume III, *The Nineteenth Dynasty*. Volume IV, *The Twentieth to the Twenty-sixth Dynasties*. Volume V, *Indices*.

قليلة جدا بالنسبة لمبحثه العظيم السامى . وعلى كل فقد دقت المعلومات التى استتجتها من النصوص القديمة . ونفس كل باحث متضلع فى علم العاديات واللغات الشرقية القديمة تتعشق الوصول الى نتائج باهرة ومعلومات قيمة عن قدماء المصريين . أما من جهة الديانة المصرية فقليلة معلوماتنا عنها لم أتمكن من استيلاء مراجعة التراجم لنصوصها القديمة . واعلم أن البحث فى هذا الموضوع حديث العهد ولا بد أن تمضى مدة طويلة قبل الوصول الى حقائق ثابتة تمكن من التبحر والتغلغل فى ثناياه . ولم أسهب الكلام عن الديانة المصرية الا فيما يتعلق بمهد تل العمارنة وعبادة الشمس ، لأننى نسخت النصوص المتعلقة بهذين الموضوعين وترجمتها ، وأوردت منها ما أمكننى استنتاجه . وانى أعظم هذه الفرصة لأظهر اعجابى بكتاب الأستاذ «إرمن» (Erman) الذى وضعه فى الديانة المصرية القديمة المسمى (Handbuch) والذى سأحيل اليه القارئ مرارا لأنه مرجع وثيق فى هذا المبحث ولا يزال كتاب (Aegypten) الذى وضعه الأستاذ «إرمن» أيضا عمدة الكتب فى وصف قدماء المصريين وأحوال معيشتهم ، ولو أنه مر على ظهوره عشرون سنة ، فكان هذا المجلد خير معين لى فى وضع كتابى هذا . وهانذا أقدم بالشكر فى هذا المقام الى الأستاذ «إدوارد ماير» (Eduard Meyer) على مساعدته العظيمة فى ضبط مواقيت التاريخ ولا سيما القديمة منها ، وعلى بياناته القيمة التى ساقها بخصوص العهد الصاوى ، الواردة فى كتابه المسمى (Geschichte des alten Aegyptens) . ولقد كانت مؤلفات الأستاذين «ماسيرو» و«فيدمان» خير معين لى أيضا من الوجهة التاريخية والماضية ، حتى اضطررت أن أهب ذلك فى مقدمة كتابى "نصوص مصرية قديمة" . ولبهيبى أتى كسواى من المؤرخين مدين كثير المباحث الأستاذ «وينكلر» (Winckler) المتقنة الفذة الخالصة بخطايات تل العمارنة .

هذا وانى أقدم بالشكر الجزيل الى أصدقائى وزملايى لما أرسلوه لى من الصور الشمسية والأشكال التخطيطية وغيرها ، وأخص بالذكر منهم صديقى الأستاذ «شيفر» بيرلين والأستاذة «بورخارت» وشيندورف وبترى وزان وسرشمث والقس ما كرىجى بمدينة تامورث والدكتور كارولين رانسوم . ولقد سمح لى أصحاب محل «أندروود و أندروود» لأثبت فى هذا الكتاب الصور الأستريوسكوبية للأثار المصرية التى استعرتها منهم فاستحقوا على ذلك شكرى الجزيل . والحق يقال ان هذه الصور جزيلة الفائدة لكل ساحق تسنح له الفرص بزيارة وادى النيل لأنها تساعده كثيرا على درس تاريخ ذلك الوادى درسا لا يقل أهمية عن مباحثه العالمة . وأخيرا أراينى مضطرا لأن أعترف بما أسداه لى المستر «جون وورد» من مدينة لينوكس قيل جهة بلقاست بارلنده من الصور الشمسية البدئية للحفائر الحديثة التى عملت بالكرك، والتي أثبت بعضها فى هذا الكتاب . وهى رسوم جميلة اذ كرمنا على سبيل المثال صورة الشارع الفسح المنسوب على جانبيه تماثيل الكباش ذات الرقم ١٢٩ فى هذا الكتاب .

ويرجع الفضل فى وضع الخريطةين ٦ و ١١ فى هذا الكتاب الى «المركارل بيديك» بلينزج لأنه سمح لى باستعارتهما من كتابه الفذ "دليل مصر" الذى لا يمكن أى سائح لمصر أن يستغنى عنه اذا أراد زيارة

(ك)

وإدى النيل والوقوف على آثاره من الوجهة العلمية، وإنى مضطرب فى هذا المقام أن أبدى جزيل تشكراتى لموظفى دور الصحف يبرلين ولندره (كدار تحف لندره ودار تحف جامعة لندره ومجموعة الأستاذ پترى) وپاريز (اللوهر والمكتبة الأهلية ودار تحف جويميه) وينا (هوف ميوزيوم) وليدن وميونخ وروما (دار تحف الفاتيكان ودار تحف الكابولين) وفلورنس وبولونيا وناپولى وتورين ويزا وجنيف وليون وليفرپول وغيرها لما قدموا لى من المساعدة فى مباحثى العلمية، وهناك شخصان تكرما على بمراجعة تجارب الطبع لهذا الكتاب وهما المستر «ر. س. پدان» و«المس إيموجن هارت»، فاستحقا لذلك جزيل الثناء، أما زوجتى فقد قامت بمساعدتى خير قيام فى كل ما أمكنها أداءه نحوى.

وإنى ليسرتنى أن أتمدح بالعتاية العظيمة والحرص المتناهى اللذين قام بهما معهدو نشر هذا الكتاب، فقد بذلوا من الجهود فى تحسينه وإبداع صوره وأشكاله ما لا يحتاج الى بيان وإيضاح ما

جيمس هنرى بريستد

خليج ولينز بمقاطعة ويسكونسن

أول شببر سنة ١٩٠٥

مباحث الكتاب

الكتاب الأول - المقدمة

صفحة	
١	الفصل الأول - أرض مصر
٧	» الثاني - نظرة عامة في تاريخ مصر القديم ، توفرت التاريخ ، مراجع التاريخ
١٧	» الثالث - مصر قبيل حكم الأسرة

الكتاب الثاني - المملكة القديمة

٢٥	الفصل الرابع - الديانة القديمة
٤٩	» الخامس - المملكة القديمة : الحكومة ، المجتمع ، الصناعة ، الفنون
٧٣	» السادس - عصر الأهرام
٨٥	» السابع - الأسرة السادسة : اضمحلال المملكة القديمة

الكتاب الثالث - المملكة الوسطى ، عهد الانقطاعات

٩٧	الفصل الثامن - اضمحلال منف و بزوغ شمس طيبة
١٠٣	» التاسع - المملكة الوسطى أو عهد الانقطاعات : الحكومة ، المجتمع ، الديانة
١١٥	» العاشر - الأسرة الثانية عشرة

الكتاب الرابع - الهيكسوس : بزوغ شمس الامبراطورية

١٣٧	الفصل الحادي عشر - انهيار مصر المملكة الوسطى ، الهيكسوس
١٤٥	» الثاني عشر - طرد الهيكسوس وانتصار طيبة

الكتاب الخامس - الامبراطورية في دورها الأول

١٥٣	الفصل الثالث عشر - الحكومة الجديدة : الاجتماع ، الديانة
١٦٧	» الرابع عشر - توطيد أركان المملكة ، سطوح شمس الامبراطورية
١٧٥	» الخامس عشر - شقاق السومريين وحكم المملكة حمنشوبوت
١٨٧	» السادس عشر - توطيد أركان الامبراطورية : نحوتمس الثالث
٢١٣	» السابع عشر - عهد الامبراطورية
٢٣٥	» الثامن عشر - ثورة اخناتون الدينية
٢٥١	» التاسع عشر - سقوط اخناتون وتفكك مري الامبراطورية

الكتاب السادس - الامبراطورية في عهدها الثاني

٢٦٧	الفصل العشرون - انتصار آمون وتنظيم الامبراطورية
٢٨٣	» الحادي والعشرون - حروب رمسيس الثاني
٢٩٧	» الثاني والعشرون - امبراطورية رمسيس الثاني
٣١٣	» الثالث والعشرون - اضمحلال الامبراطورية النهائي : مفتاح رمسيس الثالث

(ن)

الكتاب السابع - دور الاضمحلال

صفحة	
٢٤١	الفصل الرابع والعشرون - سقوط الامبراطورية
٢٥٢	» الخامس والعشرون - الكهنة والجنود المأجورة : سيادة البيزنطيين
٢٦٢	» السادس والعشرون - سيادة ابيوتيا على مصر واتساع آشور

الكتاب الثامن - دور الاصلاح والنهاية

٢٨١	الفصل السابع والعشرون - دور الإصلاح
٢٩٢	» الثامن والعشرون - الكفاح التباقي : بابل وفارس

قائمة بأسماء ملوك مصر ومدد حكمهم ٤٠٢

تفسير ما يلي كل صفحة من الملاحظات

الأرقام السوداء (١ و ٢ و ٣ و ٤) تشير إلى أجزاء كتاب "نصوص مصرية قديمة". أما الأرقام الصغيرة (١ و ٢ و ٣ و ٤) التي تليها فتشير إلى رقم الفقرات بذلك الكتاب .

(ب) تشير إلى كتاب الأستاذ بروكش المسمى "Thesaurus."

(م) « ماسيرو » « Recueil de Travaux.»

(و) « ده ووجه » « Inscriptions Hiéroglyphiques.»

بيان أشكال الكتاب

سليمة صدر الكتاب ، الساعة ذات السد مجيد إسنا

صفحة	شكل
٢	١ - أحد مجارى الشلال الأول
٢	٢ - فيضان النيل على الأرض كما يشاهد من طريق أهرام الجيزة
٦	٣ - منظر النيل والمصنوع غرب طيبة (الأقصر)...
٦	٤ - أكواخ الأحالي وأدغال النخيل ، جوار سبب المكنك بطينه
٨	٥ - منظر لوادى النيل من مدينة إدفو
١٠	٦ - ثلاثة شواذيف مستصلة لرى الأراضى
١٠	٧ - مصنوع وادى النيل غرب طيبة
١٨	٨ - أقدم رسوم معروفة للآت
٢٠	٩ - أسلحة من حجر صوان ، يرجع تاريخها الى ما قبل حكم الأسر
٢٠	١٠ - أوان خزفية منقوشة ، يرجع تاريخها الى عهد سابق لحكم الأسر
٢٠	١١ - أوان خزفية ، يرجع تاريخها الى عهد سابق لحكم الأسر تشاهد عليها قروش محفورة لسفن وحيوانات ورجال ونساء...
٢٢	١٢ - قبر يرجع تاريخه الى زمن سابق لحكم الأسر
٢٢	١٣ - قضيب من الذهب منقوش عليه اسم الملك مينا
٢٢	١٤ - أوان صرمرية ، يرجع تاريخها الى عهد الأسرة الأولى
٢٢	١٥ - أرجل كراسى مصنوعة من العاج المنحوت ، يرجع تاريخها الى زمن الأسر الأولى
٢٢	١٦ - أوان نحاسية ، يرجع تاريخها الى زمن الأسرة الأولى
٢٤	١٧ - أربع أساور على ذراع سيدة ، يرجع تاريخها الى زمن الأسرة الأولى
٢٤	١٨ - أحد ملوك الأسرة الأولى يشق الأرض احتفالاً بخرقة جديدة
٢٤	١٩ - لوح بديع النقش يمرض فى الاحتفالات مصنوع من حجر الأردواز
٢٦	٢٠ - صورتان شمينتان لرأس نمال الملك حاسم ماعوذتان من ناحيتين مختلفتين
٢٦	٢١ - نمال الملك حاسم المقودر رأسه فى شكل ٢٠
٢٦	٢٢ - حجرة قبر الملك إزيب المنطاة أرضها بالنحش والبنية بالبن
٣٠	٢٣ - قبر الملك يوسفائس المبنى بالبن
٣٠	٢٤ - جوات منحوتة لفظ المأكلى والمشرب

صفحة	شكل
٣٠	٢٥ - أقدام بناء حجرى فى العالم
٣٠	٢٦ - لوح من العاج الملك يوسفائس
٣١	٢٧ - لوح من العاج لملك مينا ، أول ملوك الأسرة الأولى ، وجد بالرافية ويرجع تاريخه الى حوالي سنة ٣٤٠٠ قبل الميلاد
٣١	٢٨ - الملك سمرخت من الأسرة الأولى يضرب بدويا من طورسيناه
٣٢	٢٩ - حجر بالرو
٣٧	٣٠ - البقرة الملكية
٣٧	٣١ - إلهة السموات
٣٩	٣٢ - السفينة الفلكية لعبود الشمس
٣٩	٣٣ - صورة تمثل عدة مصاطب (مقابر) كاملة البناء ، يرجع تاريخها الى عهد المملكة القديمة
٤٥	٣٤ - رسم سطحي لإحدى المصاطب
٤٨	٣٥ - صورة تمثل أهرام أبو صير وما جاورها من الأبنية الأثرية كاملة الترميم
٥٢	٣٦ - جمع الضرائب بواسطة موظفى المالية
٥٨	٣٧ - قصر وحديقة لنيل مصرى من عهد المملكة القديمة
	٣٨ - نيل من عهد المملكة القديمة يصطاد وحش الطير بمضى صغيرة وهو واقف فى سفينة من القصب تختر فى مستنقعات البردى
٥٩	٣٩ - الزراعة فى عهد المملكة القديمة
٦٠	٤٠ - قطع من الهام يخوض غدرا فى عهد المملكة القديمة
٦١	٤١ - حرايت الساكن فى عهد المملكة القديمة
٦٢	٤٢ - صناعة السفن فى عهد المملكة القديمة
٦٣	٤٣ - تحت الأواني الخفية فى عهد المملكة القديمة
٦٥	٤٤ - صيد البردى فى عهد المملكة القديمة
٦٥	٤٥ - رسم لعدوين مأخوذ من ورقة رسمية ، يرجع تاريخها الى عهد المملكة القديمة
٦٤	٤٦ - منظر لسوق فى عهد المملكة القديمة
٦٤	٤٧ - عقد ، يرجع تاريخه الى الأسرة الثالثة
٦٤	٤٨ - تمثال خفرن (خفرع) مصنوع من الحجر الصوان
٦٤	٤٩ - تمثال رع نوفر مصنوع من الحجر الجيري
٦٦	٥٠ - تمثال حم ست مصنوع من الحجر الجيري
٦٦	٥١ - رأس تمثال خشى لشيخ البلد
٦٦	٥٢ - تمثال لكاتب من الحجر الجيري من عهد المملكة القديمة
٦٨	٥٣ - تمثالان لبي الأول وابنه يتلاهما بحجمهما الطيبى مصنوعان من النحاس المطروق
٦٨	٥٤ - رأس تمثال بى الأول المنسوع من النحاس وحيث يظهر أنها مصنوعتان من البلور الصخرى
٦٨	٥٥ - رسم إوز مأخوذ من مقبرة بميدوم ، يرجع تاريخها الى عهد المملكة القديمة
	٥٦ - رسوم بارزة على جدران إحدى المصاطب من عهد المملكة القديمة يشاهد فيها قطمان الهام وأسراب الطيور
٧٠	٥٧ - رأس أسد مصنوع من الجرانيت
٧٠	٥٨ - رأس فردهى وجد بمدينة الكاب
٧٠	٥٩ - صورة بارزة على لوح خشى لشخص يقال له حسى رع

صفحة	شكل
٧٠	٦٠ - صورة عمودين للأسرة الخامسة ، الأيمن مصنوع على شكل نخلة والأيسر على شكل طاقه من البردي
٧١	٦١ - صورة تمثل نصب العمد المحيطة بساحة معبد هرم نصير الذي يرجع تاريخه الى الأسرة الخامسة ...
٧٢	٦٢ - مصطبة مشيدة باللبن جهة بيت الخلاف ، يرجع تاريخها الى عهد الملك زوسر
٧٢	٦٣ - الهرم المدرج لملك زوسر بمقاره
٧٢	٦٤ - هرم جهة ميدوم ، يبنى الى الملك سفرو
٧٥	٦٥ - نصوص صخرية بوادى منارة بطورسيناء ، يرجع تاريخها الى زمن الملك أمنمحت الثالث ، اعثر فيها الملك سفرو أحد معبودات تلك الجهة
٧٤	٦٦ - صورة بقايا الصخور الكاسية لقاعدة الهرم الأكبر أروخ فيها بالخطوط السوداء موانع اتصال تلك الصخور بعضها ببعض ويصعب رؤيتها لدة البناء وازدياد نعومة تحت الأوجه الثلاثة
٧٦	٦٧ - هرم الجيزة الأكبر لك خوفو (كيوس)
٧٨	٦٨ - أهرام الجيزة
٧٨	٦٩ - ساحة مشيدة بالحراييت عند المدخل الأثرى العظيم الذى أقامه الملك خفرع
٨٠	٧٠ - أبو الهول العظيم بالجيزة
٨١	٧١ - صورة لمعد الشمس جهة نصير بالقرب من أبو صير ، بعد الترميم
٨٢	٧٢ - نقوش بارزة بمعد الشمس جهة نصير بالقرب من أبو صير
٨٤	٧٣ - بقايا هرم أونيس بمقاره ، من آثار الأسرة الخامسة
٨٤	٧٤ - صورة شمسية بلزيرة القبيل (الفاتنين) مسقط رأس أمراء حدود مصر الجنوبية
٩٠	٧٥ - تمثال قزم من عهد الامبراطورية القديمة
٩٢	٧٦ - مقبرة حرخوف بأسوان
٩٢	٧٧ - رأس مومياء الملك مرنرع بدار التحف بالقاهرة
٩٢	٧٨ - صنوبر أسيرط الغربية
١٠٤	٧٩ - ادارة الأمير خنوم حوتب ، بنى حسن
١٠٥	٨٠ - صورة تمثال كبيرين المرمر ارتفاعه اثنان وعشرون قدما مقنول على زحافة يحجزها بالجمال مائة وسبعون واثان من الرجال مصطفين أربعة صفوف
١١٠	٨١ - صورة شمسية لتابوت ميت واثان مقبرة من عهد الملكة الوسطى
١١٠	٨٢ - سفينة للاك سيزوستريس الثالث وجدت بهرمه جهة دهشور
١١٩	٨٣ - صورة تمثل قلعي سمته وقه ، بعد الترميم
١٢٠	٨٤ - صورة شمسية لهر النيل باقليم النوبة مأخوذة من أعالي الحصون الاسلامية المهلمدة جهة ابريم
١٢٠	٨٥ - بقايا مناجم الملكة الوسطى جهة صربوط الخادم بطورسيناء
١٢٤	٨٦ - منظر بركة تارون بالجهة الشمالية الغربية بالنيوم
١٢٤	٨٧ - مملكة سيزوستريس الأول بمدينة عين شمس
١٢٤	٨٨ - تمثال خشبي للامير اوب رع بدار التحف بالقاهرة
١٢٦	٨٩ - صورة أمنمحت الثالث مأخوذة من تمثاله المصنوع ببيتة أبى الهول جهة تيس
١٢٦	٩٠ - النصف العلوى لتمثال أمنمحت الثالث بدار التحف بماصحة روسيا
١٢٦	٩١ - هرم سيزوستريس الثانى جهة اللاهون مشيد باللبن
١٢٨	٩٢ - صورة لقطع رأسى هرم هواره تظهر علاقة حجره المومياء بسائر أجزاء الهرم
١٣٠	٩٣ - منظر مأخوذ لمعد تيس فى اتجاه محوره

صفحة	شكل
١٣٠	٩٤ - حجرقة هرم أمنمحت الثالث بدهشور
١٣٠	٩٥ - صورة شمسية لثلاثة تماثيل مصنوعة من الحجر الجيري لأمنمحت الأول وجدت مع سبعة تماثيل أخرى من نوعها بأهرام هذا الملك جهة لشت
١٣٤	٩٦ - تيارى يعزف للعودين
١٣٤	٩٧ - اكليل لإحدى أميرات الأسرة الثانية عشرة وجد بغيرها جهة دهشور
١٣٤	٩٨ - اكليل لإحدى أميرات الأسرة الثانية عشرة وجد بغيرها جهة دهشور
١٤٠	٩٩ - العثور على تماثيل الملك نفرخارع سيكحوتب بجزيرة أذكوأهل الشلال الثالث
١٤٠	١٠٠ - صورة شمسية لموميا ملك يقال له سكنرع مصابة بكسر بالجحمة ، محفوظة بدار التحف بالقاهرة
١٤٠	١٠١ - الجزء الأسفل من تماثيل مصنوع من الحجر الجيري يمثل الملك غيان جالسا
١٤٦	١٠٢ - منظر لمدية الكاب المسورة مأخوذة بألة التصوير الشمسي من مدخل إحدى المقابر بالصحراء الشرقية المشرفة على المدينة
١٤٦	١٠٣ - أسلحة الملك أحمس الأول مصنوعة من البرنز
١٥٤	١٠٤ - إحدى وحدات الجيش المصرى مسلحة بالحراب من عهد الامبراطورية
١٥٤	١٠٥ - صورة لربة من عهد الامبراطورية
١٦٤	١٠٦ - تماثيل صغيرة للاجابه من الميت في الآخرة يقال لها باللسان المصرى القديم "أوشبى"
١٦٤	١٠٧ - تماثيل بلعمران وضع فوق قلب إسمخب رئيسة سيدات آمون المقدسة
١٦٤	١٠٨ - منظر لجهة من وادى مقابر الملوك بطيبة
١٦٤	١٠٩ - رسم تخيلى لمقبرة سيني الأول بوادى مقابر الملوك بطيبة
١٧٢	١١٠ - دهليز مقبرة رمسيس الخامس بطيبة
١٧٢	١١١ - تماثيل جالس لسنبوت محطى الملكة حتشبسوت
١٨١	١١٢ - بعض المناظر الفنية الخاصة ببلاد الصومال (بونت) منقوشة على جدران الدير البحرى بطيبة
١٨٤	١١٣ - سلسلة السد الثمانية المتصلة بالدهليز الأوسط لعبد الملكة حتشبسوت المسى بالدير البحرى بطيبة
١٨٤	١١٤ - مسلات الملكة حتشبسوت بالكركك
١٩٤	١١٥ - منظر لواجهة آمون المعروفة الآن بسيره
١٩٤	١١٦ - مسلة تحوتمس الثالث
١٩٤	١١٧ - قائمة بأسماء المدن الآسيوية التى استولى عليها تحوتمس الثالث
١٩٨	١١٨ - أحد فرائض الامبراطورية المصرية يقابل رسله الآسيويين الحاملين من بينهم
٢٠٤	١١٩ - الأمري الآسيويون بمصر فى عهد الامبراطورية
٢١٦	١٢٠ - صورة شمسية لموميا تحوتمس الثالث
٢١٦	١٢١ - صورة شمسية لموميا أمنحيب الثانى بجبل تحوتمس الثالث
٢١٦	١٢٢ - صورة شمسية لموميا تحوتمس الرابع بجبل أمنحيب الثانى
٢١٦	١٢٣ - أحد خطابات تل الهامة رقم ٢٩٦
٢٢٥	١٢٤ - شكل يمثل ملابس عهد الامبراطورية
٢٢٦	١٢٥ - معبد صغير محاط بحد
٢٢٧	١٢٦ - رسم هندسى يمثل تفاصيل المعابد ذات الصروح فى عهد الامبراطورية
٢٢٨	١٢٧ - جزء من امام وجد بجزيرة كريت عليه نقوش منحوتة
٢٢٨	١٢٨ - ساحة أمنحيب الثالث ذات الصند التى على شكل باقات براعم البردى
٢٢٨	١٢٩ - عرفسيح أمام معبد الكركك العظم مقام على جانبيه تماثيل كياش عديدة

صفحة	شكل
٢٣٢	١٣٠ - عهد صحن مبيد أمحتب الثالث الذي لم يكمل بناؤه
٢٣٤	١٣١ - تماثيل خنجان مصنوعان من الحجر الرملي يمثلان أمحتب الثالث ووبرقان الآن يمثلان عنون
٢٣٨	١٣٢ - منظر جنازة كاهن عظيم من منف
٢٤٠	١٣٣ - تمثال أسد وجد بمبيد أمحتب الثالث جهة صليب
٢٤٠	١٣٤ - كرسي من عهد الامبراطورية
٢٤٠	١٣٥ - مقدم عربة تحمّل الراعي الرسمية
٢٤٢	١٣٦ - تمثال يوضح الهيئة الملكية في عهد الامبراطورية
٢٤٢	١٣٧ - صورة تمثال أمحتب بن حسي
٢٤٢	١٣٨ - صورة يد عام بين زهر اللوطس
٢٤٤	١٣٩ - إخناتون وملكته يتدفقون الإقسام على الكاهن آمي وزوجته
٢٤٦	١٤٠ - شاهد حجرى مين حدود مدينة تل العمارنة
٢٤٦	١٤١ - إخناتون يتقبل الأضراس من زوجته
٢٤٨	١٤٢ - جسم تمثال مصنوع من الحجر الجيري لكرسي إخناتون
٢٤٨	١٤٣ - صورة رأس تمثال إخناتون
٢٤٨	١٤٤ - حياة المستنقعات
٢٥٢	١٤٥ - جندي حتى مسلح بطلقة
٢٥٢	١٤٦ - ملك حتى قابض على ربح وصولجان
٢٥٢	١٤٧ - موظف مصرى يقابل مهاجرين ساميين
٢٥٦	١٤٨ - صورة لحورحوب مثله موظفا يكافئه الملك بالذهب
٢٦٠	١٤٩ - صرح حورحوب الجنون بالكركك
٢٦٠	١٥٠ - صورة تمثل حورحوب في الدار الآخرة يقوم بفلاحة الأرض
٢٦٠	١٥١ - الجزء العلوى لتمثال عنونسو
٢٦٤	١٥٢ - نقوش بارزة على جدران الكركك مثل معركة سقاي الأول الحربية
٢٦٨	١٥٣ - سقاي الأول يهدى أزوريس تمثال الصدق
٢٧٢	١٥٤ - رسم لسقاي الأول في شبابه يمثل مهديا تمثال الصدق
٢٧٦	١٥٥ - تفقد أحوال الهام
٢٧٨	١٥٦ - الصيد في قارب من العباب فوق مياه البرك
٢٨٠	١٥٧ - بعض رسوم بارزة لسقاي الأول على جدران الكركك
٢٨٤	١٥٨ - رأس مومياء سقاي الأول
٢٨٤	١٥٩ - شاهد حجرى لرئيس الشاق وأثر لآشور أنسى المدين بفينيقيا
٢٩٠	١٦٠ - منظر من مناظر القروش البارزة لمرحلة كدش
٢٩٨	١٦١ - بعض أجزاء تمثال لرئيس الثانى العظيم البالغ وزنه ألف طن تقريبا
٢٩٨	١٦٢ - مخازن مدينة يتروم
٣٠٢	١٦٣ - اثنتان من الحرس الملكى لرئيس الثانى المكون من سودانيين مأجورين
٣٠٢	١٦٤ - منظر ساحة الكركك العظمى بعد الترميم
٣٠٢	١٦٥ - صحن ساحة الكركك العظمى
٣٠٤	٣٦٦ - الرسيوم وهو مبيد قبر لرئيس الثانى

صفحة	شكل
٣٠٤	١٦٧ - معبد أبي سنبل الصخرى
٣٠٤	١٦٨ - تمثال رمسيس الثاني مصنوع من الجرانيت الأسود
	١٦٩ - منظر لمركبة كدش النطبة التي حاربها رمسيس الثاني ، وجدت هذه الصورة مرسومة بشكل بارز على جدار الرمسوم... .. .
٣١٥	١٧٠ - صورة رأس موبيا- رمسيس الثاني... .. .
٣١٤	١٧١ - تمثال النصر للملك منبشاح
٣١٤	١٧٢ - بعض الأسرى الفلسطينيين (بلست) الذين استولى عليهم رمسيس الثالث
٣٢٤	١٧٣ - صورة معركة بحرية انتصر فيها رمسيس الثالث على أهل شمال البحر الأبيض المتوسط
٣٢٢	١٧٤ - معبد رمسيس الثالث بمدينة هابو
٣٢٢	١٧٥ - معبد رمسيس الثالث بمدينة هابو
٣٢٢	١٧٦ - رمسيس الثالث يصلاد ثورا وحشيا
٣٤٤	١٧٧ - أمحتب رئيس كهنة آمون يقبل انعام رمسيس التاسع
٣٤٤	١٧٨ - ملاحظات كاتب على تايوت سقي الأول
٣٤٤	١٧٩ - نجيا المدير البحري
٣٦٢	١٨٠ - "حقل ابراهيم"
٣٦٢	١٨١ - شاهد حجرى لأشورأني الدين
٣٦٢	١٨٢ - شاهد حجرى لللك يساتيك الأول وجد بالسرايوم... .. .
٣٧٦	١٨٣ - منظر عام لمعبد الكرنك مأخوذ بآلة التصوير الشمسى جهة الجنوب
٣٨٨	١٨٤ - تمثال من المرمر للأميرة أمناويدس أخت يمنخى بدار النخف بالقاهرة... .. .
٣٩٨	١٨٥ - رأس تيجل من البرز وضع بمقدم سفينة
٣٩٨	١٨٦ - رأس حجرى لشخص من العهد الصاوى

جدول خرائط هذا الكتاب

صفحة	نخريطة
٥٧	١ مدينة اللاهوت الناصرة بالمساكن في حى الفقراء
٨٠	٢ حياة الأسرة الرابعة بالجيزة
١٢٤	٣ الفيوم
١٨٨	٤ قة جبل كرم وعلاقتها بمدينة مجدو
١٩٨	٥ مدينة كدش القديمة المعروفة الآن بتل الذى متدوح
٢٣٠	٦ طيبه
٢٥٥	٧ امراطورية مصر بآسيا
٢٨٥	٨ مركز كدش ايلخرفانى
٢٨٦	٩ معركة كدش
٢٨٨	١٠ معركة كدش
٢٩٩	١١ معابد الكرنك
٣٢٠	١٢ علاقة مصر بالفرافرة مع العالم القديم
	١٣ خريطة عامة لمصر وبلاد النوبة

في آخر الكتاب

الكتاب الاول

المقدمة

تاريخ مصر القديم

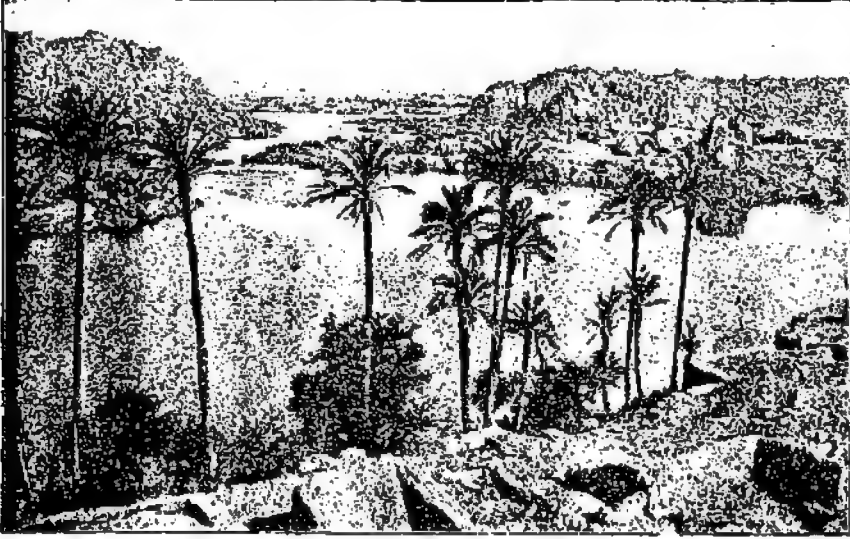
الفصل الأول - أرض مصر

يرجع أصل المدينة الحديثة الى الأمم التي نشأت على شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقية وإلى البلاد المجاورة لتلك الجهة وذلك منذ نحو ستة آلاف سنة تقريبا . وكانت بلاد العراق مركزا ثانيا لمدينة قديمة لكنها لم تسترك في تكوين حضارتنا الحديثة لعدم اتصالها بسكان شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، ويعزى ذلك الى عدم اتصال هذا البحر بنهر الفرات مع أنهما كانا متصلين قديما قبل ظهور هذه الحضارة . لذلك أعتبر المؤرخون أن حضارتنا الحالية نشأت على شاطئ البحر الأبيض المتوسط من المحيط الأطلنطي الى الأراضي الصحراوية شمال إفريقيا وإلى الخليج الذي كان متصلا بالبحر الأحمر ثم الى الشمال في القارة الآسيوية . ويحترق هذا الاقليم الشاسع واديان عظيمان متجهان شمالا وجنوبا يعرف أولهما بوادي الدجلة والفرات وهو في القارة الآسيوية . أما الثاني فإفريقية ويقال له وادي النيل . وهذان الواديان هما منشأ المدينة القديمة فصارا لذلك الجهتين اثنتين يبحث فيهما عن تاريخ الانسان القديم حتى ظهور الحضارة الأوروبية الحديثة . وقد كانا أيضا المهدين الوحيدين لحضارتين مختلفتين عمنا تدريجيا البلاد المجاورة حتى التقنا معا بآسيا الصغرى ثم انشربنا الى جنوبي أوروبا .

ومعلوم أن وادي النيل مسقط رأس قدماء المصريين يبدأ جنوبي خط الاستواء بثلاث درجات ويتجه شمالا نحو البحر الأبيض المتوسط فيبلغه على بعد ٣١,٥ درجة شمال خط الاستواء ، ويقدر طوله بأربعة آلاف ميل تقريبا فهو لذلك من أطول أنهار الدنيا وأضخمها . وينبع هذا النهر من عدة بحيرات بمنطقة خط الاستواء حيث يعرف بالنيل الأبيض . وبحوار الخرطوم والقرب من منطقة خط العرض السادس عشر وعلى بعد ألف وثلاثمائة ميل من البحر الأبيض المتوسط يلتقي النيل من جهته الشرقية بفرعه الأكبر المعروف بالنيل الأزرق الذي يجلب اليه القرين والمياه الغزيرة من جبال بلاد الحبشة الشاغخة . بعد ذلك بمائة وأربعين ميلا يصب فيه نهر الأبترة وهو أصغر حجما وأقصر طولاً من النيل الأزرق . ومن ثم يتفرع النيل تمرجا عظيما أشبه بحرف « S » اللاتيني وسط صحراء قاحلة (شكل ٨٤) وهناك تعترضه عدة شلالات صحيرية غير منتظمة يبلغ صدها ستة لكنها ليست شاهقة الارتفاع كشلال نياجارا بأمريكا بل منخفضة ومكونة من عدة صخور متفرقة شاخصة أمام تيار النيل الجارف وقد شق مجرى عميق الغور فيها كما فعل بالأراضي الرملية المجاورة (شكل ١) وهذه الشلالات تعوق الملاحة النهرية . وأهم هذه الشلالات الأول والثاني والرابع . والقرب من جزيرة أسوان يعترض النيل شلاله الأول المعروف بشلال أسوان وهو عبارة عن صخور شاغخة من الجرانيت تعترض طريق ذلك النهر العظيم ثم يسير حتى يصب في البحر الأبيض المتوسط .

أما القطر المصري فهو جزء وادى النيل شمالى الشلال الأول . والنيل سهل الجريان بهذا القطر لعدم وجود محضور رملية في ترته . ويلاحظ في إقليم ادفو— الذى يبعد عن الشلال الأول ثمانين ميلا تقريبا ، والذي يتكون الحد الشمالى لمسطح الصحراء الصخرى — أن الصخور الرملية تتبدل تدريجيا الى حصى صغير مستدير الشكل رقيق السمك أشبه كثيرا بالعملة . وبما أن هذا الحصى قليل المقاومة لتيار النيل الجارف سهل على هذا النهر العظيم أن يشق لنفسه في ذلك الاقليم مجرى عميقا واسعا غيرقا القسم الشرقى من صحراء إفريقيا العظمى الى البحر الأبيض المتوسط (شكل ٣ وشكل ٧) . ويأخذ وادى النيل في الاتساع تدريجيا ابتداء من الشلال الأول حيث يبلغ اتساعه عشرة أميال تقريبا وعند مصبه يبلغ اتساعه واحدا وثلاثين ميلا تقريبا . أما قرار النيل فتكون من مواد طينية رملية يجرى فوقها تيار المياه بسرعة تبلغ أحيانا ثلاثة أميال في الساعة . وأقصى عرض يبلغه نهر النيل هو ألف ومائة ياردة تقريبا وذلك في موضعين اثنين على طول مجراه . وبالقرب من أسبوط يتفرع من شاطئه الغربى بحريوسف البالغ طوله مائتى ميل تقريبا ويسير شمالا الى إقليم الفيوم . ويعرف هذا الفرع قديما بحر «الشمال» ثم الى الشمال الغربى من منف حتى يدرك البحر الأبيض المتوسط قرب الاسكندرية^(١) . وعلى بعد نيف ومائة ميل من البحر الأبيض المتوسط يتفرع النيل الى عدة أفرع بشكل مثلث أطلق عليه اليونان اسم الدلتا نسبة الى أحد أحرف مهاجم المثلث الشكل . ولا يخفى أن الدلتا كانت سابقا خليجا بحريا امتلا تدريجيا بفيزين النهر الذى أخذ يتفرع وقتئذ الى سبعة أفرع تصب مياهها في البحر الأبيض المتوسط ، لكن لم يبق الآن من هذه الأفرع الا اثنان محددان الدلتا هما فرع رشيد (الغربى) وفرع دمياط (الشرقى) .

وكان مسطح الوجه البحرى منخفضا في مبدأ تكوينه ثم علا تدريجيا برسوب الفيون عليه فتوارت آثار مدنه الكثيرة القديمة تحت الطبقات الطينية المتجددة . ولا بد أن مستنقعات الدلتا وقتئذ كانت شاملة معظم مساحته ثم أخذ حجمها يقل تدريجيا برسوب الفيون حتى اقتربت شواطئها من البحر الأبيض المتوسط . ويتراوح سمك طبقة الأرض الطينية بمصر العليا من ثلاثة وثلاثين الى ثمانية وثلاثين قدما ، ويبلغ أقصى عرض لها حوالى عشرة أميال . وتقدر مساحة الأراضي المزروعة في القطر المصرى من الشلال الأول الى البحر الأبيض المتوسط بأقل من عشرة آلاف ميل مربع ، فهى بذلك تقرب من مساحة أرض ولاية مارى لاند وتقل عن مساحة بلاد البلجيك بنحو عشرة في المائة . ويبلغ متوسط ارتفاع سلسلى جبال وادى النيل بضع مئات من الأقدام لكنه يبلغ أحيانا علوا شاهقا يقدر بألف قدم (شكل ٣) . وعلى هذه الجبال صحار قاحلة اخترقها النيل منذ القدم . ففى الجهة الغربية صحراء ليبيا المعروفة بالصحراء الكبرى المترامية الأطراف الكثيرة التلال والرمال والصحور ويتراوح ارتفاع مسطحها عن مسطح النيل بين ستمائة وثمانين الى ألف من الأقدام . وفى وسط هذا المسطح الرملى القاحل العظيم عدة أراض صغيرة منخفضة تروى بعيون الماء الأرتوازى تعرف بالواحات وهى على خط متقطع مواز تقريبا لمجرى النيل الذى تستمد منه مياهها الراشحة بين طبقات



شكل ١ - منظر لأحد مجاري السلال الأزرق مأخوذة بآلة التصوير الشمسية من جزيرة فيله في اتجاه الشمال . وشاهد أسفل الصورة بعض الآثار



شكل ٢ - فيضان النيل كما يشاهد من طريق أمهمام الجيزة . ويرى الطريق المذكور إلى اليمين والأهرام المشيدة فوق الهضبة الصحراوية في الوسط وكفر "نيلة النيان" أسفل الأهرام

الرمال . وأعظم هذه الواحات حجما هو إقليم الفيوم ، وكانت تفصله سلسلة جبال ليبيا ثم اخترقه بحر يوسف حاملا إليه ماء النيل حتى بلغه فأخصبه وأحسن تربته . وفيما عدا ذلك كانت الصحراء الغربية عديمة الفائدة الاقتصادية لقدماء المصريين . أما الصحراء الشرقية المعروفة بـ «صحراء العرب» فيقطنها الأعراب المعروفون بالعبادة وموارد الحياة بها لا تكاد تسد رمق سكانها القليلين . وبهذه الصحراء سلسلة جبال جرانيتية موازية لشاطئ البحر الأحمر يكثر بين صحورها الصلبة معدن الذهب النفيس . ولا يقتصر وجود هذا المعدن على هذه السلسلة الجبلية بل عثر عليه أيضا في عدة جهات بين النيل والبحر الأحمر بالصحراء نفسها . ولكثرة الأحجار المرمرية والصخور الصلبة النارية بتلك الصحراء وجه قدماء المصريين همتهم إلى حفرها وكشفها . ولوجود هذه المتاجم على الطريق الموصل من موانئ البحر الأحمر التجارية إلى وادي النيل أنشأ المصريون عدة طرق توصل هذه المتاجم بالطريق التجاري المذكور . وقديما عثر على مثل هذه المعادن والأحجار بطورسيناء فاهتم للأمر قدماء المصريين ودرسوا جغرافية ذلك الإقليم وقاموا بالحفائر والأعمال المتبعة فيه .

والقطر المصري في عزلة عن البلاد المجاورة ، ذلك لأن الجزء الأهل بالسكان يفصل شرقا وغربا بصحراوين شاسعتين وهو شمالا يحده شاطئ الدلتا البحري الخالي من الموانئ والمرافق الآهلة . وأما في الجنوب فشلال أسوان الصخري العظيم يفصل القطر فصلا تاما عن أواسط إفريقيا . وتبع ذلك أن الغزوات الأجنبية كانت تثنى على مصر عادة من طرفي الحدود الشمالية ، فمن الطرف الشرق دخلت مصر الأجناس السامية غترقة صحراء طورسيناء الشاسعة ، ومن الطرف الغربي دخل الليبيون وهم قوم يحمل أنهم من أصل أوربي . والشلال الأثلي وإن كان متينا لم يجعل دون تدفق المصنوعات والتاج السوداني إلى القطر المصري ، فقد تأسس بالطرف الأسفل منه سوق سمي «سوان» (وهي كلمة معناها السوق) ويعرف الآن بأسوان لتشجيع التجارة بين مصر والسودان . بعد ذلك أخذت التجارة النيلية بين هذين القطرين تزيد باطراد . ومن ثم يرى أن سدود مصر الطبيعية كانت حلا متينا صعب الاختراق تمكن به المصريون من مقاومة مهاجمهم مدة كانت تكفي أن يحشدوا في أثنائها جيشا لتلافي خطر الهجوم الأجنبي .

ولموقع مصر الجغرافي أيضا تأثير كبير في رقيها السياسي ، لأنها عبارة عن إقليم مستطيل ضيق (ماعدا الوجه البحري) يبلغ طوله سبعمائة وخمسين ميلا تقريبا فهو لذلك في أشد الاحتياج إلى الوسائل اللازمة لبسط نفوذ حكومته على سائر أقسامه المتطرفة . وكل قسم من هذه الأقسام يتصل شمالا وجنوبا بالأقسام الأخرى المجاورة . ولقد كان تباين الشعور وتنوع الأفكار في تلك الأقسام عاملين شديدين مستمرين يميزان كل قسم عن الآخر . كما أن اختلاف اللهجات الكلامية كان متعددا لدرجة تعذر فيها على ساكن الوجه البحري أن يفهم كلام ساكن الوجه القبلي . لذلك لم تكن هناك سبيل لاتحاد أقسام القطر اللهم إلا نهر النيل الذي سهل المواصلات والتعاون بالرغم من بعد المسافة بين أقسامه .

فهر النيل هو السبب الأعظم لتوطيد العلاقة بين سكان مصر وخصان سعادتهم ورفاهيتهم وعليه الاعتماد في انتعاشهم وترويح تجارتهم . زد على ذلك أن كمية الأمطار التي تهطل على القطر المصرى ليست كافية لإرواء الصعيد . من ذلك يتضح أن ثروة القطر وحياته مترتبان على نيله . ثم إن خصب الأرض وقوتها الزراعية مترتبان أيضا على غرين النيل وفضائه السنوى ، لأن الفيضان الذى يأتى من بلاد الحبشة منحدرًا الى النيل الأزرق نتيجة ذوبان الجليد وحطول الأمطار الربيعية على تلك البلاد الإفريقية .

ويبدأ فيضان النيل السنوى بهطول الأمطار الغزيرة على جبال الحبشة الشاخطة فتتجدد منها المياه جارية معها مواد طينية تعرف بالغرين ومحدثه في سيرها تيارا شديداً مخترقاً بلاد النوبة . ويلاحظ عادة في أوائل شهر يونيه جهة الشلال الأول ارتفاع يسير في منسوب النيل هو نتيجة ذلك الفيضان . ثم يرتفع المنسوب تدريجياً فيبلغ أقصاه في أواخر شهر أكتوبر أو أوائل نوفمبر . لكن العادة أن هذا الفيضان يقف قليلاً مدة شهر تقريباً ابتداء من آخر سبتمبر من كل سنة ، بعد ذلك يستمر في زيادته على الطريقة المذكورة . ويقدر الفرق جهة الشلال الأول بين أقصى ارتفاع للنيل وقت الفيضان وارتفاعه وقت التحريق بخمسين قدماً . أما في القاهرة فالفرق بين هذين المنسوبين يبلغ نصف ذلك المقدار . والسبب في حفر الترع وإقامة الجسور وغير ذلك من مشاريع الريّ الجسيمة في تلك الأزمنة يرجع الى رغبة أهالى وادى النيل في حجز مياه النيل وتصريفها الى حوضان الأراضى المزروعة حيث تضرها وتمكث فيها مدة يسب في أثنائها على الأرض غرين النيل فيكسبها خصباً . وما أجمل منظر الأراضى وقتئذ وهى مغمورة بالماء في وسطها الغرس وأشجار النخيل الخضراء التى لا يصل اليها الانسان الا بجسور الترع (شكل ٢) . بهذه الطريقة تستعويض التربة المصرية عزمها وخصبها من كل زراعة سنوية تنبى الأرض بانهة خصبة على نثر السنين والدهور .

فاذا جاء وقت هبوط النيل انخفض منسوب مياه النهر والترع المستمدة منه عن مسطح الأراضى المزروعة فتهدد وقتئذ البلاد بالعطش لبعده مياه النيل عنها . وهذا هو السبب الذى جعل الأهالى يقبلون على انشاء الترع لإرواء الأراضى أيام التحريق (شكل ٦) (١١) . من ذلك يتضح أن أراضى وادى النيل الخصبه الفتية تستحث زارعها منذ العهد القديم على ابداء المهارة في توزيع مياه النيل الحيوية فلا غرابة اننا لاحظنا أن هؤلاء برعوا في هندسة الري منذ أقدم العصور ، والحاجة أم الاختراع ، ولما كانت مصر أم الفنون الآلية وجب علينا أن نذكر في هذا المقام أن نهر النيل كان أهم الأسباب التى أنجبت ذلك الفن في القطر .

(١١) وهذه الطريقة هى المعروفة بالنادوف الواردة صورته بشكل ٦ وهو عبارة عن عرق خشبي طويل مرتكز على عمود خشبي آخر من الوسط ومنفل في أحد طرفيه بكتلة حجرية أو طينية ومعلق بالطرف الأخرى جلدى أو معدنى ينقل به الماء في النهر أو البر الى مكان أعلى وفي حالة انخفاض مسطح الماء كثيراً عن الأرض المراد ريتها تستعمل تلك مآدة شواذيف للتغلب على تلك الصعوبة . وتراوح كمية المياه اللازمة لرى الفدان الواحد لمدة ما بين ألف وستائة وألفى طن .

ولما كان هذا القطر زراعيا بطبيعته مستعينا على اخراج خيراتہ بمياه النيل التي تكسبه خصبا بفيضاتها السنوي فلا غرابة اذا وجدنا أن مصر لا تزال باقية كما كانت بلادا زراعية على رغم التطورات والاقلابات . وسياقى الكلام على ذلك فيما بعد . أما مزروعات هذا القطر فكافية لتغذية سكانه العديدين الذين بلغوا أيام الرومان حوالي سبعة ملايين نسمة والذين يزيدون الآن على تسعة ملايين نسمة وهي كما لا يخفى نسبة عظيمة ليست في أى بقعة بالقارة الأوربية^(١) . ولما كان من الأصوب الآن عدم التعرض لموارد القطر المصرى الأخرى أرجأت ذلك الى فرصة أخرى عند الكلام على التدرج التاريخي لهذه الموارد .

معلوم أن من ميزات مصر جفاف طقسها الذى يأخذ بالباب السياح العديدين في شتاء كل سنة . أما هوائها فصحراوى لوقوعها وسط الأراضى القاحلة فهو لذلك نقي جاف . وبالرغم من شدة ارتفاع الحرارة أحيانا لا يشعر الانسان إلا بضيق يسير لسهولة تبخر العرق وقتئذ . ويبلغ متوسط درجة حرارة الوجه البحرى شتاء ٥٦° فهرنهايت والوجه القبلى ٦٦° فهرنهايت . أما فى الصيف فتوسط حرارة الوجه البحرى ٨٣° فهرنهايت وأقصاها فى الوجه القبلى ١٢٢° فهرنهايت .

وبالرغم من ارتفاع حرارة الصيف بهذه الكيفية فالمعيشة بمصر محتملة وقتئذ بنسبة ما يعانيه الانسان فى مثل هذه الظروف بالبلاد الأخرى . ويصحب ليالى الصيف نسيم عليل باردآت من المزارع والحقول الشائعة يخفض حرارة الجو . وما أكبر الفرق فى مصر بين البرد القارس الذى يحس به الانسان أيام الشتاء قبيل الفجر والحرارة الجلية وقت الظهيرة فى الفصل نفسه . وقد ألمنا سابقا الى تدوير الأمطار، لكن هطولها بالوجه القبلى أحيانا نتيجة اضطرابات جوية جنوبى البحر الأبيض المتوسط أو شمالي صحراء إفريقيا العظمى، فيترتب عليه طرد السحب الثقيلة الى مصر شرقا . أما الاضطرابات الجوية الشرقية فلا تأثير لها فى طقس مصر لأن الجبال الشاخنة التي على شاطئ البحر الأحمر الغربى تقاوم السحب وتشتتها فتطردا الى أعلى . وعليه فشمالى الوجه البحرى واقع ضمن منطقة الأمطار الشمالية .

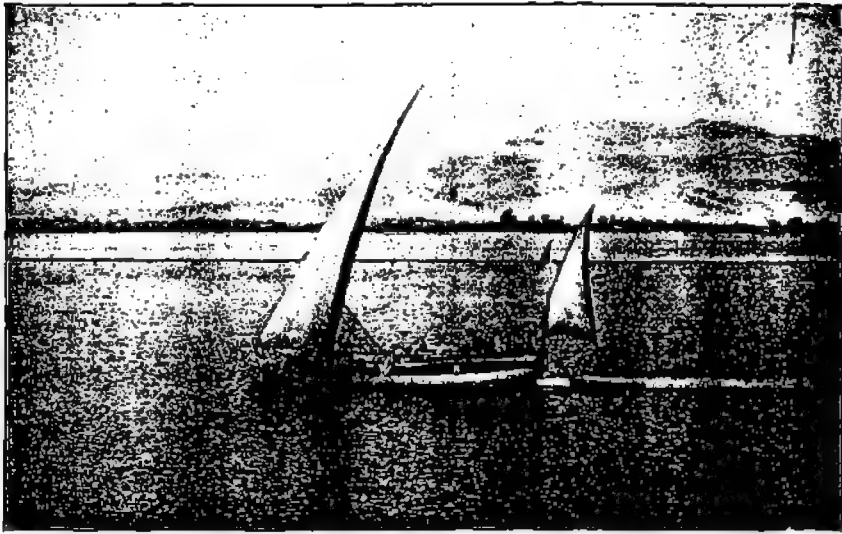
وبالرغم مما يتركه الفيضان من البرك والمستنقعات بوادى النيل فالهواء الصحراوى الجاف الذى يهب عليها باستمرار سرعان ما يجففها فتلاشى بذلك وسائل تنشى الملايا بجميع جهات الوجه القبلى ومعظم جهات الوجه البحرى . فصر المناخمة للمنطقة الحارة تمتاز بنقاوة هوائها المتدل العديم النظير الخالى من برد الشتاء القارس وقيظ الصيف الصعب الاحتمال المشاهد عادة بالمنطقة الحارة .

لا شك أن منظر القطر المصرى عموما كان ولا يزال أمام المصرى ثابتا لا يتغير لأن وادى النيل الذى هو هدية ذلك النهر عبارة عن أراض طينية يكسوها الزرع على طولها وعرضها تحده على الجانبين صفوف صفراء عديمة الجبال والغابات اللهم إلا اذا استثنينا بعض النخيل الثابت على شاطئ النيل وحول القرى ذات المساكن الهادئة السوداء (شكل ٤) وكذا بعض أشجار الجوز والأثل والسنت . وتخلل هذه الأراضى شبكة من الترع أشبه كثيرا بالدورة الشريانية فى الجسم الحيوانى . وقد تتعدى أحيانا رمال الصحراء حدود وادى النيل الصخرية فتحمل بعض تربته الخصبة وحينئذ يتمكن الانسان من الوقوف بأحدى قدميه فوق أرض وادى النيل المزروعة وبالأخرى فوق الأرض الرملية .

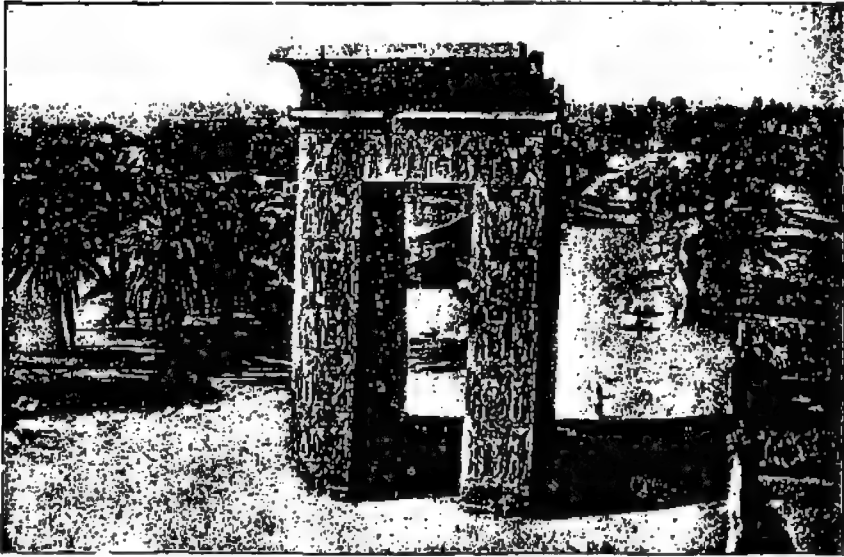
بهذا الوصف ثبت في تخيلة المصري القديم منظر معيشته الدنيوية التي تلخص في واد متخفص ضيق كثير الخصب والتعرج تحده الصحارى المغفرة القاحلة العديمة النظير التي تفصله عن جهات العالم كلها ، وما كان أعظم تأثير هذه العوامل في ذاكرته وأفكاره الخاصة بالعالم وبقوته المدبرة . لذلك ترى المصري شب متخذاً مجرى النيل مرشداً له في ضلواته وروحاته فقال "صعد أو نزل مع النهر" بمعنى سار جنوباً أو شمالاً . لكنه لما بلغ نهر الفرات ببلاد العراق سمى ذلك النهر بذي المياه المنعكسة المجرى التي تنزل مع النهر (أى تسير جنوباً) بدلاً من (تجرى شمالاً)^(١) . وقد قسم قدماء المصريين العالم الى "الأرض السوداء" وعنوانها وادى النيل و"الأرض الحمراء" وأرادوا بها الصحراء . ثم أطلقوا على الأولى اسم "الأرض المنخفضة" وعلى الثانية "الأرض العالية" عانين بذلك وادى النيل المنخفض وأراضى الصحراء الجبلية المرتفعة وحررت العادة وتعتقد أن يدعى الأجنبي "رجل الأرض الجبلية" وأن يقال "صعد الى كذا" بمعنى هاجر من وطنه الى مكان آخر و"هبط كذا" بمعنى آب الى بلده من الخارج . تلك أمثلة لفظية تثبت درجة تأثير الذهن المصري القديم فيما يحيط بوطنه من الصحارى الواسعة ومنها يستدل على مقدار التأثير الذى عم أحواله المعاشية والدينية .

وقسم المصري الأفق الى أفق شرقى وأفق غربى وتصوّر لكل منهما شمساً ثم تخيل عدة معبودات مدبرة لهذا الكون أملاها عليه ضميره وصورها له ذهنه .

هذا وصف اجمالى لأهالى وادى النيل الذين كانت لهم اليد الطولى في انشاء المدينة بشرق البحر الأبيض المتوسط لما كانت أوروبا ساعية في التلمص من وحشيتها وجهالتها ، جارية وراه الحضارة والمدنية التي استضاءت بها البلاد الشرقية . وبدى أن وادى النيل هو المكان الوحيد في العالم الذى يحوى آثاراً لمدينة عظيمة قديمة آجتت من فوق الأرض ما لها من قرار . وقد كانت الدنيا موطناً لحروب وغزوات عدة أكثر من الوجه القبلى ، ومقراً لسوب غرين النيل على منها الفرعونية القديمة ، ومع ذلك فان آثارها لا تزال شاغلة مساحات عظيمة بشكل ككل جرانيتية ضخمة وأحجار جيرية ورملية وأجزاء مسلات وقواعد صروح شامخة ، مما يثبت تماماً عظم ثروة وقوة سكان تلك العصور النابرة . أما الوجه القبلى فكثيراً ما يؤمه السياح العديون الذين أخذوا يزدادون كل سنة لكثرة آثاره الشامخة في كل بقعة حتى يجبل للرائى أنها تحييه أينما ذهب وحيثما حل على امتداد الوادى . والحق يقال انه لا يوجد في هذا العالم جهة كصر تحوى مثل هذه المباني الحجرية الشامخة ومثل هذا الطقس البديع الجاف المصحوب بندورة المطر ، وهو الذى ساعد كثيراً على حفظ أحسن وأعظم آثار العالم القديمة ، تلك الآثار التي هي دليل العز والرفاهية والتقدم القديم . وبما لا جدال فيه أن المدينة الأوربية مدينة بكثير من آدابها الى المصريين الأقدمين . ولما أخذت أنظار الشرق والغرب تتجه الى حسدا القطر التعس الغنى بآثاره القيمة تدفقت عليه أهالى تلك الجهات من كل صوب حتى أوشكت تبطله . ومن الواجب في هذا المقام أن نتعرف بتأثير مدينة القطر المصري في ذلك القطر وفى البلدان الأجنبية ، وبما كان لهذه المدينة من الفضل العظيم والمنزلة السامية . وسنتكلم فيما بعد على خيرات مصر المعاشية التي جعلتها للسابقين واللاحقين إرثاً يتغنى به المادحون .



شكل ٣ - منظر النيل والصخور غرب طيه (الأقصر) - وفيه يشاهد ساحل النيل الواطئ
الواصل الى تلك الصخور



شكل ٤ - أكواخ الأهالي وأدغال النخيل بجوار الكرنك ببطيه كما تشاهد من سقف معبد شونسو ويرى
وسط الصورة صرح بطليموس الثالث (أفرجات) الذي حكم القطر من سنة ٢٤٧ الى سنة ٢٢٢ قبل
الميلاد - ويبنى من هذا الصرح شارع كبير مقامة على جانبيه تماثيل كاش شيددا أمنتخب الثالث
ويصل هذا الشارع معبد الكرنك بمعبد الأقصر

الفصل الثاني

نظرة عامة في تاريخ مصر القديم ، توقيت التاريخ ، مراجع التاريخ

قبل الكلام على تاريخ الفراعنة بالتفصيل يجب أن نبحث بالاجمال في تاريخهم لتجمله في ذهننا أساسا بُني عليه المعلومات والأخبار التي ترد تباعا في فصولها وأبوابها بلا تعب ولا عناء . ولا ينبغي أن تاريخ هذه العصور يضم حوادث أربعة آلاف سنة أي منذ ابتداء ظهور الحضارة على سواحل البحر الأبيض المتوسط لما كان العالم عائشا في ظلمات الجهل والوحشية . ولعل أهم ما يلتفت نظر الباحث في هذا الموضوع ما انتاب البلاد من غزرو الأجنبي واختلاطهم تدريجا بالمصريين وتأثير ذلك في الأذهان والأخلاق الوطنية . أما أول عصر ذكر فيه الأوربيون في الآثار المصرية فهو القرن الثالث عشر قبل الميلاد . ومن ثم أخذت سلطة الفراعنة تضعف تدريجا وأخذ شرف الحضارة وصولحان القوة يتقلان من أيدي هؤلاء الحكام الى أهالي القارة الأوربية الفتية حتى صارت مصر في آخر تاريخها القديم طعمة لثمة أؤلا الفرس ثم اليونان ثم الرومان .

ويتقسم تاريخ سكان وادي النيل الأقدمين الى عدة عصور متباينة مرتبط بعضها ببعض باقتلابات وتطورات . ولما أتى مانيتو المؤرخ المصري القديم قسم هذه العصور تقسيما عرقيا مقيسا مبتدئا بالعصر التاريخي وسبى هذه الأقسام بالأسرات الملكية . ومانيتو كاهن سمندوى طاش أيام بطليموس الأول الذي حكم مصر من سنة ٣٠٥ الى سنة ٢٨٥ قبل الميلاد وصنف تاريخا عن وطنه باللغة اليونانية لم تصل اليها منه سوى مقدمته التي نقلها يوليوس أفريكانوس (Julius Africanus) ويوسيبوس (Eusebius) ولخصها جوسفوس (Josephus) . وتاريخ مانيتو هذا قليل الأهمية لارتكائه على روايات عامية وخرافات متداولة وقتئذ خاصة بالملوك الأقدمين . وقد قسم مانيتو ملوك مصر الى ثلاثين أسرة ملكية ومع أن هذا التقسيم اصطلاحى وأنه كثيرا ما حصل نزاع بين ملوك الأسر اعتبرهم هذا المؤرخ أسرة واحدة ولقد ساعد تقسيمه كثيرا على فهم تاريخ مصر القديم . لذلك وافقه على رأيه كل من خلفه من المؤرخين حتى الحديثين منهم فلم نجد نحن بنا من اتباع تقسيم ذلك المؤرخ القديم . كان القطر المصري في مبدأ مدينته مقسما الى عدة إمارات صغيرة مستقلة أخذت تنتم تدريجا حتى تتكون منها مملكتان عظيمتان احدهما بالوجه القبلى والأخرى بالوجه البحرى وامتازت المملكة الأخيرة منها بسرعة تقدمها في الحضارة وقد ألمحت سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد أن السنة الشمسية تتكون من ثمانمائة وخمسة وستين يوما . وهذا التاريخ (أى سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد) هو أقدم تاريخ ثابت معروف لان على ظهر البسيطة^(١) ومن ذلك الوقت لقبت مصر "بأرض القطرين" نسبة الى جزأها البحرى والقبلى : وفي عام ٣٤٠٠ قبل الميلاد انضم هذان الوجهان تحت سلطة الملك مينا فكان هذا

الملك أول من حكم أرض مصر مجتمعة وأول ملوك الأسرة الأولى المصرية . واعتبر المؤرخون عهد مينا هذا حدا فاصلا في تاريخ مصر القديم قسمه الى عهدين : العهد الأول يرجع تاريخه الى زمن ما قبل الأسر والعهد الثاني الى حكم الأسر. وقد أثبتت لنا المباحث والحفائر الأثرية التي أجريت مدة العشر السنوات الأخيرة أن زمن حكم الأسر جاء نتيجة مباشرة لرق وهتدم تدريجي في حضارة الزمن السابق .

والفضل في رقي القطر المصري مدة حكم الأسر الأولى التي تهدر بجوالى أربعة قرون يرجع الى ضم سائر جهاته تحت حكم الملك مينا وسلالته الذين اتخذوا مركزهم في بادئ الأمر مدينة طينة بالقرب من العراية المدفونة ثم انتقلوا بعد ذلك إلى منف . في هذه المدة ارتقت حضارة البلاد وزاد عمرانها وقوى نفوذها فسمى الأثريون هذا العهد "المملكة القديمة" . وصارت مدينة منف عاصمة البلاد في عهد ملوك الأسر الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة الذين تربوا في دست الحكم من سنة ٢٩٨٠ الى سنة ٢٤٧٥ قبل الميلاد تقريبا . ويمتاز هذا العصر بارتقاء آدابه وعلومه الآلية اللذين بلغا درجة عظيمة لم تبلغها البلاد قبل ذلك العصر أو بعده . وفي هذا العهد أيضا تجلت حكومة البلاد وادارتها الداخلية بأجلى مظاهر الكمال بدرجة لم تكن موهودة . وأخذ النفوذ المصري يمتد الى ما بعد حدود المملكة وبلغ المصريون شبه جزيرة طورسيناء . ثم واصلوا عمل الحفائر والكشف عن المعدن الذي بدأ به ملوك الأسرة الأولى بهمة ونشاط . أما التجارة المصرية وقتئذ فبلغت شواطئ فينقيا وجزر البحر الأبيض المتوسط شمالا ثم توغلت أساطيل الفراعنة حتى وصلت الى ساحل بلاد الصومال جنوبي البحر الأحمر . وتمكن فرعون مصر من بسط نفوذه على أسفل بلاد النوبة وإقرار الأمن على طريق التجارة هناك وذلك باستمرار شن الغارات والحروب . ولما تولت الأسرة السادسة الحكم سنة ٢٦٢٥ قبل الميلاد ساست القطر حتى عام ٢٤٧٥ قبل الميلاد، وفي عهدها أخذ يندب في نفوس حكام الأقسام شعور الاستقلال والكبرياء وقد كانوا احتفظوا بمراكزهم الإدارية لأسرهم من زمن الأسرة الخامسة التي تولت زمام الحكم من سنة ٢٧٥٠ الى سنة ٢٣٢٥ قبل الميلاد . بهذه الطريقة مهد هؤلاء الحكام الطريق لتجزئة القطر المصري الى امارات مستقلة صغيرة وشمل نفوذ السلطة المركزية بالبلاد .

هكذا تمكن حكام الأقاليم المصرية من اسقاط بيتهم الفرعوني المسالك في أواخر حكم الأسرة السادسة حوالي سنة ٢٤٠٠ قبل الميلاد . بعد ذلك أخذت أهمية منف الإدارية تضعف تدريجيا بمرور الزمن . ومن دواعي الأسف أننا لم نهند الى كيفية تطور تلك الأمور وغاية ما وصل اليها عن ذلك العصر قائمة بأسماء ملكية اعتبر ما يتو أصحابها ملوك الأسرتين السابعة والثامنة المنفيين وقال أنهم حكموا مدة لا تزيد على ثلاثين سنة .

ولما أتى زمن الأسرتين التاسعة والعاشره قويت سلطة حكام الفيوم فاغتصبوا عرش مصر وحكوا القطر جاقلين مركزهم مدينة اهناس المعروفة عند اليونان باسم هيراكليوبوليس (Heracleopolis) ويبلغ عدد ملوك هاتين الأسرتين ثمانية عشر ملكا تقريبا .



تصویر ۵ - سنگ رادی ائیل من مدیجہ اذفر بیٹا مدیجہ اقصاء بحری البر و صحر الرادی البریة

بعد ذلك أخذت شمس طيبة بزغ تدريجيا لأوّل مرة في أفق التاريخ فأخذ حكامها ينافسون ملوك اهناش ودار بين الطرفين نزاع طويل انتهى بفوز طيبة وانتقال مقاليد الحكم الى سكان الصعيد . ولم تهتد بالضبط الى معرفة طول المدة التي مضت منذ سقوط المملكة القديمة الى ابتداء حكم طيبة لكننا تقدرها تقريبا بنحو مائتين وخمسة وسبعين أو ثلثمائة سنة (١) وهذا تقديرا لا يبعد أن يكون فرقته بالزيادة أو النقصان أكثر من مائة سنة .

ولما تولت الأسرة الحادية عشرة الطيبة مقاليد الحكم حوالي سنة ٢١٦٠ قبل الميلاد وجدت القطر في حالة شقاق ونزاع بين أمراءه العديدين فوجه ملوك هذه الأسرة معظم همهم الى تزج السلطة من أيدي هؤلاء الأمراء . ولما تولت الأسرة الثانية عشرة الحكم (ومؤسسها أمنمحتب الأول الذي يظن أنه اعتصب الملك قهرا) أخذت تسوس الامارات الصغيرة بالحلم والدهاء فتقدم القطر كثيرا وليست البلاد ثوب التمدن والتعميم لمدة تنيف على مائتي سنة تقريبا أي من سنة ٢٠٠٠ الى سنة ١٧٨٨ قبل الميلاد . ويعرف هذا العصر عند الأثريين "بعصر الآداب" لأنها بلغت فيه أعظم شأوها ، فالشعر والنثر بلغا أقصى درجاتهما من حيث المثانة والجودة كما أن الحفر والحجارة تقدمتا بدرجة مذهشة . وفاقت المصنوعات الفنية أمثالها في العصور الغابرة وزادت خيرات البلاد كثيرا لما اعتنت الحكومة بأمور النيل وفيضانه وقامت بمشروعات الري العظيمة جهة الفيوم فاستخلصت أقاليم شاسعة من الأراضي الزراعية الخصبية بالقرب من مواطن الملوك المسمى اثنان منها أمنمحتب وسيزوستريس المشتمين الى الأسرة الثانية عشرة . أما شيه جزيرة طور سيناء فتطلعت اليها النفوس للاستكشاف والحفر يجمد ونشاط وشيدت بها القلاع الحصينة وأقيمت على أرضها المعابد الهائلة ونزانات المياه الكبيرة . وشرعت مصر في هذا العصر تشن الغارات على سورية وتكثر من معاملتها ومعاملة قبائل تلك الجهات السامية . واتضح لنا أن المعاملات التجارية كانت سائرة أيضا بين مصر وأهالي جزر البحر الأبيض المتوسط الذين أسسوا المدينة اليونانية فيما بعد . أما التجارة مع الصومال فزادت وربت عما كانت عليه . وأما النوبة فضم منها الجزء الواقع بين الشلال الأوّل والثاني الى مصر وصار يدفع لفرعونها الجزية سنويا . بهذه الكيفية تمكن المصريون من تثير مناجم الذهب شرق ذلك الاقليم فتدلقت منها ثروة عظيمة في الخزائنة الفرعونية .

وفي سنة ١٧٨٨ قبل الميلاد سقطت الأسرة الثانية عشرة واشتعلت في البلاد نار ثورة داخلية انتهت بانقسامها وتفرق كلمتها وتطاحن أمراءها على العرش وقد اعتلى عرش مصر وقتئذ بعض حكام أفوايه لم يعيشوا طويلا ، تمكن أحدهم من اخضاع أعالي النوبة وابلاغ نفوذه الى أعلى الشلال الثالث ولكن هذه المنار قد عطبت بعد وفاته وبقيت الخلال سيئة مدة قرن تقريبا . بعد ذلك استولى على البلاد قوم من مملكة أسبوية شاسعة سماهم مايتو الهيكسوس حكموا القطر المصري مدة قرن تقريبا اتخذوا في أثنائه مدينة هواره الواقعة شرق الدلتا مركزا لهم .

ثم أخذ حكام الوجه القبلي يشاكسون ملوك الهيكسوس وينازعونهم فانزعوا منهم السلطة والحكم بالصعيد . ثم أعلن أحد أمراء طيبة نفسه ملكا على الوجه القبلي واستمر خلفاؤه يحاربون الهيكسوس حتى طردوهم من القطر المصري وأبعدوهم الى سورية .

كان حكم الهيكسوس وطردهم من مصر عظة كبيرة للمصريين أنهم من أول مرة معنى الاستعمار وسياسة البطش فأنشأوا جيشاً عظيماً منظمًا استعمالوا فيه المجالات الحربية مستعينين على جرهما بالليل التي جلبها الهيكسوس إلى القطر المصري وقت غزوتهم له، فتحوّلت مصر بذلك إلى امبراطورية حربية. وأعلم أن أمراء الأقاليم المصرية قد انحسروا وقتئذ من الوجود تقريباً نتيجة غزوة الهيكسوس والمنازعات الشخصية التي نشبت بينهم ولذلك لم يبق من هؤلاء إلا اليسير انضموا بعد ذلك تحت لواء ملوك طيبة الذين أسسوا الأسرة الثامنة عشرة. وتعتبر الامبراطورية المصرية في عهد هذه الأسرة من أكبر امبراطوريات العالم لأنها امتدت من سورية وأطلى نهر الفرات شمالاً إلى شلال النيل الرابع جنوباً. وكان تشييد هذه الامبراطورية المعتبرة الأولى في العالم مصحوباً بثروة باذخة وعزى باهر في جهاتها الشاسعة بدرجة لم تبلغها مصر في عصر آخر حتى صارت طيبة مركز التمدن العالمي وصاحبة الآثار الشاغرة. وعظمت التجارة المصرية مع البلاد الشرقية وشواطئ البحر الأبيض المتوسط ثم كثرت المصنوعات اليونانية بالقطر المصري بعد انصباغها كثيراً بالصيغة المصرية. ويقدر حكم هذه الامبراطورية بنحو مائتين وثلاثين سنة (أى من سنة ١٥٨٠ إلى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد). أما سقوط هذه الامبراطورية فيرجع سببه إلى منازعات داخلية وخارجية إثر ثورة دينة عظيمة شنها الفتى النافذة الملك إخناتون على عبادة الأصنام ثم أخذ النفوذ المصري يضعف تدريجاً على آسيا الصغرى تحت ضغط الحيثيين. وفي هذا الوقت نفسه هجمت قبائل بدوية على شمالي وجنوبي ممتلكات مصر الآسيوية فزادت الطين بلة. وليلاحظ أن بعض هذه القبائل انضم فيما بعد إلى بني إسرائيل ولكن المعروف أنها اتحدت وقتئذ مع الحيثيين الذين استمروا يزحفون على مستعمرات مصر حتى انفصلت عنى الامبراطورية المصرية بآسيا إلى حدود مصر الشمالية الشرقية، على أثر ذلك هبت في البلاد ثورة داخلية عظيمة انتهت بسقوط الأسرة الثامنة عشرة حوالي سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد وأسدل الستار على الدور الأقل من تاريخ الامبراطورية المصرية.

ثم ظهر على مسرح السياسة قائد مصري يدعى حرمب كان فيما سبق موظفاً في الجيش في عهد الأسرة الثامنة عشرة استعمل قوته وشده فوطد النظام وأرجع الأمن للبلاد وأسس الأسرة التاسعة عشرة التي تسلمت مقاليد الحكم من سنة ١٣٥٠ إلى سنة ١٢٠٥ قبل الميلاد وأخذت تسترجع ما فقدته مصر من ممتلكاتها الآسيوية. لكن يلاحظ أن سلطة الحيثيين بسورية كانت عظيمة لدرجة عجز عن سحقها هجوم المصريون. نعم أن هجوم سبتي الأول وحروب رمسيس الثاني استمرت حوالي عشر سنوات لكنها لم تتجاوز حدود ممتلكات مصر الشمالية إلى ما بعد أرض فلسطين وهكذا استحال على المصريين أن يحكوا سورية حكماً مستمراً ثانية. وعظم النفوذ السامى بمصر وقتئذ. ثم ظهر الأوربيون لأول مرة في تاريخ مصر القديم فانزلوا جنودهم على ساحل غربى الدلتا واتحدوا مع الليبيين على اقتحام الوجه البحرى فصدمهم جيش ميفتاح وأبعدهم إلى بلادهم الأصلية. ثم اضطرت أحوال القطر المصرى بعد ذلك ودبت فيه الفوضى وفشا بين أهله الاقسام فسقطت الأسرة التاسعة عشرة حوالي سنة ١٢٠٥ قبل الميلاد.



شكل ٦ - ثلاثة شواذيف مستعملة لرى الأراضى
(ماخوذة عن عمل أندروود وأندروود بنو يورك)



شكل ٧ - حوض وادى النيل غربى طيبة ويشاهد أمامها الوادى
(تصوير أندروود وأندروود بنو يورك)

في هذا الوقت ظهر فرعون سنْتخت وابنه رمسيس الثالث وأسس الأسرة العشرين التي حكمت البلاد من سنة ١٢٠٠ الى سنة ١٠٩٠ قبل الميلاد وحافظت في أثناء تلك على كيان الإمبراطورية المصرية على رغم غارات القبائل الشمالية (التي أبادت الحيثيين) وعلى رغم الهجرة الليبية المستمرة داخل البلاد . ولما توفي رمسيس الثالث سنة ١١٦٧ قبل الميلاد فقدت مصر سائر ممتلكاتها علما النوبة وأسدل الستار على الدور الثاني من عهد الإمبراطورية .

وبقيت مصر محكومة بعثة رماسة ضعاف وأخذت تتقهقر في أثناء حكمهم حتى اقتصب منهم قسس آمون عرش مصر . لكن هؤلاء الكهنة سرعان ما خضعوا لخصم آخر بمدينة تيس التي هي شرق الدلتا أسس الأسرة الحادية والعشرين المتبدئة من سنة ١٠٩٠ الى سنة ٩٤٥ قبل الميلاد . وفي منتصف القرن العاشر قبل الميلاد دخل الليبيون خدمة الجليش المصري وصار منهم قواد ورؤساء حربيون . وفي سنة ٩٤٥ قبل الميلاد اغتصب أحد هؤلاء القواد المسى شيشق الأول عرش مصر وأسس الأسرة الثانية والعشرين ، وفي عهده ارتفعت البلاد نوما وحاولت استرجاع فلسطين . لكن قواد الجيوش المأجورين قزوا مركزهم تدريجيا في مدن الوجه البحري العظيمة فانقسم القطر المصري الى عدة امارات حربية صغيرة واضمحلت البلاد وتقهقرت في أثناء الحكم الليبي أى مدة حكم الأسرة الثانية والعشرين والثالثة والعشرين والرابعة والعشرين (أى من سنة ٩٤٥ الى سنة ٧١٢ قبل الميلاد) .

في ذلك الوقت ظهرت بلاد النوبة في التاريخ تدريجيا نتيجة هجرة بعض أعضاء الأسرة المالكة الطيبة على الأرجح الى مدينة تبته جهة الشمال الرابع حيث أسسوا مملكة مستقلة غزت بعد ذلك مصر وحكمتها من سنة ٧٢٢ الى سنة ٦٦٣ قبل الميلاد وبقى هؤلاء الأمراء مقيمين بمدينة تبته طول هذه المدة ، ولكنهم لم يتمكنوا من إخضاع أمراء الأقاليم العديدين بمصر فاستمر لذلك التراع بين الطرفين . وبينما هم كذلك أغارت جيوش اشور على القطر المصري وأخضعته وفرضت عليه الجزية فيما بين سنة ٦٧٠ وسنة ٦٦٢ قبل الميلاد . ثم ظهر بسامتيك الأول القائد المصري الماهر جهة صا المجر غربى الدلتا سنة ٦٦٣ قبل الميلاد فطرده جيوش نينوى (الأشورية) وانفرد بالحكم وبدأ عهد الاصلاح والرقي . وساعده على ذلك عدم وجود النوبيين بالقطر المصري لأن الأشوريين طردوهم سابقا . ويطلق الأثريون اسم "دور الاضمحلال" على المدة التي بين سنة ١١٥٠ وسنة ٦٦٣ قبل الميلاد التي تقرب من خمسمائة سنة . ويتقسم دور الاضمحلال هذا فيما بعد سنة ١١٠٠ قبل الميلاد الى العهد التيمسي الأموني (المتبدئ سنة ١٠٩٠ قبل الميلاد والمنتهى سنة ٩٤٥ قبل الميلاد) والعهد الليبي (المتبدئ سنة ٩٤٥ والمنتهى سنة ٧١٢ قبل الميلاد) والعهد الإتيوبي (المتبدئ سنة ٧٢٢ والمنتهى سنة ٦٦٣ قبل الميلاد) والعهد الأشورى الذين بدأ في أواخر العهد الإتيوبي .

وما أقل معلوماتنا عن "عهد الاصلاح" الذي كان مركزه صا المجر بالوجه البحري ، والسبب في ذلك يرجع الى انعدام معظم آثار تلك الجهة . وبالرغم من أن هيودوت وغيره من المؤرخين اليونانيين لم يجربونا الا بالقليل من تاريخ القطر وقتئذ وأن العهد الصاوى كان زاها يهبجا عظمت في أثناءه قوة مصر وكثرت اصلاحاتها لأنارها القديمة رغبة في الوصول الى "عهد الاداب" السابق

الذكر . ويلاحظ أن ملوك عهد الإصلاح استعانوا على بسط نفوذهم بجنود يونانية مأجورة . أما سياسة الملوك الصاويين فكانت راقية متمشية مع سياسة العهد اليوناني ، وفي خلال هذه المدة قامت مصر بدور سياسي خطير مراعية في ذلك بعض سنتها القديمة . أما أحوال البلاد الداخلية فقد ساءت حتى حالت دون نجاحها من مطامع الفرس ولذلك بعد ما حكم القطر المصري عدة أسر أغلبها مصرية تقلب عليها تميز عام ٥٢٥ قبل الميلاد .

الى هنا انتهى ما أردنا سردده من تاريخ مصر القديم على سبيل الاختصار ومنه يظهر للقارئ العوامل الخارجية التي كان لها أعظم تأثير في تاريخ مصر المستقلة واليك بيان أهم مميزات ذلك التاريخ :

تاريخ اعتبار السنة من خمس وستين وثلاثمائة يوم واستعمالها في المواقيت سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد .

تاريخ نهاية عهد ما قبل الأسر سنة ٣٤٠٠ قبل الميلاد .

تاريخ جلوس الملك مينا على عرش مصر سنة ٣٤٠٠ قبل الميلاد .

مدة حكم الأسرتين الأولى والثانية سنة ٣٤٠٠ الى سنة ٢٩٨٠ قبل الميلاد .

مدة حكم الملكة القديمة من الأسرة الثالثة الى الأسرة السادسة سنة ٢٩٨٠ الى سنة ٢٤٧٥ قبل الميلاد .

مدة حكم الأسرتين السابعة والثامنة سنة ٢٤٧٥ الى سنة ٢٤٤٥ قبل الميلاد .

مدة حكم الأسرتين التاسعة والعاشره الاثناسيتين سنة ٢٤٤٥ الى سنة ٢١٦٠ قبل الميلاد .

مدة حكم الملكة الوسطى الأسرتين الحادية عشره والثانية عشره سنة ٢١٦٠ الى سنة ١٧٨٨ قبل الميلاد .

تاريخ الاضطراب الداخلي وحكم الهيكسوس (الزارة) سنة ١٧٨٨ الى سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد .

مدة حكم الامبراطورية : الجزء الأول - الأسرة الثامنة عشره سنة ١٥٨٠ الى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد .

مدة حكم الامبراطورية : الجزء الثاني - الأسرة التاسعة عشره وجزء من الأسرة العشرين سنة ١٣٥٠ الى سنة ١١٥٠ قبل الميلاد .

مدة حكم دور الاضمحلال : وهي السنوات الأخيرة من حكم الأسرة العشرين سنة ١١٥٠ الى سنة ١٠٩٠ قبل الميلاد .

مدة حكم دور الاضمحلال : العهد التنيسي الآموني ويشمل الأسرة الحادية والعشرين سنة ١٠٩٠ الى سنة ٩٤٥ قبل الميلاد .

مدة حكم دور الاضمحلال: العهد اللوبي من الأسرة الثانية والعشرين الى الأسرة الرابعة والعشرين سنة ٩٤٥ الى سنة ٧١٢ قبل الميلاد .

مدة حكم دور الاضمحلال : العهد الإتيوبي وتدخل فيه الأسرة الخامسة والعشرون (سنة ٧١٢ الى سنة ٦٦٣ قبل الميلاد) سنة ٧٢٢ الى سنة ٦٦٣ قبل الميلاد .

مدة حكم دور الاضمحلال : العهد الآشوري سنة ٦٧٠ الى سنة ٦٦٢ قبل الميلاد .

مدة حكم دور الاصلاح : ويدخل فيه العهد الصاوي زمن الأسرة السادسة والعشرين من سنة ٦٦٣ الى سنة ٥٢٥ قبل الميلاد .

غزوة الفرس سنة ٥٢٥ قبل الميلاد .

ويجد القارئ في آخر هذا الكتاب جدولاً مدد حكم فراعنة مصر بشكل أوفى وأوضح من الكشف المذكور هنا . وقد استعملنا لضبط تواريخنا الأولى طريقتين : الطريقة الأولى تتلخص في جمع مدد حكم الملوك والطريقة الثانية فلكية أسامها فرق ربع اليوم بين السنة الشمسية والسنة المصرية القديمة . أما الطريقة الأولى فهي جمع أقل مدد يمكن اعتمادها لحكم الملوك ثم وضع كل منهم في العهد الموافق له بالنسبة الى وقت معين . فاستعمال هذه الطريقة مثلاً لتقدير المدة بين مبدأ الأسرة الثامنة عشرة وغزوة الفرس التي حصلت سنة ٥٢٥ قبل الميلاد يرشدنا الى مدة تبلغ ١٠٥٢ سنة على أقل تقدير^(١) مع مراعاة أحدث معلوماتنا الأثرية المذكورة فاستنتجنا من ذلك أن الأسرة المذكورة جلست على العرش المصري حوالي سنة ١٥٧٧ قبل الميلاد على الأقل ان لم يكن قبل ذلك . ولما استعملنا الطريقة الثانية وهي الفلكية المبينة على شروق الشعري اليمانية ومبادئ الأشهر القمرية وفرق ربع يوم بين السنة الشمسية والسنة المصرية القديمة اتضح لنا أن الأسرة الثامنة عشرة المذكورة جلست على كرسي الملك حوالي سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد^(٢) . ولكن الطريقة الأولى لا يمكن استعمالها وحدها لمعرفة تواريخ الحوادث التي حصلت قبل عهد الأسرة الثامنة عشرة لندورة الآثار المساعدة على ذلك التقدير . ومن حسن الحظ أن مبدأ حكم الأسرة الثانية عشرة المذكورة ذكر على الآثار مصحوباً بشروق نجم الشعري اليمانية وباستعمال الطريقة الفلكية لذلك اتضح لنا أن هذه الأسرة تولت الحكم في مصر حوالي سنة ٢٠٠ قبل الميلاد مع فرق طفيف يقدر بنحو سنة . بعد ذلك أمكننا معرفة تواريخ حوادث الأسرة الحادية عشرة باستعمال طريقة الجمع . ولعدم التأكد من طول مدة حكم اهتاس تعذر علينا معرفة المدة التي مضت بين عهدي الملكة القديمة والملكة الوسطى . ومع ذلك لو قدرنا لكل من الملوك الثمانية عشر الإهناسيين مدة ست عشرة سنة وهي مدة الحكم لأغلبية ملوك البلاد الشرقية بلغت مدة حكم ملوك اهتاس ٢٨٨ سنة^(٣) .

(١) ٤٧:١ - ٥١ (٢) ٤٦-٣٨:١ (٣) ٥٣:١

إذا اعتبرنا هذه المدة ٢٨٥ سنة انحصر الخطأ في مدة لاثريد على قرن واحد على وجه التقريب . أما مدة حكم المملكة القديمة فيمكن معرفتها بآثار عصورها وقوائم أسماء ملوكها الواردة على الآثار مع خطأ بين الزيادة والنقص لا يزيد على مدة جيل أو جيلين . وقد بينا فيما سبق أن غموض مدة حكم ملوك اهناس يؤثر في التواريخ السابقة له بمدة تهربية . واستدل من النقوش التاريخية التي على حجر بالرمو أن الأسرتين الأولى والثانية حكمتا مدة تقرب من ٤٢٠ سنة^(١) وأن جلوس مينتا على عرش مصر وانضمام قطرى هذه المملكة حصلوا حوالي سنة ٣٤٠٠ قبل الميلاد . لكن يلاحظ أننا لا نزال نجهل بالضبط طول مدة حكم المملكة القديمة كما أننا نجهل مدة حكم ملوك اهناس . وعلى كل حال فهذه التواريخ جاءت موافقة لآثار عصورها التي ترجع الى ما قبل سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد . ويرجع السبب في المبالغة في المواقيت التي يجدها الباحثون في بعض الكتب التاريخية الى اتباع ما أوردهه المجلدات الأثرية القديمة التي صدقت توقيت مانيتو العظيم الخطأ الكثير الاهمال والتعقيد الذي لا يتفق مع معظم آثار عصوره . زد على ذلك أننا لو جمعنا مدد حكم الأسرات التي أوردها مانيتو لوجدناها تبلغ عددا عظيما لا يصدقه العقل ولا يستحق الالتفات لحظة لأنه يقرب من ضعف التقدير المستخرج من الآثار التاريخية . لذلك كانت تواريخ مانيتو ضعيفة لا تحتمل المناقشة والجدل ومن ثم قل اعتماد الآخذين بها كثيرا حتى صاروا يبتدون على الأصابع .

وكما أننا اضطررنا بحكم الحال في أثناء توقيتنا لحوادث مصر التاريخية الى الرجوع الى الآثار كذلك اضطررنا عند البحث عن تاريخ المملكة القديمة أن نلجأ الى آثار تلك الأزمنة الغابرة^(٢) لكن المعلومات الممكن استيفؤها بهذه الكيفية قليلة من حيث الحوادث والمآثر . أما البحث في الآثار عن المدنية فسهل لوضوحها كثيرا في كل ما وصل الينا من أعمال الحفر والرسم والنقش والمهندسة . وأما الاستسلام عن حياة الأفراد والطوائف الخارجية القصيرة المدة فأمر يكاد يكون مستحيلا لشدة ندرة أخباره على الآثار . من ذلك يتضح لنا أن كل مؤرخ يحاول وضع تاريخ لمصر القديمة من آثارها الباقية فقط يحد نفسه في شدة الحيرة لنقص هذه الآثار وقلة أخبارها . وهو في هذا الموقف على نقيض زميله الذي يحاول وضع تاريخ لأوربا لأن معلومات الموضوع الأخير كثيرة . وبديهي أن قدماء المؤرخين الأوربيين كانوا مشقات عظيمة أولا تعادل ما يسانيه مدونو تاريخ مصر القديم الآن .

وما أقل ما وصل الينا من المخاطبات السياسية والمجلات والتواريخ والسجلات الرسمية والتقارير الى يرجع تاريخها الى العصور المصرية القديمة . من ذلك يتضح للقارئ ما يقاسيه المؤرخون الذين يربون وضع تاريخ لمصر القديمة كالذي يمانيه المؤرخ الذي يحاول وضع تاريخ الدولة اليونانية القديمة من نصوص آثارها الباقية الآن . ولنعلم أننا لم نحصل الآن على تاريخ مصر القديمة لمؤرخ مصري الا ما كتبه مانيتو وبناء على خرافات أهل عصره في القرن الثالث قبل الميلاد . والحقيقة أن كتابة هذا المؤرخ لا تستحق أن تسمى تاريخا . وعلى كل حال فالمؤرخ القديم لم يدر بخاطره ما ستصل اليه نفوس القوم من الأخبار في الأجيال القادمة . والمعروف أن الأخبار التاريخية كانت تسجل بإيجاز

من قديم الزمان لكننا لم ننتد لان الاعلى سجيلين من هذا النوع أولها حجر بالرمو^(١) الشهير الحاوى لمختصر تاريخ ملوك الأسرة الأولى الى الأسرة الخامسة وثانيهما تاريخ حروب تحوتمس الثالث التى شنها فى سورية . عدا ذلك لم نعر الا على التزر اليسير من الآثار ذات المعلومات التاريخية . ونحن فى هذا الموقف لا يسعنا الا أن نورد وصفا تقريرا لمدينة الملكتين القديمة والوسطى مع بعض اشارات الى حوادث قليلة . أما عهد الامبراطورية فقد وصلتنا عنه معلومات قديمة أمكننا بها معرفة حوادثه الخطيرة دون الطفيفة . ومع ذلك فهناك نقط عديدة بشأن تلك العصور لا تزال مجهلة ولا نعرف كيف نؤولها . وقد تمكنا من وصف نظام الحكومة وتآليف الاجتماع وأهم أفعال براطرة تلك العصور مع ذكر طرف من الروح السائدة فى هذا العصر بقدر ما سمحت به الآثار . أما دورا الاضمحلال والاصلاح فراجعنا الأثرية بخصوصهما تكاد تماثل فى القلة مراجع العصور القديمة لذلك صار المؤرخ يتردد بين التأويل والاحتمالات وقد اضطر المؤلف أن يتبع فى كتابه هذا خطة التحفظ الشديد لقلة المراجع التاريخية الخاصة بموضوعه .

(١) انظر شكل ٢٩ و ٢٦:١-١٦٧

الفصل الثالث

مصر قبل حكم الأسر

في ذلك الجزء الصحراوي القاحل الشاسع الذي يخترقه نهر النيل ماش في قديم الزمان عتصر آدمى وساعدت الأمطار الغزيرة على خصب الأرض وزيادة نتاجها . ثم تدير هذا الاقليم فقلت أمطاره وشجحت زراعته وانعدمت طبيقته الطينية تدريجيا فهجره أهله . ويرجع ذلك النفيير الى آلاف السنين قبل ظهور المدنية المصرية القديمة التي سنتناول بحثها الآن . ولم يصل بنا من هؤلاء الأقوام الأقدمين الذين قطنوا الصحارى المصرية قبل افقارها سوى عدّة أدوات من حجر الفلّز^(١) وجدت مبعثرة فوق الصحراء أثرنا كل الطبقة الصخرية التي كانت تغطيها . ويعتبر أقوام العهد الحجري المذكور أقدم أناس سكنوا القطر المصري . أما علاقة هؤلاء الأقوام بمدينة مصر وقت الأسر أو قبلها فلا تزال مجهولة جهلا تاما ولذلك اعتبرت آثار تلك الأقوام ضمن مباحث علم طبقات الأرض ورتق الانسان . أما القوم الذين سنتناول الآن تاريخهم فهم سلالة الليبيين (سكان شمالي إفريقية) وقبائل الجالآ والصومال والبيجا (سكان شرقي إفريقية) . والمعروف أن أقواما ساميين من عرب آسيا غزوا وادى النيل وعمموا فيه لغتهم فصبغوه بصيغتهم كما هو ظاهر من النقوش المصرية القديمة . وبالرغم مما اعترى اللغة من تغيير وتحريف باختلاط السكان فقد حافظت على ساميتها بمرور الزمن . ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن هذه اللغة وجدت كاملة على الآثار منذ أقدم عصورها . واستمر الليبيون وسكان إفريقية الشرقية يختلطون بسكان وادى النيل مدة طويلة في العصور التاريخية، وأهم اختلاط حصل بين الليبيين وأهالي وادى النيل هو الوارد ذكره في النقوش الأثرية منذ ثلاثة آلاف سنة تقريبا .

أما تاريخ الهجرة السامية الأولى فيرجع بلا مرء الى ما قبل العصور التاريخية المعروفة ، لكن الثابت أن هذه الغزوة تكررت بعد ذلك مرارا في العصور التالية ، ومحال أن نعرف تاريخ تلك الغزوة السامية والطريق الذي سلكه هؤلاء الغزاة ولكن الأقرب للذهن أنهم أتوا من برزخ السويس كما فعل العرب في بداية الاسلام . ولما دخل هؤلاء الغزاة مصر عمموا لغتهم السامية لكنهم سرعان ما تطبعوا بطباع المصريين ودانوا بدياتهم ودليلنا على ذلك أن ديانة وادى النيل حافظت على مصريتها تماما فلم يدخلها عوامل بدوية من الخارج . ومما يبرز رأينا بأن هؤلاء الغزاة نشروا لغتهم فقط وجود علاقة أثرية متينة بين صناعة الأواني الخزفية المستعملة الآن بين قبائل ليبيا الحديثة والتي استعملت سابقا بوادى النيل في مبدأ حضارته . ورسوم الصوماليين الأقدمين الواردة على الآثار المصرية كثيرة الشبه بالمصريين . لكن من دواعي الأسف أن فحص الجثث المصرية القديمة أسفر عن عدة نتائج متناقضة بين علماء جسم الانسان وانتهى بعدم الوصول الى حقائق ثابتة نحو أصل المصريين الأقدمين . أما الرأي القديم القائل بأن قدماء المصريين من المنصر الزنجي الإفريق فقد نبذ ولم يعتد به وكل ما يمكن أن يقال عنه انه اذا وجدت مثل هذه العلاقة فهي نتيجة اختلاط قدماء المصريين بزواج إفريقية بدرجة طفيفة تماثل اختلاطهم بسائر العناصر الأخرى .

(١) الفلّز : حجره حدسك السكين وهو المشهور بالصوان .

الكلام على المصريين قبل حكم الاسر

لوحظ على هؤلاء القوم شعر أسود وبعض مبادئ الحضارة فرجالم كانوا يتحفون أحيانا جلود الحيوانات فوق أكافهم أو يصنعون منها ألبسة قصيرة وتارة يلبسون المآزر الكتانية البيضاء القصيرة . أما النساء فكانن يلبسن الملابس الطويلة المنسوجة غالبا من الكتان مبتدئة من الكتفين وواصلة الى القدمين . وقد وجدت عدة تماثيل صغيرة لتلك العصور تمثل الذكور والإناث عراة واستعملت النعال أحيانا وكذا الوشم . وكان القوم يتزينون بالحل كالخواتم والأساور والأقراط المصنوعة من الحجر والعاج والعظم والحب المصنوع من الفلز والبلور والعقيق والحجر السماوي . وكان النساء يسترحن شعورهن بالأمشاط ويستعملن لتلك الدبابيس العاجية المزخرفة . أما أصابع الوجه وأكحال العيون الخضراء فكانت تستعمل مسحوفة موضوعة على ألواح صغيرة من الأرنؤاز الحفوري . واعتاد القوم وقشد تشيد مساكنهم بالصاليج^(١) المزوجة أحيانا بالطين أو بناءها باللبن . أما أثاث المساكن فيسبغ تجسم فيه الفنون الجميلة والمهارة الآلية . واستعمل القوم الملاصق العاجية المنقوشة التفاعير والأيدى . وبالرغم من جهلهم بالآلة التي يستعملها الخراف الآن فقد صنعوا أواني خزفية عديدة مختلفة الأشكال . وما أكثر ما تنويه دور التحف بأوربا وأمريكا من هذه الأواني الحمراء أو السوداء المزخرفة بالرسم الهندسية المختلفة ذات الرسوم المثلثة لمراكب وحيوانات وطيور وسمك وأشجار وأناس من تلك العصور القديمة (شكل ١١) ومع جهل هؤلاء القوم بصناعة الزجاج فقد فقهوا طريقة لمان الحب والألواح الخزفية وما شاكل ذلك . وقد عثرنا على تماثيل



شكل ٨ - أقدم رسم معروف لأن ملوحة بالألوان المائية وجدت على حائط قبر بريح تاريخه ال تمل عهد الأسر الفرعونية ويشاهد في هذا الرسم صور سفن وحيوانات وحشية وسيادين وغير ذلك

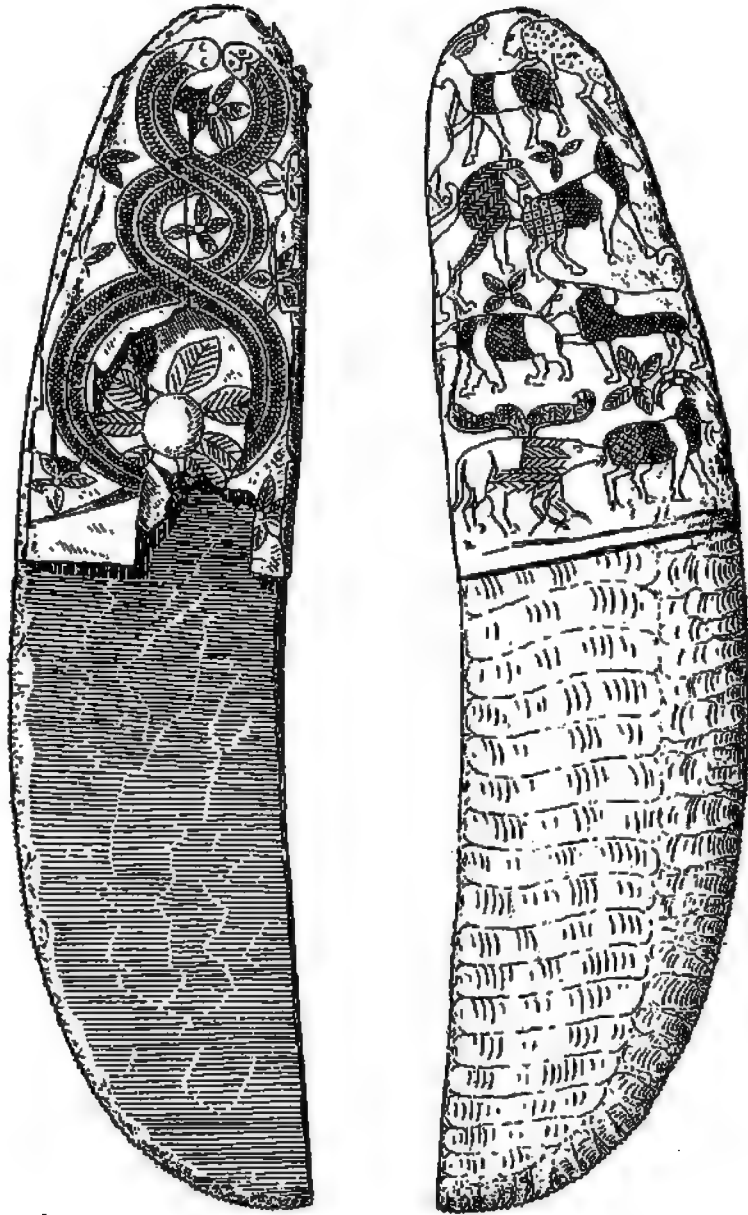
(١) الصاليج واحدها صلوج وهو ما لان واخضر من قضبان الشجر والكرم .

خشبية وطاجية وحجرية غير متقنة الصنع يتبين منها مبادئ تلك الفنون الجميلة في عصور الأسر الأولى .
 ووجد الأستاذ پترى ثلاثة تماثيل للعبود من جهة فقط تجسم فيها حضارة ذلك العهد السحيق الذي
 يرجع تاريخه الى ما قبل حكم الاسر . بعد ذلك استبدلوا بصناعة الخزف تدريجيا صناعة الحجر المنتومة
 فتمكن القوم حينئذ من صناعة الأباريق والأكواز والزلم وما شاكلها باثقان زائستعملين لذلك أصلب
 الأحجار كالصوان والساق . وأقصى درجة بلغت صناعة حجر الظزرج تاريخها الى هذا العهد . وفيه
 أيضا تمكن القوم من عمل الآلات المعزجة كالمقابض العاجية المنقوشة والفؤوس الحجرية والصوانية
 ورماح الأسماك ذات الرموس الظزرية والصويلحانات والنبابيت ذات الرموس الضخمة المماثلة في الشكل
 لثمرة الكثرى والتي استعملت قديما في الحروب المصرية والبابلية . وتمكن القوم أيضا من عمل الأسلحة
 والأدوات النحاسية . لذلك كان هذا العصر عصر الانتقال من العهد الحجري الى العهد النحاسي .
 أما المصنوعات الذهبية والفضية والرصاصية فكانت معروفة لكنها نادرة .

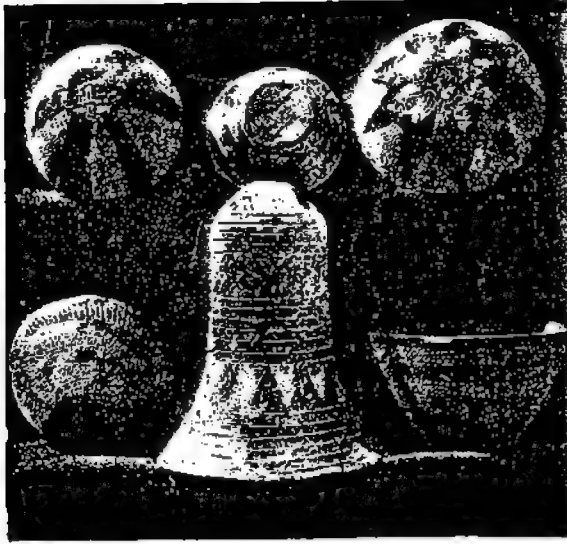
ولما كانت الزراعة الحرفة الرئيسية لسكان وادى النيل الخصيب ظهر هؤلاء القوم زراعيين
 ماهرين وتدينوا بديانة مملوءة بروح الزراعة ، أما حقول وغابات وادى النيل غير الآهلة بالسكان فكانت
 مأوى لكثير من الحيوانات . واستدل من كثرة المصنوعات العاجية وتعدد رسوم الفيل على آثار تلك
 العصور أن هذا الحيوان كان موجودا بالفطر المصري . أما الزراعة وجاموس البحر والذئاب الوحشية
 (التي اعتبرها القوم بعد ذلك رمزا للعبود ست) فكانت تاروى الغابات أيضا لكنها تلامشت الآن .
 لذلك برع قدماء المصريين في صيد البر والبحر فاقترسوا أشد الحيوانات بأسا كالسباع والثيران الوحشية
 بالأقواس والرماح وخرجوا في سفينة صغيرة مسلحين بالرماح والحرايب لصيد جاموس البحر والتمساح ،
 وأثبتوا ذلك بالرسوم على صخور وادى النيل مكسوة بطبقة أوكسيدية تعرف بالياتينا نتيجة تأثير الهواء
 فيها ، وهذه الرسوم تعتبر أقدم وأجمل ما وجد من نوعها في التاريخ القديم .

ولما زادت صناعة مصر انتشرت تجارتها في البلاد المجاورة . فقد رؤى على الآثار غير سفينة
 الصيد الصغيرة صور أخرى لسفن كبيرة مانحة في مياه النيل تدفعها الى الأمام سكاكين^(١) ضخمة ومجاديف
 عديدة . أما السفن الشراعية فكانت معروفة لكنها قليلة العدد . وعلى كل سفينة علم عليه رسوم تشير
 الى عمل معين فمن هذه الرسوم قوسان متقاطعان يرمز بهما دائما الى المعبودة نيت الصاوية ومنها
 أيضا صورة الفيل يقصد بها غالبا جزيرة الفيل الواقعة جنوبي أسوان . والغالب أن هذا الحيوان
 كان كثير الوجود بالفطر بدليل كثرة استعمال العاج ورواج تجارته في الأسواق الجنوبية المصرية .
 ويفحص هذه الأعلام لوحظ أنها كثيرة الشبه بأعلام أقسام مصر التي تجزأت اليها فيما بعد ، لذلك
 لا يبعد أن تكون أعلام هذه السفن دليلا كافيا على تقسيم الفطر المصري وقتئذ الى عدة أقسام كالتي
 سماها اليونانيون فيما بعد (Nomes) وسيأتى الكلام عليها بعد . فان صح هذا الرأي كان الوجه القليل
 مقسما وقتئذ الى نيف وعشرين قسما . وعلى كل حال لحضارة تلك العصور كانت واقية بدليل كثرة

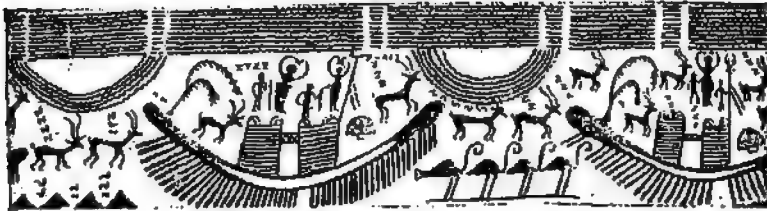
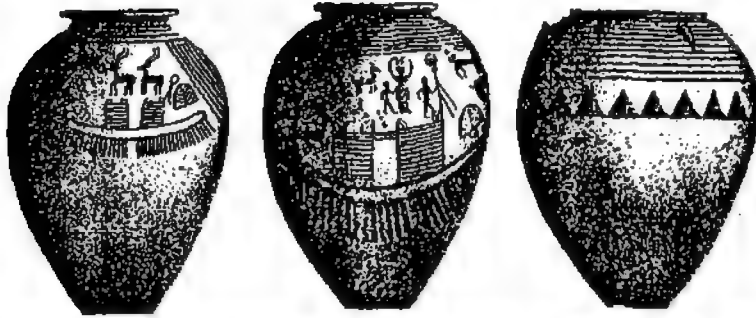
(١) السكاكين : واحدا ما سكان وعودة المركب .



شكل ٩ - أسلحة من الصوان يرجع تاريخها الى عهد سابق لحكم الأسرة ، أياها
 مزودة بالذهب ومزينة بالرسم الفاترة (مأخوذة من دى مرجان)



شكل ١٠ - أوان خزفية مغطاة بنقوشة يرجع تاريخها الى عهد سابق لحكم الأسمر (ماخوذة عن بنى)



شكل ١١ - أوان خزفية يرجع تاريخها الى عهد سابق لحكم الأسمر تشاهد عليها نقوش ممدودة لسفن وحيوانات ورجال ونساء. (ماخوذة عن دى مرجان).

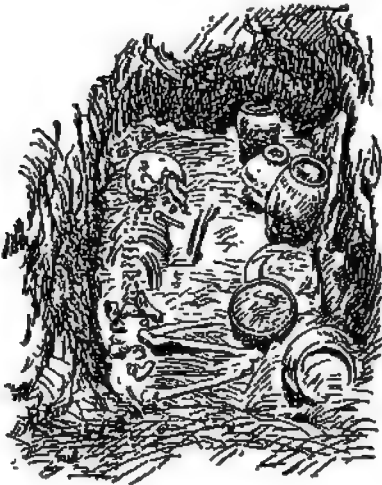
مدنها الكبيرة وعواصم أقطاعاتها كما كانت الحالة في بلاد بابل. وكان لكل مدينة وما جاورها من القرى حاكم قوى ومعبود مستقل ومعبد ساذج وسوق عام تتعامل فيه أهالي البلاد المجاورة. أما كيفية تكوين وترتيب أقسام مصر وقتئذ فتشبه غالباً ما هو حاصل بالبلدان الأخرى. ويرجع تاريخ تكوين الإمارات الصغيرة والمدن الكبيرة المستقلة التي نشأت منها المملكة المصرية إلى زمن بعيد جداً يصعب الاهتداء إليه بخلاف الحال في مملكة بابل الحديثة.

واتحاد هذه الإمارات الصغيرة والمدن الكبيرة بعضها مع بعض وتكوين مملكتين منهما بالوجهين البحرى والقبلى شيء لا يمكننا البحث فيه الآن أو في المستقبل. والمرح أننا لن نسمع شيئاً عن أبطال تلك العصور وغزاتها وحروبها وفتوحاتها وأزمانها والغالب أن هذا التطور الحكومى العظيم تم قبل سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد. وما أقل ما عرفنا عن المملكتين البحرية والقبلىة إذ كل ما يمكننا ذكره عنهما أن الوجه البحرى كان دائماً عرضة لهجوم الليبيين القاطنين غربيه وأنه لكثرة هجرة هؤلاء القوم إليه انصبغ الجزء الغربى منه بالصبغة الليبية التي بقيت ظاهرة حتى زمن هيرودوت المؤرخ اليونانى الشهير. وتشير أقدم أخبار الوجه البحرى إلى منازعات ومشاحنات مستمرة مع الليبيين لذلك لا يبعد أن كانت المملكة البحرية وقتئذ تحت حكم ملوك ليبيا. وأنها لذلك انصبغت بصبغة هؤلاء القوم ودليلنا على ذلك أن معبد مدينة صا الحجر (سائس) الواقعة غربى الدلتا والمعتبرة مركز النفوذ الليبى سُمى قديماً "بقصر ملك الوجه البحرى" ثم إن رمز معبودة ذلك المعبد وهى نيت استعمل في الوشم كثيراً على أذرع الليبيين. ولا يبعد أن صا الحجر كانت وطننا لملك لىبى قديم. ووجدت رسوم بارزة على جدر معبد هرم ساحورج ببو صير تمثل أربعة أمراء لىبيين واضعين على جباههم أصلال الفراخنة يغلب أنها وصلت إليهم لصلبة دموية بينهم وبين ملوك ليبيا الذين حكموا الوجه البحرى سابقاً. واتخذت المملكة البحرية نبات اللوطس رمزاً لها لكثرة وجوده بمستنقعات ذلك الاقليم ورمزت لملكها بالزنبور وتوجته بالناج الأحمرذى الشكل المخصوص. وتشاهد هذه الشارات بكثرة في النصوص الهيروغليفية الحديثة. بعد ذلك اعتبر اللون الأحمر خاصاً بمملكة الوجه البحرى فأطلق على خزانته اسم "البيت الأحمر".

واختفت آثار الوجه البحرى بتغلب رسوب الفيرين عليها سنوياً فضاء بذلك أملنا في العثور عليها لسلك الطين الذى يعلوها. والمظنون أن سكان الوجه البحرى سبقوا سكان الوجه القبلى في الحضارة لأنهم تبهوا في القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد إلى أن السنة الشمسية تكون من ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وأزخوا مبتدئين بالسنة التي ظهر فيها نجم الشعرى اليمانية مع شروق الشمس. ودلتنا المباحث الفلكية أن هذا الحادث حصل حوالى سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد. ويتميز هذا الاستكشاف الميقانى واستعماله في الشؤون الدنيوية خطوة كبيرة نحو الرقى وشرقاً عظيماً للوطن الذى كشف فيه. ولم تستكشف دولة من دول العالم منذ أقدم الأزمنة حتى مبدأ العصر الأوروبى المتوسط توقيتاً سنوياً مثله تحظى الصعوبات الناجمة من استعمال السنتين القمرية والمصرية الشمسية وعدم تقسيم الأشهر القمرية للسنة المصرية الشمسية بالتساوى. لذلك قسم سكان الدلتا سنتهم إلى اثني عشر شهراً

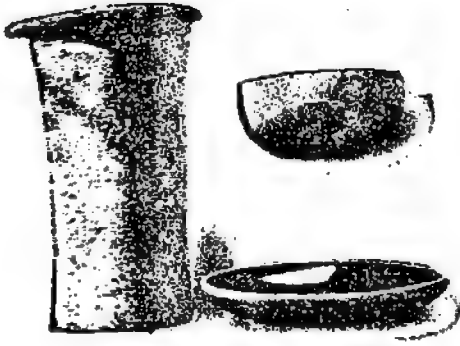
وجزءوا كل شهر ثلاثين يوما حفظا للنظام وتسهيلا للداورات . وهكذا اعتقد سكان الدلتا أن التوقيت شيء عرقي يصطلح عليه القوم بلا مراعاة لتغيرات الطبيعة عدا الأيام والسنين . فقسّموا السنة الى أشهر وأيام كما ذكر ثم أضافوا الى آخر ذلك خمسة أيام قدسوها وأقاموا فيها الأعياد مع العلم بأن تاريخ استعمال السنة المصرية القديمة ابتداء بظهور نجم الشعرى اليمانية مع شروق الشمس . وقد بحث عنه فليكا فوجد أنه حصل في التاسع عشر من شهر يولييه سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد^(١) ولما كانت السنة المصرية أقل من السنة الشمسية الحقيقية برع يوم لوحظ أن الفرق يبلغ يوما كاملا كل أربع سنوات ويبلغ ستة كل ١٤٦٠ سنة وأنه بعد مرور هذه المدة (أى ١٤٦٠ سنة) يتفق ظهور الشعرى اليمانية مع شروق الشمس . من ذلك يتضح للقارئ أنه لو عثر على أخبار لهذا التوافق الفلكي (بين شروق الشعرى والشمس) أمكننا معرفة تاريخ تلك الأخبار باستعمال الطرق الفلكية فلا يزيد الخطأ فيه على نحو أربع سنوات . ولعلم أن يوليوس قيصر الرومان هو أول من أدخل التوقيت المصري امبراطوريته ثم عم استعماله العالم . من ذلك يتضح أن استعمال التوقيت المصري عمر مائة ستة آلاف سنة تقريبا وأن الفضل في ذلك يرجع الى سكان الوجه البحري الذين عاشوا في القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد . وللاحظ أن تقسيم التوقيت المصري أفضل كثيرا من التوقيت الروماني لأنه أسهل استعمالا فهو يقسم الى اثني عشر شهرا والشهر الى ثلاثين يوما أما الثاني فيقسم السنة الى اثني عشر شهرا غير متساوية الأيام .

ومملكة الوجه القبلي أكثر امعانا في المصرية من الدلتا وطاصتها مدينة الكاب ويقال لها بالمصرية نخب وشعارها نبات البردى وتاج ملكها أبيض لذلك أصبح اليأض اللون الرسمي للصعيد . أما الملك فكان يقطن إحدى ضواحي مدينة الكاب المسماة نخبن وهي على الشاطئ الغربي للنيل والمعروفة عند اليونان باسم (Hieraconpolis) . أما عاصمة الوجه البحري فيقال لها بوتو ولها ضاحية يقال لها ب . ولكل من هاتين العاصمتين معبودة تدرأ عنها الضرر والمصائب ، فمعبودة بوتو كان يرمز لها بأفعى تدعى بوتو أيضا . أما معبودة نخب أو الكاب فترسم نسرا وتدعى نخب كذلك . وقد عبد في كل من هاتين العاصمتين المعبود حوريس مناظلا عن المملكتين الشمالية والجنوبية . واعتقد أهالى تلك المصور في البعث والحياة الأخرىة بشكل يماثل الحياة الدنياوية ، واتخذوا مقابرهم عادة في سلسلة الجبال الغربية على حافة الصحراء . وقد كشفت حديثا آلاف من هذه المقابر فوجدت



شكل ١٢ - قبر يرجع تاريخه الى زمن سابق لحكم الأسر

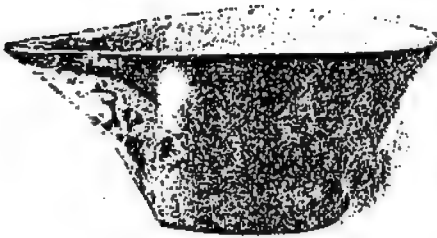
(١) جوليان .



شكل ١٤ - أوان مرمرية يرجع تاريخها الى عهد الأسرة الأولى (مأخوذة عن بترى)



شكل ١٣ - قضيب من الذهب منقوش عليه
أمم الملك ميتا (٣٤٠٠ قبل الميلاد)
وهو أقدم حل منقوش



شكل ١٦ - أوان نحاسية يرجع تاريخها الى
زمن الأسرة الأولى (مأخوذة عن بترى)



شكل ١٥ - أرجل كراسيه نومة من العاج المنحوت
يرجع تاريخها الى زمن الأسر الأولى (دارتحف برلين)
(المروقة الآن دارتحف هاسكل)

بيضية أو مستديرة الشكل مسطحة الفرار حاوية لجنث منحنية انحناء الجنين في رحم أمه . وأقدم هذه الجنث ملفوفة في جلود الحيوانات ثم استبدل بهذه اللقائف الجلدية أقمشة منسوجة . أما التحنيط فلم يستعمل وقتئذ . ووجد تحت هذه الجنث حصيد من القش المضفور وعثر في أيديها وعلى صدورها على ألواح أردوازية صغيرة لسحق الحجر الملكي الأخضر بقصد استعماله لتحسين الوجه والهيئة في الآخرة ووجد هذا المسحوق محفوظا في أيكاس صغيرة بجوار الجنث مع أدوات العطر والزينة وشوهدت حول ذلك أوان خزفية وحجرية حاوية لبقايا أغذية أو أشربة أو أدهان تخص الميت في الآخرة . ووجدت أيضا في قبور تلك المصور أسلحة من الطر وأسهم ملبسة بالعلاج يستعملها المتوفى للصيد الذي يقتات من لحمه . ولوحظ أيضا مع هذه الجنث أنموذجات خشبية لمراكب عديدة تسد حاجات صاحبها بعد وفاته . أما أسقف تلك القبور فصنوعة من أفرع نباتية تعلوها طبقة رملية أو حجرية تبدو منها معالم الحضارة . بعد ذلك استعمل اللبن في تشييد المقابر . وعثر في بعض الجهات على أوان خزفية كبيرة مقلوبة فوق جنث الموتى تؤدي وظيفة السقف .

ويرجع معظم معلوماتنا التاريخية والأثرية عن عصور ما قبل حكم الأسر إلى هذه المقابر . ففيها عثرنا على الدعوات الدينية والعزائم السحرية التي اتخذت صيغة مخصوصة بمرور الأيام . وقد اهتمنا إلى صيغ هذه الدعوات والعزائم في نقوش أمهرام الأسرتين الخامسة والسادسة اللتين يرجع تاريخهما إلى ألف سنة تقريبا بعد ابتداء حكم الأسر . وقد أخبرنا بيبي الأول أحد ملوك الأسرة السادسة أنه شيد معبدا جهة دندره مماثلا لمعبد هناك أقامه سابقا أحد ملوك الوجه القبلي قبل حكم الأسر ومنه أستنتج أن أهالي تلك المصور العتيقة شيّدوا معابد على نمط المعبد المذكور .

وزيادة على ما بينه هؤلاء القدماء من مبادئ المدنية والرفق فاتهم نجحوا في اختراع الكتابة والقراءة . وأستدل من المباحث التي عملت لكشف طريقة التوقيت المصرية أن قدماء المصريين استعملوا الكتابة منذ نحو خمسة آلاف سنة وأن كتاب الأسرة الخامسة الذين أتوا بعد ذلك بألف سنة دونوا طائفة كبيرة من أسماء ملوك الوجه البحري وبعض ملوك الوجه القبلي من الذين يرجع تاريخهم إلى ما قبل حكم الأسر (شكل ٢٩) كما نسخوا أيضا عدة نصوص دينية من كتاب الموتى يرجح أنها نقلت سابقا عدة دفعات . ولا يخفى أن الخط الهيروغليفي الذي استعمل في الوجه البحري لاجراءات الحكومة والملك والخزانة لم يكشف بقاء وقت اعتلاء الملك مينا العرش المصري بل كان مستعملا قبل ذلك بمدة طويلة ، ودليلنا على هذا أن الخط الهيرواطليقي كان مستعملا في مبدأ الأسرة الأولى وهو كما لا يخفى اختزال لخط الهيروغليفي فلا بد إذن أن يكون هذا الأخير مستعملا قبل حكم الأسر زمن طويل ولكن لم تصل بنا معلومات تاريخية عن مآثر ملوك الوجه البحري والقبلي الذين يرجع تاريخهم إلى ما قبل القرن الرابع والثلاثين قبل الميلاد ، والسبب في ذلك هو عدم عثورنا على نقوش تاريخية بمقابرهم . وغاية ما اهتمنا إليه من تلك المصور هو مقابر فقراء القوم الباطلة من الآثار والنقوش المفيدة . ولا نعرف من أسماء هؤلاء الملوك الأقدمين سوى سبعة من ملوك الوجه البحري أمثال : سكا وخايو وئيش . أما ملوك الوجه القبلي فلا نعلم من أسمائهم شيئا لكن يقال إن هناك ملكا

كان يلقب بالعقرب اعتبره بعض الأثريين ذا نفوذ عظيم على الوجه القبلي لكثرة وجود اسمه على الآثار خلافاً لغيره من ملوك تلك الأوقات^(١) . والظاهر أن كتاب الأسرة الخامسة لما أرادوا إحياء ذكرى هؤلاء الملوك مد وفاتهم (بحوالى ثمانمائة سنة) ولم يتمكنوا من سرد أعمالهم اقتصرنا على ذكر الأسماء فقط^(٢) . ودلنا الآثار على أن هؤلاء الملوك نعتوا بأنهم "عباد حوريس" ثم قدسوا فنسبت إليهم كثير من الصفات الإلهية ثم قُربوا من منزلة المعبودات فاعتبروا وزناً للمعبودات التي حكمت مصر قديماً . وهذا يعني أن المصريين القدماء اعتبروا حكم هؤلاء الملوك وسطاً بين عهد الآلهة القديم وبين حكم الأمر البشرية . ونعت ما يتوفى تاريخه هؤلاء الملوك "بالموتى" ومنه يتضح أن أهميتهم التاريخية ثلاثت تدريجياً وتبدلت وقامت على أنقاضها أهميتهم الدينية فاعتبروا آلهة في عواصم أقسام مصر .

والمعروف أن التقدم البطيء المطرد في الملكتين الشمالية والجنوبية تكفل في آخر الأمر باتحادهما . وقد أثبتت لنا الآثار المصرية صدق الرواية اليونانية القائلة بأن الملك مينا هو أول ملك مصرى ضم إلى حكمه الوجهين القبلي والبحري . ومنه يتضح أن هذا الملك الذى كان معتبراً حتى عهدنا هذا فرداً من "عباد حوريس" هو فى الحقيقة رجل ذو مركز تاريخى عظيم . والظاهر أنه كان حربياً ماهراً لأنه ضم موارد الوجه القبلي فى قبضته بقوة وأخضع بها الوجه البحرى فأتم بذلك مجهودات أسلافه وكون للقطر المصرى قوّة مركزية حكومية . ومينا هذا من مدينة طينة وهى بلدة قريبة من العرابية لا تكاد تعرف . قال هيرودوت أن عدم حلول هذه المدينة فى منتصف القطر المصرى دفع مينا إلى إنشاء نهران عظيم حوّل به مجرى النيل إلى شرق منف ليتكّن من تخطيط هذه المدينة فى محلها الحالى . فإذا صححت هذه الرواية كانت هذه المدينة مركزاً لمينا ومقر إدارته ومنها استمد نفوذه بسهولة على سائر أنحاء القطر . وقد بسط سلطته فى الخارج فأرسل جيشاً إلى الجزء الشمالى للنوبة^(٣) الذى هو بين الشلال الأول ومدينة ادفو . قال ما يتروا أن هذا الملك نعم بحكم طويل وسجل له التاريخ ذكراً مغلداً وهو أمر واضح جلى . ودفن بالصعيد بالقرب من طينة مسقط رأسه (جهة العرابية) أو شمالى ذلك بقليل جوار قرية نجاده الحديثة حيث عثر على مقبرة مشيدة باللبن يحتفل أنها له وفى هذه المقبرة وفى أمثالها بالقرب من العرابية عثر على عدة آثار من عهد الأسرة الأولى كعض الحلى الواردة صورتها بهذا الكتاب والمقوش اسم الملك مينا مؤسس الدولة المصرية القديم عليها (شكل ١٣) .

لقد عرفنا الآن كثيراً من أخبار ملوك الأسر الأولى المصرية بمد ما كنا نجهد عنهم كل شىء سوى أسمائهم . أما معلوماتنا عنهم فعمومية لكننا قيمة وليس منتظراً أن نصل يوماً من الأيام إلى تاريخ كل أفراد هذه الأسر ولا يسع الباحث فى مآثر هؤلاء إلا أن يعترف بأنهم صرفوا كل همهم نحو تأسيس المملكة المصرية وإصلاحها وتقدمها . أما الملك فكان يلقب وقتئذ "حوريس" نسبة إلى ماورثه من هذا المعبود فى عرش مصر . وقد رسم الباز (رمز حوريس) فوق الآثار الملكية بشكل

(١) ويحتفل وجود اسم آخر على حجر بالمو بمقبرة من (Methen) راجع (١٦٦٠)

(٢) ٩٠ : ١ (٣) Newberry Garstang, History, 20 (from unpublished evidence ?)



شكل ١٨ - أحد ملوك الأسرة الأولى يشق الأرض
اجتفالا بمحرفة ثنائية اليد (مأخوذة من المستر كويل)



شكل ١٧ - أربع أساور على ذراع حيدة يربح
تاريخها الى زمن الأسرة الأولى. عثر عليها الأستاذ
بترى بجهة المراهبة - محفونة الآن بدار تحف القاهرة



شكل ١٩ - لوح بديع النقش يعرض في الاحتفالات مصنوع من حجر الأودواز
أهداه الملك نارمر (من الأسرة الأولى) الى مميد مدينة نخن (هيراكوبوليس)
(مأخوذة عن كويل)

مستطيل يمثل باب القبر الوهمي (الذي تخرج وتدخّل منه الروح) ويداخله اسم الملك الرسمي . أما اسم الملك الشخصي فيكتب مسوقاً برسم الزنبور (رمز الوجه البحري) وفرع البردى (رمز الوجه القبلي) إشارة الى أن هذين القطرين قد خضعا له . ويصحب هذه الرموز غالباً رمزان آخران هما العقاب (وهو رمز نُجِحْتْ معبودة مدينة الكاب عاصمة الوجه القبلي) والصلب (رمز بوتو معبودة عاصمة الوجه البحري) . ويشاهد النسر على رعوس التماثيل الملوك تلك الأزمنة مرفرفاً يجناحيه ليحميهم من الأذى . ثم أخذت الملوك بمرور الزمن توضع فوق الجباه صلا (معبود الملكة البحرية) مشيرين بذلك الى بسط نفوذهم على الدلتا . ويرسم أحيانا المعبود ست مع المعبود حوريس قبل اسم الملك الشخصي إشارة الى ضم القطر المصري تحت معبودى وجهيه البحرى والقبلى . وحررت العادة أن يتوج الملك أحد تاجى الوجهين ويطلق عليه اسم "صاحب السيادةتين" . ومنه يتضح أن قدماء المصريين لم يجدوا وسيلة للدلالة على حكم ملوكهم لقطرى مصر الا اتباعوها . وقد عثر على ألواح حجرية بها رسوم تمثل بعض الملوك مشتركين فى احتفالات رسمية يتقدمهم أربعة أشخاص حاملين الأعلام أما الملك فيصحبه فى هذه الاحتفالات مستشاره وخادمه الشخصى أو أحد كتابه أو اثنان من حاملى المراوح . ويشاهد جلالاته أحيانا متوجاً تاج مصر العليا أو السفلى أو التاج المزدوج . أما الزى الملكى فهو رداء يثبت فوق الكتف وينتهى من الخلف بذيل أسد . بهذه الكيفية احتفل الملوك بانتصاراتهم الحربية أو بحفر الترع (شكل ١٨) أو تشييد المارات العمومية . وجررت العادة أن يحتفل الملك احتفالاً عظيماً بمرور ثلاثين عاماً على جلوسه فوق العرش وأن يعرف هذا الاحتفال باسم يسد أى الذنب إشارة على الأرجح الى مرور تلك المدة على ارتدائه الثوب ذا الذنب . واشتهر ملوك تلك العصور بالصيد وبرعوا فيه وباهوا بصيد جاموس البحر واستعملوا لذلك الأسلحة الثمينة المتقنة كما سترى بعد . وأطلق على القصور أسماء مخصوصة وأحيطت بالبساتين اليانعة والكروم الكثيرة المختلفة الأسماء وتمهد خدمتها ومحصولاتها موظفون اخصائيون . أما أثاث هذه القصور فكان غاية فى الأبهة والجمال وسلامة الذوق فمنه الأواني البديعة المتقنة المصنوعة من أحجار ذات عشرين نوعاً ومن أهمها المرمر (شكل ١٤) ولم تعق القوم صلابة بعض الأحجار كالصوان فصنعوا منها الأواني الشفافة التى تأخذ بالألوان وقد عثرنا على أوان عديدة مصنوعة من أحجار بلورية غاية فى الجمال . أما صناعة الخزف فأنحطت عما بلغت قبل حكم الأسر لكثرة استعمال الأحجار فى صنع الأواني وغيرها . وعثر على صناديق صغيرة من الأبنوس والعاج وبعض المقاعد ذات الأرجل العاجية المصنوعة على مثال أرجل الثيران (شكل ١٥) . وكفى بما ذكرناه دليلاً على تقدم عظيم فى مصنوعات ذلك العصر . أما الأثاث المش فبل معظمه . والمعروف أن أهل ذلك العصر رعوا فى تلميع الأواني الخزفية ونجحوا فى ترصيع ألواح الحلى الحجرية والعاجية وصناعة الأواني والطاسات والأباريق النحاسية للقصر الملكى (شكل ١٦) وكذا الآلات النحاسية العديدة التى ساعدت الصناع كثيراً على إتقان الأواني الحجرية . وبلغت الصياغة شأواً عظيماً من حيث سلامة الذوق وبراعة الإتقان كما هو ظاهر فى حلى الملك ونساء

الأسرة الملكية حيث تشاهد جمال الصنع وكثرة التزيين بالأحجار الكريمة (شكل ١٣) و(شكل ١٧)^(١) بشكل يحاكي أعمال صاغتنا الحديثين . أما المصنوعات اليدوية فتقدمت كثيرا لأن فن الحفر والرسم تحسنا بعد ما كانا في مبدئهما قبل الأسر فظهرت الرسوم البارزة البديعة والتماثيل الجميلة التي تشهد لصانعيها بالمهارة والاجتهاد .

وعثر في معبد حوريس بمدينة الكاب على ألواح حجرية للزينة وصو لجانات وأوان بارزة النقوش أهداها الملوك وقتئذ الى المعابد تجسم فيها مهارة الصانع وطول باعه (شكل ١٩) (٢١) . وبالامعان في صور الحيوانات والآدميين من رسم تلك العصور يتضح لنا مهارة هؤلاء القوم في الرسم ودرجة رقيهم التي بلغوها فيه والتي تمرنوا عليها عدة سنوات . ولما حكمت الأسرة الثالثة أخذت المصنوعات المصرية تتحسن على مرور الزمن فنجم عن ذلك أن تقيدت حرية الصانع في فنه حتى اضطر أن يتبع في ذلك أسلوبا واحدا لا يبعد عنه . ويشاهد هذا الأسلوب الفني في تماثيل الملك خانسيم التي رويحت في صناعتها هيئة الجلوس وسخنت الوجه وهي تقط فنية احتذيت في التصوير بعد ذلك (شكلي ٢٠ و ٢١) .

ويرجع الفضل في اظهار معظم آثار تلك الأزمنة القديمة الى الأستاذ فلندرس پتري الذي قام بعدة مباحث جهة العراية بذمة شريفة وهمة صادقة فكشف مقابر ملوك الأسرتين الأوليين . وبفحص هذه المقابر اتضح لنا أن هندسة المهارة تقدمت كثيرا فأخذت المقابر شكلا مستطيلا وكبرت في الحجم وكسيت أرضها باللبن ثم غطيت بعد ذلك بطبقة خشبية . وأحجم القوم عن وضع أواني الغذاء والشراب حول الجثة فشيّدوا لذلك حجرا صغيرة مجاورة ومتصلة بحجرة الميت . ومن دواعي الأسف أننا لم نعتز على جثث ملوك تلك الأزمنة لعبث اللصوص بها (شكل ٢٢) و(شكل ٤٢) . لكنا وجدنا بالجهة الشرقية لمقابر العراية الملكية شاهدين طويلين كتب عليهما اسم ملكين مدفونين هناك . ويوجد على أحد جانبي الغرفة الوسطى بهذه المقابر سلم مبنى باللبن يوصل الى الخارج (شكل ٢٣) . وجرت العادة أن يدفن مع الملك حاجاته من الأثاث المزخرف والأواني الثمينة والحواشي والدنانير والأوعية والأباريق المعدنية وأدوات الزينة الشخصية وغير ذلك مما يقتضيه المقام الملكي في الآخرة . واستعملت الحجر الصغيرة المحيطة بلحد الجثة لتخزين كل ما يحتاج اليه المتوفى من غذاء ونحرف في أوان خزفية كبيرة مسدودة بصمامات محكمة من طين النيل المزوج بالقش والمختوم وقت رطوبته باسم الملك

(١) الدمايح المرسومة في شكل ١٧ مصنوعة من الذهب المطعم بالجمشت والفيروز ويلاحظ في الملج العلوي رسم وردة من الذهب بدمعة للناية . ولم نهد لان الى فائدة القوس الذهبي الوارد رسمه في شكل ١٣

(٢) يشاهد في شكل ١٩ رسم وجهي أكبر هذه الألواح الأردوازية . فنرى الصف الأول بالصورة اليسرى يشاهد الملك منجوبا بحامل عليه وسبقا بأربعة من حلة الأعلام وبوزيره وقد أتم هذا الاحتفال بمناسبة الاطلاق على روس الأسمري المقطوعة . أما الصف الأوسط فيجري رسمين لحيوانين خياليين لا ندرى كنههما . وأما الصف الأسفل فيجري رسما لك على شكل ثور يحطم مدينة مسقورة ويدوس عنقه . ويشاهد في الصورة اليمنى الملك يصنع عدوا له . ثم رسم باز (الملك) قابضا بأحدى ذراعيه على إشارة الوجه البحري الحارثية رأس انسان موقوف القم . ويلاحظ أسفل الصورة رسم الأسمري ساتطين .



شكل ٢١ - تمثال الملك حاسم المصور
رأسه في شكل ٢٠



شكل ٢٠ - صورتان شمشيتان لرأس
تمثال الملك حاسم مأخوذة من تاحيتين
مختلفتين. ويرجع تاريخ هذا الملك إلى
زمن الأسرة الأولى (مأخوذة عن كوريل)



شكل ٢٢ - حجرة قبر الملك إزيب المتعلّق أرضها بالخشب والمشيّد جدرانها بالطين.
موجودة بجهة العرابة المدفونة ويرجع تاريخها إلى الأسرة الأولى (مأخوذة عن هيري)

وعنوان المصنع . واعتاد الملوك أن يقفوا جزءا كبيرا من مزارعهم لشراء غذاء ونيذ وقرابات تقدم لهم بعد الوفاة على موائد القبور كي يأكلوا منها هم وأهلهم وأتباعهم المدفونون حولهم والبالغون أحيانا مائة أو مائتين . وكان المتبع وقتئذ أن يدفن في جوار الملك أقرانه الدنيويون كزوجته وحرصه حتى مضحكة القزم طنا منهم أن هؤلاء سيقومون بخدمة سيدهم في الآخرة كما فعلوا في دنياهم . هكذا صار نظام المقابر الملكية من قديم الزمان وهو كما لا يخفى مقام على أساس ضمان النعيم الآخروي .

ورغب القوم في الاحتفاظ بمسكن أبدي بلحث ملوهم فأثر ذلك كثيرا في فن العمارة . فقابر الأسرة الأولى تبيت استعمال الجرانيت بلاطا ويشاهد ذلك بأرض مقبرة الملك يوسفياوس . وفي نهاية الأسرة الثانية استعمل الحجر الجيري المنحوت في تشييد الحجرة الوسطى من مدفن الملك خاسحموى ولذلك اعتبرت هذه الغرفة أقدم بناء حجري معروف للآن (شكل ٢٥) . وورد في الآثار أن سلف هذا الملك (ويرجح أنه والده) شيد معبدا حجريا وقد عثرنا على عضادة باب من الجرانيت لمعبد بمدينة الكاب شيده الملك خاسحموى ومنه يتضح أن فن الهندسة والعمارة بلغا في تلك العصور درجة عظيمة . وجاء في الآثار أن القصر الملكي خصص لمارته مهندسون عديدون ولكننا لا نزال نجهد الكثير عن ذلك لضالة آثار تلك الدهور .

وكان مستشار الملك أعظم مساعده في الحكم فرمى عادة تابعا له في الاحتفالات الرسمية كما ألمنا سابقا . وكان للحكومة موظفون عديدون على اتصال بالقصر الملكي بمدينتي (ب) و(مخن) بالوجهين البحري والقبلي عهد اليهم في حفظ العدالة والنظام في الدولة . وشغل الأمراء فيما بعد هذه الوظائف وسيأتي الكلام على ذلك . واستدل من أختام الموظفين على صيغاتهم أو أواني المقابر ومن قائمة حساب أحد الكهنة التي وجدت بمقابر العرابة الملكية أنه كان هناك موظفون ملكيون مهمتهم الاشراف على مصروفات الموتى . وكثيرا ما يشاهد هذا التدقيق والاعتناء في أوقاف مقابر المصريين ومنه استدل على شدة المراقبة المالية على خيرات وقرابين الموتى وقتئذ . ووجد بأختام تلك القرابين ما يشير الى وجود عدة ادارات "كادارة التموين" غرضها الأول التأكد من صحة توزيع الأوقاف الخيرية بالطرق المشروعة . ولما كانت مالية الدولة المصرية تتكون من مالية الوجه البحري المعروفة "بالبيت الأحمر" ومالية الوجه القبلي المسماة "بالبيت الأبيض" فان الباحث يجد بين النقوش الملكية ما يشير مثلا الى "حديقة البيت الأحمر من الأملاك الملكية" . والظاهر أن ضم الوجه البحري للقبلي كان تحت اشراف الملك مباشرة . ثم أبطلت ادارة "البيت الأحمر" وأتبعته "البيت الأبيض" فأصبح هذا الأخير في ذلك الوقت مركز البلاد المالي الحقيقي . أما مالية الوجه البحري فكانت تذكر على الآثار اسميا من قبيل الرسيمات فقط . ومنه يستنتج أن ضم الوجه البحري تحت ادارة الوجه القبلي كان متعدرا في بادئ الأمر على الملك مينا وأن ذلك تطلب مدة طويلة . واعتبر القوم ملكهم صاحب الحق المطلق في التصرف بأراضي الدولة المصرية لذلك كان يقسمها ويوزعها على الأمراء ليشرفوا عليها ويديروا أعمالها كما كانت الحال في المصور الحالية لكننا لا نزال نجهد نوع السلطة التي منحت لهؤلاء الأمراء . والمظنون أن معظم أهالي تلك المقاطعات (عدا الصناع والتجار)

اعتبروا عبيدا للامراء يعيشون في مدن مسورة باللبن الثقيل ويحضرون لأوامر رؤسائهم . وأهم مدن ذلك الوقت الكاب و بوتو وضاحتها نَجِنِ المعروفة عند اليونان باسم (Hieraconpolis) و(ب) وكذا مدينة الحائط الأبيض المعروفة فيما بعد بمنف ومدينة طينه (Thinis) مسقط رأس ملوك الأسرتين الأولين ثم العراة ومدينة سين شمس واهناس وهى المعروفة باسم (Heracleopolis) وصا الحجر (سايس) وغيرها من المدن أخذت تزداد فى الأهمية منذ حكم الأسرة الثالثة .

وجرت العادة أن يقوم موظفو الحكومة المساليون باحصاء عام للأملاك الفرعونية كافة كل سنتين وأن يُتخذ هذا الإحصاء وسيلة لتوقيت الحوادث فكان يقال مثلا ان حادثة كذا وكذا حصلت فى "سنة الإحصاء الأول" أو فى "السنة التالية للإحصاء الأول" أو "سنة الإحصاء الثانى" وهكذا على حسب ما تقتضيه الحال . واعناد المصريين أن ينسبوا شؤونهم الى وقت معين ذى حوادث هامة كسنة قتال الأعناد المعروفين عند الأثريين باسم (Troglodytes) وهذه القبائل سحقت اثرتنالم مع المصريين . ولما كان الإحصاء يعمل سنويا سهل على القوم توقيت شؤونهم بالنسبة اليه . أما الأعمال التجارية والمالية فكانت تصنى كل شهر بحساب الشهر القمري رغم عدم استعمال السنة القمرية فى الشؤون الرسمية . ولا يخفى أن مثل هذا النظام الإدارى استلزم تدوين كل كبيرة وصغيرة فلا عجب اذا بلغ الخط الميروغليفي وقتئذ درجة كبيرة من حيث الدقة والالتقان وقد احتل هذا الخط يسيرا فسهل تداوله بين الكُتَّاب (شكل ٢٧) . ورغمما عما يحتويه الخط الميروغليفي من الحروف المركبة فهو يحوى أيضا حروفا هجائية بسيطة . والفضل فى كشف حروف الهجاء يرجع الى قدماء المصريين الذين توصلوا الى معرفتها منذ نحو ألفين وخمسمائة سنة قبل سائر الأمم . ولما كان المصرى بطبيعته شديد التماق بالعادات تابر على استعمال الحروف الميروغليفيه المركبة على الرغم من وجود أربعة وعشرين حرفا هجائيا لذلك الخط ومرور ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة على كشف هذه الحروف . والحق يقال ان ترجمة نصوص تلك العصور ليست بالأمر الهين لأننا لا تزال نجهل معنى معظمها . وقد دون أبناء ذلك الوقت بعض معلومات طيبة ودينية صار لها فيما بعد تأثير عظيم عند العامة وسجلوا أيضا حوادث تلك العصور باختصار فى كل سنة الى آخر أيام كل ملك . لكننا لم نعتد الا على صورة واحدة من تلك السجلات مدقونة على حجر أثري يعرف بحجر بالرمو^(١) (نسبة الى دار التحف بمدينة بالرمو المحفوظ بها)^(٢) (شكل ٢٩) .

ولما كانت معلواتنا عن العقائد الدينية لأبناء تلك العصور لا تذكر لفتها أصبحت معارفنا مقصورة على ديانة الحكومة وقتئذ ومن دواعى الأسف أنه لم يصل الينا الا النادر من عقائد الأهالى فى زمن الأسر التالية لعدم اعتناء القوم بتدوينها وتدويننا ثابتا . والمعروف أن معبد الملك مينا الرسمى

(١) ١٦٧ - ١٦٨ (٢) أوردنا بشكل ٢٩ صورة لمقدم هذا الحجر ومنها يتضح أن النصوص الواردة بعد السطر الأول تقع فى أشكال مستطيلة كل مستطيل يمثل سنة . ويرى أعلى كل سطر اسم الملك الذى يخصه صف السنوات المذكورة أما مقدم الحجر فيحوى تواريخ ملوك مصر قبل عهد الأسر (السطر الأعلى) وملوك الأسر الأولى والثانية والثالثة . وأما المؤنبر فيحوى تواريخ الملوك حتى الأسرة الخامسة .

كان بسيط التركيب مكونا من حجرة خشبية لاقامة شعائر الدين يحيط بها حاجز من الحصر (شكل ٢٧) وكان للعبد حوش ينصب فيه سار تعلوه شارة المعبود . ثم ساريان يظن أنهما أصل المسلات التي شيدت في الأزمنة التالية أمام المعابد . وفي النصف الأخير من حكم الأسرة الثانية شيد الملوك معابدهم بالجحر^(١) وسجلوا على آثارهم اهتمامهم بتلك المعابد وشدة عنايتهم بإقامتها ووضع أساسها وتخطيطها . أما آلهة ذلك الوقت فأهمها أوزيريس وست وحوريس وأنوبيس وتحت وسوكار ومن وآيس (أحد أشكال بتاح) . وأما الإلهات فأهمها حاتحور ونيت . وبقيت منزلة هؤلاء الآلهة شائعة في نفوس القوم حتى العصور التالية . وترجع عبادة بعض هذه الآلهة مثل حوريس الى ما قبل عهد الأسر الفرعونية وتكوين مملكتي الوجه البحرى والقبلى . وحوريس أكبر الآلهة مقاما وشأنا عند المصريين أيام الأسر الأولى وقبلها ، ولبه في المنزلة المعبود رع . وكان لحوريس جهة الكاب معبد له روعة يقيمون فيه كل سنتين احتفالا عظيما يعرف "بتقديس حوريس" ورد ذكره في النصوص الملكية (شكل ٢٩) ^(٢) واستمرت عبادة حوريس مدى التاريخ فلعب الفراعنة أنفسهم "خلفاء حوريس" مدة حكم العهد الطينى . لكن لما تولت الأسرة الثالثة المنفية انحطت عبادة حوريس وأهملت . أما كهنة تلك العصور فكانوا عمالا وفعلة مقسمين الى أربعة درجات واستمروا كذلك الى العصور التالية .

وكانت مدة حكم الأسرتين الأوليين التي تعرب من أربعائة سنة مقرونة بنمو مطرد في قوة المملكة الداخلية وحضارتها . ولأن لم نعلم شيئا عن تاريخ الملوك السبعة الذين خلفوا مينا في الحكم لمدة مائتى سنة تقريبا الا ما يخص اثنين هما ميبيس ويوسفائيس وكنا بعض آثار لائتى عشر ملكا من بين الثانية عشر ملكا الذين حكموا تلك المدة وكان كل هم هؤلاء الملوك ارضاء الوجه البحرى والاحتياط على ضمه نهائيا للصعيد . لكن هذا الأمر لم يكن بالهين فقد ألمنا سابقا الى أن هذين الوجهين كانا في الحقيقة مستقلين استقلالاً داخليا تحت اشراف ملك الوجه القبلى . بعد ذلك أخذ الملوك يحتفلون بتوحيدهم بعيد "ضم الأرضين" (أى الوجهين البحرى والقبلى) ^(٣) وأطلقوا هذا الاسم على السنة الأولى من حكم كل منهم . ومع ذلك فلم يتمكنوا من اقناع الأمة بهذا الضم بسرعة لحدائته في الأذهان وقتئذ ولهذا السبب شق الوجه البحرى عصا الطاعة على الوجه القبلى مرارا ، مثال ذلك ما ورد على الآثار من أن الملك نازيرم الذى يرجع تاريخه غالبا الى مبدأ حكم الأسر شن الغارة على الليبيين غربى الدلتا وأسر منهم حوالى مائة وعشرين ألف نسمة عدا مليون وأربعمائة وعشرين ألفا من الأغنام وأربعمائة ألف من البهائم . وكانت هذه الغارة بمثابة طرد عام لهم . وعثر أيضا بمعبد مدينة الكاب على لوح أردوازى لهذا الملك (شكل ١٩) مصحوبة برأس صوبلجان بديع الصنع مرسوم عليه احتفالات في مصر قام بها الملك . وورد أيضا على الآثار أن الملك تيريو حارب مدينة "شمرغ" ومدينة "بيت الشمال" ^(٤) الموجودتين بالوجه البحرى . وجاء أيضا أن الملك خاسم من الأسرة الثانية حارب

(١) ١٣٤:٩ (٢) ١١٧-٩١:١ (٣) ١٤٠:١ (٤) ١٢٤:١

الوجه البحرى فى سنة سماها "عام حرب وقصاص الوجه البحرى" أسرفها حوالى سبعة وأربعين ألفا ومائتين وتسعة أسرى ودون ذلك فى معبد حوريس بمدينة الكاب حيث قدم اناه مصر مرارا^(١) نقش عليه اسمه الملكى واسم ذلك العام وكذا بمثلين يمين له سجل عليهما عدد أسراه^(٢) (شكلى ٢٠ و ٢١). بعد ذلك ورد فى الآثار الدينية أن الوجهين البحرى والقبلى اتفقا نهائيا أمام المعبود أزوريس^(٣).

ورغما عما أصاب مالية الوجه البحرى من النقص والضعف أثر حملات الوجه القبلى فان موارد القطر عامة زادت وتقدمت بدليل زيادة الأوقاف الملكية وكثرة المعابد والقصور والقلاع والاحتفالات بجفر الترع (شكل ١٨) واقامة أسوار للندن كنف . كل ذلك يثبت بلا سراه ما بلغه التطور من الرقى العظم فى الهندسة والادارة . ولا يخفى أن المصريين أول من زاول التعدين اذ ورد على الآثار أن الملك سيمرخت الذى يرجع تاريخه (غالبا) الى الأسرة الأولى أوفد بعثة لاستخراج النحاس من مناجم بوادى مغارة بشبه جزيرة طورسيناء ورغما عن أخطار البدو المتوحشين التى اعترضت تلك المشاريع وقد أخبرنا الملك المذكور أنه عاقب هؤلاء البدو وأثبت ذلك على منحور وادى مغارة (شكل ٢٨)^(٤) واستل من قوش قطع طاجية أن الملك يوسفيس من الأسرة الأولى أغار على سكان وادى مغارة المذكور وانتصر عليهم انتصارا باهرا ورسم نفسه قاتلا أحد أبناء تلك الجهة الملقب (بشرق) جايبا على ركبتيه (شكل ٢٦) . وما جاء فى هذا اللوح أن هذه الغزوة أول غزوة للشرقيين ومنها فهم ضمنا أن هذه الغارة تكررت فى عهد فرعون وأن الملك يوسفيس انتظر القيام بغزوة ثانية . ووجد على قوش حجر بالرمو^(٥) ما يشير الى أن الملك مايبيس (Miebis) من الأسرة الأولى شن الغارة على أهالى سكان تلك الجهات المعروفين لدى الأثريين باسم (Troglydytes) ولم يقتصر نفوذ الأسرة الأولى على طورسيناء بل تعداه بدليل ما وجد فى مقابر هؤلاء القوم من أجزاء أوان خزفية أجنبية كثيرة الشبه بمصنوعات جزر البحر الأبيض المتوسط . فلو صح أن هذه الأوانى صنعت حقيقة وقت دفن هؤلاء الملوك ثبت أن العلاقات التجارية بلغت أرحبيل اليونان فى الألف الرابع قبل الميلاد . ورغما عما قام به ملوك الأسرة الأولى من الغزوات الشرقية والتجارة الشمالية فقد وردت قوش على أسطوانة من العاج^(٦) تفيد أن الملك تازمر اضطر أن يغزو الليبيين القاطنين غربى مصر كما ذكرنا سابقا . ووجد ما يدل على أن الملك يوسفيس شن الغارة على سكان جنوبى الصحراء الشرقية لىسط الأمن فى تلك الجهة كى يتمكن من استخراج الجرانيت من محاجرها ليلط احدى حجر قبره بالعراية .

Well, Rev. Arch., 1908, II, p. 231, and (٤)
Recueil des Inscri. Égypt. du Sinaï, p. 96.

I, 104, (٥)

Hierogl., I, pl. XV, No. 1. (٦)

Hierogl., I, pl. XXXVI-VII. (١)

Ibid., pl. XXIX-XLI. (٢)

Louvre Stel. C. 2. (٣)



شكل ٢٤ - حرات خنوخة فقط الما كل والنسب وجدت بقهر من بيت
من عهد الأسرة الأولى بجهة الهراب الدفوية (مأخوذة من بزي)



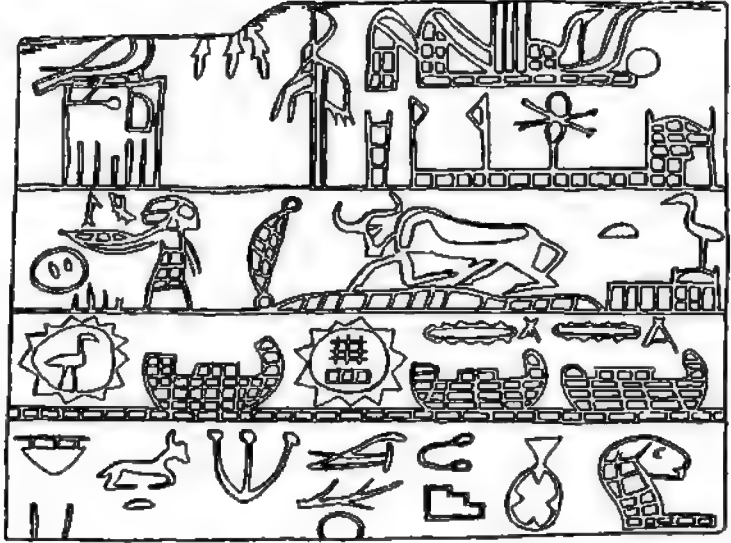
شكل ٢٦ - لبح من الحاج لك بربسانس عاسم
ديرياب، من الأسرة الأولى (مجموعة آثار مالك جرجوز)



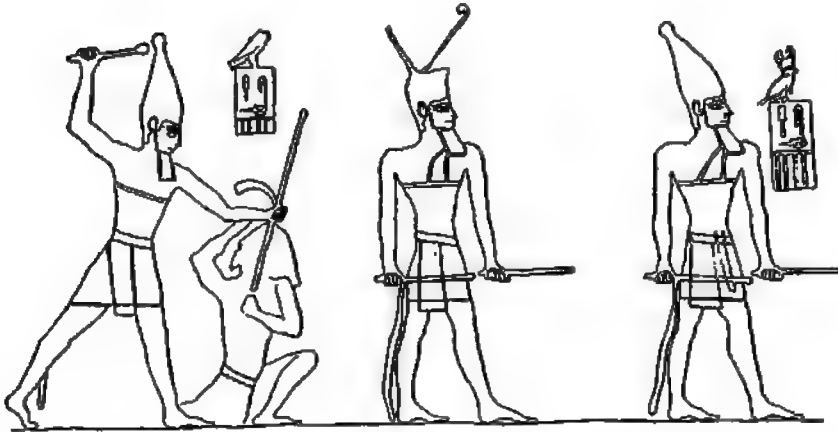
شكل ٢٣ - قبر الملك بربسانس الشبه والبن بالمراب
الدفوية من الأسرة الأولى (مأخوذة من بزي)



شكل ٢٥ - أمم بامجوى في المام . حجرة متبينة بالقرى بالقرى بغير الملك
عاصورى من الأسرة الثانية بجهة الهراب الدفوية (مأخوذة من بزي)



شكل ٢٧ - لوح من العاج لملك مينا أول ملوك الأسرة أول وجد بالعراة يرجع تاريخه الى حوالي سنة ٢٤٠٠ قبل الميلاد تُشاهد عليه نقوش تعتبر من أقدم النقوش الهيرغليفية المعروفة الآن . وهو مقسم الى أربعة أقسام : فالقسم العلوي يحوى في طرفة الأيسر رسم الباز الملكى المتناسخ بالملك مينا وفي طرفة الأيمن رسم معبد منصوب في حوشه ومن المعبودة نيت وتتلو هذا الرسم سفينة . أما القسم الثانى فيشاهد في طرفة الأيسر الملك مرسوماً قائماً على رءاه يميز باسم "مزيج الذهب والفضة" ومقدماً القرابين أربع مرات ويشاهد في الطرف الأيمن رسم تورداخل حوش يحمل أحد أطرافه طائر (الفتيكس) . والقسم الثالث يحوى رسم النيل بتخريفه السفن وتُعرف عليه المدن وتعرض مجراه الجزر . والقسم الرابع يحوى رسوماً هيرغليفية قديمة غير مفهومة



شكل ٢٨ - الملك حيرخت من الأسرة الأول يهاجم "يدو يا" من طورسينا . وجدت هذه النقوش محفورة على صخور وادى . مغارة وهي أقدم آثار تلك الجهة وأقدم الرسوم الكبيرة المعروفة الآن (مأخوذة من فيل)

هكذا أسس الفراعنة الطيبون بناء المملكة المصرية ورفقوا أخلاقها ومدنيتها ورغما عن قلة آثارهم فإن أعمال ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة كافية لإثبات ما بلغته حالة البلاد الاقتصادية من العظم والقوة مدة حكمهم. وقد كشف إلى الآن في جهة العراية تسعة مقابر لملوك هاتين الأسرتين ومنها لاحظنا أنه بعد انقضاء نحو ألف سنة على دفنهم نسي القوم تاريخ تلك المقابر وتفرسوا في مقبرة زر أحد ملوك الأسرة الأولى فظنوها مقبرة أزوريس^(١) لذلك وجدت أو أن كثيرة بتلك المقبرة قدمها القوم هدايا وقربانا إلى المعبود أزوريس . ومن دواعي الأسف أن جثث هؤلاء الملوك انتشلها لصوص شرمون بتروا أعضائها كي يحصلوا على مصاغها وأحجارها الكريمة. وكل ما وصل إلينا منها هو ذراع جافة لزوجة الملك زر وجدت بحفرة داخل حائط قبرها حيث أخفاها أحد اللصوص وقت ارتكاب الجريمة قصد انتشالها فيما بعد في الوقت المناسب . ووجد على هذه الذراع حل يدبغ وأثواب جميلة تكسوها (شكل ١٧) ولا يبعد أن سارق هذه الذراع أتضح أمره وقتئذ فأعدم لذلك وبقيت الذراع شاهدة على جنائته الشنيعة . والفضل في العثور على هذا العضو يرجع إلى الأستاذ يترى الذي وجده بمساعدة عماله المهرة عام ١٩٠٢ ميلادية .



شكل ٢٩ - حجر بالرمو . منقوش عليه بعض تاريخ الملوك الأقدمين الذين يقع زمنهم قبل حكم الأسرة الفرعونية ومتصف حكم الأسرة الثامنة . ويرجع تاريخ هذا الأثر الى منتصف الأسرة الثامنة

الكتاب الثاني

المملكة القديمة

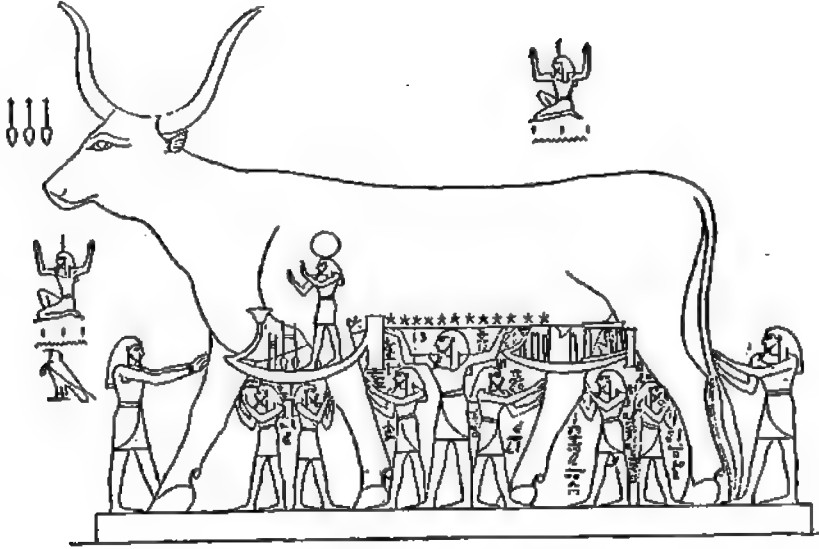
الفصل الرابع

الديانة القديمة

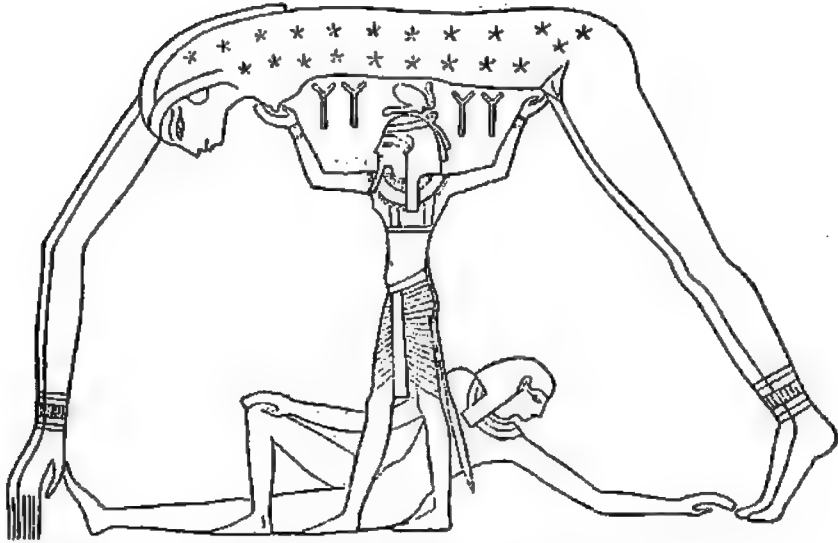
الدين أعظم العوامل تأثيرا في نفوس قدماء الآدميين لأنه يفسر لهم سر هذا الكون بتعاليمه الجذابة ويردعهم بزواجره الرهيبه ويشجعهم بأماله المستديمة ويؤرخ لهم أوقاتهم بأعياده ويقدمهم في الفنون والآداب والعلوم بإرشادهم نحو الطريق المستقيم . والمصرى القديم كغيره من الأقوام المعاصرين له رأى قوة إلهته مجسمة فيما حوله من المخلوقات كالأشجار والأعين والصخور والتلال والطيور والوحوش فاعتقد هذه الكائنات رموزا للقوة العجيبة والسلطة الخالقة البعيدة عن ادراكه والحال أنها مخلوقة مثله . ثم نظر أيضا الى أرواح بعض هذه المخلوقات نظرة صديق فظنها مدافعة تدرا عنه الأذى والضرر . واعتقد أن أرواح البعض الآخر أعداء له تعمل لخداعه والكيد له وتتسبب في الضرر للأضرار به وتوجيه الأمراض اليه ولذلك سهل عليه تأويل سبب كل ضرر يصيبه أو مرض يعتره . واعتقد أيضا أن كل مكان في القطر المصرى تسكنه أرواح معينة معروفة من السهل ارضاؤها والانتفاع بمساعدتها بطرق سهلة . وما أندر ما وصلنا عن هذه الاعتقادات أيام المملكة القديمة لكننا سنتكلم عنها يسيرا في عهد الامبراطورية . وللاحظ أن المصرى لم يقتصر على اعتقاد وجود الأرواح على الأرض بل تخيلها أيضا في السماء وفي الأرض . ولما كانت المعيشة في وادى النيل على نسق واحد بديعة المنظر أحيانا كانت تخيلات المصرى وقتئذ مقصورة عليها . والمصرى بطبيعته بطيء التأثر بمحاسن الطبيعة على عكس اليونان الذى أثرت فيه محاسن بلاده أعظم تأثير . لذلك نرى أن بعض قدماء المصريين من الرعاة والزراع الذين يرجع تاريخهم الى مبدأ حكم الأسر تخيلوا السماء على شكل بقرة كبيرة قائمة في الفلك على أرجلها الأربع متجهة الرأس نحو الغرب ، ثم تصوروا الأرض بين رجلها الأماميتين والخلفيتين واعتبروا السماء بطن البقرة مزدانة بالنجوم (شكل ٣٠) . وتخيل فريق آخر السماء على شكل امرأة منحنية الجسد مستندة الى الأرض شرقا بطرفى رجلها وغربا بطرفى يديها (شكل ٣١) . وترأى لطائفة أخرى أن السماء محيط مائى عظيم مرفوع فوق أربعة عمد في أركانه الأربعة . ولما اختلط الناس بعضهم ببعض تبادلوا الآراء فانبهت عليهم حقيقة الأمر وصعب على الباحث الاهتداء الى الأصل . واعتقد الذين تخيلوا السماء بقرة أن الشمس تشرق بهيئة عجيبة واعتقد الذين تخيلوا السماء امرأة أن الشمس تشرق بشكل طفلة مولودة تجوب السماء في سفينة سماوية ميممة نحو الغرب حيث تأفل بشكل رجل هرم موشك على الهلاك (شكل ٣٢) . ورأى البعض سرعة طيران النسر فأعجب به وتخيل للشمس جناحين مثله تطير بهما في الأفق ، لذلك صار قرص الشمس رمزا لدينا هاما .

أما الأرض — التي تحصر في نظر المصريين الأقدمين في وادي النيل — فتخيلها القوم بشكل رجل منبسط على بطنه ينمو على ظهره النبات ويحرك الحيوان ويعيش الانسان . والذين تخيلوا السماء محيطا مائيا تخخر فيه الشمس واللائي السماوية غربا تصوروها طريقا مائيا شبيها بالنيل واصلا طرفي المحيط المماوي الشرق والغربي بعضهما ببعضا مسهلا بذلك انتقال الشمس من الغرب الى الشرق . وتخيلوا أيضا أن هذا النيل الأسفل يخرق في سيره عدة مغارات ومفاوز وصرة وأنه يد النيل الأرضي بالمياه اللازمة لحياة المصريين آتية من كهفين كبيرين جهة الشلال الأول . من ذلك يتضح أن أصحاب هذا المذهب اعتقدوا أن الدنيا تاتي عند الشلال الأول حيث يبدأ الم العظيم المتصل بالنيل جنوبا وبالجرا الأبيض المتوسط شمالا . من أجل ذلك لقبوا هذا المحيط "بالحلقة العظمى" (1) . ولما سرى هذا الرأي الى اليونانيين أطلقوا على المحيط المذكور اسم أقيانوس (Okeanos) وهو لفظ يقابله بالانجليزية (Ocean) . ويتلخص اعتقاد قدماء المصريين في منشأ معبوداتهم أن هذا الكون كان في ابتداء الأمر يما عظيمًا ثم ظهرت فوقه بيضة (في اعتقاد البعض) أو زهرة (في اعتقاد الآخرين) ومنها خرج المعبود الشمسي الذي ولد بعد ذلك أربعة آلهة هم : (شو) و (تفتوت) و (كنب) و (نوت) . وعاش هؤلاء الآلهة الخمسة نائمين فوق المحيط مدة ثم توسط كل من شو وتفتوت (اللذين يمثلان الجزء) بين كب ونوت ففصلاهما بعضهما عن بعض واطنين بقدميهما كب ورافعين بذراعيهما نوت فصارت نوت سماء وكب أرضا . ثم حملت نوت من كب وبيعت بأربعة آلهة وهم أزوريس وإذيس وست وفتيس فأصبح جميع الآلهة مع عد الشمس منهم تسعة . لذلك لقبوا بالتنسيع المقدس وهو المعروف عند الافرنج باسم (Ennead) . وشاهد هذا التنسيع ممثلا بشكل من الأشكال في كل معبد من المعابد المصرية القديمة . ثم انتشرت فكرة التثليث بين المعبودات على توالي الزمن وأصبح لكل مكان بالقطر تثليث ثانوي مقدس ركب منه بعد ذلك تنسيع على الطريقة المعروفة آنفا . لكن تشعب الآراء عن مبدأ التثليث لم يقتصر على ما ذكرناه بل تعداه بدليل ما ورد عن بعض المصريين أنهم اعتقدوا أن هذه الدنيا سكنها في بادئ الأمر أناس تحت سلطة المعبود رع . وطال حكم هذا المعبود فكبروه وهرم فأخذ عبيده يكيدون له فسلط عليهم المعبودة حاتحور التي فتكت بهم فتكا ذريعا . لكن رع ندم على ذلك في آخر الأمر فوقف المعبودة المذكورة عن الفتك بالخلق بحيلة ابتكرها بعد ما أفنت عددا عظيما من البشر . ثم أن البقرة السماوية رفعت المعبود رع فوق ظهرها فتخلت هذا عن الدنيا الناكرة للجميل طالبا النعم في السماء العلوى .

وزيادة على هذه الآلهة الأرضية والهوائية والسماوية تخيل المصري القديم آلهة أخرى ساكنة الدنيا السفلى المظلمة ومسيطرة على النيل الأسفل الذي يعبره قرص الشمس مبتدئا من الغرب ومنتها الى الشرق . واعتقد المصريون قديما أن أرواح الموتى تقطن هذه الدنيا السفلى محكومة بأزوريس . وأزوريس هذا معبود حكم الأرض بعد رع وساعدته إزيس وزوجته وأخته في الوقت نفسه فأجبه الخلق كثيرا لعنائه وشفقته ، لكن حكمه لم يدم طويلا لأن أخاه ست كاد له حتى قتله . فأجهدت



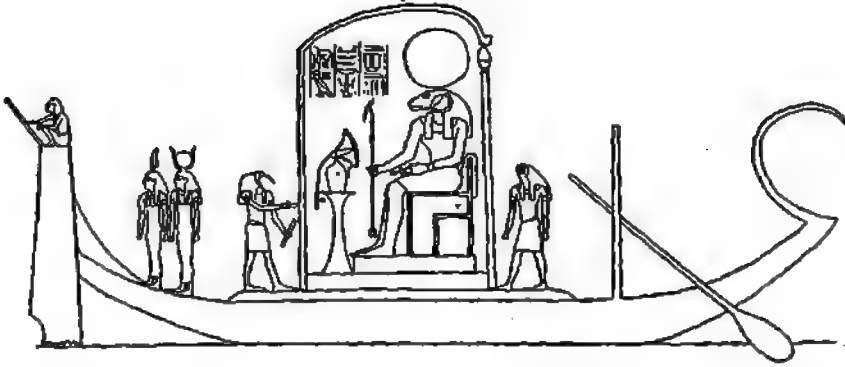
شكل ٣٠ - الثور الفلكية . يستأعضاء عدة آلة ويرفونها . في الوسط إله الهواء شو
وقد تخيل المصريون بأن البقرة أفقا ذا نجوم عديدة تجتازه سفينة رع
الحاملة في مقدمتها قرص الشمس



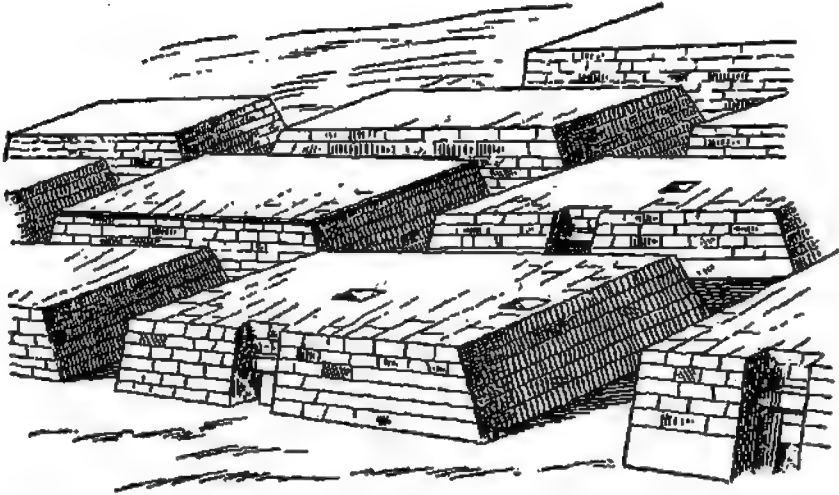
شكل ٣١ - إله السموات مثبتة في جسمها النجوم يحملها عمود الهواء شو
وأسفلها عمود الأرض كب منحني ييرا

أزيس نفسها حتى أهدت جثة أزوريس ثم حنطتها بمساعدة أنوريس أحد آلهة الآخرة الذي يرسم دائما بشكل ابن آوى والمعتبر عند المصريين إله الحنيط . بعد ذلك تلت أزيس كثيرا من التعاويذ السحرية القوية على جثة أزوريس فأحيها ثانية وحزرت أعضائها ، إلا أن أزوريس عجز عن استرجاع مركزه الديني فعكف على الآخرة محترما . في ذلك الوقت حملت أزيس من أزوريس ابن سمته حوريس ربته في الخفاء بين أعشاب مستنقعات الوجه البحرى على أن يثار لأبيه ، فلما بلغ رشده فاضل ست نضالا شديدا امتد من أول القطر الى آخره أصيب فيه كل منهما بجروح بليغة ، وانتهى القتال بانتصار حوريس واعتلائه عرش أبيه . بعد ذلك أتهم ست المعبود حوريس أمام محكمة الآلهة بأنه ليس ابنا شرعيا لأزوريس فلا حق له في الوراثة . ودافع المعبود تحوت إله العلم عن حوريس وأخيرا حكمت المحكمة بأن حوريس ” صادق القول “ ” متصر “ .

وجاء في رواية أخرى أن الحكم المذكور صدر لحق ” أزوريس “ على خلاف المذكور آنفا . ومن هذه المعبودات من مثلها المصريون بتماثيل عديدة واعتبروها آلهة مصر العظمى ومنها من بقى محفوظا في مخيلتهم فقط فلم تشيد له معابد لتقدسه بها . ولما كان القطر المصرى ممتازا على سواه بقله أمطاره كانت لشمسه دائما مكانة عظيمة في نفوس أهله طول حياتهم ولذلك شاعت عبادة الشمس في القطر وتركت في مدينة عين شمس المسماة عند اليونان هليوبوليس وهناك أطلق المصريون على قرص عين الشمس اسم رع ثم لقبوه باسم أنوم وقت الغروب وصوره بشكل رجل هرم قامه في القبر . أما وقت الشروق الذى يظهر فيه هذا الكوكب في ريمان شبابه فكانوا يسمونه خنثرا ويمثلونه بجعل في اللغة الهيرغليفية . وتصور القوم لهذا الكوكب سفيتين يطوف فيهما الأفق تستعمل احدهما صباحا والاخرى مساء حتى المغيب . بعد ذلك تدخل الشمس الأقاليم السفلى فتشرقها لتشرق على الأرض ثانية جالبة معها النور والفرح والسرور الى سكان الدنيا . وكان يرمز للمعبود رع في مدينة عين شمس بمسلة . أما في ادفو التي هي مركز عبادته بالصعيد فكان يرمز له بنسر يقال له حوريس . ولما كان المصريون يرتبون مواعيتهم على حسب سير القمر صار لهذا النجم منزلة كبيرة عندهم فاعتبروه إله الحساب والآداب والحكم . وتركت عبادته بمدينة الأشمونين التي سماها اليونان هر موبوليس نسبة الى معبودهم هر ميس القمري . وجزت العادة أن يرمز للقمر بالطائر ايبس المعروف بأبي منجل . أما السماء فكانت تعبد في كل جهات مصر باسم نوت كما ذكرنا سابقا لكنها لم تخرج عن عالم التخيلات واعتبرها القوم رمز الحب والفرح النسوى ووسمها بشكل البقرة حاتمور بمعبد دندره ولقبت نيت الفرحة في صا الحجر ومثلت بالهزة بسنت في تل بسطة . أما في منف فرسمت بشكل لبؤة عارية عن العطف والشفقة شبيها أحداث الزواج . ولما كانت عقيدة أزوريس آدمية في حوادثها وتطوراتها انتشرت بسرعة بين الخلق قاطبة لكن أزيس بقيت لم تتعد مخيلات المصريين الذين اعتبروها مثال الزوجة والأم الواجب الاقتداء بها . وأما حوريس فيرجع أصله حقيقة الى الشمس دون أزوريس فاعتبره القوم مثال الابن الطيب المتصر على الباطل . وسيأتى الكلام عن عبادة أزوريس تفصيلا وعن تأثيرها في أذهان المصريين في المقام المناسب . وكل ما يجدر بنا ذكره الآن هو أن أزوريس يرجع في الأصل الى مدينة ددو المعروفة عند اليونان باسم بوسيريس بالوجه البحرى .



شكل ٣٢ — السفينة الفلكية للمبود الشمسي . يتناهد في هذا الرسم المبود الشمسي عملا في جسم آدمي
 ورأس كبش حاملا فوق رأسه قرص الشمس وجالسا في أحد المقاعد على العرش . وأمامه وزيره
 المبود تحوت (له رأس الكركي) واقفا يحاطبه كاله أرضي



شكل ٣٣ — صورة تمثل عدة مصاطب (مقابر) كاملة البناء يرجع تاريخها الى عهد الملكة القديمة
 (مأخوذة عن يزوشيبه) . يلاحظ أمام كل مصطبة بابها وفوق كل منها نقرة إلى
 الواصل الى حجرة الموميا أسفل البناء

ولما اعتقد المصريون أن رأس هذا المعبود دفنت بالعرابة بالصعيد صار لهذه المدينة الأخيرة شهرة عظيمة من قديم الزمان . ويرسم أزوريس على الآثار عادة بشكل انسان ضيق اللبس نحيف القوام جالس على العرش كأحد الفراعنة . ويرمز له أحيانا بمعبود غريب الشكل يرجع تاريخه الى مبدأ عبادته استعمله القوم حجابا سحريا لاستخدام الأرواح في مصالحهم . وقبل الفراغ من ذكر الآلهة يجدر بنا أن نشبه هنا أن المعبود پتاح الذى لا علاقة له بخلق الكون هو من أقدم معبودات مصر وأعظمها شأنًا وكانت منف مركز عبادته ، ويعتبره القوم أنموذج المثال أو الرسام ولذلك كان أكبر كهنة هذا المعبود رئيس مثالى القصر الملكى .

هذه أشهر معبودات مصر فى العهد القديم . وهناك معبودات كثيرة أخرى أقل أهمية من التى ذكرناها لايسمح لنا ضيق المقام بذكرها مع أن المعابد المصرية حوت كثيرا من تماثيلها .

واستدل من بساطة هيئة الآلهة المصرية ورموزها أن المعيشة وقتئذ كانت بسيطة أيضا . فمن هذه الآلهة من يمثل قابضا على عصا كالتى يستعملها بدو الصحارى أو على فرع قصب وترين روعسها أحيانا بنسج الغاب أو ريش النعام أو قرنى الأغنام . ولما اعتبر المصريون حيواناتهم المحيطة بهم رموزا للآلهة احتراموها وثاروا على ذلك حتى فى أرق العصور مدنية وحضارة . وليلاحظ أن هذه الحيوانات لم تعبد كآلهة الا فى آخر التاريخ المصرى وقتما دخلت البلد فى دور انحطاطها فلم تكن عبادة الحيوانات موجودة فى العصر الذى نحن بصدده وغاية ما فى الأمر أن المصريين اعتبروا وقتئذ بعض الحيوانات كالنسر رمزا لمعبوداتهم كالشمس مثلا ، ومن ثم اعتبر القوم هذا الحيوان كثيرا وأكرموا مثواه فى المعابد لكنهم لم يعبدوه ولم يقدموا له القرابين كما حصل فى الأزمنة التالية (١) .

ويدهى أن العقائد الدينية فى وادى النيل كثيرة التباين والاختلاف ، فعبادة الشمس مثلا كانت ذات مراكز عديدة وأشكال متعددة واعتبارات متباينة حتى أن أهل كل مركز اعتبروا معبودهم الشمسى مخالفا لنظيره فى المراكز الأخرى ، كما اعتقد أهل مدن ايطاليا أن عذراء كل مدينة تخالف عذراء المدن الأخرى . لكن لما نمت التجارة بين سكان القطر وعمت القوانين السياسية سائر جهاته امتزجت هذه العقائد الدينية بعضها ببعض فنجدت عقائد أخرى مركبة متباينة كما ألمنا سابقا وكما سيتضح أجلا . ومما زاد الطين بلة أن القسوس لم يحتلوا تلك العقائد الى ما هو أبسط وأقرب للفهم بل تركوها تتغير وتتبدل بتقلبات الدهر فأنجبت مزيجا دينيا مركبا صير الإدراك . ولا يخفى أن من أهم العوامل المساعدة على ذلك تفوق احدى البلدان على سواها لأن ذلك يعقبه عادة القبض على زمام الحكم ثم بسط ديانة البلد المنتصر على غيره .

وقد تكلمنا سابقا عن معابد المصريين الذين يرجع تاريخهم الى ما قبل حكم الأسر . أما الآن فنذكر القارئ أن تلك المعابد اعتبرها القوم وقتئذ . ساكن لمعبوداتهم . لذلك لايبعد أن نظم تلك المعابد كانت كثيرة الشبه بنظم منازل ذلك الزمن السحيق . وقد أثبتنا سابقا أن المعابد شيدت أولا من الخشب

ثم من الحجر بدون تغيير في هندسة عمارتها . وبقى القوم يعتبرون معابدهم بيوتا لألهتهم رغمًا عن جهلهم السبب الأصلي لذلك . ويتلخص وصف المعبد وقتئذ بأنه حوش أمامي غير مسقوف يليه ساحة ذات عمد تتفرع منها عدة حجرات لحفظ الأثاث والأدوات اللازمة . وسيأتي الكلام عن بناء هذه المعابد وزينتها . أما الآن فنسذكر للقارئ أن أوسط الحجرات المتصلة بساحة العمد والمسماة بقدس الأقداس حوت عادة ناووساً مصنوعاً من قطعة واحدة من الجرانيت المنحوت جيداً فيه تمثال المعبود الخشبي المطعم بالذهب والفضة والأحجار الكريمة يتراوح طوله بين قدم ونصف وستة أقدام . وتتحضر أشغال موظفي هذه المعابد في تقديم القرابين إلى المعبود من ما كل وملبس بما يتناسب مع الفنى وإلحاح المصرى وقتئذ وكذلك القيام باحتفالات الطرب كالموسيقى والرقص . ويؤتى بجميع المصروفات اللازمة لهذه الاحتفالات من خيرات الأراضى ومن الهبات الملكية من قح وشعيروزيات وعسل وما إلى ذلك (١) . وكان القصد من هذه القرابين في بادئ الأمر ارضاء المعبود بلا احتفالات لكن بمرور الزمن أخذ تقديم هذه القرابين شكل حفلات رسمية اجبارية في كل معابد القطر في أوقات معينة . وجرى العادة أن يقام في الحوش الأول من المعبد مذبح كبير يجتمع حوله الخلق في الأعياد فياً كلون من الهدايا الكثيرة والقرابين العديدة التي يتمتع بها عادة كهنة وخدم المعبد . وأصل إقامة الأعياد وقتئذ يرجع إلى الاحتفال بمرور فصول معينة أو بمجداث مهمة ذات علاقة دينية . وتتخلص هذه الاحتفالات في أن يُخرج القسوس تماثيل المعبود ويضعوه في ناووس على شكل مركب نبلى يسير إلى حيث يرغب القوم . وليلحظ أن الرهبانية المصرية كانت إحدى واجبات الحاكم الذي كان معتبراً في ذلك الوقت رئيساً لكهنة اقليمه . أما فرعون فكان معتبراً الكاهن الأكبر للمعبودات ، ومنذ أوائل التاريخ كان الرئيس الأعظم لدين الدولة الرسمي والشخص الوحيد الذي يقدس الآلهة . وكان له في كل معبد نائب يدعى رئيس الكهنة يقدم القرابين والخيرات داعياً بطول العمر والسعادة والصحة لفرعون مصر . ويرجع تاريخ بعض وظائف هؤلاء الرؤساء الدينيين إلى عهد صهيقي جداً وأهمهم المتمنون إلى مدينة عين شمس حيث لقب رئيسهم "بالرئيس الأعظم" ، أما في منف فكان رئيس الكهنة يدعى "سيد المتالين الأكبر" ، وتسند هاتان الوظيفتان إلى رجلين من عظماء الأمة . أما رؤساء كهنة المعابد الأخرى الذين أتوا في الأزمنة التالية فكانوا يلقبون "برؤساء أو مديري القسوس" فقط . وتتطلب وظائف هؤلاء الرؤساء ادارة الاحتفالات الدينية والاشراف عليها ومراقبة ايراد المعابد الذي يبيش منه الموظفون ثم قيادة الفرقة الحربية الخاصة لكل معبد زمن الحرب . أما الكهنة الصغار فكانوا عادة من العمال المتطوعين لخدمة المعابد في أوقات الفراغ وبهذه الطريقة تمكن العمال من الاشتراك في عبادة المعبود ولو أنهم يعتقدون أن فرعون هو الشخص الوحيد المقدس للعبودات . أما النساء فكان يتطوعن لخدمة المعابد أيضاً كراهبات للعبودتين نيت وحاتحور مؤدبن واجهن الدينى راقصات ممسكات الصوالحة في أعياد مخصوصة أمام الآلهة . وهكذا كانت خدمة الآلهة مباحة للجميع . ولما كان المعبد في اعتبار القوم ماوى المعبود لقب القسوس "بخدم الآلهة" .

ثم أخذ هذا التقدم الديني يبرز في تشييد المعابد الشاخنة وازدادت الكهنة وحبست العقارات لترويد الأموات بما يلزمهم في الآخرة حتى فاق المصريون في ذلك غيرهم من الأمم . والمجهود الجسدى العظيم الذى قام به هؤلاء القوم لحشد المقابر بالحاجيات الدنيوية يعتبر أقدم دليل على اعتقاد الانسان فى البعث بعد الموت . وكان المعتقد وقتئذ أن الأجساد متحركها أشباح حيثما وجدت فى الدنيا أو فى الآخرة . وهذا الشبح كان يدعى " كا " وهو فى اعتقاد القوم مصحوب بروح يرمز له بطائر آدمى الرأس ملحق بين الأغصان أو بزهرة أو بذات اللوطس أو بشعبان أو بتمساح ساج أو غير ذلك . وتخيل القوم أيضا لكل انسان ظلا اعتبروه جزءا ملازما له . ثم كثرت هذه العقائد فصعب على المصرى فهم حقيقتها وعلاقة بعضها ببعض كما صعب على المسيحى فى الجيل السابق فهم العلاقة بين الجسد والروح والشبح . واجتهد المصريون فى تفسير المعيشة الأخرى فاتبعوا فى ذلك الطرق التى راعوها فى تفسير السماء والأرض ولذلك اعتقدوا أن الموتى يقطنون عالما غربيا يهبط فيه المعبود الشمسى كل يوم عند الغروب وعلى ذلك لقبوهم " بالغربيين " واجتهدوا فى تشييد مدافنهم فوق الجبال الغربية . واعتقد البعض وجود عالم آخر أسفل هذه الدنيا تقطنه الأموات منتظرة ظهور قرص المعبود الشمسى سائحا فى سفينة المقدسة كى تتمتع بأشعته وتشد جبال سفينة لتتقدها من المازق الطويل فى ذلك العالم المظلم . وهناك فريق ثالث تأثر كثيرا بصفاء مياه بلاده فاعتقد أن الأموات تتحول طيورا بعد وفاتها وتعلو فوق طبقات الهواء حتى تبلغ روع أى الشمس فتقابل هناك مع اتباع ذلك المعبود وتعيش كتنجوم أزلية . ثم ازداد المصرى تخيلا فى الحياة الأخرى فقوم فى الجهة الشمالية الشرقية فى السماء حقولا يانعة خضراء سماها " حقول يارو " أو حقول الخيرات كثيرة المدس قحها أطول من قح النيل عميمة الرخاء والطمانينة والسلام والسكون ينال فيها كل فرد نصيبه مما يقدم لمعبوده فى الدنيا من خبز وجمعة ومجلس زيادة على ما ذكر . ثم استصعبوا الطريق الى حقول الخيرات فتخيلوها محاطة بالماء ، ولذلك ابتكروا طرقا مختلفة للوصول إليها فكان بعضهم ينجى النسر أو الطائر أبى منجل (إبس) ليحمله فوق طرف جناحه الى تلك الحقول وربما البعض الآخر أولاد المعبود حوريس الأربعة ليحضروا له قاربا يستعين به على عبور المياه وتوصل فريق ثالث الى روع لينقله فى سفينة الى تلك الجهة . لكن العادة المتبعة فى معظم تلك الأحوال أن الميت كان ينجى ربانا لسفينة هناك يدعى " الناظر خلفا " نسبة الى اتجاه وجهه وقت الهدف ليجتاز الماء الى " حقول يارو " . وليس لهذا الربان أن ينقل من يريد بل كان يتعم عليه أن يتحقق أن كل شخص ينقله فى سفينة لا بد أن يكون قد صدر عليه حكم المعبودات بأنه " برىء من السيئات " أو بأنه " ظاهر لا سفينة له " أو بأنه " حق وروع عادل أمام السماء والأرض وأمام الجزيرة " (١) التى تحوى النعم والرفاهية لكل أهل بها .

هكذا تسببت عقائد المصريين في فهم الآخرة لكنها لم تتجاوز شؤون معيشتهم الدنيوية . واعتقد القوم أولا أن الوصول الى حقول الخيرات الأخروية يكون بالاهتمام بالشعائر الدينية والاعتناء بها . ويتوالى الأيام اعتقد الناس أن النعيم الأخرى يكافأ به من يحافظ على طهارة الذمة والشرف والأعمال الصالحة في الدنيا . من ذلك ما ورد في مقبرة أحد أمراء الأسرة الخامسة مترجما "لقد شيدت مقبرتي هذه بغاية العذل والحق فلا شيء فيها يستحقه غيري ... ولم أؤذ أى شخص" (١) . وما ورد أيضا من النقوش على جدر مقبرة لأحد أبناء تلك العصور مترجما "أنا لم أعاقب قط في حياتي أمام رجال الحكومة ولم أسرق شيئا من غيري بل فعلت كل ما يرضى غيري" (٢) . ولم تقتصر نقوش مقابر تلك العصور على أفكار السيئات بل شملت أيضا فعل الخيرات كما ورد على جدر مقبرة وجيه في الأسرة الخامسة مترجما "كنت أقدم الخبز لفقراء اقليسي وأكسو عرأتي ولم أؤذ أحدا طمعا في أملاكه حتى اشتكاني الى معبود بلده ولم أسمح لضعيف أن يخشى بأس قوى فيتظلم من ذلك للإله" (٣) .

وفي هذه العصور القديمة انتشرت بين الخلق عقيدة أزوريس ووفاته واحلال ابنه حوريس محله على عرش مصر حتى صار لها مكان عظيم في نقوش الموتى ، فلقب أزوريس بأول الغربيين "وسلطان الصالحين" . ثم اعتقد القوم أن كل فرد بعد وفاته يحصل له ما حصل لأزوريس فيشبهه ويلقب حينئذ باسم أزوريس أيضا . وكثيرا ما ورد على الآثار ما معناه "يعيش هذا الميت كما عاش المعبود أزوريس . وليدرا عن هذا المتوفى الفناء كما درأ عن أزوريس الفناء ويحفظ من التلف كما حفظ أزوريس" (٤) . ولما اعتقد المصريون أن أزوريس قطعت أعضائه بعد وفاته ثم جمعت وأحييت بمعرفة المعبودات دعوا لبيت أن ترد روحه لأعضائه كما حصل لأزوريس . وهكذا أصبح للتوفى عندهم منزلة المعبود أزوريس في الآخرة حيث يكون حاكما بين الخلق كما كان في الدنيا . واليك ترجمة ما أورده الأستاذ أدولف إيرمان في كتابه (٥) من الدعوات لأحد الأموات "لقد فتح لك باب السماء وأقفاها اكراما لك وتبيلا . هناك ستجد المعبود رع في انتظارك فيقولك بيديك الى المحل المقدس في السماء ويجلسك على عرش أزوريس النحاسي فيصبح عرشك وتمحك الأموات الموقرين ثم تقف خلفك خدام المعبود وتصطف أمامك رؤساء الآلهة صائحين مهلا أيها الإله ! مهلا أيها الإله ! مهلا أيها القابض على عرش أزوريس ! إزيس تحادثك وتفتمس تحيك . الأموات تأتي اليك ساجدة قبل الأرض بين قدميك . هانت ذا قد صارت اليك المتزلة والشرف الإلهيين وأصبحت مماثلا لأزوريس جالسا على عرش رئيس سكان الغرب . أنت العامل لأعماله نحو الأموات والشهداء أنت الرافع منزلك بعد حياتك والذافع الأذى عن أطفالك" . ولما اعتقد المصريون أنهم سيتحتون بعد وفاتهم كالمعبود أزوريس أو أنهم سيصيرون أزوريس نفسه لم يعدوا ينظرون الى الموت بخوف ووجل فقالوا عن موتاهم "أنهم لا يتركون هذه الدنيا أمواتا بل أحياء" (٦) . ومنه يتضح أن القوم وقتئذ أخذوا يعتقدون بوجود محاكمة في الآخرة أمام أزوريس

(١) ٢٥٢: ١ (٢) ٢٧٩: ١ (٣) ٢٨١: ١ (٤) Pyramids, Chap. 16. (٥) Erman, Handbuch, pp. 96-99. (٦) شرح

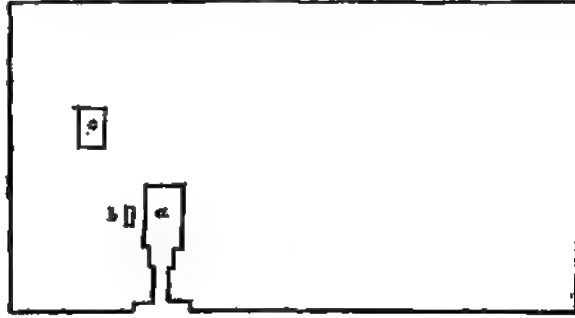
وأن هذه المحاكمة ستناول كل ما أتاه المتوفى في دنياه من صالح وطالح . وليلاحظ أن محاكمة أزوريس أحدثت تأثيرا أدبيا عظيما في نفوس المصريين . ولو أنهم كانوا حقيقة منذ قديم الزمن ذوى ضمائر ونفوس رادعة إلا أنهم كانوا في احتياج الى زاجر قوى كالوارد في عقيدة أزوريس . لذلك نشاهد بين نقوش دهاليز أهرام أمراء الأسرتين الخامسة والسادسة تحذير كل من يستولى على مقابرهم بأنه "سيحاكم على أفعاله أمام المعبود الكبير"^(١) كما ورد في مقبرة أخرى ما يشير الى تجنب الكذب كلية "رغبة في رضاء المعبود وقت الحساب"^(٢) .

كل هذه الحقائق وجدت مدونة بين أقدم نصوص الموتى المعروفة الآن بمصر . وكان الغرض من هذه النصوص ضمان الراحة والتعمير للتوفين وبالأخص نعم أزوريس . وقد نقشت هذه النصوص على جدار دهاليز أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة بكية كبيرة ومنها استخلصنا ما أوردناه هنا بخصوص الآراء المصرية عن الحياة الأخروية^(٣) . وبمناسبة وجود معظم هذه النقوش في الأهرام المذكورة آنفا أطلق الأثريون عليها اسم "نصوص الأهرام" . ولا يخفى أن كثيرا من هذه النصوص ما يرجع تاريخه الى ما قبل حكم الأسروان بعضه غير وُبدل بمرور الزمن كي يتمشى مع عقيدة أزوريس وإن لم يكن له بها علاقة بالمرة . وليلاحظ أن هذا التغيير سبب خلط العقائد الدينية كثيرا حتى صعب فهمها بعد ما كانت متفصلة بعضها عن بعض ومتباينة تمام التباين .

لقد كانت لسوخ العقيدة أو بالأحرى العقائد الخاصة بالحياة بعد الوفاة تأثير كبير في نفوس المصريين منذ أقدم عصورهم ، فتولدت عندهم عناية كبيرة واهتمام عظيم بأموال موتاهم . ومن الواضح أنه رغمًا عن كل العقائد الثابتة بأن الحياة الأخروية بعيدة عن الدنيا فإن قدماء المصريين لم يستطيعوا في وقت من الأوقات أن يفصلوا بين جسم الانسان ونعيمه الأخرى ، لأنه كان من الصعب عليهم أن يصدقوا بالحياة بعد الموت اذا تلفت جثثهم وبليت . وقد بذل المصري مجهودا تدريجيا في ابتكار وسائل ثابتة آمنة لصيانة قبره حتى استعمل في تشييد لحده الأحجار وزاد في حجمه فصيره شامخا ، وهكذا أصبحت أهرام الجيزة أكبر مقابر العالم حجما ، وهذه الأهرام محاطة بمقابر أمراء الملوك القديمة ذات البناء الضخم الذي لو حازه ملك قبل تلك العصور بيضمة قرون لافتخر به أيما افتخار . واليك وزير الملك پي الأؤل الذي يرجع عهده الى الأسرة السادسة فإن مقبرته تحوى ما ينيف على احدى وثلاثين حجيرة يعلوها بناء عال مربع الشكل مائل الأضلاع بما يقرب من خمسة وسبعين درجة ، وهذا البناء أصم تقريبا الا في بعض جهاته حيث تشاهد حجيرة أو أكثر ، وهو كثير الشبه بالمصطبة التي يتربع عليها الفلاحون أمام حوانيتهم ومساكنهم ، لذلك أطلق الأثريون اسم "مصطبة" على هذا البناء . وأبسط هذه المصاطب هي الصماء التي لا تحوى الا بابا وهما في جهتها الشرقية لمرور المتوفى وقت مجيئه من ماواه الغربى . بعد ذلك استعاض القوم عن هذا الباب الوهمى هيكلًا صغيرا

(١) ١٠٢٥٣-٢٢٣٠ و ٣٣٨ و ٣٥٧ (٢) ١: ٢٣١ (٣) See Erman, Handbuch. (٢)

في المصطبة نفسها حرسوما على حائطه الغربي باب وهمى ومزين بالحدز بمنظر بارزة تمثل الخدم والعبيد الذين كانوا يعملون في خدمة صاحب القبر يحرثون ويذرون ويحصدون ويرعون الأغنام ويذبحونها ليقدموها الى مائة سيدهم . ويشاهد هؤلاء الأشخاص في مناظر أخرى يصنعون الأواني الحجرية تارة أو ينون سفنا نيلية تارة أخرى . والقصد من هذه الرسوم اظهار خدم وأتباع صاحب القبر منهمكين في الحقل والمصانع مؤدين ما هو ضرورى لراحة سيدهم في الآخرة . ويشاهد في بعض الرسوم رسم كبير لصاحب القبر يمثله مشرفا على عماله متفقدا أشغالهم كما كان يعمل قبل "رحيله للغرب" . من هذه النقوش جمعنا معلوماتنا عن عادات المصريين وكيفية معيشتهم في تلك العصور . أما اللحد فيرى في أسفل المصطبة منحوتا في الصخر ويلته وبين الخارج يترى يخرق بناء المصطبة . وفي يوم الدفن تحضر جثة الميت محنطة على حسب العادة لتقام لها شعائر الدين التى تمثل ما جرى للعبود



شكل ٢٤ - رسم سطحى لحدى المصاطب . يشاهد فيه معبد القبر
مرموزه بحرف (a) ثم السرداب المرموزه بحرف (b) وهو عبارة
عن غرفة سرية تحوى تمثال الميت . ثم موضع البتروهو المرموزه
بحرف (c) . ويقبى هذا البترو من أسفل بحجرة الرميا .
ويمكن سرقه ارتفاع تلك المصاطب بمراجعة شكل رقم ٢٣

أزوريس بعد وفاته . وأهم هذه الشعائر تلاوة العزائم والدعوات لفتح قم وأذنى المتوفى كي يسترد
كلامه وسمعه في الآخرة . بعد ذلك تنزل الجثة في بئر المصطبة الى اللحد وتوضع نائمة على جانبها الأيسر
اتباعا للعادات القديمة في تابوت جميل مستطيل مصنوع من خشب الأرز موضوع داخل تابوت آخر
من الجرانيت أو الحجر الجيري . وجرت العادة أن القوم كانوا يتركون بعض الغذاء والشراب يجوار
الميت ، وكذلك بعض أدوات الزينة وعصا السحر وعدة أحجية لحماية الميت من أعدائه خصوصا
الأفاعى . وقد وجد في نقوش الأهرام عدد كبير من العزائم الخاصة بوقاية المتوفين من أفاعى الدار
الآخرة . بعد ذلك تملأ البئر حتى حافتها بالرمال والأحجار ثم يترك القوم ميتهم في حياته الأخروية
التي سبق الكلام عليها .

ولم يقتصر واجب الأصدقاء نحو متوفيهم على ما ذكرنا سابقا بل كان يتحتم عليهم أيضا أن يجهزوا تالا للمتوفى يوضع في حجرة صغيرة منعزلة بقرب الهيكل المشيد داخل المصطبة، وقد يوصلون أحيانا هذا الهيكل بحجرة التمثال المذكورة التي يلقبها الفلاحون "بالمرداب" . ولما كان هذا التمثال كثير الشبه بالمتوفى تصور القوم امكان دخول شبح ميتهم هذا التمثال كي يتمتع بقرايين الطعام والشراب التي تقدم في هيكل القبر . ولاحظ القارئ أن قرايين المتوفى كانت بسيطة جدا في بادئ الأمر اذ كان ابن المتوفى أو زوجته أو أخوه يقدم عادة رغيفا صغيرا في اناء على حصير من القش يجوار القبر، لكن بتوالي الأيام ازداد عدد هذه القرايين وغلا ثمنها حتى شابهت ما كان يقدم لليت قبل وفاته في هذه الدنيا . ثم أصبح لهذا العمل الذي كان أصدقاء المتوفى يقومون به سواء أكان ذلك رغبة أم رهبة أهمية كبيرة حتى استلزم وجود عدة خدم للعناية بالقبر غير عدد الكهنة اللازم لقراءة الدعوات والصلوات على الميت . وبلغت عناية القوم بهذا الأمر أن عقدوا الاتفاقات^(١) قبل وفاتهم مع أشخاص يتخبونهم للخدمة في قبورهم بعد الوفاة بمرتب ثابت يصرف لهم قانونا من الأوقاف المحبوسة على مقابرهم قبل وفاتهم . خذ مثلا ما ورد على الآثار من أن مقبرة الأمير نكورج ابن الملك خنجرع من الأسرة الرابعة حبس عليها ايراد اثني عشر مدينة^(٢) . وأن صاحب قصر الملك أوسركاف عين قبل وفاته ثمانية قسوس لخدمة مقبرته^(٣) . وأن أحد أمراء الوجه القبلي وقف على مقبرته ايراد احدى عشرة قرية وعزبة^(٤) . ومما جاء عن هؤلاء القسوس أن مرتب أحدهم كان باهظا تمكن به أن يرتب لمقبرة ابنته ما يماثل المرتب للمقبرة الموظف هو بها^(٥) . وكانت همة القوم منصرفة الى العناية بمقابرهم ، لكن بمرور الأجيال عظم العبء على النسل فأهملت خدمة مقابر الأجداد رغبة في تنفيذ مطالب الأحياء أو الموتى الحديثين . وكما أن القرايين التي كانت تقدم لآلهة المعابد كانت تعطى لموظفي ذلك المعبد ليقناتوا منها كذلك رأى بعض الملوك أن يكافئ بعض أمراءه بأن يحوّل الى مقابرهم جزءا من القرايين التي تقدم لمقبرة ملكية قديمة أو لمقبرة أحد أقاربه^(٦) . ثم جرت العادة أن يساعد الملك سرايته وأمراءه المقربين منه بهذه الكيفية^(٧) . واعتاد القوم أن يندموا دعوات مقابرهم بسيارة معناها "هبة ملكية الى فلان " . واستمرت الحال كذلك مدة من الزمن كانت الهبات الملكية قاصرة في أثنائها على الأمراء والموظفين في القصر الملكي . وبمرور الزمن اقتدى القوم بأمراء البلاد من حيث العناية بموتاهم فكروا استعمال العبارة المذكورة بين دعواتهم رغمًا عن عدم حظوتهم بالهدايا الملكية . ومن ثم استعمل القوم الديباجة على جدر وصفائح قبورهم في جميع العصور مع عدم وجود

(١) ٢٠٠ : ٢٠٩ و ٢٣١ و ٥ - (٢) ١٩١ : ١ (٣) ٢٢٦ - ٧ (٤) ٢٧٩ : ١

(٥) Erman, Handbuch, p. 128 (٦) ١٧٣ : ١ و ١٥ - ٢٤١ (٧) ٢٠٩ : ٢٠٧ و ٢٠٤ : ١

أية علاقة بينهم وبين ملوكهم من هذه الجهة . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كثيرا ما يجد الشخص هذه الديباجة مكررة عدة دفعات في المقبرة الواحدة . وقد يساعد الملك أحيانا بعض محظيه في تشييد مقابرهم ، من ذلك ما ورد من عبارات الافتخار بين نقوش مقابر الأمراء أحيانا ومنها يستدل أن الملك أهدى أحدهم بابا وهما لمقبرته أو تعطف عليه بتسابوت أو ببعض رجال فنيين يساعده على بناء قبره (١) .

ولما كان تقديم القرابين لروح الفقيد من أقدم المقاصد في تشييد المقابر يجد الباحث في مقابر ملوك الأسرة الأولى ما يشير إلى شدة العناية بذلك . ولما كانت الأسرة الثالثة لم يقنع ملوكها بقبر واحد بل شيّدوا لأنفسهم قبرين نسبة لحكمهم لقطرى مصر ، كما شيّدوا قصرين . ثم صارت مقبرة الملك كبيرة الحجم كثيرة الحلية لا تخارن بمقابر الأمراء . فبينما كانت الدعوات والصلوات من أجل الأمراء تقام في هياكل مشيدة بالجهة الشرقية للصطبة كانت هذه الاجراءات الدينية نفسها الخاصة بالملوك تقام في بناء شاخ بديع منفصل عن القبر . ولما استبدل القوم بمقابرهم أهراما شيّدوا في مقابلة جهتها الشرقية معابد مخصوصة للغرض نفسه وخصصوا لكل منها أموالا كثيرة تدفع منها مرتبات الكهنة ورتبوا لها باستمرار القرابين والمأكل والمشرب والملبس . وبديهي أن كثرة موظفي هذه المقابر تطلبت الاكثار من المنازل الخاصة بهم حول كل هرم ، وجرت العادة أن كل هرم وما يتبعه من مساكن وهياكل وغير ذلك يحاط بسور خاص ، وكثيرا ما كانت تتكوّن في وادي النيل في البقعة التي يشرف عليها الهرم المشيد عادة على هضبة مرتفعة مدينة مسورة يصلها بمعبد الهرم جسر حجري محكم البناء ينتهي في طرفه الأسفل ببناء عظيم ضخم من الجرانيت أو الحجر الجيري ويكسو أرضه أحيانا بلاط من المرمر ويظهر عليه شكل مدخل رهيب لقبر عظيم (شكل ٣٥ وشكل ٦٩) . أما الاحتفالات التي كانت تقام في الأعياد فكانت تمتاز بالزي الأبيض وتبدأ من مدينة الهرم أسفل الجسر المذكور ثم تسير فوق هذا الجسر الطويل حتى تصل إلى الهيكل الذي يشرف عليه الهرم العظيم الشاخ . ولا يستبعد أن القوم كانوا ممنوعين من اختراق حائط الهرم وعليه فكانوا يقنعون بمشاهدة هذا البناء الأبيض الناصع من أعلى سور مدينتهم بين أشجار النخيل المترنحة فيتذكرون جثة معبودهم الذي حكمهم مدة من الزمن . وبمرور السنين يرى القوم هرما آخر مماثلا له بالقرب من الهرم الأثقل معدا لخدمة ابن ملكهم المقدس الذي يشاهدون عظمته بين حين وآخر أيام الأعياد . ويلاحظ أنه رغم أن التكاليف الباهظة التي كانت تنفق من مالية البلاد على ذمة الفراعنة وأمراءهم حل حسب الأصول المتبعة

فإنها لم تكن ذات تأثير كبير لقلّة عدد هذه الاحتفالات أما السواد الأعظم فاكتفوا بدفن موتاهم بدون تعنيط في مقابر أجدادهم التي يرجع تاريخها إلى ما قبل حكم الأسروالتي هي على حافة الصحراء الغربية.



شكل ٣٥ - صورة تمثل أهرام أبو صيرودا جاورها من الأبنية الأثرية كاملة للترميم (مأخوذة عن بورخارت) . وفيها يلاحظ معبد خاص لكل هرم مجاوره وطريقان مشيدان بالأحجار بيدآن من اثنين من هذه العابد يدخل شاطئ واقع في الحد الفاصل بين الصحراء وأرض الوادي (راجع شكل ٦٩) .
وتشاهد أمام المداخل درجات سلم حيث ترسو السفن زمن الفيضان

الفصل الخامس

المملكة القديمة

الحكومة ، المجتمع ، الصناعة ، الفنون

يرجع مبدأ الحكم الملكي ومنشأ العادات اللذين تمتاز بهما مصر القديمة عن سواها من الأمم الى عهد بعيد يصعب تقديره الآن إزاء ما لدينا من الأخبار اليسيرة . لكن المعلوم أن حكومة الملك مينا كانت منظمة وعريقة في الوجود وأن ادارة البلاد في فجر المملكة القديمة الذي تقرب مدته من أربعة قرون كانت مصحوبة بهيبة كبيرة ومقام رفيع واحترام شديد نحو ملك البلاد من جميع أفراد الرعية على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم . فكان الملك وقتئذ معتبرا إلهًا وملقبًا " بالمعبود الطيب " ولذلك عظم مقامه بين رعيته حتى صاروا يمتنون ذكر اسمه شخصيا إذا أرادوا الإشارة اليه . فكان الحاجب الملكي مثلا يستعمل في كلامه الضمير الغائب كلما ذكر شيئا خاصا بجلالة سيده فيقول مثلا " هو " إذا أراد الملك ومثلا " لنهبط له الأمر " بمعنى لنخبر جلالة الملك بالأمر ، وهكذا وبمرور الزمن أخذ القوم يقبون الحكومة أولا " بالبيت الكبير " ثم أطلقوا ذلك على الملك . وهذا اللقب يقال له بالهيوظيفية " برعو " وحرّفه بعد ذلك الاسرائيليون الى " فرعون " وبقى مستعملا كذلك حتى عهدنا هذا . وما أكثر العبارات والمجازات التي كان يستعملها موظفو القصر الفرعوني في الإشارة الى ملكهم المقدس . واعتقد القوم أيضا أن ملوكهم اذا ماتوا ينضمون الى طائفة المعبودات وعليه تجوز عبادتهم كآلهة في الهياكل الكبيرة المشيدة أمام مقابرهم الهرمية الشاخحة .

أما الحاشية الملكية فقد بلغت درجة عظيمة في معاملتها الرسمية التي كانت تراعى بكل دقة وعناية فأعضاء الحاشية كانوا من الوزراء العظام والضباط الكبار المترين بأنفس الملابس علاوة على الأسماء الملكيين الذين كانوا يقومون بخدمة الملك في القصر . من ذلك يتضح أن حياة القصر الملكي وقتئذ كانت كثيرة الشبه بما يملئها في الممالك الشرقية . وقد حفظ لنا التاريخ بمض الرتب وألقاب الشرف التي كان ينعم بها على كبار موظفي القصر في تلك العصور السحيقة . ويلاحظ أن رجال الحاشية الملكية كانوا كثيرى التقدير برتبهم وألقابهم حتى قهشوها على جدران مقابرهم مثبتين درجاتهم ووظائفهم التي حازوها في الحضرة الملكية في أثناء معيشتهم الدنيوية . وهذه الرتب والوظائف تختلف بعضها عن بعض من حيث الأهمية والجدارة ولها نظام ثابت يشرف عليه قواد القصر الحربيون بدقة في وقت الاحتفالات الرسمية والمثول بين يدي السدة الملكية . أما خدمة الملك الشخصية فكان يهد بها الى كبار موظفي القصر كل على حسب وظيفته ولقبه فكان بينهم طبيب الملك الخاص ورئيس جوقة الموسيقى الملكية وغير ذلك . أما شخص الملك فكان قليل الحلى ومع ذلك فكان في القصر نفر ليس باليسير يصنع الشعور والنعال والروائح العطرية ويقوم بالفسل والتبيض وحراسة الأمتعة . وكل من هؤلاء كان يتحدث

بألقابه مفتخراتها ومؤيدا لها على صدر مقبرته، فمن ذلك ما ورد على شاهد قبر موجود بدار التحف بالقاهرة مترحا: "أنا الرئيس المتعهد بصندوق دهانات الملك . كنت أقوم بأمورتي في دهان سيدي بغاية الرضا والقبول . أنا المتعهد بإدارة زينة الملك الحامل لخلف جلته الصانع لنعال جلته بما حاز منه الرضا والقبول"^(١) . وجرت العادة أن الملوك كانوا يقترون بأكثر من واحدة ويختارون من بينهم أقربهم وأحبهم لقبولهم فيلقبونها رسميا بجملة الملكة ويصبرون ابنها ولي عهد الملكة الذي يتسلم مقاليد الملك بعد وفاة أبيه . وليلاحظ أن تعدد الزوجات امر شاهد كثيرا في البلدان الشرقية وأنه في الوقت نفسه سبب لكثرة التناسل ، لذلك ترى المصريين يرسمون على الآثار أطفالا عديدين حول ملوكهم آخذين نصيبا كبيرا من دخل القصر . وجاء في الآثار أن أحد أولاد الملك خفرع الذي يرجع تاريخه الى الأسرة الرابعة خلف تركة بعد وفاته تقدر بأربعة عشر قرية علاوة على منزل حضري ومزرعتين يجوار القصر الملكي بالقرب من هرمه وعلاوة على ما وقفه على قبره من ايراد اثنتي عشرة قرية أخرى^(٢) . ومما هو جدير بالذكر أن الملوك كانوا يعينون أولادهم في ادارة البلاد ولذلك لم تكن معيشة هؤلاء الأمراء هنية خصوصا وأن بعضهم كان يشغل مراكز حكومية صعبة شاقة .

ورغما عن رفعة منزلة فرعون مصر واعتبار قومه له لها فقد كان متين الصلة بأمراء بلاده لأن فراعنة مصر كانوا يتلقون علومهم مع أولاد الأمراء ويتمنون معا على الألعاب الرياضية كالعوم^(٣) . ولا بد أن هذه الرابطة كانت شديدة التأثير في نفوس الفراعنة لأن أحدهم سمح بزواج ابنته لرفيق له في الدراسة^(٤) . فتمكن هذا الأخير بذلك من تقبيل القدم الملكي وحيازة الشرف الكبير بعد ما كان يتعذر عليه تقبيل الأرض بين قديمي مليكة^(٥) . وليلاحظ أن علاقات الملك الرسمية كانت مخالفة لعلاقاته الشخصية مع الرعية . فالأولى كانت تحتم على كل شخص أن يظهر احترامه وولاءه للشخص الملكي، أما الثانية فكانت عارية عن الكلفة . لذلك كان الملك مع جلالة يتحادث بغاية الحرية مع أصحابه مدة من الزمن ويسمح لمبيده أن يدهنوا جسمه وأجسام أصحابه بالروائح العطرية الطيبة الذكية^(٦) . وقد تتوطد العلاقة أكثر من ذلك فيتزوج فرعون مصر ببنات أحد رعاياه ولا يبعد أن يساعدها الحظ فتصبح ملكة البلاد الرسمية ويتولى ابنها الملك بعد أبيه^(٧) . ومما يظهر لنا شدة تعلق ملوك تلك العصور بوزرائهم وحاشيتهم ما ورد في الآثار عن حادثة حصلت وقتما كان أحد الفراعنة يتفقد بناء شاعنا مصحوبا بوزير العبارة ، فبينما كان جلالة الملك يمدح البناء ويشكر وزيره المخلص على حسن صنيعه لاحظ أن وزيره لا يلبى ما يلقى اليه فصاح الملك متألما بين حاشيته فهضت لوقتها وحملت الوزير الى القصر الملكي حيث استندى الملك رؤساء الكهنة والأطباء واستحضرت اللغائف الطيبة اللازمة فلما حضر الأطباء قرروا أن حالة المريض لا يرجى منها فتكدر الملك لذلك كثيرا واختلى في حجرتة متضرعا للعبود رع راجيا شفاة وزيره . وبعد أن فارق الوزير الحياة أمر الملك بعمل الاحتفال اللائق لدفن هذا الأمير ووضع جثته في تابوت من خشب الآبتوس وأظهر رغبته في الحضور شخصيا وقت دهان الجثة . ثم عهد لابن المتوفى في بناء مقبرة كبيرة لوالده ووعده

(١) Cairo stela, 1787. (٢) ٩-١٩-٠٠١ (٣) ٢٥٦:١ (٤) ٢٥٤:١ ملاحظة (٥) ٢٦٠:١

(٦) ٢٧٠:١ (٧) ٣٤٤:١

بالمساعدة الملكية^(١) . هذا كله يكفى أن يظهر لنا متين الاخاء والصحة التي كانت بين الفراعنة ورعيته . واجتهد ملوك الأسرة الرابعة وأوائل الأسرة الخامسة في توطيد الصلائق بينهم وبين حاشيتهم حتى صاروا كأ أسرة واحدة مرتبطتين ارتباطا كبيرا فكان للملوك يساعدون رجال حاشيتهم في بناء مقابرهم وتجهيزها باللازم ويهتمون براحتهم ونعيمهم في الدنيا والآخرة . وليلاحظ أن سلطة فرعون كانت مطلقة نظريا فيما يتعلق بإدارة القطر ، وفي الحقيقة كانت مقيدة بعدة عوامل مختلفة كالقراية والحزبية والشخصية والنسوية وهو أمر كثير الحصول في البلاد الشرقية . ومن الصعب علينا أن نتبع هذه العوامل الى أبعد من هذا العصر الذي تتجلى فيه بوضوح أحوالها السياسية الداخلية على مرور الأجيال . ورغم من وسائل الراحة والترف التي كانت موفورة وقتئذ فإن الفراعنة لم تعيش معيشة الكسل والاستبداد كما فعل المالكي ، بل عينت ملوك الأسرة الرابعة أبناءها رؤساء لبعثات الحفائر الحجرية أو المعدنية أو وزراء أو رؤساء وزارات قبل استلامهم مقاليد الحكم ، ولذا كان ملوك ذلك العصر متعلمين مستنيرين عارفين للقراءة والكتابة ولأصول المجاملة والتحية . سخذ مثلا ما ورد عن أحدهم أنه خط بيده خطابا شكر فيه أحد موظفي حكومته على جدارته وكفايته^(٢) . وكثيرا ما كان الملوك يدعون وزراءهم ومهندسيهم للتداول معهم فيما يلزم البلاد وعلى الأخص ما يتعلق بتوزيع المياه وأمور الري . ثم ان رئيس المهندسين كان كثيرا ما يعرض مشروعاته الزراعية المختلفة الخاصة بالضياح الملكية على مليكه ، فقد ورد أن أحد هؤلاء الرؤساء تناقش مرة مع الملك بشأن حفر بحيرة كبيرة طولها ألفا قدم تقريبا في إحدى المزارع^(٣) . وجرى العادة أن الفراعنة كانوا يطلعون على أوراق حكومتهم الرسمية ثم يملون على كتابهم الأوامر لارسالها الى القواد المصريين بطورسيناء وبلاد النوبة وبونت التي هي جنوبي البحر الأحمر . أما ملخص دماوى الوراثة المرفوعة من الرعية فكانت تعرض أحيانا على الملك ، لكن العادة أن الوكلاء الملكيين هم الذين يتصرفون في مثل هذه الأمور . وبعد الفراغ من الأشغال اليومية كان الملك في جلاله يركب هودجه الملكي مصحوبا بوزيره وحاشيته ليتفقد المباني والأشغال العمومية . لذلك كانت سلطة جلالته تمتد الى كل مشروعات القطر الهامة .

وجرت العادة أن تشيد الفراعنة أهرامهم بالقرب من قصورهم على حافة وادى النيل الغربية بجوار الصحراء وأن تحاط هذه القصور بمنازل أفراد الحاشية وأنخدم الملكى . ولما كان فن البناء في عهد الأسر الأولى بسيطا تيسر للوك اختيار أية بقعة من الوادى مقرالم بجوار أهرامهم . وفي مدة الأسرة الثالثة اتخذ الفراعنة مدينة منف عاصمة لهم واستمروا في تشييد قصورهم بها مزدوجة البناء أو مزدوجة المدخل - على الأقل - مشيرين بذلك الى ضم الوجهين القبلى والبحرى تحت حكم واحد ، ومطلقين على كلا المدخلين اسما خاصا ، فأحد مدخلى قصر سنفرو مثلا كان يدعى "بناج سنفرو الأبيض المحترم على الباب الجنوبى" أما المدخل الآخر للقصر نفسه فكان يدعى "بناج سنفرو الأحمر المحترم على الباب الشمالى"^(٤) . وليلاحظ أن وجه القصر الملكى عرف وقتئذ "بالوجه المزدوج" ورسم هذا

(١) ١-٢٤٢:٩ (٢) ٢٦٨:١-٢٧٠ و٢٧١ (٣) شرحه . (٤) ١٤٨:١

القصر على شكل متلين متلاصقين . أما ديوان الحكومة داخل القصر الملكي فكان يعرف "بالادارة المزدوجة" على رغم عدم احتمال وجود ادارتين كما يشير اليه هذا الاسم . ويرجح أن تجزئة ادارة القطر المصري بين وجهيه لم تنهب الى أبعد من التجزئة الاسمية وان كثرت الاصطلاحات الادارية "كالشونة المزدوجة" اشارة الى الشونة الملكية و"البيت الأبيض المزدوج" اشارة الى ديوان المالية وكأنهم حافظوا على هذا الازدواج الاسمي في مصالح الحكومة مع أن وجهى مصر متضمان معا تحت ادارة واحدة احتراما للتقديم الرامخ في الأذهان . أما القصر الملكي ودواوين الحكومة المحيطة به والتي تتفرع منه ادارة أقالم المملكة فكانت تعرف "بالبيت الكبير" .



شكل ٣٦ - جمع الضرائب بواسطة موظفى المالية : يشاهد فى القسم الأيمن كتاب وضباط مالون يقيدون الأيراد . ويرى بالقسم الأيسر عمال المالية (الصيارفة) مزقدين بالمضى يحضرون الأهالى لدفع الضرائب .
ولوق هذه الرسوم تقوش هذا تمريها "التبض على حكام الأقاليم للساب"

وتسهيلا لسيط نفوذ الحكومة على جهات القطر قسمت مصر الى أقسام صغيرة بلغ عددها فى الوجه القبلى حوالى عشرين قسما تقريبا وفى الوجه البحرى فى العصور الأخيرة ما يماثل ذلك . والمظنون أن هذه الأقسام بقايا الامارات التى كانت موجودة قبل حكم الأسر والتي تكونت منها المملكة المصرية فيما بعد . أما حكام هذه الأقسام فكانوا يعينون فى عهد الأسرتين الأولى والثانية بأمر ملكى ويلقبون تواب الملك ويعهد اليهم بالادارة والقضاء فى أقسامهم واقبوا أحيانا "بالقضاء" . ودائنا الآثار على وجود مجلس مؤلف من عشرة "حكام من الوجه القبلى" يلقب "بالرؤساء المشرة العظام الجنوبيين" امتاز أعضاؤه على سواهم من حكام الأقسام الجنوبية بعائو المتزلة، ويظن أن هذا المجلس كان أشبه بـ لجنة ادارية مخصصة . ومع ضآلة معرفتنا بأنظمة الوجه البحرى فاننا نرجح أنه كان منظلا اداريا كالوجه القبلى تماما الا أنه كان أقل أقساما . والمعروف أنه كان لكل حاكم قسم ادارة صغيرة يرأسها تقوم باختصاصات الحكومة فى قسمها كالمالية والقضاء والادارة ومساحة الأراضى واقامة الجسور وحفر الترع والشُرط ومخازن التوين ، ولذلك تطلبت ادارة كل قسم عددا كبيرا من الكتبة والمسجلين ومقدارا عظيما من السجلات والقوائم . ولا يخفى أن أهم عامل فى تنظيم وتوحيد ادارة الأقسام هو ادارة الأموال الواردة الى ادارة الحكومة المركزية كالضرائب السنوية من حبوب وغمم وطيور ومصنوعات وغير ذلك مما يجمعه حكام الأقسام من سكان البلاد . والسبب فى توريد هذه المواد الى الحكومة هو عدم استعمال العملة وقتئذ . ثم ان محصولات القطر كانت

تضبط وترسل بها كشوف لتقيد بعاصمة الملك كما كانت ترسل أيضا الى المالية للراجعة ، وأما المعاملات كتسجيل الأراضي ومسائل الري والأحكام القضائية والإدارية فكانت ترسل كلها الى مركز الحكومة العام لمراجعتها . ولما كانت الإدارة المالية أمّن الروابط بين القصر الملكي وأقسام القصر الملكي فقد عهد في إدارتها الى موظف لقب "برئيس أمناء المالية" يقطن القصر الملكي ويساعده اثنان للإشراف على أفرع المالية المتعددة وعلى الأخص المدن والعمارة اللذين كانا صر موقين بعين الاهتمام في القطر . وقد عرف هؤلاء المساعدون باسم "صرافى المبود" - أى الملك - وكان يعهد إليهم في الإشراف على قطع الأحجار من المهاجر وتشييد المعابد والأهرام وغيرها وقيادة بعثات المدن الى شبه جزيرة طورسيناء .

ولا يخفى على القارئ أن أهم واجبات حكام الأقسام كانت الإدارة . أما القضاء فكان عملا إضافيا . ولم يوجد بين القوم وقتئذ من اخصص بالقانون ، لذلك كان يشترط في حكام الأقسام الإلمام بالقانون والقيام بأعمال القضاء في دائرة اختصاصهم . أما تنفيذ القانون فكان تحت إشراف ست دوائر قضائية في القطر المصرى مكوّنة من أعضاء متضلمين في المهنة تحت إدارة رئيس الحقانية الأكبر . وكان كثيرا ما ينعت القضاة أنفسهم "بالمتممين الى بلدة نحن" - المعروفة عند اليونان بهيرا كونيوليس - وهو لقب يرجع تاريخه الى العهد الذى كانت فيه هذه المدينة عاصمة الوجه القبلى . أما القانون فكان غاية في الاتقان والحكمة ، ومما يؤسف عليه أنه ضاع من الوجود . والمعروف أن حكام الأقسام كانوا كثيرا ما يفتخرون بعلمهم في القضايا المعروضة أمامهم ، وقد دونوا ذلك على جدر مقابرهم فقد جاء في إحدى هذه المقابر ما ترجمته : "لم أحكم بين أخوين حكما ينع أحدهما من تسلم ما يخصه من ميراث والده" (١) . ويظهر أن المتبع في محاكم تلك العصور أن تقدم إليها الدعاوى مكتوبة باختصار ، وقد امتدح ديودور هذا النظام كثيرا (٢) . ويوجد ببلد التحف برلين درج بردى قديم يحوى حكما صادرا من قاض لمدع كان يطالب بحقه في ميراث (٣) ، ويعتبر هذا أقدم درج أثرى من نوعه معروف للآن . ودلتنا الآثار على قضايا خصوصية كان الحكم فيها رئيس الحقانية وأحد القضاة المتممين الى مدينة نحن (٤) . وجاء أيضا في بيان قضية اتهمت فيها ملكة بانليانة أن الحكم فيها صدر من قاضيين متممين الى مدينة نحن عينا بأمر ملكى خصيصا لهذا الغرض ولم يكن رئيس الحقانية منهما (٥) . ولا شك أن هذه الحوادث تثبت شدة حرص الفراعنة على العدالة والانصاف ولولا ذلك لأعدمت الملكات الخائشات فورا بلا تحقيق بدلا من محاكمتن قانونا أمام العدالة ليلقين جزاعن . والتريب أن حرص الملوك المصريين على العدل اضطل الى نحو مائة سنة تقريبا . والمعروف أيضا في أحوال خاصة سمح للتظلم أن يقدم شكواه باختصار الى الملك رأما ليحكم فيها كما يستدل من الحكم القانونى المدون بدرج برلين البردى المذكور سابقا (شكل ٤٥) .

والوزير فى تلك العصور رئيس الحكومة والحقانية معا فكان لذلك على مرتبة الملك فى سياسة الدولة . ونظرا لخطورة ذلك المركز كان ملوك الأسرة الرابعة يسندونه الى أولياء العهد . وإلى هذا الوزير

(١) : ١ (٣٢) و ٢٥٧ (٢) الكتاب الأول ٧٥-٧٦ (٣) Pnp. des Kgl. Mus. 82-3. (٤) ٢٠٧ : ١

(٥) ٣١٠ : ١

كانت تحوّل كل المخاطبات الرسمية والمكاتبات الملكية^(١) الخاصة بتسجيل الأراضي والوصايا^(٢) . فكتب الوزير كان أشبه "بقلم السجلات" (الأرشيف) في حكومتنا الحالية . وقد عثرنا على وصية كاملة تقريبا لأحد أبناء ملوك الأسرة الرابعة^(٣) وأخرى يرجع تاريخها الى مبدأ الأسرة الخامسة^(٤) مقوشتين على جدران المقابر مضى عليهما ما يزيد على خمسة آلاف سنة . أما النص الأصلي المسجل في "قلم سجلات" الوزير فقد ضاع . وهناك وصايا أخرى أقل أهمية منها حفظتها لنا الآثار^(٥) . وجرت العادة إذا وهب ملك فردا من رعيته قطعة أرض أعلنت هذه الهبة بمرسوم ملكي مسجل في "المكاتبات الملكية" بديوان الوزير^(٦) .

وكانت ادارة القصر الملكي مقسمة نظريا على الأقل الى قسمين نسبة الى الوجهين القبلي والبحري ، ولذلك نجد بين أخبار الإدارة المالية اصطلاحات "كالشونة المزدوجة" وبين أخبار القصر الملكي ما يعنى "الإدارة الملكية المزدوجة" . والمرجح أن تسميا كهذا كان موجودا في ادارة القصر الداخلي أولا ثم انعدم على توالى الأيام فلم يبق منه الا الذكرى . ومعلوم أن الوزير كان أكثر رجال المملكة المصرية تبة لأنه كان الرئيس المباشر لأعمال موظفي الحكومة الفرعونية كافة من اداريين وكتبة من أكبر كبير الى أصغر صغير . زد على ذلك أنه كان يتولى الاشراف على عدة أمور ثانوية خاصة بالنسبة . وكان يشترط فيه فوق ذلك أن يكون بارعا في فن العارة حتى كان كثيرا ما يقب "برئيس أشغال الملك" . ولما كان هذا النفوذ الحكومي العظيم منحصراف في هذا الوزير كان القوم كثيرا ما يمدون اليه ليفصل في دعاويهم وهو الشخص الوحيد الذى يقيم الحق ويحقي الباطل . ولا غرابة أن نجد هذا الوزير أكثر موظفي الملك محبة في نفوس الرعية . ويرجح أن الرجل العاقل العظيم المدعو **محبب** كلف شاغلا لهذا المركز أيام الملك زوسر ، وكذا الفيلسوفان العظيمان **قافنه** و **يتاح حوتب** اللذين يرجع تاريخهما الى الأسرة الثالثة واللذين تداول القوم حكمهما عدة قرون بعد عهد المملكة القديمة . ولشدة احترام هذا المركز في نظر الرعية كان القوم يذكرون أحيانا بعد اسم صاحبه دواء "بالصحة والسلامة والعافية" كما يذكر عادة بعد أسماء الملوك وأعضاء الأسرة المالكة .

هذا هو النظام الداخلى الذى جرت عليه المملكة القديمة في القرنين الأول والثاني من صدها كما يستدل من الآثار . والحق يقال ان هذا النظام بلغ درجة وطيدة في القرن الثلاثين قبل الميلاد بفضل مهارة موظفي الحكومة وأن هذه الدرجة لم تبلغها أوروبا الا في أواخر الحكم الرومانى . ويتلخص هذا النظام في تقسيم البلاد وتعيين موظفين لكل قسم للاشراف على ادارة شؤونه تحت سلطة الحاكم الذى يتلقى أوامره من مركز الحكومة العام بالقصر الملكى . وببشئى أن قوة الحكومة وهيئتها ترتبنا على كفاية فرعون الادارية ومهارة حكام أقاليمه . فاننا ضعفت مراقبة فرعون للأموال الادارية والسياسية ولو قليلا شعر حكام الأقسام بشئ من الاستقلال فلا ينصاحون كثيرا لأوامر الملك وينجح

(١) ٢٦٨ : ١ ملاحظة ٢٧٣ (٢) ١٧٥ : ٢٤ - ١٦ (٣) ١٩٠ : ١٩٩ (٤) ٢١٣ - ٢١٧

(٥) ٢٣١ : ١ ملاحظة وغير ذلك في نصوص الأسرتين الخامسة والسادسة (٦) ١٧٣ : ١

عن ذلك تفكك عرى المملكة . ولما كان هذا النظام يقضى بأن يكون حكام الأقسام كل منهم هو الوسيط الوحيد بين فرعون ورجعته نجم عنه أحيانا مخاطر يؤبه لها ، كأن يعلن قسم أو أكثر استقلاله عن الحكومة المركزية وينفرد حاكمه بالسلطة المطلقة . وقد حصل هذا فعلا في عهد الملكة القديمة كما سيتضح في الفصل التالي . ولا يبعد أن يكون هذا التفكك في عرى المملكة راجعا الى عدم وجود قوة عسكرية ثابتة تحت اشراف الحكومة المركزية مباشرة . نعم ان كل قسم من أقسام مصر كان له رديف معلوم تحت ادارة موظفين ملكيين غير محتمكين حربيا لكن هذه القوة لم تكن ثابتة ولا تابعة مباشرة لادارة القصر الملكي . ولعدم مهارة قواد هذه القوى في الفنون الحربية كانت ميزتها العسكرية معدومة تقريبا . ومعلوم أنه كان لكل معبد رديف تابع له يستعمل في قطع الأحجار والمدن ونقل الأحجار ولوازم المهارة الخاصة بالمعابد تحت اشراف "صراف المعبود" .

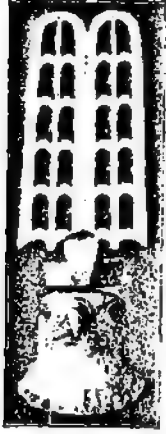
وفي حالة الحرب يحن رديف الأقسام والمعابد والنوبة ويضم بعضها الى بعض تحت قيادة ضابط كبير يعينه ملك البلاد . ولما كان حاكم كل قسم مسئولاً عن حركات رديفه كانت قوة فرعون مشتتة بين هؤلاء الحكام .

واعتبر القوم فرعونهم صاحب الحق المطلق على معظم أراضي القطر . أما خدام الأراضي من حرائين وحصادين وغيرهم فكانوا من طائفة الخدم أو العبيد التي شملت الجزء الأكبر من الرعية وكانوا يشتغلون تحت مباشرة موظفي حكام الأقسام . ويستدل من الآثار أن هؤلاء الخدام أو العبيد اعتبروا تابعين للأرض التي يخدمونها ولذلك جرئت عليهم الأراضي^(١) . ولم نعرف بالضبط احصاء عدد السكان وقتئذ وليست لدينا وسيلة تمكنتنا من ذلك وكل ما اهتمنا اليه أن هذا الاحصاء بلغ في العهد الروماني سبعة ملايين نسمة^(٢) . والمعروف أن جزءا كبيرا من أراضي القطر كان ملكا لأفراد الأسر المالكة ونسل الملوك قبل عهد الأسر ، وهؤلاء الملاك من الأمراء لم يشترط أن يكونوا موظفين حكوميين أو حكام أقسام فقد كان بعضهم عديم الصلة بالادارة . واعلم أن سكان القطر لم ينتمسوا الى أمراء وعبيد فقط بل كانت هناك طبقة متوسطة احتكرت الصنائع والفنون الجميلة وبرعت فيها كثيرا ولا تزال نجعل الشيء الكثير عنها ، وسبب جهلنا هذا يرجع الى عدم مائة مقابر هؤلاء القوم والى استعمالهم الورق البردي في معاملاتهم بكثرة ، وقد فقد هذا الورق كله تقريبا . وتدلنا أخبار العصور التالية أن الملكة القديمة كانت تحوى صناعات وتجارات يتداولون بضائعهم . ويرجح كثيرا وجود ملاك أحرار لبعض الأراضي من غير الأمراء .

ورابطة الأسرة كانت أهم روابط الاجتماع وقتئذ كما هي الحال في التوارخ الحديثة . واقتضى قانون تلك العصور العتيقة ألا يتزوج الرجل بأكثر من واحدة وأن أطفال هذه الزوجة هم ورثة الشرعيون . ومساوت الزوجة الرجل في كل أمر وكانت تعامل بكل احترام دائما كما أنها كانت تتساطر بملها وأولادها في أفراحهم . وكثيرا ما تشاهد علاقات الود والجمالة بين الأمراء وزوجاتهم منقوشة على آثارهم . والغالب أن هذه العلاقات نشأت بين الطرفين منذ نموه أطفالهما لأن القوم على اختلاف طبقاتهم

اعتادوا أن يزوجوا الأخ لأخته وأن يعتبروا أخته زوجته الشرعية ورئيسة منزله . لكن هذا لم يمنع الرجل من الاقتران بأكثر من واحدة غير شرعية . ولم يعتبر تعدد الزوجات شائنا وقتئذ بل كان عاديا كما هي الحال الآن في البلاد الشرقية . وما أكثر احترام الأطفال في تلك العصور لأبائهم فقد لازم الابن خدمة قبر والده بعد وفاته . زد على ذلك أن القوم كانوا كثيرى الافتخار بفرط حب أفراد أسرهم لهم ، واليك ترجمة ما ورد في هذا الصدد في مقبرة أحدهم : "كنت محبوا لى والدى ووالدى واخوى واخواتى" (١) . أما الوراثة فكانت تنتقل عادة عن طريق أكبر البنات سنا كما هي العادة في كثير من الأقوام ما لم ينص على غير ذلك في وصية سابقة . وأمن روابط الأسرة هي الخاصة بالأم فكان الشخص يفضل وقت ضيقه حماية جده من أمه عن حماية والده . وما أكثر تكرار التذكير بحبة الابن أمه التي حملته وأرضعته وأراحته وخدمته واعتنت به وقت دراسته . وقد بغض القوم الزنا ومقتوه . ولما كانت رابطة الزواج بين العبيد والفقراء ضعيفة في بعض الأحيان لضيق اليد كان الطلاق بينهم كثيرا وسهلا بنسبة ما كان حاصللا بين الأغنياء . قال أب لابنه ما ترجمته "احترس يا بنى من المرأة الأجنبية المجهولة في بلدها فهي كالبحار العميقة التي لا يعرف لها قرار . واعلم أن المرأة البعيدة عن زوجها تكسب لك كل يوم وترى لك شركها في غيبة الرقيب ، فاحترس من الوقوع فيه لأن ذلك جناية فظيعة لمن يتعظ" (٢) . ولذلك اعتبر القوم الزواج أصون شيء للشباب . لكن هذا الوصف لا ينفى وجود الحرائم والموبقات بين القوم وقتئذ رغم هذه النصائح الأدبية الشريفة . ومظاهر الحياة بين طبقة الفقراء لم تكن شريفة سامية ، فنازلهم كانت مشيدة باللبن ذات عُرُش بسيطة ومتلاصقة ولا يتجاوز أثاثها عادة مقعدا بسيطا وصندوقا أو صندوقين رديئى الصنع وبعض الخزف . أما رباعُ العمال فكانت كبيرة مشيدة باللبن مقسمة الى حجرات متصلة بممر طويل . وهذه الرباع كانت تشيد في مدن الأهرام والقرب منها . والظاهر أن معيشة الزواج كانت أكثر حرية وراحة ونميا من معيشة عمال الأهرام ومدنها (خرريطة رقم ١) .

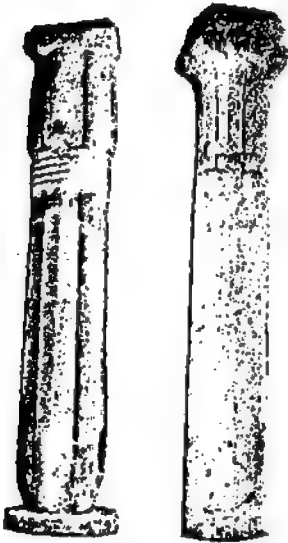
أما منازل الأغنياء والموظفين فكانت كبيرة حاوية وسائل التعمير . فقد جاء أن أحد أمراء الأسرة الثالثة المدعومين كانت يقطن مترا تربو مساحته على ثلاثمائة وثلاثين قدما مربعا (٣) مشيدا بالأخشاب واللبن المجفف في الشمس فكان بذلك بناء خفيفا طلق الهواء مناسباً لطقس القطر . ولكثرة منافذ الجدر ذات الثقوب العديدة في حجرات المسكن أصبحت المنازل شبيهة بهيكل الانسان المظلمى كالأبنية اليابانية ، فاذا هبت الزوايع سدل القوم ستائر من زخرفة على منافذ بيوتهم . ويلاحظ أن بناء قصر الملك لا يختلف كثيرا عن هذا التركيب الخفيف لكنه كان محصنا من الخارج . لهذا السبب انحمت آثار مدن مصر القديمة فلم يبق منها الا أسفل جدرانها المهتمة . وأهم أثار هذه المنازل السرر والمضاجع والمقاعد والصناديق الآبنوسية المطعمة بالعاج بأحسن ما جادت به أيدي الحرفيين الماهرة . ولم تكن الموائد كثيرة الاستعمال الا أن الأواني المرصية الثمينة أو المصنوعة من الأحجار الأخرى اللغالية أو النحاسية أو الذهبية أو الفضية كانت مرفوعة على حوامل عالية عن الأرض .



شكل ٥٨ - رأس نمرذهي
وجد بمدينة هيراكليون
(دارتحف القاهرة)



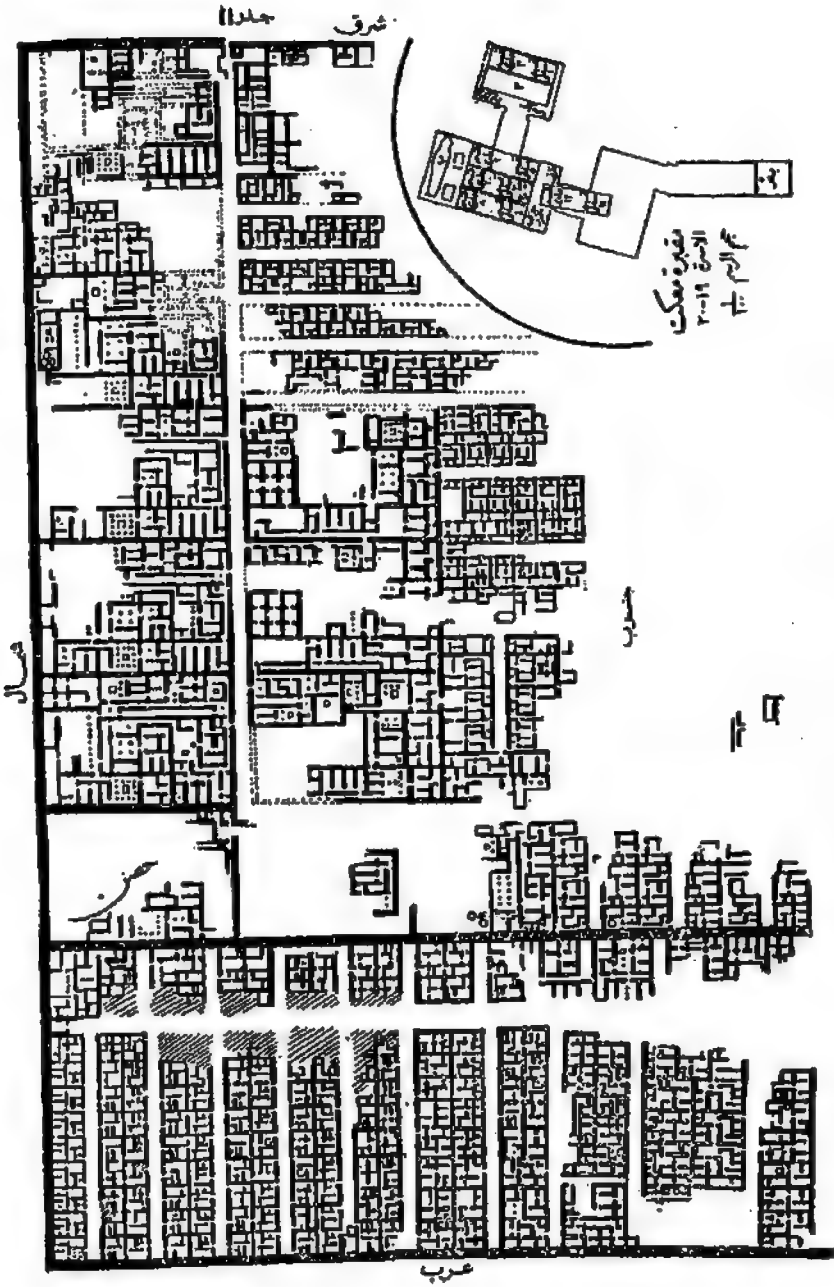
شكل ٥٧ - رأس أسد مصنوع من الجرانيت
(دارتحف القاهرة)



شكل ٦٠ - صورة عمودين للأعمدة
الخاصة - العمود الأيمن مصنوع على
شكل نخلة والأيسر على شكل طاعة
من البردي (دارتحف برلين)

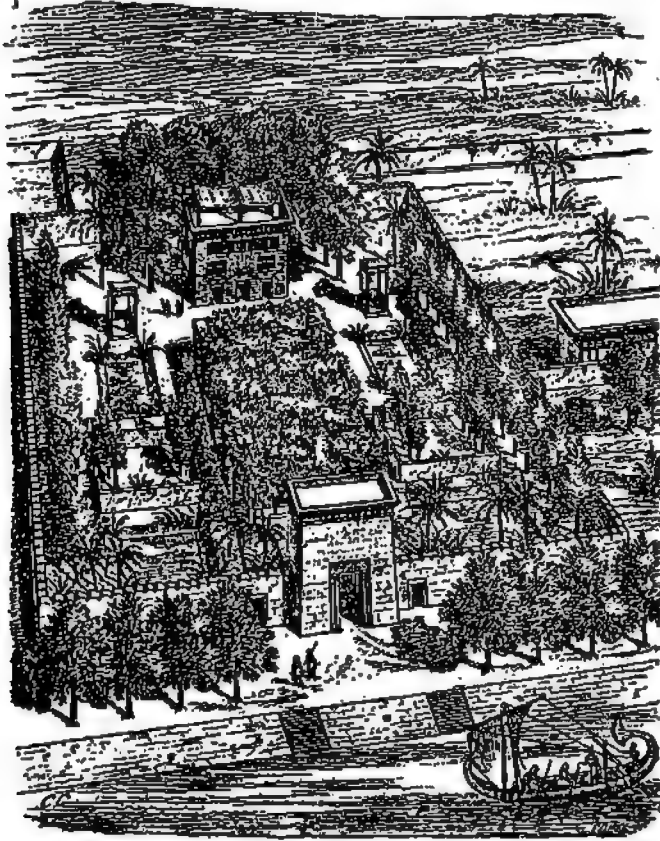


شكل ٥٩ - صورة بارزة على لوح خشبي لشخص
يقال له حسي رع - (دارتحف القاهرة)



خريطة رقم ١ : مدينة الاهليون الواقعة بالسكة الحديديّة

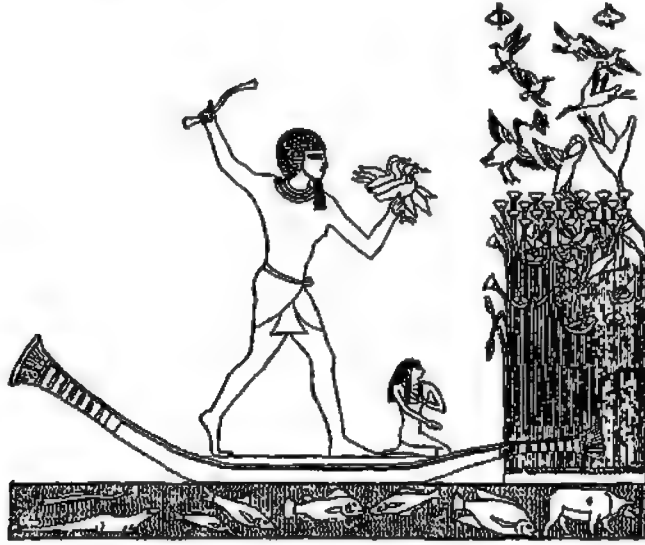
وغطى القوم أرضهم بالأبسطة السمكة واعتاد النسوة على الأخص تفضيلهن الجلوس عليها من المضاجع والمقاعد . أما الغذاء فكان متقنا متباين الألوان . واعتاد القوم أن يقفوا على أرواحهم بعد وفاتهم أنواع الأغذية الكثيرة ، واليك بيان ما جاء بوصية أحدهم لتوزيعه بقبه : "عشرة أنواع اللحم ونمسة أشكال من الطيور وستة عشر صنفا من الخبز والكهك وستة أنواع من النيذ وأر أشكال من البعثة وأحد عشر صنفا من الفواكه . ملاوة على أنواع الحلوى العديدة وغير ذلك" (١)



شكل ٣٧ - نصر وهدية لثليل مصرى من عهد الملكة القديمة (مأخوذ من بدهوشيه)

ولم يرتد الوجهاء إلا ملابس بسيطة للغاية عبارة عن معطف منبت حول الوسط وواصل إلى الركبة أو الساقين . واعتاد القوم أن يحلقوا رءوسهم بالموسى وأن يضع سراهم على رءوسهم فى الحفلة الرسمية فلانس شعرية . ولهذا الفلانس نوعان أحدهما قصير الشعر أجمده وآخر طويله وناعمه مف فى وسطه . وكانوا يتحلون بقلاند ذهبية مزصعة بالجواهر الكريمة . أما باقى الجسم من الوسط فما فكان طاريا . وهذه الهيئة اعتاد سراة القوم مقابلة زائرهم وتقعد أعمال مزارعهم قايضين على .

طويلة في أيديهم . أما ملابس نسوة السراة وأولادهم فكانت أبسط من ملابس الرجال وهي عبارة عن مهليل ضيق غير مكم مصنوع من الكان الأبيض كاس للجسم من الشدين الى القدمين ومنهت فوق الكتفين "بشريطين" . والجزء الأسفل من ملابس السيدات ضيق بالنسبة للاستعمل في عهدنا هذا مجال عافت سهولة المشى . أما حلى النسوة فعبارة عن قلنسوة طويلة الشعر وطوق وقلادة وأساور . ولبس القوم الخلف أحيانا لكنهم لم يتقودوه . ونظرا لحرارة الجو كان الأطفال كثيرا ما يعيشون بلا ملابس . واكتفى الفلاحون برداء بسيط ساتر للعودة منهت بالوسط لكنهم

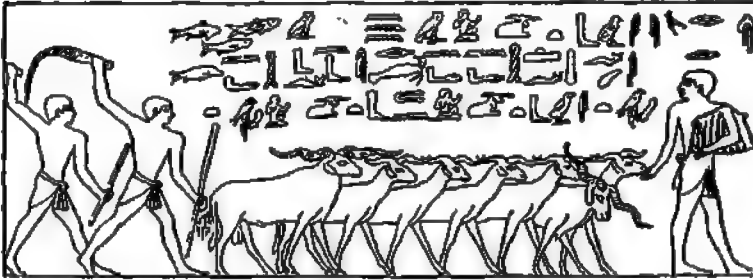


شكل ٣٨ - نيل من عهد الملكة القديمة يصطاد وحش الطير بعض منيرة وهو واقف في سفينة من اليوس تمر في مستنقعات البردي

كانوا كثيرا ما يخلعونه وقت القيام بأشغالهم في الحقول . اما نسوتهم فكان يرتدين قيصا طويلا ضيقا شبيها بلباس نسوة السراة وكن يساعدن أزواجهن كثيرا عاريات في أعمالهم الشاقة كالصيد وذر الحبوب .

وكان المصري قديما ولوعا بالطبيعة والمعيشة الخلوية فكانت منازل السراة تحيط بها الحدائق الحاوية لأشجار التين والنخيل والجوز والعنب وغير ذلك . وتوجد أمام هذه المنازل قلدان صناعية مبنية الحافات مملوءة بالأسمالك . أما خدم هذه القصور فكانوا عديدين ، اختص بعضهم بخدمة القصر واقتصر الباقي على الحديقة ، وكان الكل يشتغلون تحت مراقبة "رئيس الخدم" (شكل ٣٧) المسئول عن نظام القصر والحديقة معا . ولخدم الحديقة رئيس ثان مهمته العناية التامة بالأشجار . هكذا كان الأمراء يتمتعون في منازلهم صارفين أوقات فراغهم بين نسوتهم وأولادهم لاعبين "الداما" أو مستمعين لأشجان الآلات الموسيقية كالقيثارة والمزمار والطنبور أو متفرجين على رقص نسائهم الرشيقات

ولعب أولادهم بين الأشجار أو خوضهم المياه . وكانت الأطفال كثيرا ما تلعب الكرة ويتسلق بعضهم ظهور البعض ولو حظ أن الأمراء كانوا ولوعين بالرياضة مع زوجاتهم وأولادهم في قوارب صغيرة من سيقان البردى في المستنقعات والبرك النيلية تحت ظلال الأعشاب الطويلة . وما أشد ولوع القوم بالمعيشة بين ملايين الحيوانات الصغيرة بتلك المستنقعات حيث كانت الزوجة تمكث أزهار السوسن واللوطس والابن يجتهد في صيد الهدهد . أما الأب فكان يسذل جهده في صيد الطيور الوحشية بقضبان خشبية ملتوية . وقد تكثر الطيور حتى تمجج السماء ورغم ما من صعوبة الفحص وقتئذ وما يحتاج إليه من نشاط وحركة كان الأمراء يفضلون استعمال القضبان الخشبية المذكورة على الأقواس والرماح . وهوى الأمراء أحيانا صيد البحر فاستعملوا لذلك قضباناً طويلة تنتهي بسلاح



شكل ٣٩ - الزراعة في عهد الملكة القديمة : يشاهد في القسم العلوي من الرسم طريقة الحرث ويذ الحبوب . أما القسم السفلي فيشاهد فيه أغنام ورماتها سائرة على الأراضي المبدورة بقصد غرس الحبوب في الأرض . ويشد الراعي الأوردت اختراعه المستنقعات الأنشودة الآتية المدونة هنا :
"الراعي يخوض الماء وسط الأسماك محاداً سمك النمل ويحضى النهار محاداً سمك الغرب . . ."

ذى حدين واجتهدوا في صيد سمكتين بالحدين دفعة واحدة (شكل ٣٨) . وقد يعترض التزعة أحيانا جاموس البحر الشديد أو تمساح عنيد فيتغلب عليه الأمير بجربة طويلة تنتهي بجبل ثم يستعين بصيادي الجهة فيطردون هذا الوحش الضارى من ذلك المكان . ولم يقتصر ولوع السراة على هذه الرياضة بل كثيرا ما قاموا برحلات خطيرة في الصحراء لقتل وحش الثيران بالحرايب أو لاقتناص الوعل والغزال والأيل والتبتل ووحش الشيران والحمير والنعام والأرانب ، أو لرؤية الحيوانات الوحشية الأخرى الغريبة التي تخيفها القوم وقتئذ كالعتقاء ذات الأربعة الأرجل والرأس الواحد والجنائحين وكالطيور التي لها رعوس النمر وتنتهي أذناها بزهر اللوطس ! هذه الأفكار المسلية التي جالت بأذهان المصريين وتعلقهم بالطبيعة ونظرهم الى الحياة من وجهة الفرح والسرور رغم مجهودهم العظيم الذي

ضحوا به لراحة موتاهم في الآخرة أثرت بوضوح في نفسية المصري فظهر ذلك في فنونه ومصنوعاته التي فاقت في الرق والجمال مصنوعات ومبتكرات ممالك آسيا المعاصرة .

ولنبحث الآن عن خيرات البلاد وحاصلاتها وتقدمها في عهد المملكة القديمة التي تهرب مدتها من خمسة قرون والتي كانت حكومتها ثابتة النظام قابضة على زمام الري معنية بالجسور والترع فتقول :
(ان حاصلات القطر ونتاجه بلغت وقتئذ أقصى درجاتها . وبسبب أن الزراعة كانت ولا تزال أهم موارد الثروة في مصر . ويرجح أن الحضارة الاجتماعية والسياسية التي تكلمنا عليها سابقا ترجع الى كثرة الحاصلات الزراعية من القمح والشعير التي جناها الفلاح من أراضي واديه الفتية . ولم تقتصر خيرات هذا الوادى على الحبوب بل شملت أيضا الكروم الكثيرة والخضراوات الرطبة الغزيرة وقطعان الأغنام والبهائم والمعز والحبر والطيور والدجاج البرى وحيوان الصحراء والسك مما لا تحصى . أما الخيل فلم تكن موجودة . كل هذا زاد كثيرا في ثروة البلاد ، ولذلك كانت فلاحه الأراضي التي قام بها



شكل ٤٠ - قطع من البهائم يخوض غديرا . من عهد المملكة القديمة

ملايين السكان أهم أسباب زيادة ثروة البلاد ورفاهيتها سنويا . بل ذلك في الأهمية محاجر الجرانيت بالشلال الأول والأحجار الرملية جهة السلسلة والأحجار الصلبة المسلة جهة وادى الحمامات (بين قفط والبحر الأحمر) ومحاجر المرمر جهة حاثوب (خلف تل العمارنة) وغير ذلك من محاجر الأحجار الجيرية الكثيرة كالموجودة جهتي عيان وترويا تجاه منف . وقطع القوم الجرانيت من محاجر الشلال الأول كتلا كبيرة يتراوح طول كل منها بين عشرين وثلاثين قدما وتراوح زنتها بين خمسين وستين طنا . وقد أظهر المصريون مهارة مدهشة في نحت ونقش الأحجار الصلبة كالصوان (Diorite) بمعاول نحاسية وفي قطع كتل الجرانيت المستعملة لأغطية التوابيت بالمناشير والمناقب والمعاول وغيرها . أما العدن فيبلغ شوطا بعيدا إذ بلغ عدد الفعلة القائمين بهذا الأمر بطور سيناء قدرا كبيرا . واستخرجوا النحاس والملاشيت الأخضر والأزرق (المستعمل للتطعيم الدقيق) والفيروزج واللازورد . ولم تهتد لأن إلى مناجم الحديد لكننا نعرف أنهم صنعوا منه آلات . أما البرنز فلم يكن مستعملا وقتئذ . وتقدمت صناعة المعادن فصنع القوم الآلات النحاسية والحديدية والأقفال والمسامير والرزز وأدوات الزينة على اختلاف أنواعها ، علاوة على الأواني النحاسية المطرقة التي استعملها الأغنياء على مواثيقهم

وكذا الأسلحة النحاسية . أما الصياغة فكانت دقيقة متقنة . ولما كانت الفضة تجلب بكميات قليلة من إقليم قيليقيا (Cilicia) بآسيا الصغرى أصبحت بطبيعة الحال أغلى قيمة من الذهب الذى كان كثيرا بين مخمور الجرانيت على ساحل البحر الأحمر وفى وادى الفواخير على طريق قفط علاوة على ما كان يستخرجه الأجانب ويأتون به من صحارى النوبة الشرقية الغنية . ولم تهتد للآن تقريبا الى مصوغات فرعون أو أمير من عهد المملكة القديمة لكننا نستدل من النقوش البارزة الموجودة على جدر محاريب المقابر أن صياغ ذلك العهد وخلفاءهم فى عهد المملكة المتوسطة تقدموا كثيرا فى الدقة والانتقان وسلامة النوق بمرور الزمن منذ الأسرة الأولى (شكل ٤١) .

وخبرات وادى النيل كثيرة متنوعة تسد لوازم مصنوعاته المهمة ومع سهولة احضار أحجار البناء الجيدة شيد القوم عماراتهم فى معظم الأحيان باللبن المجفف فى الشمس كما يعمل الآن فلاحو عصرنا ، فشيّدوا به ربوع العال وقصور الأغنياء والمستودعات والمخازن والقلاع وأسوار المدن وذلك لرخص



شكل ٤١ - حوانيت السباكين فى عهد المملكة القديمة : يشاهد فى الجزء الأيسر من القسم العلوى طريقة وزن المعادن الثمينة والحجر المكسى . وفى الجزء الأوسط رجال يوقدون على الخلل مستعينين على ذلك بانابيب طويلة . وفى الجزء الأيمن صب تلك الخلل وطرقها . أما القسم السفلى فيظهر طريقة تركيب القلائد وأدوات الخرز . ويلاحظ وجود الأفرام فى هذه المصانع

المادة وبسهولة استعمالها ، وكان للبن مصانع مخصوصة . ونخلق وادى النيل من الغابات استعمل أهله أخشاب النخيل والجيز والأثل والسنتل لكثرة وجودها بالوادي رغم رداءة مادتها . ولندورة الخشب الجيد أصبح غالى الثمن ، ومع غلاته تقدمت التجارة كثيرا فأخذ أغنياء القطر يبيعون من سورية ما يلزمهم من خشب الأرز الذى صنع منه تجاروهم ما يدهش الناظر ويأخذ بلبه . ويرع صناع ذلك العصر فى صناعة خشب الآبنوس والعاج المستحضرين من الأقاليم الجنوبية . وانتشرت صناعة السفن فى كل مدينة ومزرعة كبيرة . ثم تعددت أنواعها فأصبح منها الضخم الكبير المستعمل لشحن البضائع والفلال والبهاثم ، كما صار منها القوارب البحرية البديعة ذات القلاع العظيمة والمجاديف العديدة التى استعملها الأمراء للتنعم والرفاهية . وسفن ذلك العصر أقدم سفن معروفة للآن طافت شواطئ البحر الأحمر .

وفي الوقت الذي كان الحفارون يصنعون فيه جميل الأواني والأوعية والجرار والأظرف والصحاف الكبيرة كان الخزاف يخرج بديع الأواني الالامعة ذات اللون الأزرق أو الأخضر الناصع فأخذت يجامع قلوب أهالي تلك الأزمنة حتى فضلوا تدريجاً على الأواني والأوعية الحجرية . وصنع الخزاف الزلع الكبيرة لتخزين الزيوت واللحوم وغيرها من أنواع الغذاء في مخازن الأمراء والحكومة . وانتشرت الأواني الخزفية بين ملايين الفقراء فأصبح لصناعتها مركز عظيم في القطر . وأواني هذا العصر ليست مزخرفة ولا متنوعة . واستعمل الزجاج في طلاء الخزف ولكن لم تعمل منه أوان أو أدوات . ولما كانت أراضي القطر زراعية كثيرة المراعى كانت صناعة الجلود بطبيعة الحال معلومة ، فقد دبت مصريون الجلود بمهارة فنعموها وصبغوها بكل الألوان واستعملوها لأغطية المقاعد والمضاجع والوسادات كما صنعوا منها المظلات والستائر . وارتقت صناعة الكنان لكثرةه بالقطر فوضعت مزارع فرعون الكنانية تحت إدارة أمير نيل . وغزل نساء الفلاحين الكنان ونسجهن وصنع القوم



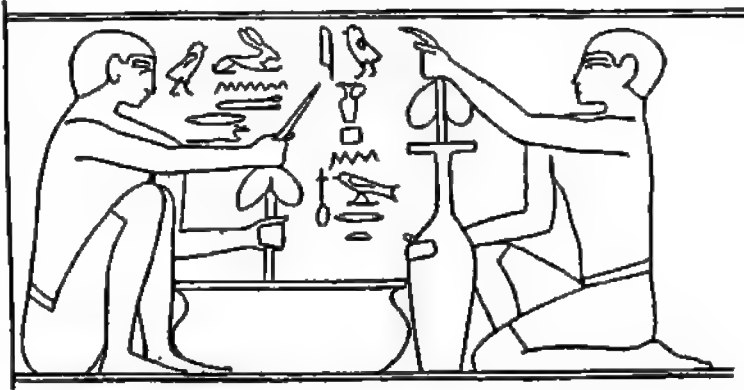
شكل ٤٢ - صناعة السفن في عهد الملكة القديمة

أنسجة كنانية خشنة متينة جيدة المادة ووصلت إلينا أنسجة ملكية من هذه المادة غاية في الدقة والرفقة يصعب على الرائي تمييزها من الأنسجة الحريرية إذ تبدو تحتها أعضاء لابستها . واستعمل القوم غير الكنان نباتات أخرى تنمو في المستنقعات والأباطح في صناعة مسوجاتهم الخشنة كالبردى . وصنعوا من البردى أيضا قوارب خفيفة عريضة وذلك بضم سيقان النبات بعضها لبعض ، وصنعوا منها أيضا الجبال يجدل تلك السيقان . واستعاضوا عن البردى أحيانا ليف النخيل فجذلوه وصنعوا منه الجبال ، ثم ضفروا سيقان البردى فصنعوا منها الأخفاف والحصر . وأهم من هذا وذاك أنهم شقوا أوراق البردى قطعاً مستطيلة ثم لصقوها فكونوا بذلك الأدرج المعروفة . واستعمل ورق البردى والمداد بسهولة في المكاتب وقتئذ كان من أعظم أسباب انتشار الخط المهيروغليفي وسريانه إلى فينيقيا ثم إلى سائر العالم المتمددين فاستعير منه حروف هجائية . وهكذا بعد ما كان القوم يكتب بعضهم بعضاً بالنقش على الألواح الطينية التي يتراوح وزن كل منها بين الثمانية والعشرة الأوتال ويستعملون لذلك الخط المسماى أصبحوا يستعملون ورق البردى لنقشته وسهولة حفظه بين طيات الملابس على

الصدور ولكبر مساحته أيضا . كل هذه الميزات تظهر لنا السرف في كثرة توريد الأدرج البردية من مصر الى فيفيا في القرن الثاني عشر قبل المسيح^(١) وتبين أيضا سبب أهمية صناعة البردي في عهد المملكة القديمة .

وما أكثر المراكب والسفن التي غرت في مياه النيل وقتئذ مشحونة ببخيرات البلاد الزراعية والصناعية قاصدة خزائن فرعون أو الأسواق التجارية . وتعامل القوم تجاريا بالمبادلة فاشترت الأواني الخزفية مثلا بالسك والمراوح بالبصل والصناديق الخشبية بعاب المطر والدهان (شكل ٤٦) .

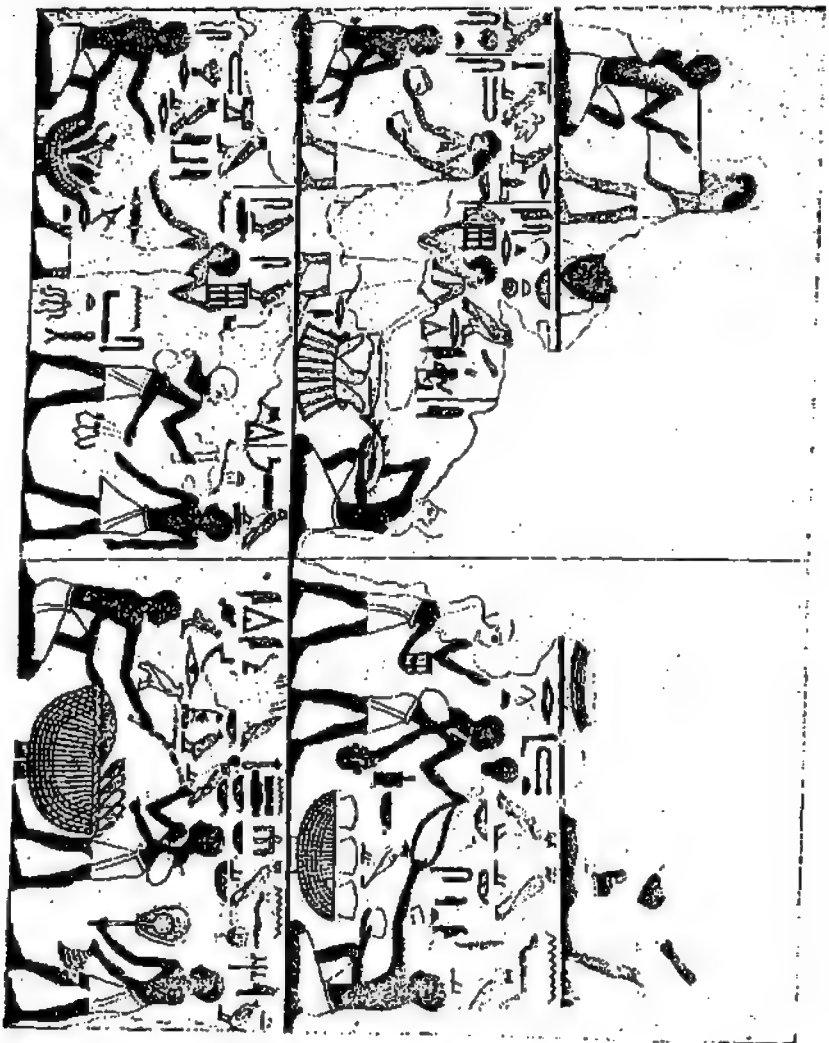
أما الأشياء الثمينة فكانت تشتري بحلقات ذهبية أو فضية ذات ثقل معروف وتعتبر أقدم عملة معروفة في التاريخ . وتوزن البضائع بمناقل حجرية منقوش عليها قيمة وزنها وهي على شكل حلقات أيضا . ولدورة الفضة كانت أغل ثمنها من الذهب . وتقدمت البلاد في التجارة والمالية في عهد المملكة القديمة



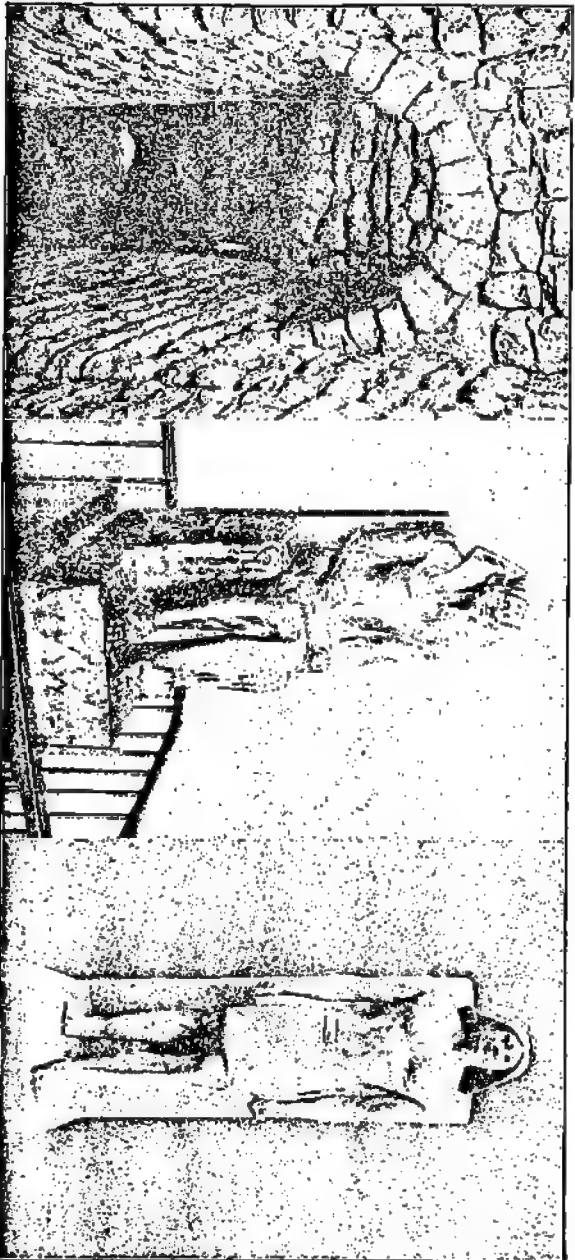
شكل ٤٣ - تحت الأواني الحجرية في عهد المملكة القديمة : تلاحظ بين الثعابين
نصوص هيرغليفية لحادثات بينهما قال أحدهما لآخر : " هذا آناه بدع لغاية"
فأجاب الآخر بقوله : " هو كذلك حقيقة "

فدونت المعاملات الخاصة بهذه المسائل في سجلات كما أن الطلبات والإيصالات كانت لا تعتمد الا كتابة وكذا الوصايا والأعمال كانت تسجل للتأكد ومراعاة النظام . والعقود الطويلة المدة كانت تدون كاملة الشروط حتى لا يبقى هناك مجال للشك والارتياب . ولكل أمير كتبة وأمناء يجردون أملاكه وديونونها ويديرون حركة عماراته الرسمية مع الأمراء وغيرهم . وقد عثر حديثا بجزيرة القيل بمنزل قديم طيني مهدم على بقايا أوراق بردية لأمرأة تلك الحدود يرجع تاريخها الى القرن السادس والعشرين قبل الميلاد تحوى معلومات منزلية وتجارية تخص صاحب ذلك المنزل . ولم يحتفظ الفلاحون الذين عثروا على هذه البقايا البردية بها لجهاهم قيمتها فلم يبق منها الا التبر اليسير ومنه عرف أن تلك الأدرج كانت

(١) ٤ : ٥٨٢ . وأيضا من الفصل الرابع والعشرين



شكل ٤٦ - سطر لسوق في عهد الملكة القديسة (ساحرة من بورس)



شكل ٤٧ - مقدر يسوع تاريخه ال الأسرة الثالثة
 كنفه الأستاذ بارسناج في قبر بحية بيت الطلوف

شكل ٤٨ - تمثال لاله حنون (ممنوع) ممنوع
 من الجير الموزان - (دار تحف القاهرة)

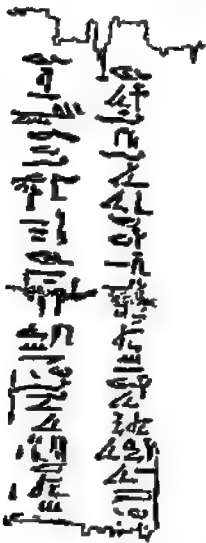
شكل ٤٩ - تمثال لشخص يقال له (رع توتو)
 ممنوع من الجير الجدي (دار تحف القاهرة)

صور أحكام قضائية ومذكرات . وقد اهتمت بها الحكومة الألمانية حديثا فطبعتها رجال دار التحف برلين حيث توجد محفوظة به للآن (شكل ٤٥) .



شكل ٤٤ - حصيد البردى في عهد الملكة القديمة : يشاهد بالقسم الأمير في الرسم رجلان يجهزان سيقان البردى ثم رجلان آخران يجهزان تلك السيقان بيته حزم ثم أربعة رجال يحملون تلك الحزم

في مثل هذه الظروف اشترط على كل موظف حكومي أن يكون متعلما راقيا . ولشدة حاجة الإدارة المالية لكتابة الحساب أنشأت الحكومة مدارس خاصة لتخريج أشخاص لا تقين لهذه



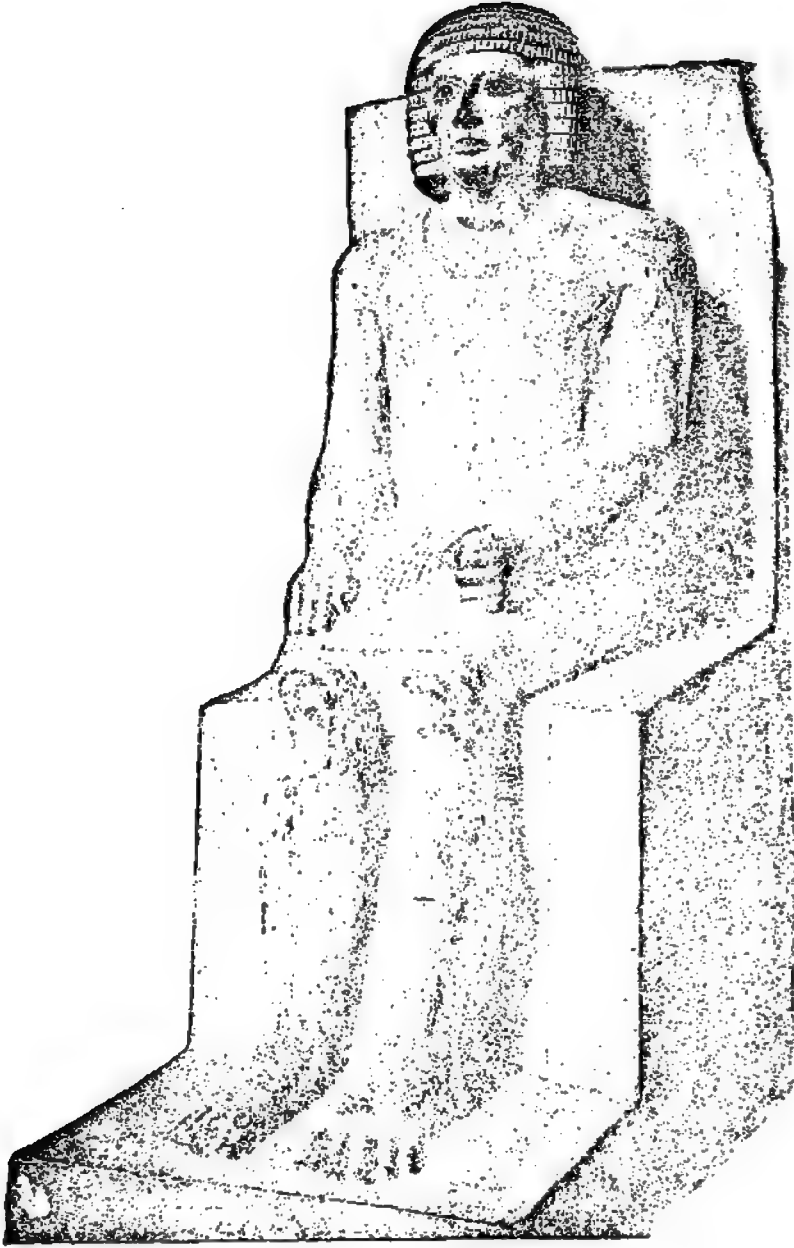
شكل ٤٥ - رسم لعمودين من النصوص المصرية القديمة مأخوذ من سيقان رسمي يرجع تاريخه الى عهد الملكة القديمة . وهذه النصوص مكتوبة بالخط الهيراطيق على درج من البردى . والأصل محفوظ بدارتحف برلين

الأعمال . ولما كان اهتمام المصري بالعلم لفائدته فقط كان ولو ما بالبحث وراء الحقائق واقتناء العلوم من أجل ذاتها . وعلى كل حال فالتعليم وقتئذ كان مشرفا لصاحبه حتى بكر القوم في ارسال أطفالهم الى المدارس مع الدقة في مراقبتهم . وكثيرا ما كان الأساتذة يسدون النصائح والمواعظ الى الطلبة لكنهم استمعوا أحيانا بالقسوة ليتمكنوا بها من التأثير في أذهانهم . فن أقوالهم المأثورة "أذنا الطفل على ظهره فلا يسمع الا اذا ضرب عليهما" (١) . واهتم القوم بتلقين أطفالهم الحكم والآداب العالية واهتمامهم كان يليغا بحسن الخط . ولا يخفى أن الخط الهيراطيقى أصعب الخطوط مراسا لكثرة ما يحوى من صور الحيوانات والآدميين التي يشاهدها الزوار بدور التحف والآثار ، ولذلك صعب استعماله في الأعمال العادية اليومية . ولما أكثر القوم من استعمال الأدراج البريدية والكتابة عليها اختاروا الخط الهيراطيقى الى ما هو معروف الآن بالخط الهيراطيقى . ويرجع هذا الاختزال الى أقدم أسر الملكة القديمة . والفرق بين هذين الخطين كالفرق بين خطى المطابع والأيدى في اللغات الأوروبية . وقد أثر انتشار هذا الخط المختزل في أعمال الحكومة والتجارة على نظام الإدارة والمعيشة كثيرا فأصبح أداة للتمييز بين الأسمى والتعلم كما هي الحال في عهدنا هذا ، واشترط على كل من يرغب في التوظيف في الحكومة كتابا أو أميا بالمخازن أو ناظر زراعة أن يكون مسلما بالخط الهيراطيقى . وقد عثرنا على أدراج

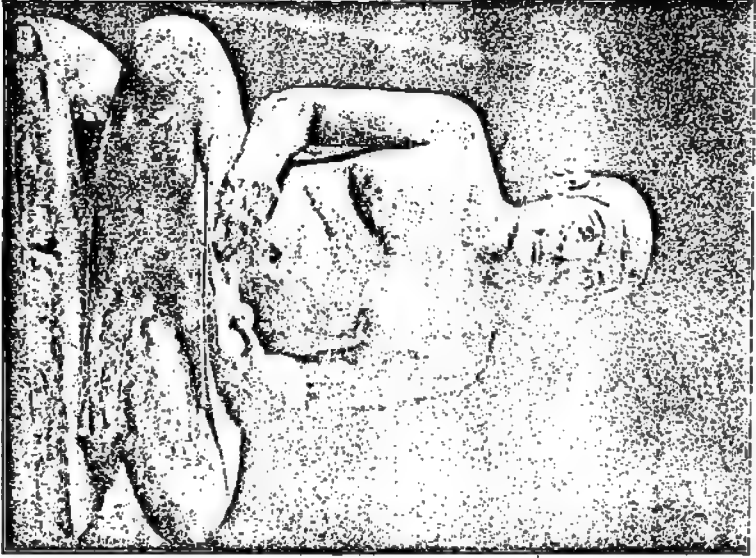
بردية استعملها صبية المدارس مدون بها حكم وجمل علمية ونماذج خطية القصد منها تمرين الطالب على كتابتها . وعثر حديثا على كنية كبيرة لمثل هذه الأدرج يرجع تاريخها الى عهد الامبراطورية أى بعد المملكة القديمة بألف وخمسمائة سنة تقريبا . وترجع معظم معارفنا عن تلك العصور الى ما خلفه لنا التاريخ من تمارين طلاب العلم وقتئذ ، ويجد القارئ في هذه التمارين اصلاحات المدرسين لما على الهامش . وعند تمام الدراسة المقررة يلحق الطالب بمكتب أحد الموظفين للتمرين على الأعمال الكتابية وتصريف الأمور حتى يصبح كفتا للالتحاق بوظيفة صغيرة بتدئى بها حياته الكتابية .

وان اهتمام المصريين بالعلم كان لفائدته العملية فقط ، ولم تنق نفسهم الى دراسة أصول الطبيعة والكون الا اذا اضطرتهم الضرورة لذلك ، وهذا أمر طبعى فيمن لا يميل الى البحث في الحقائق الغامضة ، ولذلك لم تتقدم معارفهم الا فيما يتعلق بمعيشتهم اليومية وأعمالهم الدائمة . وكانت معلوماتهم الفلكية كثيرة تمكن أجدادهم بها من توقيت زمنهم بالسنتين قبل عهد المملكة القديمة بألف وثلاثمائة سنة تقريبا . ثم رسموا السماء وعرفوا أهم نجومها وابتكروا آلات مضبوطة تعرفهم مراكز النجوم ، لكنهم لم يهتموا بالتفكير في أصل هذه النجوم لعدم فائدته في نظرهم فلم يكتفوا أنفسهم بمؤنة التفكير والاجتهاد . ولشدة احتياج القوم الى الحساب في معاملتهم الحكومية والتجارية مهروا فيه . ووجدت الكتابة بمض صعوبة في حساب الكسور فحولوها الى أعداد صحيحة بالنسبة الى وحدة معينة الاكسر الثلثين الذى استعملوه بلا تعب أو عناء . وتوصلت الكتابة الى حل بعض المعادلات الجبرية البسيطة والى معرفة مبادئ علم الهندسة فقدروا مساحة الدوائر بدقة غير أنهم صعب عليهم إيجاد مساحة شبه المنحرف . وترجع معرفة المصريين لحجم نصف الكرة وسعة الاسطوانات الى احتياجهم الى معرفة حجم كومات الحبوب وما تحويه الشون المستديرة الجدران من الغذاء . كل هذه العلوم استعملت في الأعمال اليومية بدون اهتمام للبحث عن أصلها . واشد ما عجب المؤرخون من الضبط والانتقان اللذين توصل اليهما المصريون في رسم قواعد الأهرام كهرم الجيزة الأكبر حيث تتجسم معالم الدقة والانتقان في اتجاه الأضلاع نحو الجهات الأصلية الأربعة مما يتجشى مع دقة الآلات الهندسية الحديثة . وقد عرف مهندسو العمارة والبناءون شيئا كثيرا من علم رفع الأثقال (الميكانيكا) كما يستدل من قيو مقبرة بيت الخللأف يرجع تاريخها الى القرن الثلاثين قبل الميلاد . ولا يزال هذا القبو أقدم بناء معروف من نوعه للآن (شكل ٤٧) .

ولم تكن معلومات القوم الهندسية في نقل الآثار الضخمة الا بسيطة أولية بلهلمهم بالكرات والمحاور (Rollers) . أما الطب فكان غزير المعلومات والنظريات الصادقة التى تشير الى دقة في الملاحظات . وللك طيب خاص رفيع المنزلة عظيم المكانة يشخص المرض ويصف العلاج المفيد . لكن يلاحظ أن أغلبه أت من طريق الوهم كاتخاذ مستحلب شعر العجل الأسود لمنع الشيب . وجمع القوم علومهم الطبية في أدرج بردية^(١) فاستعملها خلفهم من بعدهم فزادت شهرتها .



شكل ٥٠ - تمثال لشخص يقال له (حم ست) . (دار تحف المرفر . مأخوذ عن كابر)



شكل ٥٢ - تمثال لكاتب من عصر البطرك ابن صبه الملكة القديسة
(دار تحف الورد)



شكل ٥١ - رأس تمثال عيسى المسيح لبيسج الله
(دار تحف القامرية)

وانتقلت بعض الوصفات الطبية الى اليونان ثم الى أوربا حيث لا تزال معمولاً بها بين المزارعين الى الآن . وكانت العقبة الكاداء في تقدم الطب وقتئذ اعتقاد القوم الراجح بتأثير السحر حتى تساوت منزلة الطبيب بالساحر فأصبح المرضى يتماطون معظم عقايرهم مصحوبة بتعاويذ سحرية . ثم اعتقدوا أن التعاويذ أنجح فائدة من العقاير لأنهم اعتبروا الأمراض نتيجة تلبس الأجساد بالأرواح الخبيثة التي لا تتأثر الا بالسحر .

وبلغت الفنون الجميلة درجة قريبة من الطبيعة بعيدة عن الأوهام لم تبلغها أية بلدة أخرى في تلك العصور القديمة . ولم يكن المصري بطبعه ميالا لتجسيم الجمال وتخضيله على غيره كاليونانيين بل كان مغرما بمظاهر الطبيعة الأصلية فقط كما يراها داخل منزله وخارجه، ولذلك نقش زهر اللوطس على أيدى ملاعقه وشرب التبذ في أقداح زرقاوية اللون على شكل برصوم اللوطس وصنع أرجل سريره بيثة أرجل التيران القوية العضلات ولبسها بالصاج ورسم سقف منزله بيثة سما تبدو منها النجوم ورفعها على أعمدة شبيهة بالتخيل الباسقة الأغصان أو بسيفان اللوطس المنثية أعاليها يراعيم ذلك النبات . وكثيرا ما زين المصري أسقف حجراته برسوم الحمام والفراس الطائرة بين الأشجار وكان يحل أرض منزله باللون الأخضر على شكل مستنقعات يسبح بين أعشابها السمك وتشاهد فيها أحيانا نيران وحشية طاردة للعصافير المحلقة فوق الأعشاب المائية . ويرى الناظر أن هذه الطيور تسمى في الوقت نفسه خلاص صغارها من ابن عرس الذي يريد اقتراسها . أما الأدوات المنزلية المستعملة يوميا في منازل الأغنياء بجميلة متناسبة الأجزاء تشاهد على أبسطها صنعا مناظر الطبيعة وجمالها المثيران في خلاء القطر المصري وقتئذ . ولما كان هم المصري تحسين وتجميل كل أداة مفيدة عمليا لم يمر الجمال أهميته النظرية فكانت الأشياء العملية أهم ما أنتجته أيدي صناع ذلك العصر . فإذا نظرت مثلا الى تماثيل الملكة القديمة تجدها بلغت حدا مذهشا من حيث المطابقة للأصل، والسر في ذلك أن القوم لم يصنعوا هذه التماثيل للفرجة والتجارة بل لفائدة الميت في الآخرة كما ألمنا الى ذلك (الأشكال ٤٨ و ٤٩ و ٥٠ و ٥١ و ٥٢) . والتماثيل نوعان نوع يمثل الشخص بشكله المعتاد المعروف به بين أهله وقومه والآخري يظهره بشكل اصطلاحى ثابت على ممر الدهور . وقد بذل المثالون جهدهم في جعل التماثيل مطابقة للأصل فلونوها بالألوان الطبيعية وصنعوا الأعين من الحجر البلورى فأصبحت ملامح الحياة البادية على تماثيل العهد المنفى لا مثيل لها في تماثيل أى جبل بعد ذلك . ويرجح أن أحسن ما عرف من التماثيل الجالسة للملكة القديمة هو تمثال الملك خفرع باني هرم الجيزة الثاني (شكل ٤٨) فقد صنع هذا التمثال من حجر الصوان (Diorite) وروعت فيه ملامح الجسم المهمة بوضوح وإتقان على رغم صلابته مادته . والحق يقال ان صناع هذا التمثال كان من أربع رجال طامعتة وقتئذ لأنه تغلب على صعوبات جمة لا يصادفها المثال المصري . زد على ذلك أنه أتم عمله بمهارة وإتقان فأخرجه تماثلا حقيقيا لا يحويه الدهر ويشهد في الوقت نفسه لصانعه بالصبر والبراعة اللذين امتاز بهما رجال ذلك العصر نحو ملوكهم . أظهر المثالون في نحت الأحجار البنية مقدرة سلبت لب الناقد كما يشاهد في تمثال نيمست الجالس المحفوظ بمتحف اللوفر (شكل ٥٠) حيث تشاهد على

وجهه معالم الحياة كلها تقريبا ، أما الجسد فلا يبدو عليه ذلك المقدار من الدقة لأن المثال اعتبر الرأس أهم جزء في التمثال فصرف كل جهده في اتقانه . وقد صنعت معظم تماثيل الملوك والأمراء على هذا الشكل . أما النوع الثاني فكان قليل الصنع نسبيا واليه ينتمى تمثال الكاهن رع نُوفَر الذي تبلى عليه سيماء الأنفة والكبر الخاصة بأمراء تلك العصور (شكل ٤٩) . ويوجد بدار التحف بالقاهرة تمثال لشيخ البلد قصير القامة مملوء الجسم تبدو عليه علائم الامارة مصنوع من الخشب بمهارة واتقان جعلاه من أهم تماثيل الملكة القديمة المعروفة للآن (شكل ٥١) . واتفق أن ملاحظ هذا التمثال كانت مطابقة لملاحظ شيخ البلد الذي انتهى اليه العمال الذين عثروا عليه فلما وقع عليه نظرهم صاحوا صوتا واحدا "هذا شيخ بلدنا" فعرف التمثال منذ ذلك الوقت بهذا الاسم ولا تزال نجعل صاحبه الأصلي . أما رسوم الخدم فلم تراعى بها كلفة ولا أصول كما هي الحال في رسوم الأمراء ، ولذلك ترى الخدم بهيئتهم الطبيعية يؤدون أعمالهم في قبر سيدهم كما كانوا يتعاملون في منزل دنياه . ثم اعتقد القوم أن حاشية كل سيد تصحبه بعد وفاته في الآخرة وتقوم بخدمته هناك كما فعلت في الدنيا فصنعوا تماثيل لأفراد الحاشية مطابقة لمهنتهم في الدنيا ، مثال ذلك : تمثال الكاتب الشهير المحفوظ بدار التحف باللوثر (شكل ٥٢) تبدو عليه الدخافة والشخصية البارزة يتخيله الرائي انسانا حقيقيا جالسا مستعدا لتدوين ما يمليه عليه سيده من الأوامر مع أنه مر عليه خمسة آلاف سنة تقريبا . ومن هذا النوع أيضا تمثال رأس الأسد (شكل ٥٧) الذي وجد بمعبد الشمس ببلدة نصير والمصنوع من حجر صلب للغاية . ولم يدر بخلد أحد أن تحجب الصناعة تماثيل معدنية بحجم الشخص الطبيعي بمثل ما فعله المثالون والتماسون الذين تمكنوا وقتئذ من صنع تماثيل لللك يبي الأول بحجمه الطبيعي في أول عيد من أعياد جلوسه . وقد جعل قوام هذا التمثال عمود خشبي ثم ألبس المعدن مجوفا مطرقا وصنعوا عينيه من الزجاج الطبيعي والمجر الرمل الأبيض . وهو الآن محفوظ بدار التحف بالقاهرة (شكل ٥٣) . ومع أن هذا التمثال قد أصابه العطب والكسر والصدأ فان رأسه لا تزال من أبداع ما وصل اليها من آثار ذلك العصر لقربها من الطبيعة .

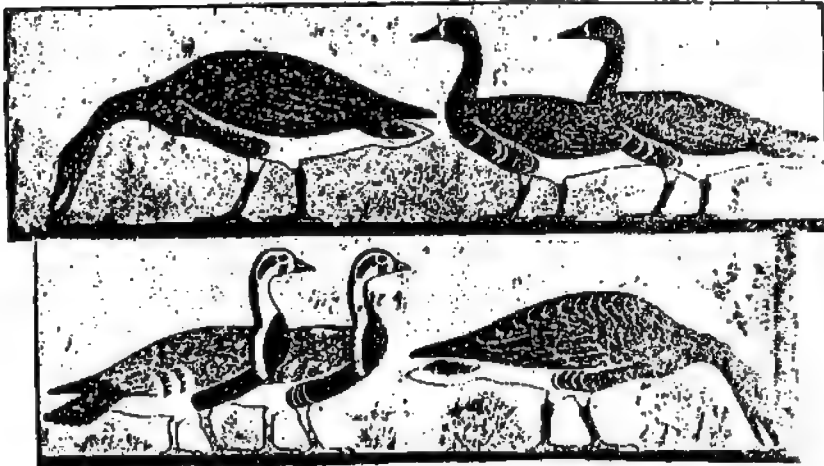
وبلغت الصياغة شأوا كبيرا ومارسها المثالون فأخرجوا للمعابد المصرية تماثيل ذهبية بديعة كراس تماثيل النسر المقدس الذي وجده المستركويل بمعبد مدينة الكاب (هيراكونبوليس) - (شكل ٥٨) . وجثة هذا الطائر مصنوعة من النحاس المطروق وقد فقدت ، وظاهر أن رأسه مطوق بإطار تعلوه ريشتان سليمتان طويلتان مصنوعتان من الذهب المطروق وهو عبارة عن قطعة واحدة من الذهب الخالص داخلها قضيب من الزجاج الطبيعي (Obsidian) ينتهي طرفاه ببنتين لامعتين جميلتين . وتمتاز رسوم المعابد ونقوش جدران محاريب المصاطب في عهد الملكة القديمة بيرونها ، وهو أمر يتطلب براعة ومهارة في تقدير البروز مع تناسب حجم الأشكال السطحي خصوصا في رسم الأشياء المستديرة والسميكة . والغريب أن هذا النوع من الحفر كان معروفا قبل عهد الملكة القديمة ، وأن القوم اصطالحوا قبل عهد الأسرة الثالثة على طريقة لذلك فحسوها ولم يجيدوا عنها مع تقدمهم في الرسم بعد ذلك ومعرفتهم أغلاطهم . وتتلخص هذه الطريقة في رسم أوجه وكاف الآدميين مشاهدة



شكل ٥٢ - تمثالان للذكور الأول واحد يمثلانها بجسمها الطبيعي مصنوعان من النحاس الملتصق
(دار تحف القاهرة)



شكل ٥٤ - رأس تبتال الملك هي الأول مصنوع من
النحاس وعباءة يظهر أنهما مصنوعتان من البلور الصخري
(دارتحف القاهرة)



شكل ٥٥ - رسم أوزمانخوذ من مقبرة بيدوم يرجع تاريخها الى عهد الملكة القديمة .
ويلاحظ للرسم تسمان أعلى وأسفل وهذان كانا أصلاً متصلين ببعضهما ببعض في المسافة
بين الأذنين الأكلتين (دارتحف القاهرة)

من الأمام ، أما الأجسام فتُرسم كما ترى من الجانب ، وعلى هذه الطريقة استمر المصريون يتقشون رسوماتهم طول عهد المملكة القديمة لكنها كانت غاية في الحسن والجمال (شكل ٥٦) . وقد اقتبسنا معظم معارفنا عن الحياة الاجتماعية في عهد المملكة القديمة من رسوم جدران المصاطب المنقوشة . ومن أعظم أمثلة هذه الرسوم لوح باب جيبى رَعَج الخشبي (شكل ٥٩) الموجود بدار التحف بالقاهرة . ولون القوم جميع النقوش البارزة لكنهم لم يحسموها تماما كما يشاهد في الآثار اليونانية . ولا حراء في أن المصريين أتقنوا النقش بالألوان واستعملوه كثيرا ، من ذلك رسم سرب الأوز بمقبرة بميدوم (شكل ٥٥) الذى تجسم فيه براعة المصور المنفى وطول باعه فقد أتقن انعطاف رأس هذا الطائر وبطء حركته وانثناء عنقه وقت التقاطه دود الأرض بشكل يقرب جدا من الطبيعة . ولا شك في أن مثل هذا الرسم يشهد لصانعه بالمقدرة وعظم الاعتماد على النفس وكثرة التمرن في هذا الفن الجليل .

ويمتاز الحفر في المملكة القديمة بشدة مطابقتها للطبيعة والحقيقة مع عناية فائقة في انجازه ، ولذلك أصبح أصحاب هذا الفن الأقدمون يقارنون بزملاتهم الحديثين . والمعروف أن المثال المصرى كان الوحيد وقتئذ في الشرق الذى مثل جسم الانسان على الأحجار . ولما كان أبناء ذلك العصر قليلي الملابس برع كثيرا في رسم العراة . واليك ترجمة ما قاله المسيو شارل بيرو (Charles Perrot) عميد علم المعابدات بهذا الخصوص : "يجب علينا أن نعترف بأن مثالي المملكة القديمة أمرحوا لنا نقوشا لا تفوقها أحسن رسوم أوربا الحديثة" (١) . واتقان تماثيل المملكة القديمة مقصور على المظاهر فقط فيشاهد الانسان عليها ملامح الانفعالات النفسية التى تتمرى الشخص في حياته . ومن دواعى الأسف أننا لم نهند للآن الى ترجمة حياة أحد هؤلاء الأساتذة وكل ما عثرنا عليه هراسم مثال أو اثنين مع طول مدة ذلك العهد التاريخي .

وترجع معلوماتنا عن عمارة المملكة القديمة الى مباحثنا الحديثة فقط لأننا لم نعثر لآن على آثار منازل أو قصور ندين منها خفة مادة البناء وتعدد منافذه ، وجل ما وصل الينا من هذا القبيل المصاطب الضخمة الحجرية . والمعروف أن أهم عمارة ذلك العصر هو المصاطب والأهرام والمعابد . وقد ألمنا الى هندسة المعابد في الفصل السابق وهى عبارة عن خطوط رأسية وأفقية بغاية البساطة ، ومع أن القبو كان معروفا فلا نجد مستعملا كثيرا في العمارة . أما السقف فكانت تقام على عمد من حجر واحد جرانيتي مضع سواء أكان رابعا أم أسطوانيا وهى أقدم ما عرف من نوعها حتى الآن . والمظنون أنها استعملت قبل عهد المملكة القديمة لأن عمد الأسرة الخامسة كانت متقدمة في فن البناء فقد وجد بعضها على شكل التخيل الباسق القضببان أو بهيئة باقة البردى تحمل السقف على براعيمها (شكلى ٦٠ و ٦١) وهى على العموم متناسبة الحجم . والمعروف أن ساحات معابد المملكة القديمة من أجل ما تركه لنا فن البناء في ذلك العصر لأنها كانت محاطة بالعمد البدئية مزودة بالجدر بالرسوم الزاهية البراقة . ومنه يستنتج أن مصر كانت مهد صناعة العمد . ومع أن أهل بابل تقدموا

في تشييد المباني الضخمة لم يتكروا العمد التي صنعتها مصر بمهارة واتقان في غضون الألف الرابع قبل الميلاد ، لذلك يرجع الفضل في حل لغز التشييد البنائي الى قدماء المصريين .

ولما كان عهد المملكة القديمة ماديا من حيث المصنوعات والمجهدات لم يكن لترقية الآداب متسع كبير . لكن وجد بعض وزراء مثل قافنه وإمحتب وبتاح حُتِبَ اشتهروا بذكائهم وحكمهم فوضعوا في خبرتهم الجبوية حكا وأمثالا راقية نسختها أقلام تلك العصور . وأقدم صورة وصلت اليها عن هذه الحكيم يرجع تاريخها الى عهد المملكة المتوسطة . وقد وضع لنا الكهنة الكتاب في عهد الأسرة الخامسة تاريخاً للوهج القدماء مبتدئين بملوك ما قبل الأسر الى الأسرة الخامسة باختصار فلم يذكروا الا بعض حوادث تلك العصور وأهم أعمال الملوك وهباتهم للمساكين متجنين التفاصيل التاريخية ، وتعتبر كتابتهم أقدم تاريخ ملكي من نوعه . ولما رغب الأمراء في تخليد ذكراهم بعد الوفاة نقشوا تراجم حياتهم على جدران مقابرهم بأسلوب مختصر بسيط ، صلة حوادثه الجزئية بعضها ببعض ضعيفة^(١) وأهمها الحوادث والنعم الملكية التي أهدت عليهم . ويلاحظ بين السطور أن المدبح أخذ وقتئذ شكلا مخصوصا راقيا بلا تعرض للأمر الشخصية . ويرى القارئ لنصوص الأهرام ما يشير الى الاستبداد والبطش الوحشي وهذا في الحقيقة بقايا عقائد دينية قديمة لم يبق منها الا اسمها . وتحتوي هذه النصوص الدينية بعض الأساليب الشعرية لتشابه كثير من عباراتها . وتعتبر هذه النصوص أقدم أمثلة لآداب لغة تلك المدينة العتيقة . أما أغاني القوم فقد أثرت في نفوسهم كثيرا وأفهمتهم فضل التبوع على التاج لما يستدل من قصة الأخوين التي تداولتها الألسن بعد ذلك لاحتوائها على كثير من المحادثات بين راع وغمسه^(٢) وكما يستنتج أيضا من حكاية الخدم الذين خاطبوا سيدهم يوما وهم يحملونه في الهودج قائلين ان ثقل الهودج يخف كلما تشرف بوجود سيدهم فيه^(٣) .

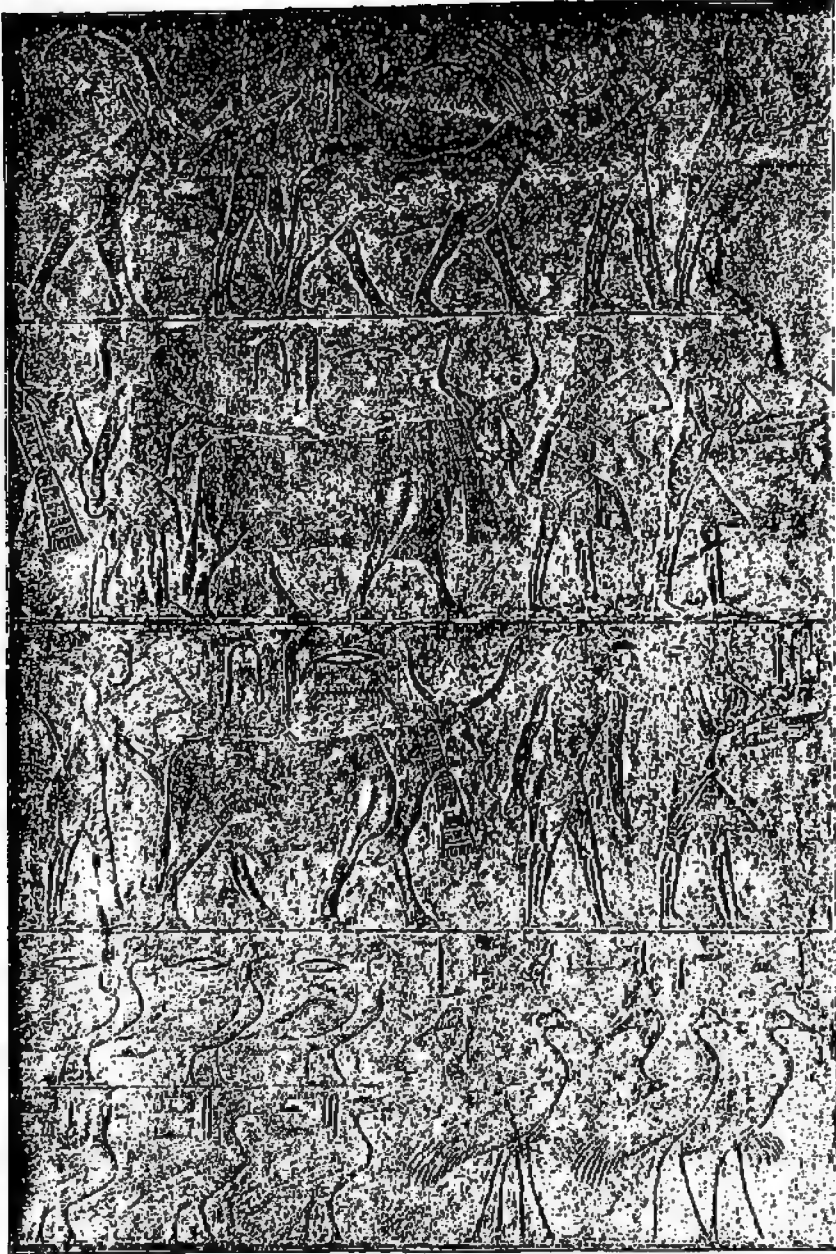
وقد استعمل القوم آلات الطرب (الموسيقى) وكونوا متهاجوا خصوصا للقصر الملكي تحت اشراف رئيس ، وتألف هذا الجوق من طازف بقيثارة يعزف وهو جالس وآخرين بمزمارين طويل وقصير . وكان القوم يغنون على صوت آلات الطرب خلافا لما هو جار الآن في البلاد الأوروبية . وتشتمل الموسيقى على قيثارين ومزمارين طويل وقصير . ولم تهتد الى ألحان تلك العصور ولا منتهى معرفة القوم في تقسيم هذه الألحان .

هذا وصف اجمالى لمعيشة الجدد والمثابرة في عهد المملكة المصرية مدة انتقال الحكم من ملوك طينه الى ملوك منف وبقى علينا أن نبحث في تاريخ هذه المملكة المعتمدة الآن أقدم ممالك الأرض والتي لا نعلم عن نظامها الحكومي الا التدر اليسير .

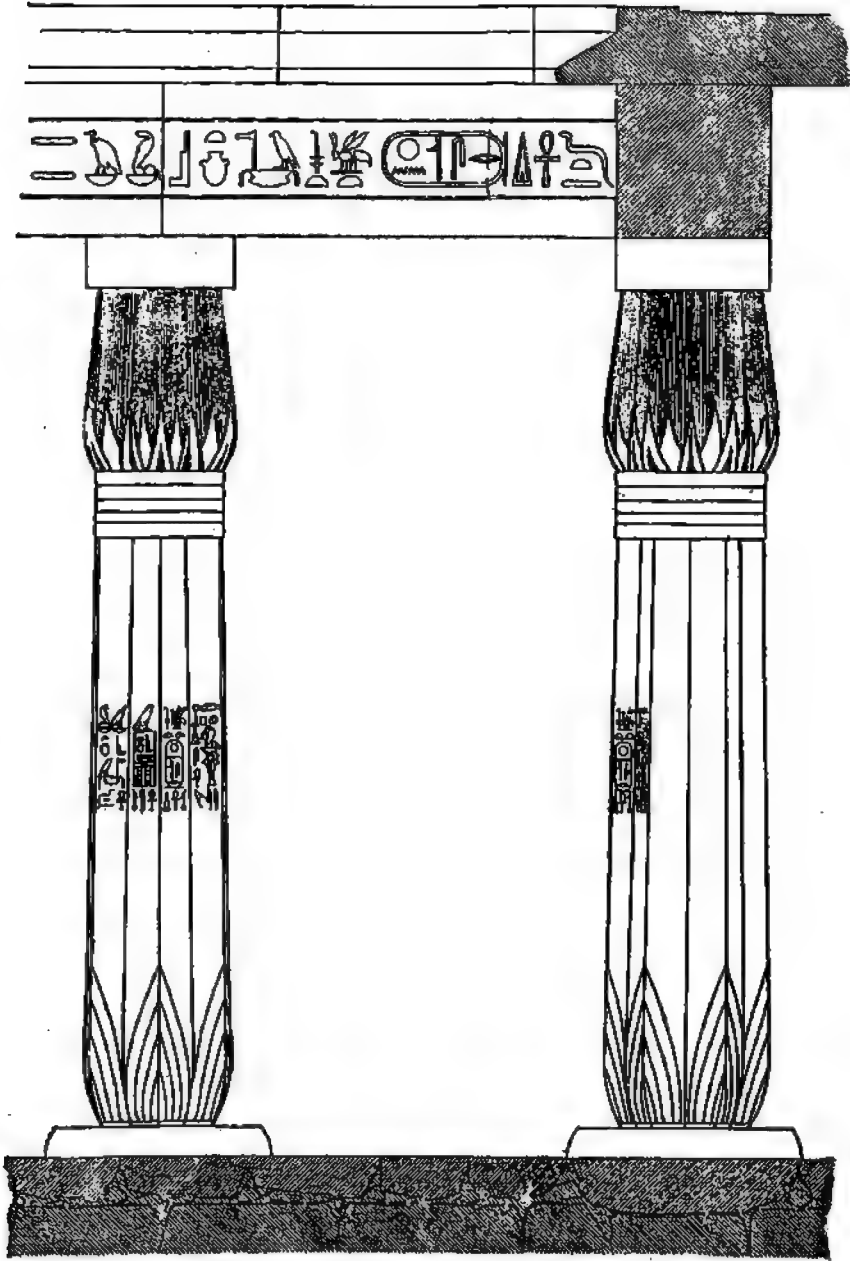
(١) ٢٩٢: ١ - ٣٠٦: ٤ - ٣١٥: ٣ - ٣٢٤: ١

(٢) Zeitschrift 38, 66; Davies, Der El Gebrawi, II, p. VIII.

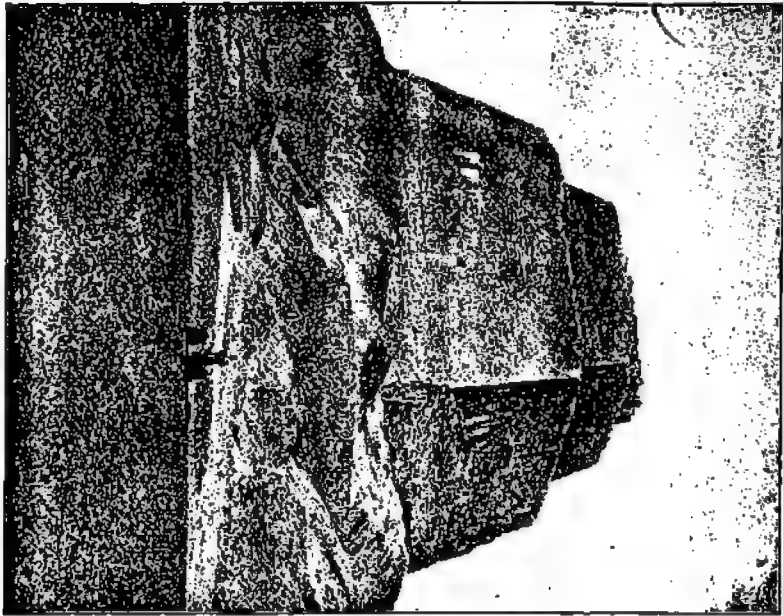
(٣) راجع شرح شكل ٣٩



شكل ٥٦ - رسوم بارزة على جدران إحدى المقابر من عهد الملكة القديمة يشاهد فيها
 قطعان البهائم وأسراب الطيور (دارتحف براين)



شكل ٦١ - صورة تمثل نصب العمود المحيطة بأسرة معبد هرم نصير الذي يرجع تاريخه إلى الأسرة الخامسة (مأخوذ عن بورشارت)



شكل ٦٤ - معبد بيلوم يهوى الى الملك ستور



شكل ٦٣ - معبد شيدو: بالن جهة بيت ايتلاف يرجع الى
ال عهد الملك زوسر ككتبا الاسماء جازيماح



شكل ٦٢ - الممر المدجج الملك زوسر بستانو

الفصل السادس

عصر الأهرام

في أوائل القرن الثلاثين قبل الميلاد انصرم حكم الأسرة الثانية الطيبة بعد ما استمر حوالي أربعائة سنة فتبعتهما في الملك أسرة منفية . وكانت منف معروفة وقتئذ بمدينة الحائط الأبيض كما جاء في رواية مانيتو . والمرجح أن انتقال الحكم من طينه (جوار العرابة المدفونة) الى منف كان نتيجة هجرة الأسرة المالكة وليس له علاقة بتغير الأسر كما قال مانيتو . ويرجح أن الملكة ناثحاب (Nemathap) زوج الملك خاسخموي (Khasekhemni) آخر ملوك الأسرة الثانية الطيبة كانت والدة الملك زوسر أول ملوك الأسرة الثالثة المنفية . وقد صحب انتقال الحكم من طينه الى منف تقدم تدريجي في الحضارة وتحسين مطرد في أحوال البلاد طوال حكم الأسر المنفية الذي يقدر بنحو خمس . سنة . ومن دواعي الأسف أننا لم نثر على معلومات كثيرة عن العهد المنفي إلا ما له علاقة بالسنوات المساتين الأخيرة منه ، أما السنوات الثلاثمائة الأولى فلا نعلم عنها شيئا سوى ما حفظه لنا التاريخ من آثارها . لذلك كانت كتابة تاريخ مصر عن تلك العصور أشبه كثيرا بكتابة تاريخ أتنا في عهد بركايز (Pericles) لأن معلومات هذين العصرين جمعت من معابدهما وتماثيلهما وأوانيهما وغير ذلك ، وقد بلغت أتنا في عهد بركايز درجة عظيمة في الفكر والآداب والسياسة لم تشاهد في أحسن عصور التاريخ المصري . لكن مما لا حراء فيه أيضا أن آثار المملكة المصرية القديمة على قلتها توقع الدهشة والاستغراب في نفوس باحثيها من حيث التقدم والبراعة ، لذلك ستخذ هذه الآثار هيكلا نشيد عليه تاريخ عصورها . وبنسبي أن استنتاج المعلومات التجارية والصناعية والإدارية والمعيشية وكذا الفنون والآداب الخاصة بذلك العصر من آثاره الضخمة الشاغحة أمر أقل ما يوصف به أنه صعب المراس . زد على ذلك أننا لا نزال نجهد كثيرا مما انتاب القطر المصري مدة السنوات الخمسمائة التي نحن بصددتها ، وكثيرا ما نلجا في مباحثنا الى التخمين والحدس خصوصا فيما يتعلق بتولية بعض الملوك وعزل الآخرين وبرى القطر تارة وتأنره أخرى وبخضوع أمراء البلاد للفراعنة وانشقاقهم عليهم أو استقلالهم عنهم مما أدى في أواخر الأمر الى انهيار صرح الحكومة المركزية .

وأول ملك عظيم حكم في عهد المملكة القديمة هو زوسر مؤسس الأسرة الثالثة ومثبت أساس الحكم المنفي . ومن أعمال هذا الملك مثارته على استخراج النحاس من طورسيناء وإبعاد حدود مملكته الجنوبية بضم جزء من النوبة إليها . وجاء في رواية أثرية لكنة إقليم الشلال الأول أن الملك زوسر وضع يده على ذلك الاقليم ووقف لنجوم (Khnum) معبود تلك الجهة إيراد الأراضى التي على شاطئ النيل فيما بين جزيرة الفيل بالطرف الأسفل للشلال وتاكوميسو (Takompso) وهي مسافة يتراوح طولها بين خمسة وسبعين وثمانين ميلا . وكثيرا ما أثار أهل ذلك الاقليم منازعات ومشاكسات على

المصريين عدة قرون . ويلاحظ أن هذه الرواية كتبها حديثا في عهد البطالسة كهنة المعبودة إزيس ويرجح أن بعض محتوياتها مطابق للحقيقة التاريخية (١) .

ويرجع الفضل في نجاح سياسة زوسر الى حكمة ودهاء وزيره المدعو إحتب الذي برع في الدين والسحر وفي ضرب الأمثال الصادقة وفي الطب والعجارة حتى ترك له اسما خالدا في التاريخ المصري على مدى الأزمنة . ثم اتخذه الكتاب مثلا يمتدونه في حياتهم العالمية فصبوا مداد محارمهم تيمنا بذكوره قبل البدء بأعمالهم الكتابية (٢) وترم الناس بأمثاله في مدى قرون عدة وعلت مرتلته وكبرت فأعتبر في آخر التاريخ القديم إله الطب ، وكان معروفا عند اليونان بأموزيس ومشبها بمعبودهم الطبي أسكليبيوس (٣) . وقد شيد لإحتب معبد جوار السيراپيوم بمنف وله في كل من دور التحف في العالم تمثال أو تمثالان من البرنز . ولا غرابة فقد كان إحتب رجلا عاقلا ضاربا للأمثال بارعا في الطب والعجارة حتى روى الكهنة الذين باشروا تشييد معبد ادفو في عهد البطالسة أنهم استرشدوا بتصميم معبد إحتب الأصلي ، ولذلك يظن أن زوسر شيد معبدا بتلك الجهة . قال مايتوان زوسر — وهو المعروف أيضا باسم سُورُورُوس — أول من استعمل الحجر في البناء ونحن نتقصه بأننا عثرنا على أبنية حجرية يرجع تاريخها الى ما قبل زمن هذا الملك . والمعروف أن زوسر كان أول من شيد المعابد الحجرية الضخمة بمساعدة إحتب ولذا عد عصر هذا الملك عصر البناء الذي زاد على ما سواه . وشيد الملوك أسلاف زوسر مقابرهم باللبن ولأحدهم مقبرة كسى أرضها بالجرانيت وأخرى شيدت فيها غرفة بالحجر الجيري . فلما أتى زوسر حسن بناء المقابر فشيّد مصطبة عظيمة باللبن بيت الخلاف جهة العراية المدفونة جعل لها فتحة بأحد أطرافها تتصل بسرداب يمتد في الأرض الرملية أسفل بناء المصطبة المذكورة ، ويتهى هذا السرداب بطريق منحدر يتصل بعدة حجرات (٤) (شكل ٦٢) . وسد هذا السرداب في خمسة مواضع بأبواب صخرية ضخمة . ويرجح أنه لم تدفن جثة زوسر في هذه المصطبة لأن ملوك تلك العصور اعتادوا أن يشيدوا لأنفسهم مقبرتين ، وعليه فالمنظون أن زوسر ترك الرمس المجاور لأجداده وكلف إحتب أن يشيد له قبرا فخما بمنف يفوق في الحجم مقابر أجداده (شكل ٦٣) . فاختار لإحتب لذلك مكانا في الصحراء خلف منف وشيد به مصطبة حجرية على نسق مصطبة بيت الخلاف ارتفاعها خمس وثلاثون قدما وعرضها مائتان وعشرون وسبعة أقدام وطولها من الشمال الى الجنوب أكثر من ذلك . ثم حُفم حُفم هذه المصطبة تدريجا بمرور الزمن فكبر القاعدة وزاد ارتفاعها وذلك ببناء خمس مصاطب بعضها فوق بعض كل واحدة أصغر حجما من التي تحتها فنجم عن ذلك بناء مدرج يقرب ارتفاعه من خمس وتسعين ومائة قدم وفيه ست درجات أو مصاطب ويعرف الآن بالمهرم المدرج ، وهو يمثل كيفية التدرج في البناء من المصاطب المسطحة القمة كالموجودة بيت الخلاف الى الهرم الأملس الجوانب المدبب القمة الكثير الانتشار بين آثار خلفاء زوسر . وتعتبر مقبرة زوسر المنفية أقدم أثر حجرى كبير معروف للآن .

Sethe, Untersuchungen, II, 22-26.

Schafer, Zeitschrift, 1893, 147-8; Gardiner, ibid., 40, 146.

Sethe, Untersuchungen, II.

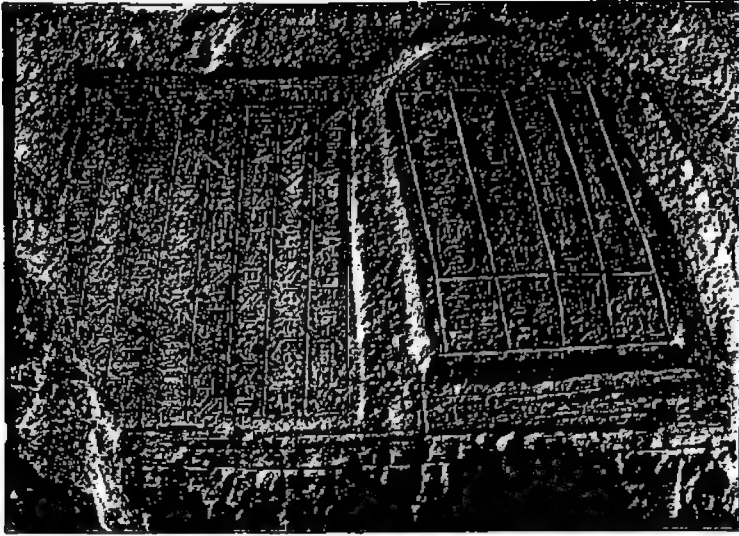
Gardiner, Mahana and Bet Khallaf, London, 1902.

(١)

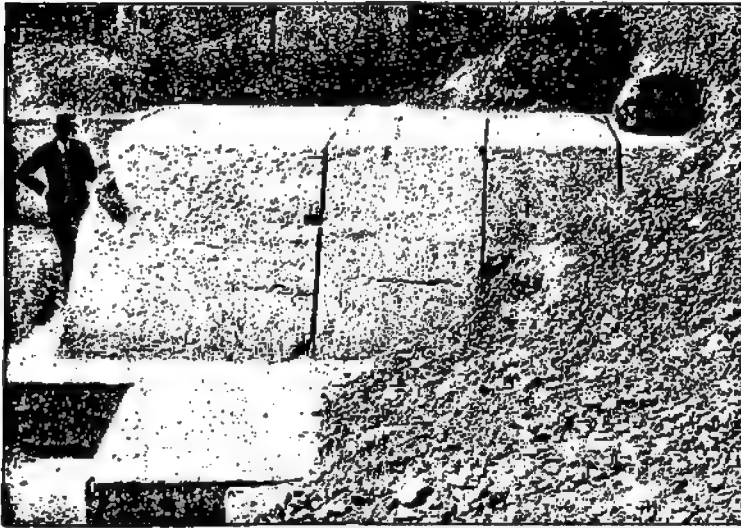
(٢)

(٣)

(٤)



شكل ٦٥ - نصوص صخرية بوادي مغارة طاور سيناء يرجع تاريخها إلى زمن الملك
أسمحت الثالث اعترفها الملك سنفرور أحد مبعوثات تلك الجهة
(مأخوذة عن مصلحة المساحة)



شكل ٦٦ - صورة بقايا الصخور الكاسية لقاعدة الهرم الاكبر أروخ فيا
بالقطوط السوداء مواقع اتصال تلك الصخور بعضها بعض
لصخرة زرقية (مأخوذة عن كورفنجتون)

ومع جهلنا بتاريخ خلفاء زوسر فإنا نعلم أن قوة وثروة القطر المصري وقتئذ مكنتهم من تشييد أهرام حجرية كبيرة كهرمي دهشور . ويعتبر هذان الهرمان أقدم الأهرام المعروفة للآن وأعظم برهان على رقي وثروة المملكة المصرية أيام الأسرة الثالثة . ولا يتمالك الناظر لهذه الآثار أن ينجح نفسه عن سر تقدم البلاد الداخلي وقتئذ بل كثيرا ما يعجز المتأمل في هذه العمارات عن اجابة الأسئلة التي تدور في مخيلته بصدها . والمعروف أن البلاد بلغت في أواخر حكم الأسرة الثالثة درجة رفيعة من الرقي والعزول الأخص في عهد الملك سنفرو الذي بنى سفنا كثيرة طول الواحدة مائة وسبعون قدما تقريبا استعملت ببناء النيل في الأعمال التجارية والإدارية^(١) كما واصل أيضا استخراج النحاس من طور سيناء وأخضع بدو تلك الجهات وبجمل انتصاراته على سنفروها^(٢) . ثم وطد سيادة مصر على تلك الأقاليم حتى اعتبر في العصور التالية المؤسس الأكبر للتقود المصري بسيناء وقد سمي باسمه أحد مناجم تلك الجهة^(٣) . وبعد ما مضى على وفاته ما ينيف على ألف سنة اقتخر الملوك بأن مشروعاتهم بسيناء فاقت كل مشروعات عملت هناك منذ زمن الملك سنفرو^(٤) . واعتبر سنفرو في سيناء إلها شريكا للعبودية حاتحور والمعبود سويد فذكر في الدعوات والتوسلات التي كان يتلوها هناك العمال الجسورون الذين ضحوا بحياتهم في تنفيذ أوامر فراعنتهم^(٥) (شكل ٦٥) . ونظم سنفرو وسائل الدفاع على حدود مصر الشرقية ويرجح كثيرا أنه شيد الحصون جهة البحيرات المرة ببرنج السويس التي بقيت الى أيام الأسرة الخامسة . وأقام الجسور والمحطات شرق الدلتا التي خلدت اسمه مدة ألف وخمسمائة سنة تقريبا بعد وفاته^(٦) . أما في الغرب فقد بسط نفوذه على إحدى الواحات الشمالية^(٧) . وأعظم من هذا وذلك أنه وطد التجارة مع الأقطار الشمالية فأرسل أسطولا بحريا مؤلفا من أربعين سفينة الى بلاد فيزيقيا بطلب ككل الأرز الخشبية من متحدرات جبال لبنان^(٨) . واقتنى أثر زوسر فشن الفارة على النوبيين الشماليين فأسر منهم سبعة آلاف أسير وماتى ألف من الأغانم والبهائم الصغيرة^(٩) .

وقد شيد هذا الملك القوي العزيز "حاكم الأرضين" مقبرتين لنفسه أقدمهما بميدوم فيما بين منف والفيوم وهي على نمط مصطبة زوسر الحجرية تحتها لحد الجنة . ثم كبرت هذه المقبرة تدريجا سبع دفعات كما فعل زوسر بمقبرته فصارت في آخر الأمر هرما ملتزجا . بعد ذلك ملئ الفراغ الذي بين درجات المصطبة وجعلت أضلع المصطبة الأربعة ملساء فصارت أقدم هرم معروف للآن (شكل ٦٤) . أما مقبرة سنفرو الثانية فأكبر من الأولى حجما وأبهة وهي على شكل هرم دهشور ويعتبر أكبر أهرام تلك الجهة وأعظم آثار فراعنة تلك العصور . واستنتج من نقوش أثرية وجدت حديثا أن أوقاف هذا الهرم نفذت شروطها لمدة ثلاثمائة سنة بعد وفاة سنفرو .

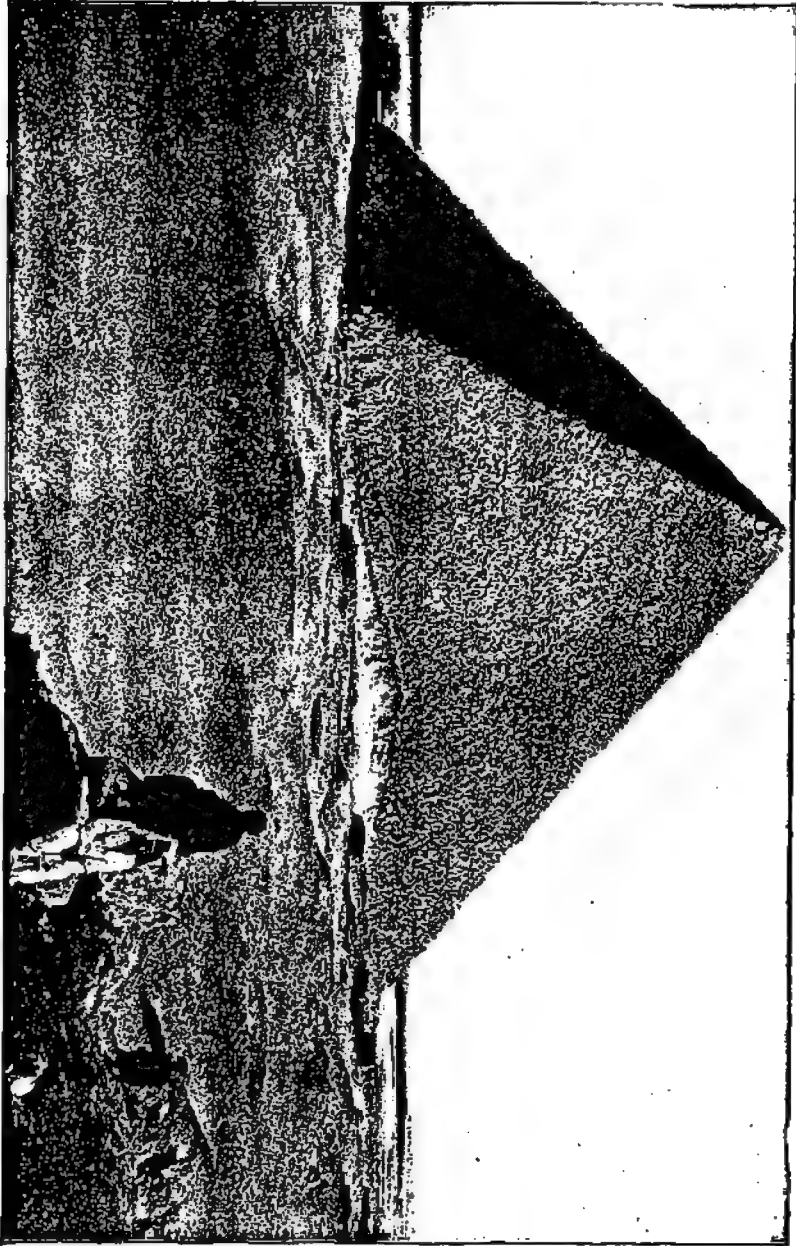
ويعتبر حكم سنفرو مبدء عهد الرقي والرخاء والقوة الذي بلغت فيه المملكة القديمة درجة رفيعة . وفي عهده ازدادت ثروة الأمراء والموظفين وقوى نفوذهم كما ألمنا سابقا فامتتوا عن تشييد مقابرهم باللبن جهة العراية كما فعل أجدادهم وأخذوا يقيمون المصاطب الحجرية البديعة حول مقبرة ملكهم

(١) ٧-١٤٦:١ (٢) ٩-١٦٨:١ LD. (٣) ١٣٧:٢ (g) (٤) ٧٣١:١ (٥) ٧٢٢:١ (٦) ١٦٥:١ ٢١٢ ٣١٢ ٣١٢ ٣١٢ ٣١٢ (٧) ٩٠١ ١٧٤:١ (٨) ١٤٦:١ (٩) ١٤٦:١

المفدى . وقد استنتجنا معلومات تاريخية قيمة في عهد المملكة القديمة عن هذه المصاطب والأهرام الملكية الشاخنة . أما تاريخ العصور التي أنجبت هذه المدينة فيبحث عنه في المقابر الرملية التابعة لتلك الأزمنة السحيقة .

وبوفاة سنفرؤ أهم ملوك الأسرة الثالثة انتقل الملك الى الأسرة الرابعة بلا اضطراب ولا انقلاب داخل على ما يظهر . وأول ملك أتى بعده هو خوفو أول ملوك الأسرة الرابعة ، ويظن أنه ينتمى الى الأسرة الثالثة لأنه أوى في حريمه اسدى محظيات سنفرؤ . لكن المعروف أن خوفو ليس منتمى الأصل بل من جهة بنى حسن محل عبادة خنوم ذى الرأس الكيشى . وقد سمي المصريون تلك الجهة بعد ذلك "مَنَاتُ خُوْفُو" ومعناها "مرضعة خوفو" نسبة الى مسقط رأسه . أما اسمه كاملا فهو "خنوم خوفو" ومعناه "خنوم يحمينى" اشارة الى عبادة خنوم ذى الرأس الكيشى الذى كان يعبد فى منات خوفو . وجاء فى الآثار أيضا أن أحد كهنة خنوم بمدينة منات خوفو كان موظفا بمقبرة خوفو بعد وفاته (١) . ولم نهند للآن الى الطريقة التي توصل بها خوفو وقد كانت أميرا بأحد الأقسام الى خلع سنفرؤ القوى والاستيلاء على عرش مصر وتأسيس الأسرة الرابعة . وجل ما أمكننا استنتاجه أن خوفو كان قويا جدا وإذا نفوذ عظيم كما يشاهد ذلك فى هرمه الكبير بالجيزة المشرف على جميع ما حوله من الأهرام . ولا يسع كل مفكر فى أمر هذه الأهرام أن يستنج أن الحكومة وقتئذ فكرت فى تشييد مقابر منيعة شاخنة لتحفظ بها جثث ملوكها فاستخدمت لذلك معظم موارد البلاد ومهارة صناعها وأيدى عمالها . وإذا أردت أن تتصور مقدار العظمة والسلطة فى حكومة خوفو ومقدار الدقة فى نظائها فاعلم أن هرم هذا الملك تطلب من الصخور ما يقرب من مليونين وثلاثمائة ألف حخرة متوسط قتل الواحدة منها طنان ونصف (٢) . وبديها أن مثل هذا البناء كلف الحكومة كثيرا فى قطع الأحجار ونقلها وجمعها ، ولذلك لا يبعد أن الضرائب التي دفعها الأهالى للإدارة كانت باهظة . وروى هيرودوت عن معاصريه أن بناء هرم خوفو تطلب مائة ألف عامل مدة عشرين سنة ، وقد أثبت الأستاذ پترى أن هذا التقدير غير مبالغ فيه . ولا يخفى أن عددا عظيما كهذا يكفى تأسيس مدينة كبيرة بجوار الهرم ويستلزم أيضا عددا عظيما من العمال لقطع الصخور من المحاجر وهذا وحده يكفى أن تشرف عليه حكومة صغيرة خاصة به . أما الصخور فكانت تقطع من محاجر المقطم جنوبى القاهرة وتحفظ هناك حتى زمن الفيضان النيل فيقلها القوم بجرا الى سفح هضبة الهرم ثم يجرونها على جسر ضخيم مقام لذلك الى سطح الهضبة . واعلم أن ضخامة هرم خوفو وعظم نفقاته وكثرة ما تطلبه من الأشغال ليست فقط موضع الدهشة بل هناك أمور أخرى تستدعى النظر مثل اتقان البناء الضخم ومهارة استعمال الأحجار مع أنه لم يمض على هذا الاستعمال سوى خمسمائة سنة أى منذ عهد الملك يوسفائيس . وقد ذكرنا فيما سبق أن البناء الجبرى فى عهد هذا الملك الأخير كان مقصورا على أرض القبر وعلى الحجر الجرانيتى وكان أيضا قليل الاتقان رديته . أما الملك خاننموى الذى أتى بعد يوسفائيس بما يقرب من قرن فقد اقتصر فى قبره الملكى على بناء غرفة واحدة بالحجر . ومن

شكل ١٧ - من البيرة الأكبر لكهنة (كهنين) كاشان في ابيدق الدارة الغربية ربيع راضي النيل عطف هذا المرمم



ثم كان هذا التقدم العظيم في المدة اليسيرة الأخيرة داعيا الى الدهشة والاستغراب . وبلغ ارتفاع هرم خوفو أربعين وثمانين قدما أما القاعدة فربما يبلغ طول أحد أضلاعها سبعمائة وخمسين قدما . ولا تزيد نسبة انحطاط في الطول والمسح والفراغ عن $\frac{1}{100}$ (١) رغم عدم انتظام سطح القاعدة الأمر الذي عاق كثيرا عن قياس الأركان وما بينها من مسافات . ويستدل على اتقان بناء هذا الهرم بأن مواضع تلاصق صحوره الضخمة التي تقرب زيتها بضعة أطنان لا تزيد مسافتها عن $\frac{1}{100}$ من البوصة وأن هذه الدقة في السطوح والحافات تشمل مساحات تقدر بالأقدنة مما لا يمكن مقارنته بدقة المهندسين المصريين الذين لا تتعدى دقتهم في الصناعة بضع أقدام أو ياردات (٢) . والأحجار المستعملة لهذا البناء من النوع الجيري عدا حجرة التابوت وبعض حجرات أخرى فوه حيث يختلف البناء كثيرا عن سائر الأجزاء . وبناء أسفل الهرم أهن من أعلاه وربما كان ذلك نتيجة الاسراع في إنجازها . وقد سدت الدهاليز والممرات داخل الهرم بأحكام في عدة مواضع بصخور أو أبواب جرانيتية . أما الكسوة الخارجية فكانت مصنوعة من الحجر الرملي باقن (شكل ٦٦) ويحترق وجهها الشمالي مدخل الهرم وهو واقع فوق الدرجة الثامنة عشرة من القاعدة (شكل ٦٧) . ولا بد أن خوفو كان شهيا مقداما لأنه بدأ بتشييد هرمه منذ توليه الملك ، زد على ذلك أنه غير على دفعتين تصميم أساسه الأول فكبر القاعدة ليتسنى للمهندس أن يبني داخل هذا البناء الضخم ممرات ودهاليز وما يلزم من الحجرات . وقد شاهدنا أن تكبير حجم الأهرام أمر حصل قبل عهد خوفو . وتبلغ مساحة قاعدة هرم هذا الملك ثلاثة عشر فدانا . وبالقرب منه وعلى شقيه ثلاثة أهرام صغيرة على خط مستقيم استعملت مدافن لأعضاء أسرة خوفو (شكل ٦٨) . ويحيط بالهرم الكبير طريق عريض مكسو بالحجر الرملي البديع وشرقي هذا الهرم معبد تتلى فيه الأدعية لاستئصال الرحمة على روح خوفو ولم يبق منه الا أرضه المكسوة بالرخام الأسود الجميل . أما الطريق القديم الموصل قاعدة الهرم بسفح الوادي فحرب وتلف وشيد على بقايا الكفر الموجود بتلك الجهة . ويوجد جنوبي ذلك المكان جزء من جدار قديم يظن أنه بقية سور المدينة التي شيدت بذلك الوادي والتي يحتمل أن كانت مقر خوفو وأفراد أسرته . ويجب علينا ألا ننظر الى الهرم من وجهة ضخامته وبنائه بل علينا أيضا أن نتفقد مثلا ظاهرا لانتقال القطر من الوحشية الى النظام والمدينة ولوجود حكومة مركزية قوية تسوس البلاد تحت ادارة شخص واحد .

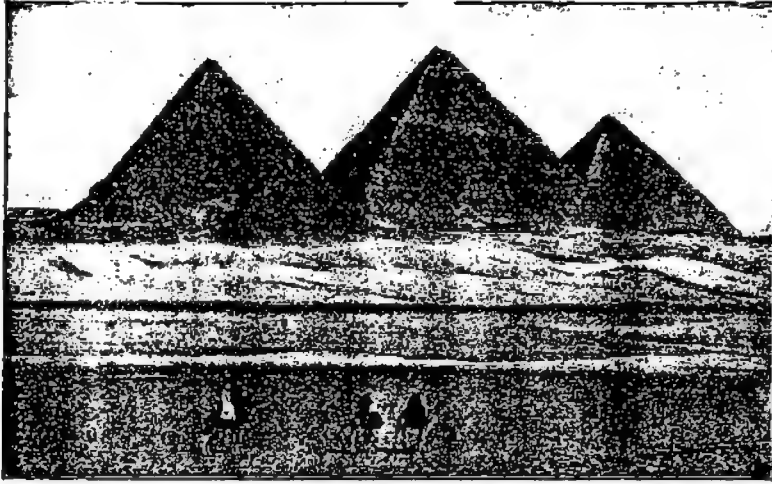
وعثر على اسم خوفو على كثير من آثار عهده في منطقة واسعة من دسوق التي هي في الشمال الغربي للدلتا الى تل بسطة في الشمال الشرقي للقطر الى مدينة الكاب (هيراكونبوليس) في جنوبي الصعيد . أما أعمال هذا الملك فلا تزال مجهولة اللهم الا ما ذكرنا من هرمه . وقد روى عنه أنه واصل العدن في سيناء (٣) . وربما كان أول من قطع الأحجار من محاجر حاثوب . وجاء في رواية من عهد البطالسة أنه شيد معبدا لحاتور بمدينة دندره (٤) . ومنه يتضح أنه قبض على موارد القطر جميعها . ولما أسن عين ابنه الأكبر وزيراً وعهد له بمهمة كبير القضاة كما كانت العادة وقتئذ . ثم عين خوفو ابنه الآخر في المنصبين الكبيرين "بالية المعبود" وعهد لهما في الاشراف على أعمال الحفائر .

(١) Patrie, History of Egypt, I, p. 40. (٢) شرحه (٣) ١٧٦ (٤) Dümichen Denders, p. 15, (٤)

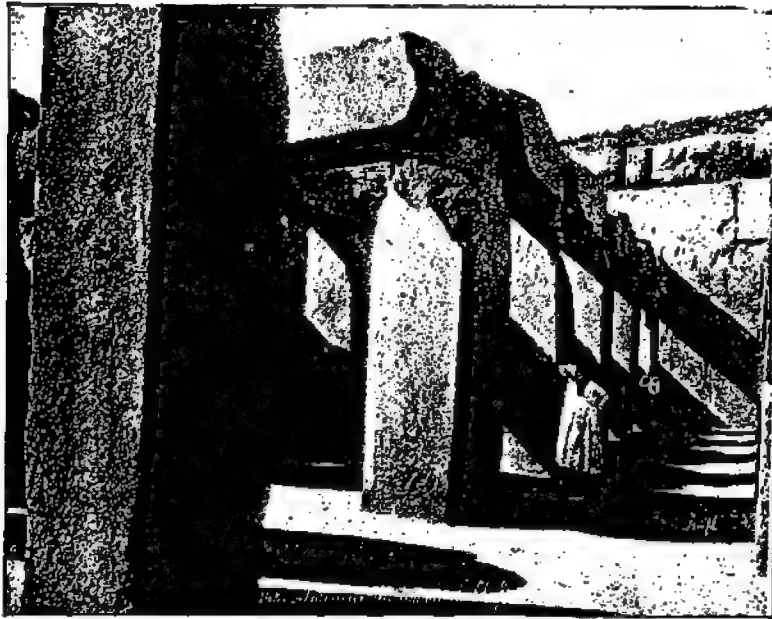
وتوفى خوفو فتبعه في الملك المدعو دِدِف رَع أو رَع دِدِف ولا تزال نجعل تاريخه وعلاقته بأسرة خوفو . وقد عثرنا على هرمه جهة أبي رواش شمالى الجيزة وهو صغير الحجم . ولا علم لنا بشيء ما خلاف ذلك ولا يبعد أنه لم يرث خوفو في الملك بل جاء في آخر عهد الأسرة الرابعة .

ولم تتأكد لأن إذا كان خفرع ابن ددف رع أم لا . ولكنه استدل من وجود لفظ رع في كلا الاسمين أن كنية رع قوى نفوذهم وقتئذ . ومعنى خفرع "ضوء الشمس" . وأما لفظ رع فيعني المعبود الشمسى . وشيد خفرع لنفسه هرما بالقرب من هرم خوفو (شكلي ٦٨ و ٧٠) لكنه أصغر حجما وأقل دقة ، وقد حلى جزاء الأسفل بكسوة من الجرانيت المستخرج من جهة الشلال الأول ، ولا تزال بعض آثار معبده موجودة إزاء وجهته الشرقية . وهذا المعبد يتدنى منه طريق يوصل الى وادى النيل وينتهى بمعبد بديع مشيد من الجرانيت ، وقد شيدت جدر هذا المعبد من الداخل بالجرانيت الأحمر والمرمر القاتم ويوجد بأحدى قاعاته بئر عثر فيها الأستاذ ماريت على سبعة تماثيل لخفرع أحملها التمثال السابق وصفه في الفصل السالف (شكل ٤٨) . وهذا المعبد قريب من أبي الهول لذلك أطلق عليه أحيانا اسم "معبد أبي الهول" أو "كنيسة أبي الهول" مع عدم وجود علاقة تاريخية بينهما . ولأن لم تثبت علاقة أبي الهول بخفرع . والمعروف أن تمثال أبي الهول يرمز به عادة لفرعون مصر لأنه يمثل رأس فرعون وقوة الأسد المفترس . وعثر بين رجل أبي الهول الأماميتين على حجر تاريخي من عهد الملك تحوتمس الرابع^(١) الذى أتى بعد خفرع بألف وأربعمائة سنة تقريبا وعليه عبارة تشير الى خفرع ، فظن بعض الأثريين أن الرأى العام في عهد تحوتمس الرابع كان يعتقد بوجود صلة بين خفرع وأبي الهول المذكور . ووراء ذلك لا ندرى شيئا عن أعمال خفرع ويظهر أن المملكة المصرية حافظت في عهده على تقدمها وعزها كما كانت أيام خوفو .

وتوفى خفرع فأعقبه في الملك متقاورع الذى شيد الهرم الثالث الصغير . وإذا اعتبرنا حجم الهرم متناسبا مع قوة صاحبه جاز لنا أن نستنتج أن قوة متقاورع ضعفت عن خفرع . ولا يبعد أن تكون مائة القطر انحطت كثيرا في عهد هذا الملك عما كانت عليه أيام سلفيه لما استنزفه هروماهما من المصاريف الباهظة . وهرم متقاورع أقل ارتفاعا من منتصف هرمى خوفو وخفرع ، أما معبده فشييد من الجرانيت . وقد أثبت الأستاذ ريزنر أن هذا المعبد لم يتم بناؤه في حياة متقاورع وأن مقدم المعبد شييد باللبن بدلا من الجرانيت الغالى الثمن . ولا نعلم كثيرا عن تاريخ خلفاء متقاورع سوى ماورد على آثار الملك شِبْسِسْكَاف من أنه اختار في السنة الأولى من حكمه مكانا ليشيد هرمه فيه^(٢) . والظاهر أن هذا الهرم لم يكن كبيرا ولا متين البناء لأننا لا تزال نجعل محله لأن لا علم لنا باعتراه من التلف . ولا ندرى شيئا عن تاريخ الملوك الذين أتوا بعده حتى نهاية الأسرة الرابعة ، إنما الثابت أن العرش الفرعونى انتقل وقتئذ لمدد قصيرة الى حكام عيليين .

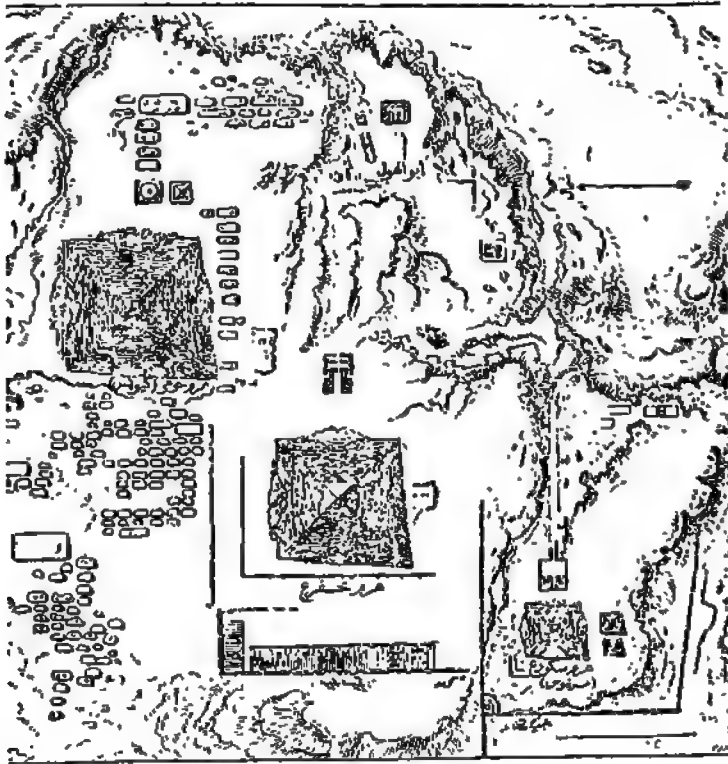


شكل ٦٨ - أهرام الجيزة كما تراه من الجهة الجنوبية الغربية :
الهرم الأيمن تلوسو ، والأوسط تخفرع ، والأيسر المتقادم



شكل ٦٩ - ساحة مشيدة بالبرازيل عند المدخل الأخرى العظيم الذي أقامه الملك تخفرع
على رأس الطريق الموصل إلى هرم الجيزة الثاني تخفرع
(راجع شكل ٢٧)

ومدة حكم الأسرة الرابعة المقدرة بمائة وخمسين سنة تمتاز بالنظام وتوطيد الحكم واطراد التقدم والرفق مما لم يسبق لأبناء وادى النيل أن يتمتعوا بمثله . وقد قاومت آثار ذلك العصر بمتانتها وعظمتها القرون العديدة حتى وقتنا هذا . ولا يبعد أن عهد خوفو كان أرقى عصر في عهد الأسرة الرابعة لأن القطر أخذ يضمحل تدريجيا في عهد خفرع ثم في عهد متقاورع حتى عجز هذا الأخير عن القبض بقوة على ناصية الحال كما فعل سلفاه . ولم يحفظ لنا الزمن من آثار هؤلاء الملوك الا التسعة الأهرام المشيدة بالجيزة ولا تزال تحفظ ذكراهم الى الآن (خريطة ٢) . وقد اصبحت هذه الأهرام في العهد اليوناني ضمن عجائب الدنيا السبعة ، أما الآن فهي البقية الباقية من تلك العجائب (شكل ٧٠) . ولدينا دلائل تاريخية قوية تشير الى سر اقراض حكم الأسرة الرابعة هي أن كهنة رع بين شمس تسخلوا تدريجيا في شؤون المملكة بعد وفاة خوفو حتى استولوا على السلطة الملكية . وقد ألما الى ذلك عند الكلام على معنى اسمي خفرع ومتقاورع وغيرهما . ولما كان قدماء المصريين منذ بداية حكم الأسري يعتبرون ملوكهم خلفاء المعبود الشمسي في الأرض سموا ملوكهم باسم حوريس أحد معبودات العقيدة الشمسية . وفي أثناء حكم الأسرة الرابعة قوى نفوذ كهنة رع فطلب هؤلاء اعتبار ملك مصر ابنا لرع أى الشمس واعتبار الشمس أبا لفرعون . ووصلت اليها (١١) قصة خرافية يرجع تاريخها الى ما بعد سقوط الأسرة الرابعة بتسعمائة سنة تقريبا جاء فيها أن خوفو خاطب يوما أبنائه عن أعمال السحرة الماهرين المستين وطلب من نجله المدعو حردوزف أن يحضر له ساحرا يعرفه . فلما حضر الساحر وقف بين يدي الملك وقام بأعمال سحرية أخذت يجمع القلوب ، لكنه لما أوشك أن ينتهي أظهر لخوفو عدم رغبته في افشاء بعض معلومات اليه ، الا أن الملك اضطره أن يبوح بها فقال له ان زوجة أحد كهنة رع ستلد ثلاثة أبناء تحمل بهم من المعبود رع نفسه وأن هؤلاء الأتجال سيحكمون مصر . فكدر خوفو من ذلك الا أن الساحر بادره قائلا " لا تسكر أيها الملك العظيم فان الملك سيتقل بمالك الى ابنك ثم الى حفيدك . بعد ذلك ينتقل الى أحد أتجال زوجة كاهن رع . الى هنا انتهى ما وصلنا عن هذه القصة الخرافية والمظنون أنها تنهى بسرد كيفية استيلاء الأتجال الثلاثة على العرش المصرى . وقد جاء في هذه القصة أن هؤلاء الأولاد لما ولدوا ظهرت عليهم أمارات الملك حتى دهش العالم وقتئذ وأن المعبودات سميتهم (أوسركاف) و (سآحورى) و (كاكاي) وهم أول ملوك الأسرة الخامسة . والظاهر أن كاتب هذه الخرافة لم يكن ملما الا باسم ملكين من ملوك الأسرة الرابعة فلم يذكر شيئا عن (ددو رع) و (شيسسكاف) وغيرهما ممن أتوا بعد خوفو ولم يتركوا أهراما ضخمة مثله ، لكننا نستنتج من سياق الكلام أن نفوذ كهنة رع قوى وقتئذ وسبب انتقال الحكم الى الأسرة الخامسة ، ومنه نستدل على كيفية حصول ذلك وعن أصل هذه الأسرة . وتعتبر هذه الخرافة من أجل الخرافات الحكومية لأنها تكشف لنا عن السرفى اعتبار فراغت مصر أبناء رع منذ ذلك الحين الى نهاية التاريخ المصرى القديم (١٢) .



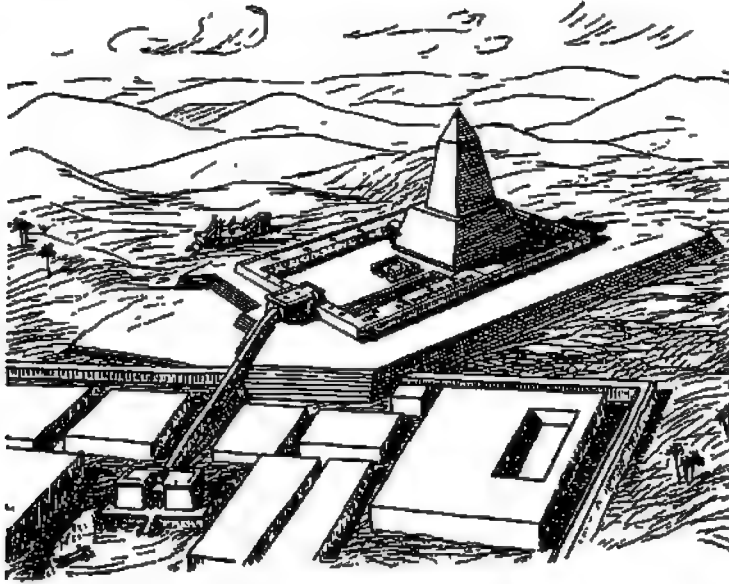
خريطة رقم ٢ : جبانة الأسرة الرابعة بالجيزة

وحكمت الأسرة الخامسة القطر المصري حوالي عام ٢٧٥٠ قبل الميلاد واتخذت منف قاعدة لحكها . وقد لوحظ على ملوك هذه الأسرة صفات مشتركة تتشبه مع ما جاء في القصة السابقة ، منها أنهم لقبوا وقت تتويجهم بالألقاب تحوي اسم رع بعد ما كان هذا الأمر صعب التنفيذ في عهد الأسرة الرابعة ، كما أن اسم الملك كان مسبوفا دائما بعبارة ابن الشمس بعد ما كان ينسب قديما الى المعبود حوريس ، ثم أضافوا لقباً آخر يشير الى انتصار حوريس على ست ، فبلغت الألقاب الفرعونية بذلك خمسة بقيت مستعملة مدى التاريخ المصري . واشددة تعلق الأسرة الخامسة بعبادة رع شيد ملوكها معابد للشمس بجوار منف وسموها بأسماء كثيرة مثل "مسكن رع الجميل" و"سرور رع" . واتبع في تشييد هذه المعابد نظام واحد تقريبا يتلخص في حوش عظيم تتفرع من جانبيه حجرات عديدة ويحوي مذبحاً كبيراً وينتهي في آخره بمصطبة ضخمة منصوب عليها مسلة (شكل ٧١) . وقد اعتبرت المسلة رمزاً للعبود رع . ومن هذا الوصف يتضح للقارئ أن معابد تلك العصور لم تحو القاعات المعروفة الآن "بقدس الأقداس" . واعتبر بعض الأثريين المسلة وما أحاط بها من البناء صورة مكبرة لقدس الأقداس بعين شمس . وتعرفت جدران المعابد نقوشاً أثرية عديدة تظهر أحوال المعيشة ، ففيها المناظر الخاصة بالأشجار والمستنقعات والبرك والحقول



شكل ٧٠ - أبو الهول العظيم بالهيرة ويشاهد في المنطقه مرم - سفوح جبل النبي ء ودمر مقابر (مسر نفوس) جبل النبال

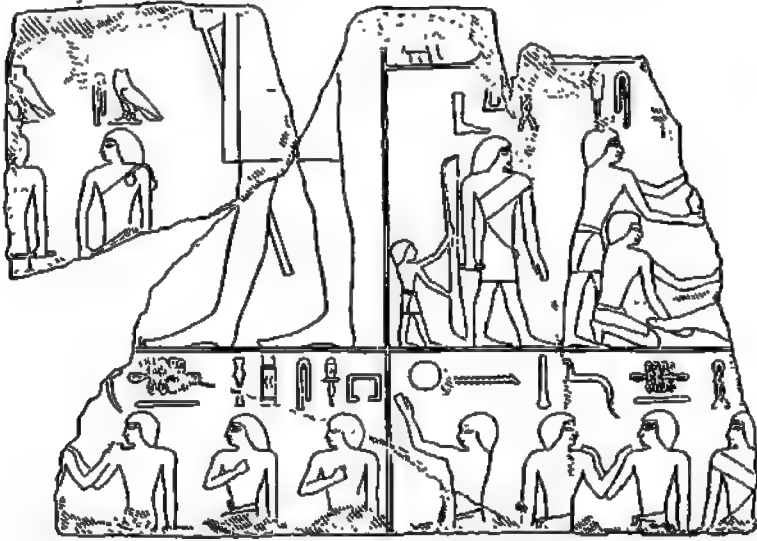
والصحارى والاحتفالات الملكية (شكل ٧٢) . أما خارج المعبد فكان مزدانا بمناظر الانتصارات الفرعونية الحربية . وجرت العادة أن يضع القوم سفيتين خشيتين على قاعدتين مشيدتين باللبن يمثلان سفيتي المعبود رع المياويتين اللتين يسبح عليهما في الأفق صباحا ومساء . وحسبت على هذه المعابد أوقاف كثيرة^(١) كما أكثر فيها من الكهنة والخدم ، وقسم هؤلاء الى خمس درجات تحت ادارة رئيس عام يشرف على أعمالهم جميعا وعلى أئمة المعبد . ويتوالى الأيام كثرت المعابد فقامت كهنة المعابد القديمة بأعمال المعابد الحديثة . والمظنون أن كل ملك من الأسرة الخامسة شيد معبدا لرع حتى الملك إزيسى الثامن في الأسرة^(٢) . بذلك كثرت أملاك رع وارتفعت منزلته فقوى نفوذه مدى التاريخ . ولم ازدادت عقيدة المصريين ثبوتا في ألوهية الشمس أكثروا من الخرافات



شكل ٧١ - صورة لمعبد الشمس بجهة نعيم بالقرب من أبو صير بعد الترميم (مأخوذة عن بورخارت)

الخاصة بها ولزونا واخترصوا خرافات أخرى وصبغوها بصيغته حتى اعتبر القوم هذا الإله ملكا على الوجهين القبلي والبحرى وساحا على القطر المصرى قبل زمن الفراعنة . ثم توهموا أن المعبود تحوت اشتغل في خدمة رع في العصور الأولى بهيئة وزير مساعد . وأعلم أن تغير الأسر المالكة لم يصحبه تغير في الألقاب والديانة فقط بل شمل أيضا انقلابا في نظام الحكومة ودولاب الأعمال . فبعد ما كان ولي العهد في الأسرة الرابعة يتولى مركز الوزارة ورياسة القضاء بحكم المادة المتبعة ويحتفظ بذلك على أقوى النفوذ في المملكة ، أصبحت هذه الوظيفة تعطى بالوراثة لأسرة أخرى تدين بمذهب يتاح المنفى . وجرت العادة أن تلقب أفراد هذه الأسرة باسم بتاح حوتب وقد عثرنا في التاريخ على خمسة أفراد منهم . والظاهر أن اقتراع الحكم من الأسرة الرابعة سبب اقتسامه بين كهنة رع

بمدينة عين شمس الذين احتفظوا بوراثنة السدة الملكية ، وكهنة بتاح بمدينة منف الذين احتفظوا بوراثنة مركز الوزارة ورياسة القضاء . لكن هذه الوراثة في مناصب الحكومة أثرت تأثيرا سيئا في الادارة كلها لأن حكام الأقسام أخذوا ينفصلون تدريجا من السلطة المالكة ويحتفظون بوراثنة سرا كرم . وقد أظهر ملوك الأسرة الخامسة عناية واحتراما للسراة الذين ساعدوهم على انتزاع الملك فرقى الملك أوسركاف أول ملوك هذه الأسرة كبير أمنائه حاكما على " قسم المدن الجديدة " بمصر الوسطى (١) ، وأضاف الى دخله مرتب كاهنين من أوقاف الملك متقاورع من الأسرة الرابعة ، ولا يبعد أن كان هذا المرتب صرفا سابقا لبعض محاسب الأسرة الرابعة ، وعلى العموم فإن أوقاف الأسرة الرابعة قد روعيت باحترام في عهد الأسرة الخامسة .



شكل ٧٢ - نقوش بارزة بمعبد الشمس جهة نصر بالقرب من أبو صير - يشاهد في الجهة اليمنى من القسم العلوى كيفية تمطير قدمى فرعون مصر

واعترضت أوسركاف مصاعب جمّة وقت توليه الحكم لكنه وطد مركزه الملكى في البلاد وحصر وراثة العرش في أفراد أسرته وقام بالحفائر واستخراج الصخور من جهة أسوان (٢) . وقد وجد اسم هذا الملك منقوشا بتلك الجهة ضمن أسماء ملوك آخرين مع بعض ملاحظات عن أحكامهم وحوادث أيامهم في الصعيد . وتوفى أوسركاف فتبعه سحمورا الذى شيد لمصر أسطولا بحريا جعلها أول دولة بحرية معروفة في التاريخ . وقد عثر حديثا على لوح سحورى يهزم هذا الملك ببوصير وجدت عليه رسوم لأربع سفن عظيمة مشحونة بالأمرى الفينيقين حولهم بحارة مصريون . وتعتبر هذه أقدم رسوم بحرية وجدت للآن (حوالى سنة ٢٧٥٠ قبل الميلاد) وأقدم صور لسكان سوريا الساميين . وأوفد سحمورا أسطولا آخر الى بلاد الصومال (بونت) وجنوبى خليج عدن لطلب البخور والروائح

(١) ٢١٣:١ ملاحظة (٢) Mariette Mon., div., 54 n.

العطرية والأدهنة الجميلة الكثيرة الاستعمال عند الشرقيين . أما الصومال فكانت تعرف عند المصريين " بالأرض المقدسة " ونسب بعض الأثريين مبدأ تجارة مصر مع الصومال الى عهد الأسرة الأولى لكثرة استعمال ملوك هذه الأسرة لخشب المر . لكن يجوز أن هذه الأخشاب العطرية أتت عن طريق التجارة براً وتولاها سكان شاطئ النيل الأزرق وعطبرة وأعلى النيل . وجاء في الآثار أن أحد أبناء خوفو اقتنى عنده عبدا صوماليا^(١) لكن المعروف أن صحورا هو أول ملك أثبتت آثاره أنه مؤسس المواصلات البحرية مع الصومال رأما^(٢) . وما ورد عنه أنه جلب من تلك الجهات ثمانين ألف ميكال من المروستائة متقال من مخلوط الذهب والفضة وألقت وستائة ساق من نباتات ثمينة لا يبعد أنها الأبنوس . ودون موظف لهذا الملك جهة الشلال الأول^(٣) قوشا كثيرة على الأحجار أشار فيها الى حملة حربية قام بها ملكه بتلك الجهات . وتعتبر هذه النقوش أقدم ما وجد من نوعها جهة الشلال الأول .

ويستدل من آثار الملوك الأربعة الذين حكموا القطر بعد صحورا أن القطر حافظ في عهدهم على مركزه السياسي والمالي والعمرائي وأن المصريين أخذوا يتطلعون الى خيرات ومصنوعات البلاد الأجنبية غير الموجودة بمصر . ففي النصف الأخير من حكم الأسرة الخامسة (حوالي النصف الثاني للقرن السابع والعشرين قبل الميلاد) فتح الملك إزيسى محاجر وادى الحمامات التي تبعد عن النيل بمسير ثلاثة أيام . وقد قطعت أحجار من تلك المحاجر قبل ذلك الوقت وعملت منها أوان حجرية ، ولكن الشابت أن إزيسى هو أول ملك نقش اسمه هناك^(٤) . ولما كان هذا المكان أقرب جهات البحر الأحمر للنيل صارت القوافل تمتاز صحراء مبتدئة من فقط مارة بوادى الحمامات حتى تصل الى البحر الأحمر ، وكان هذا السفر يستغرق حوالي خمسة أيام ، وعليه فكان هذا الطريق أسهل المواصلات لأرض الصومال ، ولذلك أرسل صحورا بعثته الحربية الى تلك الجهات عن هذا الطريق كما أرسل أيضا الملك إزيسى جيشه الى ذلك الاقليم عن هذا الممر تحت قيادة رئيس ماليته المدعو بردد (Burded)^(٥) . ولما توفي إزيسى ورثه في الملك أونيس (Unis) فشن الغارات على النوبة وقيد اسمه جهة الشلال الأول حيث لقب نفسه فيها "سيد القطرين"^(٦) .

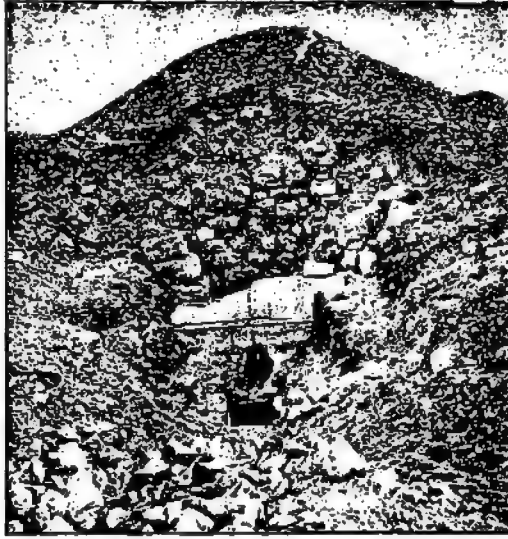
ولم تكن سلطة حكام الأقسام ورؤساء الأعمال الادارية أيام الأسرة الخامسة خاضعة تماما للسلطة الملكية كسابق العهد ، فأصبحنا نرى بين آثار الملوك بسيناء اسما لأحد الحكام أو رؤساء الأعمال خلافا للتبع ، لأن الملك كان الشخص الوحيد الذي يذكر اسمه هناك ويرسم كإله مشرف على الأعمال ظافر بأعدائه بشكل مهيب جليل . أما في عهد إزيسى فقد شملت قوشه سطرًا واحدًا في ذيل بلاغ رسمي هناك جاء فيه أن احدى حملات تلك العصور كانت تحت قيادة ضابط من ضباط الجيش^(٧) ، ويعتبر هذا أقدم مثل لاظهار الأثرة التي أخذت تدب باستمراريين كبار الموظفين في البلاغات الرسمية وكذا الصعوبات التي اعترضت فراعنة تلك العصور من جراء هذه الصفة الذميمة .

(١) LD, II, 23, Erman, Aegypten, 670. (٢)

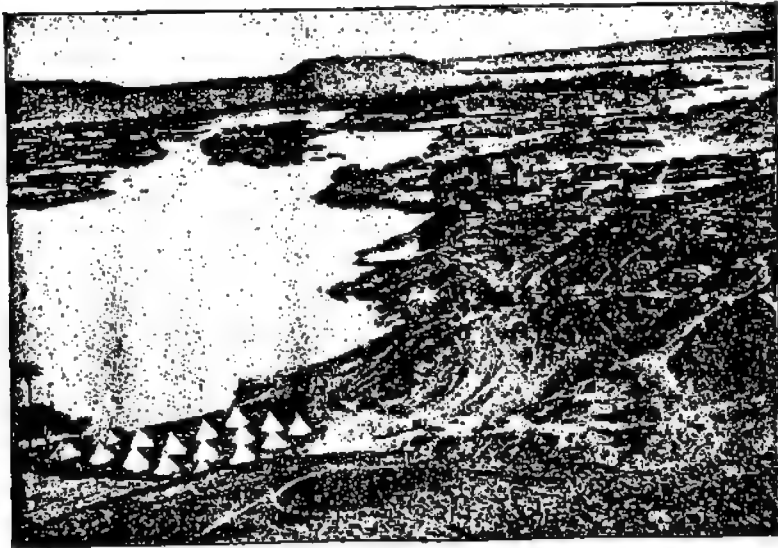
(٣) De Morgan, Catalogue de Monuments, I, 88. (٤) LD, II, 115, L. (٥) ٢٥٢ و ٢٥١ : ١

(٦) Petrie, Season, XII, No. 312. (٧) ٢٦٦ و ٢٦٤ : ١

ولا يعد أن صفر حجم أهرام الأسرة الخامسة ورداءة بنائها على حافة الصحراء جنوبي الجزيرة بجهة بومبير وصقارة جاءت دليلا آخر على ضعف سلطة هذه الأسرة وبرهاننا واضحاً على فقر الخزائنة المصرية بالنسبة لحالتها في حكم الأسرة الرابعة . وليس في هذا الكلام ما يحتاج الى كثير عناء لاثباته فأهرام الأسرة الخامسة لا يزيد ارتفاعها على نصف هرم الجزيرة الأكبر كما أن بناءها الداخلى ردىء ومركب من سخور متراكمة بينها رمال كثيرة وهى الآن مهتمة لم يبق منها الا القليل من معالم الأهرام الحقيقية . أمام هذا كله لا يسعنا الا أن نستنتج أن الحكومة المركزية في عهد الأسرة الخامسة أخذت تضعف تدريجاً وأن الرأى العام أخذ يقاوم فكرة استعمال خيرات البلاد وثروتها لاقامة المقابر الملكية . واعلم أن حكم الملوك التسعة للأسرة الخامسة مدّة مائة وخمسين سنة كان مقرّونا بتغير سياسى داخلى خطير مع تقدم عمرانى هائل ، فالفنون الجميلة والصناعة بلغت شأواً عظيماً في التقدم وكنا الآداب ارتقت كما يشاهد ذلك في نصائح بتاح حوتب وزير الملك إزيسى ورئيس قضائته وقد ألمعنا إليها سابقاً . ثم ان المعابد والديانة كانتا محترمتين بما يناسب مع عز مصر وأبهتها التي امتازت بها على الأمم وقتئذ ، فأصبحت ترى المعابد موضع عناية القوم في أنحاء القطر ، كما أن الأوقاف والخيريات أخذت تجس على الهياكل^(١) وصار الملك يقدم فيها القرابين كل يوم . وإلى هذا العصر تعزى معظم معارفنا عن أقدم ديانة المصريين وأقدم نموذج واف للغة المصرية القديمة . وأهم نصوص ديانة عثرنا عليها لذلك العهد هى الموجودة على جدر هرم أونيس آخر ملوك لأسرة الخامسة ، وتعرف هذه النصوص الدينية الآن "بنقوش الأهرام" . ولما كان معظم هذه النصوص والعقائد الدينية يرجع في الأصل الى عهد ما قبل الفراعنة على الأرجح اعتبر الأثريون هذه النصوص أقدم مرجع يبحث فيه عن ديانة القطر المصرى ولقته قبل عهد هرم أونيس .



شكل ٧٣ - بقايا هرم أرتيس يسفاره من آثار الأسرة الخامسة
وهذا أقدم هرم يحوى نصوصا دينية



شكل ٧٤ - مودة شمسية بجزيرة إلفانتين مسقط رأس أمراء حدود مصر الجنوبية .
وتجمع مقابر هؤلاء الأمراء في الصخور النورية قليل

الفصل السابع

الأسرة السادسة : اضمحلال المملكة القديمة

لم يرد في درج تورين البردى أوفى قائمة أثرية لفراعنة مصر إشارة الى انتزاع عرش مصر من نسل الملك مينا حتى آخر عهد الملك أونيس . والثابت أن الملك انتقل بعدئذ الى أسرة أخرى لأسباب أوضحتها للقارئ سابقا تلخص في محاولة حكام أقسام القطر الحصول على قسط أوفر من القوة والحرية . ولما حكمت الأسرة الخامسة تحت نفوذ كهنة عين شمس أخذ حكام الأقسام يحتكرون مناصبهم لأفراد أسرهم بشكل وراثي فعجز الملوك عن كبح زمامهم كما فعل فراعنة الأسرة الرابعة ، فهد بذلك الطريق لانفصال هؤلاء الحكام عن السلطة العليا المالكة واتمى الأمر بقلب حكم الأسرة الخامسة على أيدي هؤلاء الحكام وذلك بعد حكم أونيس حوالى عام ٢٦٢٥ قبل الميلاد . على أثر ذلك أعلن كل حاكم استقلاله عن غيره واستماض عن لقبه الأصلي " حاكم قسم " بلقب " السيد العظيم " أو " السيد الكبير " واستمر الحكام يديرون أعمالهم مستقلين استقلالاً ذاتياً بلا تبعية للحكومة المركزية . ويعتبر هذا الانقلاب الداخلى أقدم مثل تاريخى معروف عن انحلال السلطة المركزية وتجزئتها الى سلطات صغيرة فرعية وعن كيفية تضخم الأخيرة على حساب الأولى . وقد حصل مثل هذا تماما في امبراطورية شارل الأكبر التي تجزأت بعده الى عدة دوقيات وامارات ومقاطعات مستقلة . ولم يكن هذا الانقلاب الداخلى بلحاظيا بل تدريجيا لأن حكام الأقسام استمروا مدة طويلة خاضعين بعض الخضوع للحكم منفذين ارادته وأوامره . ولما أصبحت وظائفهم وراثية محصورة في أسرهم استمروا زمنا يعينون في تلك الوظائف بأمر ملكي ويمتحنون الاقطاع والألقاب بمرسوم ملكي أيضا . وبالرغم من ذلك فقد أخذت علاقة هؤلاء الحكام بالقصر الملكي تضعف فامتنعوا عن دفن جثثهم حول قبور ملوكهم وأخذ كل منهم يختار لنفسه قبرا في اقليمه، فمثلا بذلك انفصل عن السلطة الحاكمة . وقد عثر الأثريون حديثا على عدة مقابر لهؤلاء الحكام منحوتة في صحور جهة جزيرة الفيل وقصر الصياد والشيخ سميد وزاوية المتين ووجد غيرها مشيدة بالبحر جهة العراية المدفونة . واجتهد هؤلاء الحكام في تدمير أقاليمهم فورد عن أحدهم أنه جلب بعض أبناء الأقاليم المجاورة له وجعلهم يقيمون عنده لتعمير قسمه وزيادة عدد سكانه وتحسين قراه الصغيرة القليلة السكان (١) .

وصارت المالية صلة الاتصال بين حكام الأقسام والبيت المالكي في تلك العصور . فاضطر الملك في أواخر أيام الأسرة الخامسة أن يعين حاكما عاما على الوجه القبلي يستعين به على تنفيذ أوامره

هناك . أما الوجه البحرى فكان أكثر خضوعا ولذا لم يبين عليه حاكم عام . والغريب أنه رغم كل هذا التغيير كان فرعون مصر يتخبر ويعتمد بأنه صعيدى الأصل وأن صلته بالدلتا صلة الغازى الفالح .

وبقيت منف مركز الحكومة طول هذه المدة وكانت تعرف وقتئذ بمدينة " الحائط الأبيض " حتى حكم الملك تيتا مؤسس الأسرة السادسة المجهول التاريخ . وتوفى تيتا فتبعه فى الملك ببي الأول فشيّد لنفسه هراما ومدينة بجوار مدينة " الحائط الأبيض " وأطلق على هرامه اسم " من نوفر " . بعد ذلك أطلق اسم هذا الهرم على مدينة " الحائط الأبيض " ولما أتى اليونان حرفوا هذا الاسم الى منفيس ونطق به العرب منف ولا يزال هذا الاسم مستعملا فى الكتب العربية للآن . أما اسم " الحائط الأبيض " فقد انعدم ولم يبق له ذكر الا فى عالم العاديات وبين أسطر الشعر . وصار لمنف منزلة كبيرة فى القطر فكبر حجمها وزاد عدد سكانها واحتاجت الى اشراف الوزير عليها فلقب وقتئذ " بحاكم مدينة الهرم " أو " حاكم المدينة " . ثم اشتهرت منف بين الخاصة والعامة " بالمدينة " فقط . واستمر ملوك الأسرة السادسة محافظين على سلطانهم وهيبتهم كأسلافهم وعلى عبادتهم لرج واعتبارهم إياه رئيس المعبودات الأكبر واحترامهم لكل شيء خاص بأسلافهم وأجدادهم رغم ما ذكرناه من التطورات الداخلية الكثيرة بين حكام الأقسام العديدين .

واجتهد حكام الأقسام فى عهد ببي الأول أن يتفصلوا عن سلطته وإدارته لكنه قبض عليهم بقوة ومهارة وحافظ على نفوذه فى جهات القطر كلها . وقد شهدت له بذلك آثاره الكبيرة والصغيرة . وقد لوحظ أن هؤلاء الحكام وقتئذ نقشوا على الأحجار فى أقسامهم ومجاشرهم أعمالهم وتاريخ حياتهم عدة دفعات . وأظهروا لخصوعهم للسنة الملكية تحتم عليهم أن يرسموا فى الجزء العلوى لتلك النقوش ملكهم يعبد لها أو يصعق عدوا ، وتلى ذلك النقوش المظهرة لرغبة مقام حاكم القسم وأتباعه فى رحلاته ومشروعاته . وكانت هذه النقوش مختصرة فى بادئ الأمر لكنها طالت تدريجيا بمرور الزمن ، مثال ذلك أن الملك ببي لما أرسل بعثة الى محاجر وادى الحمامات تحت إدارة مفتشين من المسالية ورئيس مهندسى هرامه مصحوبين برجال فنيين لقطع الأحجار الجيدة لبناء الهرم حفر هؤلاء الأشخاص نقوشا لهم فى لوحين ملكيين بالمحاجر المذكورة كما حفرُوا أيضا ثلاثة نقوش أخرى هيرغليفية أثبتوا فيها أسماءهم وألقابهم وأعمالهم (١) . كذلك لما أرسل الملك ببي الأول الحاكم العام للوجه القبلى ورئيس قسم الأرنب فى الوقت نفسه الى محاجر حاتتوب لقطع الأحجار المرمرية ترك هذا الحاكم هناك نقوشا شرح فيها مهمته وأعماله التى أداها للملك (٢) . وهناك نقوش أثرية بوادى مغارة بطورسياء نقشها قائد حربى أرسله ببي فى مأمورية كالسابقة ذكر فيها أعماله وألقابه وخدماته نحو ملكه (٣) . وبقى القوم يفتخرون بألقابهم وينشرفون بها حتى كثرت لديهم ألقاب الشرف وتلاشى قيامهم بعبه ما يتطلبه لقب واحد منها ، واحتاج الأمر أخيرا أن يذكر بعد الألقاب لفظ " حقيقى " للتمييز بين المنوح منها للجدارة والمعطى من قبيل الشرف لا غير . وذكر لنا موظف

يدعى أونا ترجمة حياته وكانت صلته متينة بالبيت المالک استتجنا منها معلومات كثيرة عن أعمال حكام الأقسام وقتئذ . فقد ذكر لنا هذا الموظف أنه بدأ حياته عاملا حقيرا في أملاك الملك تا الثاني^(١) فلما تولى پي الأول عينه قاضيا وألحقه بالقصر الملكي وأنعم عليه بمرتب كاهن من كهنة الهرم^(٢) ثم عينه أمينا بالقصر فجاز رضاه بكفايته . واتفق بعد ذلك وجود مؤامرة نسوية في القصر ضد الملك فكلفت أونا مع زميل له تحقيق المؤامرة وأصدار حكمهما فيها^(٣) . وهكذا قدر پي كفايات . مستخدميه واستفاد بهم في إدارة شؤونه وجعل حكمونه مطيعة له ولأفراد أسرته . أما في الصعيد فعين پي حاكم قسم الأرنب حاكما عاما على الوجه القبيل وطلب أختي حاكم طينه (Thinis) ليقترن بهما ويجعلهما ملكين شرعيين . وهاتان الأختان كانتا تمتثلتين في الاسم وتدعيان لإنخس مريري (Enekhnes - Merire) وقد رزق الملك منهما نجلين توليا الملك بعد وفاته بمدة^(٤) .

وبلغت سياسة پي الخارجية شأوا عظيما ودرجة كبيرة غير مسبوقه النظر فقد أخضع بلاد النوبة تماما وجند من أهلها فرقا للجيش المصرى استعملها في غزواته الجنوبية والشمالية . واعتاد كلما أظفر البدو على شرق الدلتا أو متاجم سيناء أن يرسل الى أونا أمرا بمسح جنود نوبية مع جنود مصرية لكبح جماح هؤلاء العصاة . أصدر أمره فيما بعد بتعيين أونا قائدا عاما للقوات المصرية في أثناء الحرب مع البدو مرقيا إياه بذلك على زملائه من رؤساء الجيش^(٥) . والتحم أونا بالبدو ومحققهم وشتت شملهم ثم عاد الى وطنه وبعد ذلك عهد اليه ملكه بأربع غارات أخرى ضد البدو أيضا عقابا لهم . ولما أظفر البدو على إقليم الشام شرقي الدلتا أرسل پي عمارة بحرية تحت قيادة أونا المذكور الى فلسطين فسارت محاذية سواحل فلسطين الجنوبية وأزلت جندها هناك وتكتت بالناشرين فكما ندرها ثم طردتهم الى جبال فلسطين الشمالية^(٦) . ويعتبر هذا المكان أقصى ما وصل اليه الغوذ المصرى في عهد الملكة القديمة . ومما يؤيد ذلك وجود جمران من الأمرة السادسة قرب جازد (Gezer) جنوبي بيت المقدس تحت طبقات الأرض مع آثار أخرى للملكة المتوسطة . وتعتبر قصة أونا هذه برهانا ساطعا على شدة ميل المصريين وقتئذ الى الراحة والسلام لا الى الكفاح والقتال .

هكذا ثبت پي مركز أسرته وقواه . وتوفى بعد ما حكم حوالى عشرين سنة فأعقبه في الحكم ابنه مرنوع (Mernere) وكان شابا شديدا البطش قوى البأس ، فأصدر أمره حالا بترقية أونا حاكما عاما على الوجه القبيل^(٧) فقام أونا بهذه الأمور خير قيام . وأخذ حكام حدود الوجه القبلي الجنوبية يتسابقون في خدمة الملك الشاب وكان هؤلاء يقطنون في جزيرة النيل جنوبي الشلال ويتصون الى أسرة عريقة (شكل ٧٤) . وجرى العادة أن سمي الجزء المجاور للشلال الأول "باب القطر الجنوبي" ولذلك لقب حاكم ذلك الجزء "بمبارس الباب الجنوبي" وكانت مهمته حماية القطر من متوحشى بدو النوبة . وقد كانت الأسرة المذكورة تحافظ على النظام بتلك الجهات بناية الدقة حتى أنه لما صدر الأمر الملكي الى أونا بالذهاب الى تلك الجهات لقطع حجر الجرايت

(١) ٢٩٤:١ (٢) ٣٠٧:١ (٣) ٣١٥:١ (٤) ٣٤٤:١ - ٩ (٥) ٣١١:١ - ٣١٣

(٦) ٣١٥-٣١٤:١ (٧) ٣٢٠:١

اللازم لصنع التابوت الملكي والأدوات الدقيقة الخاصة بهرم الملك لم يخرج أونا إلى أكثر من "سفينة حربية واحدة" وهو أمر لم يسبق له مثيل^(١). بعد ذلك أمر الملك فأثد أونا بفتح خمسة مسالك في سدود الشلال الجرانيتية فآتم هذا مأموريته بنجاح كما أنه شيد أيضا سبعة مصراكب كبيرة شحنها صخورا جرانيتية ضخمة للهرم الملكي واستغرق ذلك كله سنة واحدة^(٢).

ولا يخفى أن مصر منزلة شمالا انعزالا طبيعيا عن البلاد المجاورة ولذلك لم يتطلع فراعنة مصر وقتئذ إلى غزو الأقاليم الشمالية بل جعلوا همهم هناك الدفاع عن وطنهم ومناجم طورسيناء. أما النوبة فكانت قريبة للقطر لا يفصلها عنه الا الشلال الأول. فلما شق مزرع طريقه للسفن بتلك المنطقة سهل عليه غزو النوبة وبسط نفوذه عليها. ولم يطمع المصريون في النوبة من أجل زراعتها فهي قليلة الفلاحة أو فاقدتها لكنهم طمعوا في الذهب والحديد انعام^(٣) الموجود بالصحراء شرق النيل. ولم نعتز الآن على أدوات حديدية مصرية في تلك الأقاليم. ومما يزيد أهمية تلك الجهات عند المصريين كونها الطريق الوحيد لأقاليم السودان الجنوبية الغنية التي تصدّر لمصر الذهب وريش النعام وخشب الآبنوس وجلود النمر وسن القليل وعنها أيضا تأتي للبلاد صادرات الصومال والبلاد المجاورة كالتمر والصبوغ العطرية والراتنج والبخور. لهذه الأسباب كلها تعتم على الفراعنة أن يحافظوا على النوبة لأنها الطريق الوحيد الموصل إلى تلك الأقاليم الجنوبية الغنية.

ولا تزال معلوماتنا ضئيلة بشأن زواج منطقة الشلال الأول لكننا نعرف أن القبائل التي قطنت الأراضي بين الشلالين الأول والثاني كان يقال لها الواوات وأن القبائل التي قطنت حول الشلالات التالية الأخرى كانت تسمى كوش. ويلاحظ أن الاسم الأخير لم يرد ذكره في الآثار الا في عهد المملكة المتوسطة. أما الجزء الاعلى لتعريج النيل بين الشلال الثاني وملتقى النيل الأزرق بالأبيض فكان معمورا بقبائل مازوى التي كثيرا ما أمّدت الجيش المصري بالامدادات في العصور التالية حتى أطلق المصريون اسم مازوى على الجندي، وقد ورد هذا اللفظ في القبطية "ماتوى". وفوق ذلك كانت توجد قبائل يقال لها يام يظن أنها قطنت بالقرب من مازوى. أما قبائل الإرتت والسيحوت فكانت تقطن الجهة الغربية لوادى النيل بين مازوى ويام جنوبا والواوات شمالا. ولا يبعد أن كانت قبائل الواوات والإرتت والسيحوت تحت رئيس واحد وقتئذ^(٤). والمعروف أن هذه القبائل كانت وحشية تسكن العشاش الطينية على شاطئ النيل أو حول الآبار المنعزلة وكانت تقطن القطائع من الأعنعام وتررع القليل من الحبوب.

ولا جدال في أن القناة التي شقها أونا في صخور الشلال الأول سهلت الطريق للتفوذ المصري إلى السودان ولذلك أصبحت سلطة مزرع مهية بين قبائل الواوات والإرتت ومازوى ويام، فكانوا يحضرون جميع الأخشاب التي طلبها أونا منهم لبناء السفن لشحن أبحار الجرانيت من إقليم الشلال الأول^(٥). ومزرع أول فرعون ذهب إلى منطقة الشلال الأول حيث استقبل رؤساء النوبة

Börsing, Geschichte der Metalle, pp. 81, 88 sq. (٢)

٢٢٤:١ (٢)

٢٢٢:١ (١)

٣٢٤:١ (٥)

٣٣٦:١ (٤)

الذين أتوا مظهرين طاعتهم ومقدمين هداياهم إليه ، وترك نقوشا حجرية^(١) بتلك الجهات تمثله واقفا متكئا على عصا طويلة وأمامه رؤساء النوبة ساجدين . على ذلك نقوش هيروغليفية تبدأ بالعبارة الآتية "وصول جلالة الملك الى الأراضى الواقعة بعد الأقليم الصحرى (أى إقليم الشلال الأؤل) لمشاهدة هذا الإقليم ولقبول الخضوع والمدىح من رؤساء قبائل المازوى والإرتى والواوات"^(٢) .

واستأنف مرنرع قبائل جزيرة الفيل فى بسط نفوذه على النوبة ، فرقى رؤسهم المدعو حرخوف حاكما عاما على الوجه القبلى^(٣) (وهو لقب كان يعطى أحيانا بعض الأشخاص من قبيل الشرف فقط) لكنه أعطى أونا عن جدارة بعد اعتزاله الخدمة لكبر سنه أو وفاته على الأرجح . وقد أظهر حرخوف وأسرته تفانيا عظيما فى خدمة ملكهم وطاعة أوامره فى بلاد النوبة ولذا كان اعتماد الملك عليهم عظيما . فن أعمال هذه الأسرة توطيد شرف جلالته وهيبته وحماية التجارة من عبث اللصوص والقبائل الممىج والتوغل فى داخلية إفريقيا وجنوب البحر الأحمر للكشف عن تلك الجهات وخيراتها ، ويعتبر أفراد هذه الأسرة أقدم الكاشفين المعروفين فى التاريخ ، وروى أن اثنين منهم توفيا من الصعوبات والأهوال التى لقيها فى رحلات الاستكشاف .

ولكثرة خدمات حكام جزيرة الفيل وعظم أهميتها أعقد عليهم الملك ألقاب الشرف الكثيرة علاوة على ما كان لديهم من الألقاب القديمة ، فأصبحوا يلقبون الآن "بمديرى القوافل الجالين لسيدهم خيرات البلاد" وهو لقب افتخروا به كثيرا ونقشوه على جدر مقابرهم المحفورة بصخور تجاه أسوان مقابل جزيرة الفيل مسقط رأسهم الأصيل^(٤) . ودلنا نقوش بتلك الجهة أن الملك مرنرع أمر حرخوف أحد حكام جزيرة الفيل بغزو أراضى يام ثلاث دفعات متواليات^(٥) . فى الغزوة الأولى كان حرخوف شابا مساعدا لوالده المدعو إرى (Iri) الذى عهد إليه وقتئذ فى الإشراف على الأعمال وقد استغرقت هذه الغزوة سبعة أشهر . أما الغارة الثانية فقد عهد الملك فى قيادتها الى حرخوف وحده فقام بها خير قيام وقد استغرقت ثمانية أشهر . ثم كلفه الملك غزوة ثالثة أشد خطرا من السابقتين لكنه لم يكن أقل نجاحا فيها ، فلما وصل حرخوف أرض يام وجد رئيسها يحارب قبائل التيمحو الليبيين غربى اقليمه ، فسار اليه حرخوف وأخذ منه جزيرة وغنيمة وحمل ذلك على ثلثمائة حمار أرسلها الى مصر تحت حراسة خفراء من قبائل يام . ولم تجرؤ قبائل إرتى وسنحو وواوات على الاقتراب من تلك الغنائم فى سيرها شمالا نحو القطر المصرى خوفا من سلطة وبعطش المصريين وبن حراس قبائل يام الذين كانوا معها . ولم تكثف هذه القبائل بذلك بل قدمت لخرخوف الهدايا من الأغنام والبهايم وسهلت له الطريق وساعدته بمرشدين فى أثناء سفره . ولما وصل حرخوف الى الشلال الأؤل وجد مندوبا من قبل الملك فى انتظاره ومعه سفينة ملكية بالهدايا العظيمة تقديرا لخدماته نحو ملكه العظم .

(١) ٣١٦:١ - ٣١٨ (٢) شرحه (٣) ٣٣٢:١ (٤) شكل ٧٤ (٥) ١ : ٣٣٣ - ٦ وانظر أيضا

وأخذ مرنزوع يواصل أعماله في النوبة وجنوبي السودان مدة من الزمن ، ثم وقفت أعماله فجأة وعلى غير انتظار بالنسبة لوفاته ، ودفن في تابوت جرانيتي بهرمه الملكي جهة منف الذي شيده أونا وباشر صنع تابوته كما المئنا سابقا . وبقيت جثة مرنزوع محفوظة في مقبرتها رغم عبث اللصوص وممر الأيام حتى عام ١٨٨١ ميلادية لما نقلت الى دار التحف بالقاهرة (شكل ٧٧) . والمعروف أن مرنزوع لم يحكم الا أربع سنوات وأن وفاته كانت في أول السنة الخامسة ، ولم يترك وريثا للملكة فتبعه في الملك أخوه من أبيه المدعو بيبي الثاني وكان وقتئذ طفلا لم يدرك سن البلوغ . ويرجع السبب في اعتلاء بيبي الثاني على العرش ونجاح حكمه الى ثبات مركز الأسرة الحاكمة وإخلاص حكام الأقسام لها . وببي هذا هو ابن إنجنس مبريع الأخت الثانية لحاكم طينه التي تزوجها مع أختها الملك بيبي الأول . بعد ذلك عين حاكم طينه المدعو زاو شقيق إنجنس مبريع وخال بيبي الثاني وزيرا ورئيسا للقضاة وحكما عاما لعاصمة الملك (١) . وقد أدار زاو دولاب أعمال الدولة في حداته سن بيبي الثاني بدون تغيير مطلقا في سياسة المملكة .

وفي السنة الثانية من حكم الملك بيبي الثاني صدر أمر من كبار الدولة المصرية الى حرخوف بالقيام بغزوة رابعة بأرض يام فقام بها خير قيام وطلب معه غنائم كثيرة وقزما من أواسط إفريقيا (شكل ٧٥ و٤١) . وكان لسراة المصريين غرام كبير بالأقزام خصوصا وقت رقصهم لأنهم كانوا يشبهونهم بالمعبودين المثل ضاحكا دائما على الآثار . واعتقد المصريون قديما أن أرض الأقزام ذات صلة "بأرض الموتى الغربية" (المعروفة بأرض الأرواح) . ثم ان ملوكهم كانوا كثيرا ما يمشون فراضهم في مسرح من رقص الأقزام . لذلك لما علم بيبي الثاني بخبر حضور قزم مع حرخوف كان سروره عظيما جدا على حداته سنة فأرسل الى حرخوف كتابا خاصا رجاه فيه الاهتمام بعدم إيذاء ذلك القزم والاحتراس من غرقه في النيل ووعده بمكافأة أكبر من التي أعطاهها الملك إزيبي وزيره برؤد لما جلب له قزما من بونت أي بلاد الصومال . وقد سر حرخوف بهذا الخطاب كثيرا فقتله على وجهه قبره (شكل ٧٦) اثباتا لعلاقته المتينة مع البيت المالكي (٢) .



شكل ٧٥ - مثال قزم من عهد
الامبراطورية القديمة
(مأخوذ من ماسبيرو)

ويرجح أن غزوات حكام الجنوب لبلاد النوبة في القرن السادس والعشرين قبل الميلاد كانت أقل نجاحا من غارات حرخوف ، لأنه ورد على الآثار أن أحد حكام الأقاليم الجنوبية المدعو سبني (Sbni) كان له ابن رئيسا يدعى سحو أرسل بأمر ملكي لغزو السودان قبله ذات يوم بغاة خبر قتل والده بجمه الوارات ، فحشد جنودا بسرعة وزحف معهم جنوبا مع مائة حمار ليقتص من القبيلة التي قتلت والده ، وأرسل في الوقت نفسه خبرا بذلك الى الملك مع رسول يحمل هدية قرن من العاج يبلغ طوله نحسة أقدام ، واعتذر بأن أطول قرن عنده لا يزيد طوله على عشرة أقدام ! ووصل سبني أرض الوارات فوجد جثة أبيه واقتص من قتله ثم أحضر الجثة معه الى القطر المصري محملة على حمار . ولما وصل الى وطنه وجد أن الملك أرسل له بعثة ملكية من المحنطين والتجارين ورجال الماتم وكهنة الأموات وما الى ذلك وكميات وافرة من الأقمشة والبخور والزبوت والروائح الذكية ليحفظوا الجثة بسرعة ويقدموا ما يليق بها من الحفاوة . بعد ذلك سافر سبني الى الملك ليقدم له جريل الشكر على حسن صنيعه وأحضر له أيضا الغنائم العظيمة التي جمعها له والده ، فال من السنة الملكية أعظم عطف واحترام وبخاصة لما فعله في تخليص جثة أبيه من هؤلاء القتلة ، ومثل هذا الأمر كان من أقدم الواجبات عند المصريين . ثم أهدى الملك سبني اليه هدايا ثمينة وكمية كبيرة من الذهب لإخلاصه للعرش وختم نعمه باعطائه قطعة من الأرض بأمر ملكي (١) .

هكذا امتدت سيطرة مصر على النوبة تدريجا . ثم خطر للمصريين أن يمينوا على تلك البلاد حاكما عاما من قبلهم فأصدر الملك أمره الرسمي بتعيين المدعو ببي نخت (Pepinakht) في تلك الوظيفة وهذا الرجل هو أحد رؤساء جزيرة الفيل ، ومن ثم أطلق على المركز "حاكم البلاد الأجنبية" (٢) . وكلف الملك هذا الحاكم غزو أراضي الوارات والإرتت فنضد ذلك وأحضر معه غنائم كثيرة وعددا كبيرا من الأسرى والأطفال ورؤساء القبائل كرهائن لحماية البلاد من حصول اضطرابات في المستقبل (٣) . وصدر أمر ملكي ثالث الى ببي نخت بالقيام بغزوة ثانية فقام بالمأمورية خير قيام وأسر رئيسين من رؤساء قبائل السودان مع قائدهم وكثيرا من الغنائم وقطعان الأغنام (٤) . ويستدل من نقوش مقابر جزيرة الفيل أن غزوات المصريين بلغت وقتئذ أرض فوش (٥) . وبهذه الطريقة سهل على ملوك الملكة المتوسطة أن يخضعوا النوبة السفلية وقد كان هذا الأمر من أسهل المسائل على ملوك الأسرة السادسة لولا سقوطها وحصول اضطرابات داخلية .

والفضل في ربط تجارة مصر بالصومال وجنوبي البحر الأحمر يرجع الى حكام جزيرة الفيل الذين كانوا مزودين على ما يظهر بالسلطة على البلاد الممتدة من النيل الى البحر الأحمر . ولا يخفى أن غزوات هؤلاء القوم للصومال كانت خطيرة وصعبة كغزوات النوبة . ولعدم اتصال النيل بالبحر الأحمر اضططر حكام جزيرة الفيل وقت غزوتهم لبلاد الصومال أن يبنوا سفنا يبنوا على البحر الأحمر

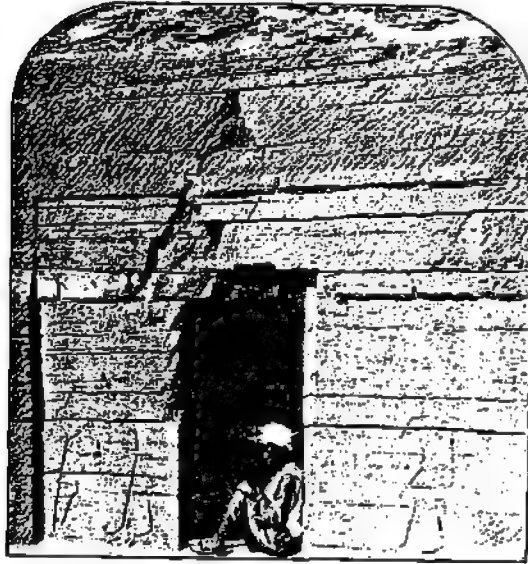
(١) ٣٦٢-٧٤ (٢) ٣٥٦:١ (٣) ٣٥٨:١ (٤) ٣٥٩:١ (٥) ٣٦١:١

قريبة من النيل كالتقصير أولوكوس ليمين (Leucos Limèn) . وروى المصريون الملاحة بتحسينات أدخلوها عليها كاستعمال أحد المجاديف مبكنا^(١) بأخر المركب . تصلا يمد تديره على حسب الإرادة . ودلتنا الآثار أن القائد البحري لبيبي الثاني المدعو إنخت (Enenkheth) أقرمه البدو وفتكوا به ورجال حملته فأصدر الملك أمره في الحبال إلى بيبي نخت بالذهاب نوا لاقاذ جثة إنخت وعقاب البدو ، فنفذ بيبي نخت مأموريته تماما ورجع سالما^(٢) . ومع هذه الغزوات كانت العلاقات التجارية والمواصلات مع الصومال مستمرة سليمة كما أثبتته نقوش مقبرة لأحد مستخدمي رؤساء جزيرة القيل ، فقد جاء فيها أن هذا الموظف سافر مع سيده إلى الصومال أكثر من إحدى عشرة مرة ورجع سالما^(٣) . من ذلك يتضح أن مصر أخذت ترقى تجاريا وحربيا حتى اضطرت في آخر الأمر أن تتدخل في أمور البلاد المجاورة لها وأن تبسط نفوذها عليها ، فلم يعد الفراخنة قنوعين بجيرات قطرم كما أن التجار طعموا في نعم الأقطار الأخرى ، فكثرت التجارة مع الجنوب وأخذت الأساطيل المصرية الملكية شمالاتا تنقل خيرات لبنان وأخصها خشب الأرز من غابات تلك الجهات الغنية . ودلتنا المباحث الحديثة على وجود صلة تجارية قديمة بين القطر المصري وجزر البحر الأبيض المتوسط وهو أمر متظر لا يحتاج إلى دهشة أو استغراب .

ولناسبة جلوس بيبي الثاني على العرش في طفولته كانت مدة حكمه طويلة فقد قال مانيتوان هذا الملك تولى الحكم في السنة السادسة وعاش مائة سنة . وأكديراتوثنيس (Eratosthenes) في قائمته التاريخية أن بيبي الثاني حكم البلاد مدة قرن . أما درج تورين البردى فيدل أن بيبي هذا حكم حوالي تسعين سنة وهو محتمل جدا ، وعليه حكم هذا الملك أطول الأحكام في التاريخ . ولما توفي بيبي الثاني تبعه عادة ملوك مددم قصيرة ويظن بعض الأثريين أن من بين هؤلاء الملوك الملكة نيتوقريس التي نسب إليها كثير من الروايات الخرافية ، وكذلك الملكان إتي وإختب اللذان أرسلتا بعثات لوادى الحمامات لقطع الأحجار اللازمة لمبهم^(٤) ، وهناك أثريون آخرون يجهزون أن هذين الملكين حكما في آخر عهد الأسرة الخامسة . والثابت أن الحوادث التي حصلت بعد وفاة بيبي الثاني لا تزال غامضة تصعب علينا معرفتها ، فنحن لا نزال نجهد كيفية سقوط الأسرة السادسة وطريقة انتقال الملك منها إلى الأسرة السابعة . والمظنون أن الأسرة السادسة حكمت حوالي مائة وخمسين سنة . وقد ألمعنا سابقا إلى أن سلطة حكام الأقسام كبرت تدريجا في أواخر أيام هذه الأسرة حتى انتهى الأمر باستقلال كل منهم وتفكك عرى الدولة فعادت الحال كما كانت عليه قبل حكم الملك مينا . وهكذا بعد ما حكمت القطر حكومة نظامية لمدة تزيد على ألف سنة رجعت الحال إلى أصلها من الفوضى وعدم النظام .

وقبل الفراغ من الكلام على تاريخ المملكة القديمة يجدر بنا أن نفخر بأعمال ملوكها العظام الذين حكموا القطر مدة ألف سنة تقريبا والذين يرجع إليهم فضل توطيد المملكة وجمع قوتها وتوجيه جهوداتها نحو النافع المثمر العائد بالخير والرفاهية . وإذا لاحظنا كل هذا لا نستغرب أن نرى

(١) السكان هرطقة المركب ، (٢) ٣٦٠:١ (٣) ٣٦١:١ (٤) ٣٨٦:١-٣٩٠



شكل ٧٦ - صورة مقبرة حخوف بأسوان
 يلاحظ في الحافة اليمنى للصورة نقوش هيرغليفية
 هي آخر ما ورد في خطاب صاحب هذه المقبرة المذكور في صلب
 الكتاب (مأخوذ عن أندروود وأندروود بنيويورك)



شكل ٧٨ - صفوف أسبوط القرية الحاوية
 لقابر أمراء العائلتين التاسعة والعاشرية
 (مأخوذ عن أندروود وأندروود بنيويورك)



شكل ٧٧ - رأس موباه الملك مرزق
 (دار تحف القاهرة)

الشعب المصري عبد هؤلاء الفراعنة تجميلا لهم وتعظيما . وقد استمر المصريون يبدون هؤلاء الحكام حتى الأسرة السادسة والعشرين ، كما يتضح من منابرة القوم على تعيين كهنة اخصائين لهؤلاء الملوك في تلك الأوقات التالية . وصار المصريون في عهد الاصلاح بأواخر التاريخ المصري يسترجعون ديانة ومعلومات ونظام حكومة المملكة القديمة بعد ما مضى عليها نحو ألفي سنة . ولا تزال آثار هؤلاء الأقوام كالمعابد والمقابر والأهرام المنتشرة على طول القطر لعمدة أميال تلقى في نفس من يراها الاعجاب والدهشة ، وقد شيدت معظم هذه الآثار على سلسلة جبال ليبيا بجافة الصحراء الغربية ، وهذه الى الآن تشهد لأصحابها بتوقد الذهن وعظم المجهود والبراعة في الأعمال الآلية (الميكانيكية) والأنظمة الداخلية وبناء السفن لعبور البحار وارتداد البلاد للكثف . والحق يقال ان هؤلاء القوم هم الذين ربطوا التجارة المصرية مع البلاد الأجنبية السحيقة حتى أواسط إفريقيا وحسنوا فن الحفر والنقش وقدموا فن العمارة فشيّدوا العمدة العظيمة الشيقة والمباني الضخمة ذات العمدة وروعوا في سياسة البلاد داخليا وخارجيا فسنوا قانونا متينا عادلا وأنجبروا رجالا متضامين في القضاء . وقد اعنى أهالى المملكة القديمة بديانتهم كثيرا لشدة اعتقادهم أنهم في الحياة الأخرى محاسبون على أعمالهم . وهم للآن أقدم أناس معروفين اعتقدوا بالبعث بعد الموت وأن الثواب في الآخرة على قدر الخدمات في الأولى . وجملة القول ان أعمال هؤلاء القوم ومدنيتهم انتشرت في العالم فأعجب بها الخلق أكثر من أية مملكة أخرى .

بقي علينا الآن أن نتفقد الحوادث لنعرف اذا كان اضمحلال المملكة القديمة وفراط عقدها استمر حتى أفسد البقية الباقية من النخوة القومية أو أن هذا الانقلاب كان حادثا عرضيا فقط عاجلته أذهان وأيدي رجال مصر الماملين فأرجعوا الميساء الى مجاريها وساعدوا بلدهم على التقدم والرقى حتى أدهشوا العالم .

الكتاب الثالث

المملكة الوسطى - عهد الاقطاعات

الفصل الثامن

اضمحلال منف و بزوغ شمس طيبة

لما سقطت الأسرة السادسة تفككت عرى الحكومة وعمت الفوضى البلاد وساد فيها التلف وكثر الخراب . أما الأشخاص المسئولون عن هذا الانقلاب العظيم فلم نهند اليهم لأننا نظن أنهم كانوا معادين للملكة القديمة ، لأنهم نهبوا المعابد ونزبوا الهياكل والمقابر والنقوش والرسوم البديعة بنظام وتدير . وحطوا التماثيل الجرانيتية الجميلة والصوانية وألقوا بعضها في الآبار كما ثبت بما وجد بيئر المعبد المقام على الطريق الموصل لهرم الجيزة الثاني . ولذلك استدلتنا أن أعداء الملكة القديمة صبوا نعمة غضبهم على كل من له علاقة بأعدائهم حتى حل بالأمة الدمار والخراب . قال مانيتو موجزا ان بعض الأمراء وقتئذ اجتهدوا في ارجاع الأمور الى مجاريها فأسسوا حكومة مركزية منفية اعتبرها هذا المؤرخ الأسرة السابعة . وروى مانيتو أيضا أن هذه الأسرة سقطت ثم تبعتها الأسرة الثامنة أفرادها أذئاب العائلات المنفية السابقة . ويستدل من قائمة أسماء الملوك المحفوظة بمعبد العراية أن ملوك هذا العصر المضطرب اعتبروا أنفسهم من نسل الأسرة السادسة ولكننا لم نثر لأن على هرم أوقبر لهؤلاء الأقوام . وليس في محاجر طور سيناء ووادي الحمامات ذكر مطلقا للملك الأسرتين السابعة والثامنة مع أنها تحوى كثيرا من النقوش لفرعنة مصر العظام، ولذلك لا يبعد أن كان ذلك العصر عهد فوضى وخراب عجز فيه ملوكه وأمراؤه عن تشييد مقابر أو آثار لهم نستدل منها على حوادث زمنهم . وتفيد نقوش محاجر حاتوب أن أمراء ذلك القسم المعروف قديما بقسم الأرنب جمعوا قوتهم وقتئذ وأعلنوا استقلالهم وأزخوا حوادثهم بسنن حكهم بلا اعتبار للبيت المالك . وتنادى هؤلاء الحكام في عصيانهم فكذب أحدهم قورشاً فتخرف فيها بأنه نجى بلده من ظلم واضطهاد البيت المالك⁽¹⁾ . وبعد ذلك بمدة وجيزة ظهرت بجبهة إهناس أسرة قوية اغتصبت الملك من الأسرة الثامنة المنفية التي بقيت تدعى لنفسها حق الملك مدة قرن تقريبا .

والظاهر أن أمراء إهناس ردوا بعض النظام الى القطر وأرجعوا اليه السكينة والطمأنينة . أما إهناس فبلدة واقعة جنوبي الفيوم وهى مركز عبادة حوريس منذ مبدأ حكم الأسر . وأقل من ارتقى عرش مصر من هؤلاء الإهناسيين هو أخثويس (Akhthoes) كما روى مانيتو ، واليه ينسب حب الانتقام والجهروت والغلظة أكثر من سواه وقتئذ . قال مانيتو ان هذا الملك جن فى أواخر أيامه ثم اقترسه أحد التمانيج . وحكم مصر فى إهناس ملوك الأسرتين التاسعة والعاشره وكانوا ضعيفى السلطة لم يتركوا بعدهم آثارا عظيمة تثبت قدرتهم وكفائتهم . ولم نثر على نقوش أثرية لهاين

الأستريين الا ماله علاقة بالثلاثة الأجيال الأخيرة من حكمهما لما أخذ حكام سيوط يحفرون مقابرهم في الصخور ويدقون أعمال أستريتهم العظيمة^(١) . وجاء في هذه النقوش أن حالة القطر المصرى وقتئذ كانت سيئة وأن ملوك إهناس قاوموا ذلك السوء وحاولوا ازالته . واليك ترجمة ما جاء بقبر أحد أولئك الأمراء السيوطين : " كان كل موظف يدير عمله كالعتاد بلا مشاجرة ولا مطاخنة بالقوس والنشاب ، وبطل قتل الطفل جوار أمه وسفك دم الرجل قرب زوجته ، ووقف فعل السوء وضرر الرجل لبيته"^(٢) . واليك ترجمة نقوش أخرى : " إذا جن الليل مدخني كل من نام في الطريق لأنه أصبح آمنا كالذى يقطن داره ، ذلك لأن فزع الأئمة من جنودى كان خير حام له في وحدته "^(٣) .

وعلاقة حكام سيوط مع ملوك إهناس كانت متينة وحسنة للغاية ، فقد جاء أن أحد هؤلاء الملوك حضر مرة جنازة حاكم سيوط وأن ابنة هذا الحاكم تولت إدارة شؤون قومها بعد وفاته وأرسلت ابنها الصغير المدعو ختى ليتعلم مع أولاد ملوك إهناس^(٤) ، فلما كبر هذا الابن تسلم من أمه مقاليد الحكم وقد ترك لنا في قبره نقوشا تشير الى كثرة رضاء وتقديم قسم سيوط . وبما ورد عن هذا الحاكم أنه حفر الترع وقال الرسوم وأكثر المزروعات وقطعان الغنم وجهاز نفسه بجيش برى وأسطول بحرى لمكافحة الطوارئ . من ذلك صار لحكام سيوط عند ملوك إهناس مكانة عظيمة حتى صدر الحكم الملكى في يوم من الأيام بتعيين ختى المذكور "حاكما على مصر الوسطى"^(٥) .

في هذا الوقت ظهرت أسرة عظيمة ذات نفوذ كبير يجتوبى القطر أخذت تنافس حكام أقسام مصر عزة ورقيا . أما مقر هذه الأسرة فيبعد عن منف جنوبا بنحو أربعين ميلا وعن الشلال الأول شمالا بأقل من مائة وأربعين ميلا ويقع جنوبى المنحاة النيل القريب من البحر الأحمر (جهة فقط) بحوالى أربعين ميلا . والباحث في هذا المكان من الوجهة الجغرافية يجد أن سلسلتى جبال وادى النيل تسلمان وتبعدان عن النهر وتحيطان سهلا شاسعا خصبا نشأت في وسطه مدينة يقال لها طيبة ، ولا يزال هذا السهل يحوى للآن أعظم آثار المدينة القديمة الفذة في المعمورة . وبديهي أن مدينة طيبة أقدم مدينة أثرية في العالم وقد كانت في العصر الذى نحن بصدده قرية صغيرة . أما عاصمة إقليمها فكانت أرمنت مقر إحدى أسر أمراء الصعيد التى امتاز رؤساؤها باسمى إِنْتِف ومِتْوَحْوْتب . وفي آخر عهد ملوك إهناس قوى نفوذ هذه الأسرة الأخيرة فرقى أحدهم المدعو إِنْتِف بأمر ملكى الى رتبة " محافظ باب القطر الجنوى "^(٦) . ولما كثرت المعاملات بين أقسام الوجه القبلى ومدت كل منها يد المساعدة الى الآخر فى مبادلة الفلال والحبوب^(٧) وغيرها جمع إِنْتِف أقاليم مصر الجنوبية من الشلال الأول الى طيبة تحت كلبته وشق عصا الطاعة على إهناس واعتصب الملك منهم وألف هو وخلفاؤه مملكة مستقلة مركزها طيبة . وقد اعتبر إِنْتِف هذا مؤسس ملوك طيبة فى العصور التالية فأقام أمراء المملكة الوسطى تماثلا له بمعبد طيبة لعبادته بين تماثيل أجدادهم السابقين^(٨) .

(١) ٣٩١-٤١٤ : ١ (٢) ٤٠٤ : ١ (٣) ٣٩٥ : ١ (٤) ٤١٣ : ١ (٥) ٤١٠ : ١ (٦) ٤٢٠ : ١

(٧) ٤٠٧-٩ : ١ (٨) ٤١٩ : ١

وأخذ حكام أسيوط يتقمون من حكام طيه ليخضعوهم لسلطة إهناس ققام تفيجي (وهو ابن ختي حاكم سيوط على الأريج) وحشد جيشا وأسطولا زحف بهما جنوبا على طيه، فالتحم بجيوش أعدائه على شاطئ النيل الغربي وهزمهم واقتنى أترهم حتى "قلعة باب القطر الجنوبي" وهي العرابية المدفونة على الأريج^(١). ثم التحم قسم آخر من جيش تفيجي مع بعض قوات طيه على جهة النيل الشرقية فانهمز الطيبون أيضا. وبعد ذلك حصلت معركة بحرية بين أسطولي الطرفين انتهت بأسر أسطول طيه وغرق قائده في النيل^(٢). على أتر ذلك رقى ختي رقى ابن تفيجي "حاكما عسكريا للأراضي كافة" و"سيلا أكبر لمصر الوسطى"^(٣). ولما توفى تفيجي استمر ختي مخلصا للملك مريكارع الإهناسي الآيل الى السقوط، وأخضع ختي ثورة ثانية بطيه، والظاهر أنه استصحب الملك وقتئذ ليريه خضوع أهل طيه له ثم عاد معه. وكان ختي يفخر كثيرا بأسطوله لما رأى وحدائه منتشرة عدّة أميال على مياه النيل حتى مدينة سيوط. ولما وصل الملك مع ختي الى مدينة إهناس قابلهما الأهالي بإنتهاج عظيم وصفه ختي بقوله "لقد أقبلت علينا المدينة مسرورة بسيدها..... نساء ورجالا وكهولا وأطفالا"^(٤). ومن ذلك يتضح أن قوش مقابر سيوط كانت خير معين لنا على معرفة تاريخ أواخر العهد الإهناسي (شكل ٧٨).

وبالرغم من هذا كله فإن حظ طيه أخذ يعلو ويحسن لأنه لما توفى إنتف المذكور أنفا تولى بعده حاكم آخر يقال له إنتف أيضا، اتحل لنفسه الألقاب والأوصاف الفرعونية وكتب اسمه داخل خانة ملكية أيضا، وأصبح هذا الشخص بحكم التاريخ إنتف الأول مؤسس الأسرة الحادية عشرة. وقد استعمل هذا الملك العنف والشدة مع الإهناسيين فانتقم العرابية وقسم طية وأوصل حدود مملكته الى "باب القطر الشمالي"^(٥) ولعله المعروف أيضا "بمحسن باب القطر الجنوبي" الوارد ذكره في نصوص تفيجي^(٦). وحكم إنتف هذا أربعين سنة ثم عقبه ابنه المدعو إنتف الثاني الذي لا تزال نجمله صلته وتاريخه للآن^(٧). ثم توفى هذا قتيبه في الملك المدعو متوحوتب الأول ثم متوحوتب الثاني. ويظن بعض الأثريين أن الملوك المدعوين متوحوتب كانوا فرعا من أسرة إنتف المذكورة واليهم يرجع الفضل في بسط سيادة طيه على القطر المصري. فهاورد عن متوحوتب الثاني أنه أخضع الوجه البحري ودون انتصاره على جدر معبده في جيلين فصوّر نفسه ضاربا المصريين والأجانب معا وكتب في الحاشية ما ترجمته: "هذا ضم رؤساء وجهي مصر وغزا الوجه القبلي والبحري والبلاد الأجنبية وقسم مصر وتوسع قبائل من البدو وأرضي مصر"^(٨). ويرجح أن سقوط إهناس حصل حوالي منتصف القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد، وعلى أثره انتقل الملك من الشمال الى الجنوب. وتقدر المدة من سقوط الأسرة السادسة (أواخر عهد الملكة القديمة) الى منشأ الأسرة الحادية عشرة الطيبية بثلاثة مائة سنة تقريبا، وفي أثناءها انصمت مصر تحت إدارة أمراء أقوياء قادرين على كبح جماح المتشردين. ولكننا لا نعرف بالضبط العلاقة التي كانت بين ملوك

(١) ٣٩٦:١ (١) شرحه (٢) ٣٩٨:١-٢٣:١ (٣) ٤١١:١ (٤) ٤٢٣:١ (٥) ٤٢٣:١ (٦) راجع ملاحظة (١) هنا (٧) ٤٢٣:١ (٨) H ٤٢٣:١

الأسرة الحادية عشرة ، إنما المقروض جدلاً أن الملك انتقل وراثياً من الأب الى الابن . ومع ذلك فهناك شواهد تشير الى حصول نزاع بين أفراد تلك الأسرة على عرش مصر ولذلك لا يمكننا الجزم بترتيب حكم هؤلاء الأفراد بالضبط .

في عهد الأسرة الحادية عشرة أخذت مصر ترسل البعثات الملكية الى البلاد النائية بعد ما مضت على وقوفها مدة طويلة ، فأرسل الملك متوحوتب الثالث الملقب بنبتاورغ وزيره المدعو أممنصحت الى وادى الحمامات لطلب الأحجار اللازمة للتابوت الملكي . وقد ترك الوزير بتلك الجهة نفوساً عظيمة تتلخص في أنه مضى هناك خمسة وعشرين يوماً مع عشرة آلاف عامل . ويُسبَرُ هذا أكبر عدد للعمال ورد ذكره على الآثار المصرية حتى ذلك العهد . وروى هذا الوزير أيضاً أن المعبود من إله تلك الجهة أظهر معجزات وكرامات استغرب لها الناس طرّاً ، من ذلك أنهم لما وصلوا الى تلك الجهة وجدوا غزالة وضعت صغارها على الصخرة التي استخرج منها العمال الغطاء اللازم للتابوت الملكي ، وبعد ذلك هطلت الأمطار بكثرة فلاتت بئراً هناك لحافته فأكل العمال شغلهم بنسابة السهولة والسرعة . واليك ترجمة ما قاله أممنصحت عن ذلك مفتخراً : " وطادت حمتي بلا خسارة فلم يتوف منها أحد ولم أفقد شخصاً ، ولم يهلك حمار ولم يهن عامل " (١) . والمعروف أن هؤلاء العمال جمعوا من جهات القطر جميعها ، لذلك كانت سلطة الملوك الثلاثة المدعويين متوحوتب كبيرة . وستظهر لنا علاقة هؤلاء الملوك بحكام أقسام مصر عند الكلام على الأسرة الثانية عشرة الطيبة التي سنذكرها في القريب العاجل .

ولما توفي متوحوتب الثالث تولى بعده متوحوتب الرابع وهو المدعو نب حيت رع وعزرا النوبة وأنجز مشروعات الأسرة السادسة هناك بعد وقوفها . وتفصيل ذلك أنه أرسل في السنة الحادية والأربعين من حكمه وزيره المالى المدعو خيتي في أسطول نيسى الى بلاد الواوات لاختضاعها (٢) . ومن مآثره أيضاً أنه شجع العمارة فشيّد معبداً جديلاً على صخور طيبة الغربية حلاه بشرفات بديعة قلبتها الملكة حمتشيسوت بعد ذلك لما شيّدت معبداً بالدير البحرى ، ويعتبر معبد متوحوتب الرابع هذا أقدم آثار طيبة المعروفة للآن وكان العثور على هذا المعبد حديثاً ، وقد وجدت على جدره صور بارزة لأجانب يقدمون الجزية للملك ، والظاهر أن طول مدة حكم هذا الملك (التي قربت من أربعين عاماً) ساعدت كثيراً على توطيد سلطته حتى اعتبره القوم بعد وفاته بعدة قرون المؤسس الأكبر لسيادة طيبة .

وتولى الملك بعد ذلك متوحوتب الخامس فتأبر على غزو النوبة والسودان كما فعل قبله ملوك المملكة القديمة . ثم وضع شئون التجارة مع البلاد الأجنبية في يد موظف ماهر يقال له هنو " محافظ باب القطر الجنوبي " ووزير المالية أيضاً . وأمر وزيره هنو بهذا بغزو سواحل البحر الأحمر فسافر إليها عن طريق وادى الحمامات في قوة تبلغ ثلاثة آلاف رجل مزودين بما يحتاجون إليه من

مأكل ومشرب الخ مما يشير الى حسابان هذا الوزير ما عسى أن يحصل من المناصب في أثناء الطريق . وقد جاء في أخبار هذه الرحلة أن كل فرد منها كان يعطى له اثناء ان من الماء وعشرون كعكة صغيرة كل يوم مدة احتراق الصحراء والمكوث بوادي الحمامات (١) . وعليه فمجموع المصروف اليومي لرجال هذه الحملة بلغ ستة آلاف اناء من الماء وستين ألف كعكة . واتخذ هنو في مسيره كل وسائل الأمن وسهولة الانتقال فحفر في الطريق نحمس عشرة بئرا ومستودعا للمياه (٢) ومن اعلمها بالحمايات اللازمة (٣) . ولما بلغ البحر الأحمر بنى مراكبا أرسله الى الصومال ثم عاد الى وطنه عن طريق وادي الحمامات جالبا معه قطعاً حجرية جميلة ليصنع منها تماثيل للعابد الملكية (٤) . ويقدر حكم متوحوتب الخامس بخماني سنوات على الأقل (٥) .

ولما توفي متوحوتب الخامس انقرضت الأسرة الحادية عشرة وابتدأ حكم الأسرة الثانية عشرة التي رأسها أمنمحات الأول . وقد ذكرنا سابقا أن شخصا بهذا الاسم كان معينا وزيراً لمتوحوتب الثالث والآن يزيد أن هذا الرجل قوى قوته وعظمت سلطوته فاتزع الملك من آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة . ويظن أن هناك بعض الصلة الدموية بينه وبين هذه الأسرة لأن أسرته اعتبرت إتف جدًا لهم فقدمه أفرادها ونصبوا له تماثلاً بالكرنك (٦) . وتقدر مدة حكم الأسرة الحادية عشرة بنحو مائة وستين سنة (٧) وكان سقوطها حوالي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد . وهي قليلة الآثار وأهمها صغيرة ومشيدة باللبن على سهول طيه الغربية وقد بقيت مصونة مدة ألف سنة تقريباً (٨) ثم خربت وتلفت حتى كادت تحفر وقد كشفها مريت الفرنسي الأثري حديثاً . وتعتبر هذه الأسرة مؤسسة للحكم الطبي العظيم .

وصادفت أمنمحات الأول صعوبات جمّة ومشقات كبيرة في اعلاء مجده ورفعته مقامه ، من ذلك أنه أرسل أسطولاً مكوثاً من عشرين سفينة مصنوعة من خشب الأرز (٩) طرد بها الأعداء من القطر المصري . ثم قامت في وجهه مشا كل داخلية كبيرة سببها حكام الأقبام الذين ما فتئوا يمتهدون في قطع صلتهم به واعلان استقلالهم عنه فما ورد عنهم أنهم أصلحوا مقابر أجدادهم الذين أسقطوا المملكة القديمة حفظاً لذكراهم (١٠) ورغبة منهم في الافراد بالحكم وعدم اطاعة البيت المالك . ويلاحظ أن ملوك الأسرة الحادية عشرة قللوا كثيراً من نفوذ هؤلاء الحكام ، فلما أتى أمنمحات أخذ يطوف القطر ويخضع أقسامه العاصية ويسط العدل ويمنع المشاغبات والمنازعات بين الحكام حتى قال ٤٤ حاكم قسم الوعل (Oryx-nome) ما ترجمته : "لما ذهب جلالة الى هذا القسم بين الحدود الجنوبية ووطد الحدود الشمالية كالسماه وقسم النهر في النصف الى قسمين جعل النصف الشرق "لأفق حوريس" واصلاً للجيال الشرقية . وكان مجيء جلالاته ساطعاً مثل أتوم (Atum) — أي الشمس — ومصلاً لكل تلف ومعيداً لكل بلد ما سلبه منه جاره وميناً لكل مدينة حدودها بمالم كالسماه ومقسماً المياه كما هو مودون في النصوص القديمة . كل هذا فعله جلالاته لشغفه بالعدل وشدة ولوعه به" (١١) .

(١) ٤٣٠:١ (٢) ٤٣١:١ (٣) ٤٥٦:١ (٤) ٤٣٣-٤٣٢:١ (٥) ٤٦٨:١ (٦) ٤١٩:١ (٧) ٤١٨:١ (٨) ٥١٤:٤ (٩) ٤٦٥:١ (١٠) ٩-٦٨٨:١ (١١) ٦٢٥:١

ولم يكن من السهل على أمنمحت الأول أن يرجع لمصر ما حازته من العز أيام المملكة القديمة لأن حالة البلاد الداخلية لم تعد تسمح بهذا النظام. لحكام الأقسام عادوا أقوياء فلم تبق أمامه وسيلة لاختضاعهم الا استعمالها وأخذهم بالحسنى والرفق والكرم. ويستدل من نقوش مقبرة بيجمة بنى حسن جاء فيها أن أمنمحت الأول صنع أحد أتباعه المدعو خنوم حوتب قسم الوطى (سمع) (Oryx-nome) في شرق النيا وقد سبق أن الملك أوضح بعض حدود هذا القسم^(١)، والظاهر أن أمنمحت أخذ يمين في كل قسم الشخص الأكثر ولاء وطاعة لأوامره، فتمكن بهذه السياسة الحكيمة الرشيدة من تنظيم المملكة وتأسيس عهد سعيد آخر لمصر يعرف عند المؤرخين بعصر المملكة الوسطى الذى يتبدى حوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد.

(١) ٦١٩:١ - ٦٢٩

الفصل التاسع

المملكة الوسطى أو عهد الاقطاعات ، الحكومة ، المجتمع ، الديانة

أجبرت الظروف ملوك الأسرة الحادية عشرة أن يقيموا بطييه مدة حربيهم ونضالهم مع الوجه البحرى . ولما تولى أمنمحت الأول عرش مصر صادفته صعوبات جملة لما حكم القطر في طييه لأن معظم حكام الأقسام كانوا ميالين لملوك إهناس ولأن العادة اقتضت منذ سقوط ملوك طييه ، أن يكون مركز الحكم في الجهات الشمالية ، ولم يتذ عن القاعدة الأخيرة الا ملوك الأسرة الحادية عشرة . بناء عليه اختار أمنمحت الأول مركز حكومته على شاطئ النيل الغربى جهة منف وعلى بعد بضعة أميال منها ولكننا لا نزال نجهد موقع هذا المركز بالضبط ، ونظن أنه قريب من لشت حيث كشف هرم أمنمحت المهتم . وأطلق أمنمحت اسم إئتوى أى " فاتح القطرين " على مركز اقامته هذا ونقش ذلك على الآثار وشيد حولها سياجا مسلحا شيها بالقلاع رمزها الى مناعة المركز الذى أدار فيه سياسة البلاد بحكمة ومهارة لا تعرف للمل ولا اليأس . وقد تبعته ذريته وسارت على سنوالة بحكمة وعقل فمظم مركز الأسرة وعلت منزلتها فى التاريخ القديم .

ومعلوم أن القطر المصرى كان مجزأ وقتئذ الى أقسام صغيرة لكل منها حاكم تحت نفوذ الفرعونى . لكن هؤلاء الحكام لم يكونوا خدما أو موظفين ملكيين ، زد على ذلك أنهم كانوا متبايخى المتزلة فمنهم الكبير ومنهم الوضيع كما هى الحال الآن بين الباشا والبك ولذلك شبهت حال القطر حينئذ بأوروبا فى الجزء الأخير من القرون الوسطى ، ومنه يتضح أن ضم هذه الأقسام تحت نفوذ حاكم واحد تطلب حاكما شديدا رأى قوى الارادة لأن أى وهن أو ضعف فى مزيمته يفكك عرى الدولة ويرجعها الى زمن الفوضى والعصيان . وترجع معظم معارفنا عن هذه المصور الى ماورد من الأخبار فى مقابر حكام الأقسام وآثارهم وعلى الأخص الموجود منها بمصر الوسطى . أما آثار ومقابر الوجه البحرى وبقى الوجه القبلى فقد لحقها التلف فأصبحت فى خبر كان .

ولنبدا بالكلام على حكام الأقسام فنقول أنهم كانوا على يقين بأنهم سلالة قوم عريقين يرجع تاريخهم الى أربعة قرون أو خمسة تقريبا أى الى عهد المملكة القديمة^(١) وأن أجدادهم كانوا عظيمى المركز فى أقسامهم فأعلنوا استقلالهم فى سابق الزمان وأزخوا أعمالهم بعد حكمهم وحاربوا أحيانا البيت المالك وقاوموا نفوذهم بالقوة^(٢) . ومن ذلك يظهر أن هؤلاء الحكام كانوا فى عهد الأسرة الحادية عشرة أشبه بفراعنة صغار شيوا قصورا شائعة أقل حجما من قصور الفراعنة لكنها حوت حاشية كبيرة

ورئيسا لولاية وهيئة قضائية وعدة دواوين (شكل ٧٩) وكتبة ومستخدمين . وقصارى القول أن قصور هؤلاء الحكام حوت كل ما تحتاج اليه حكومة في عاصمة ملكها (شكل ٨٠) . وبهذه الوسيلة تمكن كل حاكم من تحصيل عوائد أرض قسمه والاشراف على أمور أهله الدينية وقيادة جيشه الثابت النظام والتدريب ، وعليه فقد كانت قوة هؤلاء الحكام لا يستهان بها . وجاء في الآثار أن حاكم قسم سمع (الوعل) (Oryx-nome) غزا بلاد النوبة بأربعمائة عسكرى وقاد حملة مكونة من ستمائة عامل الى مناجم الذهب على طريق قفط^(١) . وورد أيضا أن حاكم قفط أرسل بعثة الى محاجر الحمامات أحضرت له قطعتين من الحجر طول كل منهما سبع عشرة قدما ثم أوفد بعثة أخرى جلبت صخرة طولها عشرون قدما وست بوصات جرها مائتا رجل في طريق الصحراء الواصل الى النيل والبالغ طوله حوالى خمسين ميلا^(٢) . وروى أيضا أن حاكم قسم الأرنب (Hare-nome) جلب رجالة قطعة من المرمر من محاجر حاتنوب ينيف وزنها على ستين طنا جرت على طريق طوله عشرة أميال حتى وصلت الى النيل ، وقد عمل من هذه الصخرة تمثال لهذا الحاكم يقرب ارتفاعه



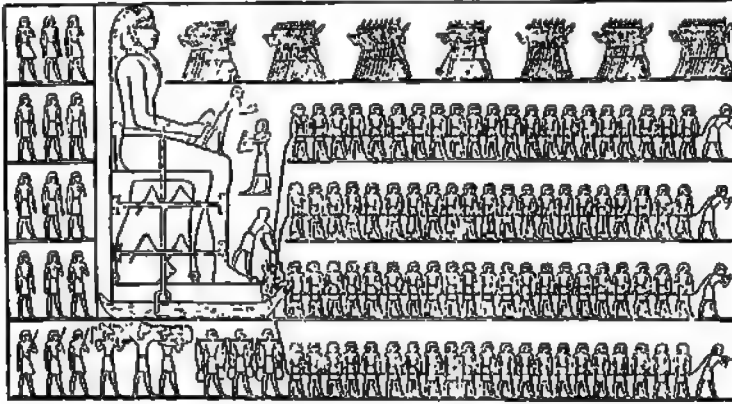
شكل ٧٩ - ادارة الأمير شنوم حوتب بنى حسن . يلاحظ في القسم الأيسر لرسم رئيس المالية ين أمامه الذهب والفضة وفي القسم الأوسط وكيل الرئيس يدون مقادير الحبوب الواردة الى الثونة (الكاتبة في القسم الأيمن للرسم)

من اثنتين وعشرين قدما . ولم يقتصر الحكام على ذلك بل شيّدوا أيضا معابد^(٣) ومباني عمومية في مدنهم الرئيسية^(٤) كما أكثروا من تعليم الحرف والصنائع مدفوعين لذلك برغبتهم الشخصية ومراقبين ذلك بأنفسهم ، فصارت لهم بذلك اليد الطولى في رقى داخلية البلاد وأنظمتها بدرجة غير مسبوقة النظير^(٥) . وجاء عن حاكم قسم سيوط المتمنى الى ملوك إحناس أنه قال : " كان عندى كثير من الحبوب . ولما حصلت المجاعة فى قسمى وزعت على القوم الحبوب بمكالى (خا) و (حكت) ، وسمحت لكل فرد أن يجلب لنفسه الحبوب ، وكذا الزوجات والأرامل والأبناء ، وسددت كل قصص لم يكن مستوفيا منذ عهد أبائى ، وأكثرت من قطعان الغنم فى المراعى حتى أصبح لكل رجل أعظام عدّة . وكان البقر يلد اثنين كل مرة فصار بين صفاره كثير من العجول^(٦) . وما جاء عن هذا الحاكم أيضا أنه حفر ترعة جديدة ضاعفت كثيرا من خيرات أرضه^(٧) . ويلاحظ أن العدل والعطف على الرعية لم يكن مقصورا على الحكام بل شمل أيضا الموظفين التابعين لهؤلاء الحكام ، من ذلك ما ورد عن أحد مساعدى المالية لحاكم قسم طيبة أيام الأسرة الحادية عشرة

(١) ٥٢٠:١ - ٥٢١ (٢) ٢٢٥:١ ملاحظة (ج) (٣) ٤٠٣:١ - ٢٢٧:١ ملاحظة (أ)

(٤) ٦٣٧:١ (٥) ٦٣٨:١ (٦) ٤٠٨:١ (٧) ٤٠٧:١

هذا ترجمته : "كنت أجلب المأكولات والأغذية الى جبلين (Gebelen) مئة سني الفحط لما بلغ عدد الجياع أربعمئة نسمة ، ولم أعتصب ابنة رجل ولا حقله ، و ربت عشرة قطعان من الغنم وجعلت كل قطع تحت ادارة رجل خاص ، و ربت قطيعين من البهائم ، فطيعا من الحبر ، وأكثر من تربية الحيوانات الصغيرة على اختلاف أنواعها ، و بنيت ثلاثين سفينة أولام أعقبها بثلاثين أخرى . ولما حصل لجبلين الكفاية أرسلت الاعانة الى إسنا و تيفيوم (Tuphium) . وهكذا ساعد قسم طيبة مدينة جبلين بالاعانات فلم تعد محتاجة الى مساعدة الأقسام الأخرى" (١) ، ومنه يستدل أن كل حاكم قسم كان يطمع أن يترك لنفسه أثرا بجيلا في نفوس قومه . والفضل في معرفة هذه المعلومات كلها يرجع الى ما تركه لنا هؤلاء الحكام من النقوش على مقابرهم مما خلد ذكركم للآن . ولعل نقوش أميني حاكم قسم الوعل الواردة على قبره في بني حسن أقطع بهان على عناية هؤلاء الحكام بالرعية وهاك ترجمتها : "لم أسئ معاملة ابنة رجل من القوم ولم أظلم



شكل ٨٠ - صورة تمثال كبير من المرمر ارتفاعه اثنا عشر قدما ، مقول على زحافة يجرها بالخيال مائة و سبعون واثنا من الرجال المصطفين أربعة صفوف . مأخوذة عن مقبرة جبهة البرشة يرجع تاريخها الى عهد الملكة الوسطى

أرملة ولم أمتن فلاحا . اني لم أطررد راصيا ولم أخترق أشغالي عمالا بلا أجر . وبهذه الطريقة زالت الكتابة عن قسيمي وانعدم الجوع وقت حياتي . ولما حصل في زمني الفحط اجتمعت في زرع ارض قسيمي حتى آخر حدوده الجنوبية والشمالية وأطعمت سكانه فلم يجمع منهم أحد . وكنت أسوى العطاء للأرملة والمتروجة ولل كبير والصغير . ولما وافت زيادة النيل أخذ كل واحد محصول أرضه ولم آخذ منه شيئا" (٢) . هكذا كانت رغبة حكام الأقسام في تسجيل أعمالهم الحسنة المجيدة التي تتجسم فيها الرأفة الأبوية ، ولا شك أن مثل هذه الخصال والمعاملة الشخصية اليومية بين الحكام وسكان أقسامهم اعتبرت وقتئذ من نعم الإله وعطاياه الجزيلة .

وأملك حكام الأقسام نوطان : نوع وصل الى ملكهم بالميراث من آباؤهم ونوع ثان وهب لهم بأمر ملكي يتمتعون به مدة حياتهم بعد وفاة سلفهم في المركز (٣) . وكان يتحتم على فرعون أن يتبع

(١) ٤٥٩ : ١ (٢) ٥٢٣ : ١ (٣) ٥٢٦ : ١

طريق الوراثة الشرعى وقتئذ والذى ينص على انتقال الوراثة الى أكبر البنات فقط ، وقد أُلغيت سابقا الى مثل هذا الأمر عند الكلام على وفاة حاكم سيوط وتعيين ابنته بأمر ملكى حاكمة على قسم والدها حتى كبر ابنها وتسلم مقاليد الحكم^(١) . وقد أظهرت لنا نقوش مقابرى حسن كثيرا من هذه المسائل الوراثية ، من ذلك ما جاء بمقبرة خنوم حوتب عمدة مدينة منات خوفو أهم مدن خط "أفق حوريس" التابع لقسم الوعل وهذا ملخصه : ان أُمِنِحَت الأول لما تولى الملك عين هذا الرجل فى الوظيفة المذكورة ثم عينه بعد ذلك حاكما عاما على القسم جميعه ، ولما تولى سينوستريس الأول الملك عين ولدى خنوم حوتب المدعوى نَحْت و أُمِنِي وريثين له بعد وفاته . وعهد جلالة الملك الى الابن نَحْت بأن يكون عمدة على مدينة منات خوفو والى الابن الثانى أُمِنِي الذى سبق ذكره عند الكلام على قسم الوعل برياسة هذا القسم نفسه . ثم ان ابنة خنوم حوتب تزوجت بموظف كبير بالقصر الملكى يدعى تَهْرِي وزير الملك وحاكم حاصمته ، كان فيما سبق حاكم قسم الأرنب المجاور . واقتضت الإرادة الملكية طبقا للقانون أن يعين سليل هذا القران المدعو خنوم حوتب أيضا عمدة لمدينة منات خوفو بعد وفاة خاله نَحْت ، ثم تزوج هذا الابن خنوم حوتب بالسيدة خيتي كبرى كريمات حاكم قسم ابن آوى المجاور له ، فأصبح لأبى أنجال خنوم حوتب الثانى حق فى حكم قسم ابن آوى عن طريق والدته - وقد تم ذلك فعلا بأمر ملكى . وخلف خنوم حوتب الثانى نجلا ثانياً أُغْدَق عليه الملك شريف الألقاب فى القصر الملكى ثم عينه بعد ذلك عمدة منات خوفو بعد وفاة والده^(٢) . من ذلك يتضح أن فرعون مصر كان مضطرا بحكم الظروف والقوانين أن يراعى أصول الوراثة وأن يظهر احترامه اللازم وبجاملته الواجبة لأفراد الأسر لحكام الأقسام وقتئذ .

ولآن لم نتأكد مقدار نفوذ البيت المالك على حكام الأقسام ، وكل ما دللنا عليه الآثار أنه كان للملك ثواب فى أقسام مصر لحراسة أملاك الحكومة ومفتشون على "أملاك الساج" للإشراف على قطعان الغنم التابعة للملك^(٣) . والظاهر أن حكام الأقسام كانوا يجمعون الضرائب من الرعية لتوصيلها الى البيت المالك . قال أُمِنِي حاكم قسم الوعل المذكور آنفا : "كل دخل البيت المالك كان يمر تحت يدي" . ولا بد أن الإدارة المالية كانت هى القوة العاملة بين البيت المالك وحكام الأقسام لأن أملاك الحكومة انتشرت فى أنحاء القطر ، وقد ذكرنا فيما سبق أن هذه الأملاك كان يشرف عليها موظفو الحكومة أو حكام الأقسام كأُملاك موهوبة لهم من الملك . وقال أُمِنِي ان جلالة الملك أرسل له ثلاثة آلاف نور لتربيتها ، وكان يرسل لجلالته تقريرا سنويا عنها ويبعث لجلالته بجميع الأيراد دون أن يحجز منه شيئا لنفسه^(٤) . وكتب نَحْت حوتب حاكم قسم الأرنب على جدر قبره بالبريشة مفتخرا بهذا الخصوص : "لقد ربيت عددا عظيما من غنم الملك وعددا آخر (ورثته من والدى) فى القسم الذى كنت أديره"^(٥) . ولم نبتد الى الآن عن مقدار أملاك الحكومة فى أقسام القطر ومزارع الأفراد ولكن يظهر أن حكام الأقسام كانوا وقتئذ أقوىاء يعطون أشغال الحكومة ويضعفون نفوذها

(١) ٤١٤١١ (١) ٦١٩ : ١ (٢) ملاحظة ٥٢٢ : ١ (٣) ٥٢٢ : ١ (٤) ٥٢٢ : ١ (٥) ملاحظة (١)

فلم يعد للملك تلك السلطة التي كانت لفرعنة المملكة القديمة على جميع القطر . وليلاحظ أن البيت الملك كانت له موارد ثروة أخرى غير الضرائب والحزبة التي تجبي من أقسام مصر وغير دخل القصر الملكي ذاته وهذه هي الذهب المستخرج من النوبة وطريق قفط وأموال التجارة مع الصومال وشواطئ البحر الأحمر مما عاد بالكسب الوافر لأن هذه المشروعات عملت على حساب الحكومة . زد على ذلك أن إيراد محاجر طورسيناء والحمامات عاد كثيرا على الحكومة بالفوائد المالية ، وبديهي أن غزو النوبة والغارات على سوريا وفلسطين ضخت ميزانية الدولة المصرية .

وبقيت الإدارة المالية تعرف "بالبيت الأبيض" الى الوقت الذي نحن بصدده ، وهذه الإدارة عدة فروع كمخازن الحبوب والمواشي ومخازن الذهب والفضة وغير ذلك من واردات القطر السنوية التي تجبي لفرعون . ولما زادت الإيرادات نقلتها الحكومة في أسطول ضخم (١) وصار "رئيس المالية" يعرف "برئيس البيت الأبيض" ثم عين له مساعد يقال له "صراف المعبود" (أى الملك) . وتطلبت كثرة الأشغال عددا كبيرا من المضابط والأوراق والموظفين . وعهد لبعض موظفي المالية في إدارة مناجم سيناء والحمامات ونهاية طريق قفط . ومن ذلك يتضح أن إدارة المالية في عهد المملكة الوسطى كانت أكبر كثيرا مما كانت عليه في عهد المملكة القديمة ، وأعظم دليل على ذلك كثرة المصالح وتعدد المديرين وزيادة رؤساء الأقاليم ووكلاتهم . ولا يخفى أن زيادة الإدارة تصحبها كثرة الألقاب وتباين الدرجات مما ليس له نظير في الأزمنة السابقة ، ويشاهد ذلك على الأخص في طائفة المهندسين والمثاليين الذين كانوا يشرفون على أعمال طورسيناء، وبديهي أن مثل هذا الاكثار في الموظفين أوجد بين الرعية طائفة جديدة منهم متوسطة الحال .

أما القانون في عهد المملكة الوسطى فكان يشرف على تطبيقه رجال الإدارة ، ولذلك كتب أحد كبار موظفي المالية مفتخرا ما ترجمته : "كنت أعرف القانون جيدا وأطبقه بكل حزم واحتراس" (٢) . وكانت هناك ست محاكم كبيرة تعرف "بالبيوت الكبيرة" تعقد تحت رئاسة الوزير في إيتوى (Ithtowe) (٣) . وهناك أيضا محكمة مكونة من ثلاثين قاضيا تعرف "ببيت الثلاثين" تعقد برئاسة الوزير أيضا ، لكننا لا نزال نجعل علاقتها "بالبيوت الكبيرة" المذكورة آنفا . ودلتنا الآثار على وجود أكثر من محكمة بالوجه القبلي كل منها مكون من عشرة قضاة تعرف بال عشرة القضاة الجنوبيين وعشرة يعينون بأمر ملكي للفصل في القضايا وتنفيذ العقاب . ومن اختصاص هذه المحاكم الفصل في قضايا الاحصاء والضرائب ونحن لا نزال نجعل علاقتها بالقضاء الإداري بالضبط . والثابت أن لقب "قاضي" لم يكن يعطى الا لمن ينتمى الى أسرة كبيرة عريقة بشرط أنه يعرف القانون معرفة دقيقة . ومن المؤكد أن قانون تلك العصور كان غاية في الأحكام والوضوح لكننا لم نثر عليه إلا الآن . وما ثبت دعوانا هذا المقدم الذي وافق عليه حاكم سيوط بين ذاته باعتباره حاكما للقسم وذاته باعتبارها الرئيس الديني الأكبر لمعبود بلده . ولا شك أن مثل هذه الدقة تثبت منتهى الاحتراس والحرص على تنفيذ القانون وصيانة الحقوق المعهودة الى ذلك الشخص (٤) .

(٢) ٦١٨: ١

(١) شاهد قبر لأحد فرواد هذه الأساطيل محفوظ بمتحف القاهرة رقم ٢٠١٤٣

(٤) ٥٦٨: ١ ملاحظة

(٣) Sharpe, Eg. Ins. I, 100.

ولم نهند الى الان على معلومات كافية عن ادارة البلاد الداخلية وطرق الزراعة وقتئذ لكن يستدل من الآثار أن المشروطات العمومية وجمع الضرائب والرسم وعمل الاحصاء كانت تفقد لكل من الوجه القبلي والبحري على الافراد . وكان "رؤساء القضاة العشرة الجنوبيين" ينفذون القانون في الوجهين فلم يقتصر عملهم على الوجه القبلي . وقد ألفت وظيفة "حاكم الجنوب العام" بعد اقراض حكم المملكة القديمة فلم يبق منها الا اللفظ الذي كان يمنح أحيانا من قبيل الشرف . والمعلوم أن احصاء السكان والأملاك في القطر عمل بنىة النظام والاحكام فكان يتعم على كل رب أسرة أن يسجل عند أفراد أسرته وخدمه وعبيده في أحد مكاتب الوزير أمام "رؤساء القضاة العشرة الجنوبيين" . ولا يبعد أن هذا الاحصاء كان يكرر كل خمس عشرة سنة^(١) وأن السجلات كانت تحفظ في مكاتب معدة لذلك . والمعروف أن ديوان الوزير كانت تحفظ به سجلات الحكومة جميعها وبياناتها الخاصة بالأراضي والاحصاءات والضرائب الخ . قال أحد الوزراء عن نفسه انه كان يحقق سجلات الأراضي ويوضح حدود أرض كل مالك^(٢) . واستمر النظام القديم نافذا في عهد المملكة الوسطى من حيث ترؤس الوزير لاجتماعات محاكم "اليوت الكبيرة الست" ومحاكمة "بيت الثلاثين" . وإذا ساعد الوزير الحظ وأسندت اليه الادارة المالية كما حصل لمتوحوتب أيام سيزوستريس الأول فانه يصدر أوامر صارمة كالأوامر الملكية كما يستدل من نقوش قبر هذا الوزير^(٣) . ولا يبعد أن يكون مركز الوزير خطيرا أحيانا على العرش الفرعونى كما فعل أمنمحتت الأول الذى ظنه بعض الأثريين وزيرا اغتصب الملك . وكان الوزير يلقب أحيانا بالأمير أو العزيز أو حاكم القسم .

وتطلبت الحال حصر أعمال الحكومة في أيدي أشخاص مخلصين للسدة الملكية ناشئين في البلاط الملكى عارفين واجههم نحو سيد البلاد . واليك ترجمة ما جاء في خطاب الملك سيزوستريس الثالث لرئيس ماليته المدعو إيجرنوفرت (Ikhernofret) سأكلفه القيام بأحدى البعثات : "لقد اقتضت ارادتى الملكية أن أكلفك الذهاب والقيام بهذه الأمور لئلا تخفى على يقين بأنك ستنفذها كما أُرغب ، فقد نشأت على مبدئى وتعلمت قوانينى وتلقنت علومك في قصرى"^(٤) . ومع ذلك كانت الملك يحترس لنفسه كثيرا من كبار موظفيه وسرى قريبا أن كبار موظفى أمنمحتت الأول عصوه وتآمروا على قتله . وحصل في عهد سيزوستريس الأول أن حاكم النوبة المدعو متوحوتب الذى عين بأمر ملكى تعالى على مقام مليكه هناك فأمر الملك بطمس جميع رسومه ويرجح أنه عزل وأهين أيضا^(٥) . وفضل القوم السكوت والحذر في كل ما له علاقة بالملك حتى امتدح فلاسفة تلك المصور الصمت في خدمة الملوك^(٦) . واليك ترجمة ما ورد على لوح حجرى بمقبرة صحتب أب رع (Shehopibre) أحد كبار حاشية أمنمحتت الثالث ناصحا أولاده قائلا : "قاتلوا لاملاء شأن الملك وتطهروا بقسم جلالته لأن ذلك يبعد السوء ، فال محبوب عند الملك هو المسروز ، أما المتأوى بجلالته فلا قبر له ، وإذا مات تلقى جثته في الماء"^(٧) .

(١) Kahun Papyri, pl. IX-X, pp. 11-20. (٢) ٥٢١:١ (٣) ٥٢٤-٥٢٠:١ (٤) ٦٦٥:١

(٥) ٥١٤:١ (٦) ٥٢٢:١ (٧) ٧٤٨:١

في مثل هذه الظروف تحتم على فرعون مصر أن يحتفظ بالقوة اللازمة لتنفيذ أوامره وقتما تتطلب الحال ، ولذلك استخدم قوة مسلحة دائمة أطلق عليها اسم " أتباع الملك " أو " حجابيه " ، وهذه القوة أقدم مثال لجيش نظامى ورد في التاريخ . وجرى العادة أن تجزأ هذه القوة الى فرق في القصر الملكى والقلاع من النوبة الى الحدود السورية ، ويبلغ عدد رجال كل فرقة مائة رجل . ولا تزال مجهول مجموع هذه القوة المسلحة بالضبط ، انما المؤكد أنها صارت نواة لما نسميه الآن بالجيش النظامى الثابت . وضباط هذه القوة كانوا رجالا عربى النسب والأصل ولكننا لا تزال نجهل الجهات التى جمعت منها هذه القوات . والفرض الاصلى لهذا الجيش كان القيام بالأعمال الحربية بجهة النوبة على الأخص والمحافظة على بعثات المحاجر وميناءات البحر الأحمر . وفي وقت الحرب كان السواد الأعظم من الجيش المصرى يحشد من سكان الأقسام الأحرار المتوسطى الحال بأمر ملكى تحت قيادة الملك الشخصية . وجرى العادة أن كل قسم من أقسام مصر يحنده فرقة في الجيش وأن رئيس هذه الفرقة يكون قائدها المباشر وقت الحرب . أما في وقت السلم فكثيرا ما كانت القوات تحشد لنقل الآثار أو القيام بالأعمال العمومية . وكان السكان الأحرار سواء أكانوا كهنة أم غير كهنة يصنفون الى عدة طبقات على حسب العمر قبل ارسالمهم الى ساحة الحرب أو لأعمال عمومية . والمعروف أن حروب ذلك الوقت كانت عبارة عن غزوات قليلة النظام كما كانت الحال أيام المملكة القديمة ، فالروح العسكرية كانت لا تزال غير ناشجة في نفوس المصريين خلافا لما حصل بعد طرد الهيكسوس .

وانفصال الأمراء من البيت المالك بعد عهد الأسرة السادسة أثر كثيرا في الأحوال الاجتماعية في الريف كما المعنا اليه عند الكلام على حكام جزيرة أسوان والبرشة وبنى حسن وأسيوط حيث وجدت الآن عدة مقابر لهم . وعثر أيضا بجهة العراية المدفونة على عدة مقابر لحكام الأقسام وعتة شواهد حجرية نصبها هؤلاء القوم تخليدا لذكراهم . ومن هذه الآثار استدللنا على أن هؤلاء الحكام عاشوا معيشة الترف والنعم في قصورهم الريفية كما عاش ملوكهم في قصورهم الملكية . لذلك أصبحت ترى هؤلاء الحكام يصنعون في أقسامهم ما يلزمهم من الحاجات ويقومون بأنواع الرياضيات كالصيد وغيره . ومن سميات هذا العصر أيضا ظهور " طبقة الأهل المتوسطة " واقتماد أفرادها بالطبقة العليا ، فأصبحت ترى هؤلاء يشيدون المقابر ويقومون بالألواح الحجرية ويمجهزون قبورهم بالأدوات الخصوصية مع أنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك في عهد المملكة القديمة . ويوجد جهة العراية ثمانمائة قبر لهذه الطبقة يرجع تاريخها الى العصر الذى نحن بصدده ، ربها خاص بموظفى الحكومة والثلاثة الأرباع لغير الموظفين (١) لقبوا أنفسهم " بأهل البلد " (٢) . ولوحظ على بعض هذه المقابر اسم صاحبها دون اشارة الى مسكنه واستتج من بعضها أن أصحابها كانوا من ذوى الأملاك أو العمال أو الصناع وكان بعضهم ذا ثروة عظيمة . ويوجد بدار التحف للفنون الجميلة بمدينة شيكاغو بالولايات المتحدة تابوت لشخص من غير موظفى الحكومة مصنوع من الأرز الثمين المستحضر من لبنان دلالة على عظم ثروة صاحبه . ولوحظ أيضا أن أفراد هذه الطبقة كانت تذكر مهنتها قبل

Ibid. passim. (٢)

Catalogue Cairo, Nos. 20,001-20,780. (١)

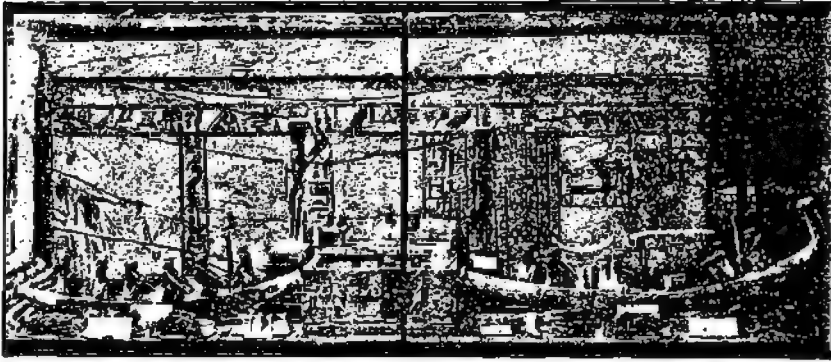
أسمائها "كزئيس صانعي الأحذية فلان" و"كالصانغ فلان" و"النحاس فلان" دون إشارة إلى محل الإقامة . والمعروف أن معظم أفراد موظفي الحكومة في عهد المملكة الوسطى كانوا متوسطي الحال شاغلين وظائف صغيرة حتى كانوا يحتلون ذكرو وظائفهم على الأرواح بمقارهم . ولاحظ أن خدمة الحكومة فتحت للشبان طريقا جديدا لرفع مقامهم في الحياة وقد اهتم الموظفون بأشغالهم وزاولوها بعناية كما يستدل مما ذكرناه بشأن مساعد رئيس المالية الذي بذل جهده لدرء القحط عن قسم طيبه^(١) حتى وضع نفسه في موضع الشخص "الاعتيادي" بصراحة ووضوح . وأخذ القوم يتعلقون بخدمة الحكومة حتى كان الأبناء يتهاقون على القيام بأعمال آبائهم بعد اعتراهم الخدمة مما لم يكن مشهورا في عهد المملكة القديمة . وقشش موظفو الحكومة على شواهد قبورهم متمسكات رجوا فيها كل من يمر عليها أن يتلوها وقد جاء فيها وجوب السعي في تمييز أبنائهم في وظائفهم بدهم وكى يدعوا لهم ويترحموا عليهم، ولا مرء فان هذه الأحوال قد ساعدت كثيرا على ظهور طبقة موظفين متوسطي الحال . ومن مميزات القوم وقتئذ معرفتهم للقراءة والكتابة فكان مجرد معرفتهما كافيا لرفع مستوى صاحبها . وورد في الآثار أن أبا أرسل ابنه ليتعلم في مدرسة القصر الملكي ليخرج كاتباً فزوده بنصائح غالية معددا له مصاعب ومعائب الصنائع اليدوية كل على انفرادها ومفضلا له في آخر الكلام صناعة الكاتب مظهرا له مناقبها وما يعود على صاحبها من الشرف والراحة والثروة^(٢) . ومع أن رجال الفنون الجميلة كانوا في ذلك العهد ماهرين للغاية وذوى مرا كرسامية بين القوم فان الكتابة وموظفي الحكومة المتوسطي الحال نظروا اليهم كأنهم أوضع منهم مركزا وشرفا ، وعليه فكثيرا ما نجد على الآثار أن الكاتب يفتخر بمركزه الدنيوى ويباهى بمعارفه . وهكذا تغيرت معالم الحياة عما كانت عليه في عهد المملكة القديمة ، ففي الأخيرة كما لا نشتر الا على آثار لها علاقة بعميشة أو القاب أمراء القصر الملكي وأصحاب الأملاك العظيمة، أما في عهد المملكة الوسطى فاننا نجد كثيرا من الآثار تشير الى رقى طبقة الرعية المتوسطة في الأرياف واقتنائهم للعبيد والأراضى وتقديهم أول نتاج أرضهم قرايين في معابد ملتهم كما فعل فراصنة مصر سابقا^(٣) . واهتم حكام الأقسام اهتماما كبيرا بهذه الطبقة كما ظهر لنا من رواية القحط السابق الكلام عليها، وكما جاء أيضا على شاهد قبر لأحد أفراد هذه الطبقة من أنه "كان يقتنى حدائق جميلة وأشجارا جميلة يأسق الأغصان وأنه شيد لنفسه منزلا كبيرا يبيلده وبني قبرا في محضور الجبانة وأنه حفر ترعة لبلده ونقل الناس فيها على سفينته . وكان مستعدا دائما للخدمة ويقود المزارعين حتى أوف مبعاده (موته) فسلم أموره لابنه بوصية خاصة بذلك"^(٤) . وبعد الطبقة المتوسطة تأتي طبقة العمال الوارد ذكرها في النقوش السابقة والتي كانت تحتقر أحيانا على أهميتها في زيادة ثروة القطر وعمره . وجزت المادة أن يرسل هؤلاء العمال الى معاهد خاصة لتعلم الصنائع المتنوعة كما يستدل من نقوش بنى حسن وغيرها ، لكننا لا نزال نجهل اذا كان شغل هؤلاء العمال كان لأجل حكام قسمهم أو لأجل التجارة والمعاملة مع أفراد الطبقة المتوسطة .

(٤) صوري التي

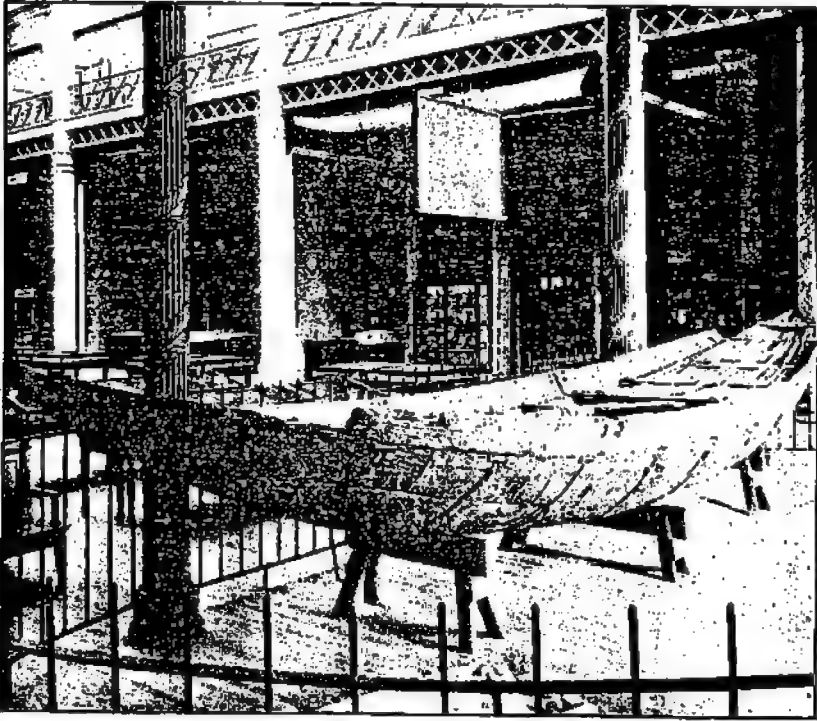
(٣) ١ : ٥٢٦

(٢) قرطاس سالييريدى ٢

(١) راجع صحيفة ١٠٤



شكل ٨١ — صورة شمسية لتابوت ميت وأثاث مقبرته من عهد الملكة الوسطى ويرى القارئ
 فوق الصورة سفنا وخداما مجهز الطعام والجلعة وينزلا (في الوسط) - (دارتحف برلين)



شكل ٨٢ — سفينة لملك سينوستريس الثالث وجدت بهرمه جهة دهشور طولها ثلاثون قدما وعرضها
 ثمانية أقدام وعمقها أربعة أقدام - مصنوعة من خشب الأرز الباني (دارتحف شيكاغو)

وامتاز عصر المملكة الوسطى بتغير واضح في عقيدة القوم الدينية ، ففى مبدأ الأسرة الخامسة أخذت عبادة الشمس شكلا رسميا فى القطر ثم سقطت الأسرة السادسة فتبعها الاضطراب والانقسام . ومع ذلك فقد انتشرت عبادة الشمس حتى اذا ما تولت الأسرة الثانية عشرة الحكم كانت هذه العقيدة بالغة أقصى درجاتها فتعلبت على سائر عقائد القطر واضطر كهنة المعبودات الأخرى أن يجاروا الظروف بقصد اجتذاب بعض شرف عبادة رع الى معبودات أقسامهم فقالوا إن هذه المعبودات صور متنوعة للعبود رع (الشمس) ثم ذهبوا الى أبعد من ذلك فقالوا إن أسماء معبوداتهم مرادفات لاسم رع أيضا .

مثال ذلك : ان كهنة المعبود سُبِك (أى التمساح) نسبوا معبودهم الى رع مع أنه ليس هناك علاقة قديمة بين الاثنين فلقبوا معبودهم سبِك رع . ثم ان كهنة آمون الذى كان يعبد فى بادئ الأمر فى طيبة فقط نسبوه الى رع فلقبوه آمون رع . وبهذه الكيفية أخذت عبادة الشمس التوحيدية الأصل تنتشر بعمدة أشكال بين سكان القطر ، ويستصح لنا ذلك جليا عند الكلام على تدرج هذه الديانة المدهش فيما بعد .

وأخذت المعابد تكبر فى الحجم مع بقاء العادات الدينية على ما كانت عليه ، ولم يزد تعدد الكهنة كثيرا عن العصور السابقة كما يستتج من احصائية معبد أونوبس بجبهة كاهون بالقيوم الذى أسسه سيزوستريس الثانى ، فقد جاء فيها أن موظفى المعبد كانوا عبارة عن " رئيس المعبد " و " خطيب كبير " (وهما ثابتا المركز والمرتب) وتسعة كهنة وستة بوابين وخادمين اثنين . والعادة أن الكهنة كانوا يغيرون كل شهر بكهنة آخرين وهم أشخاص من طبقة العمال والصناع (١) .

ولم تكن عبادة الشمس وحدها منتشرة بين المصريين بل حذت حذوها عبادة أخرى وهى عبادة أزوريس . وبديهى ان انتشار عبادة الشمس كان نتيجة مباشرة لفوز الحزب السياسى المتسمى اليها ولعلو مركزها بمصر . أما عبادة أزوريس فيرجع الفضل فى انتشارها الى شدة توافقها مع النفسية المصرية والى المجهودات التى بذلها كهنة أزوريس كل سنة فى تمثيل حياة هذا المعبود ووفاته وانتصاره الأخير ، وذلك أمام القوم بالعرابة . وقد سمح هؤلاء الكهنة لبعض الأهالى بالاشتراك فى تلك الاحتفالات فآثر هذا كثيرا فى نفسية المصريين كالمعجزات والنبات النبوية . ومما يثبت شدة اهتمام المصريين بهذه الاحتفالات ما ورد على شواهد قبورهم بالعرابة من الدعوات والتوسلات للخروج فى القبر بعد الوفاة لمشاهدة تلك الاحتفالات . وأهم فصول هذه الاحتفالات هو الخالص بدفن جثة أزوريس فقد تمجيل المصريون وجود قبر أزوريس غربى العرابة على حافة الصحراء ، فاعتقدوا خطأ أن قبر الملك زِر أحد ملوك الأسرة الأولى الذى يرجع تاريخه الى أكثر من ألف سنة من ذلك الوقت هو قبر المعبود أزوريس (٢) لتشابه الاسمين ، وازداد اهتمام القوم بهذا القبر فقد سود وأصبحت العرابة من أجله مركزا دينيا كبيرا فى القطر المصرى لا يضارعه مركز آخر . ومما يدل على شدة تأثر المصريين بذلك تكرار هجومهم الى تلك الجهة كلما سححت لهم الفرص ، وأيضا كثرة الهدايا والقرابين

(٢) ٦٦٢ : ١ (٢)

Borchardt, Zeitschrift für Ägyptische Sprache, 1900, p. 11

التي قدموها في الأواني الخزفية حتى تكثرت منها كومات فوق قبر الملك زير ، واجتهد القوم في دفن جثثهم بجوار معبد أزوريس أو داخله إذا لم يكن هناك مانع ، حتى اضطرت الكهنة في آخر الأمر أن يقيموا سوورا عظيما منعا لتكاثف القبور على ضريح المعبود . وقد أم المصريين هذا المكان المقدس على اختلاف صراكرهم من الوزير الى الاسكاف . وفي حالة تعذر دفن الميت في العرابة (كما حصل مع حكام الأقسام) فانه بعد تحنيط الجثة تبعث الى العرابة لتحضر احتفالا دينيا ثم ترسل الى مقرها النهائي . وإذا تعذر ذلك اكتفى باقامة شاهد يجيئة العرابة منقوش عليه دعوات لأزوريس بقصد مساعدة المتوفى وخلاصه من كل مكروب في الحياة الأخرية . وإذا استدعت مهنة الموظف أو مندوب الحكومة زيارة العرابة اغتم هذا تلك الفرصة لزيارة معبد أزوريس حيث يترك أترا قش عليه اسمه وتاريخه وسبب زيارته الخ مما أظهر لنا كثيرا من غوامض تاريخ تلك العصور السالفة (١) .

ولما تأكد القوم بمحاكمة أزوريس في الآخرة اعتقدوا أن كل متوفى سيحاكم مثله فعمد له جلسات يحاسب فيها على أعماله وينفذ عليه كل ما يحصل لغيره من الأموات . وكان أزوريس معتبرا في عهد المملكة القديمة آله الأموات ولكن هذا الاعتبار لم يرمح في الأذهان الا في عهد المملكة الوسطى . وتتكون محكمة أزوريس في عقيدة القوم من اثنين وأربعين قاضيا يجلسون أمام المعبود كالزبانية يمثل كل منهم قسما من أقسام مصر ، فاذا دخل المتوفى أمام المحكمة وأنكر أمام كل قاض اسم من آتاه يوزن قلبه في ميزان مقابل ريشة العدالة للتأكد من صدق قوله . أما الآثام التي يتبرأ منها الميت أمام محكمة أزوريس فهي بينها الآثام المستهجنة في عهدنا هذا ، وهالك بيانا موجزا لتلك الآثام : السرقة والقتل والاختلاس (وبالأخص السلب) والكذب والخداع وشهادة الزور والرياء والتناؤد بالألقاب والتجسس وعدم الاعتدال في الأمور الجنسية وامتهان كرامة المعبودات أو الأموات كالكفر بهم وسرقة أمتعة الموتى . ومن هذه القائمة يستدل على عظم الزادع النفسى عند المصريين وقتئذ استنكارا للسكرات ، وعليه فالمصريون هم أول قوم اعتقدوا بترتب الحياة الأخرية على الحياة الدنيوية ، ويرجع هذا الاعتقاد في الحقيقة الى عهد المملكة القديمة . والغريب أن هذه العقيدة انحصرت في المصريين أكثر من ألف سنة في حين أن البابليين والاسرائيليين اعتقدوا انتقال الموتى عموما الى سقر المعروفة باسم شول (Sheol) . واعتقد المصريون أن الأموات الذين تحكم عليهم محكمة أزوريس بالاجرام يعرضون للجوع والعطش ويحجزون في أماكن مظلمة لا يبصرون فيها ضوء الشمس . وفي المحكمة طرق أخرى للقصاص منها حيوان بشع له رأس تمساح ومقدم أسد ومؤخر دب البحر يقترس الجرمين الآثمين . وأخذت آراء القوم في عهد المملكة الوسطى تحوم حول تطهير النفس من المعاصي والزنازل التماسا للبراءة بعد الوفاة وتجنبنا للعقاب الأليم ، فأصبحت ترى الكثير من نقوش شواهد القبور شديدة الشبه بما ألعنا اليه في عهد المملكة القديمة تلتخص في أن الميت كان يطعم الجوعان ويروى الظمآن ويكسى العريان وينقل في سفينة من ليس له سفينة ، وجاء على بعض الشواهد "أن المتوفى كان أبا اليتيم وزوج الأرملة وملجأ الذي لا ملجأ له" مما أشرنا اليه لما تكلمنا على كرم وسخاء حكام الأقسام .

والشخص الذي عبرته محكة أزوريس تلقبه بالرجل الطاهر العادل أو "صادق القول" أو "المتصر" ولذلك كتب القوم هذا اللقب بعد اسم كل متوفى وبعد اسم كل حي ينتظر وفاته بقصد طلب الرحمة في الآخرة . وانتشار عبادة أزوريس في القطر لم يوحد الأديان بل سبب تفرقها شيئا فنشأت بين القوم عقائد دينية صعبة الفهم ، إذ بعد ما كانت المعبودات مستقلة بعضها عن بعض وعن أزوريس أيضا اندججت الآن معه فاختلفت بذلك معالم العقائد الأصلية . ومع هذا فقد استمر القوم متمسكين بأن الصالح هو الذي ينتم في الآخرة في جزيرة يارو التي تبت أرضها الغنية فمحا يبلغ طوله اثنتى عشرة قدما ، واعتقدوا أيضا بأنه سيسمح لهم بعد الوفاة بالسكنى في القبور والبقاع القرية منها والصعود الى السماء لمراقبة المعبود رع في رحلاته والهبوط الى مملكة أزوريس وبمداولة الرجال العظام الذين حكموا مصر في الدنيا .

لكن هذه العقيدة لم تدم طويلا لأن القوم تصوّروا أن الميت سيقابل في آخره مصاعب وأخطارا جسيمة ، مثال ذلك ما ورد في نصوص الأهرام من ذكر نماين كبيرة تفترس الأموات غير الحصبين وتمايح تسلب الميت أمجيته وتعاويذه وأعداء هوائية تسلب المتوفى نفس الحياة من أنفه . وقد تدلع النيران من المياه التي يشربها الميت وقد تسلب منه القرابين التي يقدمها له ذوهه وقد يجبر في بعض الظروف أن تفترس جثته . وجاء في بعض النصوص أن المتوفى قد يسرق منه تاجه ومكانه وتلف جثته ويؤخذ منه فه أو قلبه أو رأسه أو اسمه فيفقد بذلك أكبر مدافع له . كل هذه العقائد ابتكرها القوم في عهد الملكة الوسطى ولم يرد ذكرها في نصوص الأهرام التي أهمل استعمالها وقتئذ . وكان من نتائج هذه الخرافات أن كثرت استعمال الأحمبة والتعاويذ والصلوات والدعوات الكثيرة التي توجد بين أمتة الموتى في عهد الملكة الوسطى بقصد الانتصار على الأعداء والمروء بالآخرة في أمان وسلام واتخاذ الشكل الذي يرغب فيه الميت بعد وفاته والذهاب والاياب وقتما يريد ويشتهي ، ورسمت المحكة الأخرورية بالتفصيل مع ما يحتاج اليه الميت من التعاويذ على صفحات التابوت الداخلية . ومع قلة ما وصل الينا من هذه الدعوات والصلوات فان ما اهتمنا اليه هو بلا مراء النواة الأصلية لنصوص "كتاب الموتى" و "كتاب البعث نهارا" ، ويبحث هذا الكتاب الأخير في خروج الروح من القبر نهارا ثم رجوعها اليه ثانية وقتما تشاء . ثم صارت كتابة الأحمبة ونصوص كتاب الموتى مصدرا عظيما للرزق والثروة اغتتمه الكهنة في العصور الأخيرة فأخذوا من أهل الأموات الأجر الكبير على ذلك ، وبرع الكهنة في التغيرير بمقول العامة فوضعوا كتابا سموه "الدليل" ذكروا فيه كل المعلومات اللازمة عن الحياة الأخرورية وطرق الوصول الى الآخرة ، وقد جاء في هذا الكتاب طريقان للآخرة اقتن الكهنة في وصفهما وأبدعوا، ثم جمعوا ذلك في كتاب سموه "دليل الطريقين" . ولا يبعد أن يكون السبب الأصلي لوضع هذا الكتاب ابتزاز الأموال، وسيوضح لنا في العصور التالية أن هذه الخرافات وانحزبلات عرقلت تقدم المصريين الديني والحيوي كثيرا .

وأخذ يهل بناء المصاطب والأهرام تدريجياً بين الأمراء لأنهم رأوا أن حفر المقابر داخل الصحور الجبلية أصون وأمن لأحوال معيشتهم . أما الملوك فاستمروا يشيدون الأهرام مقابر لهم . ومحتويات مقابر الملكة الوسطى عبارة عن جثة الميت وتابوته المنقوش الحماوى رسوم الأثاث اللازم استعماله فى الآخرة ، وغير ذلك كان القبر يحوى نماذج صغيرة للسفن المقدسة وبجارتها تنقل الميت الى الجنة فى الآخرة (شكل ٨١) . وقد عثر حول هرم سيزوستريس الثالث تحت التراب على خمس سفن كبيرة كاللذكورة سابقا القصد منها حمل الملك وأفراد أسرته فوق المياه الى الجنان (شكل ٨٢) . وجرى العادة وقتئذ أن الملك كان يكافئ أتباعه المخلصين بأكثر من تمثال يوضع فى القبر ويأمر أحيانا بوضع تمثال ثان للتوفى فى المعابد الكثيرة ليتمكن صاحبه من التمتع بالقرابين التى توزع هناك ، والسر فى ذلك أن الكهنة كانت تقدم القرابين أولا للعبودات ثم تفرقها على أصحاب تماثيل المعبد ، الفائدة الأخرى من وضع تمثال المتوفى فى المعابد الكبيرة هى اشتراك صاحبه فى الاحتفالات الدينية التى تقام بتلك المعابد كما كان يفعل فى دنياه .

الفصل العاشر

الأسرة الثانية عشرة

علمنا أن أممخمت الأول تمكن بمهارته السياسية ودهائه الإداري من بسط نفوذه على حكام أقسام القطر ومن توحيد سلطته والاستئثار بالحكم دون سواه . ومثل هذا العمل الذي استغرق مدة طويلة في حكم أممخمت الأول سهل لأفراد أسرته استمرار الحكم في أيديهم مائتي سنة تقريبا . والغالب أن زمن هذا الملك كان أخصب وأرضى عصر في تاريخ الأمة المصرية ، نستنبط ذلك من قوله :

أنا الذي زرعت الحبوب وأحببت (نبرا) إله الحصيد ؛

النيل يميني في كل واد ؛

فلا جامع في عهدي ، ولا ظمآن تحت سلطاني ؛

وما هذا إلا لامتثال الرعية أوامري واستماعهم كلمتي وتمسكهم بأفكارى حتى صرت موضوع حديثهم^(١١) .

ويدهشنا أنه في الوقت الذي أيقنت فيه الأمة بأن السلام والرخاء قد خيما على مصر باسئدال ستار السلام والرخاء دبرت في الخفاء مؤامرة ذنينة لاغتيال حياته . أما أفراد هذه المؤامرة فكانوا من رجال الحاشية . والظاهر أن هذه المؤامرة بلغت حدا بعيدا فدخل الجناة حجرة نومه وهجموا على شخصه الملكي ، لكنه دافع عن نفسه فسمع صليل السيوف في أنحاء القصر وتنبه الخدم من نومهم فأيقنوا بالخطر المحقق بملكهم ونجاه الله^(١٢) .

وفي عام ١٩٨٠ قبل الميلاد (بعد حادثة المؤامرة على الأرجح) أشرك ابنه سيزوستريس الأول معه في الملك ، فأضاف بذلك الى حكمه قوة ونشاطا وسارت الأمور الداخلية في مجاريها المنظمة . وتمكن هذا الأمير من توجيه مجهوداته نحو الجنوب وبسط نفوذه على النوبة ، وهو مشروع وقف انجازته بعد سقوط الأسرة السادسة وحصول ثورة حكام الأقسام . ومع أن مجهودات الأسرة السادسة بشأنه ذهبت أدراج الرياح فقد أصبح في عهد الأسرة الثانية عشرة هذا الاقليم الممتد من ادفو شمالا الى الشلال الأول جنوبا معتبرا من بلاد النوبة ولذلك أطلق عليه اسم تاپدت (Tapedet) أى " أرض القوس " ، وهو اسم النوبة القديم . وفي السنة التاسعة والعشرين من حكم أممخمت الأول توغلت الجنود المصرية بأرض الواوات حتى بلغت كوروسكو التي هي في نهاية الطريق الصحراوي الممتد لمنحنى النيل العظيم والواصل الى بلاد المازوى^(١٣) ، ويحتمل أن الأمير سيزوستريس الشاب كان قائد تلك الحملة . والمعروف أن حفائر بحجر وادي الحمامات كانت مستمرة وقتئذ

(١١) ٤٨٣ : ١ (١) (٢) ٤٨٠ - ٤٧٩ : ١ (٣) ٤٠١ : ١ (٤) ٤٨٣ : ١ - ٤٧٢ : ١

كسابق عهدها^(١) . ولما شق الأترواق "الترجلو ديت" وهم بنو أسويون بشرق الدلتا عصا الطاعة على فرعون مصر أخضعهم الملك وعاقبهم عقابا صارما . ثم قوى حصن المملكة القديمة الذى على الحدود الشرقية فى نهاية وادى طميلات الشرقية لحراسة القطر ومراقبة تلك الجهات^(٢) ، فوضع خفراء اخصائيين فى أعلى شرفاته وبهذه الكيفية استتب الأمن على حدود مصر الشمالية والجنوبية وصارت المواصلات بين القطر والبلاد الأجنبية سالمة آمنة .

ولما أسن هذا الملك العظيم نادى ابنه وألقى عليه من اختبارات حياته الطويلة لآلى الحكم وغوالى النصائح^(٣) ، ما استحق الإعجاب ، ويتضح لنا من أسلوب هذه النصائح شدة تأثير تلك المؤامرة فى نفسه واليك ترجمتها :

" استمع لقولى يا بنى ، وأعلم أنه مهما علت منزلتك فصرت ملكا على الأرض أوحا كما للبلدان أو مكثرا للحسنات فإن واجبك يحتم عليك استعمال الشدة مع مرعوسيك فالتناس تحترم كل من يحقهم ويفزعهم . اننى أحذرك ألا تقترب منهم بمفردك وألا تتخذ منهم آخا ولا رفيقا ولا صاحبا إذ لا فائدة فى ذلك . وإذا غشيك النوم فليكن قلبك رقيقا عليك لأن الأهل تترك الإنسان وقت البلاء . لقد أحسنت الى المسكين وأطعمت اليتيم وتحادثت مع الوريث كعادي مع الأمير ولكن كل من أكل خبزي قام ضدى ، وكل من أعطيت يدي مؤتمنا آياه خاننى ، فصرت أوجس منه شرا"^(٤) . بعد ذلك جاء وصف حادثة الاغتيال ، والفرض من ذكر هذه المؤامرة تقوية قلب الابن وإثبات دعوى الوالد . والظاهر أنه أرسل نجده هذا بعد ذلك على رأس جيش ليعاقب الليبيين على الحدود الغربية فى عام ١٩٧٠ قبل الميلاد أو بعد ثلاثين سنة من حكم أمنمحات الأول . وبينما كان سيزوستريس منهمكا فى قيادة هذه الحملة وصل اليه نجاب سريع يحمل نبأ نعى والده ، فلم يجبر الجيش بذلك وأسرع من فوره ليلا الى إتنوى مقر الحكم وتسلم مقاليد قبل أن يتمكن أحد من أنجال والده أن يتازعه^(٥) ، ولا يخفى أن النزاع على الملك بين الأخوة أمر كثير الحصول فى البلاد الشرقية . وانفق أن نعى أمنمحات الأول بلغ مسامع من كانوا موجودين بجيمة سيزوستريس فأفشوه وترتب على ذلك هرب أمير يدعى سِنُوحي مستخفيا خائفا يتحين الفرص حتى بلغ آسيا فكث بها بضع سنين ، ولا تزال مجهول للآن السبب الحقيقى لهربه ولكن يظن البعض أنه أتى أمرا منكرا أغضب سيزوستريس ، ويرى الآخرون أنه كان أحق بالملك من أخيه ، فهذه الحادثة تدل على وقوع اضطراب وارتباك عند انتقال الحكم من فرعون الى آخر^(٦) .

وأعمال أسرة أمنمحات خارج القطر (بالنوبة وطورسيناء ووادى الجمادات) تثبت تقدم مصر ورفاهيتها بكيفية أوضح مما تثبت آثارها داخله ، وهذا القول ينطبق أيضا على النقوش التاريخية الخاصة بالأسرة الحادية عشرة . ولا يخفى أن السنوات العشر التى اشترك فيها سيزوستريس الأول وأبوه فى الملك رفعت شأن هذه الأسرة المالكة بعد وفاة الملك . ومما لامرأ فيه أن سيزوستريس

(١) ٨ - ٤٦٦ : ١ (٢) ١٩ - ١٧ : ٢ ٤٩٣ (٣) ٤٧٤ - ٤٨٣ : ١ (٤) ١ - ٤٧٨ : ٩

(٥) ٤٩١ : ١ (٦) ٤٨٦ : ١ ملاحظة

أظهر كفاية عظيمة في إدارة المهام التي ألقبت على عاتقه فقد تاجر على إخضاع النوبة وبمصر حكام الأقسام في مصلحته . ذكر أمنى حاكم قسم الوعل على جدر قبره أن أممنجت الأول قدب أباه سابقا لقتال النوبة فلما هرم وضع نفسه تحت تصرف سيزوستريس الأول فقاد فيلق قسمه وغزوا النوبة تحت قيادة مليكه العزيز وتوغل فيها حتى بلغ كوش . ومن هذه الرواية نعلم أن الجنود المصرية بلغت وقتئذ إقليم الشلال الثاني ودخلت كوش التي تكرر اسمها على آثار ذلك الوقت ، وللاحظ أن اسم كوش لم يرد على آثار المملكة القديمة إلا مرة واحدة^(١) . ولا تزال نجمل الكثير عن حملة النوبة هذه ولكن يظهر أنها كانت بسيطة لأن أمنى قال أنه رجع ولم يخسر رجلا^(٢) . وقد أظهر حاكم جزيرة الفيل شهامة في هذه الغزوة كما أظهر أسلافه في عهد الأسرة السادسة فتمكن من اقتناص فيل أوجده بين نقوش قبره بجهة أسوان^(٣) . وتعتبر هذه الغزوة الأولى من نوعها لقيادة الملك لها شخصيا . وتاريخ هذه الحملة مجهول ويظن أنها حصلت قبل غزوة السنة الثامنة بعد وفاة أممنجت الأول حيث ورد في نصوص هذه الأخيرة ما يفيد بأن الملك لم يرمي من الضروري مرافقة جيشه في تلك البلاد الجنوبية . والمعروف أن هذه الغزوة الثانية وجهت ضد كوش وكانت تحت قيادة متوحوتب الذي أقام لوحا حجريا كبيرا جهة وادي حلفا حوى معلومات عن انتصاراته الباهرة وجدولا بأسماء البلاد والمدن التي أخضعها^(٤) . ويعتبر هذا أقدم جدول من نوعه حتى الآن . ومن دواعي الأسف أننا لا تزال نجمل كثيرا من جغرافية النوبة القديمة فلم نهند إلا إلى مكان واحد من العشرة الأمكنة الواردة بهذا الجدول وهذا المكان هو شت (Sbet) القريب من قبة على بعد ثلاثين أو أربعين ميلا جنوبي حلفا ، ويرجح أن متوحوتب نصب أثره هذا في الإقليم الذي أخضعه ، وقد ألمنا سابقا إلى هذا الأثر كما ذكرنا أن أحد حكام الأقسام المدعو متوحوتب رسم نفسه عظيمًا على أثره فاستاء الملك منه وأمر بحرق صورته ورسم معبود بئله . ويستدل من قرآن الأحوال أن متوحوتب هذا عزل وعوقب لاعتدائه على مقام السنة الملكية . ولا بد أن السكينة والهدوء كانا يحميان على القطر لأن الملك أصدر أوامره إلى حكام الأقسام بعمل الحفائر بوادي علاكي وما جاوره من الجهات الشرقية كما أنه كلف أمنى حاكم قسم الوعل الذهاب إلى النوبة مع أربعمائة جندي من جنود قسمه ليحضر الذهب من السودان . وقد تخين هذه الفرصة فأرسل ابنه الذي صار فيما بعد أممنجت الثاني في هذه الرحلة ليعرف البلاد التي سيدعى يوما ما لإخضاعها وإدماجها ضمن دائرة المملكة المصرية^(٥) ، واستغل سيزوستريس الأول مناجم الذهب شرق فقط فأرسل أمنى المختص مع ستمائة جندي من قسم الوعل إلى تلك المناجم مصحوبا بوزير الملك لحراسة الذهب وتسلمه تماما إلى القصر الملكي^(٦) ، وبذلك جعل سيزوستريس طرق المواصلات مع البلاد الأجنبية آمنة مهيأة . ويعزى إلى هذا الملك أقدم الأخبار الخاصة بالمعاملات مع أهل الواحات مع أنه لم يكن مسيطرا عليها ، فمن هذه الأخبار أنه أرسل أحد أمتائه المدعو إكوديدي (Ikudidi) إلى الواحات الخارجية غربى العراية فاتمتم إكوديدي هذه الفرصة وأقام لنفسه حجرا أثريا بمعد أزوريس بالعراية المقدسة طلب فيه ما تمناه من أزوريس أن يحققه ، ويعتبر هذا الأثر المرجع الوحيد الذي يشير إلى حصول هذه الرحلة للواحات^(٧) .

(١) ٣٦١ : ١ (٢) ٥١٩ : ١ (٣) ١ : ١ (٤) ٥١٤ - ٥١٠ : ١ (٥) ٥٢٠ : ١ (٦)

٨ - ٥٢٤ : ١ (٧) ٥٢١ : ١ (٦)

ولما رأى سيزوستريس الأول ما عاد عليه من الميزات العظيمة والفوائد الجلية من اشتراكه مع أبيه في الحكم اشرك هو أيضا ابنه أمنمحات الثاني معه في الحكم لمدة ثلاث سنوات^(١) . وتوفي سيزوستريس الأول سنة ١٩٣٥ قبل الميلاد بعد ما حكم نحسا وثلاثين سنة وأعقبه ابنه أمنمحات الثاني بسهولة . وقد جرى هذا الابن على سياسة والده تماما ثم اشرك معه في آخر حكمه ابنه سيزوستريس الثاني في الملك لمدة ثلاث سنوات أيضا^(٢) . وتقدر مدة حكم هذين الملكين بنحسين عاما كانت مصر في أثناءها لابسة حلال الرضاء والسعادة والرفاهية ، ففى خلالها فتحت مناجم سيناء ثانية^(٣) ووطدت العلاقات التجارية مع بونت (الصومال) فرجعت الى ما كانت عليه في الأزمنة الغابرة^(٤) ، وأكثر من الآبار والمحطات على الطريق الموصل فقط بالبحر الأحمر ، فتمكن القوم بذلك من اجتيازه في خمسة أيام^(٥) ، وهذا الطريق شمالي وادى الحمامات وينتهى بالقصير التي عرفت في زمن البطالسة باسم لوكوس ليمين (Leucos Limên) وهي في نهاية وادى غازوز . وقد ترك قائدان قديمان في هذا الميناء^(٦) نقوشا تذكارا يرجوعهما سالمين من الصومال . ولكثرة سفر المصريين الى الصومال أصبحت هذه البلاد معروفة لدى كثير من المصريين حتى كثرت ورودها في حكايات القوم ، مثال ذلك ما روى أن بعض الملاحين المصريين تحطمت سفيتهم ولم ينج منها إلا واحد لقي من الصعاب ما أدهش العقول . والمعروف أن مناجم النوبة الذهبية استمرت تصدر ذهابا الى مصر مدة طويلة وأن المصريين شيدوا في بلاد الواوات قلاعا حصينة تحت اشراف مفتشين رسميين لحماية المصالح الرسمية بالنوبة^(٧) .

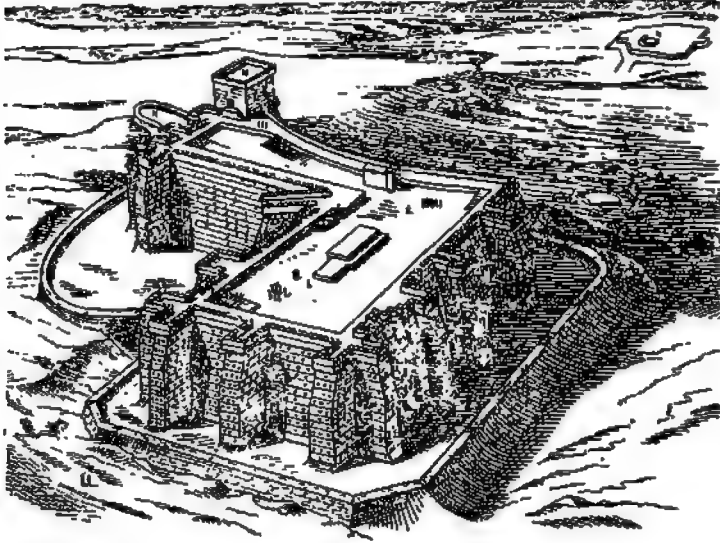
وتوفي سيزوستريس الثاني عام ١٨٨٧ قبل الميلاد لما كانت جميع الاستعدادات مجهزة لاختراع جزء النوبة البالغ طوله مائتي ميل والواقع بين الشلال الأول والشلال الثاني اخضاعا تاما . ولا يبعد أن يكون سيزوستريس الثالث الملك الوحيد في أسرته الذي لم يشارك والده في الحكم قبل وفاته ، ومع ذلك فقد قام بأعباء الملك خير قيام فأثبت بذلك ليقانا لانتسابه لهذا البيت المجيد . والمعروف عن هذا الملك أنه اجتهد منذ تولية الملك لضم النوبة نهائيا الى مصر فشق لأسطوله طريقا بين ضحور الشلال الأول واضعا بذلك الأساس الأول والأهم لضم تلك البلاد . وقد ألمعنا سابقا أن أول من شق هذا الطريق كان أونا أحد قواد الأسرة السادسة وذلك قبل زمن سيزوستريس الثالث بستائة سنة تقريبا ، ويرجح أن هذا الطريق سد بعد ذلك من جراء شدة التيار المائي . والثابت أنه لم يأت ذكر لهذا الطريق على الآثار منذ الأسرة السادسة حتى عهد سيزوستريس الثالث . وقد شق مهندسو سيزوستريس الثالث طريقهم هذا في أصعب مناطق الشلال الجرانيتية لمسافة مائتين وستين قدما بعرض أربع وثلاثين قدما وعمق ست وعشرين قدما ، ثم سمى هذا المجر المائي "طريق سيزوستريس الجميل"^(٨) ، وقد عبر هذا المجر كثير من السفن وقت القيام بالاجراءات الحربية الأولى في حكم هذا الملك لكننا مع مزيد الأسف لم نعتز على بيان لهذا . وفي السنة الثامنة لحكم هذا الملك أجريت

(١) ٤٦٠ : ١ (٢) ٤٦٠ : ١ (٣) ٦٠٢ : ١ (٤) ٦١٨ : ٦ - ٦٠٤ : ١ (٥) راجع صفحة ١٠٠

(٦) ٤٦٠ : ١ (٧) ٦١٦ : ١ (٨) ٤ - ٦٤٢ : ١

اصلاحات وتوسيعات لهذا الطريق المائي قبل القيام بحملة أخرى في النوبة (١١) . وصار النفوذ المصري في النوبة وقتئذ قويا جدا فشيد سيزوستريس الثالث حصنين متقابلين في آخر حدود مملكته الجنوبية على شاطئ النيل أحدهما في سِمنَّة والآخر في قُمة وأعلن رسميا أن تلك الجهة هي حدود مصر الجنوبية وأقام أثرين حجريين على شاطئ النيل هناك عثر على أحدهما فوجدت عليه نقوش هيروغليفية فرعونية هذا معناها :

” هذا هو الحد الجنوبي ” للملكة المصرية ” في السنة الثامنة من حكم ملك الوجه القبلي والوجه البحري سيزوستريس الثالث مُعطى الحياة الأبدية الى الأزل . ممنوع مرهوق كل زنجي بطريق الماء والأرض سواء أكان في سفينة أم في قافلة ، ويستثنى من ذلك الزنجي الذي يخترق الحدود من أجل التجارة أو توصيل رسالة فهو لاء يعاملون بكل اكرام . ولا يسمح بأى حال من الأحوال لسفينة من سفن الزنوج أن تمر ببلدة حَح (أى سِمنَّة) متجهة شمالا على مدى الأيام ” (١٢) .



شكل ٨٣ - صوارة تمثل قلعة سمه وقفه بعد الترميم (مأخوذة عن برتو وشبيبه)

ولما كانت هذه الأوامر محتاجة الى قوة لتنفيذها شيد الحصنين المذكورين بتلك الجهة وكان أشدهما متاعة وأضخمهما حجما الحصن الغربي المعروف باسم ” حَح كَاوَرَع القوي ” (اسم سيزوستريس الثالث الملكي) (١٣) . وشيد داخل هذا الحصن محرابا للعبود يدُ أُون النوبي . ولا تزال آثار هذين الحصنين باقية لأن تشهد لمصري تلك الأوقات بالبراعة الحربية والكفاءة في اختيار مواقع الدقاع الحصينة وبالمقدرة على تشييد الحصون المتينة (شكل ٨٣) .

بعد ذلك بأربع سنين حصلت بالنوبة اضطرابات جنوبي الحدود المصرية فذهب الملك نفسه الى تلك الجهات ليخضع القبائل الثائرة . ومع أن مصر لم تدع ملكية أرض كوش الواقعة أعلى

(١١) ٦٤٥:١ - ٧ (١٢) ٦٥٢:١ (١٣) ٧٥٢:١

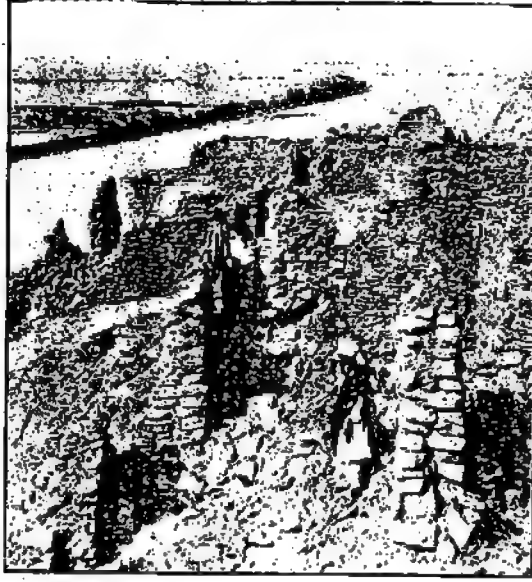
الشلال الثاني، فقد غزا سيزوستريس الثالث تلك البلاد ليستط السلام على مملكته الجنوبية وليوطد أركان التجارة والمعاملات كما كانت ساها ، لأنه لا يخفى أن واردات السودان كانت ترد من هذا الطريق . وهذا كان من الأسباب التي حملت فرعون مصر على غزو تلك البلاد التي هي جنوبي حدود مملكته ، أما الاقليم الواقع بين الشلالين الأول والثاني فكان سهل الانقياد . والمعروف أن مراقبة المصريين للحدود الجنوبية عادت عليهم بالكسب العظيم فقد ورد على الآثار أن سيزوستريس الثالث أرسل رئيس ماليته المدعو إيخنوفرت (Ikhernofert) الى العرابة ليرم تمثال أزوريس بالذهب الذي أخذ من بلاد كوش^(١) . ولكثرة الذهب بمصر وقتئذ كان أرخص من الفضة . وقد ذكرنا فيما سبق شيئا عن خطاب الملك لرئيس ماليته المختص بهذه البقعة في الفصل السابق^(٢) .

وفي السنة السادسة عشرة من حكم الملك سيزوستريس الثالث أغارت قبائل كوش وزوج شرق النيل على الحدود المصرية فزحف عليهم الملك بجيش جرار وقتك بهم فتكا ذريعا وعاقبهم عقابا شديدا وسلب أمتعتهم وحرق حصيدهم واستولى على أغنامهم وأقام في محراب حصن سمته تذكارا محجريا كالسابق بين فيه حدود مملكته وحض كل من يخلفه على أن يحافظ عليها^(٣) ، وأقام هناك تمثالا عظيما لنفسه بقصد ارهاهم كي لا يتجدوا عليه^(٤) ، وضاعف في الوقت نفسه دفاعه فشيّد حصنا ثالثا في جزيرة أوروأرتي جنوبي سمته وأقام فيه حجرا أثريا كالذي بحصن سمته^(٥) وأطلق على هذا الحصن الجديد اسم "صدّ الأعداء"^(٦) . وقرر الاحتفال بعيد سنوي في حصن سمته تقدّم فيه القرايين والهدايا وقد بقي هذا العيد محتفلا به حتى عهد الامبراطورية^(٧) ، وبعد ذلك بثلاث سنوات ذهب شخصيا الى كوش للترهة (غالبا) والظاهر أن هذه الزيارة كانت الأخيرة له^(٨) (شكل ٨٤ و ٨٥) . وقد دلنا الآثار أن هذا الملك قاد بنفسه جميع حملات جيوشه وأن أعماله الشديدة في السودان وطدت دعائم نفوذه فيه فاعتبرته الأمة في عهد الامبراطورية فاتح السودان ثم عبده في عهد الأسرة الثامنة عشرة باعتباره إله النوبة^(٩) . ومن ذلك يتضح أن مطامع قداماء المصريين في السودان تقدمت باطراد فبعد ما كانت محصورة في عهد ما قبل الأسر على إقليم الكاب نخن (Nekhen) وصلت الى الشلال الأول في عهد الأسرة السادسة ثم الى الشلال الثاني في عهد الأسرة الثانية عشرة ، وبذلك تمكن المصريون من إضافة اقليم الى وطنهم يبلغ طوله مائتي ميل . ومعروف أن هذا الفتح بدأ العمل فيه في عهد الأسرة السادسة وانتهى في عهد الأسرة الثانية عشرة .

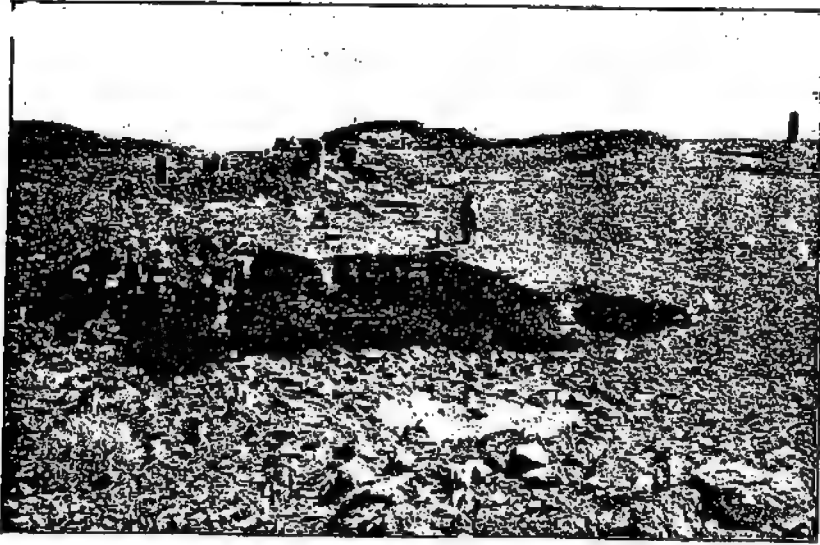
ويرجع تاريخ أقدم رواية وصلت إلينا عن غزو المصريين لبلاد الشام الى عهد الملك سيزوستريس الثالث ، وتتخلص هذه في نقوش وجدت بجهة العرابة على لوح محجري^(١٠) أقامه أحد القواد المدعو سيك خو (Sebek Khu) المحافظ الحربي لعاصمة الملك والذي سبق له التوظيف بالنوبة . ودلنا هذه النقوش أن سيزوستريس الثالث استصحب هذا القائد في غزوة قام بها باقليم سكم (Sekmem) بسوريا (رنتو) حيث هزم السوريين واستولى سيك خو منهم على أسرى

(١) ٦٦٥:١ (٢) راجع صحيفة ١٠٨ (٣) ٦٦٠-٦٥٣:١ (٤) ٦٦٠:١ (٥) ٦٥٤:١

(٦) شرحه (٧) ١٦٧:٢ ملاحظة (٨) ٦٩٢:١ (٩) ١٦٧:٢ ملاحظة (١٠) ٦٧٦-٦٨٧



شكل ٨٤ - صورة شمسية لنهر النيل بالليم التوبة مأخوذة من
أعلى الحصون الإسلامية المهدمة بجهة إريم (مستارة من محل
أندروود وأندروود بنو بورك) *



شكل ٨٥ - بقايا مناجم الملكة الوسطى بجهة صرروط النقاد بطور سيناء
(مأخوذة من مصلحة المساحة)

عديدين . وقد افتخر هذا القائد بذلك قائلاً ما ترجمته: " لقد أهدى الى جلاله الملك عصا ذهبية وفضضية وقوساً ومدية من مخلوط الذهب والفضة (Electrum) وكذا أسلحة الأسير الذي استوليت عليه . كل هذه الهدايا قدمها لى جلاله ملكي بيده " - بقاء هذا مثلاً لظهور الروح العسكرية في نفوس المصريين ، تلك الروح التي بلغت أكبر شأوها في عهد الامبراطورية . ولم نهد الى الآن مع الأسف الى موقع بلد سكم بسوريا ولكن الثابت أن ملوك المملكة الوسطى مهدوا فتح آسيا للملوك الامبراطورية كما مهد ملوك المملكة القديمة فتح النوبة للملوك الأسرة الثانية عشرة . والمعروف أن رسل سيزوستريس الأول جابت سوريا وفلسطين بانتظام^(١) وانتشر المصريون في تلك الأتحاء وانتشرت تبعاً لذلك اللغة المصرية فصار اسم فرعون هناك مقروناً بالخوف والوجل . وعثر حديثاً بسفوح تل جازر على لوح حجري لموظف مصري فيما بين بيت المقدس والبحر الأبيض المتوسط داخل حدود " المنطقة العالية " استدل منه أن النفوذ المصري وصل الى تلك الجهات وقتئذ^(٢) .

ووجدت صور على جدر مقبرة خنوم حوتب بنى حسن لسبعة وثلاثين رجلاً من الشام أتوا الى مصر للتجارة مع هذا الأمير في الروائح والدهان العطرية الكثيرة الاستعمال عند المصريين^(٣) يقودهم حاكم أرض أبشا (Absba) المعروفة عند العبرانيين بأبشاش^(٤) . وقد ألمعنا سابقاً أن سنوحى العس توجه الى الشام وهناك وجد شيخاً صديقاً له قرب الحدود سبقت له زيارة مصر وعثر شمالي ذلك المكان على بعض مصريين مستوطنين تلك الجهات^(٥) ، ومنها استنتج أن المعاملات التجارية القانونية كانت مباحة على الحدود مع وجود الحصون المنيعة شرق الدلتا كما كانت الحال على الحدود الجنوبية جهة الشلال الثاني^(٦) . وكان إقليم السويس وخليج السويس متصلين بفرع النيل الشرقى بقناة هي في الحقيقة أقدم اتصال مائى بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر في التاريخ . ووجدت جهة تنيس (Tanis) ونيشه (Nebesheh) شمالي وشرق الدلتا آثار لمعابد شامخة للملوك الأسرة الثانية عشرة تشهد لهؤلاء القوم بالنشاط والكف في ذلك الأقليم . ودلتنا المعاملات التجارية وقتئذ أن أهل الشام كانوا على جانب عظيم من المدنية والحضارة وتجارتهم كانت رائجة . ويستنتج من رسوم أهل الشام على جدر مقبرة بنى حسن أنهم كانوا يلبسون المنسوجات الصوفية المزخرفة المهلهلة ويلبسون النعال ويتسلحون بالأسلحة المعدنية ويقبضون بأيديهم على عصي ثينة ، ويفحص الأواني الخزفية الحمراء التي تاجر بها الحيثيون الذين استوطنوا إقليم كبادوشيا (Cappadocia) بآسيا الصغرى وجد أن هذه الأواني أخذت تتدفق على الأهالى الساميين بجنوبى فلسطين . وتجارتهم كانت تصل الى البلاد عن طريق فلسطين مخترباً كارمل (Carmel) وواصلاً شمالاً حتى نهر الفرات وبلاد بابل ولكنها كانت بطيئة الحركة . وعرف المصريون سكان جنوبى أوربا الذين ظهرت عليهم بوادر المدنية والحضارة والذين كانوا يعرفون عندهم باسم هاو نيو^(٧) . وجاء بالآثار أن أحد موظفى المالية عهد اليه في حراسة الموانئ المصرية الشمالية فكتب مفتخراً بأنه انتصر على هاو نيو ، ومنه استنتج

(١) ١٤٤٦ : ١٤٤٦ : ١٤٤٦ (٢) PEFQS 1903, 37, 125. (٣) ١ : صحيفة ٢٨١ ملاحظة (د)

(٤) II Sam. 10, 10. سفر صموئيل الثانى الاصحاح العاشر العاشر .

(٥) ١٤٩٣ : ١٤٩٣ : ١٤٩٣ (٦) ١٨ - ١٦ : ٢٠٤٩٣ : ١٦ - ١٨ (٧) ١ : ٢٨٨

أن العلاقات بين هؤلاء القوم والمصريين لم تكن في صفاء على الدوام . ودللتنا نقوش تاريخية لأحد كتبة ذلك العصر جاء فيها أنه يفخر باستعمال قلمه في تدوين أخبار هاو نيو . وعثر على أوان خزفية من صنع هؤلاء القوم بجهة كاهون لوحظت عليها أشكال حلزونية مصبوغة بالصبغة المصرية ، مما يشير إلى بزوغ شمس المدنية الأوربية بأفق وادي النيل في عهد الملكة الوسطى .

والمعروف أن سيروستريس الثالث غزا سورية للكسب والغنم كما فعلت الأسرة السادسة مع النوبة ولكن الثابت أن هذه الغارات الآسيوية عظمت من شرف الأسرة الثانية عشرة ورفعت من منزلتها . ولما كان سيروستريس الثالث أول فرعون قاده هو نفسه حملات مصر الأجنبية وعلى الأخص في السودان فقد اشتهر بين قومه بأنه أول فرعون استعماري ، وقد أكرم القوم بعد وفاته من سرد الحكايات والروايات الخاصة بحروبه وأعماله المحيطة مدة طويلة من الزمن . وزادت في العهد اليوناني منزلة هذا الملك فلنسبت إليه بعض أعمال رمسيس الثاني الكثيرة . وبالبحث عما إذا كان رمسيس الثاني ينتمي إلى الأسرة التاسعة عشرة وجدت هذه النسبة غير مطابقة لما ورد عن تاريخ وحيات سيروستريس الثالث المذكور .

واشتهر سيروستريس الثالث بحكم الأمة المصرية مدة ثمان وثلاثين سنة ، وأوسع نطاق مملكته حتى وصل إلى ألف ميل من وادي النيل ، واليه يعزى الفضل في إخضاع حكام الأقسام للسلطة المركزية ولذلك انعدم وجود مقابر لمؤلاي القوم في الأرياف كبنى حسن والبرشه . ولما تقدم في السن أشرك معه ابنه أمنمحت الثالث ودون ذلك على جدر معبد مدينة أرمينو بالفيوم . وتوفى سيروستريس الثالث عام ١٨٤٩ قبل الميلاد فأعقبه في الملك أمنمحت الثالث بلا منازعات ولا مشاحنات .

وامتاز حكم أمنمحت الثالث بالمشروعات العظيمة التي قام بها والتي عادت على مصر بالرخاء والنعيم وضاهفت حاصلات البيت المالك وخيراتة . وتفصيل ذلك أنه لما ولي الملك وسع نطاق المناجم بطورسياء ، وكان البادئ في ذلك سيروستريس الأول ، فذلل العقبات الشديدة التي واجهت العمال هناك بأن أسس لهم منازل ثابتة بل المساكن المؤقتة التي لم تستمر أكثر من بضعة أشهر . ووصف أحد رؤساء العمال الذين كلفوا ملاحظة أشغال المناجم تلك الصعاب التي لقيها في الصيف هناك فقال ما ترجمته : " أن الوقت لم يكن مناسباً للذهاب إلى تلك الجهات ولكنني سافرت رغم ذلك . ولا يخفى أن الصيف شديد القيلظ في الأقاليم المرتفعة فكانت الجبال تحرق الجلد ومع ذلك شجعت أنقاري على متابعة العمل وعدم المبالاة بالقيلظ وأحضرت معي كميات كبيرة من المعادن أكثر مما طلب مني " وترك هذا الشخص وراءه حجراً أثرياً^(١) نقش عليه ما صادفه هناك وأورد به أيضاً نصائح لتشجيع عمال تلك الجهة على لزوم الصبر واحتمال المشقات . ولما عظمت الأعمال في طورسياء حفرت الآبار وشيدت خزانات المياه ونكّلت للعمال ومنازل للرؤساء وقلاع لصدهم هجمات البدو علاوة على ما كان فيها من قبل ، ولذلك أصبحت محطة صربوت الخادم

بطور سيناء مركزا عظيما ومنجما غنيا . ثم شيد الملك فيها صهرينجا عظيما افتتحه في السنة الرابعة والأربعين من حكمه باحتفال عظيم^(١) ومعبدنا للمعبودة حاتحور . وجاء أن أحد موظفي المالية ذهب بجرا الى تلك الجهات حاملا القرابين لهذا المعبد، فاستتج أن المصريين استعملوا وقتئذ خليج السويس طريقا للسفر الى تلك الجهات تجنبنا لمشقة سفر الصحارى والفقار^(٢)، ووضع كل بئر من آبار المناجم تحت اشراف رئيس سمي باسمه وحتم على الرؤساء انخراج كمية محددة من المعادن في مدة معينة في نهايتها يأتي المندوب المال ليتسلم المعدن المستخرج كله^(٣) . ولا يخفى أن وجود حامية قوية بتلك الجهات تحت رئيس المالية حالت دون سطو البدو على المناجم . وقد شيد هناك العمال لأنفسهم جبانة منظمة لا تزال آثارها باقية دفنوا فيها موتاهم على حسب عاداتهم، فثبت بذلك أن الأعمال انتظمت وصار لها دخل ثابت سنويا بعد ما كانت مختلة معتلة (شكل ٨٥) . وبديهي أن فراعنة تلك العصور اضطرتهم ظروفهم للبحث عن الكسب والثروة خارج القطر ولكنهم صرفوا قصارى جهدهم لتحسين منافع القطر الداخلية . ومن دواعي الأسف أننا لم نهند الى نصوص تاريخية على ما قام به هؤلاء الحكام من المشروعات وانما المعروف أن أمنمحتت الثالث كان أعظم ملوك هذه الأسرة اهتماما بأمور الري ، فقد أصدر أمرا للحامية قلعة سمته بأن تقيس في جهتها أقصى ارتفاع لمياه النيل كل سنة فتأسس هناك مقياس للنيل . واستتج من النقوش التي على أحجار هذا المقياس^(٤) أن ارتفاعات مياه النيل كانت أعلى مما هي الآن بما ينيف على خمس وعشرين أو ثلاثين قدما . ولما كانت أخبار هذه المقاسات ترسل على عجل لموظفي مكتب الوزير بمصر السفلى فقد تمكن القوم وقتئذ من تقدير كمية الحبوب الممكن انتاجها من البلاد في السنة التالية ، وبناء على ذلك قدروا نسبة الضرائب والرسوم التي تطلبها الادارة المالية من ذوى الأملاك .

وإبتكر لرى الوجه البحرى طريقة علمية ناجعة أطالت مدة ريه ، وتفصيل ذلك أنه توجد فتحة صغيرة في سلسلة جبال ليبيا بجهة الفيوم (خريطة نمرة ٣) تبعد نحسة وستين ميلا عن قبة الدلتا وتصل وادى النيل باقليم منخفض عظيم غربي جبال ليبيا يعرف بالفيوم ويشبه كثيرا الواحات الغربية ، وهو في الحقيقة واحة قريبة من النيل أشبه بورقة النبات يتصل فرعها بالنيل ويبلغ طولها أربعين ميلا وعرضها مثل ذلك ، ولا يزال الجزء الشمالى الغربى لهذا الاقليم خازنا لمياه ومعروفا ببركة قارون (شكل ٨٦) وهو منخفض عن مسطح البحر بنحو مائة واربعين قدما . وقبل حكم الأسرة كان فيضان النيل يعم اقليم الفيوم محتولا اياه الى بحيرة عظيمة ، فلما أتى ملوك الأسرة الثانية عشرة فطنوا الى تخزين كمية مياه عظيمة في تلك الجهات وتصريفها وقت التحريق ، فمشيدوا على الفتحة السابقة الذكر سدودا عظيمة بحجز المياه في البحيرة الفسيحة ، تاركين في الوقت نفسه قطعة كبيرة في الأرض للزراعة . وقد بدأ هذا المشروع ملوك الأسرة الثانية عشرة الأول ولكن الفضل الأعظم في إنجازها يرجع الى أمنمحتت الثالث الذى أطال السد العظيم فأبلغه الى نحو سبعة وعشرين ميلا

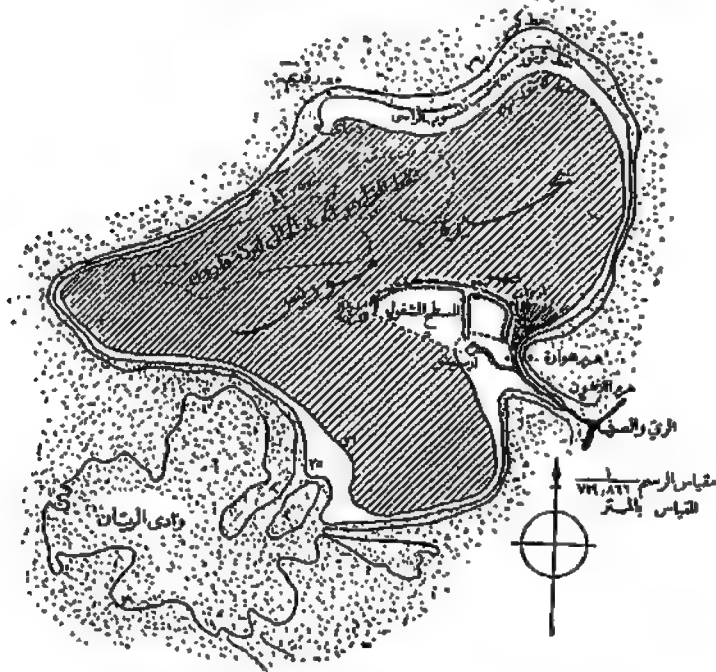
٧٣١ : ١ (٣)

٧١٨ - ٧١٧ : ١ (٢) و٧٢٨ : ١

٧٢٧ - ٧٢٥ : ١ (١)

L.D. II, 189; Lepsius Sitzungsber. der Berliner Akad. 1844, 374 ff (٤)

طولا فاكنتسب بذلك أراضى زراعية تبلغ مساحتها سبعة وعشرين ألفا من الأفدنة (١). ويتخيل الزائر لمنطقة هذا الجسر العظيم جلال المجهود الانسانى الذى رفع شأن تلك الأراضى المنخفضة التى غمرتها المياه قديما ولذلك قال استرابو أن الملك لاماريس - وهو اسم أمتمجعت الثالث الملكى - هو الذى حفر هذه البحيرة المعروفة عند مشاهير الجغرافيين والسائحين بحيرة موريس (شكل ٨٦) وقد وافق استرابو (المعتبر أضيف الباحثين فى أمر هذه البحيرة) هيروdot في وصفه الغامض لها، وهو أن فيضان النيل كان يغمرك تلك البحيرة العظيمة عن طريق الثغرة الموجودة بجبال ليبيا، وأن المصريين كانوا يروون أرضهم زمن التحاريق من مياه هذه البحيرة الواسعة. وشاهد استرابو محال مراقبة المياه الداخلة والخارجة باقليم البحيرة المذكورة. ولكنة عناية أمتمجعت الثالث



خريطة رقم ٣ . الفيوم (مأخوذة عن الجور ر. هـ. بيلارد)

باقليم الفيوم اعتقد القوم أن مشروع رى ذلك الاقليم يرجع تاريخه على الأقل الى مشروع الجسر العظيم الذى أقامه هذا الملك وأنه هو الذى حفر بحيرة الفيوم. وقدر المهندسون حديثا كمية المياه التى كانت تصجز فى بحيرة الفيوم وقتئذ فوجدوها ضعف حجم مياه النيل أسفل اقليم الفيوم لمدة مائة يوم ابتداء من أول أبريل من كل سنة (٢).

وغنى عن البيان أن الأراضى التى تحتج عن إقامة الجسور بالفيوم كانت ملكا لفرعون مصر. وهناك أدلة كثيرة تثبت أن ملوك الأسرة الثانية عشرة الأخيرين فضلوا سكنى تلك الأراضى فشيّدوا بها بلدة عظيمة سماها اليونان كركوديلوبوليس أو أرسينو وأقاموا بها معبدا للمعبود سبك -

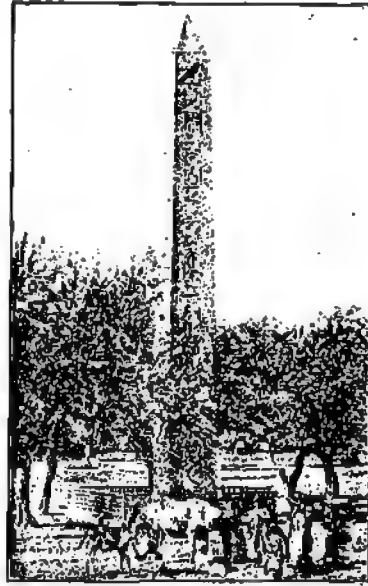
(١) Maj. R. H. Brown, R.E, The Fnyum & Lake Murs, London, 1892, (٢) شرحه .



شكل ٨٦ - منظر بركة فارون بالجبهة الشمالية الغربية بالقويم



شكل ٨٨ - تمثال خشبي للامير
إوب رع بدار تحف القاهرة



شكل ٨٧ - مسلة سيزوستريس الأول
بمدينة عين شمس
(مأخوذة عن أندروود وأندروود نيو يورك)

أى التمساح — ولا تزال هناك مسلة لسيزوستريس الأول بجهة لمبجيج (Ebgig) في صميم الأرض الزراعية . وكان هناك تماثلان عظيمان لأمنمحت الثالث المعترف في عهد هير ، ودوت منشى البحرية ، نصبا بالقرب من الجسر الأعظم في الاقليم الذى كان مغمورا بالمياه . وفي الجهة البحرية للثغرة الموصلة لأرض الفيوم توجد آثار قصر ضخم يبلغ طوله حوالى ألف قدم وعرضه ثمانمائة قدم ، استعمل معهدا دينيا واداريا . وحوى مجموعات من الحجرات بقدر عدد أقسام مصر وفي كل مجموعة منها تماثيل آلهة القسم المنسبة اليه . وفي هذا القصر كانت تجتمع هيئة الحكومة أنا قانا . قال استرابو ان كل مجموعة من الحجرات كانت عبارة عن مكتب عام لكل قسم من أقسام مصر . وقد بقيت آثار هذا القصر واضحة حتى عهد استرابو الذى شاهدها . وأطلق على هذا القصر في العهد اليونانى والرومانى اسم لا بيرانتا ، تشبها بقصر لا بيرانتا الكرى الذى الوارد ذكره في الروايات اليونانية لتشعب طرقه وحجراته . وهذا القصر عمر طويل منذ عهد الأسرة الثانية عشرة . ووصف استرابو مائة بئانه وطول بئانه فقال ما ترجمته : ”والغريب أن سقف كل حجرة من حجرات هذا القصر كان من حجر واحد وكذلك أرضها ، ولم يستعمل في بناء هذا القصر خشب أو ما شاكله من مواد العهارة“ . وقد شاهد استرابو البلدة التى أسست حول هذا القصر وقد عفت آثارها وأحمت معالمها الآن . وجاء أن الملك سيزوستريس الثانى أسس بلدة خارج الثغرة الجبلية لاقليم الفيوم سماها حوتب سيزوستريس — أى سيزوستريس القنوع — ثم شيد بالقرب منها هراما له . ومن أجل ذلك صار اقليم الفيوم أعظم الأقاليم عمرانيا وسياسيا وصار لعبوده سبك — أى التمساح — شهرة عظيمة ضاهت منزلة آمون ، فسعى آخر ملوك الأسرة الثانية عشرة سُبِكُ نَفْرُورَع نسبة الى المعبود سبك ، وقد عرف جميع ملوك الأسرة الثالثة عشرة باسم سبك حوتب نسبة الى هذا المعبود أيضا .

وحكم أمنمحت الثالث مصر مدة خمسين سنة حل فيها النعيم والأمن والسكينة على البلاد حتى ترم القوم بجلالته قائلين ما ترجمته :

هو (أى الملك) يكسو القطرين حلة خضراء أكثر من النيل العظيم .

لقد زاد القطرين قوة (كيف لا) وهو نفس الحياة المرطب للأنوف ؛

.....

هو الذى يوزع الخيرات على تابعيه ؛ هو المنذى لخلقاؤه ؛

هو الغذاء وفي فمه الخير (١) .

أما المعاملات التجارية فكانت منظمة جدا فاستعملت وقتئذ المناقيل النحاسية وكانت وحدتها الدين — الذى يعادل ١٤٠٤ قمحات (٢) . ويعد الباحث آثار أمنمحت الثالث وأسلانه منشرة للآن في جهات القطر رغمًا عما سب من أحجارها في أعمال العمارات والترميمات والاصلاحات أيام الامبراطورية ، ولذلك كان الباقي من آثار هذه الأسرة لا يستطيع تقديره . ولقد ضيع كثيرا من معالم المملكة الوسطى ما اقترفه ملوك الأسرة التاسعة عشرة وبالأخص رمسيس الثانى من طمس الكثير من آثارها وتهديمها واستعمال أحجارها لتشييد آثارهم . ويظن أن كل مدينة مهمة في عهد المملكة

الوسطى حوت معبدا لفراعة تلك العصور ولكن هذه المعابد زالت وانحلت آثارها ويشق علينا لذلك معرفة أعمال هؤلاء الملوك بالضبط . ففي طيبة مثلا — مسقط رأس ملوك هذه الأسرة — شيد أممنحمت الأول^(١) معبدا عظيما لآمون بدل المعبد الصغير الذي كان موجودا هناك . ولما أتى سيروس تريس الأول كبر هذا المعبد وشيد مسكنا ومطعا للكهنة^(٢) جوار البحيرة المقدسة وقد بقيا ثلاثمائة سنة تقريبا^(٣) . ومن آثار هذا الملك أيضا السور العظيم المشيد حول مدينة الكاب (نخب)^(٤) وهو الوحيد من نوعه الذي لا يزال سليما للآن (شكل ١٠٢) . وقد شمل أممنحمت الثالث معبد ادفو الفخيم برعايته وشيد بالعبادة معبدا جديدا لأزوريس ملأ نفوس القوم احتراما وأحيط بسور متين وسمح للأمرء بدفن جنثهم داخل ذلك السور^(٥) . ووسع الملك أيضا معبد حرسافيس (Harsaphes) بجهة إهناس (Heracleopolis) بالفيوم وزاد أثنائه^(٦) . أما آثار الفيوم نفسها فقد سبق الكلام عليها . وأما منف ومعبودها يتاح فقد أقام أممنحمت الثالث بها بعض عمارات جديدة لم يبق من آثارها إلا النادر . والظاهر أن الملك لم يمت كثيرا باقليم إثنوى وسائر القصور الملكية كما اعتنى بالجهات الأخرى . وأما رع أقدم المعبودات ووالد الفراعة فقد أكرم كثيرا في عهد الملكة الوسطى ، وكان سيروس تريس الأول من احتم بأمره من ملوك هذه الأسرة فشكلا مجلسا كبيرا من الكهنة والأعيان أبدى فيه رغبته بتشيد هيكل لرع ووضع التخطيط اللازم لذلك ، فلما جهزت المعدات ذهب الملك شخصيا كالعادة المتبعة وحضر حفلة وضع أساس المعبد ، وقد اهتدينا الى نسخة للنص الملكي الخاص باقامة هذا الهيكل بعد ما تلف وضاع بخط أحد الكهنة الذي أتى بعد عهد سيروس تريس الأول بخمسمائة سنة ، وقد نقل الكاتب هذه النسخة من النص المقوش على جدر ذلك الهيكل ، أما النسخة فمكتوبة على قرطاس بردى وجد محفوظا داخل كيس من الجلد يوجد الآن بدار التحف ببرلين^(٧) . وقد افتخر سيروس تريس الأول كثيرا باسمه على آثاره العظيمة فقد قال ما ترجمته :

”سيدكر القوم محاسنى فى معبد رع ،

وسيق ذكرى مجسما فى قفى مسلتى وفى البحيرة المقدسة أيضا“^(٨) .

أما معبد عين شمس وعين شمس نفسها وبحيرتها (التى ألمع اليها الملك فى وصفه السابق) فقد بليت ولم يبق منها إلا قمة إحدى مسلاته التى لا تزال باقية تمجد ذكرى ذلك الملك العظيم (شكل ٨٧) . والمعروف أن الوجه البحرى صار وقتئذ جنة يانعة كثيرة الخيرات والمدنية بفضل تحسين مشاريع الري ، الأمر الذى هو نتيجة أعمال الفيوم الصيفية العظيمة . وبالرغم مما أصاب معظم آثار الوجه البحرى كما ألمعنا من التلف فلا تزال توجد بجهة تيس (Tanis) وتل بسطه آثار تثبت ما كانت عليه مدن ذلك القطر من العز والتعمير فى عهد الأسرة الثانية عشرة . وهناك بقايا لمعابد أقامها أمراؤها فى أنحاء

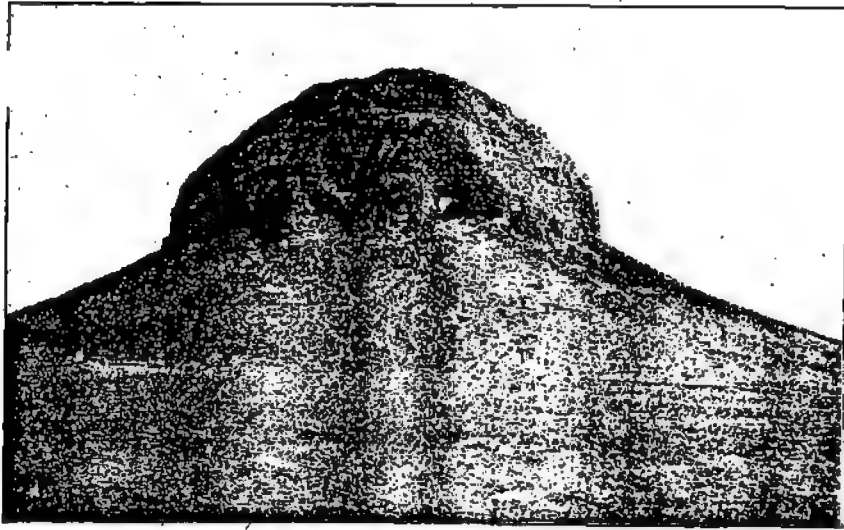
(١) ٤٨٤ : ١ (٢) ٤٨٨ - ٤٩٠ شرحه (٣) ٤٨١ : ١ - ٧٤١ : ٢ (٤) ٥٣٤ : ١ (٥) ملاحظة (ب)
(٦) ٥ - ٦٧٤ : ١ (٧) ٥٠٦ - ٤٩٨ : ١ (٨) ٥٠٣ : ١



شكل ٩٠ - نصف العلوي
لنقشال أمنمحت الثالث
بدارتحف عاصمة روسيا



شكل ٨٩ - صورة أمنمحت الثالث مأخوذة من تمثاله
المصنوع ببيتة أبي الهول بجهة تيس (زوان)



شكل ٩١ - هرم سينوستريس الثاني بجهة اللاهون مشيد بالبن

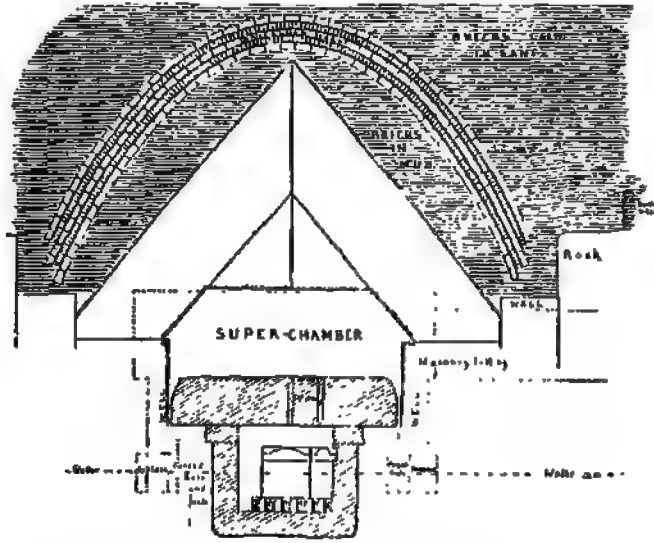
القطر من الشمال الأول الى الشمال الغربى للدلتا ، ومنها استنتج أن بناء المعابد والقصور لم يكن مقصورا على ملوك ذلك الوقت بل شمل أيضا حكام الأقسام الأغنياء الأقوياء (١) (٢) وقد أقام هؤلاء الحكم أيضا معابد صغيرة للترحم فيها على أرواحهم (٣) ولولا خرابها لعرفنا كثيرا من رفاة البلاد وعزها وقتئذ .

ويعزز رأينا هذا آثار المقابر الفضة الباقية من عهد حكم الإقطاعيات والتي هي الآن في حالة سيئة للغاية . وقد ذكرنا فيما سبق أن تشييد المقابر على شكل مصاطب أخذ يتقدم تدريجا ، ثم استبدلت بالمصاطب كهوف محفورة داخل صخور جبلية . وسفر القوم في هذه الصخور دهاليز وأبارا وغير ذلك . أما المعابد التابعة لتلك المقابر فكانت مثلا لحضارة تلك العصور وعمراتها فقد حوت، بجدرها الكثير من المعلومات التاريخية الخاصة بأصحابها ، وتعتبر هذه المعابد أهم مصادر معارفنا لتاريخ ذلك الوقت . وهكذا صار لتلك الساحات ذات العباد قيمة علمية عظيمة . وبفحص أهرام الأسرة الثانية عشرة اتضح لنا أن المقابر الملكية فقدت أهميتها التي كانت لها أيام المملكة القديمة ، فلم تمد الحكومة تصرف عليها الأموال الباهظة والأشغال الكثيرة ، والسبب في ذلك أن ملوك ذلك العصر اعتبروا مقابرهم أقل أهمية من المشروعات الأخرى النافعة . وأول من بدأ بهذه الحركة الرجعية ملوك الأسرة الحادية عشرة الذين شيّدوا أهرامهم باللبن . ولما أتى أمنمحت الأول شيّد باللبن هرمه من الداخل وكساه من الخارج بالجر الجيري ، ويوجد هذا الهرم جهة اللّشت (شكل ٩٤) (٤) . وقد حذا حذوه سائر ملوك هذه الأسرة إلا واحدا ، وتشاهد أهرامهم منتشرة من مدخل الفيوم حتى دهشور جنوبى منف ، فهرم سيزوستريس الأول موجود في لشت بجوار هرم والده . أما أمنمحت الثاني فقد اختار لبناء قبره جهة دهشور شمالى اللّشت . ودفن سيزوستريس الثاني عند مدخل الفيوم ببلده الجديد حوتب سيزوستريس القريبة من اللاهون (شكل ٩٦) . أما سيزوستريس الثالث فاختار لهرمه جهة دهشور شمالى هرم أمنمحت الثاني . ثم أتى أمنمحت الثالث فاختار لهرمه مكانا جنوبى هرم أمنمحت الثاني . أما هرم هواة التابعة للفيوم والقريب من قصر اللايرانتا فنسب القوم أولا الى أمنمحت الثالث ، لكن الرأى الغالب الآن يميل الى نسبتته الى أمنمحت الرابع ، وهذا الأخير هو الوحيد في هذه الأسرة الذى نجعل موضع هرمه بالضبط . وتماز أهرام هذه الأسرة بتركيبها وكثرة تعاريفها الداخلية وسجورها وإخفاء معالم مذاقها لتضليل الصوص . وأعظم هذه الأهرام تعقيدا هو هرم هواة الذى يبلغ ارتفاعه نحو مائة وتسعين قدما ومساحة قاعدته المربعة حوالى ثلاثمائة وأربع وثلاثين قدما . ومدخل هذا الهرم في منتصف النصف الغربى للوجهة القبلىة ومنه تبدئى طريقة فى طبقة صخرية أسفل الهرم تتعرج أربع مرات قبل أن تنتهى باللحد الذى يوصل اليه من الجهة الشمالية . وتشاهد فى تلك الطريقة ثلاثة سدود صخرية عظيمة الحجم والثقل لمنع الصوص من الوصول الى الجثة كما تلاحظ أيضا عثة مسالك و منافذ مضللة عملت خصيصا للعرض نفسه .

(١) ٦٣٧:١ ملاحظة (١) (٢) ٦٣٧:١ (٣) ٧٠٦:١

Mém. sur les Fouilles de Licht, par J. E. Gautier et G. Jéquier, Calro, 1902. (٤)

ويبلغ طول حجرة التابوت اثنتين وعشرين قدما وعرضها ثمانية أقدام وارتفاعها ستة أقدام وهي منحوتة في صخرة واحدة من الحجر الصوان الشفاف (Quartzite) تقدر زنتها بمائة طن وعشرة. وليس لهذه الغرفة باب بل يدخل إليها من فتحة بالسقف مسدودة بصخرة ترن خمسة وأربعين طنا (١) (شكل ٩٢) . ومع هذه الاحتياطات نهب اللصوص هذا الهرم بعد وفاة صاحبه ، ويؤكد الآثريون أن بعض الموظفين أو الملوك الذين أتوا بعد وفاة صاحب هذا الهرم اشتركوا في تلك الجريمة . ويفحص السدود الثلاثة لوحظ أن الآشين الداخليين منها لم يقفلا وأن السد الخارجي وحده هو الذي أقفل ومنه استدل أن موظفي تلك العصور كانوا سيئى الأخلاق أحيانا لأنهم اعتقدوا



شكل ٩٢ - صورة قطع رأس هرم هواره تظهر علاقة حجرة الموميا بمائرأجاء الهرم (مأخوذة عن برى) : وهذه ترجمة النصوص الانجليزية في هذا الشكل ماء Water - مقعد بالطوب اللبن Brickwork arch - صخر Rock - بئر Well - لبن مرصوص في الرمل Bricks in'd in sand - حجرة عليا Super chamber جدار Wall - لبن ملصوق بلين Bricks in mud - ممر Passage - نفوس للفضليل Forged hole and well - تصميم ممرى Masonry filling - ثمر للفضليل Forged hole

أن اغلاق السد الخارجي كاف لاقتناع أهل الملك بأن الاحتياطات الداخلية جميعها عملت ، ولا يبعد أن تعدد سرقات الأهرام كان سببا من الأسباب التي جعلت الملوك يمتدنون دفن جثثهم في أهرام . لذلك أخذ الملوك يختون مقابرهم داخل الصخور الجبلية ، لكن بعضهم شيد لنفسه أهراما صغيرة بجهة طيبة . بهذه الكيفية انتهى تاريخ بناء الأهرام التي هي أنعم وأضخم أنواع الآثار المصرية والتي يرجع تاريخها الى ما قبل عهد الامبراطورية ، ولا تزال الأهرام باقية في مصر منذ تلك العصور السحيقة يراها السائح منتشرة في مصر من رأس الدلتا شمالا من الجهة الغربية لوادى النيل بحافة صحراء ليبيا على مسافة خمسة وستين ميلا تقريبا على خط مستقيم .

ولم يحفظ لنا التاريخ الا القليل من مباني المملكة الوسطى عرفنا منها عمارتهم . ويستدل من مقابر ذلك العصر أن فن البناء حذا حذو المملكة القديمة وأن المعبد ذا الشرفات الذى شيده أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة بالدير البحرى بجهة الأقصر اتخذه كبار مهندسى البناء فى عهد الامبراطورية أعمودجا لمبانيم . ودلتنا الآثار الباقية التى عثر عليها بترى فى محل قصر لايرانتا ودلتنا وصف استرابو لهذا القصر أنه كان غاية فى العظم والأبهة بصرف النظر عن حجمه وخطامته . أما عمارة المنازل فقد انعدمت آثارها انعداماً تاماً . وقد عثر الأستاذ بترى على خريطة لمدينة اللاهون القديمة بالقرب من هرم سينوستريس الثانى تظهر رسم أحياء العمال وكيفية اتصال بعضها ببعض وتكديسها (خريطة ١) . ولم ننتد الى الآن على آثار لقصور سرة القوم ولذلك لا تزال معلوماتنا عن بنائهم ضئيلة جداً .

أما الفنون الجميلة فتقدمت كثيراً عما كانت عليه فى عهد المملكة القديمة . وبلغت فى الحفردرجة رفيعة من حيث الاتقان وخطامة الحجم ، مثال ذلك تماثلاً أمتنحت الثالث المنصوبان أمام بحيرة موريس فان ارتفاعهما يتراوح بين أربعين وخمسين قدماً ، وكذا تماثال حاكم قسم الوعل (سمح) المدعو تحوت حوتب فقد كان ارتفاعه اثنتين وعشرين قدماً . وكثر عدد التماثيل وقتئذ فقد وجدنا فى هرم أمتنحت الأول جهة لشت عشرة تماثيل له (شكل ٩٥) . وروى أحد مفتشى المآلية المدعو سى حانخور أنه أشرف على انجاز ستة عشر تماثلاً لأمتنحت الثانى صنعت لهرمه بدهشور^(١) . وقد عثر على عدة بقايا لتماثيل ضخمة بجهة تينيس (Tanis) (شكل ٩٣) وتل بسطه . وقد ألمعنا سابقاً أن سينوستريس الثالث أقام لنفسه تماثلاً على الجدر الجنوبية فى النوبة^(٢) . ويستدل من تماثيل هذا العصر على مهارة قدماء المصريين فى فن رفع الأثقال (الميكانيكا) والتصوير . وبمقارنة تماثيل الأسرة الثانية عشرة بتماثيل المملكة القديمة لوحظ أن الأول أبعد من المظهر الطبيعى وأضعف تأثيراً فى النفوس ، والسبب فى ذلك أن المثال أصبح الآن مضطرباً لأن براعى فى مهنته قواعد عتيقة لا يمكن الافلاج عنها . وجاء فى الآثار أن أحد الفراعنة بحث فى الكسب القديمة عن شكل أحد المعبودات ليقم له تماثلاً مشابهاً لتمثاله القديم الذى عمل فى حضرة المعبودات وقتها فزروا فيما بينهم إقامة تماثيل لهم على وجه الأرض^(٣) . بهذه الكيفية صار القوم يقلدون القديم فى صنع تماثيل الملوك والأمراء مفضلين أقدم الأشكال ، ولهذا السبب تأخر فن الحفر عما بلغه فى عصر المملكة القديمة من الازدهاء والمطابقة للطبيعة . ومع ذلك فقد وجدت تماثيل وبعض أجزاء لتماثيل غير متكلفة الصنع تتجسم فيها معالم الحياة وتقرأى فيها تجاعيد الوجه والأعضاء كما يشاهد ذلك فى تماثال أمتنحت الثالث البديع المحفوظ بمتروغراد (شكل ٩٠) ، وفى رأس الملك المركبة على جسم أسد بشكل أبى المول الذى عثر عليه بجهة تينيس (شكل ٨٩) ، وكذا رأس التمثال العظيم لسينوستريس الثالث الذى وجد حديثاً جهة الكرك . كل هذه التماثيل تشهد لصانعها بالمهارة والدقة والكفاية والصبر فى أعمالهم . والحق يقال ان هؤلاء الفنانين تمكنوا من اظهار معظم ملامح الوجه بوضوح على صلابة الأحجار . والمعالم أنه كلما سهل تحت المسادة ظهرت براعة الحفار ويشاهد ذلك فى تماثال الأمير

إيوب رع (شكل ٨٨) الذى يتجسم فيه جمال الحيا ولطافة المعالم الجسمية . وكثيرا ما تشاهد على جدر المحاريب بمقابر حكام الأقسام صور ملونة تمثل هؤلاء السراة ومصنوعاتهم ، لكنها ليست جميلة كصور المملكة القديمة لأنها محفورة في حين أن نقوش المملكة القديمة بارزة واضحة فوق مسطح الأحجار .

ولما كان حكام الأقسام كثيرى الشغف بالصناعات والحرف الجميلة تحمست المصنوعات كثيرا وزاد عدد صناعاتها في أنحاء البلاد^(١) . وغنى عن البيان أن صناعات القصر الملكي كانوا أربع أفراد طائفتهم لأنهم تعلموا هذه الصناعات بالوراثة منذ أقدم الأسر المصرية . فالخلى الذى مثر عليه بجملة دهشور الخاص بإحدى الأميرات (شكل ٩٧ و ٩٨) أظهر بلا مراء مهارة صنانه المدهشة ، لأنه حوى من الدقة وحسن النوق ما يصعب على أشهر صاغة أوروبا الاتيان بأحسن منه ، وقد تربت به أوانس بيت أمتنحت حوالي القرن العشرين قبل الميلاد .

واستنتجنا من أدبيات الأسرة الثانية عشرة معلومات كثيرة عن ثروة القطر وأحوال المعيشة فيه ، من ذلك ما المعنا اليه من تشجيع الحكومة انتشار القراءة والكتابة بين الأهالى . ولما احتاج القوم الى سرعة العمل وسهولة الكتابة اخترلوا خطهم وابتكروا لذلك حروف هجاء بسيطة وصلت اليها صورها بالكيفية التى كانت تلقى للطلبة وقتئذ^(٢) ومنها استنتجنا شدة العناية الذى كابدته هؤلاء القوم في دراستهم . أما أسلوب الكتابة وآداب اللغة في ذلك الوقت فقد اعتبره المصريون في العصور التالية مثلا للبلاغة والفصاحة وقد وافقهم على ذلك جمهور الأثريين الحديثين مع ما صادفهم من المصاعب في فهمها . ولاحظ أن مصر هي البلد الوحيد الذى حافظ على أقدم أدبيات لغته العتيقة ، وبما يدل على شدة عناية القوم بهذه الأدبيات اهتمامهم برواية سنوحى الذى قرأ الى سوريا بعد وفاة أمتنحت الأول ورجع كهلا الى مصر والذى حارب بآسيا وقضى بها مدة طويلة^(٣) ، فقد تأثر القوم كثيرا بهذه القصة فتجاذبوا في أحاديثهم وكتبوها على قطع الأحجار وعلى شواهد القبور الحجرية تسلية لبيت في الآخرة . ومن روايات تلك المصور قصة كقصه السنبداد البحرى جاء فيها أن بعض ملاحين مصريين أبحروا مرة الى الصومال فهبت عليهم عاصفة حطمت السفينة ومن فيها إلا واحدا منهم سبح على سطح الماء حتى بلغ جزيرة تحكها أفعى ، وعاش هذا الشخص بالجزيرة مدة من الزمن في هناك ونعم ثم رجع ثانيا الى بلده مزودا بالهدايا والخيرات ، فأخذ يقص روايته لأهل بلده مظهرا لهم عجائب ما شاهده والتقى به^(٤) . ولم تسلم القصور الملكية ولا أسرها من أن تكون حوادثها مواضع لروايات وخرافات يتسلى بها القوم كما ورد في القصة الخاصة بتولية الأسرة الخامسة لللك^(٥) ، التى انتشرت كثيرا بين الخلق والتي لم نثر على نسخة منها إلا بعد سقوط الأسرة الثانية عشرة بقرن أو قرنين تقريبا . واجتهد رجال الفضل والعلم في اظهار فوائد آداب لغتهم ومعرفتها فألقوا الحكايات التى تبادلتها السنة العامة والتي أظهرت عظم تأثير الفصاحة والبيان في بعض الأحوال ، من ذلك

(١) ١٣٨ : ١ (٢) Kahun Papyri, pp. 67-70. (٣) ١٨٦ : ١ — ٤٩٧

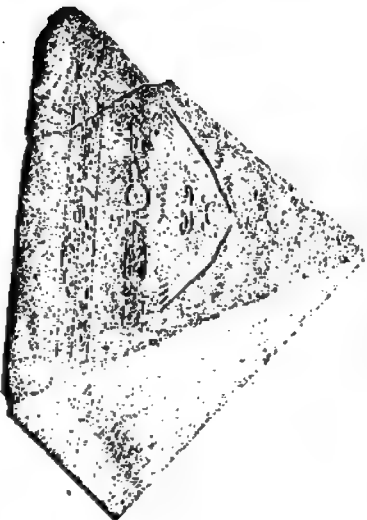
Unpublished papyrus in St. Petersburg ; see Günterich, Abh. des Berliner Orientalistenkongresses. (٤) Papyrus Westcar, Berlin, P. 3081. (٥)



شكل ٩٥ - صورة خشبية لثلاثة تماثيل مصورة من الحجر الجيري
 اكتشفت الأول وجدت مع سبعة تماثيل أخرى من زوجها
 بأمرام هذا الملك بجبة ألفت (دارعصف القاهرة)



شكل ٩٣ - مثل ماخوذ لمدنيس (زمان)
 بالوجه اليسرى في اتجاه عمود (برقي)



شكل ٩٤ - حفرقة من أمنمست الثالث بهضورد

أن أحد الفلاحين برع في المناقشة والمجادلة شكا الى الملك موظفا حكوميا أضربه ، وأظهر الفلاح في سرد دعواه من فصيح اللسان وبديع العبارات عسف ذلك الموظف ، فأمر الملك بإحضار الفلاح لسمع بأذنيه فصاحة منطقته وعذب بيانه . ولم نفهم للآن الكثير من أساليب هذه القصة العويصة ولا معنى بعض النصوص الشعرية لصعوبة فهمها وسبب ذلك أننا لم نتوصل الى معرفة اللغة المصرية القديمة معرفة تامة للآن (١) . وقد ألمعنا سابقا الى نصائح أمنمحت الأول لابنه وقد تناولت الألسن والكتّاب هذه النصائح مدّة طويلة فوصل اليها منها سبع نسخ (٢) . وأصبح حب الاطلاع وممارسة العلم شغل الكثير من الناس ، كما يستدل من نصيحة رجل في عهد الأسرة الثانية عشرة لابنه يفضيه في الصنائع ويحبب اليه العلوم (٣) . ويستنتج اهتمام القوم وقتئذ بالعلوم من حكم الوزراء العقلاء الأقدمين مثل يتاح حوتب (٤) وقائمه التي حفظها لنا كتاب الملكة الوسطى على قراطيس بردية . وورد عن أحد فلاسفة تلك العصور أنه سمّ الحياة فناجى شبحه ورجاه أن ينهى حياته الدنيوية ليعيشا معا في الآخرة في هناء وصفاء (٥) . ووصلت اليها رواية أخرى من تلك الأزمنة جاء فيها أن ساحرا يدعى إيبور (Ipuwer) أنذر فرعون مصر بمحصول اضطرابات ونقط في المملكة يصير فيها الغنى فقيرا والفقير غنيا ، ثم يغزو البلاد قوم أجانب فيقلب النظام وأسا على عقب . وبعد ما سرد الساحر كثيرا من هذه الأخبار المحزنة قال انه سيأتي بعد ذلك رسول " يطفى نار ذلك اللهب فيمتدحه الخلق ويعتبرونه راعيهم لسلامة قلبه . يبقى هذا الرسول يلم شعث الضال من قومه فيلثف الناس حوله ويعضدونه بكل قواهم لينجهم من بلائهم ومصائبهم فيدفع الضرر بذراعيه بقوة ثم تسأل الساحر قائلا : أين ذلك الرسول الآن ؟ هل هو يتام معنا الآن ؟ (٦) . وتعتبر هذه الرواية مثالا للتنبؤ في تلك العصور توقع فيها قائلها مجيء رسول كسيدنا داود عليه السلام يجي الخلق من الشر الملم . ولا يبعد أن يكون القصد من هذه الحكاية القيام بمناورة من جهة البيت المالك يراد بها مدح حكمهم على لسان هذا الساحر فيذكر للناس محاسنهم ويبض صحائفهم ويخفي باللوم على الظلم الذي حل بالقطر قبل حكمهم . وأخذت أمثال هذه التنبؤات تزداد تدريجا منذ ذلك العهد حتى العهدين اليهودي والمسيحي . وتعتبر هذه القصة أقدم نبؤة معروفة للآن ، ولا يبعد أنها التوراة الأصلية الجامعة لتنبؤات رسل العبرانيين المعروفة حسنوها وصاغوها بأسلوب أمتن .

وتمتاز كتابة ذلك المصر بكثرة شبهها بالأساليب الشعرية حتى صعب علينا التمييز بين شعرها وثرها ، فالحكايات المدونة سابقا أساليبها الى الشعر أقرب منها الى النثر ، وقد استنتج من نقوش عامية عديدة أنها شعرية الأسلوب ، مثال ذلك الأنشودة التي ترنم بها القوم وقت حصد غلالهم وسوق البهائم ، وهناك أناشيد أخرى تشبهها كان الصنائع مغرمين بتلاوتها . وقد وصلتنا أنشودة كان يترنم بها لآعب

(١) Berlin Papyrus 3023 and 3026. (٢) ١ : ٤٧٤ ملاحظة (٣) Pap. Sallier II. (٤) Leyden Papyrus I, 344; see Lange, Sitzungsber. (٥) Berlin Papyrus 3024. (٦) Pap. Prisa. (٧) der Berliner Akad., XXVII, 601-610.

القيتارة في ولائم الوجهاء كلها تشجيع وتمجيس للفرح والسرور قبل حلول اليوم السيء الطالع الذي ينتهى فيه الأجل المحتوم والذي ينتقل بعده الانسان من هذا العالم الى العالم المظلم الأخرى (شكل ٩٦)
واليك ترجمة هذه الأثسودة :

” ما أسعدك أيها الأمير ! لعلك تعلم أن هذه الحياة محتم عليها الفناء ، فالأجساد تموت وتعدم ثم يأتى بعدها آخرون يحملون محالها ،

” انظر الى الآلهة (أى الفراعنة) الموجودة فى الأهرام من قديم الزمان ، والى الأمراء والحكام الذين دفنوا فيها ، تجدهم مطروحين فى أخلادهم . (ولاغرابية) فكل من شيد منزلا (قبرا) زال أثره من الوجود ؛

” استمع لى فسأخبرك بما آل اليه أمر هؤلاء القوم . لقد سمعت حكما محمداً وحرزوزف الذائعة الصبى ، ولكن أين هما الآن ؟ لقد تحطمت بيوتهم ، وانعدمت آثارهم ، فلا خبر يأتينا من ناحيتهم ينبئنا عنهم ، ويطمئن قلوبنا قبل أن نرحل الى ذلك المكان .

” تناس تلك الأمور واصرف همك فيما يتفكك . اعمل كل ما تطلبه نفسك ، عطر رأسك بالمر ، واكس نفسك بالكفان الجميل المعطر بالروائح الذكية المقدسة . وأكثر من الفرح والسرور حتى لا يمحزن قلبك .

” اتبع شهواتك ومسراتك ، وسير الأمور كما تشتهيها ، حتى يأتيك يوم الحزن وهو اليوم الذى لا يسمع فيه قلبك الساكن ما يدور حوله من النحيب .

” البكاء لا يعيد لى الحياة . فنتم اذن فى هذا اليوم الجزل ! ولا تهمله يذهب سدى ! فلا أحد يأخذ من الدنيا شيئا معه ، كما أنه لم يرجع الى هذه الدار من ذهب الى الدار الآخرة “ .

وأقدم قصيدة للديج تجسم فيها الأساليب الشعرية والأديبات اللغوية هى التى قيلت فى سيزوستريس الثالث وهى مقسمة الى ستة أقسام واليك ترجمة قسم منها :

” أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا ملك مدينته ! لقد فقت سواك بملايين الأذرع . أنت بين حكامنا الآدميين كسيد بنى الرعية !

” أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا ملك مدينته ! أنت كالسد العظيم الحاجز لتيار الفيضان .
” أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا ملك مدينته ! أنت الملجأ الذى يستريح فيه الانسان حتى يسطم ضوء النهار !

” أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا ملك مدينته ! أنت كالحصن المشيد جدره من أحجار حادة من مدينة قسيم !

” أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا ملك مدينته ! أنت مأوى اللاجئين اليك من عبث قطاع الطريق !

” أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا ملك مدينته ! أنت حامى الضعيف الخائف من عدوه القوي !
” أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا ملك مدينته ! أنت مظلة القبط وخضرة النيل في فصل الحصيد !

” أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا ملك مدينته ! أنت الركن الدافع الجلف في زمن الشتاء !
” أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا ملك مدينته ! أنت الصخر الحامى من ويلات العواصف !
” أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا ملك مدينته ! أنت في الشدة كالعبود سخيت ضد من يظا أرضك !“

والمظنون أن قصة أزوريس وما حوته من الأخبار المؤثرة أثارت عواطف الأهالي وأقلام الكُتاب والسنة القوم ، لكننا لم ننتد مع مزيد الأسف الى المعلومات الكافية عن هذه القصة المؤثرة المعترية أقدم قصة من نوعها معروفة في التاريخ .

ويعتاز عهد المملكة الوسطى بجهلنا بمشاهير رجاله مع كثرة ما وصل اليها من مصنوعاتهم وأديياتهم ، وجل ما وصل اليها بعض أخبار خاصة عن أفراد قلائل اشتهروا بين قومهم بالحكم والآداب . وتمتاز أدبيات هذه العصور بكثرة تخيلاتها ورشاقة أساليبها ، فقد بلغت درجة فاقت فيها كثيرا ما بلغته اللغة في أى عهد لمتة خمسمائة سنة أى منذ سقوط المملكة القديمة (حيث كانت الأدبيات وقتئذ في بدايتها) ، ولكنها لم تكن مرتبطة المعان والأساليب . ويظن أنه لو عاشت قصة أزوريس لغيرت كثيرا من استنتاجنا هذا .

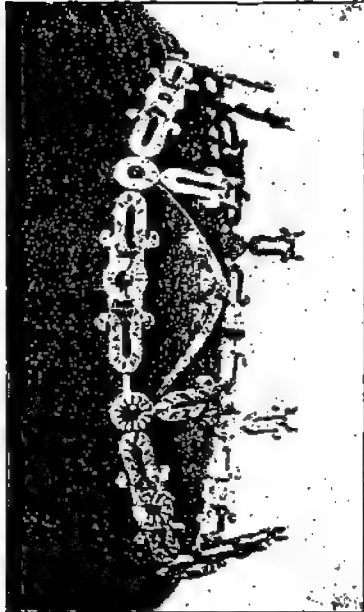
لاشك أن القارئ عرف مما أوردناه سابقا أن المملكة المصرية بلغت درجة رفيعة من حيث القوة والثروة والانتاج أيام أمنمحتت الثالث . زد على ذلك أن عصر هذا الملك اعتبر أرقى عهد للآداب ، والمعروف أن شمس هذا العهد أخذت تبرز على القطر منذ حكم أول ملوك الأسرة الثانية عشرة . واستمر أمنمحتت الثالث في كفاحه السياسى حتى آخر أيامه ، فأنتم بناء خزان المياه جهة صربوت الخادم بطورسيناء وكذا بناء سور مدينة الكاب في السنة الرابعة والأربعين من حكمه ، لكنه لما توفى عام ١٨٠١ قبل الميلاد أخذت قوة هذه الأسرة تضعف ، وقد أول بعض الأثريين هذا الضعف الادارى بتكبير وفاة ابنه الذى شاركه في الحكم في آخر أيامه ، وقد عثر على قبر ينجوار هرم أمنمحتت الثالث شيد لأمير شاب يدعى إوبرع كتب اسمه داخل خانة ملكية (شكل ٨٨) ، لكن يلاحظ أن هذا الاسم لا يشابه أسماء ملوك الأسرة الثانية عشرة ، وأن ملكا بهذا الاسم وورد ذكره ضمن درج نورين البردى يرجع تاريخه الى الأسرة الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، ولذلك لا يزال مركز هذا الأمير التاريخى مجهولا .

وتوفى أمنمحات الثالث فتبعه في الملك أمنمحات الرابع وكان شريكاً له في الحكم مدة قصيرة قبل الوفاة . لكن هذا الملك لم يدم طويلاً فقد توفى بعد تسع سنوات لم يترك فيها سوى بعض آثار صغيرة استدل منها على اضطلال وتقهقر المملكة وقتئذ بعد ما حافظت على رقيها وعزها مدة مائتي سنة تقريباً . ولم يترك أمنمحات الرابع وريثاً للملك ولذلك تبعته في الملك أخته سيك نفور رع التي سماها مانيتو سكيوفريس (Skemiophris) والتي توفيت بعد ما حكمت أربع سنوات .

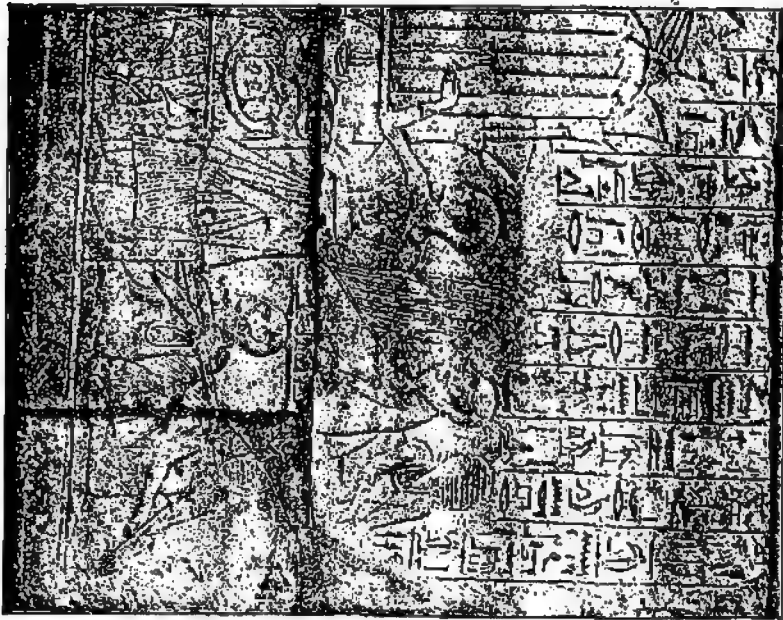
من هذا يتضح أن الأسرة الثانية عشرة حكمت القطر المصري مدة مائتين وثلاث عشرة سنة وشهر واحد وبضعة أيام .



شكل ٩٧ - ١ - قبل الأبيدوس في الأسرة الثانية عشرة رسمه جبرها
جبهة دشنور (دار صنف القاهرة)



شكل ٩٨ - ١ - قبل الأبيدوس في الأسرة الثانية عشرة رسمه جبرها
جبهة دشنور (دار صنف القاهرة)



شكل ٩٩ - ١ - قبل الأبيدوس في الأسرة الثانية عشرة رسمه جبرها
جبهة دشنور (دار صنف القاهرة)

الكتاب الرابع

الميكسوس : بزوغ شمس الامبراطورية المصرية

الفصل الحادى عشر

انهيار صرح المملكة الوسطى ، الهيكسوس

كان انتقال الحكم من الأسرة الثانية عشرة الى الأسرة الثالثة عشرة هادئا . وأول ملوك الأسرة الثالثة عشرة هو *يُحْنِم رَع حُو تَاوِي* ، وكانت مملكته ممتدة من الدلتا شمالا الى الشلال الثانى جنوبا^(١) . ووجدت باقليم الشلال الثانى نقوش لمقاسات مياه النيل فى الأربع السنين الأولى لحكم هذا الملك^(٢) وعلمنا أيضا أن قلعة تلك الجهة قامت عليها حامية^(٣) ، وأن رسوم وضرائب الأملاك جمعت من الوجه البحرى كالمعتاد^(٤) . لكن هذه الحال لم تدم طويلا لأن خلفاء هذا الملك كانوا أقل هممة وكياسة من ملوك الأسرة الثانية عشرة ، لكنهم مع ذلك نسبوا أنفسهم اليهم وسموا بأسمائهم . والظاهر أن الملك انتقل وراثيا بين يدى الملوك الأربعة الأولى لهذه الأسرة ، وبعد ذلك اغتصبه المدعو *يوفنى (Yufni)* كما ورد فى درج تورين البردى . وهذه الرواية كثيرة الاحتمال لأن هذا الاسم ضعيف الشبه بأسماء ملوك الأسرة الثالثة عشرة الأولى وبالأسماء الملكية المعتادة ، فانضح لنا أن هذا الغاصب تغلب على صاحب الحق الملكى وقتلوه وهو أمر كثير الحصول فى الشرق على اختلاف العصور .

على اثر ذلك عمّت الفوضى فى البلاد وقامت المنازعات الشخصية بين حكام الأقسام وغبة فى الملك والجاه ، فنجح بعضهم أحيانا ونحل لنفسه الألقاب الفرعونية لكنه لم يمكث طويلا فكان يتبعه شخص آخر . ومن هؤلاء الملوك اثنان يسميان *سِيكْتَأَف* شيئا لأنفسهما هرمين صغيرين بطيبة ، وقد ذكر أحد هذين الهرمين فى نصوص الرمسيسيين حيث ورد أنه قُتِل فوجد مسروقا وذلك بعد وفاة صاحبه بثمانى سنة تقريبا^(٥) . وحقق أمر هذه السرقة وقتل وألقى القبض على اللصوص فأقر هؤلاء بجريمتهم وأصبحوا كيفية سلبهم لحل جثة الملك وجثة الملكة المدعوة نوب خاس وكيفية الاستيلاء على الأهمية والأحجار الكريمة بهما^(٦) . واستدل من أوراق التحقيق أن بعض ملوك الأسرة الثالثة عشرة اتخذ طيبة مقرا للحكم وأنهم كانوا طبيين فى الأصل . وجاء أيضا أن أحد الغاصبين المدعو *نِفْر حَوْتَب* عزل أحد الملوك الملقين باسم *سِيك حَوْتَب* وتبوأ الملك محله وأعلن هذا الأمر جهارا وبجمله على الآثار ذا كرا اسم والديه غير المتتمين للبيت الملك^(٧) ، وترك أيضا نصوصا على أثر العراية أشار فيها الى عناية العظيمة بمعبد أزوديس وبالمدنية نفسها^(٨) ،

(١) ٧٥١:١ (٢) ٢-٧٥١:١ (٣) ٧٥٢:١ (٤) Kalen Papyri pl. IX. f. 1: p. 86.

(٥) ٥١٧:٤ (٦) ٥٣٨:٤ (٧) ٥٧٣:١ (٨) ٧٧٢-٧٥٣:١

لكن هذا الملك لم يحكم سوى إحدى عشرة سنة ثم توفي تتبعه في الملك ابنه المدعومى حاتحور (١) وهذا لم يدم طويلا لأنه ترك عرشه لعمه المدعومى نِفْرَ خَارَغِ سِيك حُوتِب أكبر ملوك هذه الأسرة . وما جاء عن هذا الملك أنه مَدَّ حدود مملكته الجنوبية الى جزيرة أروجو جهة الشمال الثالث وقد ظهر لنا الآن أن هذا خطأ لأن شمال هذا الملك الذى وجد يجهة أروجو والذى يمثله بمجمه الطيى نقله الى تلك الجهة ملك نوبى آتى بعده . وعلى كل فحكم هذا الملك كان مقرونا بالرخاء والرق بالنسبة لأحكام سائر ملوك الأسرة الثالثة عشرة الآخرين .

بعد ذلك آتى عهد امتاز بقلة أخباره ومعلوماته يظهر أن أحوال البلاد الداخلية كانت فى أثناءه سيئة للغاية ، ويظن أن أحد النوبيين استولى وقتئذ على عرش المملكة المصرية . وبصرف النظر عن قيمة هذا القول من الصواب فقد كتب هذا النوبى كلمة نحسى التى تعنى " الزنجى " داخل خانة ملكية إشارة الى نفسه . وورد أيضا اسم ملك آحر من تلك المصور لقبه مرشو (Mermesho) أى أمير الجيش ، اعتلى العرش وكان على ما يظهر قائدا للجيش ثم اغتصب الملك بقوته وسركه الحربى . وفى ذلك الوقت عمت الفوضى فى البلاد وساد سوء النظام فيها فانقسم القطر الى عدة أقسام صغيرة مستقلة أكبرها جنوبا قسم طيبة . وقد اهتمتينا الى أمر ملكى لأحد ملوك ثلاثة مدعويين باسم إَنْتِف ولقبه نوبْ خَبْرورِعِ إَنْتِف ، جاء فيه أنه عزل حاكم مدينة قفط لثبوت خيانتة للملكة . ويعتبر هذا دليلا ساطعا على سوء أحوال البلاد الداخلية وقتئذ (٢) . وما قاله الملك فى أمر هذا العزل " أن كل ملك أو حاكم يتولى ادارة القطر المصرى يستحق اللعنة اذا أظهر شفقة أو عطفًا نحو أى خائن لبلاده " . ووجد فى طيبة هرمان لاثنين من الملوك ملقبين إَنْتِف بقيا الى عهد الأسرة العشرين ، وورد ضمنهما فى الآثار الرميسية أن أحد الهرميين سرقتة الاصوص وتوصلوا الى دخوله بحفر نفق أرضى (٣) . ولا تحوى الآثار المصرية الا النادر من الأسماء الملكية الكثيرة التابعة للأسرة الثالثة عشرة الوارد ذكرها ضمن قرطاس تورين البردى . وأظب آثار هؤلاء الملوك عمارات صغيرة أو تماثيل أو جعل حقيرة ، ويرجع ذلك الى عدم وفرة القوة والمسال والوقت الكافى للقيام بالآثار الخالدة . ولا غرابة فى ذلك فقد كان الملوك يقبلون بسرعة حتى استحال على أحدهم اقامة آثار كبيرة أو كثيرة تستتج منها بعض المعلومات عن سلطان البلاد وقوتها وادارتها وقتئذ . والدليل الوحيد لتاريخ هؤلاء الملوك هو درج تورين البردى المذكور وهو عبارة عن قرطاس ممزق لا نستطيع أن نحكم بصحة ترتيب أجزائه ولا بملاقة تلك الأجزاء بعضها ببعض اللهم الا فيما يتعلق بأسماء ملوك وأردة على قطعة سليمة منه . وتراوح مئة حكم كل ملك من ملوك هذه الأسرة بين سنة وثلاث سنوات وقد قصرت أحيانا فبلغت يومين أو ثلاثة . أما مجموع هؤلاء الملوك فمائة وثمانية عشر ملكا ومجموع مدد حكمهم نحو مائة وخمسين سنة . وربما شهبنا هذه الحال تماما بحال مصر فى عهد الخلفاء العباسيين لما بلغ عددهم سبعة وسبعين خليفة فى مئة مائة وثمانى عشرة سنة (من عام ٧٥٠ الى عام ٨٦٨ ميلادية) .

Turin Pap. Frag. No. 0; Petrie, Scarabae. No. 309 (1)

(٢) ١٤: ٤ ملاحظة

٧٨٠-٧٧٣: ١ (٣)

وقد انتابت أوربا مثل هذه المصير بعد وفاة الإمبراطور كومودوس (Commodus) حيث ولّى الحكم رجال حربيون بلغ عددهم ثمانين في مدى تسعين سنة تقريباً^(١). أما ماينتو فلم يعلم شيئاً عن ذلك العصر المرة ولذلك لم يذكر لنا الا جدولاً بأسماء ملوكه مقسماً قسمين، قسم يشمل ملوك الأسرة الثالثة عشرة وعاصمة ملكهم طيبة، وقسم يشمل ملوك الأسرة الرابعة عشرة وعاصمة ملكهم سخا (Xois). وبليهي أن حال القطر الاقتصادية تدهورت كثيراً في تلك العصور، فبعد ما كان نظام الري ينفذ في أنحاء البلاد تحت إشراف ديوان الملك انعدم نظامه واضطرت أموره فقلت الحاصلات والمصنوعات. ثم عمد حكام الأقسام الى استعمال الشدة والظلم مع قومهم ففرضوا عليهم الضرائب والرسوم الباهظة وجمعوها بقسوة وأنقلوا كاهلهم بها، بغاءت هذه الاجراءات هادمة لتهضة البلاد ووخائها اللذين كانا مبهتم عناية بيت أمتنحت في مدى مائتي سنة تقريباً. ومن أعظم الأدلة على شدة القوضى وقتئذ عدم العثورنا على آثار تشير الى أحوال ذلك الزمان كما حصل تماماً لمصر وقت حكم الهساليك المصحوب بالؤس والشقاء.

ولما تضعضعت القوة الحاكمة أخذت تتضاقل تدريجاً وصار القطر في حال فظيعة من اليأس والضعف سهل على الأجنبي الاستيلاء عليه واغتصابه. وقد حصل هذا فعلاً عام ١٦٧٥ قبل الميلاد في أواخر أيام الأسرة الثالثة عشرة، فقد غزا مصر قوم ساميون من آسيا دخلوا الوجه البحري واستوطنوه ووطدوا فيه نفوذهم، وهذا الغزو كثير الشبه بما حصل للبلاد سابقاً قبل حكم الأسر. ونشر الغزاة لغتهم الخاصة بين المصريين، وتكرر هذا الغزو أيام العرب لما دخلوا القطر المصري في بداية الاسلام. أما الغزاة الذين نحن الآن بصددهم فهم قوم عرفوا بالهيكسوس (كما ذكر جوسفس قفلاً عن ماينتو) ولم يترك هؤلاء القوم بعدهم في مصر الا آثاراً يسيرة صعب على الأثريين الاستدلال منها على شيء حتى على الوطن الأصلي لهؤلاء الغزاة ومدة حكمهم وكيفية سيادتهم. والسبب في جهلنا هذا هو قلة مراجعنا الأثرية كما يتضح للقارئ من هذا الفصل الذي لا يكاد يكون سوى مجموعة ملاحظات فقط. أما رواية ماينتو عن هؤلاء القوم (التي حفظها لنا جوسفس) فنتعتبر الآن من الحكايات المسلية التي لا كتها الألسن وليست من حقائق التاريخ في شيء ولذلك لا تصلح أن تعتبر مرجعاً علمياً تبنى عليه معارفنا التاريخية، وهي مع ذلك تحوى الكثير من الخرافات والغلو كما يشاهد في الرواية الواردة عن كيفية تبؤؤ الأسرة الخامسة لعرش مصر وسقوط الأسرة الرابعة السابقة المذكور^(٢). لذلك نتم علينا أن نبدأ أولاً بالبحث في الآثار اليسيرة التي يرجع تاريخها الى ما قبل عهد ماينتو والى الآثار المعاصرة للهيكسوس، فمن هذه ما ورد على الآثار بعد خروج الهيكسوس بجيلين أن الملكة حتشبوت أصلحت ما أتلغه هؤلاء الغاصبون واليك ترجمة ذلك: "لقد أصلحت التلف وأكلت الناقص بعد ما كانت البلاد تن تحت حكم الأسيويين لأهالي البلاد الشمالية في عاصمتهم أورابيس بالدلتا، فقد أتلغ هؤلاء القوم الآثار الجيدة عن جهل منهم بمعرفة سلطة المعبود رع"^(٣).

وهناك رواية أقدم من هذه قصها أحد القواد المصريين الذين طردوا الهيكسوس استدل منها على أن المصريين اضطروا أن يحاصروا عدوهم في مدينة أواريس^(١) وأن يقتفوا أثره جنوبى فلسطين^(٢) حتى بلاد فينيقيا أو سيلسريا (Colesyria)^(٣) . وبعد أربعين سنة من هذا التاريخ انقشرت رواية الهيكسوس بين القوم بقاء فيها السبب الذى أدى فى آخر الأمر الى طرد الهيكسوس^(٤) واليك ترجمتها :

” وأصبح القطر المصرى فى أيدي قوم قذرين غاصيين ، وتعذر على المصريين أن يملكوا على أنفسهم أحدا منهم . وكان فى ذلك الوقت الملك سكينزع يحكم قسم طيبة الجنوبى والملك أپوفيس الهيكسوسى يحكم جميع القطر من أواريس ويجمع الجزية من سائر الأقسام ومن الحاصلات والخيرات التى أختبها أراضى الوجهين القبلى والبحرى ، واتخذ الملك أپوفيس المعبود سوتخ لها دون معبودات القطر كلها وشيد له معبدا جميلا ثابتا الخ “^(٥) .

يتضح لنا من هذه الرواية القديمة أن الهيكسوس قوم أسويون حكموا مصر واتخذوا أواريس (هواره) عاصمة لهم . واليك ترجمة رواية مانيتو التى أوردها جوسفس عن هؤلاء الهيكسوس وهى تطابق بوجه عام المعلومات الأثرية الثابتة السابقة الذكر :

كان القطر المصرى محكوما فى وقت من الأوقات يملك يدعى تيمايوس (Timaio) فى عهده غضب الإله على مصر لسبب أجهله فلم يمنحه رضاء . فأتى الى القطر على غير انتظار قوم شريقيون وضيعون فاجأوا أهله بالاغارة عليهم واستولوا على الوجه البحرى بلا معارضة كبيرة لأن أهل مصر كانوا وقتئذ فى ثورة وهيجان . ولما أخضع هؤلاء الغزاة حكامنا العظام حبثوا بالبلاد وبنوا وطفوا فأحرقوا المدن وهدموا المعابد واستعملوا أنقطع طرق الشدة مع الوطنيين فقتلوا منهم البعض وأسروا الأطفال والنساء . وبعد انقضاء الحرب ملكوا عليهم رئيسا منهم يدعى سلاطيس اتخذ مدينة منف مقرا له ونظم الحكومة وحسن الادارة ومهد الأحكام وضرب الجزية على من بقى من المصريين تحت حكمه فى الوجه القبلى والبحرى ووزع القوات الحربية على البلاد حتى لا تتور عليه . وكان هذا الملك يخشى على حكمه من الأشوريين الذين كانوا أقوى الأمم وقتئذ ، فخاف أن يتطلع هؤلاء القوم الى مصر ويضموها الى أملاكهم ، ولذلك شيد القلاع وأقام الحصون فى الجهات المنتظر الاغارة منها . ثم فكر فى أمره فوجد مدينة فى شرق النيل بجوار تل بسطه سماها هواره (أواريس) لأسباب دينية بخلد بناءها وحصنها بأسوار قوية منيعة من جهاتها وجعل فيها حامية مؤلفة من مائتين وأربعين ألف جندى . وكان سلاطيس هذا يذهب الى المدينة المذكورة فى صيف كل سنة ليجمع الحبوب ويدفع مرتبات جنده ويمرن قواته على الحركات الحربية حتى يهرب الأجانب “^(٦) .

ولا يخفى أن هذه الرواية تحوى كثيرا من المبالغات كالاشارة الى أهل العراق وكبر حامية أواريس ، لكنها على العموم تشمل بعض الحقائق . ويستنتج منها أن الأهالى وقت تلاوتها كانوا يجهلون الهيكسوس فقد أورد جوسفس عن مانيتو ما ترجمته :

(٣) ٢ : ٢٠

(٢) ٢ : ١٣

(١) ٢ : ٨ - ١٢١٠

Contra Apion I, 14. (٦)

Pap. Saltier I, I, II, 1-3. (٥)

(٤) وردة ساليير (١)



شكل ١٠١ - ابن الأختل من نبال مستوح من الجرافيت
 على الملك حوران جالسا، ويهد بجبهة كل يده



شكل ٩٩ - التور على تماثيل الملك تور عارض سكرتوب بحيرية
 أركيا على التسلسل الثالث بواسطة هيئة جامعة شيكاغو العلمية
 (سنة ١٩٠٧ ميلادية) . ويشاهد انتقال في ابن الأختل لرسم



شكل ١٠٠ - صورة شمسية لوربا، ملك يقال له سكرتوب صافية بحيرية
 بالهيمية (دار تحف القاهرة)

” وكان يقال لهؤلاء الناصبين هيكتوسوس — ومعناها ملوك الرعاة — لأن الجزء الأول من هذه الكلمة وهو ”هيك“ معناه بالقلم البرأى ملك ، أما ”سوس“ فلفظ في اللغة الدارجة معناه الراعى“ . وروى البعض أنهم عرب .

ويتضح أن ما نيتو قصد بالهيكتوسوس الفيديقيين ، لكننا اذا رجعنا الى اسم الهيكتوسوس أيام المملكة الوسطى وفي عهد الهيكتوسوس لا نجد ما يشير الى معنى ملوك الرعاة. زد على ذلك أن ما نيتو قال ان كلمة ”سوس“ معناها بالعامية في زمنه رعاة، والحقيقة أنه لا يوجد في اللغة المصرية القديمة كلها كلمة كهذه بالمعنى المذكور . أما لفظ حتى فعناها باللغة البرأئية الحاكم أو الملك وقد ذكرها الفراعنة بهذا المعنى كثيرا كما قال ما نيتو . والمعروف أن خيان أحد ملوك الهيكتوسوس لقب نفسه ”بحاكم البلاد“ . وبناء عليه لا يبعد أن تكون كلمة ”سوس“ محرفة عن الكلمة البرأئية التي معناها ”الأراضى“ ، وحينئذ يكون ”هيكتوسوس“ تعبير مصرى قديم حرفه اليونانيون ومعناه الأصيل ”حاكم الأراضى“ .

ودلتنا الآثار التي يرجع تاريخها الى عهد الهيكتوسوس على بعض من أخلاق وخصال هؤلاء الأجانب سواء أ كانوا عربيا أم فينيقيين ، وقد وصفتهم الآثار بأنهم ”أسويون“ ”وبرابرة“ ”وحكام الأراضى“ . ويوجد بدار التحف بالقاهرة مذبح صغير لللك أبوفيس الهيكتوسوسى عليه نقوش معناها ”لقد صنع (أى أبوفيس) هذا الأثر لأبيه سوتخ سيد أواريس (هواره) لما جعل سوتخ البلاد كلها (خاضعة) تحت قدميه (أى قدمى أبوفيس)“^(١) . ويظهر من عمود هذا التعبير أن أبوفيس المذكور حكم عدة بلاد علاوة على القطر المصرى . وأغرب من هذا آثار أكبر ملوك الهيكتوسوس المدعو خيان التي وجدت في أنحاء القطر كلها من جيلين جنوبا الى أقصى الدلتا شميالا وفي جزيرة كريت أيضا حيث وجد المستر إيثانسن^(٢) تحت جدار يونانى في سراى كُنوسوس غطاء لإناء من المرمر منقوش عليه اسمه . وعثر أيضا منذ عدة سنوات على تمثال لأسد جرانيتى بيجهة بفسداد منقوش على صدره اسم خيان محفوظ الآن بدار التحف بلندن . ومن ألقاب هذا الملك ”محتضن الأراضى“ ”وحاكم الأقطار“ وقد وجد هذا اللقب الأخير على الآثار واللعل وغيرها . وعثر أيضا في أثناء الحفر بجنوب فلسطين على جعل لملوك الهيكتوسوس . ومن هذا نستنتج أن امبراطورية الهيكتوسوس كانت ضخمة مترامية الأطراف ممتدة للجوانب من الفرات الى الشلال الأول ، ومع هذا فإن آثار هذه المملكة تكاد تكون معدومة في الوقت الحاضر . على أن آثار أواريس التي كانت عاصمة هذه المملكة بالوجه البحرى عفت وبلبت كما بلبت معظم آثار الدلتا وللان لم نعرف مكان هذه العاصمة بالضبط . ولا غرابة في ذلك فقد كان لدى المصريين من الأسباب ما يسوغ محق آثار الهيكتوسوس المنهضين بالاجماع . واذا راعينا كل هذه الأحوال أمكننا معرفة السر في اختيار ملوك الرعاة العاصمة أواريس قاعدة لحكمهم بشرق الدلتا بدلا من اختيارهم مدينة وسط القطر المصرى . والسبب في اختيار أواريس عاصمة لهم هو قربها من آسيا التي كانت تحت حكم الهيكتوسوس أيضا .

ومما يعال استنتاجنا هذا أن الهيكسوس لما طردهم المصريون من القطر ذهبوا الى آسيا ومكثوا بفلسطين مدة ست سنوات قاوموا في أثناءها هجوم المصريين كما روته الاثار^(١) ، ولما هزم هؤلاء الرعاة في جنوبي فلسطين تفهقروا شمالا الى سوريا ، ولا يخفى أن نظام هذا التفهق التدرجى يشير تماما الى امتداد حكم الهيكسوس الى فلسطين وسوريا .

من ذلك يتضح أن معرفة وطن امبراطورية الهيكسوس وأصلهم وأخلاقهم ليس صعبا إذ الغالب أن رواية مانيتو أن هؤلاء القوم فيدقيون صحيحة^(٢) . والثابت أن أهالى بلاد العرب كثيرا ما هاجروا الى سوريا ، ولذلك لا يبعد أن هذين القطرين اتحدا بعد مجهودات حربية تحت ادارة حاكم قوى وكونا مملكة واحدة . وقد ألمعنا سابقا الى أن السوريين الذين أتوا الى القطر المصرى أيام الأسرة الثانية عشرة كانوا متمدنين راقين^(٣) كما أن حروب الفراعنة في سوريا بعد طرد الهيكسوس من مصر أثبتت وجود حضارة عظيمة هناك ، والظاهر أن انهيار صرح امبراطورية الهيكسوس العظيمة ترك بعض تأثيراته في أهالى فلسطين وسوريا استمرت عدة أجيال بعد بسط النفوذ المصرى عليها ولذلك نجد بين أخبار حروب مصر بتلك الجهات بعض معلومات عن امبراطورية الهيكسوس التى تضرعت .

ومعلوماتنا عن سوريا في خلال جيلين بعد طرد الهيكسوس من مصر يسيرة للغاية ، لكنه يستدل من أخبار حروب تحوتمس الثالث التى استمرت مدة في سوريا أن ملك كدش على نهر الأورونط (العاصى) كان الملك السورى الوحيد المسيطر على امارات سوريا وفلسطين وقتئذ ، وأن اخضاع كدش كان من أصعب الأمور على تحوتمس الثالث فقد تطلب منه عشر سنوات تقريبا أمضاها في الكفاح المستمر حتى تمكن من كسر شوكة تلك المملكة الأسيوية . ومما جاء عن كدش أنها شقت عصا الطاعة مرة ثانية على تحوتمس الثالث واضطر أن يخضعها ثانية ، وأخيرا أجبرته في السنة العشرين من حكمه أن يذهب شخصيا الى سوريا ليقضى على قوة كدش القضاء المبرم فلا تقوم لها قائمة بعده . واستدل من أخبار تحوتمس الثالث الأسيوية أن كدش كانت صاحبة السلطة والنفوذ على كثير من امارات سوريا وفلسطين . ومن رأى أن هذه المدينة (كدش) كانت في الحقيقة نواة امبراطورية الهيكسوس التى أبادها تحوتمس الثالث بذكائه وقدرته الحربية الفائقة ، ولذلك اعتبر القوم تحوتمس الثالث ساحق الهيكسوس وطاردهم من مصر ، وقد نعته مانيتو بمخلص وطنه وشبهه في ذلك بـ (Misphegmothosis) . ويستتج من رواية مانيتو ومن أخبار سوريا وفلسطين بعدئذ أن امبراطورية الهيكسوس سامية الأصل ، وقد عثر على جعل لفرعون من عهد الهيكسوس منقوش عليه اسم يعقوب حز (يعقوب آل) اشارة الى احتمال تبوء أحد رؤساء بنى اسرائيل الملك في تلك العصور الغامضة ، وهذا الأمر يتناسب مع احتمال دخول بنى اسرائيل مصر وقتئذ . واذا صح هذا الاستنتاج كان عبرانيو مصر عربا تابعين لسلطة كدش أو امبراطورية الهيكسوس . ولا يبعد أن يكون وجود هؤلاء العرب بمصر سببا في تليق تلك الامبراطورية

(١) لكن راجع ١٢ : ٢ (١) (٢) لكن راجع ١٢ : ٢ (٢) (٣) راجع صفحة ١٢١

”دولة الرعاة“ مما جعل مانيتو يخطئ في تفسير معنى الجزء الأخير من كلمة ”هيكسوس“ . ولا يبعد أيضا أن تكون نظرية جوسفس القائلة بأن بنى إسرائيل قوم من الهيكسوس فيها شيء من الحقيقة وإن لم تكن هناك أدلة على صحة ذلك . وعلى أى حال فالحكم في هذا سابق لأوانه لضعف البراهين الموجودة وقلة المعلومات التي لدينا الآن .

وتتحصر معلوماتنا عن أخبار الهيكسوس في أثناء مكثهم بالقطر المصري فيما ورد ضمن آثار حكام أقسام مصر وقتئذ ممن استوطنوا جهة طيبة والوجه البحرى عموما ، لكنه يستدل من رواية مانيتو ومن الحكاية العامية القديمة التي سبق الكلام عليها أن الهيكسوس فرضوا الجزية على أنحاء القطر المصرى كله، وقد عثرنا على بعض آثار للهيكسوس جهة جبلين بأقليم الشلال الأول ، ولذلك لا يبعد أن دخول الهيكسوس الى مصر كان تدريجيا أشبه شيء بهجرة غير مصحوبة بحروب أو منازعات . وكان ملك الهيكسوس وقتئذ يدعى ختزر وقد ولى وزيره المدعو إتحو حاكما على مصر يدير أمورها وينظم معابدها^(١) ، ولما كان هذا الوزير معاصرا لفر حوتب وللولك المصريين الملقين بيك حوتب يرجح أن سلطة الهيكسوس لم تزد على مصر الا بعد حكم هؤلاء الفراعنة بقليل .

وقد وردت على الآثار المعاصرة للهيكسوس أسماء ثلاثة ملوك منهم يقال لم أبوفيس وملك رابع يقال له خيان (شكل ١٠١) وأخر يدعى ختزر وغيره يعقوب حرلكتنا لم نهند في الآثار الا على اسم خيان - ويقال له أحيانا أيان - وكذا اسم أبوفيس . والأسماء الستة المذكورة الستة الملوك هي التي نقلها جوسفس عن مانيتو . وجاء في الورقة الحسابية بدار التحف الانجليزية تاريخ وحيد لتلك العصور يشير الى السنة الثالثة والثلاثين من حكم ملك يقال له أبوفيس . أما رواية مانيتو التي قسمت حكم ذلك العصر الى ثلاث أسر (الأسرة الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة) فلم نجد على الآثار ما يثبت صحتها ولا طول مدتها . والغالب أن حكم الهيكسوس لم تزد مدته على مائة سنة في مصر . والقول بأن مدة هذا الحكم أطول من ذلك لا يطيل المدة بين سقوط الأسرة الثانية عشرة ونهاية حكم الهيكسوس . وبليسى أن معظم الملوك العديدين المذكورين في ورقة تورين كانوا بمثابة ولاة تحت حكم الهيكسوس ، ومن هؤلاء الملوك سيكترع الوارد ذكره في الرواية العامية السابقة كان واليا تابعا للهيكسوس في طيبة . والى الآن لم نهند الى سبب خراب المعابد والأبنية العمومية بالقطر وقت حكم الهيكسوس ، لكن المعروف أن هذا حصل أتر دخول هؤلاء القوم مصر . وقد اهتمت الملكة حمتشيسوت كثيرا بترميم التالف وأرجاعه الى أصله . وقد عبد الهيكسوس سوج أحد أشكال المعبودات القديم الشبيه في نظرهم بعيل السورى . والظاهر أن الهيكسوس تطبعوا بسرعة بطباع المصريين فنحل ملوكهم لأنفسهم الألقاب الفرعونية ونسبوا لهم تماثيل حكام الوجه البحرى السابقين على النظم المصرى الفرعونى (شكل ١٠١) . والمعروف أن المدنية لم تتأخر كثيرا في عهد الهيكسوس كما يستدل من الورقة الحسابية المدونة في عهد أحد الملوك المدعويين أبوفيس

والموجودة الآن بدار التحف بلنדרه . وقد ألعنا سابقا الى أن أحد الملوك المدعويين أبوفيس شيد معبدا فى أواريى ، وعثر على نقوش فوق قطعة من الحجر مما يفيد أن الملك أبوفيس صنع أعلاما ذات رموس نحاسية تملوها "شراريب" زاهية الألوان لنصبها على وجهة أحد المعابد^(١) . وقد أترحكم الميكسوس كثيرا فى أهالى مصر وفلسطين وسوريا ، فأنار من المصريين شعور البفض لهم حتى طردوهم وتخلصوا منهم . والمعروف عن هؤلاء القوم أنهم أدخلوا الخيل بالقطر المصرى لأول مرة وذبوا المصريين على الحروب العظيمة . وعليه فالمصريون مدينون لهم بكثير من ارشاداتهم النفيسة وتعاليمهم القيمة مهما عظم مقدار الخسارة والتلف والضيق الذى حل بالبلاد فى عصرهم .

الفصل الثاني عشر طرد الهيكسوس وانتصار طيبة

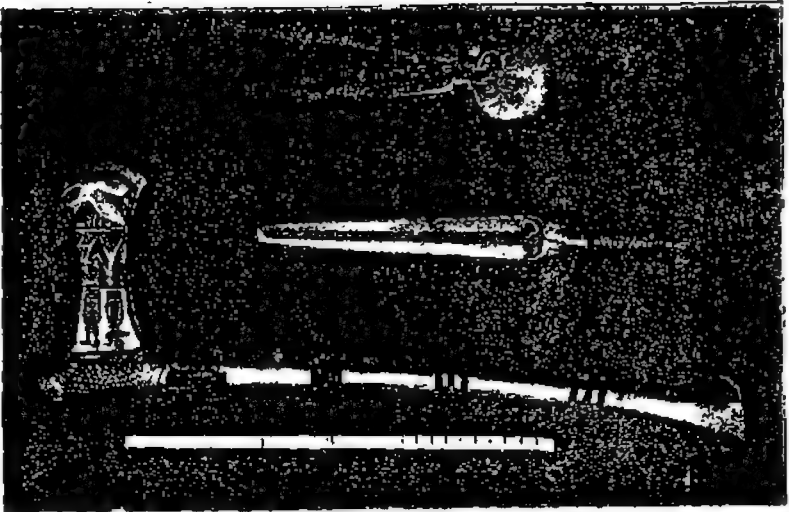
ورد ضمن إحدى القصص العامة أن الملك سيكنرع كان حاكما على قسم طيبة تحت سلطة ملك من الهيكسوس يدعى أبوفيس اتخذ أواريس (هواره) قاعدة لملكه ، ويرجح أن ذلك كان حوالي سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد أي بعد سقوط الأسرة الثانية عشرة بماثي سنة تقريبا. وهذه القصة الدارجة^(١) التي لاكتها الألسن في زمن الرمسيسيين هي مرجعنا العلمي الوحيد عن تاريخ خروج الهيكسوس وعما حدث في القطر بعد ذلك . وقد استنتج ضمنا أن هذه القصة دوت بعد خروج الهيكسوس نحو أربع مائة سنة وقد المعنا سابقا إليها لما تكلمنا عن وصف الهيكسوس ، لكننا الآن نريد على ما سبق أن هذه القصة روت حلول عيد من أعياد المصريين المقدسة جمع فيه أبوفيس المذكور رجال دولته وتداول معهم أشياء نجملها . ويستدل من مضمون الرواية أن تلك المداولة كانت لتدمير مؤامرة لاعتقال الملك سيكنرع الجالس بطيبة وقتئذ ، وإليك ترجمة ما جاء بهذا الخصوص :

”ومضى زمن طويل بعد ذلك فأرسل الملك أبوفيس إلى الأمير (الملك) سكتنرع بالمدينة الجنوبية (طيبة) رسالة دوت بها رجال دولته العقلاء . فلما وصل رسل الملك أبوفيس بهذه الرسالة إلى المدينة الجنوبية (طيبة) أحضروا إلى أمير (ملك) تلك المدينة فوجه سؤال إلى أحد رسل أبوفيس هذا نصه : ”لما إذا حضرت إلى المدينة الجنوبية ولأى سبب سافرت مع زملائك طوال هذه المدة ؟ فأجاب الرسول : ان الملك أبوفيس أرسلنا إليكم لتخبركم أن دب البحر القاطن ببحيرة طيبة يمنع جلالة النوم نهارا وليلا . فصياحه يرت في أذن جلالتك باستمرار“ فتكدر أمير المدينة الجنوبية (الملك سكتنرع) في نفسه وكظم غيظه ولم يرد الجواب . واستدل من سياق الكلام أن سكتنرع هذا أرسل هنايا جزيلة إلى أبوفيس ووعدته بعمل ما يرضيه نحو تلك الحيوانات . ثم عاد رسول أبوفيس إلى سيده . وعلى أثر ذلك استدعى سكتنرع قواده ورؤساء مملكته وأخبرهم برسالة الملك أبوفيس ، نغم السكوت عليهم جميعا ولم يلفظوا بكلمة ثم أرسل الملك أبوفيس إلى^(٢) وهنا سقط الأصل فانتقطع أملنا في معرفة بقية هذه القصة الشيقة .

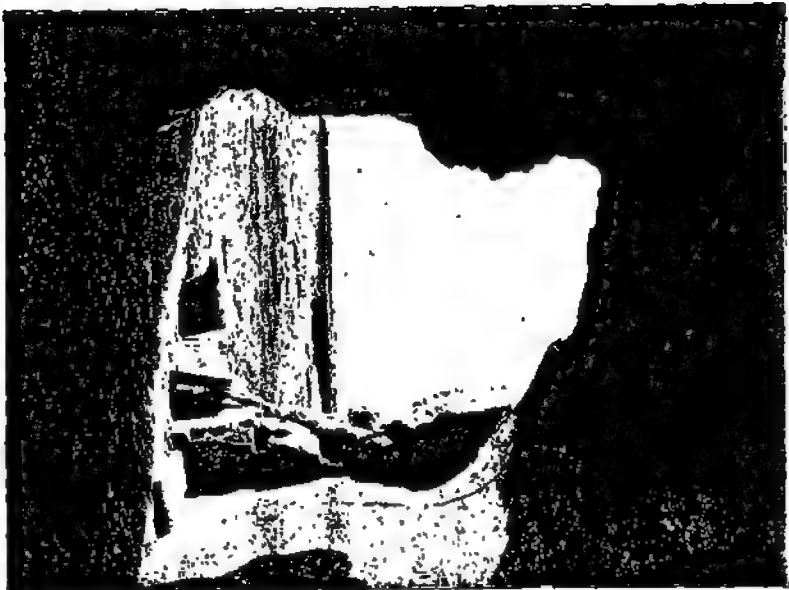
من ذلك يتضح أن لهذه القصة علاقة متينة بخروج الهيكسوس والمنازعات السياسية التي حصلت بينهم وبين المصريين . أما العذر الوارد في القصة بأن أبوفيس لم يتمكن من النوم لصياح دب البحر في طيبة فنسب وهمي لا يعتد عليه ويغلب أنه إحدى مبالغات أهالي تلك العصور الذين كانوا شديدي التأثر بخروج الهيكسوس . وتعزز رواية ما يتو هذه القصة في كثير من الحوادث فقد أخبرنا هذا المؤرخ المصري أن ملوك طيبة وبعض حكام أقسام مصر اتحدوا وشبوا حربا على الهيكسوس

في أواريس . ويستدل من ذكر مايتو "ملوك مصر" أنه كان هناك انقسام بين أقسام مصر وقت حكم الهيكسوس فاستقل كل قسم عن غيره وانفرد حاكمه بإدارته . ولا يخفى أن مثل هذه الحالة أضعفت نفوذ المصريين كثيرا أمام عدوهم الأجنبي الشمالي . وجاء في تاريخ تلك العصور ذكر لثلاثة ملوك مصريين يدعون باسم سكتنرع وقد عثر على مومياء الأخير منهم ضمن كنوز الدير البحري الكبرى وهي الآن محفوظة بدار التحف بالقاهرة (شكل ١٠٠) ، ووجد على هذه المومياء آثار جرح مع إصابات شديدة مميتة بالرأس اثر نضال وتزاع قبل الوفاة يرجح أنه حصل وقت الحرب بين المصريين والهيكسوس . ولما توفي هؤلاء الملوك الثلاثة تولى بعدهم الملك كاموس (Kemose) فاستمر (غالبا) على كنفاح الهيكسوس . وشيد هؤلاء الملوك المصريون لأنفسهم أهراما حقيرة من اللبن بجهة طيبة ورد عنها في الآثار أنها كانت سليمة بعد وفاة أصحابها بنحو أربعين سنة أي في عهد الرامسة لأنها قشقت وقتئذ للتأكد من عبث اللصوص بها كما ألمعنا إلى ذلك سابقا^(١) . من ذلك يتضح أن الثلاثة الملوك المدعويين سكتنرع والملك الرابع المدعو كاموس ثابروا بشدة على شن الغارة على الهيكسوس ، وقد أوردتهم مايتو في آخر قائمة أسماء ملوك الأسرة السابعة عشرة . وللاحظ أن منازعات المصريين لم تكن مقصورة على ما كان دائرا بين ملوك طيبة والهيكسوس بل كانت هناك مشاحنات أيضا بين ملوك طيبة وحكام الوجه القبلي وعلى الأخص إقليم الكاب الذي كان بعيدا عن نفوذ الهيكسوس ومتقدما في التجارة والحضارة والزراعية عن أقسام الوجه القبلي ، ولذلك كانت المصاعب التي واجهت آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة عظيمة ، وسنرى فيما بعد أن حكام قسم الكاب قاوموا كثيرا ملوك طيبة الذين ساروا تدريجا نحو طرد الهيكسوس من القطر .

وتوفي كاموس بعد حكم قصير تولى بعده أحعمس الأول وهو في الغالب ابنه وقد اعتبره مايتو أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة . أما تبة أحعمس لالك فكان حوالي عام ١٥٨٠ قبل الميلاد وكان حكمه في مبدأ الأمر مقصورا على الوجه القبلي بقسم طيبة ، وهو الذي أنقذ وطنه من عدوه اللعين الأجنبي . ومعلوم أن الملك سكتنرع الثالث تبادل الهدايا والعلاقات الودية مع حكام قسم الكاب ليأمن شرم ، فلما ولي أحعمس الأول عرش مصر اتبع السياسة نفسها فآمن بذلك شر الأقسام الجنوبية حتى صار قسم الكاب عقبة كئودا أمام كل من يتعدى على حدود طيبة الجنوبية . ولم يحفظ لنا التاريخ معلومات رسمية عن الطور الأول من طرد الهيكسوس ولا وصلت إلينا نصوص الملك أحعمس الأول عن ذلك الكفاح ، وكل ما اهتمتينا إليه في هذا الصدد تلك النقوش التي على صدر قبر ضابط مصري من جهة الكاب كان مواليا لملوك طيبة واشترك هو وهم في مهاجمة الهيكسوس ، وهذا الضابط يقال له أحعمس . أما والدته فكانت تدعى إبانا والدة بابا . وبإبان هذا كان موظفا في عهد سكتنرع الثالث ، واليك ترجمة ما قاله أحعمس بن إبان عن سيرته أيام الملك أحعمس الأول :



شكل ١٠٣ — أسيحة الملك أحمس الأول معصية من البرنز
منزوعة برصم ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة (دار تحف القاهرة)



شكل ١٠٤ — سطر لادبة الكعب المنزوعة من بردن بأية الصورة
النحسى من حفرة أحمد الظاهر المنصورية الشرقية المنزوعة على الدائرية

”مضيت أيام شوبيتي في مدينة الكاب وكان أبي ضابطاً في جيش جلالة ملك القطرين البحري والقبلي سكتنخ المرحوم ، وكان يسمى بابا وهو ابن رُوينيت ، ولما توفي وظفت مكانه في سفينة تسمى ”القربان“ وذلك أيام المرحوم الملك أحمس الأول، وكنت إذ ذاك شاباً لم أتزوج..... فلما تزوجت وصارت لي أسرة نقلت الى الأسطول الشمالي لما شوهد في من الشجاعة والاقدام“ . من هذا يتضح أنه نقل من أسطول الكاب وأرسل شمالاً لمحاربة الهيكسوس . وبعد أن صار ضابطاً بحرياً التحق ضابطاً برياً بجرس الملك الخاص وقد أشار الى ذلك بقوله : ”وكنت أتبع الملك في سيره حينما أقلته عجلته . ولما حاصر الملك مدينة أواريس أظهرت له بسالة عظيمة وأنا أحارب على قدمي . فبقيت جلاليته بالسفينة المسماة ”ضوء منف“ . ثم حارب جلالة الملك في مياه ترعة پزذكو (Pazedku) جهة أواريس وقد حاربت وقتئذ بيدي فأحضرت يداً مقطوعة من رجال العدو برهانا على شجاعتي واقدامي . فبلغ ذلك الخبر رسول الملك فأنتم على جلالة الملك بعد ذلك ”بشنان“ الشجاعة الذهبي . ولما قامت الحرب مرة ثانية في هذا المكان دخلت النزاع وحاربت بيدي وأحضرت يداً أخرى (من أسير) ، فأنتم على جلالة الملك مرة ثانية ”بالنشان“ الذهبي لشجاعتي“ (١) . في ذلك الوقت العصيب قامت ثورة عظيمة في أقسام مصر جنوبي الكاب تطلبت ذهاب الملك أحمس الأول شخصياً مع أحمس بن إباناً لاقاعها ، وقد خبرنا عن ذلك أحمس بن إباناً بقوله : ”فحضر الملك وحارب قسم مصر جنوبي هذه المدينة (الكاب) وأسرت حينئذ رجلاً حياً نزلت به الى البحر قابضاً عليه كأنني سائر في طريق المدينة وصبرت به النيل فعلم بذلك رسول الملك فأنتم على جلاليته بمكافأة ذهبية مضاعفة“ (٢) . ولما نحدت الثورة رجع الملك مصحوباً بأحمس بن إباناً الى أواريس . قال أحمس المذكور ما ترجمته : ”فسقطت أواريس في قبضة جلالة الملك ، وهناك أسرت رجلاً وثلاث نسوة فكان المجموع أربعة وهبهم لي جلاليته عبيداً“ (٣) .

يستنتج من ذلك أن أواريس سقطت في الهجوم الرابع لأحمس بن إباناً، ولأن لم نعرف بالضبط عدد مرات الهجوم على هذه المدينة، لكن المعروف أن حصار أواريس دام عدة سنوات وأن مدته طالت بسبب شوب ثورة جنوبي الكاب . ولم يخبرنا هذا الضابط البحري من هم المدافعون عن أواريس لكن هذا واضح من رواية مانيتو ومن القصة الدارجة المذكورة آنفاً . ولم يذكر هذا الضابط أيضاً اسم أعدائه الذين حاربهم مرة ثانية، لكن المفهوم ضمناً أنهم الهيكسوس لأنهم تفهقروا الى آسيا بعد طردهم . قال أحمس بن إباناً بعد ما ذكر سقوط أواريس ما ترجمته : ”ثم حاصر جلالة ملك مصر شاروهين - شرحان - لمدة ثلاث سنوات واستولى عليها . وقد أسرت وقتئذ امرأتين ويد أسير فكافأني جلاليته بالذهب على شجاعتي وملكنتي رقاب الأسيرتين“ (٤) . ويعتبر هذا أول حصار طويل معروف من نوعه في التاريخ وبرهانا قوياً على شدة مقاومة الهيكسوس وطول صبر أحمس الأول في ذلك الحصار الخطير على حدود القطر المصري . وشاروهين - شرحان - موقعها جنوبي يهودا (٥) وهو المكان الذي سهل على الهيكسوس إعادة الكرة ثانية على مصر منه . ولم يكنف أحمس الأول

(١) ١٠-٧:٢ (٢) ١١:٢ (٣) ١٢:٢ (٤) ١٣:٢ (٥) سفر يشوع ، اصحاح ١٩ ، سطر ٦

يطرد الهيكسوس من شاروهن بل واصل طردهم وتبهمهم الى فينقيا المعروفة وقتئذ باسم زاهي^(١) وسوريا ، وكان الملك مستصعبا معه إذ ذلك قائدا من مدينة الكاب أيضا يقال له أحعمس بن نَحِيْت ، ومن ثم يظهر لنا أن الملك طرد الهيكسوس الى مكان بعيد وطهر منهم القطر المصري . وورد عن الملك أحعمس أنه استعمل ثيران الهيكسوس في أعمال عماراته في السنة الثانية والعشرين من حكمه^(٢) وأنها حارب الهيكسوس مرة أخرى على الأقل في ذلك الوقت ، ولما طرد أحعمس الأول الهيكسوس من مصر وجه همه ثانية الى النوبة بقصد استرجاع ما فقدته مصر في ذلك القطر الجنوبي .

ولا يخفى أن الاضطرابات التي حدثت في القطر المصري بعد سقوط المملكة الوسطى أحدثت تأثيرا سيفا في السودان نحو مصر ، فشق أهالي ذلك الاقليم عصا الطاعة على فرعون وامتنعوا من دفع الجزية وسيبوا له متاعب زمصاعب . لكنه لما طرد أحعمس الاول الهيكسوس ووجه همه نحو ذلك الاقليم أخضعه بسهولة وعلى الأخص ما كان منه بين الشلال الأول والشلال الثاني^(٣) . أما مركز الملك حينئذ في القطر المصري فكان محفوظا بالخطر لأنه بمجرد وصوله الى السودان قامت أهالي قسم جنوبي الكاب عليه فقلبهم وشتت شملهم وكان مصحوبا إذ ذلك بأحعمس بن إباننا الذي كافاه هناك بحمسة عبيد وثلاثة أفدنة ونصف من أرض إقليم الكاب^(٤) وأغدق الملك نعمه على جميع الضباط الذين حاربوا معه في تلك المعركة . وروى أحعمس بن إباننا خبر حدوث فتنة أخرى فقال : ” جمع الخائن المغلوب على أمره المدعوتى إن (Teti-en) رجاله ليحارب جلالة الملك قتلته جلالة هو وخدمه وأعطاني ثلاثة عبيد وثلاثة أفدنة ونصفا بجهة بلدى الكاب“^(٥) . من ذلك يتضح أن أحعمس الأول نجح في سياسة التآلف مع حكام أقسام مصر حتى جعلهم تحت نفوذه وكان تارة يوزع عليهم الذهب وطورا يهب لهم العبيد والأراضي وأحيانا يجود عليهم بألقاب الشرف ” كاهن الملك الأول“ مما يتوافق مع عقبة الحكام المغرمين بالوجاهة والبذخ . ولاشك أن حكام قسم الكاب استحقوا كل ثناء على شجاعتهم وإخلاصهم ، ومع السماح لهم بالمحافظة على ألقابهم وشريف نسبهم قل نفوذهم تدريجا فصار الحل والعقد بيد الملك وحده بطيبة ، ولذلك كان هؤلاء الحكام يقيمون في طيبة ويدفنون جثثهم بجوار مقابر ملوكهم . وهناك قبر لحاكم مدينته طينه (Thinis) وأخر لحاكم مدينة القوصية (أفروديتو پوليس) ، وورد عن الأول منهما أنه ساعد الملكة حتشبسوت في قتل مسلاتها^(٦) .

ولا بد أن يكون القارئ قد لاحظ أن أحعمس الأول لم يلف حوله إلا القليل من حكام أقسام مصر ، أما الباقي فقاوموا الهيكسوس حتى صرعوهم ونحو أثرهم . والذين انضموا الى أحعمس المنحطوا بعدئذ في خدمة الحكومة الملكية واحتفظوا بالوظائف الكبيرة بعد ما تجردوا من غطرستهم واستقللهم السابقين . وهكذا صارت الكلمة العليا للملك الذى وضع يده على أملاكهم جميعا إلا ما ينحصر قسم الكاب فإنه تنازل عنه لم اعترافا منه بالمساعدة التي قدمها له حكام هذا القسم وقت حربه مع

(١) ٢٠:٢ (٢) ٢٦:٢-٢٧ (٣) ١٤:٢ (٤) ١٥:٢ (٥) ١٦:٢ (٦) ٢:٢-٣ صفحة ١٣٨ ملاحظة (٥)

الميكسوس . وقد سمح الملك لحكام الكاب بالاحتفاظ بأراضيهم وأملاكهم مدة جيلين تقريباً
سجماً تشير إليه الآثار . والمعروف أن نفوذهم امتد بعد ذلك فشمّل مدينة إسنا وما جاورها فصاروا
يديرون الأقاليم بين طيبة ومدينة الكاب ، ولا يخفى أن هذه الرعاية كانت استثناء للقاعدة القاضية
بامتلاك فرعون لأراضي مصر كلها ، ومثل هذه الحال حصلت في مصر حديثاً أيام المرحوم
محمد علي باشا الكبير لما قتل المماليك في القرن التاسع عشر بعد الميلاد ، وورد في الكتاب المقدس
أن هذا النظام جاء نتيحة مباشرة لحنكة ومهارة سيدنا يوسف عليه السلام (١) .

(١) سفر التكوين ، الإصحاح ٤٧ ، سطر ١٩ - ٢٠

الكتاب الخامس

الامبراطورية في دورها الأول

الفصل الثالث عشر

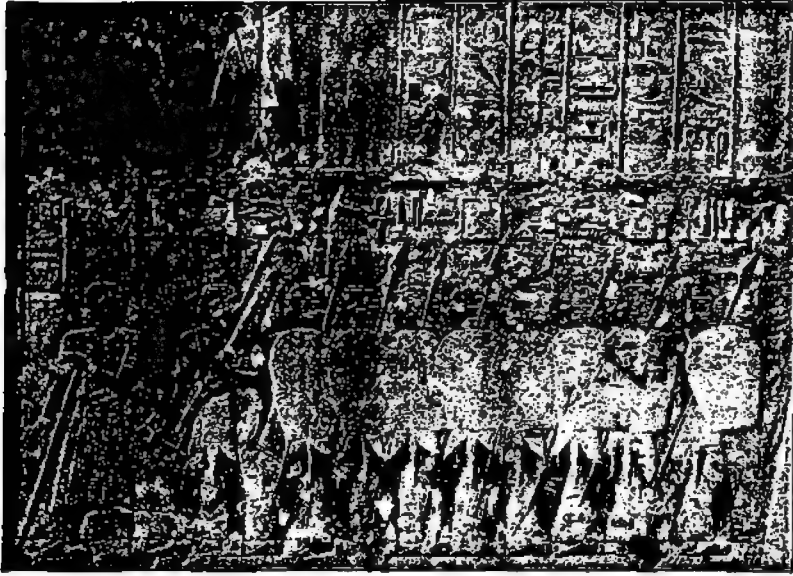
الحكومة الجديدة : الاجتماع ، الديانة

كانت مهمة أحمس الأول في تنظيم الحكومة المصرية وإدارة البلاد الداخلية مختلفة تماما عن مهمة أمنمحت الأول أول ملوك الأسرة الثانية عشرة ، ناهيك بالعقبات التي واجهت الأخير فقد كانت نتيجة منازعات سياسية واجتماعية بين حكام الأقسام فاجتهد أمنمحت الأول في إزالتها دون أن يلحق بهم أذى أو ضرر . أما أحمس الأول فمهمته تطلبت تأليف حكومة من حكام ضعاف يختلفون تماما عن حكام أمنمحت الأول لأنهم عاشوا تحت النير الأجنبي حتى فقدوا منزلتهم السامية بين أهالي القطر . وكان اختيار أحمس الأول لنوع الحكومة المناسبة لعصره نتيجة مباشرة لخبرته الحربية والسياسية مع الهيكسوس مدة طويلة ، تلك الخبرة التي جعلته قائدا عاما لجيش مصرى محنك مدرب على الكفاح وريسا للحكومة في آن واحد . وعليه فالحكومة التي ألفت إثر هذه الحوادث تحم عليها أن تكون عسكرية وأن تبقى كذلك دون نظر الى ميول المصري نحو السلام والسكينة ، لأن النضال الطويل مع الهيكسوس علم المصريين طرق الكفاح المختلفة كما أن الغزوات التي قام بها أحمس عدة سنوات بآسيا أطلعت المصريين على ثروة الأقطار السورية ، وهكذا صار المصري مدبرا مجربا لفنون الحرب وعالما بأن الحروب الأسيوية تعود على مصر بالفن الكثير . فهبت على أثر ذلك في القطر المصري عاصفة فكرية دفعته الى الاستعارة والفتوحات عدة قرون حتى صارت ثروة الخدمة العسكرية ومكائنها وترقياتها مطمح نفوس الطبقة الوسطى التي كانت سابقا مخلدة الى الراحة ، وهكذا اندفع القطر المصري في التيار العسكري وتسلطت على الباب أهله عوامل الحرب حتى صعب وقفها . وأصبح سراة القوم الذين عاشوا بعد طرد الهيكسوس وأمراء الإمبراطورية المصرية يطمعون في الخدمة العسكرية والانخراط في الحروب تحت لواء الملك بغية الحصول على الانعام والألقاب التي تشرفهم وتعلي مركزهم بين قومه كما أشارت اليه نقوش قبورهم في طيبة^(١) . وقد أورد لنا كبار موظفي الحكومة المصرية سيرهم وتراجم حياتهم على مقابرهم كالتي خلفها أحمس بن إبانا عن حياته والبلاء الحسن الذي رفع صيته في حرب الهيكسوس^(٢) . وخيمت الروح العسكرية على القطر المصري مدة قرن ونصف بعد طرد الهيكسوس فدأر أبناء المراعنة يعينون قوادا للجيوش^(٣) ثم زيد عدد الجيش كثيرا وأمد بالعدد وقسم الى قسمين قسم خاص بالوجه البحرى والآخر بالوجه القبلى^(٤) . واعلم أن الحروب السورية دزبت المصريين على الخدع العسكرية والأساليب الحربية الزاكية كما سيتضح فيما بعد ، ويعتبر هذا التقدم الحربى أقدم ما عرف من نوعه في التاريخ . وقد قسم الجيش المصرى الى فرق وياتى وقسمت قواته الى قلب وجناحين فانظم بذلك نظام المعارك الحربية وتمكن المصريون من القيام بحركات الالتفاف حول أعدائهم بعد ما كانت حروبهم القديمة أشبه

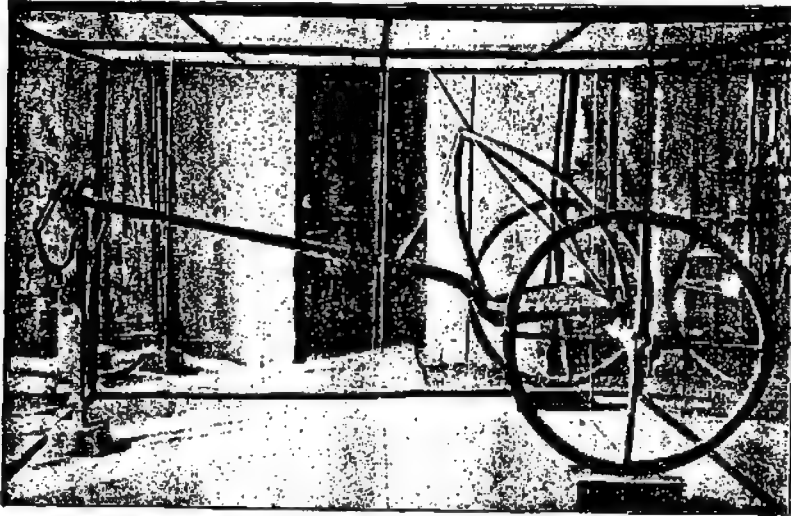
(١) ١٠٢ - ١٦ و ١٧ - ٢٥ وفي غيرها من المواضع (٢) شرحه (٣) ٣٠٠ - ٣٦٢ و ٣٠٣ (٤) ٣ - ٦٦

بالنهب والغزو والقتل والتخبط (شكل ١٠٤) . وشملت معدات الحرب القوس والنشاب والبلط ، وتمرن أفرادها على إطلاق النبال وتسيدها دفعة واحدة فعمت متزلة فرقة النبال المصرية بين جيوش العالم حتى العهد اليوناني والروماني . وأهم من هذا وذلك أن الهيكسوس جلبوا الخيل الى مصر فأصبح الجيش المصرى شاملا لعجلات حربية كثيرة . أما فرقة الفرسان فلم يكن لها وجود وقتئذ ، ولكنه لوحظ أن صناعة العجلات كانت غاية في الاتقان (شكل ١٠٥) ، وصار لفرعون مصر اصطبلات تحوى الآلاف من أجود الخيل الآسيوية . واقتضت الروح العسكرية وقتئذ أن يكون للملك حرس كامل العدد له شعار خاص ويتبع جلالة في غدواته وروحاته ، كما أصبح له أيضا ضباط حربيون خاصون يافقونه في حله وترحاله . وبهذه الكيفية ساس الفرعنة القطر المصرى بلا معارضة وصارت لم فيه الكلمة العليا ، فلم يبق للروح الديموقراطية بين ملوك تلك الأوقات من أثر ولم يعد يجاسر أحد من رعيته أن يجاسمهم على أعمالهم . ولا غرابة في ذلك فمثل هذه الروح لم توجد في الشرق إلا نادرا حتى عهدنا هذا ، والعادة في الممالك الشرقية أن الملك القوى يهيمن على كل أمور دولته وأن تكون رعيته رهن اشارته في كل وقت ، فاذا ظهرت عليه بوادر الضعف أصبح العوبة في أيدي حاشيته وفريسة لدسائس حريمه . ويحوى التاريخ المصرى القديم كثيرا من الأمثلة الخاصة بعزل الأسر المالكة واسناد شؤون المملكة الى رؤساء ماهرين حاذقين . أما أحمس الأول الذى طرد الهيكسوس فكان مثال الجد والشجاعة والعقل والدهاء فلم يكن لين العريكة أو ضعيف الإرادة ولذلك كان الجميع يهابونه ويحترمونه ، والى هذا الملك يرجع الفضل في انقاذ مصر من ظلم الهيكسوس وما تقلبت فيه البلاد من الاضطراب والفتن في غضون مائتى سنة .

وتمتاز الحكومة المصرية الجديدة بوضوحها للتورخين أكثر من حكومات العصور الأخرى ففيها يتبين للباحث كثير من الأنظمة الجديدة الادارية التي أدخلتها أسرة أحمس الأول على المملكة . فمركز فرعون أصبح الآن مركزا عمليا يطلع على أخبار مملكته وحكومته السياسية ويقابل لذلك وزيره كل صباح . وأعلم أن الوزير كان القابض على زمام الأمور فكان يعرض على جلالة ملكه كل المسائل الحكومية والأشغال السائرة ليبدى رأيه فيها^(١) ، وبعد ذلك يتشرف رئيس مالية الدولة بمقابلة الملك^(٢) فيعرض عليه أخبار الخزنة الملكية وما اعترأها من زيادة أو نقص . من ذلك يتضح أن الادارة المالية والحقانية كانتا أهم المسائل الحكومية فكان يتحتم أن تعرض أخبارهما على فرعون كل يوم في قصره الذى اعتبر المرجح الأسمى للحكومة . أما المسائل الأخرى فكانت تعرض على الأشخاص المنوطين بها في ديوان الحكومة فكانوا يتصرفون فيها بما يعتبر نظريا مرسوما ملكيا . وقد وصلت الينا بعض مخاطبات رسمية تظهر لنا كيفية سير الأمور والأساليب السياسية وقتئذ لكنها قليلة ، ومنها اتضح لنا كثرة أعمال الملك وكيفية تصرفه لأشغاله مما يعود عليه بجزيل الثناء لما كان يبدىه عادة من المهارة والحكمة . وكان يعرض على الملك حكم القضايا الجنائية في آخر الأمر ليبدى رأيه فيه ، ثم ان المجرمين كانوا يمحزون في السجن انتظارا لتصديق الملك على عقابهم^(٣) . وكثيرا



شكل ١٠٤ — إحدى وحدات الجيش المصري مسلحة بالحراب من عهد الامبراطورية
سافرت ضمن البعثة الحربية التي أرسلتها الملكة حتشبسوت الى بلاد البونت (الصومال)
(مأخوذ من رسوم بارزة على جدر معبد هذه الملكة بالدير البحري بآبيه)



شكل ١٠٥ — صورة لعربة من عهد الامبراطورية تامة التركيب مصنوعة من الخشب والبرنز والجلد
(دار بحف العاديات بمدينة طورنيس)

ما كانت فرعون يراقب جيوشه ببلاد النوبة وآسيا والمحاجر والمناجم^(١) ووقت تفقد الطرق^(٢) في الصحارى للبحث عن أمكنة لحفر الآبار أو تخزين المياه . أما الإدارة الداخلية والعمرات العمومية لكبيرة فكان يتفقدتها الملك ويراقب ادارتها شخصيا . وورد أن الملك كثيرا ما قام بتحقيق دقيق في قضايا الظلم والحيف بين الموظفين^(٣) . ويلاحظ أن الشعائر والاحتفالات الدينية كانت تتطلب كثيرا من أوقاته أيضا وأن هذه أخذت تكبر وتزداد تبعاً لكبر إدارة الحكومة فزاد بذلك العمل على عاتق الملك حتى عجز في آخر الأمر عن تحمله وحده فاستعان بوزيره . ولما تضاعف العمل عجز الاثنان عن القيام به فعين الملك وزيرا ثانيا . والمعروف أن فرعون مصر كان محتفظا بوزير واحد من أقدم عصور المملكة ، أما الآن فقد عين فراغنة الأسرة الثامنة عشرة وزيرين لمراقبة الإدارة والشؤون الداخلية ، أحدهما للوجه القبلي تمتد منطقة نفوذه من طيبة الى قسم سيوط ومقره طيبة ، أما الثاني فكان يمهّد اليه في إدارة جزء القطر شمالي سيوط الى البحر الأبيض المتوسط ومقره حكة عين شمس^(٤) ، ولا يبعد أن يكون هذا التقسيم نتيجة إضافة قسم النوبة بين الشلال الأول والكلب الى أعمال وزير الجنوب .

ثم قسمت المملكة المصرية الى عدة أقسام بعضها يحوى المدن الكبيرة القديمة وما جاورها من القرى فكان يحكمها حكام الأقسام الأقدمون ، والبعض الآخر لا يحوى مدنا رئيسية كالسابقة بل كان عبارة عن أقسام أنشأتها الحكومة لتسهيل الأعمال الإدارية . وعدد هذه الأقسام في المنطقة بين سيوط والشلال الأول سبعة وعشرون^(٥) ويغلب أن يكون عدد الأقسام شمالي سيوط معادلا لذلك على الأقل . ومع أن رئيس الإدارة في المدن الكبيرة كان يلقب بأمير أو حاكم فقد أصبح الآن تابعا اداريا للفراغنة فلم يعد يتصرف في أمر حتى يعرضه على السدة الملكية فهو كالعمدة في وقتنا هذا ، أما المدن الصغيرة فكان يعين عليها مشايخ كما هو جار الآن ، وأما القرى الصغيرة فكان يعين عليها بعض الكتبة تحت اشراف كاتب منهم^(٦) ، وسنرى أن هؤلاء الحكام قاموا بالأعمال الإدارية والقضائية معا في أقسامهم الخاصة بهم .

وكان هم الحكومة في تلك العصور موجهها الى زيادة الانتاج الذى يتبعه ازدياد في ثروة البلاد ، ولذلك كانت معظم الأراضى تابعة للملك فكان يقسمها على أتباعه تحت اشراف موظفى حكومته أو يهبها لأمرائه المقربين أو لرجال حزبه أو أقاربه أو يؤجر بعضها الى الأهالى الاعتياديين ، ويمكن كل واحد من هؤلاء أن يستبدل بقطعة أرضه أخرى على أن يدفع فرق البديل ثم يتصرف فيها كما يشاء^(٧) . أما أملاك الملك من أغنام وبهائم وحمير فكانت توضع تحت اشراف أناس من الطبقتين المذكورتين وتفرض عليها ضريبة سنوية كالأراضى . واقتضى القانون المالى وقتئذ أن تفرض الضرائب على الأراضى والحيوانات والأملاك جميعها^(٨) كل سنة وبين ذلك في سجل خاص ، وهذه الضرائب كانت تورد الى الخزانة المصرية التى لم تزل تعرف "بالبيت الأبيض" لكن استغنى من هذا

(١) ١٧٠:٣ (٢) ٤٦٤:٤ (٣) ٥٨:٣ (٤) نصوص من (Me) (٥) ٧٤٥-٧١٦:٢ (٦) ٧١٧:٢ (٧) نصوص من (Me) (٨) ٩١٦:٢ و ٣١:١

الأمر أوقاف المعابد فقد أعفيت من الضريبة. أما سجلات الضرائب فكانت تحوى كشفا مضبوطا عن الأملاك وما يتعلق بها وبمقتضى ذلك الكشف كانت تفرض الضرائب التي استقرت تدفع للحكومة بشكل مواد أولية كحبوب ونيذ وزيت وعسل ومنسوجات أو بهائم . وليلاحظ أن أهم قسم بالإدارة المالية كان خاصا بالمواشي والحيوانات ولى ذلك أهمية القسم الخاص بالمواد الأخرى . أما لفظا "ضرائب" أو "عوائد" فقد استعيرها عند قدماء المصريين بلفظ "الشغل" . وأخبرنا الكتاب المقدس أن الأهالي كانوا يدفعون خمس نتاج الأرض والحيوان ضريبة لسالية في زمن سيدنا يوسف عليه السلام^(١) . ونجى الضرائب ثم تورد الى ادارات الحكومة الأخرى ويؤدى كل عمل موظفون خاصون . ومن ذلك يتضح أن عدد الموظفين والخدم وقتئذ بلغ حدا لم يباهه في عصر سابق ، وهؤلاء الكتبة والمراقبون كانوا تحت اشراف رئيس المالية وهذا يعرض الأمور على الوزير كل يوم بعد ذلك ويستأذن لفتح الدواوين والمخازن كالعادة^(٢) . وهناك نوع من الضرائب كان يدفعه للوزير موظفو الحكومة على حسب وظائفهم . وكان وزير قسم مصر الجنوبي يشرف على موظفى قسمه جميعا حتى سيوط شمالي^(٣) ، ولا يبعد أن كان لوزير القسم الشمالى أيضا مثل هذا الاشراف على موظفى دائرة أعماله ، وتدفع ضرائب الموظفين ذهبا وفضة وقمحًا وغنما وكثانا . ودلتنا الآثار أن حاكم مدينة الكاب كان يدفع للخرافة المصرية ضريبة سنوية تقدر بمخمة آلاف وسمائة قمحة ذهبيا وأربعة آلاف ومائتى قمحة فضة وقلادة ذهبية وثورين وصندوقين من الكنان . ووجدت قائمة للضرائب التي كانت مفروضة على موظفى جنوبي مصر تحت ادارة الوزير نبحارح مقوشة على جدر قبره لكنها لسوء الحظ تالفة لدرجة يصعب جمعها ومعرفة مقدار تلك الضرائب أيام ذلك الوزير بالضبط^(٤) . والنابت أن أقل قيمة لضرائب موظفى هذا الوزير تقدر بمائتين وعشرين ألف قمحة ذهبيا وتسع قلائد ذهبية وستة عشر ألف قمحة فضة وأربعين صندوقا ومقاسات أخرى كثانا ومائة رأس وست من البهائم المختلفى الأعمار وكية من الحبوب . ولا يبعد أن يكون هذا التقدير أقل من الحقيق بنحو ٢٠٪ ، ولما كان من المحتمل أن الملك يحصل من وزيره الشمالى ما يعادل هذا المقدار أيضا كانت الضرائب التي تجمع من موظفى الحكومة وقتئذ شيئا لا يستهان به . ومن دواعى الأسف اننا لم نتمكن من تقدير مجموع هذه الضرائب بالضبط ، لكن المعلوم انها كانت ترسل الى ادارة وزير الجنوب رأسا أيام الاسرة الثانية عشرة حيث تقيد وتوزع بالدقة وتقيد بها بيانات وافية يرجع اليها وقت الحاجة . ولغضب أعمال ميزانية الضرائب كان الوزير الجنوبي يقدم للملك تقريرا كل شهر عن المصروفات والارادات يعاونه في ذلك رؤساء الأقسام وكبار الموظفين^(٥) . ولما كانت الضرائب مرتبة على نتاج الأرض وهذا أيضا مرتبط بدرجة فيضان النيل كحالنا الآن كانت ترسل الى وزير الجنوب بلاغات رسمية عن حال فيضان النيل^(٦) . وتدخل تحت اشراف هذا الوزير أيضا الأوقاف الدينية والأخص ما حبس منها على المعبود آمون بمدينة طيبة فهذه كان يديرها وزير الجنوب كما كان أيضا يدر دخل معبد هذا المعبود الغنى بما في ذلك من مرتب ومصروف رئيس كهنة آمون^(٧) .

(١) سفر التكوين ، الاصحاح ٤٧ ، سطر ٢٢-٢٧ (٢) ٦٧٩:٢ (٣) ٧٤٥-٧١١:٢ (٤) شرحه

(٥) ٧٠٨:٢ (٦) ٧٠٩:٢ (٧) ٧٤٦:٢-٧٥١

وأخذت الخزينة المصرية على توالى الأيام تضخم بورود الجزية من البلاد الأجنبية بمقاديرها الكبيرة وهذه الجزية ترد على وزير الجنوب وهو يعرضها على الملك . ووجدت رسوم شيقة على صدر قبر وزير الجنوب المعظم المدعو زيمارح بطييه تمثله متسلما ضرائب موظفيه السنوية^(١) وكذا ضرائب ولاية المستعمرات الآسيوية والنوبية^(٢) .

ولم تقتصر سلطة وزير الجنوب على المالية بل شملت أيضا القضاء فكانت سلطته أوسع نظاما من سلطته المالية فصارت له الكلمة العليا على جميع قضاة قسمة وعلى محكمة العشرة السابقة الذكر والتي أصبح رأيا الآن أقل من الاستشارى بعد ما كانت ذات الكلمة النافذة في البلاد^(٣) . ومع أن بلاغات القصر الملكي وقتئذ لم تشر مرة واحدة الى هذه المحكمة فقد بقي ذكرها ومجدها القديم موضع الإعجاب والسديج في الشعر حتى العهد اليونانى . وكان الوزير يلقب أحيانا برئيس المحاكم الست الكبرى كسابق العهد ، لكن يلاحظ أن هذا اللقب أصبح الآن نغريا فقط لزوال هذه المحاكم من الوجود ، ومع عدم وجود رجال أخصائين في القانون فكان يشترط في الحكام أن يكونوا متضلعين في القانون ليحكموا في كل ما يعرض عليهم من القضايا . ولما كان الوزير معتبرا رئيس حكام الأقسام التابعة له كانت تعرض عليه كل أحكام القضاة الذين تحت اشرافه ، وحررت العادة في كل حال أن يرفع كل مدع أو متظلم دعواه الى الوزير كتابة ويستحسن حضور صاحب الطلب شخصيا ، ولذلك كان قصر الوزير ملجأ يحمي اليه المدعون والمتظلمون كل يوم . زد على ذلك أنه كانت تعقد في هذا القصر كل يوم جلسة لاصدار حكمها في تلك الدعاوى^(٤) . ودلتنا الآثار أن هذه الجلسات كان يؤدي نظامها حجاب وكتبة وكان الناس يدخلونها بالترتيب بعد ما يصفون استعدادا لثولهم بين يدي الوزير^(٥) وحتم القانون على الوزير اصدار حكمه في قضايا الأراضي المتعلقة بطييه في ثلاثة أيام من تاريخ رفع الدعوى أما قضايا الأراضي الخارجة عن طييه شماليا وجنوبيا فالناطق فيها كان لا يتأخر عن شهرين^(٦) . هكذا كان النظام القضائى لما كانت المملكة تحت اشراف وزير واحد ، لكن لما عين وزيران للشمال قسم النفوذ والسلطان بين هذين الوزيرين^(٧) . وكل جرائم طييه كان ينظرها وزير الجنوب شخصيا ، أما المجرمون فيحجزون في سجون خاصة ما داموا رهن التحقيق فاذا صدر الحكم عليهم أرسلوا الى سجون أخرى ينفذ فيها العقاب . ولكل قضية أوراق تحفظ في السجلات الرسمية كما هي الحال الآن^(٨) . وتمتاز قضايا الأراضي والأملك بوجود اصدار الحكم فيها بسرعة . ويتحتم على كاتب الوصية أن يسجلها شخصيا في قصر الوزير^(٩) ، وتحفظ صور لجميع المستندات وحدود الأراضي والعقود في ادارتى وزيرى الجنوب^(١٠) والشمال^(١١) . وكل طلب مقدم الى الملك يتحتم تقديمه كتابة الى ادارة الوزير أولا^(١٢) .

(١) ٧١٦ : ٢ - ١٤٥ (٢) ٧٦٠ - ٧٦١ : ٢ (٣) ٧١٢ : ٢ (٤) ١٧٥٠ - ١٧١٤ - ٧١٥
 (٥) ٧١٥ : ٢ (٦) ٦٨٦ : ٢ (٧) نصوص من (Mes) (٨) ٦٨٢ : ٢ (٩) ٦٨٨ : ٢
 (١٠) ٧٠٣ : ٢ (١١) نصوص من (Mes) (١٢) ٦٩١ : ٢

وزيادة على قصرى وزيرى الشمال والجنوب اللذين كانا يعرفان "بالايوان" أو "المجلس الأعلى" أنشئت بالأرياف محاكم فرعية مكونة من رجال الإدارة المتمرنين على تطبيق القانون كما ذكرنا سابقا. وكان هؤلاء الرجال يعرفون بأعيان البلد أو "رجال المجلس المحلى" ويعتبرون ممثلين لمجلس القضاء الأعلى. والقضايا الكبيرة كالخاصة بالقبائل والأسر الرفيعة كان يتحتم فيها ارسال مندوب من "مجلس القضاء الأعلى" لينفذ قرار ذلك المجلس بمعاونة رجال أقرب "مجلس محلى". وكانت القضايا تسمع أحيانا أولا أمام المحاكم الفرعية ثم تعال بعد ذلك الى المحاكم العليا قبل الحكم فيها نهائيا^(١). ولم نهدلنا الى معرفة عدد المجالس الفرعية فى تلك الأوقات بالضبط، لكن المعروف أن أهم هذه المجالس هما الخالصان بمنف وطيبه. وكان أعضاء مجلس طيبه المحلى كثيرى التأثير على حسب أهمية القضايا، فالقضايا الخاصة بالبيت المالك كان ينظر فيها أعضاء معينون بأمر من الوزير الجنوبى^(٢) أما قضايا المؤامرات على الحكام فكان الملك نفسه يعين القضاة للنظر فيها بلا محاباة ولا محسوبية وكذا الحكم على المجرمين وكان يمنحهم الحق فى تنفيذ هذا الحكم أيضا^(٣). ويلاحظ أن الكهنة كانوا معظم أعضاء هذه المحاكم ولا نعلم للآن علاقة هذه المحاكم الفرعية بإدارة الوزير بالضبط، وقد ورد على الآثار مرة على الأقل أن أحد المدعيين حكم له "المجلس المحلى" بتسليم عبده معارضا ما حكم به "المجلس الأعلى" سابقا بإدارة الوزير^(٤). ومع شدة حرص القوم على القانون كثيرا ما تشككوا فى نزاهة الحكم وعنده فقد ورد أن الناس كانوا يندبون حالة الفقير الضعيف بين يدي القضاء أمام خصمه الغنى إذا أصدرت المحكمة حكمها ضده، فيصبح الناس بأصوات عالية قائلين (هذا نتيجة اعطاء) الفضة والذهب للكتابة! و(اعطاء) الملابس لخدم المحكمة!^(٥) ولا غرابة فرشوة الغنى كانت وقتئذ أقوى مفعولا من حتى الضعيف كما هو حاصل الآن كثيرا (فى نظر المؤلف). لكن يلاحظ أن القانون الذى لجأ اليه الفقير كان غاية فى العدالة وجرت العادة أن ينسخ فى أربعين درجا برديا ويوضع على منضدة القاضى وقت انعقاد المحكمة للراجعة وزيادة الايضاح، وكان يسمح لكل شخص أن يقرأ القانون ويستفسر الغامض^(٦). ومن دواعى الأسف أننا لم نثر على نسخة من ذلك القانون الذى لا تشك لحظة فى عدالته فقد جاء فى الآثار أن الوزير كان يحكم بالعدل بدون محاباة حتى كان يخرج المتخاصمان من حجرته بجرى خاطر، "وكان يعطى الفقير حقه كما يعطى القوى نصيبه تماما"^(٧) وجاء عنه أيضا "أنه لم يفضل الشخص العظيم على الخفير بل كافأ المظلوم وعاقب الظالم على ظلمه"^(٨). وبلغ من علو منزلة القانون ونزاهته عند المصريين أن اقتنخ الملوك بأنهم رجال القانون فقد لقب أمنتخب الثالث نفسه "بموطد القانون". وجاء أيضا أن أحد الملوك فاه أمام احدى المحاكم "بأن القانون ثابت، لم أحدث فيه تغييرا، ولذلك التزمت خطة السكوت خوفا من أحداث الفرج والسرور"^(٩). وبلغت العدالة حدا لا يكاد يصدقه العدل، من ذلك أنه لما ظهرت مؤامرة لاغتيال حياة ملك لم يكتم الملك بتحقيق مختصر واصدار حكم الاعدام على الجناة بل أصدر

(١) جاردنر نصوص من (Mea) (٢) ٧٠٥:٢ (٣) ٤٢٣:٤ - (٤) Spiegelberg, Studien. (٥) Pap. Anast. II, 8,6. (٦) ٧١٢ و ٦٧٥:٢ (٧) ٧١٣:٢ (٨) ٧١٥:٢ (٩) Spiegelberg, Studien.

أمره بتشكيل محكمة للنظر في القضية بشرط ألا تصدر حكمها بعقاب المتهمين إلا بعد ثبوت إجرامهم . وجاء أيضا أن العقوبات التي فرضها حورمحب على الموظفين المرتشين كانت على حسب القانون^(١) . ولا يخفى أن معظم مواد ذلك القانون عتيقة كنصوص كتاب الموقى ولذلك نسب قدماء المصريين قانونهم الى الآلهة . أما قانون حورمحب فكان من مبتكراته^(٢) . قال ديودور الصقلي ان هناك خمسة ملوك مصريين سنوا قوانين لبلادهم قبل الحكم الفارسي ، وجاء في أخبار المملكة الوسطى أن أحد رجالها النبلاء قال انه سن القانون وذلك يعني طبعا أنه عمل هذا بناء على أمر ملكي^(٣) . لذلك كانت أمور التجارة والزراعة والصناعة في وادي النيل في عهد الإمبراطورية سائرة بالعدل والقانون اللذين سهر على تنفيذهما رجال أصوليون عديدون لا يحدون عن الحق قيد أنملة ، وهكذا انمحي أثر الظلم والخياف من جهة الملك وحاشيته وعم العدل في أنحاء البلاد .

وكان وزير الجنوب القوة المحركة لنظام الحكومة وقتئذ ، وقد ذكرنا فيما سبق أنه كان يقابل الملك صباح كل يوم ليتفاوض معه في شؤون المملكة ولم يكن للوزير معارض في السلطة إلا رئيس المالية الذي خوله القانون حق الاطلاع على اجراءات وزير الجنوب . فاذا خرج الوزير من القصر الملكي يجيد رئيس المالية واقفا بجوار أحد ساريات مدخل القصر ينتظره ليتداول معه أمور الدولة^(٤) بعد ذلك يفتح الوزير أبواب مكتبه ويبدأ بأشغاله الاعتيادية فلا يترك صغيرة ولا كبيرة تخرج أو تدخل مكتبه إلا ويطلع عليها سواء أكان ذلك خاصا بالأهالي أم بالأملاك^(٥) . وقصر الوزير (أي ادارته) كان طريق التخابر بينه وبين حكام الأقسام الذين كانوا يرسلون له تقارير وافية عن حوادث أقسامهم أول كل فصل (أي ثلاث دفعات سنويا لأن السنة المصرية القديمة قسمت الى ثلاثة فصول)^(٦) ، ومن ثم كانت ادارة هذا الوزير مثالا صادقا لادارات الأقسام . وكثيرا ما قام الوزير بسياحات في جهات مصر لتفقد أحوال الادارة والنظام ولذلك كانت توجد تحت تصرفه الشخصي سفينة حكومية تنقله الى حيث شاء . ويدخل تحت اشراف الوزير أيضا حرس الملك الخاص وحامية العاصمة^(٧) وادارة الجيش^(٨) وقلاع الجنوب^(٩) وأخبار موظفي الأسطول^(١٠) كما كان الوزير يحتفظ أيضا بالأعمال الحربية والبحرية . ولما كان الملك في الأسرة الثامنة عشرة يحارب مع جيشه خارج القطر كان وزير الجنوب يدير شؤون الدولة بالنيابة^(١١) . ولم تقتصر سلطة الوزير على ما ذكر بل شملت أيضا ادارة المعابد في أنحاء القطر لأنه ورد عنه مرة أنه "وطد القانون في معابد الآلهة في الجنوب والشمال"^(١٢) . ومن ثم كان هذا الشخص رئيسا للديانة أيضا وبعبارة أخرى كان أدري الناس بأحوال البلاد الداخلية ، ومما ورد عنه أنه لم يسمح بقطع الأشجار ولا برى الأراضي أو تصرف المياه الا بأذنه الخاص^(١٣) . واعتبر هذا الوزير ظهور نجم الشورى الجمانية وسيلة للتوقيت الحكومي^(١٤) . وغلاصة القول أن ادارة القطر صارت في قبضة هذا الوزير تقريبا ، زد على ذلك أنه كان يستفتي في كل ادارات البلاد^(١٥) . وقبل أن تقسم ادارة القطر بين وزيرين كان نفوذ

(١) ٥١ : ٣ ملاحظة (٢) راجع الفصل الخامس صحيفة ٥٢ - ٥٤ (٣) ٦٥ : ٣ (٤) ٦٧٨ : ٢ (٥) ٦٨ : ٢ ، ٦٧٦ : ٢ (٦) ٦٨٧ : ٢ ، ٦٩٢ : ٧ ، ٧١١ : ٧ (٧) ٦٩٣ : ٢ (٨) ٦٩٥ : ٢ (٩) ٧٠٢ : ٢ (١٠) ٧١٠ : ٢ (١١) ٧١٠ : ٢ (١٢) ٧٥٧ : ٢ (١٣) ٦٩٧ : ٢ (١٤) ٧٠٩ : ٢ ، ٦٩٦ : ٢

ذلك الوزير محسوسا في جميع دوائر الحكومة المهمة التي كانت دائما على اتصال مباشر أو غير مباشر بإدارته . أما بقية الدوائر الأخرى فكانت مضطرة لأن تتخاطب وتنفذ أعمالها بناء على إرشادات إدارة الوزير . وغلاصة القول أن مركز هذا الوزير كان أشبه بمركز سيدنا يوسف عليه السلام لما تسلّم من فرعون مقاليد الحكم . وبلغ من شدة عدل الوزير وانصافه أن ذكره القوم في صلواتهم للعبود آمون حيث قالوا أنت يا آمون وزير الفقير الذي يرفض رشوة المذنب^(١) ولذلك تبين الاهتمام بأمر الوزير فكان لا يوضع في ذلك المركز الا كل شخص يختاره الملك من ذوى القدرة والكفاية ويعان ذلك بأمر ملكي . وجرت العادة أن الملك كان يلقي على وزيره وقت تعيينه نصائح وحكايا لا يتصوّر الانسان صدورها من بين شفتي فراعنة غزاة يرجع تاريخهم الى أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة لأنها تم على رحمة ورأفة مع تقدير لمسئولية الحكم ، واليك ترجمة ما قاله أحد الفراعنة لوزيره في مثل هذه الأحوال : "لا تجلس نفسك مواجها الأمرء والقضاة"^(٢) ولا تختلط كثيرا مع الأهالي ، فالآلهة تبغض المحسوبة . هكذا تعلمنا فيجب عليك أن تابع ذلك . يجب عليك أن تهتم بطلب الشخص المجهول كالذي تعرفه وبأمر الانسان البعيد كالقريب ، فذلك يعلى مركز الموظف . لا تختد على شخص بدون حق واظهر أمام الناس بمظهر شريف وقور لتخشاك الخلق ، فالأمير هو الشخص الذي تهابه الناس ، واعلم أن أصدق واجبات الأمرء اتباع العدالة . لا تكثر الاختلاط مع الأهالي لئلا يزوروك فيقولوا عنك ما هو الا انسان"^(٣) . وجرت العادة أن يكون مرءوسو الوزير قانونيين واليك ترجمة ما قاله أحد الفراعنة لوزيره وقت تعيينه : "ليكن جميع كتابك من رجال القضاء حتى يقول الناس عنهم أنهم "كتاب عادلون"^(٤) . ويستتبع ضمنا من شدة حرص الحكام على العدالة وكثرة تكرارها على المقابر أن الرشوة كانت كثيرة الانتشار بين صغار الموظفين حتى تطلبت اتخاذ الوسائل الفعالة . ويمتاز وزراء الأسرة الثانية عشرة بثباتهم على العمل بالجد والأمانة مفتخرين بذلك حتى تركوا على جدر قبورهم قوائم من النقوش عديدة محفورة وملونة ذكروا فيها الرتب والوظائف التي قلدها في دنياهم ذا كرين بأنهم قاموا بواجبهم خير قيام ، وعلى جدر مقابر طيبة كثير من هذه النقوش الجميلة استنتجنا منها ما أوردناه من البيانات الخاصة بمهام الوزير وعظم سلطته في الدولة^(٥) .

بهذه الطريقة كانت الأعمال تدار في حكومة الامبراطورية المصرية . أما المعيشة والأحوال الاجتماعية فقد تغيرتا كثيرا عما كانتا عليه سابقا لأن حكام الأقسام الذين كانوا ينتخبون من الأعيان وأقارب الأعيان أصبحوا الآن يعينون من موظفي الحكومة بلا مراعاة لحسبهم ، وبذلك اتسع نطاق الترقى أمام طبقة الأهالي الوسطى وصار لهذا التغيير تأثير تدريجي في نفوس القوم ، واليك ترجمة ما أوردته أحد صغار الموظفين : "سيكون ارتقائي هذا في أشغال الحكومة موضوع كلامكم ومحور محادثاتكم فيحكىها الحرم للصغير ، لقد كنت فقيرا وضيعا ونشأت في قرية حقيرة فشملتني رعاية سيد القطرين (أى فرعون) فصرت محبوبا عنده ممدوحا لديه كلما تجلى للناس بأهته وجماله كالعبود الشمسي . لقد رقتاني جلالته على أصدقائه الملكيين وقدمني بين أمرء القصر الملكي

(١) Pap. Anast. II, 6, 6-6. (٢) ٦٦٦: ٢ (٣) ٦٦٨: ٢ - ٩ (٤) ٦٧٠: ٢ (٥) ٦٦٥: ٢ - ٦٦٦

وقد بنى للأشغال العمومية على حدائثه سنى وكان معجبا بى وبأشغالى ثم عبتى فى مصنع الذهب للإشراف على صناعة صور وتمائيل الآلهة الذهبية^(١)، وروى هذا الموظف أيضا أنه قام بوظيفته الحديثة خير قيام فبال استحسان الملك فكافأه بجلالته بالذهب علنا وعينه عضوا فى مجلس المالية . من ذلك يتضح لنا تسهيله سبيل الرقى للعمال والموظفين فقد دلتنا هذه القصة أن هذا الشخص بدأ بأعماله وهو موظف صغير مجهول . وطائفة الموظفين لا بد أنها كانت مقسمة وقتئذ الى قسمين : صفار الموظفين المتخمين عادة من الطبقة الوسطى وكبار الموظفين المتخمين من الأسر العريقة . ثم التحمت طائفة الموظفين الكبار تدريجيا مع حاشية الملك التى كان أفرادها يديرون مصالح الحكومة المركزية ويقودون قوات الفراعنة فى الحروب فأصبح أعيان البلاد كبار موظفى الحكومة . أما طائفة التجار^(٢) والصناع والفنيين التى كانت موجودة منذ العصور القديمة فقد اعتبرت مكحلة ومتممة لفريق صفار الموظفين الحكوميين . على ذلك طائفة المزارعين الذين يحرثون الأرض ويستخرجون خيراتها وهؤلاء كانوا عبيد الفراعنة . أما هؤلاء المزارعون فكان سواد الأمة الأعظم حتى أن الكاتب الاسرائيلى الذى تكلم عن القطر المصرى وقتئذ لم يذكر فى أهالى مصر سوى العمال والكهنة^(٣) . ولم تترك لنا طائفة العمال إلا آثارا يسيرة ، أما طبقة الموظفين فكانت مثرية يانعة كثيرة الآثار وقد وصل اليها جزء كبير من آثارها ومنه استتجنا معظم معلوماتنا عن تلك العصور . قال أحد الإحصائيين الذين عاشوا أيام الأسرة الثانية عشرة : " كان أهالى القطر المصرى وقتئذ مقسمين الى أربع طبقات الجنود والكهنة وعبيد الملك والصناع"^(٤) وهو قول ينطبق تماما على ما جاء بالآثار لأن . ولنعلم أن طائفة الجنود وان كانت تشمل أفراد الطبقة الوسطى الأحرار معتبرة من الطبقات الراقية . ومع أن لقب "أبناء الوطن الحربيين" كان كثيرا ما يطلق على الجنود المصرية فى عهد المملكة الوسطى^(٥) فان استعماله أصبح الآن شائعا فى عهد الامبراطورية ومقرونا بشيء من الرفعة والشرف ، ثم أخذت منزلة الجندى تعظم تدريجيا بتوالى الفراعنة حتى أصبح الجندى الشخص الوحيد الذى يتكلم عليه فرعون مصر فى انجاز أوامره على عكس ما كان قديما بالمره . وللاحظ أن الرقى فى ذلك العهد لم يكن مقصورا على الجنود والصناع بل شمل أيضا طائفة الكهنة لأن زيادة إيرادات المعابد أيام الامبراطورية جعلت للوظائف الدينية مقاما واعتبارا فأصبح لا يعين فيها الا الأكفاء بعد ما كانت هذه المراكز مقصورة على العمال والفعلة المؤقتين أيام الملكتين القديمة والوسطى . وبمرور الزمن ازداد عدد نفوذ الكهنة تدريجيا فازداد نفوذهم فى سياسة الدولة . ثم ان زيادة ثروة المعابد تطلبت جيشا جرارا من الموظفين للقيام بأعمالها من مختلف الحرف التى لم تكن معهودة فى العصور السالفة . ولا يبعد أن يكون ربع الأشخاص المدفونين جهة العرابية من كهنة ذلك العصر . وصارت طائفة الكهنة مشهورة عند الناس بعد ما كانت قليلة الاتصال والارتباط بالأهالى ، واعترفت الحكومة رسميا بأفراد هذه الطائفة التى شملت وقتئذ موظفى اللاهوت جميعهم فى سائر جهات القطر كافة . بعد ذلك عين لرياسة هذه الطائفة "رئيس كهنة آمون" المعتبر رسميا رئيسا لمعبد طيبة الحكومى ، وبهذه الطريقة فاق كبير

٢٧٤ : ٣ (٢)

Unpublished stela in Leyden (V, I), by courtesy of the curator. (1)

(٣) سفر التكوين ، اصحاح ٤٧ ، سفر ٢١ (٤) ٢ : صحيفة ١٦٥ ملاحظة (١) (٥) ١ : ٦٨١

كهنة آمون رئيس كهنة عين شمس ومنف وتساوت منزلة طائفة الكهنة الاجتماعية بطائفة الجنود وموظفي الحكومة . ويلاحظ أن هذه الطوائف كانت تحت اشراف أمراء معينين من قبل الملك غير الحكام (الأرستقراطيين) السابقين . أما صفار موظفي هذه الطوائف فقد قلنا فيما سبق انهم تساوا مع طبقة التجار والصناع . أما الفلاح الذي يرجع اليه الفضل الأكبر في زيادة ثروة البلاد ووفرة خيراتها فكان أقل من هؤلاء الأقسام منزلة واعتبارا .

وقد اتسعت مالية المعابد فكثر عدد الكهنة الذين كوّنوا الآن طائفة راقية مملين لديانة القطر الرسمية ، والحق يقال ان المصريين لم يمهّدوا من قبل مثل هذا التقدم الديني العظيم . والسبب في ذلك أن أيام البساطة القديمة زالت وحل محلها البذخ لأن الغنائم الكبيرة التي استولى عليها الفراعنة في البلاد الأجنبية وزعت على المعابد بكثرة غير مسبوقه ، فأخذت المعابد تكبر وتتمسح حتى شاكلت القصور وأخذ رئيسها يعلو ويعظم حتى شابه الأمراء الأقوياء ذوى النفوذ السياسى العظيم . وقد لقبت زوجة رئيس كهنة طيبة "بمحظية المعبود الكبيرة" وبالزوجة المقدسة فتساوت بذلك مع الملكة في الرفعة والمقام ، وبقيت هذه الزوجة تقود النساء مدة طويلة في ترتيل الأناشيد وقت عبادتهن ، والمعابدات وقتئذ كثر عددهن كما كان في الأزمنة السابقة . وجرت العادة أن الحكومة قررت لزوجة رئيس كهنة آمون مرتبا عظيما من ميزانية المعابد ، ولما عظم مركز هذه السيدة استصوب الفراعنة أن تعين زوجاتهم في هذا المنصب ليتمكنوا بذلك من الاستيلاء على هذا الإيراد الوافر .

ولا يخفى أن نجاح الأسرة الطيبة في الاستيلاء على الملك رفع كثيرا من منزلة آمون إله طيبة في البلاد حتى أصبح آمون إله الملكة المصرية الرسمية ، وقد كان في عهد الملكة الوسطى في المرتبة الثانية لما شبه بالمعبود الشمسى ولقب آمون رع - أى آمون الشمسى . أما الآن فقد فاق آمون سائر المعبودات مقاما ونسبت اليه بعض صفات من معبود قفط ، ثم علت منزلته رفعة وسموا بدرجة منقطعة النظير فاذا أراد العامة أن يفعلوا شيئا قالوا "إذا أطلال أجلنا آمون" بجاء قولهم هذا مشابها لقول المسلم "إن شاء الله" . وقد لقب المصريون آمون "بوزير الفقراء" وتضرعوا الى تمثاله ليفرج عنهم همهم ويقضى حوائجهم ويحسن معيشتهم ويوسع رزقهم . ولم يكن اجتماع صفات المعبودات الأخرى في آمون بالفريدة من نوعها في الديانة المصرية ، لأن المصريين اعتقدوا أن كل إله يمكنه أن يتصف بصفات الآلهة الأخرى وأن يقوم بأعمالهم ، فقد كانت منزلة المعبود الشمسى عظيمة في البلاد .

واعترى الديانة في عهد الامبراطورية تغير وتبدل خصوصا فيما يتعلق بأمور الموتى ، ويرجع تاريخ هذا التغير في الحقيقة الى زمن الملكة الوسطى . فمن هذا التبدل أن التعاويذ والدعوات التي استعملها الأموات لنجاحهم في الآخرة زاد عددها وكتبت في أدراج بردية بعد ما كانت تنقش داخل التوابيت . ومال القوم تدريجيا الى بعض التعاويذ والتوسلات دون بعض فأكثروا من استعمالها وصارت هذه فيما بعد نواد "كتاب الموتى" . وساد الاعتقاد الأعمى في شدة مفعول السحر وتوهم القوم وجود السحر في التعاويذ السالفة حتى اعتقدوا أنها تكفى لأن تجلب لبيت كل ما يحتاج اليه

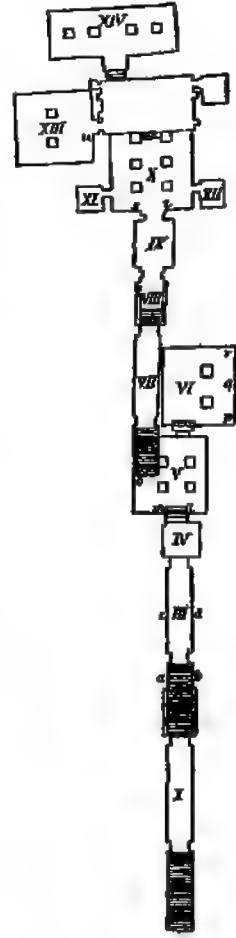
ويشتهر . ولما ترفه القوم ولم يرق في نظرهم ما تخيلوه من أعمال الموتى من حرث وضم وحصد حقول "يارو" الأخروية وضعوا تماثيل صغيرة حاملة أدوات الشغل اللازمة منقوش عليها تعاويذ سحرية معتقدين أنها ستجدي في الآخرة وتؤدي جميع أعمال الميت هناك كلما طلب منه ذلك . أما هذه التماثيل فكانت تعرف باسم "أوشبتي" وهي كلمة مشتقة من فعل "أوشب" - أي أجب - فهي لذلك مجيبات عن الميت في أخراه ، ووضع القوم العشرات والمئات من هذه التماثيل في قبور موتاهم لهذا الغرض . بعد ذلك توهم القوم طرقا للنجاة من العقاب الأخرى لأجل آثامهم وذنوبهم الدينيوية فكتبوا أحد التعاويذ أسفل جسد مجرى وضعوه تحت طيات لفائف الجثة المحنطة فوق التدي ظانين أن هذا كاف لإسكات كل صوت مذب خارج من القلب أمام أزوريس فلا يعرف هذا المعبود ذنوب المتوفى ، واليك ترجمة هذه التعويذة : "أى قلبى ! لا تكن شاهدا ضدى" . وأخذ الكهنة يبيعون للقوم أدراجا بردية مكتوب عليها تعاويذ من كتاب الموتى وعدة مناظر أخروية وخصوصا المتعلق منها بالبراءة مخبرين العامة أن هذا الدرج يضمن لمن يحصل عليه حكم البراءة في الآخرة . وكان الكتبة يتركون محلا خاليا وسط نصوص ذلك الدرج لكتابة اسم المشتري فيه ، ومنه يتضح أن هؤلاء الكتبا كانوا يكتبون تلك الأدراج قبل معرفة أصحابها .

وبدئى أن هذه العقائد سببت المخطا عظيما في الأخلاق الدينية ، لأن الآراء والتخيلات الشريرة التي أدمجت في الديانة المصرية تسمت وأنحط قدرها . والسبب في ذلك أن الكهنة سهلوا لأى إنسان مهما عظمت آثامه وكبرت جرائمه أن يحصل على حكم البراءة في الآخرة وذلك باقتناء الأدراج البردية المذكورة ، ولذلك انعدم الرادع النفسانى وزاد الكسب الكهنوتى من هذه التجارة . ثم تفنن الكهنة في سلب ألباب العامة فوضعوا كتابا سموه "كتاب الدار السفلى" ذكروا فيه أوصاف الكهوف الاثني عشر الخاصة بساعات الليل والتي تمر عليها الشمس في سياحتها الليلية . ثم وضعوا كتابا آخر لقبوه "بكتاب الأبواب" شرحوا فيه الأبواب والحصون الموصلة لتلك الكهوف بعضها ببعض . لكن هذين الكتابين لم يلبثا متلا "كتاب الموتى" ومع ذلك فقد حاز الأول بعض الاحترام والتبجيل فتعشت نصوصه على مقابر ملوك الأسرة التاسعة عشرة والاسرة العشرين بطيبه ، ومنه استدل أن تخيلات الكهنة وخرافاتهم صادفت حوى في نفوس الفراعنة فتعشوها على جدر مقابرهم وفضلوها على سواها .

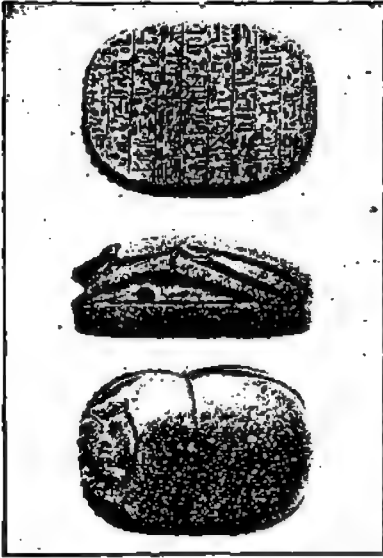
ونحت الأسماء مقابرهم في سخور الجبال وزانوا جدرها بالنقوش الجميلة الدينية الخاصة بالآخرة وبالتصوص الموتية ذات الصبغة السحرية ، وأسخت المقبرة أثرا خالدا لصاحبها نقش فيها ترجمة حياته وخدماته الحكومية وأوضح بها الإنعام الذى أسبغه عليه مليكه ، ولذلك كانت مقابر الأسماء بصخور طيبة (شكل ١٣١ وشكل ١٦٦) مرجعا قيا لأخبار تلك المصور وأحوال معيشتها . وهناك واد جبلى خلف تلك المقابر (شكل ١٠٨) اتخذه الملوك جبانة لهم نحتوا في سخوره قبورهم مفضلين هذه الطريقة على الأهرام . وهذه المقابر الملكية تشتمل على عدّة سراديب وقاعات واسعة منحوتة في الصخور متصل بعضها ببعض ومنتهية بحجرة كبيرة بها تابوت الملك العظيم . ويبلغ طول المقبرة أحيانا من أولها الى آخرها بضع مئات من الأقدام (شكل ١٠٩ وشكل ١١٠) . ويظن أن عمارة

هذه المقابر تماثل عمارة الكهوف التي تخيلها قدماء المصريين تحترقها الشمس في رحلتها الليلية في العالم السفلي. وبالجهة الشرقية لهذه القبور غربي طيبة معابد شيدتها هؤلاء الملوك العظام شبيهة بالمعابد التي شيدت شرق الأهرام في الأزمنة السابقة ، وسيأتي الكلام على هذه المعابد فيما بعد. ولم تقتصر هذه الترتيبات على مقابر الملوك والأمراء بل شملت أيضا غيرها للطوائف الأخرى ، ولذلك أضحت المقابر موضع عناية القوم فكثرت عمالها وعم شغلها وتخصصت لذلك طوائف عدة منها المحنطون وصانعو التوابيت وأثاث القبر ، واتخذ هؤلاء الصناعات حيا خاصا لهم بطيبة كما حصل ذلك في العهد اليوناني . ثم عملت أهالي الطبقة الوسطى مقابر لها كالمذكورة آنفا إلا أنها أقل عناية وقيمة . أما الفقراء فكانوا يؤجرون لموتاهم محلات في مقابر عمومية يدفنونهم بها تحت اشراف كهنة عموميين معينين من قبل الحكومة لتلاوة الدعوات والصلوات عليهم ، وبهذه الطريقة تكسبت الموميات بتلك المقابر . ودفن الفقراء المعوزون موتاهم في الرمل على حافة وادى النيل كما فعل أجدادهم من قبل ، ودفنوا أحيانا تماثيل صغيرة وحقيقية منتموش عليها اسمائهم بجوار مقابر الوجهاء ظنا منهم بأن هذه التماثيل ربما يحسن عليها بعض الهدايا والقرابان التي تقدم للأمراء فتعيش جثثهم بذلك مستريحة منعمة .

هكذا تيقظت مصر من نومها تحت ادارة أحممس الأول بعد ما حكها الهيكسوس السنين الطوال واتبعوا معها سياسة القصب والارهاب واحتقار الأديان والعادات . وقد بدأ أحممس بقطع الأحجار من محاجر طره ومن المحاجر التي قطعت منها أحجار أهرام الجيزة العظيمة واستعمل ذلك في تشييد معابد طيبة ومنف وغيرها (١) ، وقد استخدم لذلك الثيران التي استولى عليها من السوريين في آسيا ، لكن جميع أبنية هذا الملك تلفت وانعدمت . وقد أهدى هذا الملك معبد الكرنك عدة أدوات معدنية ثمينة وبديعة وبني سفينة جديدة من خشب الأرز الذي استولى عليه من أمراء لبنان لتكون وسيلة لعبور النيل (٢) .



شكل ١٠٩ - رسم تخيلي لمقبرة سني الأول بوادي مقابر الملوك بطيبة . الأبناء المظلة تشير الى درجات السلم والأجزاء المشار إليها بالأرقام من ١ الى ٤ ومن ٧ الى ٩ عبارة عن أروقة . أما الأماكن الأخرى فمساحات ذات عمد . وقد عثر على تابوت عظيم لهذا الملك في الساحة رقم ١٠ ثم نقل بذلك الى بلاد الأنجليز وهو بمنصف السير جون سون بلنديره



شكل ١٠٧ — تمثال بطمران وجد فوق قلب
إسمينب رئيسة سيدات آمون المقدسة
(دارمحف شيكاغو)



شكل ١٠٦ — تماثيل صغيرة للاجاية عن الميت في الآخرة
يقال لها باللسان القديم "أوشيتي" وهذه تقوم
بالخدمة التي يطلب من صاحبها القيام بها وقتئذ
(دارمحف القنون ابليلة بشيكاغو)



شكل ١٠٨ — منظر لجهة من وادي مقابر الملوك بطيبة .
يشاهد في الجهة اليمنى من منتصف الصورة مدخلان للقبرتين



شكل ١٦٥ - صحن ساحة الكرنك العظمى . ويقع نهر النيل في هذه الصورة خلف الساحة . وترى الصخور الرملية لوادي النيل من مدخل الكرنك (راجع خريطة رقم ١١)

وتلاحظ مآثر هذا الملك في جميع أعمال ملوك الأسرة الثامنة عشرة فإليه يرجع الشرف في تأسيس هذه الأسرة بطريقة متينة. ومع أنه حكم حوالي اثنين وعشرين سنة فقد توفي غالباً شاباً (حوالي سنة ١٥٥٧ قبل الميلاد) وبقيت أمه على قيد الحياة إلى السنة العاشرة من حكم ابنه وولى عهده أمنتحب الأول^(١) ودفن في قبر يجوار ابنه^(٢) بجبانة الأسرة الحادية عشرة الملكية بالجزء الشمالي لسهل طيبة وقد محبت آثار هذا القبر منذ مدة طويلة . وعثر ماريت على حل أم أحممس المذكور ويظهر أن اللصوص سرقوها في العصور الغابرة عن طريق مقبرة قريبة (شكل ١٠٣) . وتوجد الآن مومياء أحممس الأول وحليه بدار المتحف بالقاهرة .

(٢) Masp. Mem. roy., 634.

(١) ٤٩ : ٢ — ٥١

الفصل الرابع عشر

توطيد أركان المملكة ، سطوع شمس الامبراطورية

لم يحن الوقت للملك الامبراطورية أن يقوموا بأعمالهم العظيمة الخارجية لأن وادي النيل من الشلال الثاني الى البحر الأبيض المتوسط لم يكن ثابت الادارة والنظام، والصناعة ، فلم يتمكن ملوكه من التطلع الى ما وراء حدود مملكتهم . ولاحظ أن انفصال النوبة عن مصر مضى عليه مدة طويلة ، وأن وجود الثوار جنوبي القطر جاء بمثابة عقبة كأداء أمام تقدم النفوذ المصري في السودان ، فقبائل الأعنة التي سكنت جنوبي القطر أصبحت الآن تحت رياسة ملك منها ، ولذلك وجد أحعمس الأول نفسه أمام قوة معارضة منظمة لا يسهل إخضاعها بغزوة واحدة كما حصل في عهد الرومان . وترجع صعوبة إخضاع الأعنة الى سهولة انسحابهم الى داخل الصحراء الشرقية كلما وجه نحوهم أحعمس الأول قوة مصرية ثم الى رجوعهم ثانية لمناوئته ومشاكسته اذا آبت القوات المصرية الى وطنها . لذلك اضطر أمئنتح الأول بن أحعمس الأول أن يغزو النوبة فوصل الى حد المملكة الوسطى بجهة الشلال الثاني^(١) حيث شيد الفراعنة المسمون باسمي أمئنتحمت وسيزوستريس معابد وهياكل أنفها الأعنة بعدهم وتركوها في حالة خراب ودمار . وكان في معبة أمئنتح الأول وقتئذ قائدان عظيمان يعرفان باسم أحعمس صحباه في معظم أعماله وفتوحاته النوبية ، وقد قال أحدهما المدعو أحعمس بن إباننا : " لقد أسرجلالة الملك رئيس الأعنة وسط جنده بالنوبة "^(٢) ، فاستنتجنا من ذلك أن الملك سحق الأعنة وكسر شوكتهم وقتئذ . واشتهر هذان القائدان في الحروب فأسرا عددا كبيرا وأظهرا شجاعة وإقداما كافهما الملك عليهما جزيلاً^(٣) . وصار قسم النوبة الشمالي من ذلك الوقت تحت إشراف حاكم مدينة الكاب التي أصبحت في الوقت نفسه الحد الشمالي لذلك الاقليم الممتد من الكاب شمالا الى الواوات جنوبا ، ومن ثم صار حاكم هذا الاقليم يسافر شمالا كل سنة حاملا جزية الجهات التي تتبعه ليقدمها لخزينة الملك بطيبة^(٤) .

ولما بلغ أمئنتح الأول اقليم الشلال الثاني اعترى مملكته خطر عظيم في جبهتها الشمالية (غربي الدلتا) فاضطر الى الرجوع مسرعا ، وقد قال أحعمس بن إباننا مفتخرا أنه تمكن بمهارته وذكائه من ترحيل جلالة الملك في سفينة من الشلال الثاني الى القطر المصري في يومين (وهذه مسافة تبلغ مائتي ميل تقريبا)^(٥) . والظاهر أن الليبيين اغتنموا فرصة وجود الهيكسوس بمصر فنظموا أنفسهم ودبروا شؤونهم كما دبرتهم طمعا في غزو الدلتا ، ولكن أحعمس بن إباننا (عمدتنا الوحيد في هذا التاريخ) لم يذكر لنا موضع الخطر ومع هذا فلا يمكن أن يكون إلا من جهة ليبيا . وبديهي أنه لما قوى ساعد الليبيين لم يجد أمئنتح الأول وسيلة للخلاص منهم إلا سحقهم وغزو بلادهم ، لكننا لم نعلم عن

(١) ٢ - ٣٨ : ٢ (٢) ٣٩ : ٢ (٣) ٤١ : ٣٩ (٤) ٤٧ - ٤٨ : ٢ (٥) ٢٧ - ٢٨

أمر المعارك التي حصلت وقتئذ سوى ما أخبرنا به أحمس بن نخبت من أنه قتل ثلاثة أعداء وقطع أيدي كثيرين من الأسمري وأن جلالة الملك كافاه طبعاً على ذلك جزيلاً^(١). ولما زال الخطر عن حدود مصر وانضمت النوبة اليها وجه أمنتخب الأول همه نحو غزو الشام . ومن دواعي الأسف أنه لم يصل البنا أخبار عن تلك الغزوات الأسوية ولكن يظهر أن الجيوش المصرية وصلت وقتئذ الى نهر الفرات^(٢) ، لأن الملك الذي أعقب أمنتخب الأول في الملك افتخر في أوائل حكمه بأن مملكته امتدت الى الفرات مع أنه لم يكن قد قام فيها بحركة حربية وقتئذ . وسواء أكانت التروة العظيمة التي أصبحت في أيدي هذا الملك نتيجة هذه الغزوة أم أتت اليه من جهة أخرى فقد شيد مباني عظيمة بطيبة ، منها المعبد الخاص بقبره^(٣) والمعبد الجميل الذي أقامه عند مدخل الكركك والذي أطلقه تحوتمس الثالث بعد ذلك^(٤) . وقد قال المهندس الذي شيد هذه المباني (التي تلفت كلها الآن) ان الملك أمنتخب الأول توفي بطيبة بعد أن حكم عشر سنوات على الأقل^(٥) .

ولم يثبت لنا الى الآن اذا كان أمنتخب الأول ترك ولداً وارثاً ، انما الثابت أن الذي خلفه هو تحوتمس الأول ابن امرأة صلته بالأسرة المالكة غير جلية . وكان وصول تحوتمس الأول الى عرش مصر عن طريق اقترانه بأميرة مصرية تدعى أحموس ، وبهذه الوسيلة أعلن نفسه ملكاً على مصر بمجرد وفاة أمنتخب الأول وذلك في شهرينيار سنة ١٥٤٠ قبل الميلاد أو سنة ١٥٣٥ قبل الميلاد . وكان لإعلان توليته الحكم بالنوبة شأن كبير فنقش موظفو الحكومة هذا الخبر على الأعمار جهة وادي حلفا وكوبان وغيرهما^(٦) والموظف الذي قام بهذا العمل كان من أصحاب تحوتمس المذكور لأن الملك رفاه الى وظيفة جديدة مهمة بعد اعتلائه العرش . ولما تعذر على حاكم الكاب حكم النوبة وجمع جزيتها لكثرة ما تطلبه ذلك الاقليم من العناية عين الملك حاكماً عاماً عليه أشبه بمندوب سام لقبه "حاكم البلاد الجنوبية وابن الملك المعين على كوش" مع أنه لم يكن دائماً من أبناء الملك ولا متمنياً الى الأسرة المالكة ، وجرت المادة أن يعمل احتفال بهذا التعيين يحضره الملك ويقدم فيه أحد موظفي المالية ختم الحكومة للمندوب السامي قائلاً : "هذا ختم فرعون الذي ولاك حاكماً على القطر الذي بين مدينتي الكاب ونبتة"^(٧) ومعنى ذلك أن سلطة حاكم النوبة بلغت الشلال الرابع . ومعروف أن ما بين الشلالين الثاني والرابع هو المسمى على الأثار بلاد كوش ، وهذه البلاد لم تكن محكومة وقتئذ بحكومة أهلية أو ادارة ملكية منظمة ، لكنها كانت تحت سلطة رؤساء قبائلها كل رئيس يسيطر على قبيلته . ولم يكن سهلاً إخضاع هؤلاء الرؤساء سرعاً إذ تطلب هذا الأمر من المصريين حوالى مائتي سنة ، ومع ذلك فقد ورد وقتئذ على الأثار ذكر لوجود رؤساء قبائل كوش ورئيس الواوات جهة إبريم^(٨) وقد سمح المصريون لرؤساء تلك القبائل بالاحتفاظ الاسمي بمركزهم الادارى لكنهم لم يستمروا مدة طويلة بل استعاض عنهم ضباط اداريون مصريون بالتدرج . ولم يكن النصف الجنوبي لاقليم السودان المصري أيام تحوتمس الأول ساكناً هادئاً بل كان مضطرب الأمن والسلام ، ولذلك كانت الصعوبات التي صادفها تحورع — وهو أول مندوب سام فيها — عظيمة وشاقة للغاية . وكانت أيام تحورع كلها تعباً وعناء ، والسبب في ذلك

(١) ٣ : ٢٢٢ ، ٢٢٣ : ٢ (٢) ٧٣ : ٤ (٣) ٥١٣ : ٤ وملاحظات (٤) مجلة المعهد العلمي المصري — مجموعة السنة الرابعة — العدد الثالث صحيفة ١٦٤ — ٥ (٥) ٢ : ٤٥ — ٦ (٦) ٣ : ٥٤ — ٦٠ (٧) ٢ : ٢٥ — ١٠٢٠ (٨) ٢ : ١٠٢٧

أن النوبة كانت وقتئذ عرصة لغارات قبائل البدو للبهات الجبلية المجاورة على مدن وادي النيل^(١) وهذه الغارات كانت عقبة كئودا في طريق استتباب الأمن وبسط السلطة المصرية على تلك الجهات . ولما رأى تحوتمس الأول أن تحورع عجز عن معالجة تلك الحالة المستعصية ذهب هو نفسه هناك في أوائل السنة الثانية من حكمه ليضع حدا لتلك الاضطرابات فوصل الى الشلال الأول في شهر فبراير أو مارس وهناك وجد الطريق المائي مسدودا بالصخور^(٢) كما كان منذ حكم الهيكسوس ، فلم يصرف وقتا طويلا في فتحه بل صمم على السلوك من طريق آخر بمساعدة الأميرال أحعمس بن إيانا الذي قاد سفينة جلالة بحكمة وروية وقت عبورها ذلك المضيق الخطير وقد كافأه الملك على هذا العمل بسحاء^(٣) . ووصل الملك ناحية تانجور في أوائل أبريل على بعد خمسة وسبعين ميلا من الشلال الثاني^(٤) وقد وصف لنا أحعمس بن إيانا المعركة التي دارت رحاها فيما بين الشلالين الثاني والثالث فقال : " إن فرعون مصر حارب هو نفسه رئيس النوبيين فستد أول سهامه نحو هذا الرئيس فأصابه وألقاه على الأرض صريعا ، بعد ذلك هزم الجيش النوبي تماما وأسر منه الكثير"^(٥) . وروى القائد المصري الآخر المدعو أحعمس بن نخبت أنه أسر من الأعداء ما لا يقل عن خمسة^(٦) ثم هبط منسوب النيل فاضطر الى الزحف في معظم الحالات برا ومع ذلك فقد سار الملك حتى أدرك الشلال الثالث وكان أول القراعنة الذين دخلوا ذلك المكان المعتبر مدخل إقليم دنقله الملقب بجمحة أمالي النيل . ولا يخفى أن هذا الإقليم خصب للغاية وفيه يجرى النيل لمسافة مائتي ميل حتى الشلال الرابع بلا عائق في سيره . ونصب الملك بتلك الجهات خمسة أحجار أثرية وصف عليها غزواته وانتصاراته كما سيد على جزيرة تومبوس قلعة لا تزال آثارها باقية الى الآن وعين فيها حامية من الجيوش الغازية^(٧) . وفي شهر أغسطس من السنة نفسها (أي بعد مرور خمسة أشهر من وصول الملك الى تانجور) بلغ تحوتمس الأول تومبوس ونصب فيها لوحا حجرياً^(٨) افتخر فيه بأنه الملك المهيدن على الأقاليم الشاسعة المبتدئة من تومبوس جنوبا والمنتهية بوادي الفرات شمالا ، ولكن يلاحظ أن الملك لم يقيم بغزوات أسبوية تؤيد هذا الادعاء . ووصل الى الشلال الأول بعد مضي سبعة أشهر وكان معلقا جثة الزعيم النوبي المقتول من رجليها بمقدم سفينه^(٩) . ويرجح أن بطل الملك في رجوعه الى مصر كان بمناسبة قيامه بمشروعات نافعة منظمه بتلك الجهات وقت مروره بها . ولهبوط منسوب مياه النيل في شهر أبريل كان ذلك الوقت أوفق الفرص لفتح مجرى السفن القديم بين سخنور الشلال الأول ، فنهض الملك الى والى النوبة تحورع بالقيام بهذه المأمورية . وقد نصب هذا الوالى هناك ثلاثة أحجار أثرية^(١٠) شرح فيها أعماله ومشروعاته الناجحة ، أقام حجرتين منها في جزيرة السهل وأقام الثالث على شاطئ النيل المقابل ، ثم اخترق الملك ذلك الطريق بسفينته في وسط احتفالات النصر معلقا رئيس النوبة بالكيفية المذكورة حيث بقيت كذلك الى أن وصل الى مدينة طيبة .

وبعد ما أخضع تحوتمس الأول بلاد النوبة تماما وجه همته نحو آسيا للغرض نفسه . وليلاحظ أن غزوات أستحبت الأول الآسبوية هي التي جعلت تحوتمس الأول يفتخر ببسط ملكه على البلاد

(١) ٢ : ٨٠ (٢) ٢ : ٧٥ (٣) ٢ : ٨٠ (٤) ٢ : ٢٨ ملاحظة (ب) (٥) ٢ : ٨٠

(٦) ٢ : ٨٤ (٧) ٢ : ٧٢ (٨) ٣ : ٦٧-٧٣ (٩) ٢ : ٧٤-٧٧ (١٠) شرحه .

الأسبوية حتى نهر الفرات . والمعروف أن جزية تلك البلاد لم ترسل باستمرار بجزية التوبة ومع ذلك فقد كان السلام والسكون والخضوع محيا على تلك الأقاليم الأسبوية .

وليلحظ أن جغرافية الأراضي شرق البحر الأبيض المتوسط لا تسمح بجمع كلمة أهلها واتحادهم لتكوين وطن واحد منهم ، فالجبال هناك كثيرة وكذا التلال والوديان ، ولذلك نجد تلك الجهات مجزأة جغرافيا الى وحدات عديدة . فعمل طول شاطئ البحر الأبيض المتوسط يجد الناظر سلسلتين من الجبال يخترقان تلك البلاد ويعرفان بسلسلي جبال لبنان الغربية والشرقية . أما السلسلة الغربية فتعرج بعض تعرجات ثم تنتهي جنوبا الى تلال مقاطعة يهوذا التي تتدرج الى صحراء سينا جنوبي فلسطين ، وتبدئ من هذه السلسلة جنوبي جهة جزرل (Jezreel) سلسلة جبال أخرى تعرف بجبال كرمل (Carmel) تتجه الى البحر الأبيض المتوسط . أما سلسلة جبال لبنان الشرقية فتتجه جنوبا وشرقا مع بعض اعتراضات في السير هنا وهناك مازة شرق البحر الميت ومتصلة هناك بجبال موآب ثم تنتهي جنوبا الى هضبة صحراء شبه جزيرة العرب الرملية . وفي شمالي ما بين سلسلي جبال لبنان واد خصيب يخترقه نهر العاصي أو الأورونط ، وهو السهل المنع الوحيد في سوريا وفلسطين لا تتخلله جبال ولا تلال ويمكن أن تنشأ فيه مملكة مستقلة قوية . أما شاطئ البحر الأبيض المتوسط فتعزله عن البلاد الداخلية سلسلة جبال لبنان الغربية وهو لذلك موافق لأن تسكنه أمة بحرية تجارية . أما فلسطين الواقعة جنوبيه فغير صالحة لأن تكون وطنا مستقلا منيعا لعدم وجود موانئ بحرية قوية على شاطئها ولكثرة أراضيها المحدبة ، زد على ذلك أنها معترضة بجبال كرمل وبوادي نهر الأردن والبحر الميت . وشرقي فلسطين سلسلة جبال تنتهي بالصحراء العربية الكبرى الا في جهتها الشمالية حيث تتصل بوادي نهر الأورونط وذلك قرب اتصال هذا النهر بنهر الفرات . في هذا المكان يجد القارئ أن النهرين يقتربان بعضهما من بعض ثم يتعدان فيتجه نهر العاصي شمالا نحو البحر الأبيض المتوسط ويخترق الفرات جنوبا نحو بابل وخليج فارس (نخريطة ٧) .

وسكان هذه البلاد الأسبوية ساميون لا يبعد أن يكونوا من مهاجري صحراء العرب ، والمعروف أن مثل هذه الهجرة تكررت كثيرا في العصور التاريخية ، ويقال لهؤلاء القوم الحاليين بالجهات الشمالية الغراميون وبالجهات الجنوبية الكنعانيون . ولم يبد هؤلاء القوم اهتماما ولا كفاية للحكم كما أنه لم يكن لديهم أقل دافع نحو الاتحاد والتضامن . ويلاحظ أن انقسام تلك البلاد الى عدة أجزاء بالجبال والتلال صعب على الأهالي التعامل وجمع الكلمة فنشأ في كل قسم إمارة صغيرة مستقلة يحكمها أمير وهي تشمل مدينة كبيرة (مقر الحكم) وما يحيط بها من الحقول والقرى الصغيرة . ولم تستقل الامارات بعضها عن بعض في الحكم فقط بل في الديانات أيضا ، فكان لكل إمارة معبود خاص يقال له "بعل" - ومعناه السيد - نسب له في أغلب الأحيان زوجة أو "بعلتة" وشاهد ذلك بوضوح في جيبيل بيلوس . واعتيد بين هذه الامارات الشقاق والتزاع طمعا في نهب الأمتعة وضم

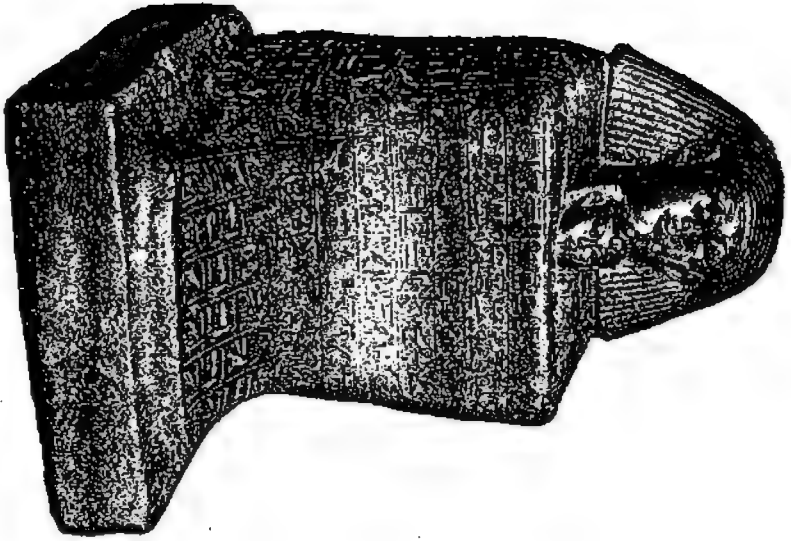
الأراضي إليها . وأهم هذه الامارات كدش نواة مملكة الهيكسوس على نهر الأورونط ، ولهذا الموقع ميزة جغرافية عظيمة ساعدت كدش على بسط نفوذها بسهولة على البلاد المجاورة له ، والسبب في ذلك اشرافها على الطريق الشمالى الموصل الى داخلية سوريا وعلى الطريق التجارى الموصل الى مصر والبلاد الجنوبية الذى يتفرع منه طريق آخر الى نهر الفرات ثم الى بابل . ولقرب كدش من النهاية الشمالية لسلسلى جبال لبنان تمكنت هذه الامارة من الاشراف أيضا على الطريق الموصل داخلية سوريا بالبحر الأبيض المتوسط والمتبع سير النهر الكبير (Eleutheros) (راجع خريطة رقم ٧ وكتاب المؤلف عن معركة كدش) . كل هذه الميزات سهلت لكدش اخضاع الامارات الآسيوية وضمها تحت سلطتها ، وهذه الطريقة نشأت مملكة الهيكسوس التى آمدنا اليها سابقا^(١) . وسرى فيما بعد أن هذه الامارات زادت عن حوزها مدة تقرب من الجليلين الى أن سحقها نحوتمس الثالث في آخر الأمر بجيوشه الجاراة .

نعم ان هذه الامارات لم تكن ميالة بطبيعتها الى تحسين أنظمتها الادارية وتوحيد كلمتها ولكنها كانت على جانب عظيم من الحضارة والمدنية في مسائل أخرى . ودليلنا على ذلك مملكة الهيكسوس فقد علمت المصريين الفنون الحربية وصناعة المعادن والأسلحة الراقية والاختار من العجلات وسائر أشكال الأواني المعدنية . ولشدة البرد في تلك الجهات برع أهلها في نسج الملابس الصوفية وصنعها وعمل المهلبل منها بشكل بديع وبأثمان باهظة . واشتهر هؤلاء الساميون بكثرة تجارتهم مع البلاد الأجنبية ، وكان لكل بلد من بلدانهم سوق كالموجود الآن . وهاجر بعض الأهالى من داخلية البلاد الى شاطئ البحر الأبيض المتوسط وأسسوا هناك مملكة فينيقيا ، وأبدأوا صيادين بحريين ثم ارتقوا فصاروا تجارا بحريين مهرة ، وأخذت سفنهم تنقل مصنوعاتهم الى جزيرة قبرص حيث استخرج بعضهم معدن النحاس . ثم زحف الفينيقيون على شاطئ آسيا الصغرى فاستولوا على رودس وجزر الأرخيل اليونانى ، ثم أسسوا محطات تجارية لهم في كل ميناء تصلح لذلك على ساحل آسيا الصغرى الجنوبية وعلى جزر اليونان وأرض اليونان نفسها . وهذه الطريقة وزع الفينيقيون مصنوعاتهم على سكان تلك الجهات حتى صار لهذه المصنوعات قيمة تذكر في الأسواق . وبلهى أنه كلما كثرت تجارتهم ازدادت ثروتهم فنشأت بالبلاد مدن غنية عظيمة مثل صور (Tyre) وصيدا (Sidon) وجبيل (Byblös) وأرواد (Arvad) ويطرون (Simyra) ، وكانت كل مدينة من تلك المدن تحت ادارة أسرة قوية . أما مركز فينيقيا التجارى فقد استمر منذ ظهور الامبراطورية المصرية حتى عهد هومر الذى ذكرهم في أشعاره الشيقة لأن هؤلاء القوم كانوا وقتئذ مضربا للأمثال . ولم نهد الآن الى أقصى مكان وصلت اليه تجارة الفينيقيين ولكنه لا يبعد أنهم أسسوا مراكز تجارية جهة قرطاجنة والأندلس . والمعروف عنهم أنهم نشروا "الحضارة اليونانية" في شمالي البحر الأبيض المتوسط وأنهم كانوا حلقة الاتصال بين الحضارتين المصرية واليونانية . وأطلق المصريون اسم "حَفْتِيُو" على اليونانيين الذين كانوا يحضرون الجزيرة والمهدايا لفرعون مصر . ولكثرة التعامل

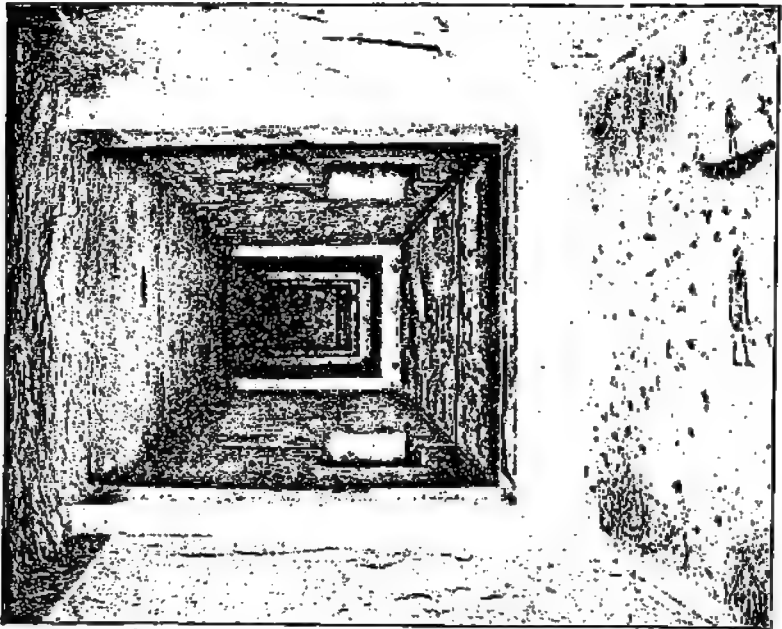
التجارى بين هؤلاء القوم والمصريين بالسفن الفينيقية أطلق المصريون اسم "سفن خفتيو" على سفن فينقيا^(١) . ولم نعرف لآن بالضبط وطن "الخفتيو" ولكن المعروف أنهم كانوا منتشرين فيما بين شاطئى آسيا الصغرى الجنوى شرقا وجزيرة كريت غربا . وقد أطلق المصريون على تلك الأقاليم الشمالية اسم "الجزر البحرية" فلنا منهم أن آسيا الصغرى عبارة عن جزر صغيرة مثل الجزر المجاورة وهذا طبعا نتيجة جهلهم بداخلية تلك الجهات . واعتقد المصريون أن نهر الفرات ينبع شمالى سوريا من مستنقعات محاطة "بدايرة المحيط الأعظم"^(٢) الذى هو نهاية أراضى العالم .

وقد استفادت مصر كثيرا من معارف علوم الاقليم المدعو "سوريا - فلسطين" مع أنه كان تحت سيطرتها الفنية والصناعية ، ولكون الحكومة المصرية أرق نظاما من الامارات الآسيوية كان لمملكة النيل هناك هبة واحترام منذ أقدم الأزمنة . زد على ذلك أن وجود القزات المصرية على أبواب آسيا كان كافيا لاختضاع الضعيف من هذه الامارات الآسيوية . والمعروف أن أهالى هذه البلاد السامية الغربية لم ينفردوا بفن أو صناعة ، لكنهم برعوا مع ذلك فى تقليد مصنوعات غيرهم وعلوذا بشكل يلائمهم ، فوسعت بذلك مشروعاتهم الصناعية والتجارية كثيرا ، وأصبحت ترى صادرات الفينيقين الواردة الى بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط مصبوغة دائما بالنوق المصرى . ومما ساعد على انتشار الفن المصرى وذوق أهالى النيل فى أوروبا وبلاد اليونان تلك المصنوعات المصرية الحزة التى كان يتاجر بها هؤلاء الفينيقيون فى هذه الجهات . هذه هى الطريقة التى انتشرت بها حضارة الشرق الى جنوبى وغربى أوروبا . واعلم أن المدينة البابلية لم تكن واضحة فى مصنوعات سوريا وفلسطين لكن وجودها كان غير مجود . والمعروف أن تجارة بابل تدخلت كثيرا فى البلاد غربيها منذ امبراطورية سرجون ملك أجاد القصيرة العمر التى يرجع تاريخها الى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، ونجم عن ذلك ادخال الخط المسارى البابل فى سوريا وفلسطين ، وقد استمر استعمال هذا الخط فى تلك البلاد مدة طويلة . والسبب فى سرعة انتشار هذا الخط بتلك الجهات يرجع الى أن أهلها قوم ساميون ذوو لغة متشابهة كثيرا المعاملة التجارية ، تلك المعاملة التى كان لها التأثير نفسه فى نشر الخط الفينيقى ببلاد اليونان . وللاحظ أن الخط المسارى لم ينتشر استعماله بين الأقوام السامية فقط بل ظهر بين الحيثيين أيضا وأهل مملكة ميثاى الذين ليسا من أصل سامى ، ولذلك أصبح اقليم سوريا وفلسطين مجمع المدينة المصرية والآشورية بطريق ودى أولا ، لكنه لم يدم طويلا ، فنشأ عنه تشاحن كبير أدى الى الاحتكام الى حد الحسام . والى هنا السبب تعزى الحروب التى نشبت بين أهالى الدجلة والفرات من جهة ومصر من جهة أخرى فكلا الطرفين كان يطعم فى تلك سوريا وفلسطين ، ونجم عن هذا التشاحن أيضا أن معظم المعارك الحربية حصلت فى الأقاليم اليهودية حتى اتضح الوطن اليهودى ولم يعد له أثر على مدى الدهر .

وحوالى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد ظهرت لأول مرة فى التاريخ على حدود المملكة المصرية الشمالية قبائل حربية ايرانية زحفت واستوطنت أعلى الفرات . ودلت الآثار أنه فى غرة أيام الامبراطورية المصرية كانت تلك القبائل قاطنة فى منحنى نهر الفرات الكبير القريب من البحر الأبيض المتوسط



١٧٢
 ملك ١١١ - جمال طاهر الأناضول عيسى الملك هيتسبون
 ساما كره الملك الهرة قوروج حيا كوكبه
 لأحاطه طلب اسم الأناضول على القلم الأيمن



١١٠ - دهن شارة روسين انكاس طله
 ملك

حيث أسست مملكة تعرف باسم مِتَانِي . والمعروف أن هؤلاء الأقوام أول الإيرانيين الذين وصلوا الى تلك الجهات في التاريخ القديم . أما أصل هؤلاء القبائل فن الأقاليم التي هي خلف الجبال الشمالية الشرقية حيث ينبع نهرها (Oxus و Jaxartes) . بعد ذلك امتد نفوذ متاني حتى بلغ تُونِب (بعلبك ؟) الواقعة على نهر الأورونط غربا ومدينة نينوى شرقا . ولما عظم نفوذ هذه المملكة وكبر بأسها أصبحت عقبسة في سبيل سلطة بابل بآسيا الصغرى لأن مملكة متاني مرتكزة على ظهر الفرات أى على الطريق الموصل بابل بسوريا وفلسطين ؛ ولذلك كانت مِتَانِي من أسباب اضطلال بابل . أما آشور فكانت مملكة صغيرة وقتئذ لا تشمل الا مدينة كبيرة حديثة ومع ذلك فقد أخذت تنهيا تدريجيا لقتال بابل . وهكذا تيسر لفرعنة مصر بذلك أن يوطدوا أقدامهم بآسيا لأن العقبات هناك ذللت وتم بذلك بسط النفوذ المصرى على تلك البلاد المترامية الأطراف .

وصم تحوتمس الأول أن يطفى ثورة سوريا وقد استمرت مدة طويلة ، وأن يخفضها كما أخضع بلاد النوبة . ومن دواعى الأسف أننا لم نثر على البلاغات الرسمية لتلك الاجراءات الحربية ولكن الضابطان النشيطين المعروفين باسم أحمس والمتمين لمدينة الكاب تركا لنا أخبارا مختصرة عن هذه الغزوات لا شرا كهما فيها . ولا بد أن تكون كدش سلمت للصريين خوفا وجزعا بعد ما رأت من نتائج غزوة أمحتب الأول . وقد ذكر لنا الضابطان المصريان باهتمام أن الجيوش المصرية لم تعارض ولم تقاوم مطلقا بجهة كدش ، ولذلك تمكنت القوات المصرية من الوصول الى النهرين بلا نزاع ولا مقاومة تذكر . وقد ورد اسم "النهرين" على الآثار المصرية وأطلق هذا الاسم على البلاد الممتدة من نهر الأورونط الى الفرات وآسيا الصغرى . وقد شئت في تلك الجهات ثورة شديدة لبعدها عن مصر وحصلت فيها موقعة حربية كبيرة انتهت بأسر عدد كبير من السوريين . قال أحمس بن إبانا عن هذه المعركة : "كنت قائدا لفيلى وكان جلالة الملك يرقب أعمالى الجريئة لما أسرت عجلة حربية بجيلىها وركبها وأحضرتها بلالته فكانتانى على ذلك بالذهب دفعتين" (١) . وقد أظهر أحمس بن نخبث أيضا جراءة أكثر من ذلك مع حدانة سته فأحضر لفرعون مصر احدى وعشرين يدا مبتورة من قتلى الآسيويين وعجلة حربية وفرنسا (٢) . ويعتبر هذان الضابطان مثال الشجاعة التي اتصف بها جيش فرعون مصر وقتئذ . والظاهر أن الملك عرف تماما كيف يؤثر في نفوس ضباطه فكان يلاطفهم ويقدم لهم الهدايا ليركل عمل حربى ماهر يأتونه في ساحة القتال . هذا كل ما وصل الينا من أعمال نحوتمس الأول الحربية ولا يبعد أن يكون قد قام بأعمال أخرى عظيمة لا تزال نجعلها . والمعروف أن خدمة أحمس بن إبانا انتهت في هذه المعركة أما أحمس ابن نخبث (الصغير) فقد عاش وحارب مع نحوتمس الثانى ونال الرضا والاحترام من نحوتمس الثالث وقت حكمه .

وشيد نحوتمس الأول أثرا حجريا على منحى الفرات الكبير بالقرب من البحر الأبيض المتوسط ذكر فيه أن ذلك المكان هو الحد الأقصى لملكات مصر الآسيوية (٣) . وهكذا حقق الملك ما افتخر به

منذ سنة واحدة وهو ذلك الأمر الذى نصبه جهة الشلال الثالث على حدود مملكته الجنوبية . وقد غلا تحوتمس الأول فى نخره فقال لكهنة العرابة المدفونة ذات مرة : "لقد أوصلت حدود مصر الى دائرة الشمس" (١) وهو قول فيه بعض الحقيقة بالنسبة لتخيلات المصريين والشرقيين عامة بخصوص العالم وقتئذ .

من ذلك يتضح أن فرعونين من فراعنة مصر تمكنا حتى ذلك الوقت من رؤية نهر القرات، وأن أمراء سوريا والعرب أخذوا يقدرون قدر مصر ويعجبون بقوتها ومكاتها ، فأرسلوا اليها مع البدو وسائر الفلسطينيين الجزية وهدايا ثمينة فتضخمت المالية المصرية عما كانت عليه سابقا (٢) ، وكان هذا أكبر مساعد لتحوتمس الأول على اصلاح ما تلف من المعابد والهياكل المصرية التى اهلكت منذ زمن الهيكسوس . ثم استصغر فراعنه مصر هياكل الملكة الوسطى بطيبة لحقارتها ولأنها لا تليق برقعة مصر المالية والاجتماعية ، فندب تحوتمس الأول مهندس الماهر المدعو انينى (Ineni) وكلفه تشييد صرحين كبيرين عند مدخل معبد آمون وبناء ساحة كبيرة مسقفة ذات عمد مصنوعة من خشب الأرز اللينانى، وأمره أيضا بنصب أعلام طويلة أمام مدخل المعبد رءوسها مصنوعة من الذهب والفضة وخشبها من أرز لبنان كذلك . أما باب المعبد فكان مصنوعا من البرنز الأسود البديع ونقش عليه المعبود مطما بالذهب (٣) . وأصلح الملك أيضا معبد أزوريس بالعرابة المدفونة وزوده بالآثاث الجميل والأدوات الفضية والذهبية وتمائيل المعبودات البديعة كالتى فقدت أيام حكم الهيكسوس (٤) . ورتب الملك أوقافا سنوية على ذلك المعبد وترك فى آخر عمره تعليمات للكهنة ليتبعوها وقد فعل كل هذا تخليدا لذكراه على ممر الدهور (٥) .

(١) ٩٨:٢ (١) (٢) ١٠١:٢ (٢) (٣) ١٠٣:٢ - ٤ (٤) ٩٢:٢ - ٩٦ (٥) ٩٧:٢

الفصل الخامس عشر

شقاقتحوتوموسيين وحكم الملكة حتعشسوت

لما قرب تحوتوس الأول من السنة الثلاثين من حكمه (ومن تسلمه مقاليد الملك من أبيه أيضا) أرسل مهندسه المخلص إبنى الى محاجر الجرانيت بجهة الشلال الأول لعمل مستين كبيرين ينصبان في احتفال عيد سد (Hebsed) الذى كان يعمل كل ثلاثين سنة، فأحضر إبنى هاتين المستين الى طيبه في سفينة طولاً ماثا قدم وعرضها ثلث ذلك تقريبا ونصبهما أمام صرح معبد الكرك الذى شيدهما سابقا لملك^(١)، وقش على احدهما (وهى الباقية للآن أمام مدخل المعبد) اسم تحوتوس الأول وألقابه^(٢)، لكنه لما شرع ينقش المسلة الثانية حصلت في مصر حوادث منعت كتابة اسم تحوتوس المذكور عليها. ومعلوم أن تحوتوس الأول كان وقتئذ طاعنا في السن^(٣) ثم ان زوجته المدعوة أعموس توفيت، فضعف مركزه في البلاد لأنه كما ذكرنا آنفا توصل الى الملك بزوجه المتتمة الى الأسرة الطيبية الشهيرة التى طردت الهيكسوس وحاربهم بشدة وهمة لا تعرف الملل حتى أدهشت العالم. في هذا الوقت ظهر في القطر حزب قوى رأى أن وراثته الملك تنحصر في ذرية الملكة أعموس وهى تشمل ولدين وابنتين. ويلاحظ أنه قد توفى من هؤلاء الأطفال الأربعة ولدان وابنة في حدائة السن فلم يبق منهم الا ابنة يقال لها مع كارع حتشسوت. وأخذ نفوذ حزب الملكية يقوى جدا حتى اضطر تحوتوس الأول أن يعلن للبلاد أن الأميرة حتعشسوت هى الوارثة الواحدة للملكة على كراهية المصريين لحكم الملكات.

ورزق تحوتوس الأول ابنا من زوجة غير شرعية تدعى الأميرة موت نُفرت صارفيا بعد تحوتوس الثانى وابنا آخر من احدى حظياته المدعوة إزيس صارفيا بعد تحوتوس الثالث. وقد حصلت مشاحنات ومنازعات داخلية مجهولة في آخر عهد تحوتوس الأول صعب على الأثريين استجلاء حقيقتها^(٤)، والسبب في صعوبة معرفة أصل ذلك النزاع قلة المعلومات الواردة على جدر المباني والهياكل وطول المدة التى مضت على تلك الحوادث التى تقرب من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة. ولا يبعد أن يكون زمن هذه المنازعات في مبدأ حكم تحوتوس الثالث وطوال حكم تحوتوس الثانى. والمستنج من أخبار تلك العصور أن هذه المنازعات انتهت في آخر الأمر باستقرار تحوتوس الثالث في الحكم مدة طويلة وبقاء تحوتوس الثانى في الحكم مدة قصيرة في أوائل عهد تحوتوس الثالث، وهذا معناه عبارة أخرى أن تحوتوس الثالث ولى الحكم أولا مدة قصيرة ثم أعقبه تحوتوس الثانى ثم انتقل الملك بعد ذلك الى تحوتوس الثالث، وهذا هو أصوب حل للتوفيق بينه وبين ما جاء بالآثار. ودلتنا الأخبار أن عواطف الحب والشفقة والغيرة كانت تتجاوب للهادنة وسط تلك المنازعات الفرعونية لأن الملكة حتعشسوت الجميلة الزكية ابنة تحوتوس الأول طالبت بحقها

(١) ١٠٥:٢ (٢) ٨-٨٦:٢ (٣) ١١:١٥٦٤:٢ (٤) ١٢٨:٢-١٣٠.

في الملك . والظاهر أنه لما توفي أخو هذه الأميرة تزوجت بأخيا من أبنائها المدعو تحوتمس الثالث ابن المحظية . وكان تحوتمس الثالث فاقد الأمل في الملك لأنه ليس من دم ملكي فولده ووالدته خليان من هذه الصفة ، ولذلك عين تحوتمس الثالث في مبدأ أمره كاهنا صغيرا بالكركنك وسرعان ما فطن لشعور الكهنة وقتئذ نحوه . فلما توفيت الملكة أحعص طالب تحوتمس الثالث بالملك كما فعل أبوه من قبل لأنه اقترن بالأميرة حمتشسوت التي من دم ملكي ، وساعده على ذلك كهنة آمون وقد أعلن هذا المعبود أيضا رضاه عن ذلك . ولم يثبت للآن اذا كان هناك اتفاق سلمى سابق مع تحوتمس الأول على هذا الموضوع أو أنه دبر طي الخفاء عن جهل منه ثم نفذ بغاة على غير انتظار بمعبود آمون . والثابت أنه حدث في أحد الأعياد أن حمل تمثال آمون بالكركنك وسط هتاف الجماهير كالعادة من قدس الأقداس الى الساحة الكبرى ، وكان تحوتمس الثالث وقتئذ جالسا مع باقي الكهنة في قاعة العمدة الشالية بساحة تحوتمس الأول ، فطاف الكهنة بتمثال المعبود حول العمدة بكيفية يفهم منها أن المعبود يبحث عن واحد بينهم ، ثم وقف التمثال بغاة أمام الأمير الشاب تحوتمس الثالث فخز هذا ساجدا على الأرض ، إذ ذاك رفعه المعبود وعطف عليه ثم أعلن رغبته أن يجلسه على "المقعد الملكي" بالمعبود الخاص بالملوك ، فنفذت ارادة المعبود في الحال . والغريب أن تحوتمس الأول قاد الاحتفال وقدم عطر البخور لتمثال آمون قبل حصول هذه الحادثة بقليل وما لبث حتى ورد أمر المعبود بتعيين تحوتمس الثالث ملكا على مصر^(١) ، وأعلنت في ذلك الوقت أسماء وألقاب تحوتمس الثالث للرعية وذلك في شهر مايو سنة ١٥٠١ قبل الميلاد . وهكذا تبوأ الكاهن بغاة عرش الفراعنة ، وقد سرد تحوتمس الثالث هذه الحادثة لرجال طائفته بعد ذلك بعدة سنين لما شيد بعض قاعات الكركنك فقال ما ترجمته: "إنه كان في نيته زيارة عين شمس ليعينه المعبود الشمسي ملكا على مصر لكنه أخذ الى السماء فشاهد فيها ذلك المعبود بأهته العظيمة فياه الإله وأنعم عليه بعرش مصر وبالألقاب الملكية" . ولكون هذه الحادثة العظيمة المشرفة أظهرت عطف المعبودات نحو تحوتمس الثالث أمر بتقشها على جدر الكركنك ليعلمها الخاص والعالم^(٢) .

ومع أن تحوتمس الأول اعتزل العرش فلم يمتد هذا العزل خطرا على السدة الملكية ولم يتعرض له في معيشته . ولما ولي تحوتمس الثالث عرش مصر استقل بالملك المستحوز عليه من زوجته وأخته حمتشسوت وأهمل نفوذ حزب الوراثة . وبعد ما مضى على استيلائه ثلاثة عشر شهرا أصبح معبد سلفه سيزستريس الثالث بجهة سمته وكان مشيدا باللبن ، وأقام معبدا جميلا بالحجر الرملي الجيد ، وأقام كذلك الأثر القديم المثبت حدود مصر أيام سيزستريس الثالث في عهد الملكة الوسطى ، كما أنه نفذ وصايا سيزستريس المذكور الخاصة بتقديم القرابين لروحه^(٣) . ولم يورد تحوتمس الثالث في هذه الأعمال كلها إشارة واحدة الى اشراك حمتشسوت معه في الملك بل اقتصر بتلقيها منذ ذلك الوقت "بالزوجة الملكية العظيمة أو الكبيرة" ولكن يلاحظ أن الحزب المطالب بتطبيق قانون الوراثة الملكية كان قويا لا يستهان به . زد على ذلك أن القوم ما زالوا ذاكرين ذلك الاحتفال الكبير الذي أقامه تحوتمس

(١) ١٣١:٢ - ١٣٦:٢ - ١٣٨ - ١٤٨ (٢) شرحه (٣) ١٦٧:٢ - ١٧٦

الأول لتعيين حتشبسوت وارثة له منذ خمس عشرة سنة، وكانوا أيضا عالمين بالصلة الدموية المتينة بين هذه الأميرة والأسرة الطيبة الملكية المنتسب إليها الملوك ذوو اسم سكتنرخ والملك أحعمس الأول نفسه . أمام هذا الشعور العام اضطر تحوتمس الثالث أن يعترف رسميا بحق زوجته حتشبسوت في الملك ، ومن ثم أخذت سلطته تضيف وتختفي في حين أن نفوذ هذه الملكة أخذ يقوى ويستند تدريجيا حتى أصبحت فرعوننا جامعة كل الحقوق الفرعونية ولقبت بحوريس المؤنث وأنت لأجلها لقب الجلالة ، ثم انصبع نظام القطر والأعمال الملكية بالنوع النسوي تمشيا مع ادارة حتشبسوت .

ولما تسلمت حتشبسوت الملك اهتمت بالأعمال واقامة الآثار فشيدت لنفسها محرابا عظيما بديعا في بقوة بسلسلة جبال طيبة الغربية على جهة النيل الغربية يقال له الدير البحري سيأتى عليه الكلام فيما بعد . بعد ذلك حدث في المملكة نزاع آخر أدى الى انتقال الملك من حتشبسوت الى تحوتمس الثاني ، ولم نعلم للآن السبب الحقيقي لذلك ولكنه ربما كان نتيجة ضعف حزب الكهنة المنتمى اليه تحوتمس الثالث أو حزب الوراثة الممنية اليه حتشبسوت ، ولا يبعد أيضا أن يكون ذلك نتيجة زيادة نفوذ حزب تحوتمس الثاني نفسه . ومهما كان السبب فقد اتحد تحوتمس الثاني ووالده المعزول واستقلا بالملك بعد ما حكمت حتشبسوت القوية وتحوتمس الثالث معا خمس سنوات ، فشن تحوتمس الأول والثاني الغارة على أعمال حتشبسوت وأزالا اسمها من الآثار وأحلا اسميهما مكانه في كل فرصة تسنح .

في ذلك الوقت بلغ النوبة أخبار نزاع أفراد الأسرة المالكة فشبت فيها ثورة لعصيان مصر ووصل خبرها الى تحوتمس الثاني يوم توليه الملك ، وتعذر عليه ترك القصر الملكي والعاصمة لأعدائه يكيدون له بعد ما صرف مجهوده حتى بلغ مراده ، فغند جيشا مصريا جزارا وأرسله اليها بقيادة ضابط مصرى ووصل هذا الجيش الى اقليم الشلال الثالث وأخذ المواشى المصرية هناك بعد ما أوشكت أن تقع في أيدي الأعداء . ودلنا الآثار أن القائد المصرى لم يكتف بهزيمة النوبيين بل قتل كل رجل وقع في قبضته كما أنه أسرابن رئيس النوبة وبعض أهاليها العصاة وأرسلهم الى طيبة كرهائن منعا لحصول اضطرابات في المستقبل ، وهناك استعرضهم فرعون مصر وهو جالس على عرشه^(١) . بعد ذلك هدأت الحال في النوبة ثم حصلت اضطرابات بآسيا شماليا^(٢) فاضطر تحوتمس الثاني أن يزحف اليها فوصل الى مدينة في (Niy) ثم الى جنوبي فلسطين وعاقب بدوها الذين عثوا بالأمن ، لكننا لم نتأكد الى الآن اذا كان هذا العقاب حصل في أثناء عودة تحوتمس الثاني الى نى أو وقت إيايه منها . وكان مصاحبا له في تلك الحملة أحعمس بن نخبت أحد قائدى مدينة الكاب ، وقد روى هذا الضابط أنه استولى على أسرى عديدين هناك يتجاوزون العدد^(٣) . وهذه الغزوة آخر ما قام به هذا القائد الشهم الذى اعتزل الخدمة بعد ذلك كما فعل زميله أحعمس بن إباناء ، فكف في بلده الكاب شريفا ماجدا حتى أتاه القدر المحتوم . ولما كان

(١) ١١٩ - ١٢٢ ١٢٥ : ٢ (٢) ١٢٥ : ٢ (٣) ١٢٣ : ٢ - ٤

معبد حمتشيسوت ترك ولم يكمل بناؤه، رأى نحوتمس الثاني وقت عودته من آسيا أن ينقش على جدر ذلك المعبد انتصاراته الأسيوية، فنقش على جدار أملس هناك أنه تسلم الجزية من أعدائه المقهورين ولا يزال باقيا من بيان تلك الجزية كلمتا "الجيل" و"القبيلة" (١). في هذا الوقت توفي نحوتمس الأول على الأرجح فضعف بذلك مركز نحوتمس الثاني الذي كان دائما ضعيف البنية واهن الصحة (٢) فاتخذ هذا ونحوتمس الثالث معا في ادارة المملكة. والمعروف أن نحوتمس الثالث كان قد اعتزل السياسة من مدة ولكنه كان يدبر طي الخفاء مشروعات بقصد عودته الى الملك ثانية (٣). وعلى العموم فان حكم نحوتمس الثاني لم يدم طويلا لأنه توفي قبل أن تمضى على مشاركته لأخيه ثلاث سنين.

حيثئذ تسلم نحوتمس الثالث الملك ثانية وقد اضطر مراعاة لمطالب حزب حمتشيسوت أن يشركها معه في الحكم. ثم سارت الأمور الى أبعد من ذلك فأخذ حزب الملكة يقوى ويستأثر بالسلطة حتى اتزوى نحوتمس الثالث من الميدان السياسي تقريبا وصار لحمتشيسوت وحدها مطلق الحل والعقد. والغريب أن كلا من حمتشيسوت ونحوتمس الثالث كان يؤخر حكمه من عهد تولية الملك أولا متجاهلا مدة حكم نحوتمس الثاني. وقد اتبعت حمتشيسوت سياسة الشدة والضغط وهدت أول امرأة عظيمة معروفة في التاريخ. وقد أوضح لنا إينيني مهندس والدها مركز الأخت والأخ بالعبارة الآتية: "كان نحوتمس الثالث حاكما جالسا على عرش أبيه الذي خلفه. أما أخته الزوجة المقدسة حمتشيسوت فكانت تحكم البلاد بإرادتها فطأطأت لها مصر رأسها مطيعة لأوامرها، ولا غرابة في ذلك بجلالتها من النسل المقدس العظيم الخارج من صلب الآلهة، فكانت بمثابة جبل مقدم السفينة في البلاد الجنوبية ووتد مرسى السفينة عند أهالي الجنوب، وجبل مؤخر السفينة العظيم في البلاد الشمالية. لقد كانت جلالتها صاحبة الأمر والنهي والمشروعات السديدة والقول المليح الذي ملأ أهالي القطر فرحا وسرورا". ويعتبر هذا أقدم تشبيه معروف لتدبير سياسة الدولة بقيادة السفينة، وفيه شبه لإينيني الملكة حمتشيسوت بجبال سفينة النيل التي تجذبها وتأتي بها الى المرفأ المطلوب (٤). والحق يقال ان هذا التشبيه ينطبق تماما على سياسة حمتشيسوت لأن أعضاء حزبها عينوا أنفسهم في أهم وظائف الدولة فكانت سموت (شكل ١١١) أقرب الناس اتصالا بها وأشدهم تفانيا في مصالحها وقد كان فيما سبق أسنانا لنحوتمس الثالث في الصفر (٥) ثم عهد اليه في تربية الأميرة قفرووع كريمة حمتشيسوت (شكل ١١١) التي قضت أوائل عمرها تحت إشراف القائد أحمس بن نخبت السابق الذكر والذي أصبح الآن هرما عاجزا عن القيام بالأعمال الشاقة (٦). بعد ذلك عين سموت حاجبا للأميرة قفرووع (٧) وأمينا على أملاكها. وكان له أخ يدعى سين من (٨) من أشد أنصار حمتشيسوت أيضا. وربما كان أعظم أنصار جلالتها المدعو حايبوسينب (٩) الذي كان وزيرا ورئيس كهنة آمون وعميد طائفة كهنة القطر المصري

(١) ١٢٥: ٢ (٢) *Mémoires royales*, 517. (٣) ٥٩٣: ٢ - ٥ (٤) ٢٤١: ٢ (٥) تمثال الكرنك

(٦) ٢٤٤: ٢ (٧) ٢٦٣: ٢ ملاحظة (٨) ٢٤٨: ٢ (٩) ٢٨٨: ٢ ملاحظة

التي أنشئت حديثاً^(١)، فكان هذا الوزير محتفظاً بالسلطة التنفيذية والدينية اللتين استعملهما لمصلحة الملكة . وبهذه الكيفية أدار حزب حتشبسوت دولاب أمور الدولة . ولما أسن إبنى وكان شاعلاً وظيفته رئيس خزانة الذهب والفضة استبدل به الأمير نُحوتى^(٢) ، ثم أشرك أحد كبار المسالية المدعو نُحيسى^(٣) مع حابوسنب و إدارة الأعمال . وبهذه الكيفية أدار حزب الملكة دولاب أعمال الحكومة . ولا يخفى أن مستقبل هؤلاء الموظفين كان معلقاً على نجاح وسيادة الملكة ولذلك حافظ هؤلاء بكل ما أوتوا من جهد وعناية على مركز جلالها السامى ، فكانوا يبذلون قوتهم فى اقتناع الأهالى بأن حتشبسوت لم تعين ملكة الا بأمر إلهى قديم وقشروا ذلك على جدر معبدها بالدير البحرى^(٤) حيث تشاهد الآن كثير من الرسوم البارزة موضحاً بها طريقة ولادتها . ومن هذه الرسوم يتضح للقارئ عقيدة المصريين القديمة وهى أن الفراعنة أنجال حقيقيون للعبود الشمسى ، فىرى فى الرسوم المعبود آمون (وارث المعبود الشمسى فى اعتقاد أهالى طيبة) يخاطب أحمرس زوجة تحوتس الأول قائلاً : ” ستحمين منى بابتة تدعى حتشبسوت تعلى عرش مصر وتحكم البلاد كلها بمهارة ”^(٥) بقاء هذا بمثابة اعلان مقدس للأهالى بتعيين حتشبسوت ملكة لعرش مصر . ومن ثم أخذ القوم يرسمون كيفية ولادتها مصحوبة بمعجزات عظيمة مما أثر كثيراً فى نفوس البلاط الملكى والرعية اذ اتضح لهم بذلك علاقة حكم هذه الملكة بوارث المعبود الشمسى^(٦) . وقد راعى الرسام فى رسومه تلك العقيدة مراعاة دقيقة فرسم حتشبسوت مولودة ” طفلاً ” بقاء هذا برهاناً لنا على عظم الصعوبة التى عاناها أنصار حتشبسوت فى جعل مقاليد مملكتهم فى يد جلالتها . ثم ألحقوا هذه الرسوم بأخرى أظهروا فيها كيف يتوج المعبودات هذه الملكة ، ورسوم تمثل تحوتس الأول مجتمعاً مع ابنته حتشبسوت فى احتفال كبير مهيب بالقصر الملكى فى عيد رأس السنة^(٧) مخاطباً إياها بأنه يعترف أنها وارثته فى الملكة المصرية . وللاحظ أن هذه النقوش نقلت عن نقوش أمنمحت الثالث أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة التى عينه بمقتضاها والده سيزستريس الثالث ملكاً على مصر . ولإبطال كل معارضة لحكومة حتشبسوت رأى رجال حزبها أن يرسموا على الدير البحرى تحوتس الأول مخاطباً البلاط الملكى قائلاً : ” عليكم أن تطيعوا جلالتها (أى حتشبسوت) وأن تتحدوا طوما لارادتها ، فالذى يخضع لها منكم يعيش أما الذى يفتاب جلالتها فلن يترك حياً ”^(٨) . ولم يكتف رجال حزب حتشبسوت بذلك بل رسموا تحوتس الأول على جدر صرحه المشيد عند المدخل الجنوبى للكرك داعياً معبودات طيبة لتمنح ابنته عهداً يانماً وحكماً عادلاً^(٩) . بهذه الحيل اجتهد أفراد حزب الملكة فى اقتناع الأهالى بحقها فى الملك وترزع أى عقيدة لا تتماشى مع حكم السيدات .

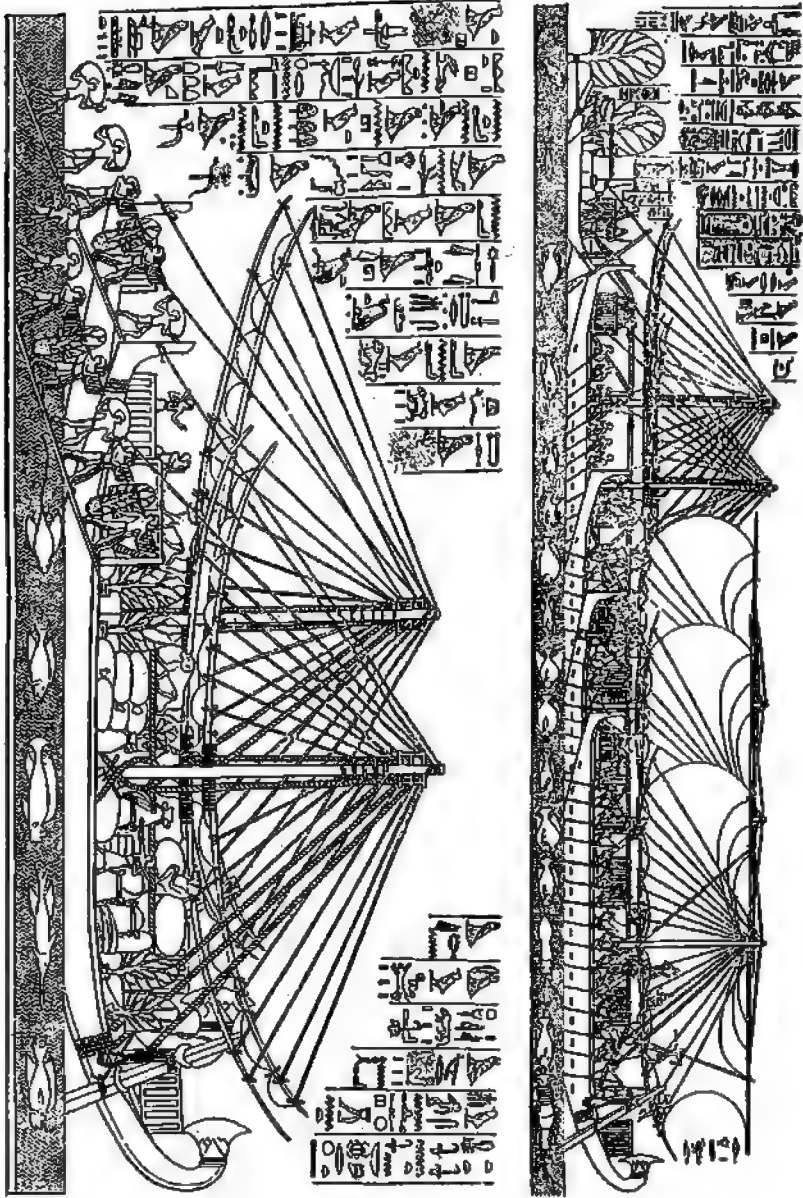
(١) ٢ : ٢٨٨ (٢) ٢ : ٣٦٩ ملاحظة (٣) ٢ : ٢٩٠ (٤) ٢ : ١٨٧ ملاحظة (٥) ٢ : ١٩٨
 (٦) ٢ : ١٨٧ ملاحظة (٧) ٢ : ٢١٥ (٨) ٢ : ٢٢٧ و ١٥ : ١٦ (٩) ٢ : ٢٤٣ ملاحظة

ولما تبوّأت حعثشيسوت منصة الحكم بدأت بتشيد معبدها البديع بالدير البحري في سفح جبال طيبة الغربية الذي نقش عليه أبوها وأخوها اسميهما بدل اسمها. ويخالف بناء هذا المعبد ما اتبع في بناء معابد ذلك العصر الكثيرة لكنه يشبه كثيرا معبد متوحوتب الثاني الصغير المدرج المجاور له. ويشمل هذا الحراب ثلاث شرفات مدرجة تنهى أعلاها بساحة عظيمة مرتفعة تحيط بها صفوف شاهقة صفراء محفور فيها قدس الأقداس. وقد أقيمت أمام هذه الشرفات عمدة بديعة يتضح لمن يراها عن بعد حسن ذوقها وتناسق حجمها فتأكد بذلك النظرية القائلة بأن اليونانيين أول من أقتن استعمال العمدة الخارجية وأن المصريين أقدم من أجاد استعمال العمدة الداخلية في البناء (شكل ١١٣). أما المهندس الذي شيد هذا المعبد فهو سيثموت^(١) معظي الملكة. وقد كلف مَحْوَتِي^(٢) الاشراف على صنع أبواب المعبد من البرنز المطعم بخليط الذهب والفضة وعلى مصنوعات معدنية أخرى. وكانت الملكة شديدة التعلق بهذا المعبد فكانت تشبهه بجنة آمون وتطلق على شرفاته اسم "شرفات شجر الموز" المستحضر من الصومال موطن الآلهة الأصلي. وورد في نقوش هذا المعبد أن المعبود آمون طلب من الملكة "أن تمثل له في هذا المكان بلاد الصومال"^(٣) فأطاعته واضطرت أن تفرس شجر المر المستحضر من الصومال في تلك الشرفات. ومعلوم أن أسلاف حعثشيسوت كثيرا ما أرسلوا البعثات الى تلك الجهات لكنه لم يفكر أحد منهم في جلب أشجار المر منها فكانت هي أول من فعل ذلك. ووجرت العادة قبل ذلك العصر أن صمغ المر كان تحضره الى مصر القوافل البرية الآتية من الصومال^(٤) فلما جاء حكم الهيكسوس تأخرت تلك التجارة الأجنبية كثيرا. ثم وليت حعثشيسوت الملك وقد وقفت يوما أمام ناووس المعبود فسمعته يقول: "يجب إعادة فتح طريق الصومال ليتيسر الوصول من هذه الشرفات الى بلاد المر"^(٥)، فهذه البلاد المقدسة بحيلة، وأنا أحبها فقد خلقت تلك البلاد لأسلي قلبي"^(٦). قالت الملكة: "وهكذا أنجزت كل ما رغب فيه المعبود على حسب أمره"^(٧).

وطبيعي أن تعهد الملكة لرئيس ماليها المدعو نُحْبِي في قيادة حملة بلاد الصومال وزودته بالصناديق الكافية لشحن ما يوجب من حاصلات تلك البلاد^(٨). فلما كانت السنة التاسعة من حكم الملكة^(٩) أقيمت الاحتفالات وقدمت القرابين الى معبودات الهواء ليتفضلوا على أسطول الملكة بالرياح الطيبة لتساعده على السفر. وأقلمت السفن وكان عددها خمسين سفينة فتركت المياه المصرية قاصدة الصومال متبعة نهر النيل حتى شرقي الدلتا وهناك عبرت قناة وادي طميلات الى البحر الأحمر، وقد ألمعنا سابقا الى استعمال هذه القناة في عهد الملكة الوسطى (راجع صحيفة ١٢١). أما السفن فكانت مشحونة ببضائع مصرية ليستبدل بها بضائع صومالية. وقد أخذ الأسطول معه أيضا تمثالا للملكة حعثشيسوت لنصبه في تلك البلاد السحيقة تذكارا لها، وإذا كان هذا التمثال باقيا للآن بتلك الجهات فيكون أبعد تمثال للملكة مصر معروف للآن. ووصلت السفن المذكورة الى بلاد بونت (الصومال)

(١) ٢٣٥١: ٢-٦-٧ (٢) ٣٧٥: ٢ (٣) ٢٩٥: ٢ (٤) ٢٨٧: ٢ (٥) ٢٨٥: ٢ و ١: ٥

(٦) ٢٨٨: ٢ (٧) ٢٨٥: ٢-٦ (٨) ٢٩٠: ٢ (٩) ٢٥٢: ٢-٣ (١٠) ٢٩٢: ٣



شكل ١١٢ - بعض المائل الطويلة يلاهي السوراك (الهيئت) مقوية على جدر الدير البصري بطيبة . في هذا المكان رسمت الملكة حتشبسوت حائل برينها التي ارادتها الى السوراك وتساعد في القسم الاعلى بمساعدة الأسطول المصري لياها مصرى وزوى السفن المصرية في القسم الأعلى تحت بحيرات السوراك كبحر الزر الذي يشاهد داخل تلك السفن

بسلام فضرب قائدها قبابه على الشاطئ وهناك قابله ملك بونت المدعو پيرو (Perehu) باحترام
 واکرام متبوعا بزوجه المدينة وأطفاله الثلاثة^(١) . والظاهر أن المصريين وقتئذ كان قد مضى عليهم
 مدة طويلة لم يطنوا في أثنائها أرض الصومال لأنهم رسموا الصومالين على جدر الدير البحري قائلين
 لهم: "لماذا أتيتم الى هذه الأرض التي جهلها من سبقكم من المصريين؟ هل نزلتم من السماء أو ركبتم
 السفن في البحر الموصل الى الأرض المقدسة (الصومال) ؟" ^(٢) . بعد ذلك قدم المصريون
 هديتهم الى حاكم الصومال فابتهج بها ومال الى المصريين كثيرا وأمر حالاً بربط السفن المصرية
 قريبا من الشاطئ، ثم أنزلت المنزلات الخشبية وأفرغت محتويات السفن ثم ملئت ثانية بخيرات بلاد
 الصومال^(٣) المدهشة كالأخشاب العطرية الجميلة على اختلاف أنواعها وكومات المتر وعديد كبير
 من أشجار المتر الياقة وكثير من الآبنوس والعاج النقي وذهب إمو (Emu) الأخضر وخشب الأنيسون
 والبخور والكحل ، وهذا غير النسائيس والقردة والكلاب وجلود الكأثم الجنوبية وبعض
 أهالى الصومال وأولادهم . وتعتبر هذه الحملة الأولى من نوعها منذ بداية التاريخ المصرى^(٤) . ثم
 أفلح الأسطول المصرى عائدا الى مصر سالما ولم تعترضه حوادث سيئة ولم يضطر أن ينقل بضاعته
 من سفنه بل وصل سليما الى صرفا طيه كما تشير الآثار^(٥) . ولا بد أن يكون دهش المصريين
 عظيما لما وقع نظرم على واردات الصومال السحيقة العجيبة وهي تميز شوارع طيه في سيرها نحو
 القصر الملكى حيث قدمها القائد المصرى الى الملكة ، فلما شاهدت جلالتها هذه الخيرات تبرعت
 من فورها بجزء منها الى المعبود آمون مع جزء آخر من واردات التوبة لأن المصريين اعتبروا هذين
 القطرين أقليا واحدا . واليك بيان ما تبرعت به الملكة لآمون : "واحد وثلاثون من أشجار المر
 الخضراء وكية من الذهب والفضة (Electrum) والمكاحل والرماح الصومالية والآبنوس والأدوات
 العاجية ونمر على فيد الحياة صيد خصيصا بلجلالتها وكية كبيرة من جلود النمر وثلاثة آلاف وثلاثمائة
 رأس من الغنم"^(٦) . ويستدل من رسوم الآثار أن كميات المتر التي أحضرت جزئت كومات يقرب
 ارتفاع كل منها ضعف طول الرجل وكانت تكال بحضور تحوتى أحد أتباع الملكة المقتزين . أما
 حلقات الذهب التي أحضرت فكانت توزن بموازين يبلغ ارتفاع الواحد منها عشرة أقدام^(٧) .
 وبعد ما أعلنت جلالة الملكة نجاح بعثة الصومال الى المعبود آمون على حسب رغبته^(٨) أقامت
 احتفالا عظيما استدعت فيه تحوتى ونحسى رئيس الخزانة وقائد البعثة وأغدقت عليهما النعم ،
 وأخبرت أعضاء أسرتهما المالكة بنتيجة مجازقتها العظيمة^(٩) وذكرتهم برغبة آمون في فتح طريق
 الصومال وغرس أشجار المتر من تلك البلاد المقدسة في حديقة معبده ، ثم قالت مباهية: "لقد أنجزت
 تلك الرغبة وجعلت حديقة معبده أشبه بالصومال كما أراد ، فصارت حديقة كبيرة كافية
 لتزته فيها"^(١٠) . وهكذا صار هذا المعبد البديع ذو الشرفات عبارة عن حدائق من شجر المتر لأجل
 آمون ، ولا شك أن الفضل في ذلك يرجع الى همة ونشاط هذه الملكة التي اضطرت لأن تحضر

٢٥١:٢ (١) ٢٥٧:٢ (٢) ٢٥٩:٢ (٣) ٢٦٥:٢ (٤) ٢٦٦:٢ (٥) ٢٧٠:٢ (٦) ٢٧٢-٢٧٠:٢ (٧)
 ٢٨٢-٢٧٣:٢ (٨) ٢٨٣-٨ (٩) ٢٨٩-٢٩٥ (١٠) ٢٩٥:٢ (١١)

تلك الأشجار من أقصى البلاد . وقد نقشت جلالتها كل أخبار هذه الرحلة الغربية بارزة على جدر معبد الدير البحرى^(١) الذى استولى عليه سابقا تحوتمس الثانى رغبة فى نقش حروبه وانتصاراته الأسيوية عليه^(٢) ، ولا تزال نقوش بعثة الصومال من أبداع مخلفات هذا المعبد العظيم ، وقد ذكرت الملكة كبراء حزبا جميعا فى تلك الرسوم . ويشاهد على أحد الجدر رسم سينتوت مبتهلا الى المعبودة حانحور طالبا منها أن تمنح الملكة النعم الجزيلة وهو شرف عظيم فلما يتنعم به رجل من رجال الدولة^(٣) .

ومعبد حتشبسوت هذا هو أقصى ما وصل اليه بناء تلك العصور من حيث ترتيب وتنسيق القبور الملكية وعلاقتها بمعايدها . ويظن إن اقلاع الملوك عن اتخاذ الأهرام مقابر لم يرجع الى الحاجة للاتفاق فى أبواب أخرى أو لأنهم لم يجدوا فائدة فى تكبير تلك القبور خصوصا وقد أتضح لهم أن هذه الاجراءات لم تحفظ جثث أصحابها . والغالب أن دفن الجثث الملكية فى أهرام وتشييد معايد لها شرق الأهرام استمر متبعا حتى حكم أحتمس الأول ، لكنه لوحظ أن هذه العادة أخذت تتعدم تدريجيا فقل حجم الهرم بالتوالى وبقيت الغرف السفلى والمعابد المجاورة له على كبرها ومخافتها بالنسبة للأهرام . وآخر من أتبع بناء الأهرام هو أمنحتب الأول الذى دفن جثته الملكية فى حجرة^(٤) يوصل اليها بدلهيز طويل محترق لصخور طيبة الغربية يبلغ طوله نحو مائتى قدم ، ثم شيد أمام مدخل الدهليز معبدا صغيرا تعلوه قوة هرمية الشكل سبق الكلام عليها^(٥) . والظاهر أن تحوتمس الأول لم يرق فى عينه هذا الترتيب ولم يعتبره كافيا لحفظ الجثة فابتدأ بفصل المعبد من القبر فشيده المعبد فى سفح جبال طيبة الغربية ، أما قبره وسردابه (شكل ١٠٩ و ١١٠) لحفرهما فى الصخور بواد مننزل (شكل ١٠٨) خلف جبال طيبة الغربية على بعد نحو ميلين من النيل ولا يصل اليه الانسان الا بطريق منحرف يقرب طوله من ضعف هذه المسافة . وبديهي أن غرض الملك من ذلك اخفاء معالم قبره ليكون فى مأمن من اللصوص ولذلك بقيت أخبار هذا القبر سرا مكتوما . قال المهندس إيتنى الذى باشر حفر مقبرة تحوتمس الأول انه قام بهذا العمل وحده دون أن يراه أو يسمعه أحد^(٦) . وهذا الترتيب وإن كان مناقضا لامادات السابقة يوافقها فى وضع القبر خلف المعبد وإن كانت تفصلهما صحور شاهقة . ويعرف هذا الوادى الآن باسم " وادى مقابر الملوك " وقد فضله الملوك الذى حكموا بعد تحوتمس الأول على سواه من الأماكن لدفن جثثهم فيه ، واستمرت الحال على هذا المنوال مدة حكم الأسر الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين حتى امتلاء الوادى بجمشث ملوكها . أما عند المقابر المعروفة فيه فيربو على الأربعين ، منها احدى وأربعون مقبرة يمكن معاينتها من الداخل وامتدت شهرتها فى العالم حتى اعتاد السياح أن يؤتموها سنويا لمشاهدتها والاطلاع على عجائبها . وذكر استرابون أن عدد ما كان معروفا فى عهده من المقابر بذلك الوادى كان أربعين مقبرة . أما معبد حتشبسوت ذو الشرفات فلم يكن سوى معبد أقيمت فيه الدعوات وقدمت القرابين بعد وفاة صاحبه ، وقد

(١) راجع شكل ١١٢ و ٢٤٦-٢٩٥ (٢) راجع صحيفة ١٧٨ (٣) ٢٤٥:٢ (٤) ١٣:٤ وملاحظات

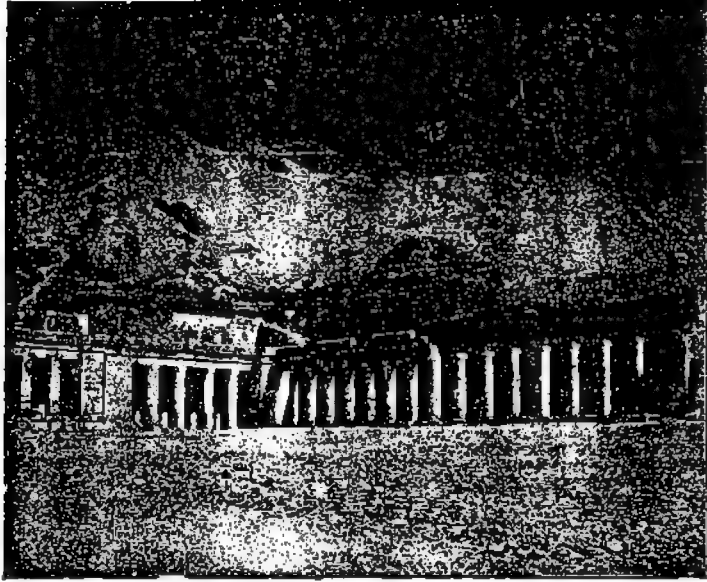
(٥) راجع صحيفة ١٦٨ (٦) ١٠٦:٢

كثبت الملكة اسم والدعا عليه أيضا ووهبت له أيضا بعضه . وبليهي أنه كلما زاد عدد المقابر بذلك الوادى زاد عدد المعابد الخاصة بها بسفح الجبل لأن هذه المعابد كانت الأمكنة التي تقدم فيها القرابين والهدايا لأرواح جبابرة مصر المقدسين . وجرت المادة أن هذه المعابد كانت توهب أيضا الى المعبود آمون وأن يطلق على كل منها اسم خاص ، مثال ذلك معبد قبر تحوتمس الثالث سمي "هدية الحياة"^(١) .

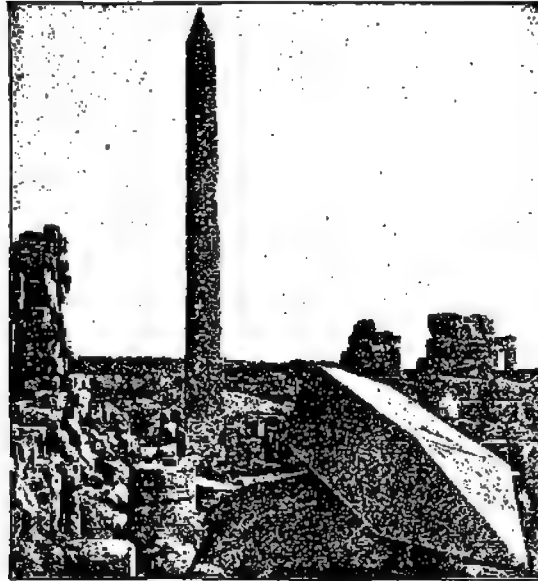
أما قبر حتمشيسوت فقد قام بحفره المهندس والوزير المدعو حابوسينب ، وقد اختار لذلك مكانا بالوادى المنعزل المذكور^(٢) بكيفية هندسية تجعل جدار القبر الشرقى خلف الدير البحرى تماما . وهنا يتسدى دهليز طويل منحدر يبلغ طوله مئات من الأقدام يتهى الى حجرات تحوى احداها تابوتين واحد لها والآخر لأبيها تحوتمس الأول . والظاهر أن النزاع بين الأسر حال دون استعمال تحوتمس الأول لهذه المقبرة ، إذ المعروف أنه فضل أن يدفن نفسه في قبر صغير منفرد وألا توضع جثته في التابوت الذى صنمته له ابنته . وقد عثر على هذين التابوتين فارغين حديثا ولا بد أنهما سرقا في العصور السالفة .

وللاحظ أن هذه الملكة حسنت بهمتها مصنوعات البلاد وأتمت من ثروتها كثيرا فعادت بفوائد جزيلة على القطر المصرى وتضاعف إيراد الامبراطورية المصرية حيث شمل ضرائب الأملاك وجزية المستعمرات الأجنبية الشاسعة الممتدة من الشلال الثالث جنوبا الى نهر الفرات شمالا . واليك ترجمة ما قاله حتمشيسوت ذات يوم : "لقد بلغت حدود ملكتى الجنوبية أرض الصومال (بونت) وحدودها الشرقية مستنقعات آسيا ، فصار الأسيويون في قبضتى أما حدودى الغربية فوصلت الى جبال مانو (Manu) أى مغرب الشمس وذاع صيغى بين البدو . وقد أحضر الى مصر بلاد الصومال وخيرات تلك البلاد العجيبة أحضرت الى قصرى ككله واحدة حقيقة لقد أحضرت الى أجود الخيرات من أريز وعرعر وخشب "مرو" (Meru) وأخشاب الأرض المقدسة الجميلة جميعها . لقد أحضرت لى جزيرة يحنو (الليبين) من عاج ، علاوة على سبعائة ناب من أنياب الفيلة وعدد كبير من جلود الكناغم البالغ طول كل منها خمسة أقدام وعرضه أربعة أقدام (من الظهر)"^(٣) . والظاهر أن عهد هذه الملكة كان مصحوبا بالأمن والسكينة والسلم فى آسيا ولو أنه لم يكن على الأريكة المصرية فرعون حربى ، ولذلك استعملت هذه الملكة الشيطنة ثروتها الجديدة فى بناء المعابد التى ألقفها الهيكسوس بعد انقضاء جيلين على جلائهم من البلاد"^(٤) ، وقد سجلت ذلك على معبد بخت (Pakht) ببنى حسن فقالت : "انى أصلحت الخراب وأتمت ما كان ناقصا قبل مجئ الأسيويين (الهيكسوس) الى أواريس (هواره) فى منطقة البلاد الشمالية . وكان بينهم وقتئذ من البربر من صرفوا همهم فى تخريب المباني جهلا منهم بوجود المعبود رع"^(٥) .

(١) ٥٥٢ : ٢ (٢) ٣٨٩ : ٢ (٣) ٣٢١ : ٢ (٤) ٢٩٦ : ٢ (٥) ٣٠٢ :



شكل ١١٣ — سلسلة العمود النهائية المتصلة بالدعائم الأوسط لمبد
الملكة حمتشيسوت المسمى بالدير البحري ببلية



شكل ١١٤ — مسلات الملكة حمتشيسوت بالكرنك و يبلغ
ارتفاع المسلة القائمة سبعة وتسعين قدماً ونصف قدم

ومضى على هذه الحال سبع سنوات أو ثمان بعد استرداد حتشبسوت وأخيها تحوتمس الثالث عرش مصر، أو خمس عشرة سنة منذ توليها الحكم مع تحوتمس الثالث في المرة الأولى . ويلاحظ أن تحوتمس الثالث لم يكن طوال هذه المدة وارثا شرعيا للملك لأن زوجته استأثرت بهذا الشرف دونه، ولما أوشكت أن تم ثلاثين سنة منذ اعلان وراثتها على العرش أدانت لذلك احتفالا عظيما. ويظن أنها أمرت بنصب المسلات كالعادة في مثل هذه الأفراح، وقد قالت ما ترجمته: "أتذكر أنني جلست يوما بالقصر وفكرى يجيش بتأملات خالقي فأوحى الى قلبي أن أشيد لخالقي مستلين من خليط الذهب والفضة (Electrum) بياغان عنان السماء"^(١). وقد كلف المهندس المحبوب سنوات القيام بهذه المأمورية فتوجه الى محاجر الجرانيت بجهة الشلال الأول لقطع حجirin كبيرين تصنع منهما المستلان الكبيرتان، فجمع هذا المهندس من شاء من العمال وأبدا بالعمل في أوائل فبراير في السنة الخامسة عشرة من حكم جلالة الملكة، وبعد مضي سبعة أشهر تمكن سنوات من قطع الصخرتين المذكورتين وذلك في أوائل شهر أغسطس^(٢) وقد شجعتنا في سفن نيلية الى طيبة قبل أن يهبط منسوب فيضان النيل. ورأت الملكة أن تنصب هاتين المستلين في الساحة ذات العباد التي أسما والدها بالكركك والتي اختار فيها آمون تحوتمس الثالث ملكا على مصر . وتطلب إنجاز هذا العمل نقل عمد السقف المشيدة في الجناح الجنوبي للساحة المذكورة علاوة على أربعة عمد من الجناح الشمالي وتزع جزء من السقف وهدم الحائط الجنوبي لإدخال هاتين المستلين وكانتا مكسوتين كثيرا بخليط الذهب والفضة وقام بهذا العمل تحوتمي لأجل جلالة ملكته^(٣). ومما ورد عن ثروة هذه الملكة قولها انها كانت تملك المعادن النفيسة كالحبوب بالكاييل الكبيرة^(٤) وهو قول يعززه ما رواه تحوتمي بأنه كان يكس بأمر جلاتها في ساحة قصرها ما يزيد على أربعائة وثلاثة وعشرين لترا من خليط الذهب والفضة^(٥). وإليك ترجمة ما قالته جلاتها مفتخرة بهاتين المستلين: "لقد صنعت قمتي هاتين المستلين من أجود خليط للذهب والفضة وجد بالعالم . وكان من الممكن مشاهدة القمتين من شاطئ النيل، وكانت الأشعة تنعكس منهما على القطرين وقت شروق الشمس على الأفق بشكل غاية في الجلال"^(٦). أما ارتفاع هاتين المستلين فأعلى من سقف ساحة الكركك التي شيدتها تحوتمس الأول . وقد أقسمت حتشبسوت بكافة المعبودات أن كلتا مستليها صنع من حجر واحد منعا لدخول الشك في أنفس القوم وقتئذ^(٧). والحق يقال ان هاتين المستلين أعلى الآثار المصرية التي يرجع تاريخها الى تلك العصور لأن ارتفاع كل منهما بلغ حوالي سبع وتسعين قدما ونصف، أما زنة كل منهما فتقرب من ثلثمائة وخمسين طنا، ولا تزال احداهما شاخصة في مكانها الأصيل تسترعى أنظار السياح كل سنة (شكل ١١٤) . ولم تكن حتشبسوت بذلك بل شيدت مستلين أخرين بالكركك لكنهما تلتقا وانعدم أثرهما^(٨)، والمظنون أنها شيدت مستلين أخرين لمعبدها ذى الشرفات بالدير البحري أصحابها التلق والعطب، وهكذا يكون عدد المسلات التي شيدتها هذه الملكة ستا . وتوجد على جنر معبد الدير البحري^(٩) رسوم بارزة تمثل مستلين محولتين في سفينة نيلية عظيمة يجرها ما يقرب من ثلاثين سفينة شراعية وفيها نحو مائة وستين بحارا . وللاّن لم يثبت اذا كانت هذه الرسوم عن مسلي معبد الدير البحري أو مسلي الكركك اللتين نصبهما سنوات السابق الذكر .

(١) ٢: ٣١٧-٦ : ٢ (٢) ٣١٨ : ٢ (٣) ٢٨ : ١ : ٣٧٦ : ٢ (٤) ٢ : ١٩٩ : ٢ (٥) ٢ : ١١٤ : ٢ (٦) ٢ : ٣١٧ : ٦ : ٢ (٧) ٢ : ٣١٨ : ٢ (٨) ٢ : ٣٠٤ : ٢ (٩) ٢ : ٢٢٢ : ٢ ملاحظة

وزيادة على هذه المسلات الشائخة التي شيدها هذه الملكة عثر على نقوش أثرية بجهة وادى مفاره بطورسيناء^(١) تشير الى أن جلالة الملكة حعشيشوت أرسلت اليها بعثات للبحث عن معادن تلك الجهة، وهكذا أدارت شؤونها في تلك الجهة بعد ما استراحت من غزوة الهيكسوس. وتاريخ هذه البعثات يرجع الى السنة السادسة عشرة من حكمها وقد استمر حفر المناجم حتى السنة العشرين من حكمها^(٢). والغالب أن الملكة توفيت وقتئذ لأن آثار تلك السنة أخبرتنا بأن الملك تحوتمس الثالث صار المسيطر الوحيد على المملكة المصرية، كما أننا لم نجد اسم حعشيشوت على الآثار بعد هذا الحين. ويلاحظ القارى أننا أسهبنا في وصف آثار وأعمال هذه الملكة والسبب في ذلك أن السيدات لسن من محبي الحروب والغزوات وعلى الأخص في تلك العصور العتيقة، ولذا وجدناها وجهت ههنا نحو تقدم الفنون ونشر رايات السلم. ومع أنها كانت حاكمة سلمية قادرة فقد حكمت في زمن كانت مصر محتاجة فيه الى ملوك خريبيين لكبح جماح الأسيويين واقناعهم بأن مصر حصينة منيعة كي لا يذكروا نار الفتنة وينفخوا روح الثورة.

ولما ولى تحوتمس الثالث عرش مصر بعد زوجته بدا منه ما كان خفيا لأنه كان بطبعته ميالا للحروب مغرما بالنضال والكفاح. وقد كان مضطرا في حياة زوجته أن يراعى ظروفها فكان يقدم وقتئذ البخور لأمون وقت وصول بعثة الصومال كما أنه كان يصرف نشاطه في الاشراف على بناء معبد قبره في سهول طيبة الغربية، ولذلك وجد له بعض العذر إذ لم يقم بالواجب نحو زوجته ولم يراع كرامتها كإقامته حائطا أسفل مسلتي زوجته اللتين بساحة تحوتمس الأول بالكركك ليخفي النصوص المنقوشة عليهما الدالة على تاريخ نصبهما. وقد سما أيضا اسمها ورسمها من الآثار جميعها حتى معبدها بالدير البحرى مصدرا بذلك الأوامر. ولا بد أن يكون حزب هذه الملكة انهار بعد وفاتها يهرب أعضائه أولأنهم لقوا حتفهم كما يستدل من طمس رسوم سنموت وتحوتى ونحسى من جدر الدير البحرى بعد ما كانوا يفتخرون بهذه الرسوم أيما افتخار. ثم ان الملكة كانت قد أهدت الى سنموت ثلاثة تماثيل وأمرت بوضعها بمعايد طيبه، فلما ولى تحوتمس الثالث الملك سما اسم سنموت منها، كما سما اسمه أيضا من جدر قبره وشاهده. وعمل تحوتمس الثالث مثل ذلك أيضا لتمثال حيوسينب^(٣). أما مقبرتا تحوتى وسين من أمخى سنموت فقد نبشتا وطمست أسماء صاحبيهما. وأما مقبرة أحد أقران هؤلاء الرجال فقد محى اسم صاحبها وأزيل تماما فعمد علينا معرفته. وحق تحوتمس الثالث على إقليم السلالة فأمر بإرسال بعثة اليه ليتقم بازالة اسم كبير الأمراء لحعشيشوت الذى على جدر قبره^(٤). وهكذا تجد الآثار الى يومنا هذا ناطقة بما ارتكبه هذا الملك من القسوة والحقن، ومع ذلك فإن الدير البحرى لا يزال للآن حافظا ذكرى صاحبه، كما أن الخناط المهدم الذى أقامه تحوتمس الثالث لإخفاء ما أسفل مسلتي زوجته بالكركك من النقوش لا يزال الى الآن شاهدا على أن لحعشيشوت مركزا ساميا وشرفا رفيعا.

Petrie, Cat. of Egyptian Antiquities found in the Peninsula of Sinaï, etc., p. 19. (١) ٣٣٧: ١ (٢)

(٣) ٢ : صحيفة ١٦٠ ملاحظة (د) (٤) ٣٤٨: ٢

الفصل السادس عشر

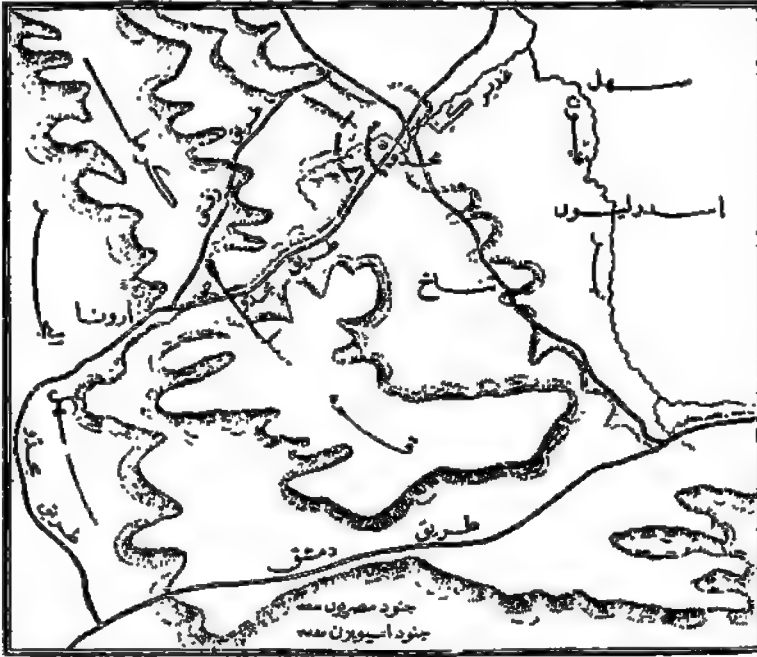
توطيد أركان الامبراطورية : تحوتمس الثالث

كانت امبراطورية تحوتمس الثالث وحتشبسوت في السنة الخامسة عشرة من حكمهما تمتد في البلاد الآسيوية الى جبال لبنان شمالاً^(١) . ولم ندر ما ذا جرى لتلك الجهات حتى السنة الثانية والعشرين من حكم تحوتمس الثالث لما ذكر أنه زحف وقتئذ الى آسيا لإخضاع أهلها، لكنه يستدل من أحوال تلك العصور وما تبعها من الحوادث أن سلطة مصر على تلك الجهات أخذت تضعف حتى تطلبت حضوره شخصياً لعلاجها . ولاحظ أن البلاد الآسيوية مضى عليها الى ذلك الوقت مدة طويلة لم ترفها جيشاً مصرياً، فكاد أهلها ينسبون ما لمصر من سلطة وعزة فأغتروا وجمعوا كلتهم واتحدوا برياسة ملك كدش ، ثم أعلنوا عصيانهم على فرعون مصر وانفصلوا عن امبراطوريته . وأخذت معاطس كدش تتفخ من الكبرياء والغطرسة اللذين كانا ظاهرين عليها في عهدها الأول لما كانت معروفة بمملكة الهيكسوس . ودلتنا الآثار أن البلاد الممتدة من يرازا (Yeraza) شمالى يوديا (Judea) الى اقليم المستنقعات جنوباً وقرب نهر الفرات شمالاً شقت عصا الطاعة على مصر^(٢) . أما جنوبي فلسطين فلم يمرر على ذلك لأن أهله اعتبروا وانعظوا بما حصل لمدينة شاروهم التي هي في وسط ذلك الاقليم لما ذاقتم الأمرين وقت حصار أحممس الأول لها ست سنوات في حربه مع الهيكسوس ، ولذلك جبن سكان جنوبي فلسطين الاقلياً منهم على مشاكسة المصريين . ثم استعمل الأهالي في شمالي فلسطين وسوريا نفوذهم مؤثرين أهالي جنوبي فلسطين ليتحدوا معاً لمعاكسة المصريين ، طالبين منهم أن يتركوا لهم بعض قوات وامتدادات حربية في مقابلة اشتراكهم معهم في ذلك الكفاح . فتجم عن ذلك أن انحاز بعض أهالي جنوبي فلسطين الى الثوار وقامت حرب أهلية مركزها مدينة شاروهم (شرهان)^(٣) . بعد ذلك امتد العصيان الى غربي سوريا (المعروفة عند المصريين باسم زاهي)^(٤) ثم الى مملكة يتاني القوية وهي في شرقي نهر الفرات — هؤلاء جميعاً ساعدوا البلاد العاصية وشجعوها للتألب على فرعون مصر . والمعروف أن تحوتمس الثالث لم يتمكن من إعادة بسط نفوذه على آسيا الا بعد أن عاقب ملك متاني عقاباً صارماً وأخضع بلاد النهرين للسدة المصرية . ولاحظ أن مملكة متاني كثيراً ما كانت تتشاحن مع آشور الغنية التي كانت تنافسها في التقدم والبطش ، فلما رأته متاني أن القوات المصرية أخذت تهدد كيانها أيضاً زيادة على آشور صممت على بذل كل ما وسعها لدرء الخطر المصري وتأسيس مملكة قوية كمملكة الهيكسوس عاصمتها كدش تكون بمثابة فاصل وحاجز منيع بينه وبين مصر . ولا غرابة في ذلك

(١) ١٦٢ ر ١٣٧ : ٢ (٢) ٤١٦ : ٢ (٣) ٤١٦ : ٢ (٤) ٦١٦ : ٢

فقد بلغ البطش المصرى وأخبار امبراطورية النيل عنان السماء في تلك الأزمنة . من ذلك تتضح لنا المخاطر التي واجهت تحوتس الثالث وقتما استقل بالملك ، والحق يقال إنه الفرعون الوحيد الذي صادفته مثل هذه الصعوبات والمخاطر مضاعفة .

ولم نهدد الآن الى ما وصل اليه الجيش المصرى من الانحطاط والتأخر أيام الملكة حمتشبسوت عندما وقف استخدامه في الغزوات والفتوحات ، كما أننا لا نزال نجهد المجهودات العظيمة التي بذلها تحوتس الثالث في تحسين جيشه وتدريبه وجعله قادرا على مكافحة تلك الأخطار المتجمعة ، لكن المعروف أن جيش مصر كسواه من جيوش البلاد الشرقية وقتئذ لم يكن كبير العدد . والمرجح أن فراعنة مصر لم تغز آسيا بأكثر من عشرين ألف جندي أو ثلاثين ألفا ، وهذا في الحقيقة أقرب



شريطة رقم ٤ : قمة جبل كرمل وعلاقتها بمدينة مجدو
ويبرى القارئ فيها مواقع مدينتى مجدو وثناع والطرق الواصلة لجدو ومخترقا
قمة جبل كرمل ومرامكيز الجيشين في ببدانة للمعركة

تقدير للصواب (١) . وفي أواخر السنة الثانية والعشرين من حكم تحوتس الثالث ظهر الملك على رأس جيشه مستعدا للنضال وفتح البلاد واخضاع الممالك فزحف بجيشه متجها نحو البلاد الآسيوية مبتدئا من مدينة ثارو (Tharu) - قرب مدينة القنطرة - وهي آخر مدينة مصرية على حدود مصر الشمالية الشرقية ، وكان ذلك حوالى ١٩ أبريل سنة ١٤٧٩ قبل الميلاد (٢) .

(١) راجع كتاب معركة كادش لوزلف صحيفة ٨-١١ (٢) ٤١٥:٢٠٩ و٤١٥

فوصل الى غزة في ٢٨ أبريل ، وهي على بعد مائة وستين ميلا من مدينة ثارو^(١) أى بعد سير تسعة أيام . وهذا التاريخ يوافق اليوم الرابع من شهر بشنس بعد مضي اثنين وعشرين سنة كاملة على انتخاب آمون لتحوّمس الثالث على أن يكون ملكا على مصر بساحة الكرنك ذات العهد التي شيدها والده . والمعروف عن تحوّمس الثالث أنه كان لا يأل جهدا في التأمر وبذل المساعي طويلا ليجلس على عرش مصر حتى بلغ غرضه . ولما كان هذا الملك نشيطا يقدر قيمة الزمن اختصر في مظاهر الاحتفال بمرور اثنين وعشرين عاما على تنويجه وعول على الاستمرار في الزحف شمالا في صباح اليوم التالي للاحتفال^(٢) فسار محاذيا لشهلا (Shephelah) بالقرب من البحر محترقا سهل شارون (Sharon) ومما مدينة يوحم (Yehem) المجهولة المركز فوصل بها في اليوم العاشر من شهر مايو سنة ١٤٧٩ قبل الميلاد وضرب قبايه قريبا ، وتبعد هذه المدينة عن غزة نحو ثمانين ميلا أو تسعين وهي على المنحدرات الجنوبية لسلسلة جبال كرم^(٣) . في ذلك الوقت كانت القوات الآسيوية العاصية اجتمعت بقيادة ملك كدش وسارت جنوبا حتى آخر حدود حلفائها واحتلت حصن مجدو القوي الواقع في جرز (Jezreel) على المنحدر الشمالي لجبال كرم ، وجبل كرم هذا المستعرض الاتجاه يكوّن أول حاجز منيع ضد القوات المصرية الزاحفة على آسيا ، ولا بد أن ملك كدش علم بذلك فاتخذ أول خط دفاع له ، ومنه علمنا أن هذا الملك كان ماهرا في الفنون الحربية وأصول المعارك (ماخوذ باذن الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم للجامعة كبريدج سنة ١٩٢٥) ، وهذا البيان هو أقدم ما ورد لنا في التاريخ عن هذه المدينة ، والمعروف أن مجتو هذه كانت مركزا حربيا منيعا لوقوعها بين سلسلي جبال لبنان وأشرفها على الطريق الموصل مصر ببلاد العراق ، ولذلك أصبح لهذه المدينة أهمية في تاريخ الشرق أخذت تزداد على عمر الدهور . وقد اعتبر تحوّمس الثالث كل هذه البلاد من أملاكه ، ولذا تكلم عنها قائلا : "لقد شرعت بلاد الفنكو (Fenku) الآسيوية تغزو بلادى" ^(٤) ومنه يستنتج أن تحوّمس الثالث زحف بجيوشه في بلاد موالية غير معارضة الى جبال كرم وبعد ذلك سار على حذر . فلما بلغ مدينة يوحم (Yehem) علم باجتماع جيوش أعدائه بمدينة مجدو فعقد مجلسا عسكريا من كبار ضباطه وتداولوا الأمر في أحسن الطرق الممكن اتباعها لعبور جبال الكرم والوصول الى سهل إزدريلون (يزرك) (Esdraelon)^(٥) ، وكان أمامهم ثلاثة طرق تمكن الجيوش من عبور تلك المنطقة الجبلية ، أولها يتدنى من يوحم ويتجه الى مدينة أرونا (Aruna) محترقا الجبل المذكور وواصلوا الى أبواب مجتو (راجع خريطة رقم ٤) ، وثانيها يتجه جنوبا مارا ببلدة طناخ (Taanach) على بعد خمسة أميال من الجنوبي الشرقي لمجتو ، وثالثها شمالا ذلك عبر محترقا بلدة زفتي (Zeffi) وينتهي بالشمال الغربي لمجتو^(٦) . فاختر تحوّمس الثالث الطريق الأول لقصره ، أما ضباطه فأشاروا عليه باتباع أحد الطريقين الآخرين لأنهما أوسع من الأول قائلين : "إذا اتبعنا الطريق الأول في زحفنا أفلا نضطر تحويلنا أن نسير فرادى وكذا جنودنا فتكون مقدمتنا

(١) ٤٠٩: ٢ (٢) ٤١٨: ٢ (٣) ٤١٩: ٢ (٤) ٤٣٩: ٢ (٥) ٤٢٠: ٢ (٦) ٤٢١: ٢

مشتبكة مع الأعداء ومؤخرتها لا تزال في أرونا؟" (١) . من هذا استنتجنا أن المصريين كانوا على معرفة كبيرة بمصاعب ذلك الطريق القصير ، لكن تحوتمس الثالث لم يأبه لمشورتهم وأقسم أن يتبع هذا الطريق غاطبا ضباطه بأنه قد صمم على تنفيذ فكره وهم أحرار في أن يوافقوه أو يخالفوه (٢) . بعد ذلك استعد واحتاط وزحف على أرونا في ١٣ مايو (٣) وخوفا من مفاجأة أعدائه له ورغبته في تشجيع جنده فاد جيوشه قائلا: "سأسير أمامكم كي أظهر لكم الطريق فقتلوا أثر قديمي" (٤) . وتقع أرونا على جبل كرمل ويصل إليها الانسان من طريق ضيق وقد وصل إليها تحوتمس الثالث سالما وأمضى فيها الليلة الرابعة عشرة من شهر مايو ، ولا بد أن جيوشه كانت منتشرة وقتئذ على الطريق الممتد بين أرونا ويوحم . فلما كان صباح يوم ١٤ مايو وأصل زحفه مسرعا لكنه سرعان ما التحم ببعض جنود أعدائه (٥) الذين كانوا لحسن الحظ قليل العدد، ولولا ذلك لفتكروا به لأنه كان منهوك القوى مبعثر الجنود على مدى الطريق الجليل الضيق . في ذلك المكان أخذ الطريق يتسع فأخذ تحوتمس الثالث يوسع مقدمة جيشه أيضا وهناك شدد عليه ضباطه بأن ينتظر حيث هو حتى تصل وحدات جيشه التي لا تزال في أرونا (٦) فأصغى لذلك وانتظر مقاوما أعداءه . ولما كان عدد القوة المعادية قليلا لم يكتف المصريون بالمقاومة بل أخذ تحوتمس يزحف تدريجا حتى اذا ما حل وقت الزوال كانت مقدمة جيشه قد بلغت سهل يزول (Esdraelon) . هذا هو أقدم جيش معروف لآن دخل ذلك السهل التاريخي الذي أصبح منذ ذلك الوقت معتركا حريا حتى عهد اللورد اللبني . ويلاحظ أن اللورد اللبني اتخذ في زحفه الطريق نفسه الذي سار فيه تحوتمس الثالث وذلك عام ١٩١٨ لما سار بجيائه خلف الجيش التركي الهارب (مأخوذ باذن من الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم بجامعة كمبرج - القسم المصري القديم - صحيفة ٧٠ طبع سنة ١٩٢٥) . وحوالي الساعة الواحدة مساء بلغت الجنود المصرية جنوبي مجدو بدون مقاومة فعسكرت على شاطئ غدير كينا (Kina) (٧) وهكذا خسرا الأسيويون فرصة لا تقدر بثمن لأنه كان في امكانهم سحق المصريين تماما ، والظاهر أنهم كانوا على مسافة بعيدة في الجنوبي الشرق للدينة وقتما كانت صفوف المصريين الرفيعة تتدفق من قمة الجبل . ويستحيل علينا الآن أن نعرف موقع الأعداء بالضبط وقتئذ لكن المعروف أنه لما التحمت مقدمات الجيشين في الجبال كان جناح الأسيويين الجنوبي في مدينة طناخ (Taanach) (٨) طنا منهم بأن تحوتمس الثالث اتبع في سيره طريق هذه المدينة الى مجدو ، ولولا ذلك لاستحال على المصريين الانحدار من الجبال والوقوف جنوبي مجدو . بعد ذلك طاف تحوتمس الثالث حول معسكره في سهل مجدو وأصدر أوامره الى جميع قواته أن تستعد بسرمة وبنظام تام ، أما الشعور المصري وقتئذ فكان بالغا أحسنه وكانت روح الحرب متأججة في الصدور (٩) . وفي عصر ذلك اليوم (١٤ مايو) أو في مسائه اغتم تحوتمس الثالث فرصة وجود الأعداء في الجانب الشرق أو الجنوبي الشرق من جيشه وزحف

(١) ٢ : ٤٢١ وانظر خريطة رقم ٤ (٢) ٢ : ٤٢٢ (٣) ٢ : ٤٢٤ - ٥ (٤) شرحه (٥) ٢ : ٤٢٦

(٦) ٢ : ٤٢٧ (٧) ٢ : ٤٢٨ (٨) ٢ : ٤٢٦ (٩) ٢ : ٤٢٩

يجنحاه الأيسر على الشمالى الغربى لمجتو^(١) وهكذا حفظ لنفسه خط الرجعة مارا ببلدة زقى فى حالة هزيمته . أما اذا انتصر فهذا الطريق يمكنه من قطع خط الرجعة على أعدائه اذا حاولوا الفرار شمالا .

وفى فجر يوم ١٥ مايو أمر تحوتمس الثالث جيشه بالزحف والهجوم على العدو فاعتلى عجلته البراقة المصنوعة من خليط الذهب والفضة وسار فى قلب جيشه ، وكان جناحه الأيمن على تل جنوبى غدير كيتا أما جناحه الأيسر فقد ذكرنا سابقا أنه كان فى الشمالى الغربى لمجتو^(٢) . فأراد الأسويون أن يمحوا مدينتهم فألقوا قواتهم بين جيش تحوتمس الثالث ومجتو التى عززت طبعا تلك القوات بجيادات من عندها أيضا ، فانقض تحوتمس الثالث عليهم وهو فى مقدمة جيشه^(٣) بغيرة متلهبة شاهرا حسامه متحمسا للزال وأخذ يفتك بالبربر ويصعق سكان الرتو ويأسر أمراءهم أحياء ويغنم عجلاتهم المذهبة ذات الخليل المطهمة^(٤) ، وعلى أثر هذا الهجوم الأول تهقر العدو وفر نحو مجتو مذعورا تاركا خيله وعجلاته المفضضة والمذهبة ، وصار سكان المدينة ينشلون جنودهم من ملابسهم لأن أبواب المدينة أقفلت وقتئذ ، فكان الأهالى يدلون ملابسهم لربط الجنود العارة اللائكة اليهم وشدهم داخل مجتو . ومن المؤكد أنه لو استمر تحوتمس الثالث وقتئذ فى الهجوم على أعدائه بسرعة لتمكن من الاستلاء على مجتو لكن جيشه شغلته الأسلاب والغنائم فتمكن بذلك ملك كدش اللعين وملك مجتو التمس من الدخول والتحصن فى مجتو^(٥) . وهكذا الجيوش الشرقية كما حازت نصرا كانت ولا تزال تتمتع عن القتال ومواصلة الكفاح مهتمة بالغنم ، واذا كانت هذه الحال فى عهدنا فتحوتس بعض العذر فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد اذا كانت جنوده منهمكة فى نهب غنيمة الأسويين بدل مواصلة الكفاح . وايلك بيان تلك الغنيمة العظيمة التى استولى عليها الجيش المصرى وقتئذ :

” خيل وعجلات مذهبة ومفضضة أما جيش الأعداء فكانت ملقاة على الأرض كالمسك . وقد لبث جيش جلالته الظافر يعد تلك الغنائم وأقسامها . وهناك اتضح أن خيمة ملك كدش اللعين التى كان فيها ابنه أسرت أيضا فعم الفرح تقوس المصريين كلهم و برؤا اشكر آمون على النصر الذى منحه ابنه تحوتمس الثالث ثم جمع الجنود الغنيمة التى استولوا عليها وهى عبارة عن أيد (مبتورة من الأموات) ومن أسرى أحياء وخيل وعجلات مذهبة ومفضضة“^(٦) . ومنه يتضح أن هزيمة الأسويين كانت تامة حتى وقعت خيمة ملك كدش فى أيدي المصريين فأحضروا أمانها الثمين النفس الى فرعون . أما تحوتمس الثالث فكان شديد الحذر والحرص لأنه اقتنع بما خسره من الصدف الثمينة فلم أسره علامات النصر والابتهاج التى قام بها جيشه ، ولذلك خاطب قواته قائلا ما ترجمه :

” لو استمررتم فى الهجوم واستوليتم على هذه المدينة لقدمت اليوم قربانا عظيما لأجل المعبود رع . فرؤساء البلاد العاصية جميعا موجودون الآن داخل هذه المدينة مجتو ولذا فالاستيلاء عليها كان بمثابة الاستيلاء على ألف مدينة“^(٧) . ثم أصدر جلالته أمره بحصار مجتو فى الحال ففاستها الجنود

(١) ثبت ذلك بموضعه فى اليوم التالى . (٢) ٣ : ٢ : ١٤٣٠ : ٢ (٣) شرحه ١ : ٤٤ (٤) ٢ : ١٣ : ٤١٣

(٥) ٢ : ٢ : ٤٣٢ (٦) ٢ : ٢ : ٤٣١

(٧) ٢ : ١ : ٤٣٠ : ٢ (٥)

المصرية من الخارج وطوقتها بسور من الشجر الأخضر الجميل وليث الملك شرقى المدينة مشرفا على هذا العمل^(١) وقد سرّ من ذلك لأنه لما عاد الى مصر باهى به قاتلا ان آمنون أعطاه جميع أعدائه الأسيويين (من بلاد زاهى) محاصرين فى مدينة واحدة^(٢) وان جلالتة اصطادهم فى تلك المدينة وطوقهم بسور منيع ولذلك لقبه المصريون "تخوتمس محاصر الأسيويين"^(٣) لأن العادة اقتضت فى عهد الامبراطورية أن كل بناء يشيده فرعون يطلق عليه اسم خاص . ثم أعطيت الأوامر الشديدة للجيوش المصرية المحاصرة بمراقبة المدينة مراقبة دقيقة وبعدم السماح لأحد من أهلها بالاقتراب من جيوش فرعون الا فى حال تسلّم نفسه أسيرا . وسنرى فيما بعد أنه قبل أن يتمكن تخوتمس الثالث من إحكام حصاره تمكن ملك كدش من الهرب مع شدة رغبة تخوتمس فى منع ذلك وعظم احتراسه بإرسال جزء من جيشه فى الشمال الغربى لجذبو قبل التهام الجيوش . وباستمرار الحصار كان أمراء آسيا الذين أسعدهم الحظ فلم يحصروا داخل مجتوسيلمون أنفسهم لفرعون مصر المتأجج فرحا ونشاطا ، ودلتنا الآثار أن هؤلاء الأمراء أتوا ساجدين خاضعين مظهرين طاعتهم لللك الطائر الصيت^(٤) . ولم تصل اليها معلومات عما جرى وقت الحصار ولا عما قام به المصريون من الهجوم سوى ما أورده الكاتب الكاهن الذى هو مرجعنا الوحيد فى ذلك . ومن رواية هذا الكاتب "أن جلالة الملك تخوتمس الثالث كان يدقن كل يوم حوادث تلك المدينة وما جرى للملكها اللعين وجيشها الخسيس فى درج جلدى حفظ لمعبد آمنون فى ذلك الوقت"^(٥) . أما هذا الدرج فقد لسوء الحظ كما فقد أيضا سفر أيام ملوك يهوذا^(٦) ، ولذلك كانت خسارتنا العلمية والتاريخية عظيمة لا تقدر بثمن . ومكث المصريون فى وادى يزول مدة طويلة عاشوا فى أثنائها على حبوب ذلك الوادى ودمم أعضامه ، فكان هؤلاء القوم أقدم من عرف من غزاة ذلك الوادى الجميل الذى صار منذ ذلك الوقت ميدان الحروب والمشاحنات الى عهد نابوليون . أما الحال داخل مجتو فكانت على تقيض خارجها لأن المدينة أخذت على غزاة ولم تستعد للحصار فضرب الجوع أطنابه ولم يعد المحصورون قادرين على مقاومة الحصار أكثر من بضعة أسابيع ثم سلموا فى آخرها وتبين أن ملك كدش ليس ضمن الأسرى . قال المؤرخ المصرى : "ان الأسيويين الذين كانوا فى مدينة مجتو التمسة . . . قدموا أنفسهم لعظمة تخوتمس الثالث معطى الحياة قائلين : اسمح لنا ياذا الجلالة أن تقدم لك الجزية اللازمة"^(٧) . ثم أحضروا بللالتة ما يملكونه مظهرين له الولاء راجين منه أن يسمح لهم بالبقاء أحياء لأن فضله عميم^(٨) . فردّ عليهم جلالتة : "لقد سمحت لكم عظمتى بأن تبقىوا أحياء"^(٩) ومنه يتضح أن معاملة الملك لم كانت غاية فى اللطف ولم نهسد للآن بين نصوص فرعون مصر أنه كان يقاخر ويباهى بالانلاف العظيم والتخريب العام كالذى أتاه ملوك آشور وباهوا به وقت معاملتهم لعصابتهم . ووضع المصريون أسرة ملك كدش رهينة لاتقاء شره ، فقال تخوتمس الثالث : "لقد أخذت نساء وأطفال اللعين ملك كدش رهائن وكذا نساء الرؤساء وأطفالهم"^(١٠) .

(١) ٤٣٣ : ٢ (١) ٤٤٠ : ٢ (٢) ٤٣٣ : ٢ (٣) ٤٤٠ : ٢ (٤) ٤٣٣ : ٢ (٥) ٤٣٣ : ٢ (٦) سفر الملوك
بن أول ، اصحاح ١٥ ، سطر ٢٣ (٧) ٤٤١ : ٢ (٨) ٤٣٤ : ٢ (٩) ٤٤٢ : ٢ (١٠) ٥٩٦ : ٢

ومع أن الغنائم التي استولى عليها المصريون في حومة الوغى كثيرة فقد كانت صغيرة جدا بالنسبة لما وقع في يد فرعون اثر سقوط مجنؤ وتسليمها لجيشه ، فقد استولى المصريون وقتئذ على تسعمائة وأربع وعشرين عجلة حربية وفي ضمنها عجلتا ملك كدش ومجنؤ، وعلى ألفين ومائتين وثمانية وثلاثين حصانا وعلى مائتي زرد منها زرد الملكين المذكورين وقباب ملك كدش المزركش العالي وعلى ألفين من البهائم الكبيرة واثنين وعشرين ألفا وخمسمائة رأس من الغنم وأثاث ملك كدش البديع وصولجانه الفضى وتمثال فضى يحتمل أنه تمثال معبوده وتمثال لشخصه مصنوع من الآبنوس الملبس بالذهب واللازورد^(١) وكيات كبيرة من الذهب والفضة لا يمكن تقديرها بالغبط لأن الكتاب المصرى أضافها الى كيات الذهب والفضة التي استولى عليها المصريون في المدن الأخرى الأسيوية . ولا يخفى أن الأغنام المذكورة سبيت في الأراضي حول مجنؤ لأننا ذكرنا أن المدينة سلمت لأن ضغط القحط كان عليها شديدا . وقبل أن يترك المصريون مجنؤ حصنوا زرع سهل يزول المحيط بها بجمعوا منه ما يقرب من مائة وثلاثين ألفا من مكابيل الحبوب علاوة على ما استغده الجيش المصرى في أثناء حصاره لمجنؤ^(٢) .

ولم يترك تحوتمس في خلال زحفه فرصة تمر الا استخدمها في اخضاع البلاد المعادية شمالى مجنؤ، فوصل الى منحدرات لبنان الجنوبية حيث توجد الامارة ذات المدن الثلاث يانوام (Yenoam) ونوج (Nuges) وحرنكرو (Herenkeru) وكانت تحت حكم ملك كدش فسلمت للمصريين بسرعة ، ولا يبعد أن رئيسها كان بين السراة الذين أظهروا خضوعهم وطاعتهم لتحوتمس . ثم رأى الملك أن يشيد قلعة بتلك الجهة لصد أى تقدم جنوبى يحاوله ملك كدش الذى لم يقهر إلا الآن ولتأمين الطريق الذى بين سلسلتى جبال لبنان من أعداء المصريين ، وقد سميت هذه القلعة "تحوتمس جامع الوحشين"^(٣) وقد استعملت هنا كلمة "وحشين" النادرة التي أطلقها حمشيسوت سابقا على الميكسوس . وأخذ تحوتمس ينظم ما أخضعه من البلاد ويوطد فيها السلم مستبدلا بحكامها المعادين آخرين موالين له^(٤) وقد سمح للحكام الجدد أن يحكموا البلاد بحرية بشرط أن يدفعوا لمصر الجزية في مواعيدها . ولكن يتحقق أنهم راعوا هذه الشروط أخذ الأنجال الكبار لهؤلاء الحكام الى مصر رهائن ووضعهم في قصر خاص يدعى "حصن طيبه"^(٥) وهناك تعلموا العلوم والمعارف وغرس في قلوبهم حب مصر والعطف عليها ، وأذا توفى أحد حكام آسيا كان يسمح لنجله الكبير أن يعود الى بلده ويقوم مقامه^(٦) . وهكذا كانت سلطة تحوتمس الثالث وأصلة الى جبال لبنان شمالا ومتوزلة في الداخل حتى مدينة دمشق^(٧) . والمعروف أن تحوتمس كان يفرض الجزية ويظهر من التشدد على الأهالى بقدر ما يظهره من العداوة والبغضاء نحو مصر ، ولذلك لما رجع جلالته الى مصر كان معه نحو أربعائة وستة وعشرين رطلا ذهباً وفضة مصوغة بشكل حلقات أو أوران بديعة أو أثاث ثمين علاوة على ما استولى عليه من غنائم أخرى أقل قيمة منها في أثناء سقوط مجنؤ^(٨) .

ولا حاجة بنا أن نؤكد للقارئ أن وصول تحوتمس الثالث الى طيبه في أوائل أكتوبر كان محفوفاً بالتبجيل بشكل لم تر البلاد أنخرولا أجل منه في أى عهد سابق ، ففى أقل من ستة أشهر (أى في مدة

(١) ٤٣٥:٢ (٢) ٤٣٧:٢ (٣) ٥٤٨:٢ (٤) ٤٣٤:٢ (٥) ٤٠٢:٢ (٦) ٤٦٧:٢ (٧) ٤٠٢:٢ (٨) ٤٣٦:٢

فصل الجفاف) في فلسطين زحف من ثارو (Tharu) على آسيا وانتصر انتصارا عظيما على مجتو بعد ما حاصرها وسلمت له ثم زحف شمالا وانتهى الى لبنان حيث استولى على ثلاث مدن وشيد قاعة عظيمة ووطد النظام الادارى في شمالي فلسطين ثم عاد سالبا ظافرا الى طيبة (١) . ولكي يتصور القارئ الصعوبات التي قاساها تحوتمس الثالث في حروبه الأسيوية يجدر به أن يطلع على الأحوال التي قاستها جنود نابوليون في تلك المنطقة في أثناء زحفها من مصر الى مدينة عكا التي تبعد عن حدود القطر المصرى بقدر المسافة التي تبعد بها مجتو ، وعلى المصاعب التي لاقاها اللورد النبي أخيرا وقت زحفه على الترك في الجهة نفسها (مأخوذة باذن الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم بلامعة كبرديج صحيفة ٧٢ طبعة ١٩٢٥ — القسم المصرى) . ولا غرابة اذا علمنا أن تحوتمس الثالث لما عاد الى طيبة مفرحاً سالبا غانما أقام ثلاثة أنواع من "أفراح النصر" مدة كل منها خمسة أيام احتفالاً بنصره الأسيوى ، ووافق وقت هذه الأعياد معاد العيد الأول والثانى والخامس لآمون على حسب التقويم السنوى . وقد احتفل بأخر هذه الأعياد الثلاثة في معبد تحوتمس الثالث الذى كان قد أنجز حديثا وقتئذ بسفح طيبة الغربى ، فكان هذا أول عيد أقيم بذلك البناء . وصارت هذه الأعياد بعد ذلك ثابتة ووقفت لها الخيرات والنفقات للتمكن من إحياؤها كل سنة (٢) . ولما حل معاد أكبر أعياد آمون وهو أوبت الذى تبلغ مدته أحد عشر يوما وقف تحوتمس الثالث على ذلك المعبود إيراد المدن الثلاث التي استولى عليها جنوبي لبنان (٣) زيادة على ما أهدها من الهدايا الثمينة والأواني البديعة المصنوعة من الذهب والفضة وغير ذلك من الأسمجرات الكريمة التي غنمها من أرض الرتنو (٤) . وأراد أن يضمن لمعبد آمون إيرادا كافيا ليكون على الدوام مزينا بأفخر الأثاث والأمتعة والأدوات فأضاف الى تبرعاته السالفة له أراضى واسعة بالوجه البحرى والوجه القبلى وقطعانا من الأغنام والخدم المزارعين الذين دخلوا في حوزته بانتصاره على البلاد الأسيوية (٥) وهكذا وضع أكبر حجر أساسى في زيادة ثروة معبد آمون حتى فاق هذا المعبد في الثروة معابد القطر جميعها . ثم اتضح له أن المعبد القديم لا يتناسب مع ماليته العظيمة خصوصا وأنه أصبح الآن المعبد الرسمى لامبراطورية عظيمة زاوية ، زد على ذلك أن الساحة التي شيدها تحوتمس الأول بالكركك هدم ثلث سقفها وبعض عمدها وقما باشرت الملكة حتشبسوت نصب مستلها ، فصارت الجناح الجنوبي لتلك الساحة بلا سقف ولا عمد ولم يبق في جناحها الشمالى الا أربعة عمد من خشب الأرز وعمودان من الحجر الرملى (٦) ، ثم ان المباني التي شيدها تحوتمس الثالث حول مستلتي حتشبسوت شوهدت ذلك المعبد أيضا (٧) ، ومع هذا كانت هذه القاعة عزيزة في نظر تحوتمس الثالث لأن آمون اختاره ملكا على مصر فيها . ولهذا الأسباب استبدل الملك بالمهندس تحوتى الذى كان مواليا لحتشبسوت مهندسا آخر يدعى من خبز رغ سينب (٨) ومعهناه تحوتمس الثالث المتمتع بالصحة لإخلاصه له وأمره بأن يصلح الجناح الشمالى للساحة المذكور وأن يستبدل بعمدها الخشبية أخرى

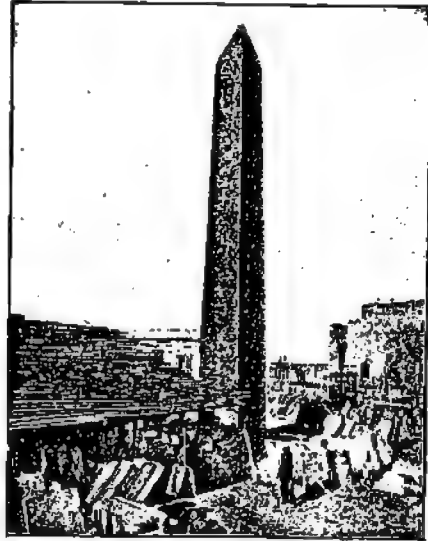
(١) ٢: ٤٩٩ و ٤٠٩ — ٢: ٥٥٠ — ٥٣ — ٢: ٥٥٧ (٢) ٢: ٥٥٨ و ٥٤٣ — ٥٧
 (٣) ٢: ٧٧٢ (٤) ٢: ٣٠٦ (٥) ٢: ١٠٠ (٦) ٢: ٥٩٦ و ٥٥٥ (٧) ٢: ١٠٠ (٨) ٢: ٧٧٢



شكل ١١٥ — منظر لواجهة آمون المروقة الآن بسموه (مأخوذة عن شيندورف)



شكل ١١٧ — قائمة بأسماء المدن
الأسبوية التي استولى عليها تحوتمس
الثالث على جدران معبد الكرنك



شكل ١١٦ — مملكة تحوتمس الثالث كما كانت
مقامة بالاسكندرية قبل نقلها الى نيويورك

من الحجر الرملي^(١)، أما الجناح الجنوبي فقد ترك وشأنه . وفي هذا الجناح المرمم كان عوتمس الثالث يحتفل ببعض أعياد انتصاراته الأولى مخصصا الباقي منها لمعبده الذي وجبه لآمون وهو في سهل طيبة الغربي . ويستدل من تشييد عوتمس الثالث لمعبد بتاح الصغير القريب من معبد الكرنك العظيم بعد رجوعه متصرا من غزوته الأولى^(٢) أنه أظهر سخاء لمعبودى عين شمس ومنف القديمين ، ولا يخفى أن معبد عين شمس كان معتبرا بمعبد الحكومة الرسمي لأن رع كان معتبرا شكلا آخر لآمون .

وأخذ عوتمس الثالث يركز امبراطوريته على أساس مكين . لكنه يلاحظ أن الملكة حمتشيسوت لم تقم بحروب في أثناء حكمها بآسيا ولذا ضعف النفوذ المصري هناك كثيرا ، وعليه فلم تكن حملة عوتمس الثالث الأولى مع شدتها كافية للقضاء على كدش عدوة اللدود . لذلك فضل أن ينظم ويهيئ ما أخضعه من بلاد آسيا أولا ثم يزحف تانيا على أعدائه . وفي السنة الرابعة والعشرين من حكمه زحف بجيوشه الحرارة على آسيا سائرا في الطريق المتخني الطويل محترقا شمالي فلسطين وجنوبي سوريا فتقاطر عليه حكام تلك الجهات مظهرين له ولاءهم وخضوعهم "حيثما طاف أو ضرب قباهه"^(٣) . وكانت أخبار نصره الأولى بلغت آشور التي كانت وقتئذ في عصفوان شبابها فرأى ملكها أن الأصوب له معاملة الامبراطورية المصرية العظيمة بالحسنى فأرسل لعوتمس الثالث حال وصوله الى سوريا هدايا جزيلة من الأحجار الكريمة والخليل المطهمة فاعتبرها المصريون وقتئذ جزية اشارة الى ولاء آشور لمصر^(٤) والمرجح أن هذه الحملة لم تقع فيها مشاحنات ولا وقائع حربية .

وعاد عوتمس الى طيبة فوصل اليها في أكتوبر كسابق غزوته وحينئذ صمم على توسيع الكرنك لتكون في نظامها مناسبة للامبراطورية الجديدة . ولما كان رسوب غرين النيل في قرار التهرقع مستوى مائه حتى أوصله زمن الفيضان الى فناء المعبد اضطر عوتمس الثالث أن يرفع مستوى أرض ذلك المعبد ، فهدم المدخل البديع الذي شيده أمنتحتب الأول . وفي أواخر فبراير في عيد مبدأ الشهر القمري الذي وافق وقتئذ عيد آمون العاشر رأس الملك احتفالا عظيما لوضع أساس البناء الجديد الذي صمم على تشييده بالكرنك^(٥) . وقد زاد هذا الاحتفال أهمية خروج تماثيل آمون ليشهد الاحتفال واشترك عوتمس الثالث في شد الحبل المستعمل لقياس أبعاد الأساس^(٦) . وليلاحظ أن وجهة المعبد الأصلية هي في الجهة الغربية لكن مستلتي حمتشيسوت المنصوبتين في ساحة عوتمس الأول المهذمة كانتا عقبتين في سبيل توسيع البناء في تلك الجهة . زد على ذلك أن عوتمس الثالث لم يتمكن ولم يرغب في تشييد المباني حول مسلات والده القائمة على مدخل المعبد الغربي ولذلك صمم أن يشيد ساحاته الشائعة ذات العمد العظيمة في طرف المعبد الشرق حيث توجد الى الآن باقية ومعتبرة إحدى أبنية طيبة الكبرى . وأكبر هذه الساحات واحدة يبلغ طولها حوالي مائة وأربعين قدما وهي موازية لمحور المعبد الرأسي وعرفت باسم "عوتمس الثالث العظيم الآمار" وحافظت على هذا الاسم مدة ستمائة وخمسين سنة بعد ذلك^(٧) . ويوجد خلف هذه الساحة قدس الألفاس

(١) ٦٠٠-٦٠٢ ٦٠٩:٢ ملاحظة (٢) ٤٤٧:٢ و ٢٥٠:١ (٣) ٤٤٦:٢ (٤) ٤٤٦:٢ (٥) ٦٠٨:٢

(٦) شرح (٧) ٢: صحيفة ٢٢٧ ملاحظة (و)

تحيط به نهمسون قاعة تقريبا ، وقد خصصت احداها وهي الجنوبية لقراءة الدعوات والصلوات لذكرى أجداد نخوتس الثالث^(١) . وتتصل بهذه القاعة أخرى أمر الملك بكتابة أسماء أجداده عليها وبالأكثر من القرايين لهم وعمل تماثيل لأجسادهم ، ولا تزال قائمة هذه الأسماء محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس . وحديثا عثر على تماثيل عدة لأجداد نخوتس الثالث في الحوش الجنوبي للعبد حيث خبئت وقت الحرب بقيت سليمة الى أن كشف عنها .

وفي السنة التالية (أى السنة الخامسة والعشرين من حكم نخوتس الثالث) ذهب الى بلاد آسيا وجعل همه تنظيم أملاكه فيها واعتبرت فيما بعد النصف الجنوبي لامبراطوريته المقبلة ، أما الجزء الشمالى فكان لا يزال عاصيا . ثم عاد الى طيبة فوجد مبانيه بالكرك بلغت من الفخامة درجة كبيرة فأمر بنقش جدران إحدى القاعات بنباتات وحيوانات آسيا التي سبها وجاء بها ليقدمها الى معبد آمون^(٢) وبحيرته المقدسة التي شيد حولها إفريزا جميلا .

ولم تصل الينا أخبار عن رحلة نخوتس الثالث الرابعة بآسيا لكنه يستدل من قرائن الأحوال أنها وجهت للغرض نفسه الذى ذهب لأجله في رحلاته الثلاث السابقة . واتضح لنخوتس وقتئذ أن غزوه كدش عن الطريق الواقع بين سلسلتى جبال لبنان يعرضه لخطر اذا لم يخضع أولا بلاد فينقيا التي على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، كما أنه تأكد أنه يستحيل عليه غزوه أرض النهرين قبل أن يخضع كدش المسيطرة على وادى نهر (العاصى) الأورونط ولذلك قام بعدة غزوات على شاطئ البحر الشمالى ليتخذ في المستقبل قاعدة حربية في حروبه مع كدش ، ومتى نجح في ذلك سهل عليه الزحف شمالا من الشاطئ على بلاد متانى واقليم النهرين جميعه . ولا شك أن هذه الخطوات سديدة لدرجة يستحيل على أى ضابط حربى حديث أن يتنكر أحسن منها بحيث تناسب أحوال تلك العصور أو أن يخزها بمثل ما أنجزها نخوتس من الدقة والمثابرة . والحق يقال ان الحلفاء لو اتبعوا في الحرب العظمى هذه الخطة في حرب الترك لغازوا بالنصر هناك في أقل من سنة واحدة (ماخوذ باذن الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم بجامعة كبريدج صحيفة ٧٤ طبع ١٩٢٥) وقد جهز لذلك أسطولا تحت قيادة القائد الأمين نييامون^(٣) الذى خدم نخوتس الأول سابقا . وفي السنة التاسعة والعشرين عزم على القيام بغزوته الخامسة فأبحر بأسطوله الضخم الى المدن الشمالية على شاطئ فينقيا التى لأول مرة في حياته ، ولا بد أنه قد نقل معداته الحربية وجنوده على أسطوله لأنه بدأ بأعماله الحربية في فينقيا قبل أن يخضع كدش وجوبى تلك البلاد . ولا يبعد أنه توصل الى التروى على شاطئ فينقيا الشمالى باتفاق ودى سابق مع مدينة صور (Tyre) لأنه ورد في الآثار أن أحد القراعنة عامل هذه المدينة معاملة خصوصية بأن اعتبرها مدينة حرة^(٤) . وبدهى أن المدينة المذكورة لم تقدم على إبرام مثل هذا الاتفاق الا حفظا لتجارتها من الكساد وتخلصا من نير الجزية أو على الأقل من بعض شروط المستقبل . ولم نهند للآن الى أول مدينة استولى عليها نخوتس الثالث

(١) ٦٠٤:٢ - ٥ (٢) ٥٢ - ٤٥٠:٢ (٣) ٧٧٩:٢ (٤) خطابات العازة ، لوتكر ، لوح ٣٣ رقم ٤٢ ٧٠٤ ظهر ١٢ ملاحظة

وقتشذ لكنه يغلب أنها على الشاطئ مقابل تونب (بعلبك ؟) والظاهر أنها كانت مدينة غنية لأن تحموس استولى فيها على غنائم كثيرة ، وورد أن هذه المدينة كانت تحوى معبدا لآمون^(١١) شيده أحد أسلاف تحموس الثالث (ربما كان تحموس الأول أو أمنمحات الأول) . في ذلك الوقت أيقنت المدن الداخلية للبلاد أن نجاح هذه الضربة الموجهة اليهم معناه دمارهم وهلاكهم فبادر أهلها بإرسال القوات والمدد لمحاربة المصريين وكانت مدينة تونب (بعلبك ؟) أول من قام بذلك^(١٢) لأنها تأكدت أن سقوط المدينة المجهولة المذكورة سابقا يعقبه سقوط تونب (بعلبك ؟) أيضا . أما تحموس الثالث فاستولى أولا على أسطول المدينة المجهولة^(١٣) ثم زحف مسرعا بجيشه الى الجنوب نحو مدينة أرواد النبعة (أرمادا) فحاصرها مدة يسيرة اضطر في أثناءها لأن يحث الأشجار المحيطة بها من أصولها كما فعل بمدينة مجدو فسلمت له بعد مدة يسيرة^(١٤) ثم استولى على خيراتها الفيضية الجزيلة . وكان ذلك وقت الخريف والأشجار محملة بالفواكه اللذيذة فوجد المصريون هناك النبيذ يتدفق من معاصره كالنساء والحبوب مكدسة على تلال المدينة بكيات تفوق رمل الشاطئ فأخذ منها الجيش المصرى جزا عظيما^(١٥) . واستحال على تحموس أن يقيد جيشه بالمحافظة على النظام في الأيام الأولى لهذا النصر ، فقد جاء أن الجنود المصرية شربت الخمر وأكثرت من الأكل والشرب والتضميمخ بالمطريات كما كانت تفعل في الأعياد بمصر^(١٦) . ثم تقدم حكام مدن شاطئ فينيقيا مظهرين الخضوع والولاء لتحموس وفي أيديهم الجزية^(١٧) . وهكذا استولى تحموس على جزء من شاطئ فينيقيا الشمالى اتخذ فيها بعد قاعدة حربية لغزو البلاد المجاورة ، ثم عاد الى مصر بجرا^(١٨) ويطن أن هذه العودة البحرية لم تكن الأولى من نوعها .

الى هنا مهدت السبل وأعدت الوسائل لغزو كدش لأن تحموس الثالث أخضع تماما البلاد الجنوبية وكذا الجزء الشمالى للشاطئ البحرى نتيجة غزواته الخمس ، وعليه صمم تحموس الثالث على القيام بغزوة سادسة يسحق فيها كدش عدوه اللدود . فى السنة الثلاثين من حكمه سافر تحموس الثالث بجرا الى فينيقيا فوصل اليها في أواخر الربيع أى بعد موسم المطر وأترل جنده فى صميرة (Simyra)^(١٩) على فم النهر الكبير (Eleutheros) ثم زحف فى هذا الوادى متجها رأسا نحو كدش^(٢٠) لأن هذا الطريق أقصر وأسهل طرق كدش من ساحل فينيقيا الشمالى ، زد على ذلك أنه الطريق الوحيد الصالح للأجاءات الحربية واختراق المنطقة الجبلية الى كدش وهى غربى نهر الأورونط فى الطرف الشمالى للوادى الذى هو بين سلسلتى جبال لبنان . فى ذلك المكان تقهى سلسلة جبال لبنان الشرقية (Anti-Lebanon) معترجة فى السهل الذى هو بالجنوبى الشرقى للمدينة (راجع خريطة رقم ٥ و ٧) . ويفترع من نهر الأورونط غربا فرع صغير شمالى كدش وملاصق لها تماما ولذلك كانت هذه المدينة بين ملتقى هذين النهرين . وكانت هناك قناة أيام تحموس الثالث لا تزال آثارها باقية للآن تصل هذين النهرين بعضهما ببعض وتكمل الحلقة المائية

(١١) ٤٥٧:٢ - ٩ (٢) ٤٥٩:٢ (٣) ٤٦٠:٢ (٤) ٤٦١:٢ (٥) شرحه ٤٦٢:٢ (٦) شرحه (٧) ٤٦٠:٢ (٨) ٤٦٣:٢ (٩) ٤٦٤:٢ (١٠)

حول كدش . زد على ذلك أنه كان هناك خندق داخل هذه الحلقة المائية يحيط بالمدينة أيضا ويجعلها حصنا منيعا لا نظيره في سوريا رغم وقوعه في سهل مسطح . ولا يحظ أن موقع كدش الجغرافي ذو أهمية جغرافية كبيرة لأنها مشرفة على وادي الأورونط وعلى الطريق الموصل من الشاطئ الى داخلية البلاد مسافة طويلة شمالا وجنوبا محاذيا للنهر الكبير^(١) .



خريطة رقم ٥ : مدينة كدش القديمة والمعروفة الآن ببل النبي مندوح
تظهر التلال الأثرية الواقعة بين نهر الأورونط على اليمين وفقره
على الشمال (مأخوذة عن كولاوي)

وقد أيقن نحوتمس الثالث تماما وقتئذ أن التوغل في داخلية البلاد مستحيل ما لم يكن هذا الطريق في قبضته ، ومن ذلك يتضح أن الاستيلاء على كدش كان أمرا صعبا . ومن دواعي الأسف أن الكاتب الكاهن الذي سجل أخبار هذه الحرب أوجز كثيرا في الكلام على سقوط كدش فقال : " ان جلالة الملك لما وصل الى كدش تغلب عليها ومنع عنها الغذاء ثم قطع أشجار غاباتها وحصد حاصلاتها"^(٢) . ويظهر لنا من هذه الرواية المختصرة أن نحوتمس اتبع مع كدش الطريقة نفسها التي استعملها مع مجدو وهي المذكورة سابقا وتتلخص في قطع الأشجار من الغابات وتشييد سور محكم حول المدينة لحصارها ومراقبة جيشه لها من الخارج مستمدا غذاءه من خيرات حقولها المجاورة ، وهذا الحصار استغرق فصل الربيع حتى زمن الحصيد . والمعروف أن المصريين هاجموا المدينة أكثر من مرة لأن القائد المصري

(١) راجع كتاب معركة كدش للألف صحيفة ١٣ - ٢١ و٢٩ . وأيضا هذا الكتاب صحيفة ١٧١ (٢) ٢ : ٢٥٠



شكل ١١٨ — أحمد فراعنة الإمبراطورية المصرية يقابل رسالة الأسيرين الطامنين جنزيم • وعظيم الرسل موشقون مصعرون مرتدون أزياء • يبتاعه • ويبتاع
 الأسعرون بلايسم الزئبق ولباس الرسل

أَمْيَحْتَبُ روى ما قام به من الأعمال مع تحوتمس وقت حصاره لكدش فقال انه أسر أميرين من هذه المدينة فكفاه تحوتمس على ذلك أمام الجيش بمحتين احدهما "سبع مصنوع من الذهب الخالص" والثانية "ذبايتان" علاوة على أدوات ثمينة أخرى^(١١). ولما طالت مدة حصار كدش ظن أهالى شاطى فينقيا أن تحوتمس الثالث هزم فامتنتع أرواد (أرمادا) عن دفع الجزية العظيمة لمصر مع ما عاتته من الخسائر وقت هجوم المصريين عليها فى السنة السابقة ، فلما سقطت كدش أسرع تحوتمس بجيشه نحو صميرة وأسرع نوا الى أرواد (أرمادا) ليوقع عليها العقاب^(١٢). ولما حل فصل المطر عاد تحوتمس الى طيبة مستصحبا بعض أبناء الملوك والحكام لشمال سوريا ليعلمهم بتيه^(١٣) كما فعل سابقا بأولاد الحكام لمستعمرات آسيا الجنوبية .

وجاء عصيان أرواد (أرمادا) وقت حصار كدش درسا مفيدا لتحوتمس بعدم التوغل بعيدا عن نهر الأورونط نحو بلاد النهرين الا بعد اخضاع شاطى فينقيا تماما ، ولذا أمضى سنته التالية وهى الحادية والثلاثين من حكمه فى قمع كل حركة انفصالية تقوم بها بلاد فينقيا . ورغمما عن وجود الجيوش المصرية بمدينة صميرة فان ميناء أولازا (Ullaza) القريبة منها شقت عصا الطاعة على تحوتمس الثالث ، والسبب فى ذلك أن ملك تونب (بعلبك ؟) أرسل نجليه اليها ليجرضها على مناواة المصريين . ووصل تحوتمس الى ذلك الميناء الحقيقى فى ٢٧ أبريل^(١٤) وأخضعه بسرعة وأسّر أحد أنجال ملك تونب فيها^(١٥) ثم أتى اليه حكام المدن المجاورة كالمتعاد مظهرين له ولاءهم وخضوعهم . وبلغ ما استولى عليه منهم ومن المدينة المقهورة ما يقرب من مائة وخمسة وثمانين رطلا من الفضة وكميات كبيرة من خيراتهم الطبيعية^(١٦) . وسافر الملك على مهل من ميناء الى أخرى منظما الادارة ومظهرا سلطته وقوته^(١٧) . باذلا همته بأن تكون جميع المرافق مزودة بالأغذية الكثيرة فى السنة المقبلة لأنه عزم وقتئذ على غزو بلاد النهرين . ولما رجع الملك الى مصر وجد رسل الجنوب (وهى النوبة على الأرجح) وصلوا ليقدموا بلالته جزيتهم^(١٨) فاستج من ذلك أنه اتبع سياسة الشدة فى أقصى جنوبى مملكته كما اتبعها فى مستعمراته الشمالية .

وتطلبت الاستعدادات الحربية التى اتخذها تحوتمس الثالث لغزو بلاد النهرين سنة كاملة بعد رجوعه الى مصر فتأخر لذلك الى ربيع السنة الثالثة والثلاثين من حكمه ، وحينئذ سافر بجرا مع جنده حتى وصل الى ميناء صميرة فأنزله بها قواته^(١٩) ، ولا يخفى أن هذه الغزوة كانت الثامنة للملك بتلك الجهات . بعد ذلك زحف فى داخلية البلاد للمرة الثانية متبعا طريق كدش ثم يم شمالا واستولى على مدينة كتنّا (حصص ؟) (Ketne)^(٢٠) وسار متبعا نهر الأورونط حتى وصل الى مدينة زنزار (Senzar) حيث حارب أهلها واستولى على المدينة . وقد أبدى قائده المدعو أممنجب شجاعا عظيمة فى تلك المعركة نال لأجلها مكافأة الشرف للمرة الثانية^(٢١) . والغالب أن تحوتمس غادر نهر الأورونط وعم مسرعا نحو بلاد النهرين ، لكنه اشتبك هناك مع قوة معارضة فى معركة بسيطة

(١) ٥٨٥:٢ (٢) ٤٦٥:٢ (٣) ٤٦٧:٢ (٤) ٤٧٠:٢ (٥) شرحه ٤٧١:٢ (٦) ٤٧٢:٢ (٧) ٤٧٤:٢ (٨) ٥-٤٧٤:٢ (٩) ٤٧٦:٢ (١٠) ٥٩٨:٢ (١١) ٥٨٤:٢ (١٢)

أسر فيها أمتحجب ثلاثة أسرى^(١) ثم سار الملك بدون معارضة تذكر حتى وصل الى تل وان (Wan) غربى حلب فاشتبك هناك في معركة كبيرة أسر فيها أمتحجب ثلاثة عشر أسيرا لكل منهم رخ من البرنز المطعم بالذهب^(٢)، واستتبع من ذلك أن هذه الجنود المعادية هي حرس ملك حلب الخاص، ولا بد أن يكون تحوتمس الثالث استولى وقتئذ على حلب ولولاه لاستحال عليه السير بسرعة الى الأمام كما فعل . ثم عزج شمالا حتى بلغ أرض النهرين فاستولى على مدنها وأتلف أمكنة تلك البلاد المعادية للعبنة^(٣) . ولا يخفى أن هذه البلاد كانت تحت سلطة ملك متانى وقد عبثت الجنود المصرية هناك بوادى الفرات كما فعلوا أيام ملكهم السابق تحوتمس الأول منذ خمسين سنة تقريبا .

بعد ذلك عزج تحوتمس الثالث شمالا حتى وصل الى مدينة كَارَشِيمِشْ فالتحمت جنوده هناك بجنود ملك متانى عدو تحوتمس اللدود في معركة شديدة انتهت بهزيمة متانى هزيمة تامة ففتر جنودها هارين غير ناظرين وراءهم فكانوا وقتئذ كقطعيع الأغنام^(٤) . ولا بد أن يكون أمتحجب تتبع العدو شرقى الفرات لأنه روى أنه عبر النهر عند رجوعه لما أحضر أسراه الى جلاله ملكه^(٥) . عندئذ تحقق ما كانت تصبو اليه نفس تحوتمس الثالث بعد حرب دامت عشر سنين فقد وصل جلالته آنحرا الى نهر الفرات ثم عبره ودخل بلاد متانى ، وقد نصب جلالته هناك أترا حجرياً أظهر فيه حدود مملكته فأتى بذلك شيئا لم يتمكن أجداده من الافتخار به سابقاً^(٦) . ثم اتضح لتحوتمس أن كل توغل في تلك الجهات يستلزم تمضية فصل الشتاء فيها ، لكنه كان في الوقت نفسه شديد الحرص على جنده فلم يشأ أن يعرضهم لبرد تلك البلاد الشمالية فيخسرهم بعد ما أصبحوا مدربين على الحرب أولى عزم فيها ليس من السهل تجنيد مثلهم اذا توفوا ، لذلك رجع الملك الى شاطئ الفرات الغربى سالمًا ونصب هناك لوحاً أثريا بجوار لوح والده تحوتمس الأول^(٧) . ولما آن الوقت وحصدت الجيوش المصرية زرع وادى الفرات^(٨) اضطر تحوتمس أن يعود الى وطنه لكنه قبل أن ينجز هذا قام بمأورية شاقة بجهة مدينة ني (Niy) العاصية التي كانت تهدد أعماله في الفرات فتقدم اليها متبعا بحرى النهر واستولى عليها بدون صعوبة على ما يظهر^(٩) . ولما انتهى من حربه نظم جماعة لصيد الفيلة في اقليم ني — وقد بادت الفيلة الآن في هذا الاقليم — واصطدم هو ورجاله مع قطعيع من هذه الحيوانات الوحشية التي آوت شمالى سوريا وكان عددها مائة وعشرين فيلا فهجم على جلالته فيل كبير كاد يقتك به لولا تدخل القائد أمتحجب فى الأمر واسراعه فى تخرطوم الوحش الضارى ، وعند ذاك استشاط الحيوان غيظا من هذا القائد وهمم بالفتك به لكنه لاذ الى ما بين صخرتين على حافة احدى البرك هناك فنجأ بذلك وهكذا حوّل هذا القائد الى نفسه الخطر المهدق بملكه من جراء هذا الوحش فكاناه تحوتمس على هذه الشجاعة بسطاء^(١٠) .

٥٨١: ٢ (١) ٥٨٢: ٢ (٢) ٤٧٩: ٢ (٣) ٤٧٩: ٢ (٤) ٥٨٣: ٢ (٥) ٤٧٨: ٢ (٦) ٤٨١: ٢ (٧) ٤٧٨: ٢ (٨) ٤٨١: ٢ (٩) ٥٨٨: ٢ (١٠)

في ذلك الوقت أتى أمراء بلاد النهرين جميعا ليظهروا الولاء والخضوع لجلالة ملك مصر وأحضروا معهم الجزية اثباتا لذلك^(١) . وما يدل على مبلغ صيت نحومس هناك وقتئذ أن بابل البعيدة استصوبت عدم مناوأة فرعون فأرسلت إليه هدايا ثمينة من اللازورد^(٢) . والأدهى من هذا أن مملكة خيتا (الحيتيين) التي كانت مسيطرة على الأقاليم الآسيوية المجهولة للمصريين أرسلت إلى نحومس الثالث أيضا هدايا ثمينة جدا يحملها رسل خصوصيون التقوا بنحومس في طريقه عائدا من النهرين إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، وهذه الهدايا عبارة عن ثمانى حلقات فضية كبيرة زنتها ثمانية وتسعون رطلا مع مقدار كبير من الأحجار الكريمة (المجهولة لنا الآن) والأخشاب الثمينة^(٣) . وتعتبر هذه أقدم معاملة معروفة بين ملك خيتا (الحيتيين ؟ الواردة أسمائهم في التوراة) والمصريين . ولما وصل نحومس الثالث إلى شاطئ البحر كاف حكام مرافقه تجهيز الأغذية والمعدات لجيشه في السنة التالية^(٤) . وهذه الطريقة سهل عليه إرسال المدد لأى مرفأ فينقى لاختراع أبة ثورة داخلية في مدة لا تتجاوز بضعة أيام . وليلاحظ أن قوة مصر البحرية وقتئذ بلغت درجة كبيرة خضع لها ملك قبرص كما فعل أيام المهد الصاوى ، وقد تمكن نحومس الثالث بأسطوله من بسط بعض نفوذه على جزر البحر الأبيض الشمالية وعلى الأقاليم الشرقى للبحر الأبيض المتوسط وعلى كثير من البلاد اليونانية غربى ذلك . قال القائد البحرى تحوتى أنه عين حاكما عاما على الأقطار الشمالية بما فيها من جزر البحر الأبيض المتوسط ، لكن يلاحظ أن هذه السلطة لم تعين وقتئذ الادفع الضرائب السنوية المفروضة على تلك الجزر لمصر .

وعاد نحومس الثالث إلى طيبة في شهر أكتوبر فوجد بعثته الحربية التي أوفدها إلى بلاد الصومال منتظرة أوبته ومعها أشياء كثيرة ثمينة وكميات كبيرة من الناج والأبنوس وجلد النمر والذهب وما ينيف على مائتين وثلاثة وعشرين ميكالا من المتر وعدد عظيم من العبيد ذكورا وإناثا وقطعان الغنم^(٥) . ودلتنا الآثار أن نحومس الثالث بسط نفوذه على الواحات غربى وادى النيل (شكل ١١٥) فصارت هذه الأقاليم ملكا لجلالته وعهد بإدارتها إلى بشير جلالته المدعو إنتف (Intef)^(٦) ، وهو رجل هريق الأصل من نسل أمراء قسم العرابة القريب من الواحة الكبرى (خريطة رقم ١٣) وليلاحظ أن هذه الواحة ألحقت بقسم العرابة واشتهرت قديما بنيذها الجيد . وعليه فلا بد أن نحومس الثالث نفذ مشروعاته بجهده العظيم متبعا في ذلك طريقة أجداده حتى بلغ نهر الفرات . وبدى أن جلالته اضطر أن يقاوم ملوك سوريا وشمالى فلسطين مجتمعين لا منفردين على عكس ما كان مع سلفه ، وبالرغم من اجتماعهم كسر شوكتهم التي كانت تحت قيادة منك كدش (عاصمة الهيكسوس قديما) وزحف بجيشه إلى الأقاليم الشمالية . ويستنتج مما ذكرنا سابقا أن جلالته استمر يصوب إلى أهالى تلك البلاد سهام الصدمة بعد الصدمة في حرب أشبه بمناورات الجورلا (Guerilla) حتى ظفر بهم ، وقد أثبت انتصاره هذا بأن نصب حجرا أثريا بجوار أثر والده الذى أقامه هناك قبل ذلك بجيلين . وفى هذه الحروب فاق والده فإنه عبر نهر الفرات وهو أمر لم يقم به فرعون مصرى سابق مطلقا . فملك هذه أعماله

(١) ٤٨٢:٢ (١) ٤٨٤:٢ (٢) ٤٨٥:٢ (٣) ٤٨٣:٢ (٤) ٤٨٦:٢ (٥) ٧٦٣:٢ (٦)

يقول له أن يفتخر ويباهى بفتوحاته منذ انتخابه آمون ملكا على مصر أى في مدى ثلاث وثلاثين سنة .
وللاحظ أن جلالة أمر مهندسه في العبارة المدعو يوم ربح أن ينصب مسلات له بطيبة
في السنة الثلاثين من حكمه (١) . ولما عاد جلالاته من انتصاراته الكبرى كان الاحتفال به قائما
على قدم وساق وكان ضمن قائمة أعمال ذلك الاحتفال نصب مسلتين كبيرتين بمعد الكرنك منقوش
على احداهما نصوص ترجمتها : "تحتس عابرنمحنى النهرين العظيم (أى نهر الفرات) مصحوبا بميشه
وكان التصريحه" وهذه المسلة منصوبة الآن بالاساتنة (٢) ، أما المسلة الثانية فقد بليت . والمعروف
أن معظم مسلات هذا الملك العظيم تلفت أو نقلت الى البلاد الأجنبية ولم يبق منها الا واحدة
منصوبة في محلها الأصلي حيث كانت سلطة هذا الملك العظيم قوية مهيبة . أما مسلاته المنقولة الى
البلاد الأجنبية فمنتشرة الآن في عواصم تلك البلاد من الاساتنة الى رومة الى لندن الى نيويورك
(شكل ١١٦) وللاحظ أن المسلتين الأخرين (المنصوبتين في لندن ونيويورك) على شاطئ
الإطلانتيك عملتا خصيصا لأجل الاحتفال بنصر الغزوة الرابعة وقد كانتا مقامتين سابقا على جانبي
مدخل معبد عين شمس (٣) .

ولما عظمت آثار تحوتس الثالث في طيبة نسي أهلها أن جلالاته كان فيما سبق كاهنا وضيعا
في معبد آمون حيث نصب آثارا كالمسلات الشائخة ، ولا غرابة في ذلك فقد أصبح القوم يرون
نقوشا هيروغليفية تاريخية على جدران ذلك المعبد تبينهم بانتصارات الملك وعظيم أعماله بآسيا وتذكر لهم
الغنائم الثمينة التي لا تحصى والتي استولى عليها الجيش المصرى وتبين لهم الهبات الملكية الجزيلة برسوم
بارزة فيعرفون منها ما جاد به لمعبد آمون . وقد نقش جلالاته على جدران ذلك المعبد ثلاث مرات
أسماء مائة وتسع عشرة مدينة استولى عليها في غزواته الأولى (شكل ١١٧) على ذلك ما يزيد على
مائتين وثمانية وأربعين اسما لمدن أسوية خضعت له في غزواته الحديثة (٤) . وبصرف النظر
عن قيمة هذه السجلات في نفوس الطيبين فهي ذات قيمة عظيمة لنا ، لكنه من الأسف أن هذه
النقوش ملخص فقط لأعمال تحوتس الثالث قام بنقشها كاتب كاهن لظهور الأصل في ثروة معبد
الكرنك وشرح طريقة تحوتس الثالث في سداد الدين الذي عليه لآمون وجزيل انعامه عليه بالانتصارات
الباهرة . من ذلك يتضح للقارئ أن هذه النقوش ليست في الحقيقة الا نقوشا تاريخية بيني عليها
تاريخ مهاجرتها الذي هو أول حاكم محنك معروف في التاريخ ، ولم يكن ضروريا لأهل طيبة أن يطلعوا
على هذه النقوش ليتأكدوا من أعمال تحوتس الثالث فجرد رؤيتهم لحديقة الكرنك وما تحويه من
الأشجار الأجنبية الكثيرة الواردة من سوريا وفلسطين والحجوانات الغربية عن مصر تكفيهم للاقتناع
بعظم أعمال ملكهم . زد على ذلك أن رسل مستعمرات مصر الشمالية والجنوبية كانت ترد تباعا على
القصر الملكي كما أن السفن الفينيقية الضخمة التي لم يرها المصريون سابقا كانت ترسو على شاطئ طيبة
شحونه بما تشبه الأنفس وتلد الأعين من خيرات تلك البلاد السحيقة ، فكان القوم يرمقون
بين الأبار محمول تلك السفن من أوان ذهبية وفضية ومصنوعات دقيقة باهرة واردة من صور

(١) ٤-٢٨٢:٢ (٢) ٣١-٦٢٩:٢ (٣) ٦-٦٣٢:٢ (٤) ٢-٤٠٢:٢

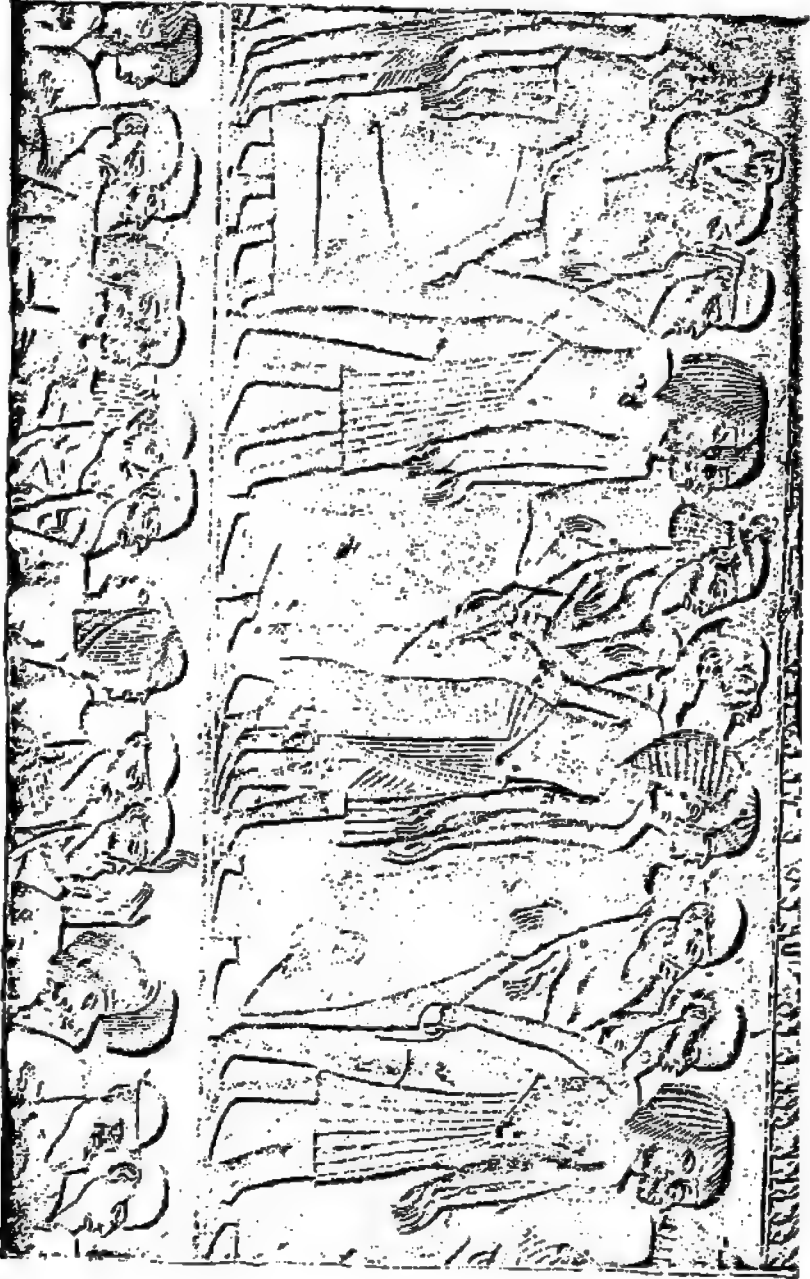
وآسيا وقبرص وكريت وجزر الأرخيل اليوناني والأناث البديع المصنوع من العاج والابنوس والمجالات المرصعة والمهّمة بالذهب وخليط الذهب مع الفضة وأدوات الحرب المصنوعة من البرنز والحلج المسوّمة المجلوبة لفرعون والكيات التي لا تحصى من حاصلات الحقول والحدائق ومزارع الفواكه والتبذ الى غير ذلك من خبرات الحقول . علاوة على هذا كانت تجيء على هذه السفن جزية تلك البلاد النائية كل سنة محروسة وهي على شكل حلقات تجارية كبيرة من الذهب والفضة يبلغ ثقل بعضها اثني عشر طلا تقريبا . أما الضرائب التي كانت تجبي من التجارة اليومية فكانت تدفع بشكل حلقات تجارية أيضا لا يتجاوز وزن كل منها بضع قحط . واعتاد أهل طيبة أن يشخصوا في الشوارع لمراقبة أهل آسيا وهم يتكلمون بلغتهم الأجنبية سائرين زرافات ووحدا حاملين جزيتهم الثمينة ليوردوها لخزانة فرعون حيث يقابلهم الوزير تجارح في الأحوال الاعتيادية ، وإذا كانت الجزية ثمينة جدا كان هذا الوزير يعرضها على جلالة فرعون مصر وهذا يستقبلها استقبالا رسميا وهو جالس على عرشه الملكي تعلوه الأبهة والجلال ، بعد ذلك يمدح وزيره على ما بذله من همة وتعب ثم يورد الأسويون جزيتهم فمسجل بدقة في السجلات الرسمية . وكان الوزراء وموظفو المالية كثيرى الولوع برسم تلك المعاملات على جدر مقابريهم حيث تشاهد الآن بطيبة^(١) (شكل ١١٨) . ولا بد أن تكون قيمة تلك الثروة عظيمة جدا في تلك الأزمنة فقد ورد مره أن الخزنة المصرية حوت ما ينيف على ثمانية آلاف وتسعمائة وثلاثة وأربعين رطلا من خليط الذهب والفضة^(٢) . أما النوبة فكانت مثارة على دفع جزيتها كل سنة للندوب السامى الذى يوفده اليها ، وكانت هذه الجزية من الذهب والعييد السود والغم والابنوس والعاج والحجوب . وكان أهل طيبة ولوعين برؤية جزية السودان المتباينة الأشكال والألوان وهي تخرج من السفن الراسية على الشاطئ وتسير في شوارع مدينتهم الى الخزنة الملكية . واعتاد أهل طيبة أن يروا مليكهم محمّد الثالث عائدا كل سنة من أسفاره في أواخر شهر أكتوبر أو أوائل شهر سبتمبر مصحوبا بأسطوله الضخم الكبير فيرسو بمرقا عاصمتهم ، حينئذ كان القوم يكبرونه عند ما يشاهدون الكيات العظيمة من ثروة آسيا والعدد العظيم من الأسويين موثوقين منقولين على الألواح الخشبية الى الشاطئ ثم مقدمين زرافات الى طيبة حيث يمضون حياتهم عبيدا لفرعون (شكل ١١٩) . ويمتاز الأسويون على الآثار بطول لحاهم ، وقد كان المصريون يبغضونها ، وشعورهم كثيفة مسدولة على أكتافهم وملابسهم متعددة الألوان ومنسوجة من الصوف خلافا للباس المصرى الأبيض الناصع ، وجميع هؤلاء الأسويين موثوقون عند الكوعين من الخلف أو فوق الرعوس ، وتشاهد أيديهم أحيانا موثوقة في أغلال خشبية يضاوية الشكل ، واعتاد نساء هؤلاء القوم حمل أطفالهن على أكتافهن في كيس من الحصير ، وكانت رطانتهم وأزيائهم موحية لسخرية المصريين حتى أكثر الهواة وقتئذ رسم تلك المناظر في أعمالهم . وكثيرا ما كان هؤلاء الأسرى يخدمون أتباع الملك أو يوزعون على قواده ، لكن السواد الأعظم منهم كان يرسل حالا لخدمة أراضى المعبد وأملاك فرعون أو بناء آثار جلالته أو عماراته^(٣) وأخصها تلك العمارة الأخيرة ، وقد استمرت هذه العادة متتعة الى أيام صلاح الدين الأيوبي الذى استخدم أسرى الحروب الصليبية لبناء قلعة القاهرة ، وسرى كيف غير هؤلاء الأسرى كثيرا من شكل طيبة ونظامها .

(١) ٢٠٠ : ٦٧ - ١٠١٤٤٤ (٢) ٧٩١ : ٢ (٣) ٢٥٦١٣ - ٩

وكلما عاد الملك الى طيبة في الخريف لقضاء فصل الشتاء اعتاد أن يصرف وقته في تجهيز معدات حملة المقبلة التي كان يبدأ بها عادة بعد ستة أشهر ، ولذلك كان تعب الملك في ذلك لا يقل عن تعبته وقت الغزوات الآسيوية . زد على ذلك أنه كان يطوف في جهات القطر ليتفقد أعمال حكام أقسامه كي يمنع الرشوة وكل ما من شأنه ابتزاز أموال الأهالي وقت جمع الضرائب . كل هذا كان يقوم به تحوتمس الثالث بعد فراغه من الاحتفال بعيد أوبت^(١) . واعتاد كذلك أن يتفقد في سفره أيضا المعابد البديعة التي كان يشيدها أو يرمها ، وقد دللتنا الآثار أن جلالته تفقد ما ينيف على ثلاثين معبدا غير التالف منها الذي نجعل تاريخه . وقد أحيا جلالته إقليم الدلتا وأقام الآثار على امتداد نهر النيل من الوجه البحرى شمالا الى الشلال الثالث جنوبا فصارت آثارا كلالا كرى النيرة على البلاد ، وشيد عند مدخل الفيوم مدينة جديدة ومعبدا خاصا بها ، وصرف النفقات الباهظة عليهما ، وسخر أسرى حروبه في تشييد المباني الشاغرة الملكية بجهة دندره وقفت والكاب وادفو وكوم امبو وجزيرة القيل وغيرها . واعتاد مدة اقامته في طيبة أن يبحث في أمور بلاده فكانت سلطته مباشرة في كل فرع من أفرع الحكومة وهذا غير ما كانت تتطلبه بلاد النوبة من العناية الكبيرة الخاصة بمناجم الذهب التي سيأتى الكلام عليها . واهتم تحوتمس الثالث بتثمين مناجم الذهب على طريق فقط فهدى في ادارتها الى موظف لقبه "بمدير أراضي الذهب التابعة لقفط"^(٢) . وهكذا لم يترك الملك موردا يتفقد منه البلا استغله . وتطلبت زيادة ايراد معبد آمون تنظيم ادارة شؤونه فزود كهنة ذلك المعبد بالعمليات والأوامر الشديدة لرفع شأن ذلك المعبد وزيادة ايراده^(٣) . وفي أوقات فراغه كان يرشد رئيس صناعة بالمعبد أو بالمصانع الملكية برسم يده الملكية لأوان يفضل استعمالها وقت عبادة آمون ، واستنتج من نقوش جدر الكرنك وما حوته من رسوم الأواني التي قدمها الملك الى صناعه ليصنعوا مثلها للعبود على شدة اهتمامه ومزيد عنايته ، وكثيرا ما افتخر رئيس الصناع الذى أعطى هذه الرسوم فنقش تلك الأواني على جدر معبد قبه ، ولا يزال هذان الأثران باقين بين أطلال طيبة للآن . ولتحوتمس فوق هذه الأعمال مآثر أخرى^(٤) فقد شيد جلالته صرحا عظيما جنوبى الكرنك وسورا شامخا حول هذا المعبد وحول حديقته وغابته .

أما حملات تحوتمس الثالث الحربية فكانت مرتبة منظمة كأعماله الادارية بطيبة فبمجرد انتهاء فصل المطر في فلسطين وسوريا كان يرافق جيشه في أسطوله الضخم ويبحر الى الموانئ السورية أو الفلسطينية حيث يقدم له الولاة ما يلزمه من الأغذية والمعدات الحربية يجلبونها من البلاد المجاورة . وجرى العادة أن يرافق الملك في حركاته كلها رئيس حجاجه المدعو إنتف العريق الأصل والملقب "بحاكم طيبة وقسم الواحات"^(٥) ، وكلما زحف تحوتمس الثالث في داخلية البلاد كان إنتف هذا في المقدمة يستطلع مقاومة الأعداء ، ولما حل بمدينة وأراد الميتم يجهز إنتف قصر حاكمها للملكة وقد قال إنتف : "إذا وصل سيدى مصحوبا بالسلامة الى المكان الذى أنا فيه كان يبدنى قد نظمته وجهزته بكل ما يحتاج اليه في البلاد الأجنبية ، وربما فاقت وسائل راحته ونعيه ما هو بالقطر المصرى . كيف لا وقد كنت أنظف الحجرات وأعطرها وأرتب أثاث كل حجرة على حسب

(١) ٥٨ : ٣ (٢) ٧٧٤ : ٢ (٣) ٥٧١ : ٢ (٤) ٥٧٥ : ٥٤٥ : ٢ (٥) ٧٦٣ : ٢



شكل ١١٩ - الأسرى الأسويديون يعرضون هبة الأمير الطوربة . ويغادر هؤلاء بطيخا المرسلة وبلادهم الكثيفة وهم يشربون
 من منقح موزوق الأيدي في رواق عشية ، ويتكلم كل اثنين من الأسرى بين حارسين صعبان . موزى في آخر الرسم أسراء
 حاملة لأطقاما . وكتابة هذا الرسم صادرة في شكل رقم ١٤٨ من هذا الكتاب (دار تحف لبنان)

ما يليق بها وكنت أرى السرور على وجهه" (١) . هذه الكلمات تذكر الفارئ بingham نابليون وقت حروبه فقد كانت تجهز له تماما حال وصوله ليلا يبد ما يتفقد جنده . وكان إنتف هذا يشرف أيضا على ترتيب مقابلات الملك وإدارة شؤونه وقت حروبه الكثيرة ، وإذا ما حضر رؤساء سوريا ليقدموا له الجزية ويعطوا له الولاء والخضوع كان إنتف يقدمهم الى جلالته . وكان هذا الأمير يجبر الولاة بالمبالغ والأشياء التي يتحتم عليهم تقديمها للملك ، وهو الذي كان يتسلم الجزية وهدايا الذهب والفضة والحيرات الطبيعية . وإذا أظهر بعض أفراد الجيش بسالة كان إنتف يجبر الملك بأمرها ويقرر المكافأة التي يستحقها ذلك الجندي السعيد الحظ (٢) .

وليتنا عثرنا على تراجم حياة قواد تخومس الثالث لأن فنصولها التاريخية مؤثرة في النفوس ، وما حادثة القائد أممجب الذي نجى تخومس الثالث من غائلة القيل بقطع عنطومه الا مثلا لما كان يحصل وقت استراحة الجنود في العراء بلا خيام ووقت اشتباك القتال . ولا شك أن هذه الأعمال مثل أعلى للشجاعة في أجل مظاهرها ، وسنرى فيما يلي مثلا آخر لبسالة أممجب وهو القائد الوحيد الذي نعرف عنه معلومات حقيقية لا غلو فيها . وأعجب الأهالي بما رأوه من شجاعة جنود تخومس الثالث فكثرت أحاديثهم وحكاياتهم الخرافية بشأنهم حتى تداولها القوم بشغف عظيم في أسواق وشوارع طيبة ، وقد عثرنا لحسن حفظنا على إحدى هذه الحكايات مدونة على صحيفة أو اثنين من قرطاس بردي خطها أحد الكتبة متخصص في أن أحد قواد تخومس الثالث المدعو تخوتى خدع حاكم مدينة يافا فأدخل جنده الى تلك البلدة مخبئين في سلال محمولة على حمير (٣) ، وهذه الرواية أصل قصة على بابا والأربعين لصا ، لكن رواية تخوتى هذه تمتاز عن قصة على بابا باختواتها على بعض الحقائق لأن تخوتى لم يكن شخصا وهميا بل كان حقيقة أحد قواد تخومس الثالث ، ولا تزال تجهل قبره للآن وربما كان بطييه وسرقه الأهالي وسلبوا منه الهدايا الثمينة التي أهداها تخومس الثالث اليه وهي اللاتمة بذلك القائد الباسل . وعثر على صحن فخمي بلدي محفوظ بدار التحف بالوشر منقوش عليه نصوص هذه ترجمتها : "هدية شجاعة وإقدام من تخومس الثالث الى الأمير الكاهن الذي كان لجلالته عاملا من حوامل السرور في كل بلد حل به وفي جزر البحر الأبيض المتوسط والذي ملا الخزانة سحر الازورد والذهب والفضة ألا وهو حاكم البلاد ورئيس الجيوش ومحبوب الملك وكاتب جلالته تخوتى" (٤) . وعثر أيضا على قطعة حل لهذا القائد محفوظة الآن بدار التحف ببلدن وصف عليها صاحبها بأنه "حاكم البلاد الشمالية" (٥) ومنه استدل أن تخومس الثالث عين تخوتى هذا حاكما على مستعمرات مصر الشمالية (٦) .

ولو أسعدنا الحظ وعثرنا على كتابة الكاتب ثانني (Thaneni) بشأن أعمال تخومس الثالث وإقدامه الشخصي وأعماله في الممارك الحربية لعلنا كل شيء عن هذا الملك تقريبا ، لأن هذا الكاتب أخبرنا أنه رافق تخومس في جميع غزواته وسجل كل ما حصل بالاسهاب ، واليك ترجمة ما قاله هذا

(١) ٧٧١ : ٢ (٢) ٧٦٣ - ٧٧١ : ٢ (٣) ٥٧٧ = ٢

From my own copy of the original : see Birch *Mém. sur un pâtre Egyptien* du Musée du Louvre (٤) Paris, 1858; and *Pierret. Salle lib. de la Gal. Egypt. Paris. 1869. No. 358, p. 87.*

(٥) راجع نسختي (٦) راجع صحيفة ٢١٣

الكاتب مفتخرا: "لقد تبعت الملك تحوتمس الثالث وشاهدت انتصاراته التي أحرزها في البلاد كلها . لقد أسرجلته أمراء زاهي (سوريا) أحياء وأرسلهم الى مصر واستولى على بلادهم كافة وقطع أشجار غاباتهم جميعها لقد سجلت على وجه الحقيقة جميع انتصارات جلالة في كل بلد" (١) . وهذه الأخبار التي ذكرها ثانيي هي التي كتبت على درج جلدی أشرنا اليه عند الكلام على الغزوة الأولى وحصار مجدو ، ومن دواعي الأسف أننا فقدنا هذا القرطاس التاريخي الثمين (٢) فلم يبق لدينا الا نقوش الموجودة على جدر الكرنك التي كتبها أحد الكهنة الذي جعل همه الاقتحار بالغنائم وما عاد على الكرنك من ايراد اثر تلك الحروب ، وهو لم يتعرض لذكر أعمال الملك بالدقة . واستنتج من ترجمة حياة أمنمحب أن ما جاء في نقوش الكرنك ليس الا قشورا للحقيقة الأصلية ، وعليه فقد أصبحنا نرجح في كل مباحثنا العلمية بشأن أخبار طيبة خاصة بتحوتمس الثالث أكبر قواد مصر الى نقوش الكرنك التي لم يدر بخلد كاتبها وقتئذ أن العالم أجمع سيتعطش يوما من الأيام اليها كما تعطش نحن الآن .

ولا يخفى أن مجرد وصول الجيوش المصرية الى الفرات لم يكن كافيا لاختضاعه على مدى الزمان . وليس تحوتمس الثالث ذلك الرجل الذي يعتمد على غزوة واحدة يشنها على تلك البلاد في السنة الثالثة والثلاثين من حكمه ، لذلك صمم في السنة الرابعة والثلاثين أن يفزوتك الجهات مرة ثانية فوصل الى سوريا في ربيع تلك السنة للقيام بحملته التاسعة (٣) . والظاهر أنه حصلت هناك بعض مشاكسات موضعية لأن جلالة استولى وقتئذ على ثلاث مدن في قسم نوج (Nuges) وهو المكان الذي شيد فيه حصنا في نهاية حملته الأولى (٤) ، واستولى كذلك على خيرات عظيمة ثم أسرع اليه حكام سوريا مظهرين ولاءهم وخضوعهم كالمادة ومحضرين الجزية الثمينة (٥) . وقد زودت الموانئ البحرية الأسطول المصري بسفن كثيرة وقلاع وغير ذلك من الأدوات اللازمة لإصلاح ما يطرأ على السفن من العطب (٦) . وامتازت جزية هذه السنة باشتغالها على مائة وثماني سبائك من النحاس تقرب زنة كل منها من أربعة أرتال علاوة على كيات عظيمة أخرى من الرصاص والأحجار الكريمة أرسلها ملك قبرص (٧) الذي لم يسبق له أن اعترف بسلطة تحوتمس بهذه الكيفية .

وفي هذه السنة أيضا امتدت سلطة تحوتمس الثالث جنوبا فأمر ابن حاكم قسم إريم (Irem) المتاخم للصومال وحفظه بمصر رهينة (٨) ، وقدرت جزية النوبة وقتئذ بما يقرب من مائة وأربعة وثلاثين رطلا ذهباً خالصاً علاوة على الكيات المعتادة من الأبنوس والماج والحبوب والأغنام والعيبد (٩) ، وهكذا امتدت سلطة تحوتمس الثالث من الشلال الثالث حتى نهر الفرات . ثم بلغ جلالة خبر اشتعال فتنة ببلاد النهرين وكان قد امتنع عن الذهاب الى تلك البلاد ستين سنين فشق الأهالي عصا الطاعة وانضم اليهم حكام تلك الجهات برياسة واحد منهم يظن أنه حاكم حلب الذي ورد ذكره في نصوص تحوتمس الثالث " بأنه قائد النهرين الخسيس" (١٠) وكبرت الفتنة فامتدت الى أقاصي

(١) ٣٩٢: ٢ (١) رابع صحيفة ١٩٢ (٢) ٤٨٩: ٢ (٣) ٤٩٠: ٢ (٤) ٤٩٤: ٢ (٥) ٤٩١: ٢ (٦) ٤٩٢: ٢ (٧) ٤٩٣: ٢ (٨) ٤٩٤: ٢ (٩) ٤٩٤: ٢ (١٠) ٤٩٨: ٣ (١٠)

البلاد الشمالية المعروفة "بآخر حدود الأرض" (١١) وهو الحد الذي تقبى إليه معرفة المصريين للعالم . وكانت تحوتمس يحدد دائماً استمداداته الحربية ولذلك تمكن من الوصول الى بلاد النهرين في ربيع السنة الخامسة والثلاثين من حكمه فاصطدم هناك مع جيوش أعدائه جهة أرينا (Araina) (١٢) المجهولة لنا والتي هي غالباً أسفل وادي نهر الأورونط . " حيثذبح الملك على هؤلاء الوحشيين ففروا مذعورين ثم سقط الواحد بعد الآخر أمام جلالته " (١٣) ولا يبعد أن تكون هذه المعركة هي التي ذكرها القائد أمنمحب بأنها حصلت بأرض تحسى (Tikhsi) (١٤) حيث قال إنه حارب أمام تحوتمس الثالث وقت التحام الجيوش فأسر غنائم كبيرة واستولى الملك على خدّة أسلحة . أما القائد أمنمحب فقد أسر ثلاثة أسرى كافاه عليهم تحوتمس مكافأة جزيلة . ولا شك أن الجنود المصرية استولت وقتلوا على غنيمه حربية كثيرة من خيل وأدوات حربية ودرع من البرنز ومجملات ممزوجة بالذهب والفضة (١٥) . بعد ذلك انكسرت شوكة بلاد النهرين واستسلمت لسلطة فرعون فلم تبد حراكاً لمدة سبع سنوات لأنها أيقنت كما أيقن قبلها حكام سوريا أن شوكة مصر منيعة وقوتها الحربية لا يستهان بها ولا يمكن مقاومتها .

ولم نهد الآن الى أخبار الستين التاليين لهذه السنة من حكم تحوتمس الثالث ولذلك لا نزال نجعل سبب حلتيه الحادية عشرة والثانية عشرة . لكنه لما كانت السنة الثانية والثلاثون من حكمه ظهر تحوتمس في جنوبي لبنان معاقبا إقليم نوج (Nuges) (١٦) الذي ذاق بطشه لأول مرة منذ خمس عشرة سنة . ووصلت الى الملك في هذه الغزوة هدية من ملك قرص وأخرى من إقليم صحيق يقال له أراباخيتيس (Arrapakhitis) صار فيها بعد أحد أقاليم مملكة آشور (١٧) . وفي السنة التالية اضطّر الملك أن يذهب الى جنوبي فلسطين ثانيا ليعاقب البدو وهناك أسر أمنمحب ثلاثة أسرى في معركة جهة نجب (Negeb) (١٨) . وأمضى الملك بقية حلتته الرابعة عشرة بسوريا للراعية وأرسل أوامره في هاتين الستين أن تبقى الموانئ مزوّدة بما يلزم جيشه وأسطوله من المعدات وقت حدوث اضطراب بغائى داخل . والغالب أن هذه البلاد استمرت تدفع جريتها بدون عناء في الستين الأربعين والحادية والأربعين من حكمه (١٩) . وأرسل ملك خيتا الكبير هدايا الى الملك تحوتمس الثالث اعتبرها الأخير جزية (١٠) .

وبالرغم عما قاساه أمراء سوريا وفلسطين وبلاد النهرين من شدة غزوات مصر فقد استمروا يشا كسبون مملكة النيبل ولا يعترفون لها عليهم بسلطة أبدية وانحدوا معا لإحداث ثورة عامة بتأثير ملك كدش ألد أعداء فرعون فانضم اليهم أهالى بلاد النهرين وأخصهم أمير تونب (بعلبك ؟) وكبنا بلاد الشواطئ الشمالية . وفي ذلك الوقت كان تحوتمس يناهز اثنين وسبعين سنة من عمره ومع هذا سرمان ما وصل الى مرافق سوريا الشمالية كعادته وذلك في ربيع السنة الثانية والأربعين من حكمه ، وكانت هذه الحملة السابعة عشرة والأخيرة لهذا الحاكم العظيم . وكان همه وقتئذ مواجهة كدش كما

(١) ٤٩٨ : ٣ (٢) شرحه (٣) ٤٩٩ : ٢ (٤) ٥٨٧ : ٢ (٥) ٥٠٠ : ٢ - ٥٠١ : ٢ (٦) ٥٠٧ : ٢
(٧) ٥١١ : ٢ - ١٢ (٨) ٥١٧ : ٢ و ٥٨٠ (٩) ٥٢٠ : ٢ - ٥٢٧ : ٢ (١٠) ٥٢٥ : ٢

فعل في حملته الأولى لكنه لم يزحف عليها من الجانب الجنوبي كسابق عهده بل حاصرها شمالا قاطما بذلك طريق مواصلاتها مع البلاد الشمالية جميعا وصمم على أن يستولى على تونب أولا . وتفصيل ذلك أن الملك أنزل جنوده على الشاطئ بين نهر الأورونط والنهر الكبير ثم استولى على مينا إركاتو (Erkatu) في تلك الجهة والمجهولة لدينا الآن^(١) . والغالب أن هذا الميناء يقابل تونب التي كانت بيت القصيد . ثم استولى على تونب بعد مقاومة قصيرة ومكث هناك حتى زمن الحصيد^(٢) . ثم زحف على كدش متبعا نهر الأورونط بدون مقاومة مييدا مدن ذلك الاقليم^(٣) ، فلما علم بذلك ملك كدش أيقن أنه اذا لم يقاوم تحوتمس مقاومة اليأس المستبسل هلك هو وجيشه لا محالة ، فهجم على المصريين أمام كدش مستعملا سياسة الخدعة ، وتفصيل ذلك أنه أرسل فرسا أمام عجلات المصريين لتهيح خيلها فيضطرب بذلك نظام خطوط فرعون فيتمكن ملك كدش من اختراقها ، لكن أمتنح فطن لتلك المكيدة فقفز من عجلته شاهرا سيفه بيده وهجم على الفرس راكضا على قدميه فقتلها وقطع ذيلها وأهداه الى فرعون^(٤) . بعد ذلك اقتربت خطوط دفاع تحوتمس وضيق الحصار على المدينة تدريجا ، ثم صدر اليها الأمر بالهجوم على كدش فعهد الملك الى صفوة رجاله في هدم أجزاء من سور المدينة بقيادة أمتنح ، وقامت الجنود بهذه المهمة الخطيرة خير قيام وهدمت جزءا من السور تدفقت منه القوات المصرية وفي مقدمتهم أمتنح . هكذا خضعت أقوى مدن سوريا لسلطة فرعون وسقطت تحت موطن قدميه^(٥) ، وحينئذ سلم لتحوتمس جنود النهرين الذين أتوا لمساعدة كدش ، وكان هذا الفوز كافيا ليسط نفوذ فرعون على الممالك الآسيوية تانيا فلم يعد هناك لزوم للزحف شمالا لكنه لو فرض وكان هناك داع لذلك لعذرنا تحوتمس اذا لم يقيم به لكبر سنه وقرب الشتاء وحلول معاد عودته الى مصر ، ويستنتج من قرائن الأمور أن الحالة السياسية وقتئذ لم تتطلب زحف جيشه الى الشمال . منذ ذلك الوقت لم يجاسر حاكم آسيوى أن يشق عصا الطاعة على تحوتمس الثالث طوال حياته ، ولا غرابة في ذلك فقد قام في خلال تسع عشرة سنة بسبع عشرة حملة أهدمت البلاد الآسيوية مقاومتها وأخضعتها لمصر تماما . وبديهي أن سقوط كدش جاء بمثابة انهيار آخر لصرح مملكة الهيكسوس التي حكمت مصر سابقا . وصار اسم تحوتمس الثالث بعد ذلك مضربا للأمثال مدة طويلة حتى أنه لما هاجمت مملكة خيتا مستعمرات مصر الآسيوية جهة تونب بعد مرور أربعة أجيال على وفاة هذا الفرعون العظيم استنجد ولاة تلك الجهات بمصر بأسلوب يفتت الأبكاد فقالوا :^(٦) ما من أحد اجترأ قديما على نهب تونب الا نهبه تحوتمس الثالث^(٦) ولا غرابة في ذلك فقد كان تحوتمس الثالث يتاهز السبعين أو أكثر من عمره ومع ذلك فكان يصدر أوامره للرافئ الآسيوية لتجهز ما يلزم جيشه وأسطوله من المعدات استعدادا لما عسى أن يحصل من الفتن والمشاغبات^(٧) ، وليس بعيد أنه كان مستعدا للقيام بغزوات في آخر عمره كما فعل في شبويه . ودلتنا الآثار أن الملك لما

(١) ٥٢٩ : ٢ (٢) ٥٢٠ : ٢ (٣) ٥٢١ : ٢ (٤) ٥٨٩ : ٢ (٥) ٥٩٠ : ٢ (٦) خطابات

الغازنة لونيكر ٤١ و ٦٠ - ٨ (٧) ٥٢٥ : ٢

كان في رحلته الأخيرة بسوريا إلى أمراء تلك الجهات وقدموا له في خيمته الملكية واجب الطاعة والجزية^(١) ولما عاد بعد ذلك إلى مصر وجد رسل النوبة في الانتظار ومعهم ما ينيف على خمسمائة وثمانية وسبعين رطلا ذهباً من بلاد الواوات وحدها^(٢) علاوة على ما أرسلته الأقاليم الأخرى.

وكان متظراً أن يمضي نحوتمس الثالث بقية عمره مستريحاً في مصر لكنه بعد ما فرغ من فتوحاته الآسيوية وجه همته نحو النوبة . وقد ألدنا سابقاً أن رئيس خزانة الذهب والفضة المدعو من خير رِغ سِنْب - ومعناه نحوتمس الثالث السليم -^(٣) كان يتسلم من النوبة كل سنة ما يتراوح بين ستمائة وثمانمائة رطل ذهباً . وجاء في أخبار السنة الحادية والأربعين من حكم نحوتمس الثالث أن وارد الذهب بلغ وقتئذ حوالي ثمانمائة رطل ذهباً^(٤) . أما مندوبه السامي المدعو نحي (Nehi) فقد لبث حاكماً لكوش حوالي عشرين سنة^(٥) وقد زادت في أثنائها وازدادت تلك الجهات كثيراً . ثم تراءى لنحوتمس أن يوسع حدود ممتلكاته الجنوبية إلى أبعد مما هي عليه كما يستدل من الآثار التي تشير إلى شدة اهتمامه بتلك الجهات . وقد وجدت لنحوتمس الثالث معابد بالغة الأقليم الشلال الثالث وذلك بجهة كَلْبَيْشَة وعَمَادًا ووادي حلقا وقه وسمنه (وقد رُم فيها معبدا لسيزستريس الثالث) وفي جهة حلب أيضا . وجاء في أخبار السنة المتممة لمحمسين لحكمه أن القناة البحرية المحترقة لاقليم الصخور جهة الشلال الأول فتحت ثانياً^(٦) وأن جيوشه كانت وقتئذ مشغولة بمزاولة الأعمال الحربية ببلاد النوبة . والمستبعد أن يكون نحوتمس الثالث هو الذي قاد هذه الحملة لكبر سنه وقتئذ . ويرجح أنه أرسل إلى تلك الجهات حملات حربية عديدة سابقة بدليل ما وجد مرتين على جدر صروح الكرك من أن جيوشه استولت على مائة وخمسة عشرة موقعة بالنوبة مدونة الأسماء . وهناك قائمة أخرى تحوى نحو أربعمائة اسم لجهات نوبية أخرى أخضعها الجنود المصرية . ولشدة جهلنا بجغرافية بلاد النوبة لم ننتد بالضبط إلى مواقع تلك الأماكن ولذلك لا يمكننا أن نعرف تماماً حدود مملكة مصر الجنوبية وقتئذ والمؤكد أنها كانت واصلت إلى الشلال الرابع على الأقل لأنه ورد ذكره ضمن أملاك المملكة المصرية في عهد ابن نحوتمس الثالث .

وطاش نحوتمس الثالث اثنتي عشرة سنة بعد آخر حملة آسيوية . ولما شعر بالضعف والشيخوخة أشرك معه في الحكم ابنه المنتخب الثاني^(٧) الذي رزق به من الملكة حَمْتَشِبْسُوت مِريث رِغ المجهولة التاريخ . وفي السنة التالية لذلك أي في ١٧ مارس سنة ١٤٤٧ قبل الميلاد (قبل أن يتم نحوتمس الثالث السنة الرابعة والخمسين جالسا على عرش مصر بخمسة أسابيع) توفي فأسدل الستار أمامه على هذه الدنيا التي قام فيها بأعمال باهرة اهتمت لها الأرض اهتزازاً^(٨) . وقد دفنه ابنه بوادي الملوك ولا تزال مومياءه باقية للآن (شكل ١٢٠) . ووضع كهنة آمون أنسودة نسبوها إلى معبودهم كلها مديح في نحوتمس الثالث^(٩) غاية في المثانة والبلافة ، وهي تشمل عدّة أبيات شعرية بدعية ،

(١) ٥٣٣-٤-٥٣٦-٧ (٢) ٥٣٩: ٢ (٣) ٧٧٢: ٢ ملاحظة (٤) ٥٢٦-٢٧ (٥) ٢: ٢٥١-٢
(٦) ٦٥٠-٦٤٩: ٢ (٧) ١٨٤: ٢ (٨) ٥٩٢: ٢ (٩) ٦٥٥: ٢ ملاحظة .

ويستدل منها أن منزلة الملك في نفوس كهته ومعاصريه كانت غاية في الاحترام ، وهي تبسدي بديابحة طويلة تشمل إطراءً لتحتوس المذكور على ذلك وصف لأعماله وانتصاراته ، يقول على لسان آمون ما ترجمته :

هأنذا قد جئت وأبجت لك أن تضرب أمراء زاهي . لقد أوقعتهم تحت أقدامك ودفعتهم (أمامك) حتى استرقت أقطارهم وأریتهم جمال حضرتك وأطلعهم على جلالتك فصاروا ينظرون الى سعادتك كملك مصور من نور ، فأصبحت تشرق عليهم كصورتي البهية وتبدو عليهم كذاتي العلية .

هأنذا قد جئت وأبجت لك أن تطعن بسيفك سكان بلاد آسيا وتقبض في أسرك الرتنو (أي الآسيويين) . لقد أریتهم جلالتك متهيئة للحرب قابضة أسلحتها ومقاتلة على عجالاتها .

هأنذا قد جئت وأبجت لك أن تضرب بلاد الشرق وتجوس خلاطها الى مدائن الأرض المقدسة وقد أریتهم جلالتك ككودب سميل الذي ينشر النور مع الايضاح وينثر الندى في الصباح .

هأنذا قد جئت وأبجت لك أن تضرب بلاد الغرب فكللا بلاد الخفتيو وقبرص في ربة الفرع منك حيث أریتهم جلالتك كتور هو من نوع البقر في الفتوة والجرأة بمكان ، يزينة قرنان ، فلا يقاومه معارض أيا كان .

هأنذا قد جئت وأبجت لك أن تضرب سكان سائر الخلط الأرضية ، فبلاد مثنى تنفض فرقامن هيتك حيث أریتهم جلالتك كالتساح وهو الملك القهار في مملكة البحار منبع الجوار لا ينجومنه ديار .

هأنذا قد جئت وأبجت لك أن تضرب سكان الجزائر ، فكان أهل البحار في فرع من صياح قومك بنداء الحرب حيث أریتهم جلالتك كنتقم جبار يعلو ظهر فريستة .

هأنذا قد جئت وأبجت لك أن تضرب الليبين ، ولتكن جزائر الأوتيتيو (Utentyew) في قبضتك مأسورة حيث أریتهم جلالتك كأسد يفرع كل من ينظر اليه ويرقد على رمم موتاهم في خلال أوديتهم بحيث لا يتيسر لأحد أن يقدم عليه .

هأنذا قد جئت وأبجت لك أن تضرب سكان أقاصي البلاد وأنت قبض على دائرة المياه (الأقيانوس) حيث أریتهم جلالتك كباشق يحوم في الجوّ بطيره ويختطف كل ما أعجبه بمخلبه .

هأنذا قد جئت وأبجت لك أن تضرب الأقوام القاطنين على حدودك وليكن القوم المسمون بسكان الأراضي الرملية في أسرك أحياء حيث أریتهم جلالتك كتغلب بلاد الجنوب الذي يخفى في سيره فيقطع البلاد ويحترق الأراضي البعاد .

من هذا الذي بسطناه من تاريخ تحتوس الثالث يمكننا الجزم بأن محتويات تلك القصيدة ليست شعرية خيالية كلية ولا هي من مبتكرات الكهنة ، لأن صفات تحتوس الثالث وشخصيته برزت في التاريخ المصري القديم بدرجة منقطعة النظير في ملوك مصر قاطبة ما عدا إخناتون ، والحق

يقال إن نشاط نحوتمس الثالث فاق كل نشاط سواء أكان قبله أم بعده. زد على ذلك أنه كان هاويا مقتنا دقيقا يتلهم وقت فراغه بصياغة الأواني وأبداع أشكالها. وكان أيضا حسن التدريب في السياسة حاذذ الذكاء يقوم بالحروب الكبيرة بأسيا مستعملا في الوقت نفسه شدته في منع انتشار الرشوة والحيف في أثناء جمع الضرائب من الأهالي . وقد وصفه وزيره الجليل المدعو رنجمارخ بما ترجمته : "كان يعلم كل شيء ، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة الا أحاط بها ، فكان في ذلك كالإله نحوتمس (إله المعارف عند المصريين) في معرفته وما تناول أمرا الا أنها بنفسه" (١) . ورغم من شدة افتخاره بأعماله ونقشه اياها كان كثير التعلق بالصدق في كل أعماله ، وروى عنه أنه قال : "أنا لا أبالغ في ذكر أعمالي لأنني لا أدعى شيئا لم آت به ولذلك لا يمكن أحدا أن ينكر عليّ فضل شيء أدعيته لنفسى . لقد قمت بأعمالي كلها لأجل آتون فهو يعلم ما في السماء وما في الأرض وهو الرقيب على البلاد والعباد في وقت واحد" (٢) . وكان مداما للصدق شديد الاحترام للمعبود الصدق (٣) . لذلك اعتبر عهد نحوتمس الثالث عهدا ممتازا في القطر المصري وبلاد الشرق عامة ولم يظهر في التاريخ الى ذلك العهد ملك جمع ايراد مملكته التاسعة وأقام عليه ادارة حكومية مركزية ثابتة بئمة دامت سنوات عدة كما فعل ، فهو في هذه الحال أشبه بمحذاد اشتغل بمطرفة زنتها مائة طن ، بل هو أكثر من ذلك لأن الفضل يرجع اليه في عمل هذه المطرقة . ولا يخفى أن هذا النشاط وهذا الذكاء الوقاد ظهرا للعيان بعد انفصاله من حياة المعابد وانتقاله الى معيشة الملوك ، وهذا يذكرنا كثيرا بتاريخ الاسكندر المقدوني ونابوليون لتشابه تاريخهم جميعا . وخلاصة القول أن نحوتمس الثالث كان أول رجل في التاريخ أسس امبراطورية حقيقية فهو لذلك أقدم بطل معروف على الأرض ، ولا غرابة فقد خضعت لقوته آسيا الصغرى وأعلى الفرات وجزر البحر الأبيض المتوسط ومستنقعات بابل وشواطئ ليبيا السحيقة ووحدات الصحراء وهضبات الصومال وصلالات النيل العليا. زد على ذلك أن أمراء تلك الجهات تسابقوا في تأدية جزيتهم وهداياهم اليه ، ويعتبر هذا برهانا ساطعا وتذكارا عظيما للعالم على نجاح نظمه وترتيباته الحديثة . وقد تجلت شخصية هذا الملك العظيمة وشدة توقيعه للقصاص العادل في مشاحنات أمراء سوريا فظهرت جو الشرق السياسي من الأفتار وطردت المفسد كما تطرد الريح الشديدة ما يترآكم أمامها من الأبنجة العفنة فلا يبقى لها أثر . وقد كانت سرعته في ايقاع القصاص بيده الحديدية بمثابة عظة عظيمة لأهالي النهرين فلم يحركوا ساكنا بعد وفاته بثلاثة أجيال هربيا . ومما يدل على شدة تأثير هذا الملك في نفوس رعيته أنهم اعتقدوا بوجود صفات سحرية في اسمه حتى تقشوه على الأسمجة بعد زوال امبراطوريته وتصدع أركانها بعثة قرون . ومن أجل ماثر هذا الملك مسلتاه الأثريتان العظيمتان المنصوبتان على شاطئ المحيط الاطلانطي وهما تشهدان له بالفخر والاعجاب (٤) ، وقد اعتبرت هاتان المستان في تلك البلاد السحيقة تذكارا عظيما لأول امبراطور خلد اسمه في تاريخ العالم القديم .

(١) ٢ : ٦٦٤ (٢) ٢ : ٥٧٠ (٣) ٤٥٢ (٤) نصت إحدى هاتين المستان على شاطئ نهر التيمس

بكتره ، ونصبت الأخرى في "الحديقة لوسطى" بمدينة نيويورك (راجع صحيفة ٢٠٢) .

الفصل السابع عشر عهد الامبراطورية

يمتاز هذا العهد بكثرة رخائه وتقدم مدينته ففيه زالت العوائق بين مصر وآسيا التي أوجدها الهيكسوس وعما تحوتمس الثالث أثرها من الوجود، فبسر التعامل بين إفريقية وآسيا وزالت الفوارق القديمة فلم يبق هناك ممالك صغيرة مستقلة بل أصبحت البلاد كلها الممتدة من بابل والفرات الى أعلى النيل متحدة على تباين عناصرها ولغاتها . وأخذت تجارة شرق البحر الأبيض المتوسط تتحول تدريجيا من اقليم الفرات وبابل الى مصر وبالأخص اقليم الدلتا الذي كثرت خيراته وتضاعفت روابطه التجارية ، وكان هذا الاقليم الأخير منذ عدة قرون على اتصال بالبلاد الآسيوية بالقناة التي توصل البحر الأحمر بالنيل فانحصرت تجارة العالم في الدلتا وصارت أكبر أسواق العالم . وكانت آشور في هذا الوقت نية ، وانعدم من بابل نفوذها السياسي تماما في البلاد الغربية فأصبحت سلطة فرعون على امبراطوريته التاسعة عظيمة مهيبة .

ولم تصل الينا سوى معلومات قليلة عن الادارة المصرية بآسيا ، وقد ذكرنا فيما سبق أن تلك الممالك الآسيوية كانت تحت ادارة وال مصرى ملقب "بمحاكم البلاد الشمالية" وأقول من أسند اليه هذا المنصب هو تحوتى قائد جيوش تحوتمس الثالث^(١) . وقد اضطرت الظروف أن تحتفظ مصر في سوريا وفلسطين بقوات حربية تكبح بها جماح أمراء تلك الجهات وتردهم الى حدود القانون . وترتب على هذا أن شيد المصريون هناك قلاعاً سموها بأسماء ملوكهم وجعلوا في كل منها حامية ملكية بقيادة ضباط مهرة خاضعين لأوامر فرعون مصر ومعتبرين نواباً له فيها^(٢) ، فمنها تلك القلاع التي شيدتها تحوتمس الثالث جنوبي لبنان^(٣) وقد أصلح أيضاً قاعة على شاطئ فينيقيا وأنشأ جوارها معبداً لآمون معبود مصر الرسمي^(٤) ، والغالب أنه كان لكل حصن معبد . ويؤكد البعض أن القلعة الموجودة جهة إكاثي (Ikathi) من تأسيس تحوتمس الثالث^(٥) . وعثر رنان على بقايا معبد لتحوتمس جهة بيلوس (جيبيل)^(٦) . ومن ذلك يتضح أن أمراء آسيا سمح لهم بإدارة شؤون بلادهم بشرط إظهار ولائهم لمصر ودفع جزيتهم لفرعونها كل سنة بانتظام، حتى إذا توفي أحدهم عين ابنه الذي تربى في طيئه ببلده للقيام بأعماله، وهكذا صارت بلاد آسيا أشبه بممالك صغيرة تابعة لمصر، ويعتبر هذا أول درجات الحكم الذاتي . وكان هذا النوع من الحكم في النوبة بالغاً درجة أعلى لأن تلك البلاد الجنوبية كانت تحت ادارة "والى كوش" . ولم نهند للآن عن طرق المعاملة بين أمراء آسيا

(١) راجع صحيفة ٢٠٥ خطابات تل العمارنة (٢) خطابات تل العمارنة (٣) ٤٨: ٢ (٤) ٤٥٧: ٢ - ٨ (٥) ٢ (٦) ٧٨٧: ٢
Rougé, Revue Arch. n. s. VII. 1883 pp. 194 ff. (٦)

و"حاكم البلاد الشمالية" ويظن أن مهام ذلك الحاكم كانت مالية . قال تحوتى الذى عين فى ذلك المركز فى عهد تحوتس الثالث : "انه ملائ خزانة فرعون وقتئذ بأحجار الازورد والذهب والفضة"^(١) . ويرجح أن أمراء تلك البلاد كانوا يجمعون الضرائب بأنفسهم ويمثون ببعضها الى فرعون مصر ، ولا تزال تجهل المقدار المسموح لكل أمير أن يستقيه لنفسه ، كما أننا لا نعرف بالضبط مقدار الجزية التى كان يأخذها فرعون من البلاد الآسيوية .

ولما بلغ بلاد آسيا خبر وفاة تحوتس الثالث شقت عصا الطاعة على مصر رغبة منها فى التخلص من الجزية كما يحصل عادة فى كل امبراطورية قديمة اثر وفاة ملكها . والقارى يتذكر أن أممحتب الثانى لم يشترك هو وأبوه فى الملك الا سنة واحدة ، فلما توفى والده^(٢) هبت فى وجهه تلك الثورة المتجمعة الشاملة لبلاد النهرين ومانى وشمالى فينيقيا . لكن أممحتب الثانى واجه ذلك الخطر ببسالة ونحوه ورثها عن والده فاستقر رأيه على الزحف على آسيا واخضاع أعدائه متحدين وكسر جيوشهم الجارية^(٣) . أما جنوبى فلسطين فلم يجرؤ على الثورة ، وخلاف ذلك وسواه التهمت نيران الاضطراب والعصيان . وقد بدأ أممحتب الثانى بزحفه فى أبريل سنة ١٤٤٧ قبل الميلاد (فى السنة الثانية لحكمه) فبلغ شمالي فلسطين فى أوائل مايو وهناك التحم جيوش أعدائه وحاربهم بيهمة شمس ادموم (Shemesh-Edom)^(٤) ، وكانوا وقتئذ بقيادة أمراء لبنان . واتبع الملك سنة والده فقاد جيوشه بنفسه فلما اشتبك القتال اشترك فيه شخصيا فأسر ثمانية عشر أسيرا وستة عشر حصانا^(٥) وانتهت المعركة بهزيمة أعدائه هزيمة تامة . وفى اليوم الثانى عشر من شهر مايو عبر الملك (لآخر مرة فى حكمه) نهر الأورونط متجها شمالا نحو زرار — غالبا — مميا شرقا وشمالا نحو الفرات^(٦) ، ثم عبر^(٧) الى حيث اشتبك فى معركة صغيرة مع مقدمة قوات النهرين ، ثم توغل فى البلاد وأسر سبعة أمراء من أرض تحسى (Tikhsi)^(٨) . وبلغ مدينة نى فى السادس والعشرين من شهر مايو — أى بعد عبور الأورونط بأربعة عشر يوما — فوجد المدينة مفتحة الأبواب ووقف رجالها ونساءها على جدرانها يحيمونه بالظفر والنصر^(٩) . وبعد ذلك بمشرة أيام (أى فى يوم ٥ يونيه) نجى قوة مصرية من الوقوع فى خديعة أمير بلدة إكاثى (Ikathi) العاصى^(١٠) وأوقع عليه وعلى أهل بلده عقابا صارما . ودنا نتساءل هل توجه الملك الى أعلى الفرات أو عبر الفرات وتوغل بأرض ممانى ، والغالب أنه فعل الأخير فقد جاء فى أخباره أن أمراء ممانى أتوا اليه حاملين جزيتهم على ظهورهم باحثين عن جلالتهم ليسمح لهم بالبقاء أحياء واستنشاق نسيم الحياة اللذيذ، وهذا أعظم شيء حصل منذ زمن المعبودات ، وهكذا عرفت هذه البلاد — ممانى — المعبود الطيب "فرعون" بعد ما كانت تجهله وبلده^(١١) . ولما بلغ أقصى تلك الجهات الشمالية — وهو غالبا أبعد مما وصله والده — نصب فيه حجرا أثريا كما فعل أبوه وجده من قبل^(١٢) . ثم عاد الى منف فقابله المصريون باحتفال بهيج وهناك شاهدوا الجيوش المصرية تتدفق كالسيل ومعهم ما يزيد على خمسمائة أمير سورى أسرى ومائتين وأربعين زوجات لهم

(١) راجع صفحة ٢٠٥ (٢) ١٨٤:٢ (٣) ٧٩٢:٢ و ٤:١ (٤) ٧٨٢:٢ (٥) شرحه
(٦) ٧٨٤:٢ (٧) شرحه (٨) ٧٩٧:٢ (٩) ٧٨٦:٢ (١٠) ٧٨٧:٢ (١١) ٨٠٤:٢ (١٢) ٥-٤:٢ و ٨٠٠:٢

ومائتين وعشرة من الخيل وثلاثمائة محجلة من غنائم الحرب . وروى أن سكرتيره الخاص كان وقتئذ محتفظا بأشياء كثيرة ليسامها الى رئيس مالية جلالة الملك وهذه الأشياء كانت تحوى ما ينف على ألف وستمائة وستين رطلا ذهباً (على شكل موازين وأوان) وما يقرب من مائة ألف رطل من النحاس (١) . ولما قرب الملك من طيبة عاق في مقدم سفينه أمراء تحصى السبعة الذين أسرمه موقوف الأرجل وورعوسهم الى أسفل . ولما بلغ طيبة تولى ذبح ستة منهم قربانا لآمون وصلب أجسادهم على جدر طيبة ، أما سابعهم فأرسله الى النوبة ليعدم بالكيفية نفسها فيتعظ أهالى النوبة ويقدرُوا سطوة فرعون مصر ، وسيأتى الكلام على ذلك (٢) . والحق يقال ان نشاط هذا الملك ويقظته أثرا كثيرا في أعدائه فقد جاء في الآثار أن جلالة لما أسرع الى اخضاع أعدائه الثائرين هابه سكان مستعمراته الأخرى فلم يتجاسر أحدهم على شق عصا الطاعة عليه .

بعد ذلك وجه الملك همته الى اظهار حدود مملكته وتوسيعها جنوبا ولذلك لما وصل الى طيبة أرسل الى النوبة على جناح السرعة بعثة عسكرية معها الأمير السورى السابع الذى أسره بجهة تحسى فصلب على جدر نبتة عظة لمن يتجاسر من النوبيين على معارضة مصر . أما حدود مصر وقتئذ فبلغت الشلال الرابع ولذا كانت حروب أممحتب الثانى موجهة الى جنوبى ذلك الاقليم ، وقد انتهت هذه الحروب بضم الجزء المعروف باسم كاروى (Karoy) الى المملكة المصرية وهكذا أصبح ذلك الاقليم آخر مكان جنوبى تمتد اليه سلطة المنسوب السامى بكوش وحاكم الممالك الجنوبية (٣) ، واقليم كاروى قريب من منحنى النيل العظيم بجهة أبى حمد حيث توجه تيار ذلك النهر جنوبا . وقد أقام أممحتب الثانى فى تلك الجهات آثارا حجرية أثبت فيها حدود مملكته (٤) أما فيما بعد ذلك الاقليم جنوبا فكان النفوذ المصرى مبسوطا على الطرق التجارية فقط حفظا للنظام ومنعاً لتمرد الأهالى وقيامهم بحركات عدائية . وبعد ما رجع أممحتب الثانى من حربه الأسبوية بتسعة أشهر تقريبا نصبت بعثته الحربية السودانية أترين حجرين أحدهما جهة أمدا (Amada) وثانيتها فى جزيرة الفيل ذكر فيما أن جلالة أتم بناء المعابد التى بدأها والده تحوتمس الثالث فى تبتك الجهتين (٥) ، وأبضا ما حصل لأمراء تحسى المذكورين سابقا وروى بهما كذلك أعمال جلالة فى أثناء "حربه الأولى" ببلاد النهرين ومنه استنتج أنه كان مصمما على القيام فيها بعدة حروب . والمعروف أن مركز آمون أصبح وقتئذ أعظم مركز إلهى عند فراعنة تلك العصور، ولما اتخذ تحوتمس الثالث من الاحتياط لما عسى أن يطرأ على مستعمراته لم يمنح أممحتب الثانى الى القيام بحروب فى آسيا ولا فى النوبة خلاف ما ذكرناه سابقا .

وشيد أممحتب الثانى معبدا على شاطئ طيبة الغربى بجوار معبد والده لكنه تلف الآن . ورم فى الكرنك تلك الساحة الكبرى التى تزع سقفها وقت نصب مسلتى حتشسوت فأقام الأعمدة التى نزعها تلك الملكة ورصعها بالمعادن الثمينة . وقد ذكر أمر هذه الترميمات على الجدر التى شيدها والده حول قاعدتى مسلتى حتشسوت لإخفاء معالمهما (٦) . ثم شيد مكانا ذا عمد صغير الحجم بالكرنك . أما فى عين شمس ومنف فشيد عمارات وأصلح محاجر طرويا (Troja) الا أن تلك الأعمال لم يبق

(٥) ٧٩١:٢-٨

(٤) ٨٠٠:٢

(٣) ١٠٢٥:٢

(٢) ٧٩٧:٢

(١) ٧٩٠:٢

(٦) ٦-٨٠٣:٢

لها من أثر . والمعروف أن هذا الملك كان عظيما كوالده مع قلة آثاره وقد اشتهر بعظم السلطة وشدة اليأس ، فقد ورد عنه أنه كان قوي الجسم كثير الانتخار بنفسه لا يصارعه انسان في استعمال قوسه الحربي . وقد عثرنا على هذا القوس في قبره فوجد منه وشا بالنصوص الآتي ترجمتها : "قاتل الأعداء قاهر كوش وناهب بلادهم سور مصر العظيم الحامي جوده" (١) . ويعتبر هذا الوصف أصل الخرافة التي رواها هيرودوت عن عجز فيز المعجمي عن استعمال قوس ملك النوبة ، ولا يخفى أن مثل هذا التحريف والتبديل في الحقائق التاريخية جاء نتيجة تداول الألسن على مرور الزمن . وفي السنة الثالثة عشرة من حكم أمنتب الثاني احتفل احتفالا عظيما بمسلة نصبها بجزيرة الفيل للذكرى . وتوفي هذا الملك عام ١٤٢٠ قبل الميلاد بعد ما حكم حوالي ست وعشرين سنة ودفن كأسلافه في وادي مقابر الملوك بطيبة ولا تزال جثته محفوظة الى الآن (شكل ١٢١) . وقد سطا اللصوص على هذه الجثة في نوفمبر عام ١٩٠١ وقطعوا لفائفها للاستيلاء على حلها الملكي (٢) ، على أن أسلاف هؤلاء اللصوص لم يتركوا ما يستحق السرقة الا سرقوه قبلهم (٣) .

ولما توفي أمنتب الثاني ولى بعده تحوتس الرابع عرش مصر . وقد وردت بخصوص هذا الملك قصة تداولتها الألسن بعد وفاته بعثة قرون تلخص في أنه لم يكن منتظرا أنه يرث الملك عن والده فخرج يوما ما قبل وفاة والده بمدة للصيد بجوار أهرام الجيزة حيث دفن ملوك الأسرة الرابعة التي يرجع تاريخها الى حوالي ألف وثلثمائة سنة إذ ذاك ، واستراح في ظل أبي الهول (أحد رموز الشمس) فرأى هذا المعبود في المنام طالبا نقل الرمال المحيطة به والمنهالة عليه من قديم الزمن ووعده إن فعل ذلك أن يساعده على ولاية الملك فلما انتبه تحوتس الرابع من نومه أقسم أنه سيفعل ما طلبه المعبود وقد نفذه فعلا بعد ما تولى . وذكر هذه القصة على حجر جرانيتي كبير مقام بين قدمي أبي الهول الأماميتين ويظهر أنه مأخوذ من معبد أوزيريس المجاور بمساعدة الكهنة وقتئذ ، ولا يزال هذا الحجر في مكانه (٤) .

وفي مبدأ حكم تحوتس الرابع شبت في آسيا ثورة استدعت ذهابه ولا تزال تجهل كثيرا من أخبار تلك الغزوة التي لقبها بالغزوة الأولى (٥) جريا على عادة والده . ودلتنا نقوش جدر معبد آمون بطيبة أنه اضطر أن يذهب شمالا الى بلاد النهرين وأنه أخذ جزية عظيمة من ملك تلك المستعمرات اللعين (٦) ، والظاهر أن مجرد شخوصه فيها كفى لإخضاع الأمراء النافرين وقتئذ . ورجع عن طريق لبنان وأمر حكام تلك الجهات أن يجمعوا كمية كبيرة من خشب الأرز ثم شحنها الى طيبة ليبنى منها سفينة مقدسة للمعبود آمون (٧) . ولما وصل الى طيبة استخدم عددا من الأسرى الذين أتى بهم غالبا من جازر بفلسطين (٨) للعمل داخل معبده بطيبة الذي شيده بجوار معابد أسلافه .

في ذلك الوقت أخذ نفوذ خيتا يكبر تدريجا وصارت معادية لمصر وللملكة منى ومن ثم اتحدت المملكان الأخيرتان لمناوأة خيتا . ولا يخفى أن مناتى كانت تسهر بسلطة خيتا أكثر من مصر

(١) ٢ : صفحة ٣١٠ ملاحظة (ج) (٢) ٨ - ٥ - ٨ : ٤ (٣) راجع صفحة ٥١٠ - ١١ (٤) ٢ : ٨١٠ - ٨١٥

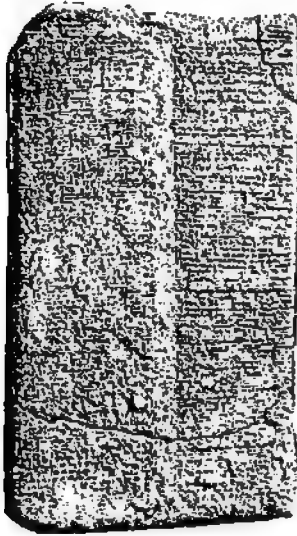
(٥) ٨١٧ : ٢ (٦) شرحه (٧) ٢ : ٨٢٢ ، ٨٢٨ (٨) ٢ : ٨٢١



شكل ١٢١ - صورة شمسية لموميا. أمنحتب الثاني
ابن تحتمس الثالث. ولا تزال هذه الموميا.
موجودة بقرها بطيه



شكل ١٢٠ - صورة شمسية لموميا. تحتمس الثالث
(دار تحف القاهرة)



شكل ١٢٢ - أحد نخطابات تل العمارنة
رقم ٢٩٦ مذكور فيه قائمة بهدايا تادرخيا
بنت ملك مناني المدعو دوشرا
(دار تحف برلين)



شكل ١٢٢ - صورة شمسية لموميا. تحتمس الرابع
ابن أمنحتب الثاني (دار تحف القاهرة)

لقربها منها، زد على ذلك أن تحوتمس الرابع رأى من مصالحته أن يحالف صديقا له في الجهات الشمالية فأرسل الى ملك متانى ملتسما منه ارسال كريمته ليقترن بها^(١)، فترد الأخير يسيرا كالمعتاد في مثل هذه الأحوال ثم مرضى في آخر الأمر وأرسل كريمته الى مصر حيث لقيت موت أمويا (Muteanuya) وقد صارت فيما بعد أم أمنتخب الثالث الذي خلف تحوتمس الرابع في الملك. بهذه الوسيلة تمكن تحوتمس الرابع من عقد معاهدة ثابتة مع متانى، ولكنه يلاحظ أن هذه المعاهدة منعت مصر من غزو البلاد شرق نهر القرات (بالنسبة لموقع متانى الجغرافي).

توجد قائمة بأسماء بلاد أجنبية حملها قواعدهم معبد صلب شيده أمنتخب الثالث ذكرت هناك بمثابة مستعمرات مصرية فظن بعض الأثريين منها أن أمنتخب الثالث كان حاكما على بلاد العراق أيضا. لكن خطابات تل العارنة واضحة بخصوص هذه المسألة وعليه فالامبراطورية المصرية لم تشمل مطلقا بلاد العراق في عصر من عصورها (أوردتها هنا باذن من الأستاذ برستد، من دائرة معارف التاريخ القديم للجامعة كبريدج صحيفة ٩٢، القسم المصري).

بعد ذلك عقد تحوتمس الرابع محالفة صداقة كالسابقة مع بابل^(٢). والمعروف أن أحوال آسيا وقتئذ لم تتطلب القيام بغزوات حربية ولكن تحوتمس الرابع لقب نفسه مع ذلك "فاتح سوريا"^(٣). أما جزيرة هذه البلاد الأخيرة فكانت ترسل كل سنة الى مصر وتسلم الى رئيس المسالية بمكتبته^(٤). وفي ربيع السنة الثامنة لحكمه وصلت اليه أنباء بحدوث ثورة بالنوبة^(٥) فسار اليها في جيشه مارا بالمعابد العظيمة في طريقه محيا آلهتها حتى بلغ الشلال الأول، ثم زحف في بلاد الروات فدهش لما وجد جيوش العدو يجوار حدود النوبة الشمالية. ولما التحم بها هزمها شر هزيمة ثم استولى على كيات عظيمة من الغنائم الحربية^(٦)، وأرسل الأسرى الذين ضرب عليهم العبودية الى معبده ليخدموا فيه^(٧). والغالب أنه لم يمش طويلا بعد ذلك لأنه لم يتمكن من تحسين طيبه وتنسيقها كما فعل أباه. ولشدة حبه بلده تحوتمس الثالث أتم عمل جدته فأقام المسلة التي تركها بمدخل الكرك الجنوبي وقشها بالدعوات والصلوات عليه ودون عليها أفعال جدته الخيرية، أما ارتفاع هذه المسلة فيبلغ مائة وخمس أقدام وهي أكبر مسلة باقية للآن وقد نقلت الى ايطاليا حيث لا تزال منصوبة أمام اللاتيران (Latiran) روما. وقد توفي تحوتمس الرابع بعد ذلك بمئة يسيرة (حوالي عام ١٤١١ قبل الميلاد) وقت الاحتفال ببعض أعياده ودفن بوادي مقابر الملوك بطيبه مع أجداده السابقين (شكل ١٢٢).

ولما توفي تحوتمس الرابع ولى بعده ابنه أمنتخب الثالث آخر كبار فراعنة الامبراطورية المصرية. وقد كانت المملكة في وقته بالغة أعظم درجات الرق والحضارة ثم أخذ يظهر عليها

(١) خطابات تل العارنة ٢١ و ١٦-١٨ (٢) خطابات تل العارنة ١٤١-١٦٣ (٣) ٢: ٢٢٢

(٤) ٢: ٨١٩-٨٢٠ (٥) ٢: ٨٢٦ (٦) ٢: ٨٢٩ (٧) ٢: ٨٢٤

ديبب الضعف يسيرا . والمعروف أن هذا الملك لم يكن كفتا لممارسة الأمور وقتئذ لأنه كان ولوبا بالنساء منذ أوائل أيامه ثم ازداد غراما بهن وتعلق بالنساء منذ كان ولي العهد أو حالما تسلم من والده مقاليد الحكم فتزوج وقتئذ باسرة غربية مجهولة الأصل تدعى تي (Tiy)، والغالب أن هذه المرأة مصرية لا تظهر عليها مسحة أجنبية ، فلما كانت ليلة القران أمر بصنع جعل حجيرة كبيرة منقوش عليها تاريخ ذلك القران^(١) ومذكور بها أيضا ضمن الديباجة الملكية أسماء والدي هذه الزوجة بوضوح وبساطة مما يثبت أنها مجردان من كل صلة بالبيت المال . وقد جاء في نصوص هذه الجعل أن الزوجة تي صارت قرينة الملك ، واليك ترجمة ما جاء بآخر هذه النقوش : "لقد صارت هذه السيدة زوجة الملك العظيم الذي بلغت حدود مملكته الجنوبية اقليم كاروي (Karoy) والشالية بلاد النهرين"^(٢) فكان هذا بمثابة تذكارة لهذه الملكة السامية اذا ما خالغ أحدا فكرة ضعة أصلها . وتسلطت هذه الملكة كشيئا على نفس أممنتحت الثالث فسمح لها بكتابة اسمها داخل خاتمة ملكية بأول النصوص الملكية وقد استمرت سلطتها قوية طوال حكم أممنتحت الثالث ، ويعتبر عهد هذه الملكة فاتحة ازدياد نفوذ الملكات على العرش المصري وإدارة شؤون المملكة في الحفلات العمومية ، وقد تجلج هذا النفوذ النسوي بوضوح في عهد هذا الملك وعهد خلفه أممنتحت الرابع ، وسيأتي الكلام على أهمية ذلك .

وأظهر أممنتحت الثالث مقدرة عظيمة في إدارة شؤون الامبراطورية عند توليه الحكم فلم يجاسر سكان المستعمرات الامبراطورية في عهده على القيام بثورة ما ولذلك كانت تلك الجهات هادئة مطمئنة وكانت الحضارة والرفاهية بالفتين بها الدرجة القصوى . وفي أواخر السنة الرابعة من حكمه حصلت مشاغبات يجنوبي النوبة فذهب اليها في أوائل شهر أكتوبر ليتمكن بذلك من عبور الشلال بأسطوله وقت ارتفاع منسوب النيل ، وفي ذلك الوقت كان المندوب السامي هناك المدعو مرموس (Mermose) حشد جيشا من السودانيين القاطنين الاقليم الذي هو بين كوبان وإبريم البالغ طوله نحو خمسة وسبعين ميلا^(٣) ، فانضمت هذه القوة الى الجيش المصري ثم زحفت القوات المصرية جنوبا لاختضاع العصاة فاعتبر هذا دليلا قاطعا على عظم النفوذ المصري في السودان الشمالي وقتئذ . وحدثت المعركة الحربية بين جيشي أممنتحت الثالث والعصاة بجهة إبحت (Ibhet) قرب الشلال الثاني في العيد الخامس بللوس الملك على الأرجح ، وانتهت بهزيمة العصاة تاركين سبعمائة وأربعين أسيرا وثلاثمائة واثني عشر قتيلا كما ورد على لوح النصر المنصوب بجهة الشلال الثاني^(٤) . ثم طافت فصائل من الجيش المصري على البلاد وقامت بالفتيش على القرى والآبار لمعاقبية الأهالي حتى لا يقوموا بحركة ثورية على مصر^(٥) . بعد ذلك زحف أممنتحت الثالث جنوبا مدة شهر تقريبا أسرى في أثناءه عددا عظيما من الأسرى وكية كبيرة من الذخيرة^(٦) . ولما وصل الى تل هوا (Hua) ضرب خيامه على جزيرة أنشك (Uneshok) جنوبي ذلك التل . أما موقع التل بالضبط

٢-٨٦١:٢ (١) ٨٦٢:٢ (٢) ٨٥٢:٢ (٣) ٨٥٣:٢-٤ (٤) ٨٥٥:٢ (٥) ١١:٢٨٥٠:٢ (٦)

فجهول لنا على كثرة ذكره مع اسم الصومال (بونت) ويظن أنه على مسافة بعيدة عن منطقة الشلالات ، ويعتبر هذا المكان آخر ما وصل اليه أمنتحت الثالث^(١) . بعد ذلك جمع الملك كيات كبيرة من الذهب لعارات طيبه من اقليم كاروى بجهة نقت^(٢) ثم نصب حجرا أثريا على بحيرة حوريس أثبت فيه انتصاراته^(٣) ، ولآن لم نهند الى موضع هذا المكان بالضبط ولعله قريب من حدود مملكة والده . ويعتبر هذا العمل آخر غزو كبير قام به الفراعنة بالسودان ، بصرف النظر عن المشاغبات الصغيرة التي سببتها القبائل المجاورة . والسبب في ذلك أن هذا القطر أخذ يصعب تدريجيا بالصعبة المصرية حتى أصبح الاقليم الذى بين الشلال الأول والشلال الرابع خاضعا خضوعا تاما للسلطة المصرية . ويلاحظ أن الأهالى القاطنين لقسم السودان الخاضع لمصر كانوا نوبيين ، أما الزنوج فكانت بلادهم وقتئذ جنوبى اقليم شلال النيل الرابع . وأقدم رسوم زنوج إفريقية وجدت على آثار الامبراطورية المصرية في عهد تحوتمس الأول كما أظهر جنكر (H. Junker) . والمعروف أن الامبراطورية المصرية لم تشمل يوما ما أراضى زنجية (مأخوذة باذن الدكتور برستد من دائرة معارف التاريخ القديم لجامعة كبريدج صحيفة ٩٤ - القسم المصرى) . أما الاقليم الذى بين الشلالين الأول والثانى فقد صار مصريا تماما فظهرت في مدنه الكبيرة الهياكل المصرية وعبدت فيها المعابدات المصرية . ثم أدخلت في تلك البلاد الصناعة والأشغال اليدوية المصرية فتجلت بذلك في تلك الجهات المدنية والأخلاق والآداب المصرية بوضوح . لكنه بالرغم من هذا سمح لرؤساء القبائل السودانية بأن يحتفظوا بالقاهم ومرأىهم اسميا - على الأقل - وأن يشتركوا بسعراهم والموظفون المصريون في ادارة شؤون البلاد . أما القسم الذى هو بين الشلال الأول وإبريم فكانت ادارته كلها بأيدي المصريين ولذلك يتضح لنا السبب في أن هذا القسم حشد جيشا انضم الى قوة أمنتحت الثالث ليساعدها وقت زحفها على السودان^(٤) . وجرت العادة وقتئذ أن يحضر المنتوب السامى للسودان كل سنقالى طيبه مصحوبا بجزية التوبة العامة حتى أصبح ذلك أمرا مألوفيا لدى العامة^(٥) .

كانت سلطة أمنتحت الثالث في آسيا لا تقاوم فنى قصر بابل كانت سلطته على سوريا وفلسطين (المعروفين قديما باسم كنعان) معترفا بها . ولما أراد بعض أمراء آسيا القيام بحركة عدائية مشتركة على ملك مصر كتبوا الى ملك بابل المدعو كوريجالزو (Kurigalzu) ، طالبين انضمامه اليهم فرفض ذلك يتانا قائلا انه انما يتحالف مع فرعون مصر ثم هتدهم فعلا بالقوة اذا هم تاروا على أمنتحت الثالث^(٦) . وسواء أكانت هذه الرواية صحيحة أم لا فقد وردت مدونة ضمن رسائل بابل وهى على كل حال كافية لاثبات صداقة بابل المتينة نحو مصر ، ووصلت الحال الى أن بابل وأشور ومثاقى وقبرص تنافست لاكتساب محبة مصر ويعتبر هذا أول مظهر سياسى دولى عام في تاريخ الملك المعروفة للآن . وصار قصر فرعون مصر مركزا للتخاطب مع كبار حكام ذلك العصر جميعا . وترجع معظم معلوماتنا عن المداورات بين فرعون مصر وحكام آسيا الى اللقبة العظيمة التي وجدت

٤١-١٠٣٥:١ (٥)

١٠٣٧:٢ (٤)

٨٤٥:٢ (٣)

٨٨٩:٢ (٢)

٨-٨٤٧:٢ (١)

(٦) خطابات تل العمارنة ٧

بتل العمارنة وهي عبارة عن الخطابات التي تبودلت بين حكام ذلك العصر وفرعون مصر ومنها عرفنا مقدار ما بذله كل ملك من مجهود لاستمالة عطف مصر ومحبة عرشها العظيم . ويبلغ عدد هذه الخطابات ثلثائة وهي عبارة عن قوالب طينية منقوشة بالخط المسماري البالي، وكان اكتشافها عام ١٨٨٨ ميلادية جهة تل العمارنة التي كانت عاصمة المملكة المصرية في عهد إخناتون بن أمنحتب الثالث والتي كانت أيضا مركز التناطيل مع الملوك الأجانب (شكل ١٢٣) . واتضح لنا أن هذه الخطابات كانت متبادلة بين أمنحتب الثالث وابنه إخناتون من جهة ، وملوك بابل ونيوى ومانى وقبرص وولاه سوريا وفلسطين من جهة أخرى . ويوجد بين هذه الرسائل خطاب من أمنحتب الثالث الى ملك بابل المدعو كالمبا - سن (Kallimma-Sin) أو كادشمان بل (Kadashmau-Bel) وأربعة رسائل من ملك بابل هذا الى فرعون مصر^(١) . ويستنتج من هذه الرسائل أن ملك بابل كان كثير المطالبة بالذهب فقد رجا في خطاب له فرعون مصر أن يرسل له كميات كبيرة من ذلك المعدن النفيس لأن ملك بابل علم من رسله أن ذهب مصر كثير كالتراب ، وقد أرسل أمنحتب الثالث لملك بابل ما طلبه ، لكنه كان كثيرا ما أظهر عدم رضاه بالمقادير المرسله . وجاء في خطاب آخر أن والد ملك بابل أرسل كريمته الى أمنحتب الثالث ليقترن بها فاعتبر هذا سببا كافيا طالب بمقتضاه ملك بابل فرعون مصر بكمية كبيرة من الذهب . وفي رسالة أخرى أن ملك بابل طلب كريمة أمنحتب الثالث ليقترن بها لكننا لم نعرف بالضبط اذا كانت هذه الفتاة له أو لابنه .

ومثل هذه العلاقات الودية كانت متبادلة أيضا بين أمنحتب الثالث وملك منانى المدعو شوترنا (Shuttarna) ابن أرتاتاما (Artatama) صديق تحوتمس الرابع الحميم . ولا يبعد أن يكون أمنحتب الثالث ابن أخت ملك منانى . والمعروف أن هذا الأخير أرسل كريمته المدعوة جيلوخيا (Gilukhipa) الى أمنحتب الثالث ليقترن بها ، فأقام هذا الأخير احتفالا عظيما وأمر بصنع عند عظيم من الجمل نقش عليها أخبار ذلك القران ، منها أن الأميرة المذكورة أحضرت معها من آسيا حاشية من السيدات يبلغ عددها ثلثائة وسبع عشرة سيدة وخادمة^(٢) وكان ذلك في السنة العاشرة من حكم أمنحتب الثالث . وتوفي ملك منانى فعقبه في الملك ابنه المدعو دشراتا (Dushratta) وقد أرسل هذا كريمته أيضا المدعوة تادوخيا (Tadukhipa) الى أمنحتب الثالث ليقترن بها ابنه المدعو إخناتون ، وقد اعتبرت هذه المراسلات الملكية برهانا صادقا للود المتين بين القطرين وقتئذ . واليك ترجمة نص خطاب أرسله دشراتا^(٣) الى أمنحتب الثالث :

”الى أخى وضهرى الذى يحببى وأحبه أمنحتب الثالث الملك العظيم وفرعون مصر
”من دشراتا الملك العظيم أخيك وحيك الذى يحبك . أنا فى صحة جيدة ، علك أنت كذلك وكذا منزلك وأختى وسائر زوجاتك وبناتك ومجملاتك وخيلك وبقار رجالك وأرضك وكل ممتلكاتك .
علكم جميعا بخير . كان أبائوك قديما على أوفق وثام مع آبائى ، لكلك قويت تلك الرابطة عما كانت

(١) خطابات تل العمارنة ١ - ٥ (٢) ٧ - ٨٦٦ : ٢ (٣) خطابات تل العمارنة ١٧

عليه كثيرا . حقيقة كنت صديقا حيا لوالدى ، وتجاذبنا أطراف الصداقة معا لكنها الآن أشد مما كانت عشر مرات . امل المعبودات تزيد من ودنا هذا على توالى الأيام ، ولعل المعبود تسهوب (Tishub) (إله مملكة متاني) السيد والمعبود آمون يحافظان على هذا الود كما هو الآن .

”لما حضر الى رسول أخى المدعو مانى (Mani) قائلا انك تخطب كريمتى لتكون ملكة على مصر لم أتجاسر على تكدير قلب أخى بل استمرت على أداء ما هو واجب نحو صداقتنا ، وتنفيذا لرغبتك يا أخى أرسلتها مع مانى الذى سر جدا برؤيتها ، فاذا وصلت الى أرضك يا أخى أتعشم أن المعبود إشتار (Ishtar) والمعبود آمون يجعلانها محبوبة ومقبولة لديك“ .

”لقد أحضر لى رسولى جيليا (Gilia) خطابك يا أخى . ولما قرأته فرحت جزىلا حتى أخى قلت وقتئذ اذا فرضنا أن صداقتنا ذهبت فان هذه الرسالة ستجعلنى أثار على الود لك الآن . وكبت لك يا أخى قائلا : ”أما من جهتى فاننا ستكون أعز أصدقاء وأوفى أخلاء“ . ثم سألتك يا أخى أن تقوى صداقتنا أكثر عشر مرات مما كانت عليه أيام آبائنا . ولقد طلبت منك يا أخى مقدارا كبيرا من الذهب قائلا : ”ارسل لى يا أخى أكثر مما كان يرسل لوالدى من قبل ! لقد كنت ترسل لوالدى كميات كبيرة من الذهب بما يعادل ميكال نامخار (Namkhar) من الذهب النقى وميكال كيرو (Kiru) من الذهب النقى (؟) أما الذى أرسلته فعبارة عن قرص من الذهب يظهر أنه مخلوط بنحاس لذلك أرسل لى يا أخى كميات كبيرة من الذهب بلا حساب وليكن مقداره أكثر من الذى كنت ترسله لوالدى ، لأن الذهب فى أرضك يا أخى كثير كالتراب“ .

هكذا تخاطب ملوك بلاد آسيا الغربية مع مصر . ولنذكر هنا على سبيل الايضاح أن ملك أشور تسلم من أمتحبت الثالث مبلغ عشرين مثقالا ذهبيا تالنت (Talents) (١) فسر بذلك وتوقعت روابط الصداقة بين الملكتين . أما ملك قبرص فكان مراعيا سيادة فرعون عليه جيدا فكان يرسل الى مصر كميات عظيمة من النحاس كل سنة إلا سنة واحدة اعتذر فيها عن تقصيره بانتشار وباء فى جزيرته . وكان حسن التفاهم بين قبرص ومصر بالغا أقصى درجاته من الكمال ، من ذلك ما ورد على الآثار أن رجلا من أهالى قبرص توفى بمصر فدارت بين ملكى هذين القطرين مراسلات أرسل رسول بمقتضاها الى مصر لتسلم تركة المتوفى وارجاعها الى قبرص لتود الى زوجة الفقيد وابنه (٢) . وبلغت رغبة ملك قبرص فى صداقة مصر أنه حذر فرعون من الدخول فى أى معاهدة مع مملكة خيتا أو بابل ، وسرى أن بابل اتبعت هذه السياسة نفسها مع مصر للفرص ذاته أيضا . إزاء هذا الاحترام والتعجيل والرعاية من كل الدول العظمى لم يجد أمتحبت الثالث أمامه ما يشغل باله من جهة مستعمراته الآسيوية ، خصوصا اذا لاحظنا أن حكام سوريا فى عهده كانوا أحفاد أسرى تحتمس الذى علمهم بمصر ورباهم على حبها مدة طويلة فأصبحوا لا يعرفون مركزا يطمحون اليه أسمى من أن يكونوا ولاية تحت الحكم المصرى . وكان طبيعيا فى وقت كان فيه

(١) خطابات تل الهارة ٢٣ - ٣٠ ملاحظة (٢) خطابات تل الهارة ٢٥ - ٣٠ ملاحظة .

الحق اللقوة أن يرى هؤلاء الأحفاد أن نهابهم الى مصر ووراثة ملك آبائهم بعد وفاتهم كان الوسيلة لرضاهم في أن يكونوا محيين بالسلطة المصرية العظيمة من كل اعتداء أجنبي . وقد ألمعنا سابقا الى المدرسة المصرية التي تعلم بها هؤلاء الأحفاد والتي أنبتت في قلوبهم بذور المودة نحو مصر بعد ما كان آباؤهم ينفذون مملكة النيل ويتحون عنها . وما أكثر ما أظهره هؤلاء الحكام من الطاعة لمصر وقتئذ ، خذ مثلا ما جاء بخطاب أمير قطنا (حصص ؟ Katna) المدعو أكرى (Akizzi) الذي أرسله الى أمنتحتب الثالث فقد جاء فيه ما ترجمته :

”سيدى وأنا خادمك هنا ، أتبع سنة سيدى ولا أجد عنه أبدا . لقد صارت هذه الأراضى ملكك منذ أبائى الذين خدموك . فمدينة قطنا مدينتك ، وأنا عبدك . سيدى ، حالمنا تصل الى جنودك ومجلائك الحربية سرعان ما يقدم لها الغذاء والشراب والبهايم والأغنام والعلل والزيت ، هكذا تقابل جنود جلائك ومجلائك أيها الملك“ (١) .

واليك مثلا آخر بخطاب أمير سورى أرسله الى أمنتحتب الثالث يثبت عبودية هؤلاء الأمراء . هذا ترجمته :

”سيدى ومليكى ومعبودى وشمسى . أنا خادمك أبى ملكى (Abimilki) . (أتشرف بأن) أعبج بين قدمى سيدى سبع مرات وسبع مرات آخر ، فأنا الأديم تحت خنى سيدى الملك . سيدى ، أنت الشمس الساطعة على الأرض كلها كل يوم“ (٢) .

وجاء فى خطاب آخر لأحد أمراء سوريا ما ترجمته :

” (أتشرف بأن) أعبج بين قدمى جلالة فرعون مصر على وجهى وظهرى الخ “ (شكل ١٤٧) .
وجاء فى خطاب آخر أرسله أحد الأمراء الى فرعون ما ترجمته :

”أنا الأرض التي تطؤها قدمك ، والمقعد الذي تجلس عليه . والمسند الذي تضع عليه قدميك“ .
وغلا بعضهم فى العبودية فكتب الى جلالة فرعون مصر يقول ”أنا كلبك“ . وكان بعضهم يتشرف بأن يقب نفسه ”سائس جلالة الملك“ . وقد شمل فرعون مصر هؤلاء الأمراء برعايته فأرسل لهم الزيت المعطر ليتضحوا به فى عيد اعتلائهم لعروش آبائهم . واعتاد هؤلاء الأمراء أن يخلصوا الفرعون فيخبروه فى أول فرصة بما يحدث فى أقسامهم من بوادر الثورة ، وكثيرا ما عهد اليهم جلالته فى اخضاع الأمراء العصاة . أما مدن آسيا الكبرى فكانت تحوى وقتئذ الجنود والمجلائ الحربية المصرية ، ولم تكن هذه القوات مصرية على بكرة أيها بل شملت أيضا قوات نوبية وبعض قرصان البحر الأبيض المتوسط المعروفين باسم شردن (Sherden) — الذين يظن أنهم من جزيرة سردينيا — وأخذ هذا العنصر الأجنبي يزداد تدريجا فى الجيش على توالى الأيام . وقد اتضح لنا من خطاب أحد أمراء آسيا أنهم كانوا يقدمون الطعام والمسكن لقوات مصر هناك ، فظهرت فى سوريا بهذه

(٢) شرحه ١٤٩ ر ١ — ٧

(١) شرحه ١٣٨ ر ٤ — ١٣

الكيفية حكومة وطيدة الأركان لم تر البلاد مثلها سابقا فالطرق آمنة والقوافل تسير مطمئنة على نفسها وأموالها ، كل ذلك لأن كلمة واحدة من فرعون كانت كافية لعزل أى أمير سورى من مركزه . أما الضريبة فكانت تجمع من الأهالى بسوريا بالنظام نفسه وفى الوقت عينه الذى تجمع فيه بمصر ، وأذا تأخرت الجزية يسيرا كان مجرد ظهور نائب الملك فى المذنب الكبيرة هناك كافيا لحمل الامارة المترددة تدفع جزيتها فوراً . يتضح لنا من ذلك أن أممنا الثالث لم يجد له مسوفاً لشن الحرب على آسيا . أما الرواية الواردة على الآثار من أن جلالة ذهب مرة الى صيدون (صيدا Sidon) ومخاطبه هناك أحد موظفيه عن عدد الأسرى الذين استولى عليهم جلالة^(١) قاله أن ذلك يرجع الى الحملة النوبية السابق الكلام عليها . والمعروف أنه عند حصول أى قلق أو اضطراب بأسيا كان أممنا الثالث يرسل قوة حربية الى الجهات العاصية بقيادة ضابط ماهر يحمي الاضطراب كسبح البصر . وقد دامت هذه الحال عشرين سنة تقريباً بعد جلوس أممنا الثالث على عرش مصر ، وبما يعزز استنتاجنا هذا ما جاء بخطاب أمير أسوى الى ابن أممنا الثالث هذا ترجمته : "حقيقة أن والدك لم يأت إلينا ولم يتعهد أراضي ولاته الأمراء"^(٢) .

أمام هذه الظروف لم يجد أممنا الثالث بدا من صرف همته فى ترقية شؤون مملكته الداخلية وهو أمر متبع فى مثل هذه الأحوال بسائر الامبراطوريات ، لذلك بلغت التجارة فى عهد هذا الملك درجة رفيعة لم تصل إليها من قبل ، وصار نهر النيل من الدلتا الى الشلالات مملوءاً بخيرات العالم الواردة بأسطول البحر الأحمر وقوافل برزخ السويس ، فكانت ترى البضائع السورية الثمينة والبخور والأخشاب المعطرة الواردة من البلاد الشرقية والأسلحة والأواني الفينيقية المزخرفة وعشرات الآلاف من الخيرات الكثيرة الاستعمال بين سكان وادى النيل حتى أدخلت أسماءها السامية فى اللغة الهيروغليفية . أما تجارة البحر الأبيض المتوسط فبلغت درجة عالية فى الرقى والتقدم كالتجارة البرية ولذا كانت مئات السفن الفينيقية الواردة الى مصر تأتي من الجهات كلها مشحونة بكل الخيرات كالأواني المزخرفة والمصنوعات البرنزية المنقوشة الآتية من البلاد اليونانية القديمة . وانتشرت المصنوعات المصرية وعم استعمالها فى قصور ملوك جزر كنوسوس (Knossos) وروندس وقبرص حيث وجدت منها بقايا استمرت الى الآن . وعثر فى بلاد اليونان نفسها على جعل وقطع أوان خزفية مطلية بالزجاج ومنقوش عليها اسم أممنا الثالث أو الملكة تي (Tiy) . فى ذلك الوقت أيضاً شعر سكان البحر الأبيض المتوسط بنفوذ مصر وحضارتها أكثر من أى عهد سابق . فظهرت فى كريت الشعائر الدينية المصرية حتى ورد أنها أقيمت مرة تحت اشراف كاهن مصرى (شكل ١٢٧) . ثم صبغت الصناعة اليونانية بالصبغة المصرية بدرجة كبيرة فظهر على مصنوعات اليونان المدنية ذوق مصرى خطته أفلام صناعات طيبة . فكثيراً ما كانت ترى على المصنوعات اليونانية رسوم الحيوانات المصرية المختلفة ممثلة فى حركاتها وسكناتها الطبيعية . ثم ظهرت فى بلاد اليونان وفى أوركنوس (Orchomenos) تلك السقف المزخرفة الجميلة التى أبدعتها أيدي أهالى طيبة . وانضح لنا أن الخط الذى استعمل فى كريت قبل

(١) ٩١٦:٢ و ٩١٨ (٢) خطابات تل العمارنة ٨٧ و ٦٢ و ٦٤

الخط اليوناني يحوى آثارا من الخط الهيروغليفى المصرى، فثبت بذلك انتشار الخط المصرى الى تلك الجهات . والفضل فى نشر المدنية المصرية فى تلك الجهات يرجع الى أهالى الجزر اليونانية المعروفين عند المصريين باسم خفتيو (Keftiyew) وقد أحضر هؤلاء القوم معهم مصنوعات يونانية كثيرة كان لها بعض التأثير فى المصنوعات المصرية . وقد كثرت وفود هؤلاء القوم الى طيبة وقتئذ حتى صارت رؤيتهم فى الشوارع شيئا اعتياديا . ولما أخذت الفضة ترد بكثرة الى مصر مع الأجانب الشماليين رخصت قيمتها عن قيمة الذهب بعد ما كانت أتمن منه بمقدار الضعف أيام الهيكسوس . بعد ذلك أخذت نسبة قيمة الذهب الى الفضة تزداد تدريجيا من $\frac{1}{2}$: ١ حتى بلغت ١٢ : ١ فى عهد البطالسة (أى القرن الثالث قبل المسيح) .

وبدبى أن مثل هذه الأعمال التجارية احتاجت الى حماية ونظام خصوصا وأن القرصنة وقتئذ كانت منتشرة وخطيرة . فالقرصان الليسيون Lycian عاثوا كثيرا بمراقى شرق البحر الأبيض المتوسط ونهبوا بجزيرة موانى قبرص ، ثم غلوا فى اجرامهم فأزولوا بعضا منهم على شاطئ الدلتا للنب والسرقة (١) . لذلك عين أمنحتب الثالث خفرا حربيا للسواحل يطوف على شواطئ الدلتا لمنع القرصان من الدنو من مصر ولا يسمح بالدخول فى مصبات النيل إلا للسفن التجارية القانونية . وقد أشرف رجال الشرط على جمع الضرائب المفروضة على البضائع الخارجة فى مواضع مخصوصة ما عدا الخصاص منها بالملك فقد أعفى (٢) . والظاهر أن إيراد هذه الضرائب كان كبيرا جدا ولم نهدد الآن الى معرفة قيمته بالضبط . أما الطرق البرية فقد حرس بالنظام نفسه وكل أجنبي يرى داخل المملكة بسبب غير مصرح به كان جزاؤه الطرد الى حيث أتى . أما التجارة القانونية فكانت مصونة نافقة ليست مثقلة بالضرائب .

واستمرت تجارة الرقيق الأبيض — وعلى الأخص السورى — منذ أيام تحومس الثالث . وكتب الملك هو الشخص الذى كان يوزع الرقيق على أنحاء القطر ويثبتهم فى سجل العبيد الذين يدفعون الضرائب للفرزاة الملكية (٣) . وبدبى أنه كلما كثرت الأجانب بمصر امتزج دمهم بالدم المصرى وقد ثبت هذا من رسوم آثار تلك العصور . ومما ساعد أيضا على تغيير أحوال البلاد وقتئذ زيادة ثروة خزنة فرعون لثمة قرن تقريبا ، تلك الزيادة التى كان لها تأثير سيئ فى التاريخ التالى ، فأصبح الفراعنة يقدون فى أعيادهم (كعيد رأس السنة مثلا) الهدايا الثمينة التى كانت تبهر ملوك الأهرام اذا هم شاهدوها . فقد ورد مثلا على الآثار أن وزير المالية أحضر مرة أمام جلالة الملك "عجلات مموهة بالفضة والذهب وتماثيل من العاج والابنوس وقلائد من الأحجار الكريمة المختلفة وأسلحة حربية وأشغالا يدوية متباينة الأنواع" . وقد شملت هذه الأشغال اليدوية ثلاثة عشر تمثالا للملك وسبعة تماثيل لأبى الهول بوجه الملك وتماثيل قلائد بدبعة وستائة وثمانين درعا ثمينا ومائتين وثلاثين

(٢) ٩١٦:٢ و ٢٢:٢ — ٤ وخطابات تل العمارنة ٢٩ و ٣٢ و ٣٣

(١) خطابات تل العمارنة ٢٨

(٣) ٩١٦:٢ و ٢١:٢ — ٢٦

كثافة من الصنع نفسه وثلاثمائة وستين سيفا من البرنز ومائة وأربعين خنجرا من البرنز المنقوش بالمعادن الثمينة وثلاثين عصا من الآبنوس مكسوّة أطرافها بالفضة والذهب ومائتين وعشرين سوطا من العاج والآبنوس وسبعة صناديق دقيقة الصنع ومظلات كثيرة ومقاعد وأواني عديدة وما الى ذلك من الأشياء الصغيرة (١) . قارن هذا بما كان متبعا قديما لما كان الملك يهب أمرائه المخلصين قطع الأراضي ليزرعوها ويحسنوا ادارتها رغبة في ترقية الزراعة وزيادة خيرات القطر، أما الآن فقد تغيرت الحال اذ أصبح الملك ينعم على رعيته بالثروة التي لا تحتاج الى عناء أو تعب لتثميرها . من ذلك ظهر الترف والنعيم في طيبة بعد ما كانت مثال البساطة والجدّ والمعيشة الطبيعية ، وليلاحظ أن هذا التغير شمل أفراد المملكة كافة من الملك الى الفقير وأعظم دليل على ذلك ما يشاهد من التغير في الملابس . فبعد ما كانت طبقات الأمة (حتى الملك) تنكفي برداء قصير يستمر ما بين السرة والركبتين أصبح القوم الآن يرتدون الملابس الطويلة الجيدة النسيج والتمينة والواسعة الأكماء . ثم استبدل لباس الرأس البسيط القديم شعر صناعي يوضع على الرأس ويسدل على الكتفين . أما الأقدام فبعد ما كانت دائما عارية



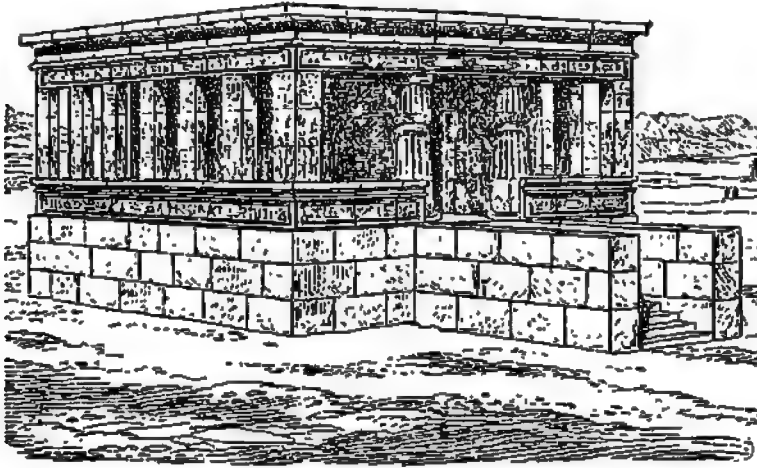
شكل ١٢٤ - شكل يمثل ملابس عهد الامبراطورية

أصبحت الآن تلبس الخلف البديع ذا الطرف المدبب أحيانا . ولو فرض أن شخصا من عهد أمضحت أو سينوستريس مشى في شوارع طيبة لا بد أنه يدهش وتعتره حيرة ويتساءل عن البلد الذي هو فيه فان لبسه كان غريبا جدا وتغير استعماله تماما في عهد الامبراطورية الا فيما بين أفراد طائفة الكهنة . واذا أراد القارئ أن يتصوّر مبلغ هذه الدهشة فليتصوّر ظهور رجل من عهد الملكة إليزابث في شوارع لندره الحالية . والحق

يقال ان طيبة في عهد أمضحت الثالث امتازت بأبنيتها الشامخة وبيوتها الفاخرة ذات الحدائق اليازمة والمصايف النظرة حول المعابد الواسعة ، مما لم تشهده عين مصرى في أى زمن سابق (شكل ١٢٤) .

والمعروف أن استغلال ثروة بلاد النوبة وآسيا واستخدام أسراهما رقا كثيرا من البناء المصرى بطيبة من حيث الاتقان والجودة . وقد شجع أمضحت الثالث هذا الفن كثيرا فأعطى مهندسيه كل ما طلبوه ليرفعوا هذا الفن الى الدرجة القصوى ، ولذلك ظهر بين هذه الطائفة أفراد نوابغ نخص بالذكر منهم المهندس أمضحت الذى ذاعت شهرته في العالم حتى صار مضربا للأمثال بعد وفاته بالف ومائتى سنة لما أدمجت حكمه ضمن " أسمال السبعة الرجال العظام " في العهد اليونانى . وفي عهد البطالسة اعتبر هذا المهندس الها وعرف وقتئذ باسم " أمضحت بن حابو " (٢) .

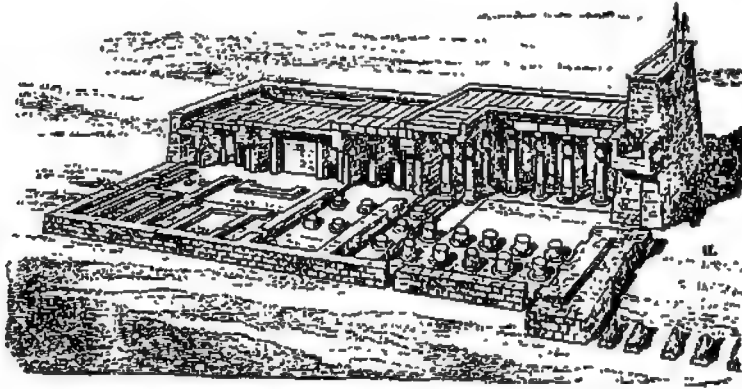
والمعروف أن المهندسين المصريين في عهد أمنحتب الثالث ابتكروا ذوقا جديدا في البناء وتفاصيل في العمارة تأخذ بالألباب ، ولا غرابة في ذلك مهندس العمارة وقتئذ كان لديه كل ما يحتاج إليه من مواد البناء والمال والرجال، وهكذا تمكن من إقامة العمارات الضخمة التي بهرت العقول بحجمها وبنائها . وتنقسم معابد ذلك الوقت من حيث عمارتها الى قسمين الكبير والصغير، وليس يعنى من هذا التقسيم أن المعابد الصغيرة أقل قيمة وجمالا لأن النوعين كانا غاية في الظرف والافتقار . أما المعابد الصغيرة فعبارة عن قاعة مستطيلة تشبه قدس الأقداس يتراوح طولها بين ثلاثين وأربعين قدما ويقرب ارتفاعها من أربع عشرة قدما وتنتهى في طرفها بباب يحيط به رواق . وأرض هذا المعبد مرتفعة عن سطح الأرض بما يقرب من نصف ارتفاع المعبد (شكل ١٢٥) . ويشاهد على جانبي الباب



شكل ١٢٥ - معبد صغير محاط بمعبد شيدته أمنحتب الثالث على جزيرة الفانين بأسوان
وهدمه سنة ١٨٢٢ ميلادية مدير أسوان للترنك وقتئذ ليستعمل أحجاره للبناء .
(مأخوذ من وصف بيتر تابوليون العلمية)

عمودان رشيقان خلفهما القاعة المستطيلة تحيط بها من الخارج عمد بدبعة مفصولة عنها بممر فسيح ، ولذلك كان لمنظر هذا البناء تأثير عظيم في نفوس ناظره . وهذا النوع في اعتبار رجال الفن برهان ساطع على تقدم فن البناء وقتئذ حتى أن بعثة نابليون الأثرية دهشت جدا لما وقع بصورها على هذا النوع من المعابد وأيقنت من فورها أنها أصل لعمارة المعابد اليونانية الذي تحيط به العمدة من الخارج (Peripteral) ، ولا غرابة في ذلك فكثير من البناء اليوناني يرجع في الأصل الى البناء المصري . أما نوع المعبد الآخر وهو المعروف بالكبير (شكل ١٢٦) فقد بلغ أعظم درجاته وقتئذ وهو يختلف كثيرا عن النوع الصغير ، فعمده مقامة في الداخل لا من الخارج وقدس الأقداس محاط بجدة حجرات كسابق العهد إلا أنها أكبر حجما لتناسب ثروة البلاد وكثرة إيراد المعابد وقتئذ . وتوجد أمام قدس الأقداس قاعة كبيرة سقفها قائم على عمد شائخة أمامها حوش كبير يحيط به رواق ذو عمد أيضا . وفي مقدمة هذا الحوش صرح كبير مزدوج جدره مائلة الى الداخل يدلوه إفرنجي مجوف وين جزأى الصرح باب المعبد الكبير . ولا يشيد هذا المعبد عادة من الأحجار الضخمة التي يتراوح

طولها بين ثلاثين وأربعين قدما وزنتها بين مائة ومائتي طن ، بل تستعمل لذلك أحجار متوسطة الحجم من النوع الرملي أو الجيري . وجرى العادة أن تحلى جدر المعابد - عدا الأعمدة - بالرسوم البارزة فتشاهد على خارج المعبد مناظر تمثل الملك يحارب أعداءه وعلى داخله يشاهد الملك طابعا المعبودات ، ومعظم هذه الرسوم ملقونة بالألوان الزاهية . ويتكوّن باب المعبد من مصراعين مصنوعين من خشب الأرز اللباني ومطعمين بالبرز ، وعلى جانبي الباب مستنان كبيرتان تملوان الصرح وهناك أيضا تماثلان كبيران للملك على جانبي الباب مصنوعان من حجر واحد ظهرهما ملاصق بالحدار الصرح ووجههما مقابل لزاوى المعبد . والمعروف أن هذا الترتيب والنظام كان متبعا قديما في المعابد فلما حكم أممتحتب الثالث أقتن مهندسوه وأبدعوا حتى كوتوا منها أنموذجا جديدا من أبداع ما عرف في فن العمارة لا يزال مستعملا بكثرة الى عهدنا هذا .



شكل ١٢٦ - رسم هندسى يمثل تفاصيل المعابد ذات الصروح في عهد الامبراطورية . وقد روى رسم نصف المعبد ونصف الصرح المقابل للقائى لانهما يحتويان المعبد (أخذوه عن برو وشييه)

وكانت الأقصر وقتئذ معتبرة إحدى ضواحي طيبة وفيها معبد صغير لآمون شيدته ملوك الأسرة الثانية عشرة . فلما أتى أممتحتب الثالث هدمه وأقام محله معبدا جديدا تحيط به عدة حجرات أمامها قاعة كبيرة كالتى شيدتها تحوتمس الأول في الكرنك . بعد ذلك شيد مهندسو أممتحتب الثالث أمام هذا البناء إيوانا بديما يحوى أروقة ذات عمد يعتبر الآن أجمل ما خلفه لنا تاريخ مصر القديم من العائر (شكل ١٢٨) . ثم ازداد هؤلاء المهندسون ثقة بأنفسهم فشيدوا إيوانا آخر أمام الايوان السابق وأكبر منه ويظن أيضا أنهم صمموا وقتئذ على إقامة إيوان ثالث أمام هذا الأخير . وبدأ المهندسون بتشيد الايوان الثانى بأن نصبوا أولا صفحا من العمد الشاخحة على جانبي محور الايوان فكانت أعلى من أى بناء شيدته المصريون سابقا (شكل ١٣٠) . وليلاحظ أن كبر حجم هذه العمد كان متمشيا مع حسن منظرها فزوسها البديعة صنعت على مثال زهر البردى اليبانج الجميل (شكل ١٣٠) . بعد ذلك شيد المهندسون عمدا آخر أقصر طولاً على جانبي عمد المحور فنجم عن ذلك ارتفاع سقف محور الايوان (وهو الصحن) على سقف جانبيه . ثم فتحت منافذ في الجدار القائم بين سقف الصحن العالى وسقف

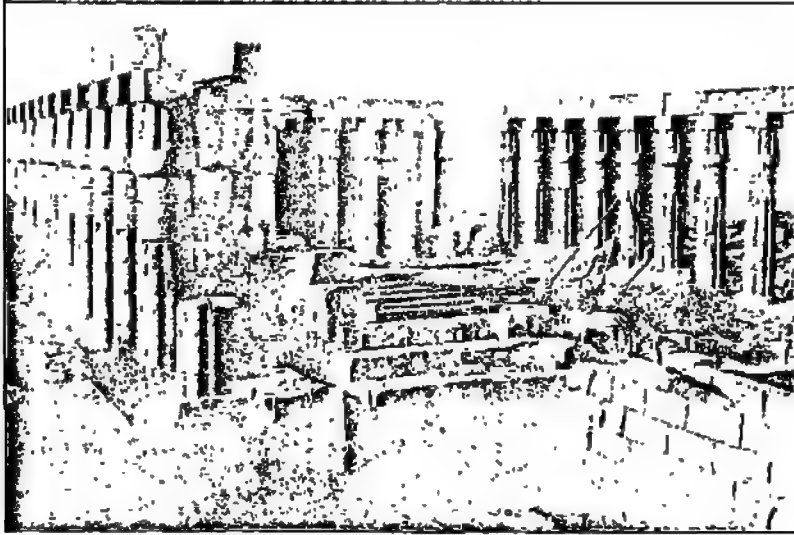
البلغانيين المنخفض فنشأ عن ذلك أساس عمارة المحاكم الرومانية (Basilica) والكائس الكبيرة في عهدنا هذا . ومن دواعي الأسف أن أمنتحتب الثالث توفي قبل أن يتم بناء هذا الايوان الكبير ، فلما تولى ابنه إخطاطون الملك بعده لم يهتم بها لشدة بغضه لآمون . بعد ذلك أتى فراعنة آخرون شيّدوا جدارا حول عمد الصحن من أحجار عمد البلغانيين التي لم تكن نصبت وقتئذ ، ولا يزال هذا البناء باقيا الى عهدنا هذا ويعتبر أقدم بناء من هذا النوع العالم كله مدين له .

وأخذ أمنتحتب الثالث يقيم بطيبة العمارات الضخمة العديمة المثال فشيّد صرحا شامخا أمام معبد الكرنك حاويا أنواع التحف ونصب على جانبيه شواهد حجرية مطعمة باللازورد وبكيات كبيرة من الذهب والفضة وما يقرب من ألف ومائتي رطل من الحجر الملكي (Malachiste) (١) . وأنشأ شارعا فسيحا يصل الى هذا البناء مبتدئا من النهر وعلى جانبيه مستنان عظيمتان (٢) . وأقام المهندس أمنتحتب أمام ذلك تماثلا للملك مصنوعا من صخرة واحدة من الحجر الرملي ارتفاعه سبع وستون قدما مقطوع من حاجر قرب القاهرة ، وقد أحصر هذا التمثال الى طيبة جيش من الأهالي بطريق النيل ويعتبر هذا أكبر تمثال عمل حتى ذلك العهد (٣) . وشيّد أيضا معبدا لموت (Mut) معبودة طيبة في مكان المعبد الذي أسسه أسلافه من قبل وذلك جنوبي الكرنك ، وحفر بيجواره بحيرة مقدسة وزرع حديقة غناء فيما بين الكرنك ومعبد الأقصر فكان طولها حوالي ميل ونصف ، وأنشأ بين هذين المعبدن طريقا فسيحا أقام على جانبيه تماثيل حجرية لكباش (شكل ٤ وشكل ١٢٩) يحمل كل منها بين رجليه الأماميتين تماثلا لجلالته ، ولا بد أن يكون منظر هذا الترتيب الهندسي بديعا ومؤثرا للغاية لأن هذه العمارات كانت وقتئذ زاهية الألوان كثيرة العمد والأبواب الملبسة بالذهب ، أما أراضيها فكانت مكسوة بالفضة ، وتشرف على الجميع مسلات شامخة مكسوة بالمعادن اللامعة بين أغصان الأشجار والتخيل الكثيف ولذلك كان المنظر غاية في الأبهة والجمال يعجز القلم عن وصفه . ولا تزال آثار هذه العمارات باقية تشهد بعزها السابق ومجدها القديم ومنها يتضح أن مقام طيبة عظم وقتئذ فصارت جدية بأن تكون عاصمة امبراطورية كبيرة وأول مدينة أثرية في العهد القديم . أما شاطئها الغربي الذي يحوى مقابر الفراعنة السالفين فلم تعثره تغيرات كالتى حصلت للكرنك ولمعبد الأقصر . وفي ذلك الاقليم كانت تشاهد أيضا معابد الملوك السابقين منتشرة على خط متعرج يبدأ بمعبد أمنتحتب الأول الوضع شمالا ويمتد الى مسافة طويلة جنوبا حيث ينتهى الى معبد أمنتحتب الثالث الذي فاق المعابد كلها هناك . وشيّد له الملك صرحا عظيما نصب أمامه تماثيل حجريين ضخمين مصنوعين من صخرة واحدة ارتفاع كل منهما سبعون قدما تقريبا . ونصب أيضا مستلين أمام الصرح ثم أوصل هذه العمارة بالنيل بطريق متسع نصب على جانبيه عدة تماثيل لابن آوى . وقد أكثر جلالته من تماثيله المقامة بين عمد الحوش ونصب أيضا لوحا حجريا عظيما (٤) من الحجر الرملي يبلغ ارتفاعه ثلاثين قدما مطعما بالذهب والأحجار الكريمة يشير الى "المكان الملكي" الذي كان جلالته يقف فيه محفوقا بالاحترام وقت الاحتفالات الدينية . وأقام جلالته أيضا حجرا أثريا آخر (٥) يبلغ ارتفاعه عشر أقدام أثبت عليه كل ما عمله المعبود

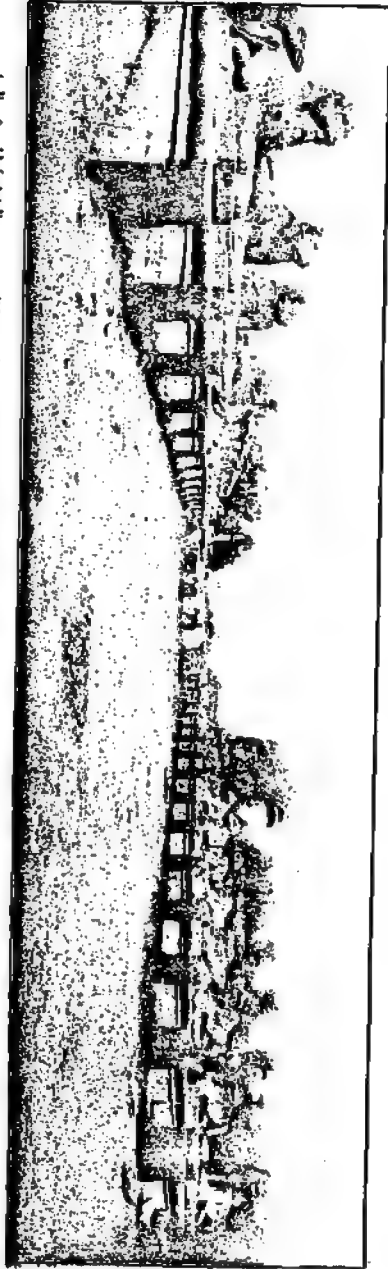
(١) ٩٠٣: ٢ (٢) ٥٧: ١٠٣: ٢ (٣) ٩١٧: ٢ (٤) ٩٠٤: ٢ ملاحظة (٥) ٨٧٨: ٢ ملاحظة



شكل ١٢٧ - جزء من إناج وجد بجزيرة كريت عليه نقوش مسموعة .
يشاهد عليه رسم لاحتفال وفي وسط الاحتفال كاهن مصري
يعزف بآلة موسيقية في مقدمة ثيان كريت . ويرجع
تاريخ هذا الإناج إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد



شكل ١٢٨ - ساحة أمتحطب الثالث ذات العمدة التي على شكل باقات براعم البردى (معبد الأقصر)



شكل ١٢٩ - مرفق أمام مسجد الكركين القديم مقام مل جانيه قاتيل كاش مدينة . ويته هذا المرفق مدخل الميبد (القريب من الناطق) ال نجر البيل
 (البيلد من القارنق) . (أسود من المشرجون ورد)

أمون . ثم زخرف بسخاء جدر وأرض معبده بالذهب والفضة فزاد كثيرا من هيئته . يتضح من ذلك أن حسن الذوق ومهارة الأشغال اليدوية بلغت وقتئذ درجة لم يفقها المصريون بعد ذلك . وخصامة تلك الأعمال والمصنوعات تدهش كل من يراها ، خذ مثلا أبواب الصروح المصنوعة من خشب الأرز فقد كانت أعقابها وزخرفها المصنوعة من البرنز تزن بضعة أطنان ، زد على ذلك أنها كانت تتطلب لطونها قوالب تفوق الوصف من حيث الضخامة . وللاحظ أن الحياة البرزية لتلك الأبواب المزخرفة برسم المعبود الجميل والمطعمة بالمعادن الكريمة بمهارة كانت تتطلب وحدها كفاية عظيمة في الفنون الجميلة والأشغال الآلية مما يندر استعماله في عهدنا هذا .

ولم يزل فن الحفر وقتئذ درجة عظيمة لم يبلغها سابقا ، فقد بذل عمال هذا الفن الجميل كل ما في وسعهم من الجهد والالتقان مهتمين بصغريات الأمور . ومع ما تتطلبه هذا العمل من المجهود العظيم فإن مثالي الأسرة الثامنة عشرة لم يألوا جهدا في مراعاة عادة أجدادهم القديمة في تخصيص معالم الشخص على مثاله بقدر الامكان . ويمتاز فن الحفر في هذا العصر (شكل ١٣٦ و ١٣٧ و ١٥١) ببراعته ورقته وحسن تصرفه ، الشيء الذي كان ينقص أحسن تماثيل العصور السالفة ، ومع ذلك كانت تماثيل الأسرة الثامنة عشرة أبعد عن الحقيقة من تماثيل الملكة الوسطى مثلا ، ولم يكن الالتقان والابداع في هذا الفن الجميل مقصورا على التماثيل الصغيرة بل شمل أيضا التماثيل الضخمة ، وقد لاحظنا أن هناك تماثيل ضخمة قليلة الالتقان بالنسبة لغيرها . وقد أظهر الحفاريون مهارة في عمل النقوش والرسوم البارزة فالناظر مثلا الى الصورة الفوتوغرافية للحجر الأثري الموجود بدار التحف ببرلين (شكل ١٣٣) يتبين له فيه رسم بارز لجنائز كاهن من منف يمثل فيه نجلا المتوفى سائرين وراء الجثة تبدو على عيها علامات الحزن والأسى الشديدين ، ويلاحظ في الجنائز أيضا رسم كبار كهنة الحكومة يبدو عليهم عظم التأثير مراعاة للظروف ثم منظر مخالف لذلك يمثل أحد الكبار المتأنق الملبس ينظم شعره المعطر المستعار . وبديهي أن الحفار الذي لم يبق لنا من أعماله إلا جزء من هذا اللوح كان ماهرا غزير المادة حاد الذهن والنظر الى معالم الحياة على اختلافها ، فقد تمكن من إيضاح وجدان الأسى والحزن لأقارب المتوفى وأداء الموظفين للواجب مراعيًا في الوقت نفسه اهتمام القوم وقتئذ بالتأنق في الملبس وجمال الهندام . لذلك لا غرابة اذا لاحظنا أن هذه الوثيقة التي يرجع تاريخها الى ما قبل عهدنا بخمسة وثلاثين قرنا أصبحت الآن تأخذ بالباب ناظرها من حيث تخيلات صانعيها وما أثبتته من أحوال المعيشة فيها . ولا تنحصر قيمة هذا اللوح الحجري في أنه يحوى مجموعة من الرسوم من أجل ما عرف في البلاد المصرية القديمة بل لأنه يمثل فنا جميلا كان معدوما تماما في بلاد العالم القديمة إلا القطر المصري ، ولذلك يعتبر هذا اللوح من أقدم أنموذجات الحفر الحجري التي تتمثل فيها مظاهر الحياة المتباينة ولا يخفى الوجود المتنوع بأجلى بيان وأرق درجة ، وقد نسب البعض هذا الرق في الحفر الى اليونانيين لكننا بعد ما شاهدنا هذا اللوح لا يسعنا الا أن نحزم بعدم صحة هذا الرأي وأن نشهد للصيريين بأنهم أول من مارسوا هذا النوع من الفنون الجميلة .

ومن أعظم الوسائل لتشجيع أرياب الفنون الجميلة وقتئذ على ابتكار المجموعات البديعة التي غابت عن سلفهم في العصور السابقة ما شاهدوا على فراعنتهم من الشجاعة والاقدام ، خذ مثلا المناظر الحربية المحلى بها مقدم مجلّة نحوتمس الرابع الملكية (شكل ١٣٥) فانه يحوى مجموعة رسوم شتى ليس لها نظير فيما سبق ، والمعروف أن هذا النوع من الفن استمر استعماله أيام الأسرة التاسعة عشرة أيضا . وبالرغم من صعوبة تمثيل الحياة الوحشية في مثل هذه الظروف فان الصانع تمكن من رسم الحيوانات بمهارة لم يصل اليها المصريون قبل ذلك الوقت أو بعده . ويوجد بدار التحف ببلنبره تماثيل لآسدين يرجع تاريخهما الى عهد الملك أمنحتب الثالث (شكل ١٣٣) وصفهما الأستاذ رسكن (Ruskin) بأنهما أجمل ما صنع أعالى الزمن القديم من حيث اتقان الجسم واطهار الشم بوضوح . ومع استيفاء ما يستحقه هذان التمثالان من المدح فان القارئ ليدعش اذا علم أنهما ما صنعا الا طلبة محراب صهيقي بجمه صلب (Soleb)^(١) شمالى النوبة . وطبعا اذا كانت هذه درجة اتقان التماثيل التي وضعت في معبد نوبي صهيقي فاذا عسى أن يكون اتقان التماثيل التي كان يحلى بها معبد فرعون بطيبة ! وللأسف أن هذه الآثار العظيمة التي دلت على أقصى ما بلغت الصناعة المصرية من الجودة والاتقان اندممت وأضحت في خبر كان ، ولم يبق من هذه الآثار الضخمة الا تماثيل عظيميان ألتفهما الطقس بمرور الزمن كانا منصوبين سابقا على جانبي مدخل معبد أمنحتب الثالث ، ولا يزال هذان التمثالان يلقيان نظرها على سهل طيبة الغربى كما فعلا من قديم الزمان (شكل ١٣١) وتشاهد على أحدهما نقوش يونانية خطها الزقار اليونانيون الذين أتوا في عهد الرومان لسماع صوت ذلك التمثال الذي ينبعث منه كل صباح . وعلى بعد مائة خطوة خلف هذين التمثالين يوجد شاهد حجرى عظيم محطم نصفين كان مغطى بالذهب والأحجار الكريمة وموضوبا في "محل الملك الخاص" ولا تزال عليه نقوش هيروغليفية باقية للآن هذه ترجمتها : "لقد عمل جلاتى كل هذه الأعمال لتعيش الملايين من السنين ، وأنا متأكد أنها ستمتد كذلك على وجه الأرض"^(٢) . وسأبى الكلام فيما بعد على ما أصاب هذا المعبد الملكى العظيم من أعمال التدمير التي ارتكبتها خلفاء أمنحتب الثالث العديدين الذمة الذين حكوا القطر بعده نحو مائتى سنة . وأجود رسوم تلك العصور كانت داخل القصور ولذلك تلفت كلها لأن معظمها كان مصنوبا على الخشب أو اللبن وانما يستدل من البقايا الموجودة من رسم الحيوانات والطيور بمناظرها الطبيعية على توقد ذهن الصانع ومهارته القصى أيام إخناتون الذى جلس على العرش الفرعونى بعد أمنحتب الثالث . ورغبات ملوك عهد الامبراطورية لإجادة رسم الخلط الحربية أثرت في نفوس الفنانين كثيرا فأجهدوا أنفسهم وقدحوا زناد قرائمهم حتى أظهروا الاشياء جلية ، ومع أنه قد فقدت تلك المناظر الحربية التي قهشت على جدر المعابد فمن الممكن أن نتصور غاسنها وتأثيرها في النفوس بالإيمان في الرسوم الحربية التي على مقدمة مجلّة نحوتمس الرابع الحربية .

من ذلك يتضح أن شاطئ طيبة الغربى كان مزدانا بالآثار والأبنية البديعة وبالأخص الشارع المتسع الذى أنشأه أمنحتب الثالث مبتدئا من النيل وفيه تماثيل ابن آوى العديدة . وعلى الجهة

(١) ٢ : ٨٩٣ و ٨٩٦ - ٧ (٢) ٢ : ٩٠٧



نقشه روستا و سراسر طایفه انارک در سیستان

مركز ميانى "ميدان اهل حق" در جنوب غربى روستا واقع شده است. در اين منطقه باغ
 جلاله و درختان نخل فراوان است. در شمال غربى روستا "ميدان اهل حق"
 واقع شده است. در جنوب روستا "ميدان اهل حق" واقع شده است. در
 شمال روستا "ميدان اهل حق" واقع شده است. در جنوب روستا "ميدان اهل حق"
 واقع شده است. در جنوب روستا "ميدان اهل حق" واقع شده است.

الشمالية خلف معبد هذا الملك وبالقرب من الصخور الجبلية بنى قصر الملك الذى ضم كثيرا من الأخشاب ذات الرسوم والألوان الزاهية ، وكان طلق الهواء مزدان الوجهة بسوار عالية تنتهى بأعلام طويلة ملونة بعض اللون ، وفوق مدخل القصر شرفة عظيمة ذات مضاجع مزركشة مجلدة على عمد رشيقة كان يظهر فيها الملك لمشاهدة رعيته فى ظروف مخصوصة (شكل ١٣٩) . وتمتاز المصنوعات الجميلة التى حليت بها أمثال هذه القصور بكونها منتهى ما وصلت اليه المهارة فى حسن الذوق لجمال تلك العصور، وهذه الحقيقة مشاهدة على الآثار العديدة الموجودة بدور التحف بأوربا ، تلك الآثار التى تثبت لنا عظم شأن محتويات القصور الفرعونية وقتئذ ونفائس رسومها وبديع أثاثها . فالأواني الذهبية والفضية البديعة المزخرفة بالرسوم الأدبية والحيوانية والنباتية والمخللة الحفافات بالأزهار الساطعة الزاهية التى كانت تستعمل على مائدة الملك بين الأكواب البلورية والأوعية الزجاجية والخزفية السمراء اللون البديعة المطلية بالرسوم الزرقاء الجميلة ، كل هذه تشهد لمحتويات قصور الفراعنة بعظم القيمة ونفائس الأثاث . وجرت العادة وقتئذ أن تكتسى جدر القصور بالبسط البديعة ذات الألوان الزاهية وقد وصفها بعض الأخصائيين بأنها تضارع أجود المنسوجات الحالية امتقانا . أما الأرض فكانت تحلى برسوم كثيرة تمثل حياة الحيوان المختلفة (شكل ١٣٨) . وقد حليت الجدر أحيانا ببلاط أزرق جميل لامع ذى رسوم ذهبية بديعة . أما كسوة الأمكنة الفسيفساء فلم يستعمل لها إلا البلاط اللامع الملون الموافق للذوق . ولهذا الأسباب قارن الأثريون عصر هذه الفنون الجميلة بمصر لوبيس الخامس عشر لما كان فيه القصر الملكى مثال الرقى والتقدم فى الفنون الجميلة .

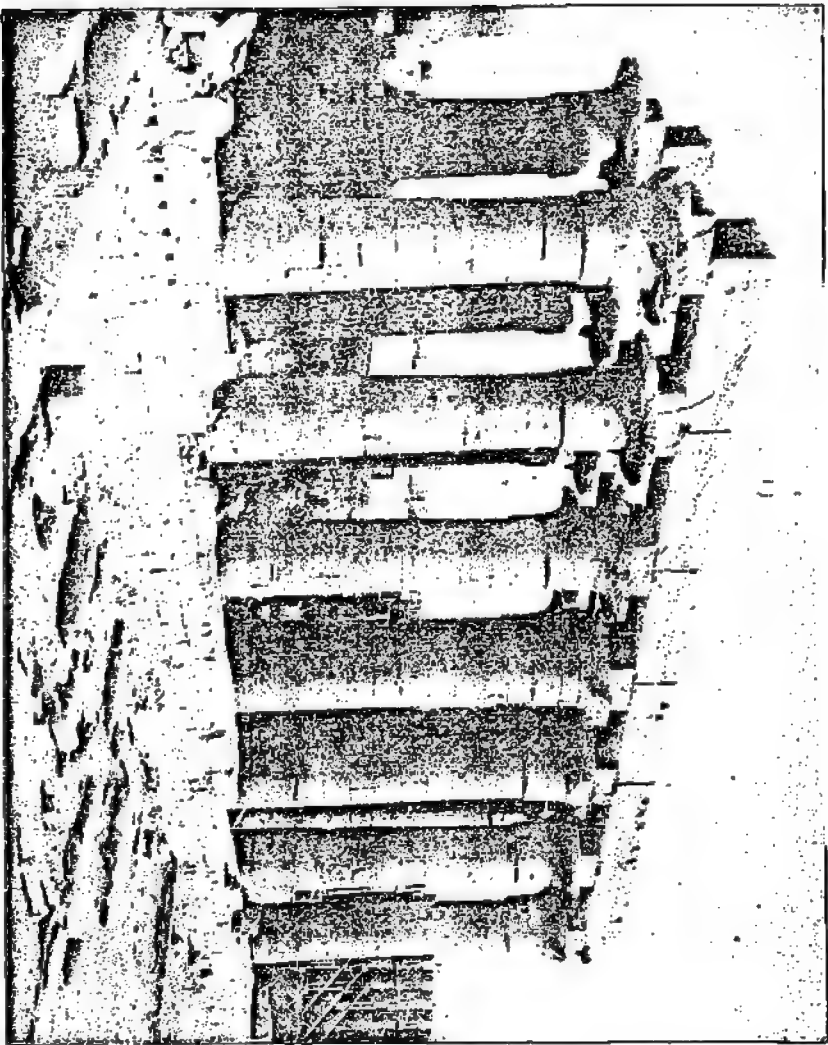
وخصص أممحتب الثالث جزءا كبيرا من قصره لزوجته تى (Tiy) حفر ببحواره بحيرة كبيرة يقرب طولها من ميل وعرضها من ألف قدم . وقد احتفل الملك فى عيد ميلاده السنوى الثانى عشر بفتح السدود لإرسال المياه الى تلك البحيرة ثم طاف عليها بمركبه الملكى مصحوبا بملكته تى فى احتفال مهيب ينسب . يصفه كثيرا ما ورد فى حكايات ألف ليلة وليلة الخاصة بهارون الرشيد . والمعروف أن الموسيقى ارتقت كثيرا وقتئذ عما كانت عليه فى الأزمنة السالفة فكبر حجم الناي حتى قارب طول الانسان واحتوى على عشرين وترا ، ثم أدخل استعمال القيثارة من آسيا فأصبح جوق الموسيقى التام مكونا من ناي وقيثارة وعود ومزمارين . وأراد الملك أن يقيم تذكارا لفتح بحيرة قصره المذكورة فأمر بصنع عثة أجمجة بشكل جعل نقش عليها باختصار أخبار هذا الاحتفال (١) . وقد كثرت الاحتفالات والأفراح فى طيبة وقتئذ حتى أصبحت مضرب الأمثال فى الفرح والسرور والرفاهية كما كانت روما وبابل فى عهدهما الامبراطورى . ثم ان الأعياد الدينية التى كانت تقام فى الشهر السابع كل سنة من حكم أممحتب الثالث عظمت من حيث الزينة والفرح ، فسمى هذا الشهر "بشهر أممحتب" وبقي معروفا بهذا الاسم مدة طويلة بعد وفاة هذا الملك . ولا يزال هذا الشهر معروفا بهذا الاسم المحترف بين أهالى مصر الحديثين الذين يجهلون نسبة ذلك الى هذا الامبراطور العظيم .

ولا بد أن آداب اللغة المصرية بلغت وقتئذ درجة عظيمة من الرقي ومع البحث لم نهند لنصوص كثيرة منها . وقد ألمعنا سلفا الى مدحة آمون لتحتسب الثالث وسيأتي الكلام عاجلا على مدحة إخناتون لعبود الشمس ومنها يمكن القارئ أن يتصور شيئا من أدبيات تلك العصور . ولم نعر للآن على قصص أو روايات أو أغان لتلك الأزمنة، وكل ما اهتدينا اليه من هذا القبيل يرجع تاريخه الى عهد الأسرة التاسعة عشرة وما بعدها .

واعتماد الملوك أن يستريحوا بالسفر في رحلات للصيد وقد مارس هذا النوع من الرياضة وأغرم به كثيرا أمحتب الثالث ، فاذا أبلغه حراسه اقتراب قطيع من الغنم الوحشي من تلال غربي الدلتا فانه يترك قصره في منف ويركب ليلا سفينة حتى يبلغ محل ذلك القطيع بغرا فيجد في انتظاره هناك جنودا عديدين مع أهل القرى المجاورة ، فيحيط هؤلاء القوم بالقطيع ويطارده حتى يدخلوه محلا فسيحا محاطا بسور كما هي العادة المتبعة في العصور السابقة . وقد أحصى عدد الغنم الذي حصر ضمن ذلك السور صرة فيبلغ مائة وسبعين حيوانا وحشيا . عند ذلك هم الملك في عجلته على القطيع فقتل منه في اليوم الأول ستة وخمسين وحشا . بعد ذلك بأربعة أيام هم دفعة أخرى بفنخل ما يقرب من عشرين وحشا . وقد أهتم أمحتب الثالث برحلة الصيد فنقش أخبارها على عدة جعل (١) . وبعد ما أمضى عشر سنوات في ممارسة صيد السباع وزع الهدايا على رجال قصره المقشوش عليها ما ترجمته "عدد الأسود المقترسة التي اصطادها جلالته برماحه من السنة الأولى الى السنة العاشرة من حكمه ١٠٢" (٢) وقد جاء هذا الكلام بعد ديباجة ملكية معنادة حاوية لاسمه واسم زوجته الملكيين ، وقد عثر حديثا على ثلاثين أو أربعين من هذه الهدايا على شكل جعل لا تزال موجودة للآن .

من ذلك يتضح أن فرعون مصر أخذ يظهر لرعيته على غير عادته ، فقد شغلته الملامى الدنيوية حتى صار القصر الملكي ملكا للرعية وصار اسم الملكة يظهر بجانب اسم الملك على المستندات الرسمية جميعها رغما من انقطاع صلة الملكة بالبيت الفرعوني . ولما توثقت العلاقة بين مصر والبلاد الآسيوية اضطر فرعون مصر أن يعدل عن مركزه الإلهي الديني الذي لا يتناسب إلا مع الذهن المصري القديم ، فظهر بمظهر آدمي اعتيادي في مزاج ملوك بابل ومثاني فاعتبره هؤلاء الملوك "أخا" ولم ولنلك أصبح مركز فرعون مخالفا تماما لمركزه القديم السالف الممتاز بالمكوف عن الرعية . ولا غرابة في ذلك فصيد الأسود والثيران وغيرها أبعد عنه كثيرا من الصفات الإلهية التي توهمها قومه فيه ، وقد شبه هذا الانتقال المدهش في صفات الفراعنة بتدوين امبراطور الصين أو حاكم التبت أعمالها الشخصية على عدة "مداليات" تعطى للرعية . لكنه يلاحظ أن أمحتب الثالث لم تجرد تماما من العوائد القديمة المتبعة فقد شيد معبدا بمنف كان يعبد فيه (٣) وكبر معبد صلب (Soleb) (٤) حيث عبد فيه آمون ، وكانت زوجته تعبد في معبد سدنجيه بالنوبة . لذلك كان أمحتب الثالث إله النوبة

(١) ٢: ٨٦٢ - ٤ (٢) ٢: ٨٦٥ (٣) ٢: ٣٥٤ - ملاحظة (١) (٤) ٨٩٣ ملاحظة



شكل ١٢٠ - عمود صحن سيد المسيح الثالث الذي لم يكمل بناؤه . وكان يجب أن يقام على جاني هذا الصحن صحنان آخران ذوا عمدتين
مستوية . أما المداخل القصير المقام على جانبي هذا الصحن فقد شيده نظام إبيستولون الذين هجروا من أقاليم شرقية المتوسط

مع اقلعه عن الأصول المتبعة القديمة في القصر الملكي والديانة . ولم نتأكد لآن اذا كان هذا التغير الحديث، الذي لا بد أن يتعارض يوما ما مع حرص البلاد الشرقية على أنظمتها القديمة، آتى قصدا أو عقوا .

والمعروف أن الأمور سارت في مجراها المريح لكن عوامل النزاع أخذت تعمل على الخفاء ، كما أن الخطر الخارجي الذي هدد كان المملكة المصرية أخذ يتجسم على غير علم من فرعون ، ولذلك كان مركز أممحتب الثالث بطييه وقتئذ أشبه شيء بمركز القياصرة . وفي السنة الثلاثين من حكمه احتفل بعيد تعيينه وليا لعهد المملكة المصرية وقد وافق هذا التاريخ معاد جلوس جلالته على العرش أيضا، ويظن أن المسلمين اللتين أقيمتا أمام معبده صممتا خصيصا لذلك الاحتفال . وما زاد الاحتفال عظمة وجلالا ما قدمه رئيس المالية لملك من المقادير الجسيمة لدخل المستعمرات الممتدة من النوبة الى النهرين وقد نعته الرئيس المالي بقوله " ان الدخل هذا العام أكثر من دخل كل سنة سابقة " وقد قابل الملك هذا الخبر بماء الارتياح . ثم أمر باستعراض موظفي ديوان المالية وأنعم عليهم بالهدايا الجزيلة^(١) . ومر احتفال السنة الرابعة والثلاثين بدون اضطراب . بعد ذلك احتفل بعيد السنة السادسة والثلاثين وكانت تتجلى فيه مظاهر الكمال ، ولم تمنعه شيخوخته من الاشتراك شخصيا في الاحتفال ومقابلة مهنثيه وأعيان مملكته^(٢) .

في ذلك الوقت ظهرت اضطرابات في جهات المملكة الشمالية تتلخص في أن ملك خيتا (الحيثيين؟) غزا مملكة متاني ثم ان ملك الأخيرة المدعو دشراتا أرسل قوة الى خيتا حاربتهم وهزمتهم . بعد ذلك أهدى دشراتا جلالة أممحتب الثالث عجلة وجوادين وأسيرين من الغنيمة التي استولى عليها من جيش خيتا^(٣) . والمعروف أن الاضطرابات لم تقتصر على ذلك بل شملت أيضا بعض المستعمرات المصرية ، فقد ورد أن أكزي (Akizzi) ملك قطنا (Katna) أي حمص ؟ الوالي المصري أخبر أممحتب الثالث أن جيوش خيتا توغلوا في قسمه بوادي الأوزونط واستولوا على شمال آمون رع المنقوش عليه اسم أممحتب الثالث وأحرقوا المدينة عند رجوعهم^(٤) . وجاء أيضا أن ملك مقاطعة نوخاشي الشمالية (حلب؟ Nukhashshi) المدعو حد نيراري (Hadañirari) أرسل الى أممحتب الثالث خطابا يستشيريه فيه لحماية مصر من هجمات الحيثيين الذين غزوا بلاده معلنا في الوقت نفسه ولاءه وخضوعه لفرعون مصر^(٥) . والمعروف أن هذه الاضطرابات كلها حصلت من عدم اخلاص الولاة لمصر لأنهم اتبعوا طرق الحياة وطعموا في أرض المقاطعات المجاورة ليضموها الى مقاطعاتهم كما يستتج ذلك من أعمال والي مصر المدعو أزيرو (Aziru) ووالده المدعو أبداشيرتا (Abdashirta) فقد كانا رئيسين لحركة ثورية كبيرة زحفت شمالا واستولت على قطنا ونوخاشي من الجنوب ودمرت البلاد التي مرت بها . وقد اشتركت معهما في هذه الاجراءات المخلة بالنظام مقاطعات أخرى هددت مقاطعة دمشق المعروفة وقتئذ

(١) ٨٧٢-٨٧٠ : ٢ (٢) ٨٧٢ : ٢ (٢) خطابات تل العمارنة ١٦ و ٣٠-٣٧ (٤) شرحه ١٢٨

على الظهر ٢ : ١٨٥-٣١ (٥) شرحه ٣٧

باسم أوبي (Ubi) وسرعان ما أخطر كل من أكرى (Akizzi) ملك قطنا ورب دى (Rib-Addi) ملك بيلوس (جيل) فرعون مصر بتلك الخيانة . بعد ذلك أرسل أكرى (Akizzi) خطابا إلى أمنتب الثالث ملتصقا مساعدته هذه ترجمته :

”كما أن دمشق الواقعة في مقاطعة أوبي تبتهل إلى قديمك لتساعدك كذلك قطنا (حصص؟) تتضرع إلى قديمك لتشملها بعنايتك وحمايتك“ .

لكن الحالة كانت أخطر مما تصورها فرعون مصر ، فهو لم يتأكد من خبز زحف الحيثيين المذكور لأنه على أثر هذا البناء أرسل أكرى خطابا إلى أمنتب الثالث هذه ترجمته :

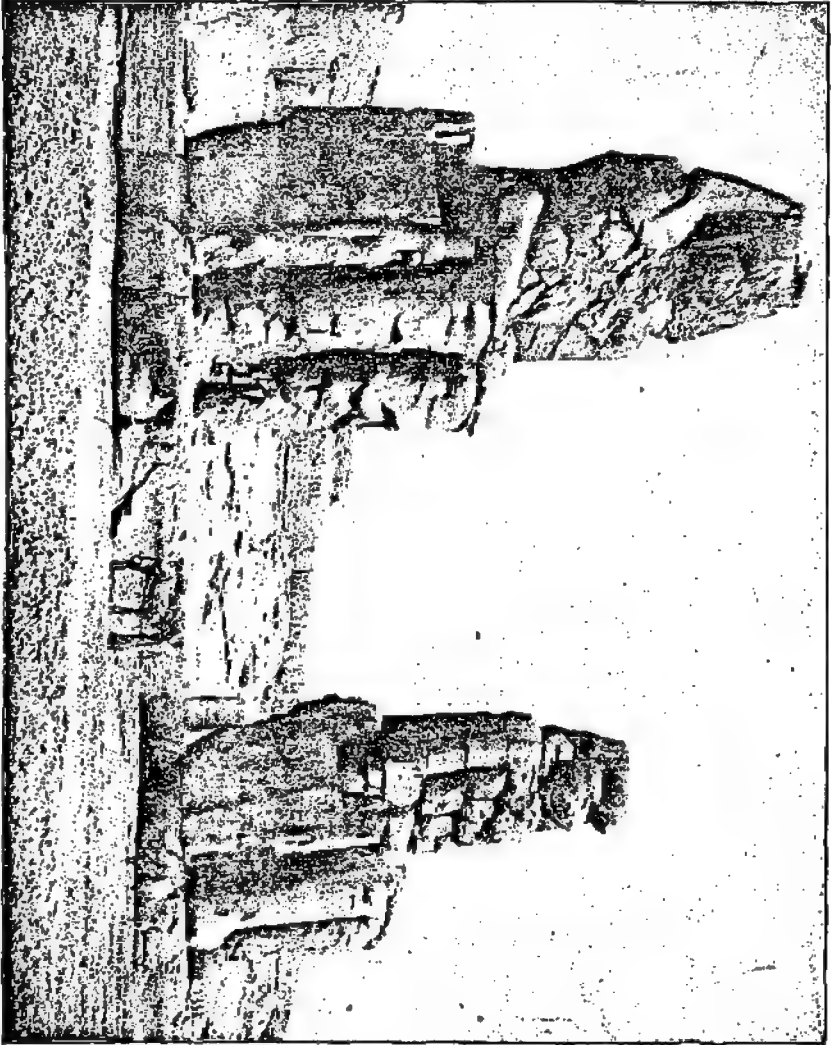
”بقدر محبتي لك أيها الملك ان ملوك نوخاشي (حلب؟) وني (Niy) وستزار (Senzar) وكينانات (Kinanat) تحبك أيضا ، كيف لا وهم كلهم خدم جلالتك“ .

أمام هذه الأقوال لم يزحف أمنتب الثالث بمجنوده شخصيا إلى تلك الجهات كما فعل تحوتس الثالث بل اكتفى بإرسال جنوده : وقد تمكنت هذه القوة أولا من إخضاع الثوار بسهولة بمساعدة أهالي البلاد التي كانت تحت الخطر الحيثي^(١) ، لكن هذه القوات المصرية لم تتمكن من مكافحة الحيثيين بجهة بلاد النهرين جنوبا حيث استولوا على مركز حربي غاية في الأهمية وقت هجومهم على سوريا . ولا يخفى أن طول غياب ملك مصر عن سوريا قل كثيرا من هيئته هناك ، زد على ذلك أن الاضطرابات لم تسكن طويلا بل بدأت بالظهور فعلا جهة صيدون (صيدة) بعد ما تركها أمنتب الثالث راجعا إلى مصر . ومما زاد الطين بلة أن بدو الصحراء الآسيوية المدحورين بالخابيري (Khabiri) أغاروا على سوريا وفلسطين كما دأبوا في غاراتهم هذه المرة كانت سلمية أشبه بهجرة . من ذلك يتضح لنا أن مستعمرات مصر الآسيوية أصبحت في خطر عظيم قبيل وفاة أمنتب الثالث ، ونستدل على ذلك من خطاب رب أدى (Rib-Addi) وإلى جيل (بيلوس) الذي أرسله إلى ابن أمنتب الثالث إخناتون هذه ترجمته :

”منذ رجوع والدك من صيدون (صيدة) — منذ ذلك الوقت — وقعت البلاد في أيدي البدو الخابيري (Khabiri)“^(٢) .

في مثل هذه الظروف العصبية توفي أمنتب الثالث الذي يحق لنا أن نلقبه ”بالمملك المجيد“ . وقد أرسل ملك متاني إلى خليفه شمال إشتار (Ishtar) إله نينوى للمرة الثانية يأمل طرد الأرواح الخبيثة الحالة به واسترجاع قوته وصحته السابقتين^(٣) . ومن دواعي الأسف أن هذه الطريقة لم تنفعه فنفذ القضاء إرادته في ”المملك المجيد“ حوالي عام ١٣٧٥ قبل الميلاد بعد ما حكم حوالي ست وثلاثين سنة على عرش مصر ودفن مع آباءه الفراعنة العظام بوادي مقابر الملوك بطيبة .

(١) شرحه ٢٨ و ٨٣ و ٣٣ و ٩٤ و ١٣ و ١٨ — (٢) شرحه ٦٩ و ٧١ و ٧٢ — (٣) شرحه ٢٠



شكل ١٢١ - تماثيل هخامنش من الحجر الرملي ببلخ. التماثيل منحوتة من قبل ميرون . ويضع طاقان التماثيل في سهل عليه البرقي وكانا عاملين عندما بنيت في عاصمة القديس القرامين وثابتا في الدورات لأصبح التماثيل . لكن لم يكن مفتاح عدم الهدية . وثبتاه على التماثيل منحوت عليه الأربعة حارة وكثيرا من التماثيل القديمة

الفصل الثامن عشر

ثورة إخناتون الدينية

قلما احتاجت أمة في محتها الى حاكم قوى احتياج مصر اليه بعد موت أمنحتب الثالث . ومن دواعى الأسف أنها رزقت في هذه الحقبة بملك خيالى فيلسوف لا يليق لمكافئة الخطر الذى يتطلب رجلا ذا شكمة قوية ومواهب حربية كبيرة مثل تحتمس الثالث . وليس يخاف أن أمنحتب الرابع ابن أمنحتب الثالث والملكة تى كان قويا شجاعا في بعض الأمور لكنه محجز عن فهم خطورة الحال في أمور أخرى . وقد ألمعنا سابقا الى الخطر المحدق الذى اعترض هذا الملك عند ما جلس على العرش المصرى ، ذلك الخطر المركب الذى يتطلب خبرة ومهارة بالأمور الأسبوية وأخلاق أهلها وملوكها ، لكنه لم ينظر الى ذلك الخطر الا من الوجهة الفلسفية لأنه كان محاطا وقتئذ بأمة تى وزوجته نفرتى (Nofretete) — التى يطلب أنها من أصل أسبوى — وكذا الكاهن المحبوب آى (Aye) زوج مرضعه . والمرجح أن الملكتين تى ونفرتى استعملتا من النفوذ ما جعل لهما مركزا كبيرا في سياسة الدولة ، فكان أمنحتب الرابع كثيرا ما يظهر لرعيته مصحوبا بزوجته وأمه أكثر مما فعله والده قبله . والظاهر أن آراء هذا الملك الفلسفية وتخيالاته العالية العظيمة التى ميزته على سواء من الملوك قابلت صدرا رحبا من الملكتين تى ونفرتى ، ومن ذلك يتضح لنا أن الملكة المصرية التى كانت في أشد الحاجة الى رجل سياسى محنك قادر على تسهيل مصاعبها رزقت بملك شاب كثير التعلق بكاهن وبملكيتين عظيمتى المواهب الفكرية . ومن دواعى الأسف أن هؤلاء الأخلاء الثلاثة لم يفهموا ملكهم خطورة الحالة وما يقتضيا حلها من الاستعداد والامراع ، فبدلا من أن يحشد الملك الجيوش ويرسلها الى بلاد النهرين التى كانت في أشد الحاجة اليها انغمس في الأمور الدينية والفلسفية قلبا وقالبا فلنا منه أن ذلك أهم بكثير من المحافظة على جميع المستعمرات الأسبوية ، ومن ثم أصبح لهذا الملك مركز ظاهر وشخصية بارزة بين ملوك العالم على توالى الأجيال وصار أعظم الفراعنة فلسفة وأكبر الملوك شخصية على مدى التاريخ البشرى .

وبدبى أن علو شأن الامبراطورية المصرية وارتفاع منزلتها بين العالم لم يقتصر على مظاهر الحياة الخارجية كالعادات والأخلاق والثروة واتقان الحرف ووسائل الجمال ، بل شمل أيضا رقى الفكر وحدة الذهن . ومعلوم أن هذا الرقى والتقدم الفكرى كان متجها غالبا منذ أقدم العصور الى الأمور الدينية لالى الأمور الدنيوية . وقد شاهدنا أعراض هذا التقدم بين كهنة مصر قبل غزو ملكتهم للبلاد الأسبوية فقد فسروا معبوداتهم وقتئذ بأساليب خرافية وفلسفية كما فصل اليونانيون في أواخر تاريخهم وأوجدوا المعانى والمجازات الفلسفية لتلك الخرافات مما لم يكن معروفا في العصور الغابرة .

فأصبحنا نرى مركز المعبود وصفاته مفهومة ضمنا من قرائن أخبار الخرافة الدينية الخاصة به ، فالمعبود يتاح (Ptah) مثلا كان معتبرا سابقا لإله العمارة والصناعة الذي يرجع إليه في كل التصميمات البنائية والصناعية تصوره كهتبه بعد ذلك رئيس مصنع معبده بمنف حيث كانت تصنع التماثيل الجميلة والأدوات البديعة وهذا يا المعابد العظيمة ، بعد ذلك تخيلوه بمنزلة أكبر من ذلك فتصوروا المعبد مثلا للعالم فأصبح يتاح في اعتبارهم رئيسا لصناع العالم أو بعبارة أخرى صاحب كل الترتيبات والتصميمات البنائية والصناعية ، ثم علا مركزه في أعين الكهنة فاعتبروه القوة الفكرية المحركة لكل ما يجري في هذا الكون فنسبوا إليه فكرة خالق هذا الكون وقالوا انه اذا أراد شيئا قال له كن فيكون . بعد ذلك اعتبروا المعبودات والأهالي في هذا العالم وما يصنعونه نتيجة في الأصل لوصي هذا المعبود ، وقد أنشأ أحد كهنة هذا المعبود قصيدة قصيرة أوضح بها كيفية رقى هذا الفكر الديني اليك ترجمتها :

”يتاح العظيم فؤاد ولسان المعبودات

يتاح هو المعبود الذي يبدأ منه الجمال والمنطق ،

فكل ما يصدر من ذهن أو فهم المعبودات أو الأهالي أو الحيوانات أو الأفاعي أو جميع المخلوقات المفكرة والآمرة هو نتيجة ارادة هذا المعبود (يتاح) .

.....

فالفؤاد هو الذي يخرج كل نتيجة ناجحة الى حيز الوجود .

أما اللسان فهو الذي يفسر ما يحول بالفؤاد .

وأما المعبودات فقد أوجدها الفؤاد في زمان كانت كل مملكة مقدسة يصدرها الفؤاد عن طريق اللسان“ (١) .

واستعمل المصريون كلمة ”قلب“ بمعنى ”الفؤاد“ كما استعمل ذلك أيضا العرب والعبرانيون وبعض الأوربيين ، لكن هناك وجها للخلاف بسيط يتلخص في أن المصريين اعتبروا القلب والأعضاء مركز الفؤاد خلافا لسواهم من الأمم . وبدى أن هذه الأفكار الدينية والفلسفة العقلية لم تنحصر في أفراد الكهنة بل ظهرت أيضا بين كبار القوم . خذ مثلا ما أورد إنتف أمين قصر تحتمس الثالث على شاهد قبره المجرى من أن رقيه وعلو منزلته كان نتيجة اطاعته العمياء لما يوجه إليه ضميره . قال إنتف ان الناس تحدثوا ”بأن ما يحول بالصدر وحى من الإله (٢)“ وقد استعمل في هذا التعبير كلمة ”صدر“ بمعنى اللب ، وقد يستعمل بدل ”صدر“ لفظ ”البطن“ أو ”المعى“ في هذا المقام باعتبار هذه الأعضاء مركزا للفؤاد ، وعليه فقد اعتقد المصري بوجود قوة مدبرة مهمنة على المخلوقات والمعبودات جميعها وأن هذه القوة اذا أرادت تغيير الكون تقول له كن فيكون . وبدى أن هذه الآراء نواة الايمان المعروف عند الغربيين بعقيدة لوجوس (Logos Doctrine) . ويرجح جدا أن فلاسفة اليونان استملوا كثيرا من آرائهم الدينية من المصريين . والمعروف أن هذه

(١) راجع مقالة مؤلف بخصوص هذا الصالحام بمجلة Zeltchrift für Aegyptische Sprache XXXIX, 89 ff.

(٢) ٣-٧٧٠ .

التطورات الفكرية لم تقتصر على معبود واحد بل شملت أيضا سائر المعبودات . وأنها أيضا قديمة يرجع تاريخها الى وقت اقتصار المملكة المصرية على وادى النيل لما كانت آراء القوم بمعبوداتهم خاصة بما هو موجود بالقطر المصرى دون سواه . والرأى السائد أن المعبودات حكمت مصر قبل البشر ثم أتى الفراعنة فورثوا الملك عن المعبودات ، لذلك لم تعد آراء المصريين انحصار بمعبوداتهم حدود وادى النيل من البحر الأبيض المتوسط حتى الشلال الأول . فلما اتسعت حدود المملكة المصرية في عهد الامبراطورية اتسعت أملاك المعبودات في نظر القوم حتى وصلت الى حدود مستعمرات النوبة وسوريا . وبعبارة أخرى أن نفوذ المعبودات المصرية امتد جنبا الى جنب مع سيف فرعون الظافر ، ولذلك اعتبر الأهالى فرعونهم الشخص "الذى يرجع العالم للإله الذى أمم عليه بالعرش الفرعونى"^(١) . وساد الرأى بين الفراعنة والكهنة أن هذا العالم كله ملك خاص للمعبود فكان هذا سببا في نقش جميع أخبار حروب الفراعنة على جدر المعابد والهياكل بشكل هندسى وتحيط القوش الحربية باب المعبد^(٢) . وتتخلص العقيدة الدينية الرسمية في أن "الملك هو الذى يتسلم المملكة من الإله ليسلمها اليه وهو أيضا الذى يطلب الاكثار من المستعمرات لتتسع بذلك أملاك الإله" . بهذه الطريقة امتزجت الآراء الدينية قلبا وقالبا بالتقلبات الدنيوية فاندفت الحكومة تحت هذا العامل الشديد للتوسع في الاستعمار والاكثار من الجزية ، وبديهي أن هذه التغيرات هى التى أوجدت في نفوس القوم وقتئذ فكرة وجود قوة مدبرة خالقة لهذا الكون تتسلم منه جزية . ولا يخفى أن انتشار النفوذ الفرعونى على الأقطار الأجنبية ساعد كثيرا على إرهاب الديانة المصرية وتوسع نطاقها ، فبعد ما كان القوم يعتقدون في عهدهم الخرافى القديم أن معبوداتهم تهيمن على وادى النيل فقط أصبح كهنة عهد الامبراطورية يعتقدون تعميم سيطرة معبودهم على سائر بلاد العالم ، ومن ثم نشأت عقيدة التوحيد . ولا غرابة في ذلك فقد شاهد هؤلاء الكهنة بلاد العالم خاضعة ومنظمة ومحكومة مائتى سنة تقريبا تحت النفوذ المصرى فنسوا عقيدتهم الدينية القديمة الضيقة وأخذوا يفكرون في إله عظيم تشمل قوته وسلطته هذا الكون جميعه .

لقد ذكرنا الكثير مما يتعلق باعتقاد الأهالى في إله الكون لكننا لم نتعرض لذكر اسم ذلك الإله لأن كهنة مصر تحلت صفات هذا الإله لمعبوداتها الكثيرة ، فكهنة منف مثلا اعتقدوا أن يتاح خالق الكون الأعظم ، كما أن كهنة طيبة نسبوا الى معبودهم آمون ألوهية هذا العالم وحجتهم في ذلك أن آمون معبود الدولة الرسمية ، أما كهنة عين شمس فنسبوا خالق هذا الكون لمعبودهم قائلين ان فراعنة مصر أبناء الشمس (رع) وورثته على الأرض . ولما كانت معبودات أقسام مصر الأخرى معتبرة صورا أخرى لرع نسب كهنة هذه المعبودات المتعددة تأليه هذا الكون لألهتهم . لكن مركز رع كان أمثى من مركز المعبودات الأخرى خصوصا وأن آمون لم يستول مرة على مركز رع السامى في القطر . زد على ذلك أن المكتاتبات الرسمية لا تزال تبدأ كما كانت من قديم الزمان بالدعاء للمعبود رع حرخوتى (Re-Harakhte) . ويستدل من حكايات القوم وقتئذ أنهم اعتقدوا أن رع حرخوتى

هو حاكم هذا الكون . ومع هذا كله لم يميز معبود في عهد الامبراطورية على سواه استثناء اللهم الا اذا اعتبرنا أن رع كان له بعض التمييز بالنسبة لشدة نفوذ كهنته ، لكنه لما أتى عهد أمحتب الثالث ظهر على الآثار اسم قرص الشمس القديم وهو آتون مستعملا بدل رع بعد ما كان مهمل الاستعمال ، وقد شوهد هذا الاسم بكثرة في نصوص ذلك العهد الدينية ، من ذلك أن أمحتب الثالث سمي سفيته التي ساح بها على بحيرته الجميلة "أشعة آتون"^(١) ومعلوم أيضا أن بعض حرمه الخاص كان ينتسب اسما الى آتون . ويرجح أن هذا الملك شيد معبدا لآتون بعين شمس وأن بعض معاصريه اعتبروا آتون (أي قرص الشمس) "المعبود الواحد" الذي لا شريك له .

ومن المؤكد أن فرعون مصر وقتئذ قاوم مصاعب كبيرة في نشر مذهبه الديني ، فقد تحم عليه أن يخوض غمار معارك دينية هائلة مع طائفة الكهنة القوية ذات التاريخ القديم ، كل هذا حصل في عصر كانت فيه العقائد الدينية أهم ما يحافظ عليه الإنسان في دنياه . ولقد مضى أمحتب الرابع في طريقه بلا تردد ولا وجل فنشر مذهبه تحت اسم آتون مدعيا جهرة أن هذا الاسم هو أحد أسماء المعبود رع واليك ترجمة ما قاله بخصوص هذا المذهب :

"هاهي ذه كلمات رع أمامك لقد علمني والدي العظيم معناها الحقيقي ففهمها قلبي وعرفها وجهي ففقتها أنا"^(٢)

بهذه الكيفية أسند الملك مذهبه الديني الى رع مدعيا أنه هو الذي أظهر سر هذه الديانة وجعل نفسه "كاهن آتون الأكبر" متبعا في ذلك سنة وجود كاهن رع الأكبر "بعين شمس"^(٣) لكن يلاحظ أنه على الرغم من وجود بعض العلاقة بين مذهب إخناتون وعبادة رع فإن الأول تعدى اختصاص التسمي كثيرا بدليل ما جاء على الآثار من استعمال آتون بمعنى "الإله" أو "المعبود" الذي يقابله في اللغة المصرية القديمة لفظ "نر" (Nuter)^(٤) . وجاء أيضا أن الإله شيء والكوكب الشمسي شيء آخر ، واليك ترجمة تفسير آتون الوارد على الآثار :

"ان المعبود هو حرارة الشمس (آتون)" .

وجاء في عبارة أخرى " أن هذا المعبود سيد آتون أي الشمس " ومنه يتضح أن مذهب الملك كان يشير الى إله الحياة المرموز له بالأشعة المنبعثة من الشمس التي تودع الحياة في المخلوقات ، لذلك رمز لهذا الإله بقرص الشمس ذي الأشعة المنبعثة نحو الأرض ، تلك الأشعة التي تخيلها إخناتون منتبهة بأيد قايضة على رمز الحياة . وقد أنجبت أذهان فلاسفة اليونان مثل هذه الآراء المهمة في مبدأ مدينتهم لما اجتهدوا في تفسير الكون وعلاقته بالخالق . نعم ان إخناتون وفلاسفة اليونان الأقدمين جهلوا تماما التأثير الطبيعي والكيميائي الذي لأشعة الشمس على الكون والذي نعرفه نحن الآن ، لكن

(١) ٨٦٩ : ٣ (٢) ٩٤٥ : ٣ (٣) ٢٠١ : ٩٣٤ : ٣ (٤) ٣ : ص ٧٠٧ ملاحظة (٥)



شكل ١٣٢ — منظر جنازة كاهن عظيم من سفن مأسورة من مقبرة عتف ، يتبعه تار يخال الأسرة الثالثة عشرة ، وهي بلدة الرسوم ، وشاهد في القسم الأيمن من
 الأسفل رسال شيمون لمباركة وهم خلف العنق ، ورهبى في الجوز، الأمل القديم يبرون أكواخ الماتم (دار عتف بربين)

هذا لا ينفي أن مذهب إخناتون مؤسس على دعامة صادقة مثمرة . والمعروف أن الله إخناتون كان مخالفا لما اعتقده الأهلالي وقتئذ لكنهم لم يصعب عليهم اعتناق المذهب في سائر أنحاء الامبراطورية وفهم معانيه . وهو في الحقيقة أسير فهمها من معرفة معاني رموز المعبودات المصرية القديمة الصعبة الإدراك للغاية (شكل ١٣٩ وشكل ١٤٠) .

ولم يرق في نظر إخناتون أن يشيد لإلهه معبدا كالمعبودات المصرية الأخرى فصمم في أوائل حكمه أن يرسل بعثة الى محاجر السلسلة تحت إشراف عثة أمراء لاحضار الأحجار الرملية الجيدة اللازمة من تلك الجهات (١) . واختار أن يقيم معبد آتون في حديقة آمون التي أنشأها والده بين معبدي الكرنك والأقصر ، فبنى هناك معبدا كبيرا شامحا وحلاه بالرسوم الزاهية البارزة . ثم أطلق على طيبيه اسم "مذنية نور آتون" كما أطلق على المعبد المذكور اسم "نور آتون العظيم" . وسمى قدس الأقداس بذلك المعبد "جيم آتون" وهو تعبير لا تزال نجعل معناه للآن (٢) . ومع إبادة المعبودات الأخرى وقتئذ (٣) أضمر كهنة آمون الحقد والطمع وتملكتهم الضخيمة لما رأوا جزما عظيما من أوقاف معبدهم حوّل الى معبد آتون الذي يجهلونه والذي أخرجه إخناتون الى الوجود . زد على ذلك أنهم منعوا من التدخل في شؤون الدولة السياسية بعد ما كان رؤسائهم يعينون في عهد أمنتحتب الثالث رؤساء لمالية الدولة كرئيسهم المدعو بتاح موسى (Ptahmose) الذي عين في منصب وزير الدولة الأكبر . وقد حصل مثل هذا الرق لكهنة آمون في عهد الملكة حتعشسوت لما قام رئيس كهنة آمون المدعو حابوسنب (Hapuseneb) بمركز وزير مع احتفائه بمركزه الديني ، ومعلوم أن رئيس كهنة آمون كان معتبرا رئيسا لطائفة كهنة الدولة . ويرجح أن هذا التدخل الكهنوتي العظيم في شؤون الامبراطورية السياسية هو الذي شدد عزيمته إخناتون على انقاعه من هذه الطائفة ، وعلى كل حال فإن الملك لم يكن الأبدى بذلك فقد سبقه والده أمنتحتب الثالث اليه بأن عين وزيراً لم يكن رئيسا لكهنة آمون خلفا للوزير بتاح موسى ، فلما أتى إخناتون كان هذا الوزير الجديد المدعو رع موسى (Ramosse) في مركزه فأغدق إخناتون عليه الهدايا الجزيلة (٤) ، لذلك انضم هذا الوزير الى الملك وفؤاده مضم بالاخلاص كما انضم اليه غيره من كبار الدولة فمهد اليهم الملك في الاشراف على بعثة الأنحجار اللازمة لبناء معبد آتون . لكن طائفة كهنة آمون كانت قوية وغنية حتى أنها مره حين تحوّلتم الثالث ملكا على مصر بنفوذها ، فلا يستبعد حينئذ أن يتحين أفرادها مثل هذه الفرصة فيمزلون هذا الفيلسوف الشاب ويكيدون له بلا تردد . قد يكون هذا حقيقيا لكن المعروف أن أمنتحتب الرابع لم يكن فردا عاديا بل كان سليل بيت المجيد والشرف صعب المراس قوى الشكيمة عينا صلب الإرادة . وقد وجد له معاضدين كثيرين مثل كهنة منف وعين شمس الذين شجعوه على القضاء على عبادة آمون التي لم تعرف في شمالي مصر الا منذ عهد الملكة الوسطى . على أثر ذلك تولد الصراع الذي أدى الى حرب انتهت بسحق آمون . واستحال على إخناتون

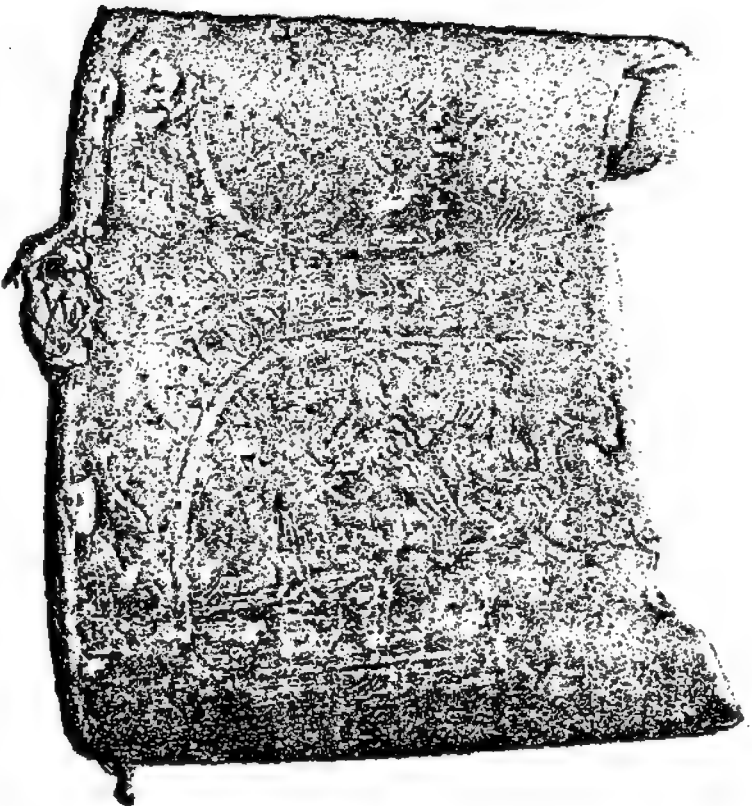
(١) ١٣٥: ٢ (١) (٢) ٢: ٣٨٨ ملاحظة (ب) (٣) ١٣٧: ٢ (٤) ١٤٤: ٢ - ١٤٧

بعد ذلك أن يعيش في طيبة فصم بعد بناء معبده الجليد أن يتفصل تماما عن عبادة آمون وأن يجعل آتون إله الامبراطورية الوحيد الحقيقي . فأخذ ينفذ تصميمه بسرعة ظاهرا وباطنا فأمر الحكومة بوضع يدها على أملاك الكهنة جميعا بما فيها من أملاك كهنة آمون وبالامتناع عن التدخل في عبادة المعبودات على اختلافها وبحو جميع أسماء هذه المعبودات من جميع الآثار الموجودة وقتئذ . وقد نفذت هذه الاجراءات بمخافتها وبالأخص ضد آمون ، فعما اسم هذا المعبود من كل شيء حتى المقابر الملكية القديمة بطيبة وجميع التماثيل التي نصبها ملوك الامبراطورية في عزها ومجدها حول الكرنك وداخله . ثم مح مح من تماثيل أجداده ووالده كل ما له علاقة بآمون بدون مراعاة لكرامتهم ومترلتهم السابقة . ثم مح اسم والده أمحتب من معابد طيبة كلها لاشتماله على اسم آمون وذلك منعا لظهور اسم هذا المعبود في الأماكن الرفيعة بالمعابد . ولا يزال اللوح الحجري البديع الذي أقامه أمحتب الثالث^(١) في معبده بطيبة وعليه ذكر العبارات التي شيدها لآتون شاهدا على شدة حق أمحتب الرابع على هذا المعبود فقد طمس نقوش الحجر بلا رافة حتى تعسرت قراءتها . ثم أمر بحو لفظ معبودات من الآثار المصرية كافة ومن جدر معابد طيبة وبذل مجهودا عظيما في ذلك^(٢) ولما لاحظ أن اسم "أمحتب" يعني "آمون الطيب" كره سماعه وكره نقشه على الآثار فاستبدل به "إخناطون" يعني "روح آتون" .

على أثر ذلك أصبحت المعيشة بطيبة غير متيسرة لكثرة أتباع مذهب آمون القديم بالرغم من الاجراءات التي اتخذها إخناطون لآبادة هذا المذهب فكان الملك اذا ألقى بنظره على شاطئ طيبة الغربي وجد مقابر ومحاريب آبائه وأجداده في حالة دمار ونحراب أثر حملته الشنيعة عليها ، زد على ذلك أن صروح الكرنك ومسلاته الشائعة كانت تذكر دائما بمذهب أجداده وما فعلوه لاعلاء شأن آمون ، وأدهى من هذا وذلك ما كان يحول في نفس إخناطون من الألم كلما رأى معبد والده العظيم الذي أقامه بالأقصر لاعلاء شأن آمون والذي لم يتم بناء صحته قبل وفاته . كل هذه العوامل جعلت إخناطون يفكر في الخروج من هذا المأزق فصمم على تشييد ثلاثة مراكز لعبادة آتون في أجزاء الامبراطورية الثلاثة وهي القطر المصري والنوبة وآسيا ، وأن يكون مركز هذه العبادة بالقطر المصري حيث يكون عرش فرعون . وقد أنجز الملك هذا المشروع بنجاح رغم ما تطلبه من طول الزمن فأسس مبدا لآتون بالنوبة سماه "جم آتون" بالقرب من الشلال الثالث مقابل بلدة دبلو (Dulgo) الحديثة أى في وسط تلك المستعمرة الجنوبية^(٣) . وان اسم "جم آتون" يشير الى وجود بعض النسب لمعبد آتون بطيبة . ثم أنشأ بسوريا مركزا لعبادة آتون لا يزال مجهولا لنا ولا يمكن أن يكون أحط منزلة من معابد أجداده التي شيدها لآمون هناك . وفي السنة السادسة من حكمه (أى بعد تغيير اسم الملك بمدة قصيرة) انتقل الى مركز عبادة آتون بمصر وعاصمة ملكه الجديدة الواقعة بسفح الجبل

(١) ٢ : ٧٧٨ راجع (٢) Zeitschrift für Ägyptische Sprache 10, 109-110 und 11 p. 368 note 1

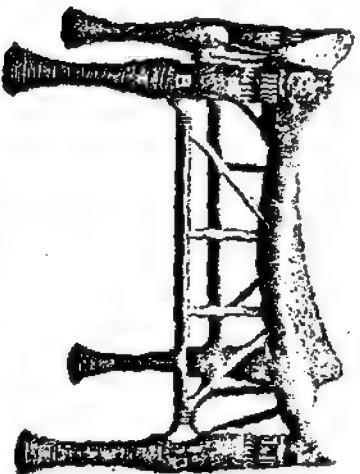
(٣) ٢ : صحيفة ٢٢٨ ملاحظة (ب) وأيضا كتاب المسى Monument of Sudanese Nubia. المطوع بنيكا جوم عام ١٩٠٨



شکل ۱۳۰ - مقدم موزه تخصصی تاریخ ارضیه ملیا طبقه بنی المیس توسط رسم بازنده طرابع صیدیه
کتابخانه المیزان تبریز در دفتر بطنیه (دار تحف الماسریه)



شکل ۱۳۳ - نخال آمد رید بهید الماسریه
ملکیه . نقله المیزان بهید فدان ال به (دار تحف الماسریه)



شکل ۱۳۴ - کرسی من عهد الامیران طروریه مستخرج من
الایزیرین و سلیم بالماج (دار تحف الماسریه)

على بعد مائة وستين ميلا جنوبي الدلتا وثلاثمائة ميل تقريبا شمالي طيبة . في هذا المكان تتعدى سلسلة الجبال الشرقية عن نهر النيل بما يقرب من ثلاثة أميال ثم تقترب منه بعد ذلك شمالا وجنوبا بعد مسافة طولها خمسة أميال ، ومن هذا الوصف يتضح لنا أن هذه البقعة كانت محاطة بسلسلة جبال من ثلاث جهات أما الجهة الغربية فكان يحدها نهر النيل . وقد اختار إخناتون هذا المكان مركزا لعبادة آتون وسماه "أخت آتون" (Akhetaton) - أي سماء آتون - ويرف الآن بتل المهارنة . وأصدر أمره بضم الأراضى القريبة من ذلك المكان شرقى النيل وغربيه الى أوقاف آتون وعين حدود تلك الأراضى بأربعة عشر حجرا لم نهند إلا على واحد منها (شكل ١٤٠) وهذا الحجر لا يقل طوله عن ست وعشرين قدما وهو منحوت فى الصخور الجبلية ومنقوش بنصوص توضح حدود الأراضى المقدسة حول هذه المدينة^(١) . يتضح من ذلك أن هذا المكان كان فسيحا يبلغ عرضه من الشمال الى الجنوب حوالى ثمانية أميال ويتراوح طوله بين جبال الشرق والغرب بين اثني عشر وسبع عشرة ميلا، وقد عثر على القسم الملكى الخاص بهذا المكان منقوشا على أحجاره الشمالية والجنوبية هذا ترجمته :

"رفع جلالته يده الى السماء نحو خالقه آتون قائلا: هذا قسمى الأزلى وهذا شاهدى الأبدى. هذا الحجر يعين حدود الأرض. لقد شيدت "أخت آتون" لتكون مسكا لوالدى وأظهرت حدود "أخت آتون" الجنوبية والشمالية والغربية والشرقية . ولن أتعدى حدود "أخت آتون" الجنوبية متجها نحو الجنوب كما أثنى ان أتعدى حدود "أخت آتون" الشمالية سائرا نحو الشمال. لقد صنع الآلهة دائرته هذه لنفسه وجعل فى وسطها مذبحه الذى أقدم عليه القرابين لأجله^(٢) .

ولم نعرف للآن معنى عبارة "عدم تعدى الحدود الجنوبية والشمالية" ويظن البعض أن المقصود بها مجرد الإيضاح لحدود المركز الأربعة وأن هذا تعبير بينه المالك اعترافا بعدم تملكه للأراضى الخارجة عن حدوده ، وأجاز بعضهم كون ذلك قسما القصد منه عدم مفادرة ذلك المركز . وعليه فلا يبعد أن يكون إخناتون قد أمضى باقى حياته فى "أخت آتون" وعلى كل حال فالمعنى الأصلى للعبارة لا يزال غامضا . وليلاحظ أننا لم نعثر للآن على شواهد حجرية مبنية لحدود الأراضى منحوتى على مثل هذه الصيغة القسمية . وقد وقف جلالة الملك ذلك المكان على آتون بأمر ملكى هذا ترجمته :

" هذا الاقليم المبين الحدود المتمد من سلسلة الجبال الشرقية الى سلسلة الجبال الغربية المقابلة "للأخت آتون" تابع لوالدى "آتون" معطى الحياة الى الأزل . وكل الجبال والصخور والمستنقعات والتلال والغيطان والمياه والمدن والشواطىء والأهالى والأغنام والأشجار وكل مخلوقات والذى "آتون" قد وقفها على والدى آتون الى الأزل"^(٣) . وعثر على نقوش فى حجر آخر ذكر فيها أن هذه الأشياء وقفت لمعبد آتون بمدينة "أخت آتون" كقرابين الى أجد الآبدى^(٤) . ولم تقتصر وقفية آتون على هذا بل شملت أيضا بعض الأقاليم السودانية^(٥) وربما شملت سوريا

(١) ٩٧٢-٩٤٩:٢ (٢) ٩٥٤:٢ (٣) ٩٦٦:٢ (٤) ٩٧٢:٢ (٥) ٩٥٧:٢

أيضا وكان القصد من بناء "أخت آتون" انشاء عاصمة جديدة للامبراطورية المصرية لأن إخناتون قال ما ترجمته :

"سيأتي الى هذا المكان عامة الناس من سائر الجهات . وتكون "أخت آتون" الجميلة عاصمة ثانية أقابل فيها كل الرسل والأقوام الوافدين من الشمال والجنوب والغرب والشرق" (١) .

وقد عهد الملك الى المهندس بك (Bek) مأمورية احضار الأحجار من إقليم الشلال الأول لبناء معابد آخت آتون (٢) التي لا يقل عددها عن الثلاثة (٣) واحدا للوالدة الملكة تي وآخر للأمية بكت آتون — أى خادمة آتون — وثالث للملك نفسه وهو معبد الحكومة الرسمي (٤) . أما قصر الملك وقصور الأمراء فقد شيدت حول هذه المعابد . ووصف أحد الأمراء مدينة "أخت آتون" بقوله :

"أخت آتون بلدة جميلة جدا فهي سيدة المدن في الاحتفالات وافرة الثروة . تقدم في وسطها الهدايا للعبود رع . اذا رآها القلب سارع اليه العرج ، كيف لا وهي مدينة بديعة جميلة حتى ليخيل الى ناظرها أنها الجنة كثيرة الأهالي . اذا أشرق عليها آتون أغدق عليها أشعته محضنا (بأشعته) ابنه المحبوب الأزلي سليل آتون واقف الأقاليم على الذي أجلسه على العرش ومرجع الأراضي لخالقها" (٥) .

ولما وصل أول دخل من أوقاف معبد آتون الى مدينة "أخت آتون" احتفل لذلك إخناتون احتفالا عظيما وركب عجلته في موكب نغم مصحوبا بكرماته الأربع وكبار دولته ، فقابلهم القوم عند معبد آتون بهتاف عظيم وصياح "أهلا وسهلا" ثم امتلأ المذبح العالي بالقرابين الغالية وغصت سحير الخازن بالدخل العظيم (٦) . وقد اشترك جلالة في الاحتفال شخصيا (٧) وأنشدت زوجته أنشودة السلام الى المعبود آتون بصوت رخيم وهي قابضة بيديها الجميلتين على آلتين موسيقيتين (Sistrum) (٨) . وأراد إخناتون أن يعين رئيسا لكهنة آتون وأن يتمتع هو عن القيام بأعياء ذلك المركز فعمل احتفالا كبيرا وقف في أثناءه على شرفة قصره مصحوبا بزوجه ثم استقبل الزوار وأعلن اختيار مري رع (Merire) الضابط الكبير رئيسا لكهنة آتون واليك ترجمة خطابه الرسمي :

"استمع لى يا مري رع ! لقد عينتك بدلا منى رئيسا لكهنة آتون بمعبد آتون بمدينة آخت آتون . لقد أنعمت عليك بهذا المركز قائلا " انك ستعيش من خيرات فرعون سيدك فى معبد آتون" (٩) .

وقد قام مري رع بهذه المهمة خير قيام وكافاه الملك على ذلك بالذهب مكافأة عليية جريا على عادة الفراعنة الأقدمين نحو خدمهم المخلصين . وقد عثر على نقوش ورسوم فوق أحد أبواب المعابد تشير الى أن الملك كان مصحوبا بزوجه وكرميته لما أعطى مري رع مكافأة الأمانة والاخلاص وأن جلالة خاطب الحاضرين وقتئذ قائلا :

(١) ٩٥٥: ٢ (٢) ٩٧٣: ٢ ملاحظة (٣) ١٠١٦: ٢ - ١٠١٨ (٤) شرحه (٥) ١٠٠٠: ٢
(٦) ٩٨٢: ٢ (٧) ١٨ - ١٧: ٢ ٩٩٤: ٢ (٨) ٩٩٥: ٢ ملاحظة (٩) ٩٨٥: ٢



شكل ١٢٧ - صورة لتمثال انتخب بن حسي
(دارتخف القاهرة)



شكل ١٢٦ - تمثال يوضح الهيئة
الملكية في عهد الامبراطورية
(دارتخف القاهرة)



شكل ١٢٨ - صورة بطل غاتم بين زهر اللوطس . وهي قطعة من أرض قصر انتخب الثالث بقرب طيبة
(مأخوذة من تينوس)

”أغدقوا عليه الذهب فوق الصدر والظهر والرجلين فقد أطاع كل أوامر فرعون في الاحتفالات العظيمة التي عقدها جلالة في هذه الأمكنة الجميلة بحراب معبد آتون الذي بناه فرعون بمدينة ”أخت آتون“ (١) .

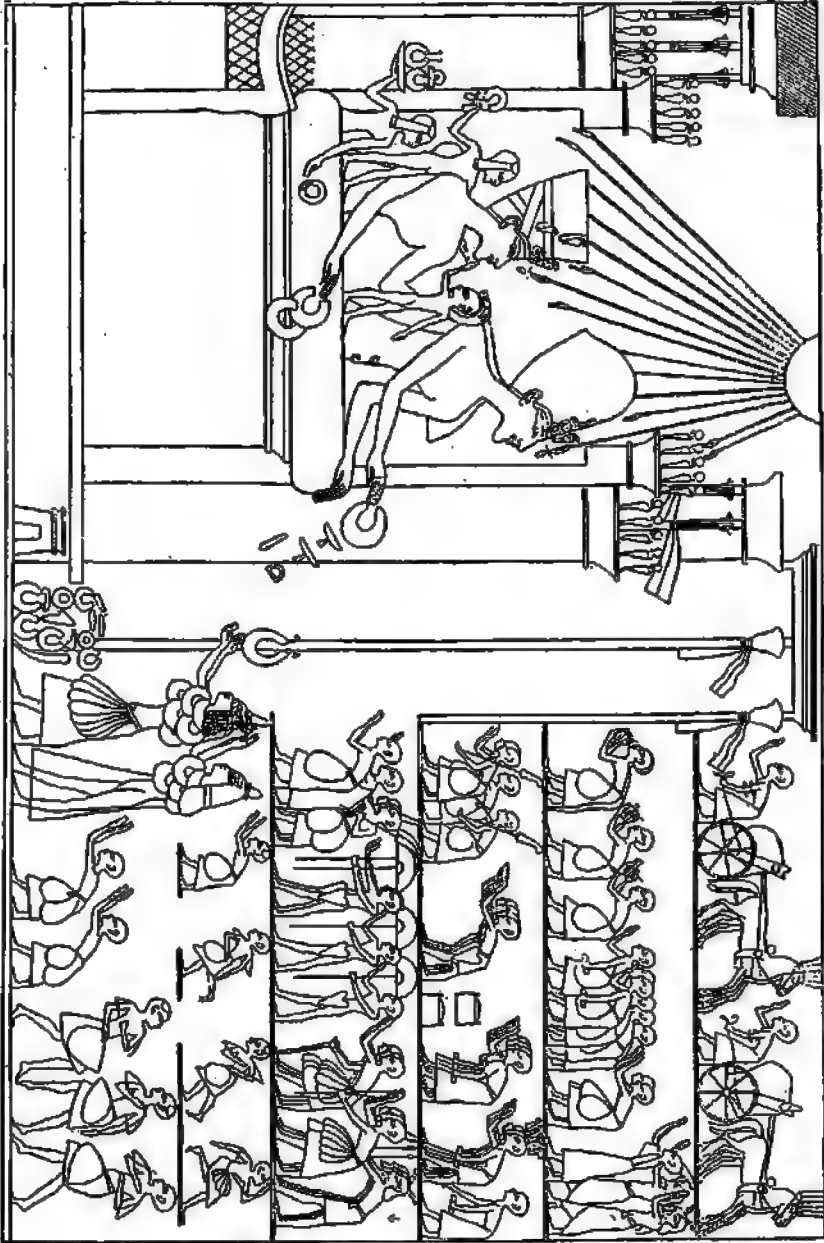
من ذلك يتضح لنا أن مسمى رع أطاع أوامر الملك كلها وقت الصلوات الدينية في ”تلك الأمكنة الجميلة“ بمعبد آتون . وقد أخذت البراهين الواحد تلو الآخر تدل على أن الترتيبات والمشروعات جميعها التي عملت بمدينة ”أخت آتون“ والمجهودات التي بذلت لاعلاء شأن آتون الذي كانت من ميكرات إخناتون نفسه . ولا غرابة في ذلك فالملك الذي لا يتأخر لحظة عن عوامس والده عن آثاره رغبة في نحو عبادة آمون (عدوه اللدود) لا بد أن يكون قوى العزيمة شديد البأس لا يتردد أبدا في انجاز مشروعاته واجبار أكبر مملكته على الاتقياد لأوامره . وقد عرف إخناتون جيدا من تاريخ أجداده أن اسداء العطايا والمكافآت لأمشال مسمى رع أمر ضرورى للتغافل في خدمته كما يرغب ويستسى (شكل ١٣٩) (٢) . وجاء في رواية كاهن آتون المدعو أى الذى كان يعنى ببياد إخناتون والذي أسعده الحظ بعد ذلك بالاقتران بمرسية الملك أن جلالة الملك ضاعف له العطايا الفضية والذهبية . وقد خاطب هذا الكاهن جلالة الملك قائلا ”ما أ كثر سرور الرجل الذى يدين بدينك ، فهو فرح كلما يحظى بمشاهدتك الى الأزل“ (٣) . وأغدق جلالة الهدايا أيضا على قائد الجيش المدعو ماى (Mai) بمثل السخاء الذى جاد به على أى حتى انتخر هذا القائد قائلا لقد ضاعف (أى إخناتون) لى الهدايا بعدد الرمال ، بفعلنى رئيس الموظفين ورئيس الأهالى . لقد رافقى سيدى لاتباعى ستة واطاعتى كلامه بدون تردد . أى سيدى ! ان عيني تنظر الى محاسنك كل يوم فتبصر ك عاقلا مثل آتون متنعما فى العدالة ! ما أسعد المره المطيع لارشاداتك“ (٤) .

لا مشاحة في أن بعض كبار القوم كانوا يحلون آراء إخناتون تماما ويدينون بها قليلا . وهناك قوم آخرون تظاهروا بذلك فقط مدفوعين الى ذلك بعوامل ”الخبز والسمك“ على رأى قدماء المصريين .

ولما كان أعظم ما يهيه فرعون لأفراد رعيته أن يحفر لهم مقابر في صحور الجبال الشرقية ، أمر إخناتون عماله يحفر مقابر بديعة بالصخور الشرقية لكل فرد من أتباعه المخلصين . زد على ذلك أن إخناتون لم يسطل اجراءات الموتى المتبعة من قديم الزمان ، فكان يقتم على كل فرد أن يدفن نفسه في قبره أو ”بيته الأزل“ كما هو معروف عندهم حيث تقدم اليه القرابين بعد وفاته ليعيش منها في الآخرة (٥) . وتمتاز قبور هذا العهد بخلوها من الرسوم المفزعة المثلة للزبانية والوحوش الضخمة ومن السحر والتعازيم الخاصة بالانتصار على أعداء الآخرة وغير ذلك مما يشاهد كثيرا على جدر مقابر طيبة قبل عهد إخناتون . وبديهي أن هذا الاصلاح النفسانى الشريف كان نتيجة مجهودات إخناتون ، تلك المجهودات التي أخفت من الوجود تحرافات الكهنة السخيفة من أذهان المصريين الذين اتقادوا لها

(١) ٩٨٧:٢ (٢) راجع شرح شكل ١٣٩ (٣) ٩٩٤:٢ و ١٦:٢ و ١٧ (٤) ١٠٠:٢-٣

(٥) ٩٩٦:٢



تکلیف ۱۳۹ — اجتماع و نماز بزرگان اسلام علی الکافران ای روزگار

أولاً أيما انقياد . وبفحص مقابر عهد إخناتون يرى فيها كثير من مناظر الحياة الدنيوية مرسومة على جدرانها وهي عادة خاصة ببلدة آخت آتون . أما مقابر كبار موظفي الحكومة فزدانة بالرسوم البديعة الخاصة بالمقابلات الملكية التي حظى بها أصحابها في دنياهم . وقد استنتجتنا من هذه الرسوم معلوماتنا عن أحوال المعيشة بمدينة "آخت آتون" وعرفنا أيضاً أن أمراء تلك العصور كانوا كثيرى الغرام برسم ملكهم وعلاقته الشديدة بمذهب آتون ، لذلك كثيراً ما عثرنا في مقابر هؤلاء القوم على رسم إخناتون وزوجته يعلوهما قرص الشمس آتون الذى تنبعث منه أشعة عديدة تنمى بأيدى حاضنة بلحالة الملك (١) . ومما يجدر ملاحظته أن المعبودة موت (Mut) لم تعد ترسم على الآثار بشكل نسر مرفرف الأجنحة لدفع الأذى عن رأس فرعون كالعادة المتبعة منذ عهد الأسر الطيبة . وكثيراً ما يشاهد الأمراء مرسومين على جدران هذه المقابر متضرعين الى إلههم ليشملهم الملك برضاه قائنين "إن إخناتون خلق من أشعة المعبود" (٢) ومخاطبين المعبود بهذه العبارة "أنت الذى خلقته (أى إخناتون) من أشعتك" (٣) . وقد كثرت استعمال هذه التعبيرات الخاصة بعبادة آتون على آثار تلك العصور بالطريقة التى استعملت بها التعبيرات والتوسلات الخاصة بالآلهة المصرية العتيقة .

من ذلك يتضح أن هم الحاشية الملكية انحصرت في الاعتقاد بمذهب ملكهم والاجتهاد في فهم معانيه . أما الحفلات الرسمية فأصبحت خلواً من العوائد القديمة والتوسلات الخاصة بالمعبودات العتيقة، وقد استعوضت عنها مدحة آتون واجلال مذهب إخناتون وغرام الملك بنشر ذلك المذهب . وقد عمت هذه التغييرات فبلغت رؤساء سوريا الذين أكثروا في كتاباتهم من الإلماع الى مذهب إخناتون متظاهرين باتباعه (٤) لما لهذا الملك من التأثير الكبير فيهم . وقد اهتمتنا الى تعاليم مذهب إخناتون منقوشة على جدران مقابر تلك العصور (٥) . وعثرنا بمقابر سرية القوم على أنشودتين وضعهما إخناتون للمعبود آتون لتلاوتهما في المعابد والتوسل بهما في خلوته . وتعتبر هاتان الأنشودتان أهم ما خلفه لنا التاريخ من تلك العصور لأنهما يوضحان لنا قيمة مذهب ذلك الملك الفيلسوف الذى صحى بكثير لأجله . وقد لقب هاتان الأنشودتان "بدهاء إخناتون والملكة نفر نفرو آتون (Nefernefruaton) للمعبود آتون" وهما يختلفان في الأسلوب والمقدار . فالأنشودة الطويلة هي أجمل ذوقاً وأعذب كلاماً وأجدر أن تحفظ ضمن آداب عصرنا هذا . واليك ترجمة هذه الأنشودة بقدر ما يمكن من الدقة ، وقد جعلت لأجزائها المختلفة عناوين يتمشيان مع معانيها وقارتها في الوقت نفسه بما جاء في المزامير بالمزمور الرابع والمائة ومنه يتضح للقارئ شدة الشبه بين الاثنين من حيث الآراء وتسلسل المعاني :

جلال آتون

بزوغك جليل في أفق السماء يا آتون يا حى يا مبدئ الحياة !
إذا ما صعدت في أفق السماء الشرق أفضت على الأراضى جمالك .

(١) ١٠١٢:٢ ورشكلى ١٣٩ (٢) ١٠٠٠:٢ ١٠١٥:١ ١٠١٥:٢ (٣) ١٠١٠:٢ ١٠١٠:٢

(٤) خطابات تل العمارنة ١٤٩ و ٦ ملاحظة وغير ذلك . (٥) ١٠١٨ - ٩٧٧:٢

ما ذلك إلا لأنك جميل عظيم، نير في السموات العليا، تسطع على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك بأشعتك .

- أنت رع . أنت الذى أسرتهم وقيدتهم بحبك .
- أنت بعيد عن الأرض لكك على اتصال معها بأشعتك .
- أنت عال لكن آثارك واضحة في ضوء النهار .

الليل

تجعل ظلمة فيصير ليلا فيه يدب كل حيوان
الوعر . الأشبال تزجر لتخطف ولتلمس
من الله طعامها .
(مزود ١٠٤ آية ٢٠ و ٢١)

إذا ما غربت في أفق السماء الغربي أظلمت
الأرض فأصبحت كالميتة .

فيقصد السكان النوم في حجراتهم مغطى
الرؤوس هادئى الأنوف غير مبصرين فتسرق
أمتعتهم من تحت رؤوسهم دون أن يشعروا .
أما الأسود فتخرج من أبحارها وكذا
النعابين اللدافة .

ويسود الظلام (؟) الكون وتسكن
الأرض . وما ذلك إلا لأن خالق هذه الأشياء
كلها ذهب ليستريح في أفقه .

النهار والانسان

تشرق الشمس فتجتمع وفي ما وياهاتربض .
الانسان يخرج الى عمله والى شغله حتى المساء .
(مزود ١٠٤ آية ٢٢ - ٢٣)

إذا ما ظهرت في الأفق وأشرقت في النهار
كأ تون أضاءت الأرض .
إذا ما بزغت أشعتك خفى الظلام وشمل
الفرح قطرى مصر .

كيف لا وقد أيقظتهم فيغسلون
ويكتسبون ويتهلون بأذرعهم اليك وقت
شروقك ثم يشرع سكان العالم يؤدون أعمالهم .

النهار والحيوان والنبات

البهائم كلها مستريحة في مراعيها . والأشجار والنبات جميعها يانعة . والعصافير تنفق فوق المياه
ناشرة أجنحتها ابتهاالا اليك . والأغنام ترقص على أرجلها . والطيور تحلق في الجو تنفس الحياة
إذا ما أشرقت عليها .



شكل ١٤١ - إخناتون يعقل الأضراس من زوجته . مائل وهذا الرسم يبرز وهوون
 بالأركان الأربعة . ويستفح من الرسم أن جهة رسم الأعماس التي كانت منبته في الملكة القديمة
 غيرت الآن بالهيئة الجديدة المأدبة حتى أنك ترى إخناتون يتكلم مع كلاك على صباه
 (دار تحف برلين)



شكل ١٤٠ - شاهد عجري سين جلده مبدية عن العارية . وشاهد
 في أعلاه رحان بأركان الملك إخناتون ممسوما بزوجه رانجه المجمع
 (بعدة قوس النسخة التي تبني أن أفضة تبني أن عمن المارة)
 الملكة زوجهما ما رمز العارية

النهار والمياه

تسير السفن مع التيار وعلى عكسه .
وكل طريق عمومي يصبح مسالوكا لأنك
ظهرت في الأفق . أما السمك فيقفز أمامك
في النهر ، هكذا تحترق أشمتك البحر الخضم .

هذا البحر الكبير الواسع الأطراف . هناك
ديابات بلا عدد . صغار حيوان مع كبار .
هناك تجرى السفن . لو يائان هذا خلقته
ليلعب فيه .

(مزور ١٠٤ آية ٢٥-٢٦)

خلق الانسان

أنت خالق الجنين في أمه . أنت خالق نطفة الانسان . أنت واهب الحياة للجنين في رحم أمه
وملطفه حتى لا يتكدر فيبك كيف لا وأنت المربي في الرحم . أنت معطى نفس الحياة كل مخلوقاتك .
..... أنت فاتح فم الجنين بالكلام ومعطيه حاجاته يوم تله أمه .

خلق الحيوان

أنت الذى تهب الحياة للفرخ في البيضة فيصبح ، فاذا آتمت خلقه ثقب بيضته ونرح منها صائحا
جهده وانبا بقدميه .

الخلق عموما

ما أكثر مخلوقاتك التى تجهلها . أنت الإله
الأحد ، لا شريك لك في الملك (١) . خلقت
الأرض بارادتك . ولما كنت وحيدا في هذا
الكون خلقت الانسان والحيوان الكبير
والصغير والمخلوقات التى تدب على الأرض
أو تطير بأجنحتها . أنت الذى أحلت كل
انسان في سوريا والنوبة ومصر في موضعه
وأتمت عليه بحاجاته ، فصار كل منهم يأخذ
نصيبه ويعيش أيامه المحدودة . لقد اختلفت
أجسامهم وجلودهم فسبحانك من
مميز الخلق .

ما أعظم أعمالك يارب . كلها بحكمة
صنعت . ملائمة الأرض من غناك .
(مزور ١٠٤ آية ٢٤)

(١) ينظر في الأناشيد الأخرى أن تكون هذه الجملة "أنت الإله الأحد الذى لا يله غيره" .

رى الأراضى

أنت خالق النيل فى الدار الآخرة . أنت أوجدته برغبتك فيه لتعافظ على حياة الأهالى . أنت سيد الجميع لأنهم ضعاف . أنت سيد كل أسرة لأنك تشرق لأجلها . أنت شمس النهار المهيب فى الأراضى السحيقة كلها والواهب لما الحياة . خلقت لهم نيلا فى السماء ليسقط عليهم ماءه فيسيل على الجبال كالبحر الزاخر يروى غيطانهم بين مدنهم .

ما أبدع مشروعاتك أيها السيد الأزلى !
 فنيل السماء (مخصص) للغرباء وللنواب من كل البلاد .
 والنيل الذى يأتى مصر خاصة يأتها من الدار الآخرة .
 أشعتك تغذى الجنان . فاذا ما أشرقت أينعت وأنبئت بتأثيرك .

الفصول

جعلت الفصول لتتخاق فيها جميع مخلوقاتك ،
 فالشتاء يعطيهم البرودة والصيف يهب لهم الحرارة .
 أنت الذى رفعت السماء عاليا لتتنظر ما خلقت فى وحدتك شارقا حيا كاتون ساطعا مثلا لنا ثم راجعا ثانية الى حيث ابتدأت .

جمال الضوء

أنت مبدع الجمال من نفسك .
 فالمدن والبلاد والقرى والطرق والأنهر كلها عيون تبصرك أمامها .
 كيف لا وأنت آتون النهار فوق الأرض .

تضرعات الملك

أنت فى قلبى ، لا يعرفك سوى ابنك إخطاؤون الذى جعله عاقلا بأرائك وقوتك .
 العالم كله فى قبضتك كما خلقته .
 اذا ما أشرقت (عليه) حيا واذا أفلت مات .
 أنت الوجود ومسبب الحياة للانسان .



شكل ١٤٣ — صورة رسم صاا د خااطون
جيلة للناة مصنوعة من الحجر الجيري أرسلت
حديثا الى دار تحف الوقر بباريس



شكل ١٤٢ — جسم تمثال مصنوع من الحجر الجيري
لابنة إخناتون



شكل ١٤٤ — حياة المستنقعات . جزء من رسوم أرض قصر إخناتون بتل العاهرة
(مأخوذة عن بيري)

أعين الخلق تبصر محاسنك كل يوم حتى تقرب، والشعل كله يبطل اذا ما أقلت في القرب . فاذا ما أشرفت جعلت كل ذلك ينمو لللك . لقد وهبت العالم منذ خلقته لابنك وسليتك الملك العائش في الحق سيد الأرضين نفر - خپرو - رع ، وان - رع (ابن رع) (Nefar-khepru-Re, Wan-Re) العائش في الحق سيد التيجان إخناتون طال أجله . (وأیضا) للزوجة الملكية العظيمة خلیته سیده القطرين نفر - نفرو - آتون (نفرتی) (Nefar nefru aton, Nofretete) العائشة والیانة الى أبد الأبدین .

لا شك أن القارئ استنتج من هذا الدعاء أن واضعه كان واسع الاطلاع عالما بالأمر الاجتماعي العالمية من شلالات النوبة الى أقصى حدود سوريا ، معتبرا هذه الأقاليم وحدة لا تتجزأ ، الشيء الذي لم يعتد المؤرخون نسبته الى أهالي القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وبدیهی أن مثل هذا التغير نتیجه ظهور روح جديدة في مصر بدل الروح الرجعية العتيقة ، والفضل في ذلك يرجع طبعا الى إخناتون بدليل ما أوردناه من السطور السالفة التي تشهد له بسمو الذاكرة في ذلك العهد السحيق . وقد توصل هذا الملك العظيم بناقب فكره الى معرفة إله العالم خالق الكون والى الايمان برحمته وراقته بمخلوقاته حتى الحقيق منها ، فقد أبصر في ررفة أجنحة الطيور بين سيقان اللعل بالمستنقعات المصرية نوحا من التسبيح لخالقها ، كما تصور فخر السمك في الغدير حمدا لبارئها . واعتقد هذا الملك أيضا أن الإله الأحد هو الذي يناعى النبات ويغذى الفرخ ويشرف على فيضانات النيل الشديد وقد سماه "أب وأم جميع مخلوقاته" ومنه يتضح لنا أن الملك عرف لطف الإله العالمى وحلمه . وأشار الينا إخناتون أن تعتبر حياة اللعل فيها اثبات صدق مذهبه وأن سيادة الإله التامة على كل الشعوب كلها مصحوبة بعطف وحنو أبوى بدون تمييز بين القومية والعنصر . وأظهر جلالتة للصوى المنطرس رافة الخالق لشعوبه كلها فذكر سوريا وبلاد النوبة قبل مصر في تعداد تلك الشعوب . ولا شك أن هذه العقلية التريسة هي التي جعلت الأثريين يعتبرون إخناتون أقدم رسول معروف في التاريخ الآدمى . كيف لا وقد كان الملوك السابقون يعتقدون أن الإله الأعظم هو الذى يهب النصر ويسحق الأهالى ويسوقهم حاملين الجزية أمام عجلة فرعون . أما إخناتون فقد رأى في الإله رافة ورحمة خلقيه جميعا على السواء ، ويعتبر هذا المذهب أقدم ما عرف من علم التوحيد في التاريخ . ولا شك أن القارئ لتعاليم هذه العقيدة يتضح له أنها اعتراف صحيح بوحداية الله وبرحمته وراقته ووجود سره المكتون في كل مخلوقاته ، وهذا يتماشى تماما مع الروح الصوفية الموجودة في هذه العقيدة . واليك ترجمة بعض ما جاء بهذه العقيدة :

"ما أكثر مخلوقاتك المتنوعة ! انها سر مكتون ! أيها الإله الأحد الذى لا شريك له في الملك !"

ومع اعتراف إخناتون لحد بعيد بعطف الخالق على مخلوقاته لم يتعته بصفات روحانية وخلقية سوى ما اتصف به آمون من قديم الزمن . زد على ذلك أنه بالرغم من معرفة إخناتون للطف الله بعباده لم يهتد تماما الى معرفة صفة الحق جل شأنه ولا الى رغبته تعالى في وجود هذه الصفة في نفوس بنى آدم . وكل ما ذكره إخناتون بهذا الخصوص في تعاليمه التي وجدت مبثثة بين الأناشيد ونقوش

مقابر أمراء عصره هو الاصرار المستمر على اتباع "الحق" بما لم يكن معروفا سابقا . فقد اعتاد جلالة أن يعقب اسمه بعبارة "العائش في الحق" مما يشير الى شدة تعلقه بالحق وهو أمر ثابت من أخبار معيشته اليومية . وامتاز هذا الملك باعتقاده أن المعيشة العادية البسيطة البعيدة عن الكلفة هي أقرب الأمور للحق والصواب وأن كل ما أوجدته الطبيعة هو صواب لا خطأ فيه ، لذلك لم ير هو وأسرته فائدة من الاحتجاب عن رعيته . وكان شقيقا جدا بأطفاله ويظهر في كل الاحتفالات مصحوبا بزوجته وأعضاء أسرته كأنه كاتب وضيق في معبد آتون . وقد رسم نفسه وهو يمسك أعضاء أسرته بيساطة وبدون تكلف . وكان كلما اشترك في حفلات دينية صاحب زوجته وأطفاله يشتركون فيها . كل ذلك لأنه اعتقد أن الطبيعة فطرت على الحق والصواب ، ومن ثم أجهد نفسه في اعلان صدق هذا الرأي كلما اقتضت الظروف الاقلاص عن عادات أجداده السابقين .

وبدسى أن مثل هذه التطورات الدينية صحبتها تطورات صناعية فنية . وقد كان إخناتون كثير الاهتمام بالأخيرة ، واليك ترجمة ما أورده حصار جلالة المدعوبك (Bek) واصفا نفسه "بأنه تلقى علومه من جلالة الملك نفسه" (١) ومنه يتضح أن الحفارين الملكتين تعلموا فنهم على الأسلوب الحديث في القصر الملكي ، وقد ذكروا هذا معلنين اقتخارهم به ، ولذلك بلغت الفنون الجميلة شأوا عظيما في مشابقتها للطبيعة بما لم يكن معهودا سابقا (شكل ١١٩ و ١٠٧ و ١٠٨) ، فترى الحيوانات مرسومة بمجالاتها الطبيعية الوقتية فالكلب عايد والطيور محمق في الجحش والثور الوحشى عائم في المستنقعات (شكل ١٤٤) مما كان يتمشى مع عقيدة إخناتون في حقيقة الطبيعة وصوابها . ولم يستثن من ذلك التغيير في الرسم جلالة الملك نفسه فقد رسم جلالة على الآثار حاليا من الكلفة الفرعونية القديمة محافظا على حالته الطبيعية الحقيقية (شكل ١٤١ و ١٤٢) حتى يجيل الى الناظر في تلك الرسوم لأول وهلة أنه أمام رسوم من العصر اليونانى (شكل ١٤٢) . ولم تقتصر هذه الحرية على رسم شخص واحد بل تعدته الى عدة أشخاص في مجموعة واحدة لأول مرة في تاريخ الفنون الجميلة المصرية . وقد عثرنا على قطع حجرية بقصر إخناتون بتل العمارنة مرسوم عليها جلالة راجعا عجسته مطاردا أسدا جريحا وهي خطوة صادقة جديدة لم تعرف سابقا في فن الرسم لكنها لم تدم طويلا فقد انعدمت من الوجود بسرعة بعد ذلك العهد . وهناك بعض نقط في رسوم تلك العصور لا تزال غامضة لنا من بعض الوجوه فقد رسمت الأطراف السفلى مثلا متضخمة هيئة مخصوصة غامضة المعنى ، وقد فسر ذلك بعض الأثريين بأن إخناتون كان مصابا بعاهاث جسمية كالمرسومة على الآثار ، لكن هذا التفسير لا يوضح جميع أسرار النقط الغامضة . ولا يبعد أن يكون هذا التغيير الجسمى المشاهد في إخناتون نتيجة مرض ظهرت أعراضه عليه من جراء الانهماك في أمور الدولة السياسية . وستكلم الآن على نتيجة التطور الفكرى الذى أحدثته إخناتون في دولته وعلى الرزايا والمصائب التى حلت بالقطر من أجل الاقلاص عن القوانين النافذة القديمة والتقاليد التاريخية العريقة .

الفصل التاسع عشر

سقوط إختناطون وتفكك عرى الامبراطورية

لشد ما شغل إختناطون بالأمر الديني والفلسفي مقاوما نفوذ كهنة آمون القوى على توالى الزمن ، ثم أدركه العجز عن ممارسة شؤون دولته الخارجية وتقدير التبعة الملقاة على عاتقه ، والظاهر أنه لم يتحقق خطورة مركزه السياسى الا بعد فوات الفرصة . وتفصيل ذلك أنه لما اعتلى عرش مصر اعترفت مملكة الحيثيين وممالك وادى الفرات بسطة مصر على آسيا ، فأرسل دشراتا ملك أرض متانى خطابا الى والدة إختناطون المدعوة تى طاب فيه منها أن تؤثر فى إختناطون ليحافظ على العلاقات الودية مع متانى كما فعل والده أمنحيب الثالث من قبل ^(١) . وأرسل دشراتا فى الوقت نفسه الى إختناطون خطابا عزاه فيه بمناسبة وفاة والده أمنحيب الثالث ، راجيا فيه أيضا أن يرسل له مقدارا عظيما من الذهب كالعادة المتبعة ^(٢) . وقد أرسل ملك بابل المدعو برابور ياش (Burraburyash) خطابا تمزيقيا أيضا الى إختناطون لكننا لم نثر عليه ، وكل ما اهتمنا اليه هو الاذن بالمرور المعطى لرسول بابل وفيه رجاء من بابل للملك كنعان بالسماح لحامله بسرعة المرور ببلادهم فى سيره نحو مصر ^(٣) . وكان لبرابور ياش نجل ^(٤) مقيم بقصر إختناطون الملكى اقترن بابنة جلالتة فأرسل نحوها ملك بابل الى زوجة ابنه كريمة إختناطون هدية ملكية عبارة عن قلادة من الجواهر الثمينة يزيد عدد جواهرها على الألف ، وسرى فيما يلى أن هذا الزواج لم يدم طويلا .

فى تلك الأثناء كانت قوة الحيثيين تنمو وتشتد باطراد فى شمالى سوريا يؤيدها أهالى ذلك الاقليم تحت طلى الخفاء . ولأن لم نعرف أصل الحيثيين بالضبط ولذلك لا يزال أصلهم موضع بحث وتمحيص بين علماء الآثار الشرقية . ويعتبر هذا العهد الذى نحن الآن بصدد أول عهد ظهرت فيه الأمة الحيثية فى تاريخ العالم المتمدن ، وقد عثر حديثا على آثار لهؤلاء القوم فى البلاد الممتدة من شاطئ آسيا الصغرى غربا الى نهر الفرات ومهول سوريا شرقا وحماة (Hamath) جنوبا . والمعروف أن هؤلاء القوم غير ساميين مجهولو الروابط العنصرية يرجع تاريخهم الى ما قبل الهجرة الهندية الجرمانية التى جابت معها العنصر الفاريجى (Phrygians) حوالى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد (راجع صحيفة ٣٢٢) . ويستنتج من الآثار المصرية أن الحيثيين قوم حلقوا لحامهم وضمفروا شعور رؤوسهم فلكل صغيرتان طويلتان مسبلتان أمام أذنيه ومرسلتان الى كفيه . أما آثارهم فتتمثلهم بلحنى كشيقة (شكل ١٤٦) لابسين على رؤوسهم مغفرة طويلة قصيرة الحافة . أما لباسهم لموافق لبرد

(١) خطابات تل العمارنة ٢٢ (٢) شرحه ٢١ (٣) شرحه ١٤ (٤) شرحه ١٥٨

بلادهم مصنوع من الصوف الكثيف وهو طويل ضيق سائر للجسم من الكتفين حتى الركبتين وأحيانا الى الكعبين . ولوحظ أن هؤلاء القوم لبسوا أحذية طويلة بأقدامهم مدينة المقدم . والمعروف عنهم أنهم لم يعرفوا في حفر الأحجار لكننا عثرنا على كثير منها عظيم الفائدة مبعثرا على تلال آسيا الصغرى (شكل ١٤٥ و ١٤٦) . وأتقن الحيثيون بعض الصناعات المفيدة كصناعة الخزف وعلى الأخص النوع الأحمر المنقوش الذي انتشر استعماله في إقليم كبادوسيا (Cappadocia) الى بلاد اليونان غربا وبلاد فلسطين وسوريا شرقا ولاكش (Lachish) وجازر جنوبا . وقد بلغت هذه المصنوعات جهة جازر حوالي عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد . وامتاز الحيثيون بمخطهم الكتابي واهتمامهم به فكان ملوكهم يأخذون معهم كتابهم الخاصين في غدواتهم وروحاتهم^(١) ، وتوصل بعض الأثريين الى حل بعض رموز هذا الخط لكنه لا يزال مجهولا في معظمه . وفي الخطابات الرسمية كان هؤلاء القوم يستعملون لها الخط المسامري البابل ولذا يرجح أنهم استخدموا عندهم كتابة وتمرجين ماهرين في خط ولسة بابل . وقد عثر على كثير من آثار خيتا على شكل ألواح منقوشة بالخط المسامري جهة بوغاز كوى (Boghaz-Köi) وسأى الكلام عليها . واشتهر الحيثيون بساقتهم وعنادهم في الحرب ، وكانت مشاتهم تحوى الكثير من الأجانب المأجورين وكانوا مسلحين بالقوس والنشاب والسيوف والرماح وفي أغلب الأحيان بالبلط أيضا . وتتميزت هؤلاء القوم بتنظيم وحدات جيوشهم فتمكنوا من اجادة القتال وقت التحامهم بأعدائهم ، لكن أهم فرقهم كانت فرقة العجلات والسبب في ذلك أنهم أتقنوا صنع العجلات حتى فاقوا المصريين من حيث المتانة . زد على ذلك أن لكل عجلة ثلاثة رجال : سائق ومحارب بالقوس ومدافع بالبرع ، أما عجلة الحرب المصرية فكان تحوى سائقا ومحاربا فقط . ودلتنا آثار تحوتمس الثالث أن مملكة الحيثيين كانت مقسمة سابقا الى عدة امارات وأن احدى هذه الامارات قويت على سواها فلقبها تحوتمس "بالمملكة الحيثية الكبرى" وكانت عاصمتها مدينة خاتى (Khatti) التي كشفت حوالي عام ١٩٠٧ تحت ابنية مدينة بوغاز كوى الحديثة الواقعة شرق أقره وشرق نهر هاليس المعروف باسم كسل إرماك بآسيا الصغرى الشرقية . وقد عثر على آثار أثبتت وجود علاقات تجارية بين الامبراطورية المصرية ومملكة الحيثيين حوالي ذلك الوقت أو بعده بقليل^(٢) ولما عظمت هذه العلاقة بين الملكتين خاف ملك قبرص على مركزه التجارى أن يتضعضع^(٣) . والمعروف أنه لما جاس إختاطون على عرش مصر أرسل سبلل (Sepiel) ملك الحيثيين تهنئة له على منصبه السامى ، واستدل من لفة هذا الخطاب وأسلوبه أن العلاقة بين مملكة الحيثيين والامبراطورية المصرية كانت حسنة^(٤) . لذلك يرجح أن الفارات الأولى التي صدتها دشرا تملك متانى لم تحصل بعلم ملك الحيثيين ، خصوصا وأن هذا الأخير أرسل هدايا عظيمة الى إختاطون بعد انتقاله الى مدينة آخت آتون بجهة تل العمارنة^(٥) . والظاهر أن إختاطون لم يهتم كثيرا بعلاقته الودية مع هؤلاء القوم بدليل ما جاء بخطاب ملك الحيثيين لإختاطون يسأله فيه عن سبب قطع الخطابات والمراسلات

(١) ٣٣٧ : ٣ (٢) خطابات تل العمارنة ٣٥ شرحه ٤٩ و ٢٥ ملاحظة (٤) شرحه ٣ (٥) ٢ : ٩٨١



شکل ۱۴۶ - ملک شیخی قابض علی و رخ و صورجان
رسم بارز و جسد بجهت سنجری شمال سوریا
(دار تحف برلین)



شکل ۱۴۵ - جندی حیثی مسلح
یلغاة - رسم بارز و جسد بجهت سنجری
شمال سوریا (دار تحف برلین)



شکل ۱۴۷ - مؤلف مصری یقایل مهاجرین سامین • رسم بارز فی مقبرة حور حجب
(دار تحف لیدن)

الودية التي كان أمئحئب الثالث يهيم بها كثيرا^(١) ولا غرابة في ذلك فان إخناتون كان على يقين من أن مملكة الحيثيين عدوه اللدود وأقوى ند للامبراطورية المصرية على حدود سوريا الشمالية . ولا يئحتمل أن إخناتون كان قادرا على مقاومة التيار الحيثي الشديد المتدفق ببلاد سوريا من آسيا الصغرى ، وعلى كل حال فانه لم يقم بأقل مجهود في هذه السبيل . ومما زاد الطين بلة أنه لما ولي إخناتون الملك أخذ أهالي آسيا يسبقون عصا الطاعة على ولاة مصر هناك بعد ما كان أمئحئب الثالث كائجا جماعهم . واليك ترجمة خطاب أرسله أحد الولاة المصريين بتلك الجهات الى إخناتون متأخرا يظهر حقيقة الحال وخطورة المركز :

”حقيقة أن والدك لم يطف ولم يتفقد أراضى هؤلاء الأمراء . . . فلما اعتليت عرش والدك وضع أبناء الملك أبداشيرتا (Abdashirta) أيديهم على أرض جلاتك منضمين الى ملوك متانى وبابل وخيتا“^(٢) .

بعد ذلك انضم ولاة مصر العصابة الى أبداشيرتا وابنه أزيرو (Aziru) حاكم مقاطعة أمورية (Amorite) بأعلى نهر الأورونط (العاصى) . وفي الوقت نفسه قام وال سورى يدعى إناكاما (Itakama) فاستولى على كدش وأعلن استقلاله عن مصر . فتبع ذلك استيلاء الحيثيين على إقليم أمكى (Amki) القريب من شمالى أعلى نهر الأورونط فيما بين أنطاقيا وبلاد الأمانوس (Amanos)^(٣) . عند ذلك قام ثلاثة ولاة مخلصين لفرعون مصر وجمعوا قوة حربية ساروا بها نحو العصابة لأخضاعهم فقابلهم إناكاما في قوته الحيثية وهزمهم ، فأرسل هؤلاء الأمراء الثلاثة خبرا سرىعا الى إخناتون شاكين له سوء تصرف إناكاما^(٤) . بعد ذلك قام والى أمور المدعو أزيرو فاستولى على بلاد فينيقيا وساحل سوريا الشمالى حتى وصل الى مدينة أوجاريت (Ugarit) عند مصب نهر الأورونط^(٥) فقتل حكامها واستولى على خيراتها^(٦) أما صميره (Simyra) — بطرون؟ — وبيلون (جيبيل) فقد قاوما أزيرو ولما استولى الحيثيون على — نوحاشى (حلب) ؟ — بأعلى نهر الأورونط استولى أزيرو على مدينة نى على نهر الفرات وقتل حاكمها^(٧) . عند ذلك أصبحت ثونب (ببلبك ؟) في خطر الوقوع بأيدي الأعداء ولذلك أرسل سراتها خطابا مؤثرا الى إخناتون طلبوا فيه النجدة هذا ترجمته :

”الى ملك مصر سيدنا . من أهالى ثونب (ببلبك ؟) خدمك . عليك تكون بصحة وفاقية . نحن كلنا نسجد تحت قدميك . سبدي . ! مدينة ثونب تتسائل الآن قائلة : لم يجرؤ أحد على سلب ثونب في عهد تحوتمس الثالث دون أن يسلبه ذلك الملك . ألا فيعلم سيدنا ملك مصر أن معبودات مصر لا تزال بثونب ويمكن جلاتك أن تتأكد صدق ذلك من كبار قومك . لقد أوشكنا تفصل من مملكة سيدنا ملك مصر . . . اذا تأخرعنا ووصول الجنود والعجلات من مصر . ان أزيرو سيعامانا كما عامل مدينة نى وحينئذ يعمنا الكدر كما يصيب جلالة ملك مصر الأسى

(١) خطابات تل العارئة ١٤٠٣٥ ملاحظة (٢) شرحه ٨٨ (٣) شرحه ١١٩ و ١٢٥ (٤) شرحه ١٣١ و ١٣٢

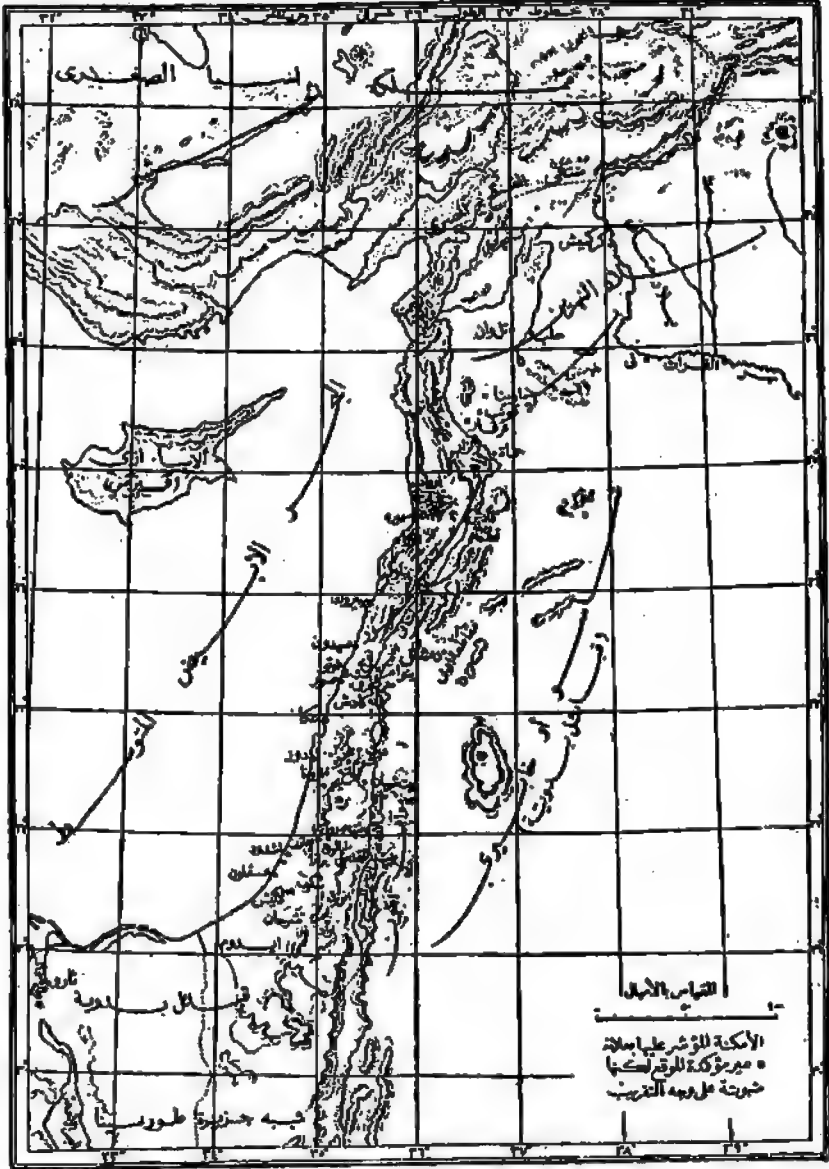
(٥) شرحه ١٢٣ (٦) شرحه ١١٩ و ٨٦ (٧) شرحه ١٢٠

لما يأتيه أزيرو . ان هذا الأخير سيرفع يده في المستقبل ليقا تل قوات جلالة سيدنا . اذا دخل أزيرو بلدة صميرة (بطرون ؟) يفعل بنا ما يشاء ونحن في بلاد جلالة الملك سيدنا . حيثئذ يندم جلالة الملك على ذلك كثيرا . أن ثونب (بملك ؟) تبكي يا سيدى بكاه مرأ ولا مغيث لها . لقد نابنا على ارسال المخاطبات لسيدنا ملك مصر مئة عشرين سنة فلم تصل الينا منه كلمة واحدة^(١) . بعد ذلك حشد أزيرو جيوشه بسرعة واستولى على صميرة (بطرون ؟) فسامت له ثونب (بملك ؟) على أثر ذلك نهائيا .

في أثناء هذه الثورة العظمى كتب رب أدي (Rib-Addi) والى بيلوس (جيبيل) المخلص لفرعون مصر خطابا وصف فيه حالة البلاد الآسيوية المحزنة وما وصلت اليه من العصيان ، راجيا مساعدته السريعة ليتمكن من طرد أزيرو من صميرة لأنه كان متأكدا أن سقوط هذه المدينة يعنى حتما سقوط بيلوس^(٢) . وقد ألمعنا سابقا الى وجود معبد مصرى بمدينة بيلوس . لكن إخطاطون لم يرسل المساعدة فأخذت الحالة تسوء والولاية يتعادون في عصيانهم على مصر ، فسلم زمريدا (Zimrida) والى صيدون (صينة) بلده الى جنود أزيرو^(٣) . بعد ما تحالف معه على الاستيلاء على بلدة صور (Tyre) بشرط اقتسام خيراتها . عند ذلك أرسل أبى ملكى (Abi-Milki) والى صور يسأل ملك مصر النجدة بسرعة^(٤) . والغريب أن ولاية سوريا المصرين لم يسألوا من إخطاطون الا قليلا من المدد ويظهر أن هذا كان كافيا لانهاد الثورة وقتئذ لولا وجود الحيثيين وتحريكهم للفتنة على الخفاء ، لذلك عجبت الجنود السيرة التي ظن أنها كافية أولا عن مكافحة الخطر . بعد ذلك وردت الأخبار بأن أزيرو استولى على الحصون الخارجية لمدينة صميرة فأرسل رب أدي (Rib-Addi) خطابا الى إخطاطون ألح فيه بطلب إرسال المساعدة بسرعة^(٥) وذكر أنه ذاق المر من غارات الآموريين خمس سنوات منذ عهد أمصحتب الثالث . فعهد إخطاطون الى عدة رسل مصرية في اجراء التحقيق في حالة صميرة وكان ذلك بلا جدوى لأن المدينة سقطت في آخر الأمر في أيدي الأعداء ، وسرطان ما قتل أزيرو والى صميرة المصرى في قصره^(٦) وأتلف القصر أيضا ثم زحف يجنوده على بيلوس . فأرسل رب أدي الى إخطاطون خطابا سرد له فيه هذه الحوادث الفظيمة معلنا إياه بأن مركز الوالى المصرى في كوميدي (Kumidi) شمالي فلسطين أصبح في خطر^(٧) . أما أزيرو فكان رجلا ماكرا استعمل بعض رجال حاشية فرعون لأغراضه بأسيا كما يستتج من خطابه الذى أرسله الى توتو (Tutu) أحد موظفى القصر المالكي ملتسما فيه أن يستغفر له فرعون عن ذنبه^(٨) ومتظاهرا في الوقت نفسه بالطاعة للوالى المصرى المدعو (Khai) خاى المجاور له بأسيا^(٩) . ولم يكتف أزيرو بذلك بل ذر الرماد في عينى إخطاطون إذ بعث اليه بخطاب كله كذب ورياء ادعى فيه أنه لا يمكنه الحضور الى قصر فرعون مصر لسرد الحقيقة عن نفسه على حسب الأمر الفرعونى لأن الحيثيين استولوا على مدينة فوخاشى (حلب) وأنه يخشى على ثونب

(١) شرحه ٤١ (٢) راجع هذا الكتاب صحيفة ٢١٣ (٣) شرحه ١٥٠ (٤) شرحه ١٥١ (٥) شرحه ٨٥

(٦) شرحه ١٢٠ و ١١٩ (٧) شرحه ٩٤ (٨) شرحه ٤٤ - ٥ (٩) شرحه ٤٦



خريطة رقم ٧ - امبراطورية مصر بآسيا

(بعلبك ؟) أن تسقط في يد الأعداء^(١) . وقد ألمعنا سابقا الى ما كانت نخشاه ثوب من حضور أزيرو الى حلب . ولما أرسل إخناتون الى أزيرو أمرا باصلاح كل ما حطمه بمدينة صميرة (بطرون ؟) رد هذا عليه قائلا انه أ تلف هذه المدينة (صميرة) ليمنع وقوعها في أيدي الحيثيين وأنه في حالة ضيق شديد لحماية بلاد فرعون في نوخاشي (حلب) ضد الحيثيين أيضا ومع ذلك فانه سيقوم بالترميمات المطلوبة في خلال سنة^(٢) . بعد ذلك وردت على إخناتون رسائل مؤكدة بأن البلاد التي استولى عليها أزيرو ستدفع الجزية نفسها التي كانت تدفعها لمصر من قبل^(٣) . مثل هذه المراسلات الرسمية التي تعترف بسيادة فرعون على سوريا وفلسطين طمأنت طبعًا خاطر إخناتون قليلا على خطورة الحالة مع أن الحقيقة على نقيض هذا بالمرّة ، وعليه أرسل إخناتون خطابا الى أزيرو سمح له بالانتظار سنة ليم اصلاح صميرة على حسب طلبه، لكن أزيرو تجنّب مقابلة رضول إخناتون المدعو خاني (Khani) فاضطر الرسول أن يرجع خطاب فرعون ثانيا الى مصر دون تسليمه لأزيرو^(٤) . وهذه الحوادث تثبت لنا شدة تساهل إخناتون ومسالته بعكس ما كان لأجداده من الصلابة والبطش . بعد ذلك أرسل أزيرو الى إخناتون خطابا اعتذر فيه عن عدم إمكانه مقابلة رسوله قائلا انه كان مشغولا في حملة ضد الحيثيين في الشمال وأنه أسرع بكل قدرته لمقابلة الرسول حالما سمع بوصوله لكنه وجده رجع ثانيا الى مصر ! وقد اعتذر كعادته أيضا عن عدم إمكانه اصلاح صميرة في المنة التي عينها الملك^(٥) .

في كل هذه المدة كان رب أدى والى بيلوس يعمل كل ما في وسعه لمقاومة أزيرو ويرسل الى فرعون مصر الخطاب تلو الخطاب طالبا النجدة ضد أزيرو المذكور . والحق يقال ان الرسائل التي كانت ترد على القصر الفرعوني من ولاية سوريا وفلسطين كانت غامضة المعنى كثيرا يتعسر على قارئها تمييز الولاية المخلصين لفرعون من العاصيين عليه في الخفاء . خذ مثلا ما حصل من سوء التفاهم وقتئذ فقد أرسل بيغورو (Bikhuru) والى الجليلي (Galilee) قوة بدوية قتلت كل رجال رب أدى ظنا منه أن هذا الأخير كان عاصيا على فرعون في حين أنه في الحقيقة كان من أصدق ولاته وأمنهم على أرض مصر . لذلك أصبح رب أدى في حالة يرثى لها يتهتده الضنك والنذل ، فأرسل الى إخناتون رسالتين وصف فيهما حالته المحزنة وطلب المساعدة^(٦) قائلا ان أهالي بيلوس ناروا عليه^(٧) لأن مندوب الملك هناك تصرف تصرفا معيبا في اخماد الثورة وأنه (رب أدى) قاوم حصار بلده ثلاث سنوات وقد أصبح الآن مسنا ومثقل الكاهل بالمرض^(٨) . بعد ذلك قرّب أدى الى بيروت ليحضر من واليا النجدة فلما رجع الى بيلوس وجدها مغلقة ووجد أخاه اغتم فرصة غيابه فاعتصب مركزه وسلم حياله الى أزيرو^(٩) . ثم سقطت بيروت في يد الأعداء وتمكن رب أدى على أثر ذلك من الرجوع ثانيا الى بيلوس والاستيلاء على منصة الحكم فيها^(١٠) . واتضح لنا بعد ذلك أن أزيرو

(١) شرحه ٤٧ و ٤٥ (٢) شرحه ٢٦ و ٢٤ - ٢٦ و ٢٤ (٣) شرحه ٤٩ و ٣٦ - ٤٠ (٤) شرحه ٥٠

(٥) شرحه ٥١ (٦) شرحه ٧٧ و ١٠٠ (٧) شرحه ١٠٠ (٨) شرحه ٧١ و ٢٣ (٩) شرحه ٩٦

(١٠) شرحه ٦٥ و ٦٧



شكل ١٤٨ - صورة لورحيب (Harmhab) تنهه موثقا بكافة الملك بالذهب . مأخوذة عن مقبرة حورحيب ويقع الملك في الرسم خارج الصورة اللى اليمين . ويشاهد في الصورة عديم حورحيب يقسمون القلائد حول عنقه وعدم آخرون يحضرون قللاد أنقى اللى الشمال . ويرى باليمين الأمير الرسم أسرى سورديون يحضرون حوت مسرى ليقدمهم حورحيب بإلالة الملك ، ولا يبدو أن يكون الاحتفال من أجل ذلك . ويشاهد تكتبة هذا الرسم في الجهة اليسرى في شكل ١١٩ إليها القباب (دار تحف لبنان)

ذهب الى مصر واضطر أن يذهب أمام إخناتون لكنه مع ذلك لم ترد على رب أدنى أقل مساعدة من مصر . في ذلك الوقت كانت بلاد الساحل الآسيوي كلها في أيدي الأعداء وكانت سفنهم مسيطرة على البحار ممانعة عنه الغذاء والمدد الحربى الآتئين من مصر^(١) . وقد ألع على رب أدنى زوجته وأعضاء أسرته أن يفعم عرى اتصاله مع مصر وينضم الى أزيرو لكنه استمر مواليا لفرعون وأرسل اليه خطبا با طالبا ثمانية جندى ليسترد يروت وليسترد بها الرزق يسيرا^(٢) خصوصا وأن الحيثيين ينجون إقليمه وبلو أزيرو يحشدون تحت أسوار مدينته (جيبيل)^(٣) . بعد ذلك لوحظ أن الرسائل التي كان يرسلها رب أدنى الى إخناتون امتنع ورودها فاستتج من ذلك طبعا أن بيلوس سقطت في أيدي الأعداء وأن رب أدنى قتل على الأرجح كما قتل غيره من ولاة مصر هناك ، وقد انتهى بموته آخر وال مصرى في شمالي مستعمرات مصر الآسيوية .

واستقل كذلك جنوبي مستعمرات مصر الآسيوية بسبب اشتعال نيران الاضطراب والثورة كالتى التهمت سوريا . وتفصيل ذلك أن بدو الخايرى (Khabiri) — وهم عراميون ساميون — قادوا الثورة كما فعل الحيثيون شمالا ، ولذلك لوحظ متطوعون منهم ضمن جنود ولاة فلسطين . وقد ألمعنا سابقا الى أن أزيرو أرسل بعض هؤلاء البدو ضد رب أدنى ليقاتلوه بجهة بيلوس ، لكن ذلك لم يمكن الولاة الموالين لفرعون أن يستخدموا البدو أنفسهم لأغراضهم أيضا . وجاء في خطاب أرسله الوالى الخائن إتاكاما (Itakama) الى فرعون اتهام شليح لولاة فرعون بفلسطين بأنهم سلموا كدش ودمشق الى بدو الخايرى^(٤) وهذه الطريقة بسط هؤلاء البدو نفوذهم على فلسطين ، فأرسلت مجتمو وعسقلون وجازر رسائل الى فرعون مستنجدة ضد هؤلاء الثوار . ثم اتحدت جازر وعسقلون ضد أبدخيا (AbdKhiba) الوالى المصرى ببيت المقدس الحصن المنيع فأرسل هذا الوالى الرسائل الكثيرة السريعة الى إخناتون مبينا الخطر راجيا المساعدة على صد بدو الخايرى ورؤسائهم^(٥) . وبلغت الثورة وسوء النظام وقتئذ درجة سرقت فيها قوافل الملك علنا تحت جدر أجالون (Ajalon)^(٦) واليك ترجمة خطاب والى بيت المقدس الى إخناتون :

”ستضيق جميع أرض جلاتك التى نارت على . أما إقليم شيرى (Seir) الواصل الى جنتى — كرميل (Ginti-Kirmil) فقد شق عصا الطاعة على وكذلك أمراؤه . لقد كانت سفن جلاتك الساعد القوى فى بسط سلطتك على بلاد النهرين وكدش ، أما الآن فقد احتل بدو الخايرى بلاد فرعون . ولم يبق لسيدى وال مطيع فالكل عصاة ليحترس الملك على قطائمه وبلاد ويرسل المدد لأنه اذا لم تصل جنود هذه السنة ذهبت ممتلكات جلالة فرعون سدى واذا تعسر ارسال جنود هذه السنة فليرسل جلالة فرعون ضابطا يلازمى للحضور أنا واخوتى كي نموت مع سيدنا الملك“^(٧) .

ويظهر أن أبدخيا كان صديقا لكاتب إخناتون الخبير بالخط المسامرى لأنه ذكر فى آخر خطابه حاشية هذا ترجمتها :

(١) شرحه ١٤٦

(٢) شرحه ١٠٢ و ١٠٤

(٣) شرحه ٦٨

(٤) شرحه ١٠٤

(٥) خطابات تل العمارنة ١٨١

(٦) شرحه ١٨٠ و ٥٥ ملاحظة

(٧) شرحه ١٧٩ - ١٨٥

”الى كاتب سيدى الملك . أنا أبدخيا خادمك . أطاع جلالة سيدى فرعون على هذه الكلمات : ان جميع أراضى سيدى فرعون سائرة نحو الضياع“ (١) . وأخذ الفلسطينيون يهاجرون رعبا من فظائع بدو الخايبرى فتركوا بلادهم واعتصموا بالجبال ، والتجأ بعضهم الى مصر حيث وصفهم الضباط المصرى المنوط بهم بقوله :

”لقد أتلفت أمتعتهم وحطمت مدنهم وأحرقت حاصلاتهم وضرب الجوع أطنابه فى بلادهم وهم فوق الجبال كالأغنام ها قد جاء بعض الأسيويين الذين لا يدرون كيف يعيشون . لقد أتوا طالبين ماوى عند فرعون ؟ كما حصل أيام آباء آبائك من قديم الزمان ها قد عهد اليك فرعون فى حمايتهم لتحمى حدود بلادهم“ (٢) (شكل ١٤٧) .

ولقد كانت مشكلة هؤلاء الضباط الذين عهد اليهم إخناتون فى حلها مستحيلة ، لأن الضباط بيخورو (Bikhuru) الذى أوفد لإرجاع النظام واخضاع بدو الخايبرى عجز عن القيام بمهمته . وقد ألعنا سابقا الى أنه أساء فهم حقائق الأمور هناك فأرسل قوّة لمحاربة رب أدى أخلص ولاية فرعون . وقد تقدم بيخورو أولا شمالا حتى وصل الى مدينة كوميدي (Kumidi) شمالى الجليل (Galilee) ثم اضطر أن يتقهقر ثانيا كما ظن (رب أدى) (٣) . ثم بلغ هذا الضابط بيت المقدس الا أنه اضطر بعد ذلك أن يتقهقر الى غزة (٤) والغالب أنه أعدم فى آخر الأمر (٥) . وبهذه الكيفية خرجت معظم سوريا وفلسطين من أيدي المصريين ، وقد نشس ولاية مصر فى جنوبى فلسطين من علاج الحالة والاحتفاظ بنفوذ فرعون فقتل بعضهم وانضم الباقون الى الأعداء . ثم زادت الاضطرابات فاعتدى على قوافل ملك بابل المدعو برايور ياش (Burraburyash) نهبا ملك عكا (Akko) وأحد جيرانه . فكتب برايور ياش مسرعا الى إخناتون راجيا تعويض ما لحق قافلته من الخسارة ومعاقبة الجناة ليستتب الأمن ، والا تصبح تجارته مع مصر معرضة دائما لمثل هذه الأخطار (٦) . وقد حصل ذلك بالفعل لأن المستعمرات المصرية بأسيا ضاعت عن آخرها فى تلك الأزمة .

لقد قام ولاية إخناتون المخلصون بسوريا وفلسطين بما يقتضيه واجبه بانذاره بالخطر المحقق بمستعمراته الأسيوية ، فأرسلوا له الخطابات الكثيرة والرسل المخصوصة والأبناء والاخوة ليظهروا له حقيقة الخطر الداهم ، لكن إخناتون لم يظهر ما يجب من الاهتمام حتى أنه كان يحجم عن الرد عليهم أو يرسل مددا ضعيفا بقيادة ضابط مصرى ، وأخيرا عجزوا عن مكالفة الخطر الحربى ذلك الخطر الذى كان يستدعى ذهاب إخناتون شخصيا مصحوبا بكل قوى الامبراطورية المصرية . والقريب أنه فى ذلك الوقت العصبى كانت معابد آتون تنوى بالدعوات والصلوات لآتون إله الامبراطورية . وجاء أنه فى السنة الثانية عشرة من حكم إخناتون أقيم احتفال نغم كالمعتاد ، تسلم جلالة الملك فيه جزية مستعمراته فى آخت آتون وهو محمول فى هودجه فوق أكتاف

(١) شرحه ١٧٩ (٢) ١١ : ٣ (٣) خطابات تل العمارنة ٩٤ (٤) شرحه ١٨٢ (٥) شرحه ٩٧

(٦) خطابات تل العمارنة ١١

ثمانية عشر جندياً^(١) . وللاحظ أن أمراء آسيا كانوا دائماً يفكرون وبذكرون الغزوات والحملات المصرية السابقة التي قام بها أجداد إخناتون حتى بعد انفصالهم من مصر . لذلك كتب هؤلاء الأمراء الرسائل اليسيرة الى إخناتون مؤكداً له ولاءهم وخضوعهم اسماً فتخيل جلالتهم أن مستعمراته الأسيوية لم ترل كما كانت عليه ، والحقيقة أن ذلك كله لم يكن الا من طريق ذر الرماد في العيون . بعد ذلك أخذ الخطر يهدد قصر إخناتون نفسه بدرجة لا تقبل في الشدة عن الزوبعة التي عصفت بمستعمراته الأسيوية ، لكنه ثبت لما وقاها واستمر ينشر عقيدته الجديدة بكل جهده ، فأكثر من معابد آتون بسائر أنحاء البلاد فشيده علاوة على المعبد العظيم بطيبة ثلاثة معابد أخرى على الأقل في مدينتي آخت آتون وجم آتون ببلاد النوبة ومعابد أخرى بمدينة عين شمس ومنف والأشمونين وأرمنت والفيوم^(٢) . وأهم كثيراً بتحصين الصلوات بالمعابد وابداع التوسلات القديمة لأجل معبوده آتون ، فغير في صفات معبوده الذي وصفه أولاً "بحرارة الشمس" قائلاً عنه انه "النار المنبعثة من آتون" فنجم عن ذلك أن كمين النار الذي أحدثته هذه التغيرات الدينية العظيمة استمر يتأجج خفية في البلاد . وتفصيل ذلك أن عقيدة آتون غيرت كثيراً من عقائد القوم القديمة المحبوبة لديهم وعلى الأخص الجزء المختص منها بالحياة الأخرى ، فبعد أن كان الناس يحتفلون بدفاع أزوريس رافة بهم في الآخرة ويستعملون لذلك الوسائل السحرية للوقاية من الأعداء العديدين وقتئذ أصبح اتباع هذا الاعتقاد محظوراً . ثم اجتهد بعضهم في وضع آتون في مركز الآلهة المصرية القديمة لكنهم لم يفلحوا لأن عقيدة إخناتون فلسفية منطقية طارية عن الخرافات والخزعبلات التي اعتادها القوم ، مثال ذلك نسبتهم معبوداتهم الى بعض النبات أو عين ماء الخ . لهذا كله تعمس على القوم ادراك أسرار عقيدة إخناتون السامية ، وغاية ما وصلوا اليه أن هذا الملك أبطل عبادة معبوداتهم القديمة واستبدل بها معبوداً جديداً صعب عليهم تصويره أو معرفته . ولبسوا أن مثل هذا التغير الديني لا يدوم طويلاً في بلاد كصر . وقد حصل مثل ذلك أيام ثيودوسيس (Theodosius) لما حاول إبطال عبادة الأصنام بمصر واستبدل بها النصرانية بعد وفاة إخناتون بألف وثمانمائة سنة تقريباً ، ولما غاب ثيودوسيس عكف المصريون ثانياً على عبادة أصنامهم عدة قرون وعلى الأخص أهالي الوجه القبلي . ويتضح من ذلك أن حياة شخص واحد لا تكفي لمناوأة بعقيدة متأصلة في النفوس وإحلال غيرها مكانها ، وعليه فقد كانت عقيدة إخناتون قليلة الانتشار بأثناء الامبراطورية المصرية ومقصورة على إخناتون نفسه وحزبه ، بلقاء هذا على قبض ما صبت إليه نفس هذا الملك وطمع هو فيه .

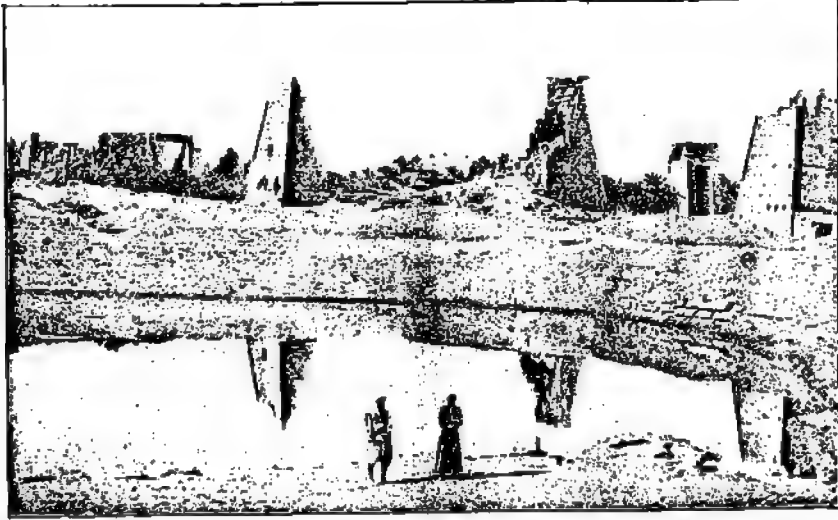
ومما زاد في خطورة الحفاء السري في نفوس الأهالي نحو مذهب إخناتون بغض كهنة آمون الشديد له أيضاً ، وهذا كما لا يخفى عامل قوى لا يستهان به لاسيما أن هؤلاء الكهنة أصبحوا يرون معابدهم الثمانية بطيبة مهجورة ومقفلتة وأوقاف معبودهم بسوريا وفلسطين في يد الحكومة ومسندة

(١) ١٠١٤:٢ - ١٥

Zeitschrift für Ägyptische Sprache, 40, 110-115 وأيضاً ملاحظاتي بمجلة ١٨ - ١٠١٧:٢ (٢)

الى آتون غالبا . لذلك كانت مدة حكم إخناتون غاصبة بمشاحنات ومؤامرات سرية وجهرية من مكاييد الكهنة نلجع هذا الملك . ثم ان خسارة مستعمرات مصر الآسيوية قوت حزب الكهنة ضد الملك وسببت انفصال الرجال الأقوياء عن إخناتون والانضمام الى كهنة آمون . ثم زاد البغض في نفوس الأهالي الذين خدم أجدادهم في البلاد الآسيوية تحت لواء تحوتمس الثالث خصوصا وأن ذكرى انتصارات وغنائم تحوتمس المذكور كانت كافية لاثارة حزازات الحزب الحربي الامبراطوري ضد إخناتون وتحريضهم على عزل هذا الملك واسناد الملك الى كنفه لممارسة الحالة واسترداد ما فقدته البلاد . نعم ان إخناتون عين قوادا حريين لقيادة جيشه ومكافحة الحالة كما ألمعنا سابقا، لكن عقيدة هذا الملك السلمية كانت عقبة كئودا أمام الأخصاء لصعوبة فهمها وأمام العامة لكراهيتهم لها . وقد وجد بين ضباط إخناتون قائد يدعى حورحوب (Harmhab) كان محبوبا لدى ملكه^(١) فاجتهد هذا القائد في ضم الحزب الحربي اليه وكذا كهنة آمون الذين كانوا يتوقون الى وجود من ينفذ رغبتهم نحو إخناتون . وبما ساعد على ذلك أيضا أن جميع الأهالي تألموا مما لحق عاداتهم وعقائدهم الدينية القديمة من الاهانة في عهد هذا الملك ولذا اشترك الأهالي والكهنة والحزب الحربي في عزل إخناتون الفيلسوف المكره صاحب الآراء والعقيدة غير المفهومة لمعظم الناس . وبما زاد الطين بلة أن إخناتون لم يرزق ولدا فعاضد صهره المدعو سا كرع (Sakere) زوج ابنته المدعوة مريت آتون (Meritaton) ومعناه محبوبة آتون . والظاهر أن إخناتون لم يكن قوى البنية كما يستدل من نحافة وجهه وأعراض الاستسقاء البطني — مرضان أصيب بهما لما قاساه من مسئوليات ومصاعب . وانتهى الأمر بيلوس سا كرع على عرش مصر واشتراكه هو وحموه في الملك . لكن إخناتون لم يدم طويلا ففى عام ١٣٥٨ قبل الميلاد أى بعد ما حكم البلاد سبع عشرة سنة تقريبا قام عليه الأهالي وعزلوه . ودفن هذا الملك في قبره الذى أعد له لنفسه والهراد أسرته في الوادى المتعزل الذى يبعد عن أخت آتون ببضعة أيام . وقد دفنت في هذا القبر أيضا كريمة إخناتون المدعوة مكيت آتون (Meketaton) قبله بمدة^(٢) . ونقل أصدقاء هذا الملك تابوته الى طيبة بعد وفاته حيث عثر عليه حديثا بمقبرة الملكة تي والدته . وقد فحص الأستاذ اليوت سميت هيكل إخناتون العظمى (لأن التابوت المذكور لم يحو الا عظاما فقط) وقرر أن صاحبه توتى وهو فى سن ثلاثين سنة . لكن المعروف أنه حكم ست عشرة سنة على الأقل ! أما الأستاذ سيت (Sethe) فلا يوافق الأستاذ اليوت سميت في هذا رأى . ويوجد تابوت هذا الملك العبقري في دار المتحف بالقاهرة وعليه نقوش تصف إخناتون بأنه ”الطفل الجميل لآتون الحى العائش الى الأزل والمتنصف بالحلق والعدالة فى السماء وفى الأرض“ (ماخوذة باذن الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم لجامعة كمبردج صحيفة ١٢٧) .

وهكذا انتهى أمر شخص له فى تاريخ الشرق القديم استعداد غريب ، وقد لقبه بنو قومه بعد ذلك ”بمجرم أخت آتون“^(٣) . أما نحن فمع لومنا له على تعصبه الدينى الشديد فى نشر عقيدته ومحو



شكل ١٤٩ - صرح حورمحب جنوبي الكرنك، وشاهد بحيرة الكرنك المقدسة بجزء الصورة الأسفل



شكل ١٥١ - الجزء الأعلى لتمثال حونسو،
يرجع تاريخه إلى آخر الأسرة الثامنة عشرة
أو أول الأسرة التاسعة عشرة
(دار تحف القاهرة)



شكل ١٥٠ - صورة تمثل حورمحب
بالدوار الآخرة يقوم بفلاحة الأرض
مأخوذة عن مقبرته وفيها يشاهد أن
رسم العسل فوق الجنية حصل بعد الفراغ
من الرسم (دار تحف بولونيا)

اسم والده من الآثار وما نجم عن ذلك من ضياع مستعمرات مملكته لا تزال تذكره بأنه كان فقي شجاعا قابل صعوبات العقائد القديمة بعزيمة صادقة فامتاز بذلك عن سائر الفراعنة الرجعيين ، كل ذلك رغبة منه في نشر تعاليمه العالمية التي نبتت عن ادراكها عقول الأهلالي . ولم يظهر في العالم من مثله بعده الا لما انقضى على وفاته نحو ثمانمائة سنة وذلك بين بنى اسرائيل . لكن هذا لا يمنع عصرنا هذا من تقدير قيمة إخناتون حق قدرها لعبقريته وجرأته في نشر آرائه الفلسفية الباهرة في عصر صحيح وفي أحوال سيئة لقي من أجلها الخسارتين خسارة جسمه وخسارة ملكه .

أما ساكرع فلم يكن كفنا لادارة شؤون الدولة ولذلك لم يدم على العرش طويلا . وكل ما عرف عن حكمه أنه عاش مدة يسيرة غامضة في مدينة أخت آتون ثم تبعه في الحكم توت عنخ آتون — ومعناه النائب الحلي لآتون — وهو صهر ثان لإخناتون تزوج بكرمته الثانية المدعوة عنخ سنپ آتون (Enkhsnepaaton) ومعناه العائشة بنفوذ آتون . وفي عهد هذا الملك قوى نفوذ كهنة آمون كثيرا حتى اضطر أن يهجر أخت آتون عاصمة حيه بعد مدة من الزمن وأن ينضم الى الكهنة وينقل بمحاشيته الى طيبة التي استمرت مهجورة من عطف الفراعنة عشرين سنة تقريبا . أما أخت آتون فاستمرت مدة يسيرة بعد ذلك ثم هجرت هي وقصرها الملكي حتى لم يبق في شوارعها شخص واحد ، تصدعت أسقف منازلها وتهدمت جدر عماراتها ، ثم أتى حزب طيبة فهتّم هياكلها انتقاما وتشفيا كما سيتضح للقارئ فيما بعد . وهكذا أضحت مدينة آتون الجيلة قاعا صفتقا لا ترى فيها عوجا ولا أمنا ، وهي تعرف الآن بتل العمارنة ولا تزال باقية كما تركها عدواها الألدان — الزمن وكهنة آمون ، وأصبح الانسان الآن يحول في شوارعها القديمة فيرى بعض جدرها بالغا بضع الأقدام فتدور في غيخته غدوات وروحات أتباع آتون الأقدمين الذين عمروها من قبل . وقد عثر عام ١٨٨٥ ميلادية في هذه المدينة المهجورة على ثلثمائة خطاب ذكرنا بعضها عند الكلام على مراسلات ملوك وحكام آسيا واتيبار مستعمرات مصر الآسيوية ، ويوجد بين هذه المراسلات نحو ستين خطبا با مرسلته من الوالي الثمس رب أدى حاكم بيلوس ، وتعرف هذه المراسلات الآن بخطابات تل العمارنة . والمعروف أن مدن آتون لم تدم طويلا بعد ذلك فقد لحقها التلف والدمار ما عدا مدينة جم آتون النوبية فقد استعمل مبيدها فيما بعد لعبادة آمون فصار معروفا بعد ذلك باسم ”معبد آمون سيد جم آتون“ وهكذا حافظت أقصى مدن النوبة على أقدم معبد أقيم للتوحيد معروف للآن (١) .

ولما رجع توت عنخ آتون الى طيبة استمر يعبد آتون وقام ببعض الإصلاح بمعبد آتون هناك ، لكنه اضطر في آخر الأمر أن يسمح لكهنة آمون بإعادة عبادة آمون واستعمال المواقيت القديمة بالأقصر والكرك ، فانتج بنفسه أكبر أعياد آمون المعروف ”بعيد أويت“ (Opet) ورمم معابده أيضا (٢) . وأجبرته الظروف بعد ذلك أن يصلح ما ألتفه إخناتون من محو اسم آمون من الآثار على طول البلاد

(١) راجع صحيفة ٢٤٠ ملاحظة (٣) (٢) راجع قروش الأقصر البارزة وأيضا شرحه ٣٤ و ١٣٥

حتى مدينة صلب (Soleb) النوية (١) . ولم تقف الأمور عند هذا الحد بل اضطرب أن يغير اسمه الى توت عنخ آمون (Tutenkhamon) أى النائب الحى لآمون — تحت تأثير الكهنة طعنا — بغناء هذا برهانا ساطعا على اتياده لحزب كهنة آمون (٢) .

والمعروف أن الامبراطورية التي حكمها توت عنخ آمون كانت لا تزال كبيرة تمتد من الدلتا شمالا الى الشلال الرابع جنوبا . وقد كانت مستعمرة النوبة مصرية الصبغة وقتئذ فصار رؤساؤها يتريون بالزى المصرى الذى أدخله هناك تحوتمس الثالث (٣) . أما الثورة المصرية فلم تؤثر كثيرا في النوبة لأنها استمرت تدفع الخراج سنويا لخزانة فرعون (٤) . وجاء ضمن نصوص مقبرة هوى (Huy) والى كوش وقتئذ ما يثبت ورود جزية الى مصر من بلاد سوريا (٥) وربما كان هذا مبالغا فيه بالنسبة لما ورد في خطابات تل العمارنة . والمعروف أن أحد خلفاء إخناتون حارب في معركة حربية بآسيا ويظن أن هذا الخليفة هو توت عنخ آمون (٦) وعليه فيكون هذا الملك قد تمكن من اخضاع بعض بلاد فلسطين أو غم بعض الغنائم منها على الأقل ، ولا يبعد أن تكون هذه البلاد التي استرجعت اعتبرت جزءا من سوريا من باب المبالغة كما أن الغنائم التي استولى عليها توت عنخ آمون احتسبت جزية .

ولم يعيش توت عنخ آمون طويلا فتبعه في الملك الكاهن آى (Ay) القدير زوج مصرية إخناتون المدعوة تى (Tiy) ويقدر حكم توت عنخ آمون بست سنوات على الأقل ولا يحتمل أنه حكم أكثر من ذلك . وفي أكتوبر عام ١٩٢٢ كشف قبر هذا الملك حاويا لأثاثه الكامل تقريبا وبذلك جاء الاستكشاف الأول من نوعه في علم الآثار . وبفحص محتويات القبر اتضح أنها ذات قيمة عظيمة لا تقدر وأنها تمثل ذلك التقدم الإخناتوني العظيم في أمور المعيشة والديانة والفنون الجميلة . أما من الوجهة التاريخية فلم نجد بين تلك المحتويات ما يشير بطريق مباشر الى أحوال البلاد السياسية في تلك العصور المضطربة ، لكن لوحظ أن اللصوص دخلوا القبر بعد دفن صاحبه فيه بقليل وعليه فلا بد أن الأحوال وقتئذ كانت قليلة النظام وأن سياسة القطر الداخلية كانت مضطربة على الأقل ، والفضل في كشف هذا القبر يرجع الى المرحوم الإيرل كارنارفون والمستر هوارد كارت . وتعتبر محتويات هذا القبر أهم ما كشف الى الآن في عالم العاديات .

وعثر حديثا جهة بوغاز كوى — عاصمة الحيثيين بآسيا الصغرى — على عدة خطابات طينية منقوشة بالخط المسبارى تشير الى الأحوال السياسية المصرية بعد وفاة توت عنخ آمون وقد أخذ الأستاذ زايس (Prof. Sayce) في ترجمتها (Ancient Egypt, 1922, Part III, pp. 66-7) فوجد في أحدها وصفا لأحد المعتمدين المصريين جاء عن مليكه أنه توفي حديثا وأن هذا الملك كان يدعى بب — خورو — ياس ، وأن ملكة مصر المدعوة دخامون أرسلت رسولا الى القصر الحيثي

(١) ٢ : ١٠٣٤ ملاحظة

(٢) ٢ : ١٠٣٥

(٣) ٢ : ١٠١٩

(٤) ٢ : ٨٩٦

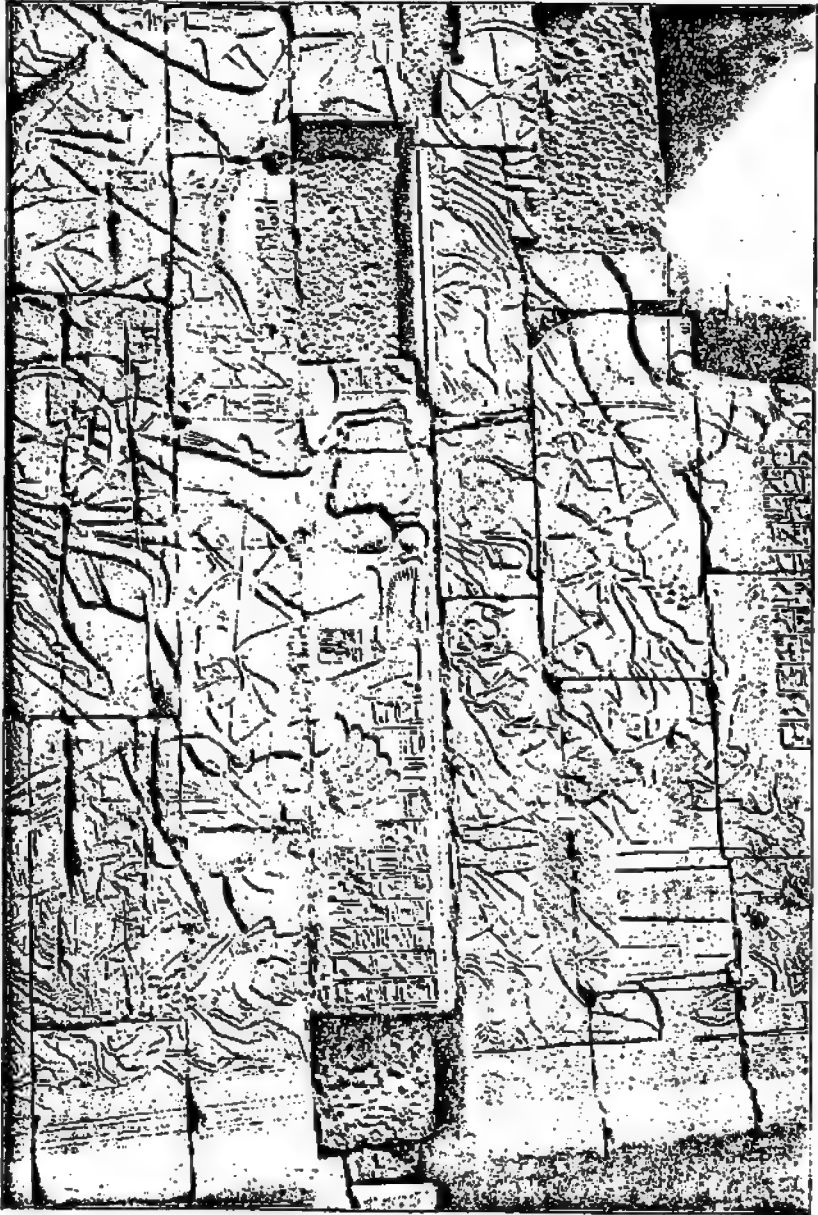
(٥) ٣ : ٢٢٢٠ : ٢٢٥٢

(٦) ٢ : ١٠٢٧ ملاحظة

طالبة الاقتران به . ويرى الأستاذ زايس أن بب خوروياس هو توت عنخ آمون المدعو أيضا تب خپورع ، وأن دخامون هي زوجة هذا الملك المدعوة أيضا عنخس آمون ، لكن لم تثبت الآن صحة هذه المقارنة نظرا لقلّة معرفتنا لخط واللغة الحيثية ولذلك يحسن بنا أن نأخذ هذه الاستنتاجات بحفظ (مأخوذ من دائرة معارف التاريخ القديم بجامعة كمبرج صحيفة ١٢٩ - ١٣٠ القسم المصري للأستاذ برستد، وأوردتها هنا باذن خاص من المؤلف). وقد شيد هذا الكاهن لنفسه قبرا في أخت آتون أخذنا منه مدحة آتون المذكورة سابقا. وقد كان هذا الملك متشعبا كثيرا بأراء إخناتون فشيّد بعض المباني بعبد آتون بطيبه وبقى حافظا مركزه ضد كهنة آمون مدة من الزمن ثم ترك قبره في أخت آتون وحفر غيره بوادي مقابر الملوك بطيبه ، الا أنه لم يعش طويلا فتوفى . والظاهر أنه اتبع في الملك بلكين قصيرى العمر لم يترك من الآثار ما يستحق الذكر ، ويقال انهما حكما قبله بزمن والحقيقة أننا لا نزال نجعل تاريخهما بالضبط .

بعد ذلك قامت في البلاد حرب أهلية فوَقعت طيبه في أيدي اللصوص الذين نهبوا القبور الملكية . وقد عرفنا الآن أن مقبرة تحوتمس الرابع وقعت فريسة لمؤلاّء الأئمة وقتلذ^(١) . وهكذا انهار صرح الأسرة الطيبه المالكة التي امتازت في العالم بعظمتها وقارها مدّة مائتين وخمسين سنة تقريبا ، فاليها ينسب حسن السياسة وإدارة الأمور وطرد الهيكسوس منذ مائتين وثلاثين سنة ثم انشاء أكبر امبراطورية شرقية قديمة معروفة في التاريخ . وكان آخر تاريخ لحكم هذه الأسرة الثامنة عشرة حوالي عام ١٣٥٠ قبل الميلاد . والظاهر أن عظم صيت هذه الأسرة لم يساعد ملوكها الضعاف على الاستمرار في الحكم ولذلك انتقل الحكم منها الى أسرة أخرى . قال مانيتو إن حورحوب هو الذى أصلىح أحوال الملكة المصرية في أواخر عهد الأسرة الثامنة عشرة . ويظهر أن هذا الملك لم يكن ذا علاقة دموية بالأسرة الثامنة عشرة ، لذلك يحق لنا أن نعتبره مرجع عبادة آمون ونظام الحكم القديم ومبدئ العهد الجديد الذى ستكلم عليه في الفصل التالى .

(١) ٣: ٣٢ ملاحظة (١)



شكل ١٥٢ - قورش بارزقة على جدار الكرك على مملكة سيق الأول المصرية . ويرى في القسم الأسفل من النبال الملك سيق يتنقل برئيس لوق.
 وفي القسم الأعلى مع الكركين . واجوز الأهل على الاستيلاء على كوش في جلته Oalliaah . ويشاهد جانب الصورة السفل رسم أول الميهه
 أنصيف يده الوراغ من الرسم الأهل بيده وقد أوردنا رسا آخر له بشكل رقم ١٥٧

الكتاب السادس

الامبراطورية في عهدنا الثاني

الفصل العشرون

انتصار آمون وتنظيم الامبراطورية

ظهر بين أتباع إخناتون رجل كفاء ماهر إداري كثير الشبه بتختمس الثالث يدعى حورحجب (Harmhab) ويتسمى الى أسرة حريقة من مدينة ألبسترونوبوليس (Alabastronopolis) وقد المعنا الى هذا في آخر الفصل السابق (١). وقد عهد لهذا الشخص بكثير من المأموريات المهمة فأعجزها بمهارة فائقة وكوفئ عليها بالعطايا الذهبية لخدمه الممتازة (٢) (شكل ١٤٨). فن أعماله أنه ندب للعناية بمهاجرى آسيا الذين هربوا الى مصر من فظائع بدو الخايري (٣) فأرسل رسلا الى تلك الجهات لإرجاع الأمن الى نصابه . ثم عهد اليه في جمع الجزية من النوبة في عهد إخناتون وخلفائه (٤) فأظهر كعادته في كل مأمورياته همة ومقدرة عظيمتين . وقد أظهر حورحجب أيضا مهارة لما صحب أحد خلفاء إخناتون ويرجح أنه توت عنخ آمون (٥) وقت حملته الحربية بآسيا . وحافظ على مركزه وشرقه في عهد خلفاء إخناتون الضعفاء وكان وقتئذ قائده الجيش العام ورئيس المستشارين الملكيين ، فلقب نفسه "كبير الكبراء ، وعظيم العظماء ، ورئيس الأهالي الأكبر ، ورسول الملك ، ورئيس جيشه في الأقطار الجنوبية والشمالية ، ومصطفى الملك والمشرف على ادارة القطرين لسيدها في حدود النظام ، وقائد قزاق سيد القطرين" (٦) . ولم يهده أن انساني نخل مثل هذه الألقاب في أى عصر كان ، ولم نتأكد بالضبط شخص الملك الذى خدمه حورحجب بهذه الألقاب السامية والثابت أن نفوذ حورحجب جعله مسيطرا على ملكه وقتئذ ، وكان في الحقيقة حاكم البلاد لأنه "عين بأمر ملكي ليكون رئيس المملكة ووزير العدالة للقطرين كأنه ولى عهد مصر لذلك كان مركزه لا ينازعه فيه أحد... : اذا دخل القصر الملكي سجد له المحجاب عند المدخل الملكي ، كما كان يستقبله رؤساء المستعمرات الأجنبية (الأقواس التسعة) والبلاد الجنوبية والشمالية ، وكانوا يرفعون اليه أيديهم ويعظمونه ويحبلونه كآله... وأمور الامبراطورية تجري بأمره... ، اذا حرت يقوم داخل الرعب نفوسهم فيدعون له بالصحة والعافية ويلقبونه بوالد القطرين" (٧). واستمرت الحال كذلك عدة سنوات (٨) حتى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد لما ولى هذا القائد العظيم الملك ، وبدسى أنه لم يكن ينقصه ما يعتد شىء لذلك سوى الألقاب والصفات الفرعونية ، وكان مركزه الادارى متينا فكان حائرا لثقة الجيش وكهنة آمون بطييه . من أجل ذلك كان اعتلاؤه العرش بطييه سهلا جدا واليك ترجمة ما ذكره حورحجب نفسه :

(١) ٢٧:٣ (١) ٩-٥:٣ (٢) ١٢-١٠:٣ (٣) ١٢:٣ (٤) ٢٠:٣ (٥) ٢٠:٣ (٦) ٩:١٢٦:٣ (٨) ٢٦-٢٥:٣ (٨)

”وبعد مضي أيام عدة أى بعد ما عين ابن حوريس الأكبر (أى حورعجب) رئيسا وولى عهد جميع الأراضى شاء حوريس (معبود البسترونوبوليس) العظيم أن يجعله على عرشه الأزلى فذهب حوريس فرحا الى طيبة محتضنا ابنه الى الكرنك ليقدمه لآمون كى يسند اليه الملك“ (١) .

ووافق وصوله عند ما احتفلت به كهنة طيبة عبد أوبت (Opet) الذى يحتفل فيه بتقل تمثال آمون من الكرنك الى الأقصر (٢) . حينئذ ظهر حورعجب فى الكرنك حيث أعاد له كهنة آمون حيلتهم التى دبروها لتحتوس الثالث وقد كان كل شىء جائزا لتنفيذ هذا المشروع . لكنه لما كان واجبا على كل فرعون أن يكون ذا حق شرعى فى عرش مصر ذهب حورعجب الى القصر الملكى وتزوج بالأميرة موتزمت (Mutnezmet) أخت زوجة إخناتون المدعوة نفر- نفرو- آتون وذلك بعد ما خرج من الكرنك وولى فرعون ابننا رع المعبود الشمسى . أما هذه الأميرة فكانت مسنة ورئيسة قسياسات آمون ومن أصل ملكى أيضا وكفى هذا كله لاثبات حق الملك لحورعجب (٣) وحصل هذا القران فكان فى القصر الملكى بالأقصر ولذلك نقل تمثال آمون الى القصر المذكور فاعتمد حورعجب ثانيا فرعوناً لمصر (٤) . بعد ذلك أعلن للإلا لقب حورعجب الملكى (٥) وابتدأت حينئذ حياته الملكية .

ولا شك أن المهمة التى أوصلت حورعجب الى مركزه السامى كان لها أثر عظيم فى ادارة الامبراطورية ، فقد بذل كل جهده لارجاع النظام الى نصابه وترتيب الادارة جيدا . وقد لبث بطيبة حوالى شهرين نظم فى أثناءها الادارة وطمان نفوس الكهنة باشتراكه معهم فى احتفالاتهم الدينية (٦) . ثم أبحر فى سفينة نيلية شمالا ليقوم بالعمل نفسه منظر الأراضى ومحددات إياها كما كانت زمن رع (٧) (أى لما كان رع فرعوناً على مصر) . واهتم كثيرا بالمعابد التى أقفلت فى عهد عبادة آتون فقد ورد عنه أنه طهر المعابد من مستنقعات الدلتا شمالا الى بلاد النوبة جنوبا وأصلح التماثيل وزاد فى عددها وعما سنها وشيد معابدها وأقام مائة تمثال كاملة مليسة بالأحجار النفيسة . وحدد أراضى الآلهة المجاورة للمعابد ورتب لها المعابد كما فعل فى الأزمنة السابقة ونظم لها القرايين اليومية وعين لها كهنة ومساعدين وحامية من زهرة الجيش المصرى . ثم وهب لها الأراضى والأغنام وكل ما يلزم (٨) . ونصب تمثالا لنفسه وزوجته بمعبد حوريس بمدينة البسترونوبوليس نقش عليه وصف ارتقائه بوضوح من موظف صغير الى مرتبة القراعنة (٩) . وهكذا أرجع لآمون كل أوقافه وإيرادات معابده وقام أيضا باصلاح هذه المعابد فكفكف الناس على أمتهم القديمة العديدة بعد ما كانوا يعبدونها سرا وقت عبادة آتون . ثم أرسل حورعجب حفاريه الى أنحاء البلاد ليتموا الاصلاحات التى بدأ بها توت عنخ آمون وليثبتوا على الآثار أسماء المعبودات التى أهانها ومحاها إخناتون ، وقد ورد ذكر هذه الاصلاحات كثيرا على جدر الكرنك ولا بد أنها ساعدته كثيرا

(١) ٢٧١٣ (٢) فرسه (٣) ٢٨١٣ (٤) ٣٠١٣ (٥) ٢٩١٣ (٦) ٢٣٠٣
(٧) ٣١١٣ (٨) فرسه (٩) ٢٢١٣-٢٢



شكل ١٥٢ - سقيا الأزل يهدى أزوديس تمثال الصدق - رسم بارزو مأخوذ من معبدته بالعراية

على نشر نفوذه في أنحاء الامبراطورية لأنها ضمت اليه طائفة الكهنة . أما عبادة آتون فلم تبطل لكنها ووقت أحيانا بسبب تلف معابده في بعض الجهات . ففى طيبة مثلا هدم حورمحب معبد آتون هدمًا تامًا وشيد بأحجاره صرحين عظيمين موسعا بذلك معبد آمون نحو الجهة الغربية (شكل ١٤٩) . وقد استعمل خلفاؤه ما تبقى من أحجار معبد آتون في اقامة أمثال هذه الأبنية ، ولا يزال بين أحجار وصروح آمون المهتمة بالكرك من النقوش ما يشير الى سبق استعماله في بناء معبد آتون . وورد على هذه الأحجار أسماء الملوك الذين عبدوا آتون والذين صاروا وقت حكم حورمحب محترقين عند الرعية^(١) . ولم يكتف حورمحب بذلك بل أرسل بعثة الى أخت آتون لهدم معبد آتون هناك واحضار أحجاره لبناء عمارات أخرى . بعد ذلك عومل اسم إخناتون بالاضطهاد نفسه الذى عامل به أسماء المعبودات سابقا، فهدمت مقبرة هذا الملك بأخت آتون ونحنت نقوش جدرانها البارزة . وعوملت مقابر أتباعه العظام بالطريقة نفسها . وقصارى القول ان حورمحب صرف جهده في محو آثار إخناتون . وبلغت كراهية هذا الملك حدا عظيما فاذا اقتضت المعاملات القضائية أحيانا مراجعة نصوص أو مواد من عهد إخناتون كان إخناتون ينعت بجرم أخت آتون^(٢) .

ومع شدة حملة حورمحب على اسم وعقيدة إخناتون وإصراره على اصلاح المعابد القديمة وإرجاع النظام العتيق الى أصله لم يندرج هذا في ارضاء أعدائه بقدر الامكان. خذ مثلا أنه عين أحداً صاحب إخناتون الأقدمين المدعو باتون إم حب (Patonemhab) — على الأرجح — رئيسا لكهنة عين شمس لكنه أشرك معه أحد أتباعه ليتم ائلاف آثار إخناتون هناك ويعرقل مساعى باتون إم حب هناك^(٣) . بهذه الطريقة كمل انتصار آمون على آتون ، فبعد ما كان إخناتون وأتباعه ينشدون الدعوات لآتون معتدين بحاسته وأعماله أصبح حجاب حورمحب يتلون فضائل آمون بالكيفية نفسها . واليك ترجمة ما قاله الآخرون في آمون :

”ما أبجل عقيدة الشخص المؤمن بهبات آمون ملك المعبودات، لا شك أن كل من يعرفه طاقل وأن كل من يخدمه سعيد الحظ لأن كل من يتبع هذا المعبود يحية“^(٤) .

هكذا فاه كاهن آمون المدعو نفرحوتب (Neferhotep) الذى غمره حورمحب بالعطايا الجزيلة لأجل ذلك^(٥) . ولا يخفى أن أمثال هذا الكاهن هم الذين ساعدوا الملك على التنكيل بأعداء آمون . واليك ترجمة انذار لهم :

”الويل لمن يعتدى عليك يا آمون . ان بلدك يحتمل كل شيء الا المعتدى عليك فانه يذله
القمعة على كل من يسيء اليك في أى مكان كل من يعرفك تبقى شمسك شارقة ، أما من يجهلك
فشمسه آفلة . لقد أصبحت معابد من اعتدى عليك في ظلام وعم النور أنحاء المعمورة“^(٦) .

(١) صحيفة ٢٨٣ ملاحقة (أ ٦ ب) (٢) قورش مس (Moe) (٣) ٢٢١٣ (٤) ٧٢١٣ (٥) ٧١١٣

(٦) Birch, Inscri. in the Hier., XXVI, see Erman, Handbuch. (٦)

ولم تقتصر مهمة حورمب على تنظيم طائفة الكهنة الذي كان نتيجة مباشرة لرد فعل ثورة إختاطون بل شمل أيضا أمورا أخرى مهمة صعبة المراس . وتفسير ذلك أن ادارة القطر أيام إختاطون وخلفائه كانت مهملة تحت اشراف حكام الأقسام ولذلك اعتراها السوء وعظمت فيها عوامل الفساد التي تحصل في مثل هذه الظروف . وقد كانت البلاد الشرقية أكثر الأقاليم وقوعا في هذا الخلل الإداري . والسبب في ذلك أن الموظفين أمنوا اشراف رؤسائهم الشديد عليهم باستعمال نفوذهم في ابتزاز الأموال من الفقراء ظلما وعدوانا فانتشرت بذلك الرشوة وعمت الخيانة بأنواعها كل أنظمة الحكومة المتباينة . فلما تولى حورمب الملك أراد علاج هذه العلل فدرسها أولا بدقة ثم دعا كاتبه الخاص بمكتبه وأمل عليه مواد قانونية للعمل بمقتضاها في كل ما ظهر له من النقص^(١) وقد وقعت هذه المواد في تسعة أقسام^(٢) تناولت منع اضطهاد الموظفين المائلين والاداريين للفقراء عقابا صارما للقسوة . من ذلك ما ورد أن صيرفا اضطهد فقيرا وجاوز بماملته حدود القانون فحكم عليه بجدع أنفه وبالنفي الى مدينة ثارو (Tharu) بجوار القنطرة وهي في بقعة منعزلة على حدود مصر الآسيوية^(٣) . ويلاحظ أن هذا الإهمال في الواجب لم يكن قاصرا على ادارة القطر الداخلية بل شمل أيضا الجيش وضباطه وهو ما يحصل عادة في الشرق حيث الاضطهاد والظلم يتلان على الفقراء . خذ مثلا ما ورد من أن بعض رجال الشرط المجهود اليهم في حفظ السلام والنظام في جنوبي الامبراطورية المصرية وشمالها اختصبوا جلود أغنام الملك من الرعاة الموكول اليهم أمر الاحتفاظ بها ، ولم يكتف هؤلاء الاصوص بذلك بل قتشوا بيوت الرعاة واحدا واحدا وأخذوا كل ما وجدوه من جلد دون أن يتركوا منها شيئا^(٤) . لمثل هذه الأسباب سن حورمب قانونا يحجب بمقتضاه مسئولية هذه الجلود من الرعاة وألقاها على الخنود ، واليك ترجمة هذا القانون :

”كل شرطي علم عنه أنه دخل المساكن لأجل سرقة الجلود يحكم عليه ابتداء من هذا اليوم بمائة جلدة ويجرحه في خمسة مواضع ثم تسترجع منه الجلود المسروقة“^(٥) .

لكن الصعوبة لم تكن في ذلك فقط بل في إيجاد مفتشين صادقو الذمة طاهري الأخلاق ليخطروا الرياسة بكل اثم أو جريمة يكشفونها ، وجاء عن هؤلاء المفتشين أنهم شاركوا في السرقة رجال الشرط بدون مراعاة لسبب رحلتهم الطويلة التي قصد بها معرفة الجناة وابطال الفساد . والمعروف أن هذا الفساد الإداري كان منها عنده تقريبا أيام تحتمس الثالث الشديد الرقابة لكنه عاد ثانيا بعد وفاته . فلما أتى حورمب اتبع طريقة تحتمس الثالث في ابطال ذلك الضرر^(٦) فمن قانونا لمنع الاختلاس والتهريب وقت جمع الضرائب ، ثم طاف في أنحاء امبراطوريته متفقدًا كيفية تطبيق قانونه المذكور^(٧) وباحثا عن الأشخاص الأكفاء الذين يمكن أن ياتمهم على أمور الحكم والعدل والقضاء بين الرعية . ولا يخفى أن السدالة كادت تكون مفقودة في البلاد منذ

(١) ٥٠ : ٣ (٢) ٤٥ : ٣ - ٤٧ (٣) ٥٤ : ٣ (٤) ٥٦ : ٣ (٥) شرحه (٦) ٥٨ : ٣

(٧) ٦٣ : ٣

ثورة آتون ، وقد وقع اختيار الملك على وزيرين أعجب بهما كثيرا وعهد اليهما في مهمة القضاء ، فعين أحدهما بمدينة طيبة وأقام الثاني بين شمس أو منف ، وقد وصفهما بقوله :

”ان هذين القاضيين صادقان كريما الأخلاق شريفا الذمة مطيعان لأوامر القصر الملك وقانون المحكمة. لقد عينتهما قاضيين على وجهى مصر (القبلي والبحرى) وجعلت مركزهما المدينتين العظيمتين بالوجه القبلي والبحرى“^(١) وقد حذرهما جلالتة من الرشوة قائلا :

” لا تأخذ الرشوة من أحد والا فكيف يمكنك أن تحكم بالعدل اذا كنتا أنفسكما جناة على القانون“^(٢) .

وأراد جلالتة أن يبطل الرشوة بين القضاة الفرعيين فأعفى كل موظفى الحفانية من دفع الضرائب ذهباً وفضة وسمح لهم بالاحتفاظ بكل دخلهم من وظيفتهم^(٣) حتى لا يكون لهم عذر في اتباع الوسائل غير الشريفة ، وهذه خطوة جديدة لم يسبق لأحد قبل حورمبب أن بخطوها ، ولم يقتصر جلالتة على ذلك بل نظم المحاكم الفرعية في كل البلاد^(٤) وسن عقابا صارما لكل عضو في هذه المحاكم يرتكب جريمة الرشوة . واليك ترجمة ما ورد في شأن هذا العقاب :

”كل موظف أو كاهن يقال عنه انه عين في القضاء ليحكم بين القضاة وهو يخفى على القانون يحاكم بتهمة الخيانة العظمى . هكذا رأت ارادة جلالتى بقصد تحسين القانون المصرى“^(٥) .

وأراد جلالتة أن يوطد صلته بموظفيه الاداريين ويبيدهم عن الرشوة فزاد مرتباتهم كثيرا ، وصار هؤلاء يتفقدون الادارة في أنحاء البلاد عدة مرات كل شهر ، واعتاد الملك أن يحتفل بهم في قصره قبل سياحتهم أو بعدها مطلقا عليهم من شرفته الملكية ومعقدا عليهم هدايا والعطايا الجزيلة منادياهم كلا باسمه ، وقد أجزل جلالتة العطايا لهم من القمح والشعير حتى لا يحتاج أحد منهم الى شئ ما^(٦) .

كل هذه المعلومات نقشها حورمبب على شاهد حجرى عظيم^(٧) يبلغ طوله ست عشرة قدما وعرضه عشر أقدام نصبه أمام الصرح الذى شيده بالكرك من أبحار معبد آتون كما ألعنا سابقا . وقد ذكر جلالتة ملاحظة على الأثر هذا ترجمتها :

”لقد سنت جلالتى هذا القانون لضمان رقاهاية أهالى مصر“^(٨) وختم نقوش الأثر مخاطبا قومه بهذه العبارة :

”استمعوا لأوامرى التى سنتها لأول مرة فى التاريخ لأحكم بها جميع الأراضى نظرا لما شاهدته من الظلم الصارخ بهذه البلاد“^(٩) .

وبلهى أن هذه الاصلاحات جعلت لحورمبب مركزا عظيما فى تاريخ الحكومات العادلة . وقد رزئت هذه البلاد بالظلم والاستبداد بعد ذلك بدرجة صعب مراسها وعلاجها حتى

(١) ٦٣ : ٣ (١) شرحه (٢) ٦٥ : ٣ (٤) شرحه (٣) ٦٤ : ٣ (٥) شرحه (٦) ٦٦ : ٣ (٧) ٦٥ : ٣ (٨) ملاحظة ٤٥ (٩)

أتى الاحتلال الإنجليزي الحديث فضرب عليه بيد قوية ، ولا تزال ذكرى هذا الظلم باقية في أذهان جميع القراء .

إذا لاحظنا عظم مجهودات حورمب في اصلاح داخلية البلاد وتنظيم ادارتها وابطال القحط الذى حل بمستعمراتها استبعادنا عليه القيام بفتوحات أجنبية لضيق الوقت . والحق يقال ان هذا الملك كان خيرا بالأمر السياسية الأسيوية مالم بالمصاعب هناك ولذلك يظهر أنه فقد الرجاء في اصلاح تلك المستعمرات الخارجية ما دامت داخلية مصر سيئة بالكيفية التى شرحناها للفارئ . وقد عثر على عدة أسماء لمدن وبلاد أسيوية منقوشة على الجدر قرب شاهد حورمب الحجرى المذكور آنفا تشير الى انتصارات حرية حازها هناك ، لكن هذا بعيد الاحتمال وعليه فيستحسن أن تدون تلك الأخبار بتحفظ^(١) خصوصا وقد ورد ضمنها ذكر الحليين ، والمعروف من أحوال وأخبار البلاد التى ورد ذكرها على تلك الجدر أن حورمب عجز بعد ذلك الوقت عن تثبيت قدمه تماما والاحتفاظ بسلطته المطلقة على بلاد سوريا . ولا يبعد أيضا أن تكون الحقيقة على تقيض ذلك إذ من الجائز أن تكون المعاهدة التى ذكرها رمسيس الثانى (بعد حورمب بنحسين سنة) كعاهدة قديمة كانت من أعمال حورمب^(٢) . أما فى جنوبي المملكة فلم تحصل فى عهد حورمب اضطرابات ذات بال وكل ما روى عن تلك الجهات أنه قامت بها ثورة اعتيادية تطلبت ذهاب حورمب شخصيا اليها لقمعها^(٣) . وقد أرسل جلالته بعثة الى بلاد الصومال أحضرت خيرات تلك الجهات المهدودة^(٤) . والمعروف أن مشاكل الامبراطورية الداخلية كانت كثيرا ما تتعارض مع القيام بفتوحات أجنبية كالتى تأقت نفس حورمب اليها ، ولا غرابة فى ذلك فقد تولى جلالته البلاد وهى فى أشد الحاجة لمتمته ونشاطه لبتشلتها من الادارة السيئة التى كانت فى عهد أسلافه . وإذا لاحظنا ذلك عامنا السبب فى بلل جلالته للمجهودات التى صرفها جبا فى ترقية داخلية مملكته ، تلك المجهودات التى تعادل فى أهميتها وفوائدها أعظم أعمال الفاتحين . وقد أظهر جلالته رفا وشغفة على رعيته لم يفقه فيها حاكم مصرى بعده حتى وقتنا هذا . ومع ذلك فقد تربى جلالته تربية حرية شرقية لكنه قال مرة لما تولى الملك "اسمعوا ان جلالتي تصرف كل وقتها لاعلاء مصلحة مصر"^(٥) .

ولم تتأكد للآن كم من السنين حكم حورمب بالضبط لكنه فهم ضمنا من سجلات احدى القضايا التى حصلت فى عهد رمسيس الثانى ما يشير الى "سنة التاسعة والخمسين من حكم حورمب وهذا تاريخ مبالغ فيه غالبا ولا يبعد أن يكون قد أضيف اليه حكم إخناتون وخلفائه أيضا . فاذا كان الرأى الثانى هو الصواب كان حكم حورمب أقل من التقدير الأول بنحو خمس وعشرين سنة أو بعبارة أخرى يكون قد حكم حورمب الى ثلاثين سنة^(٦) . وقد شيد حورمب لنفسه قبرا بديعا جدا يجهه منف لما كان موظفا فى الحكومة أى قبل توليه الملك (شكل ١١٩ و ١٤٧ و ١٤٨ و ١٥٠) .

(٥) ٥٠٠٣

(٤) ٣٧٠٣ ملاحظة

(٣) ٤٠٠٣ ملاحظة

(٢) ٣٧٧١٣

(١) ٣٤١٣

(٦) نقوش من (K10)



شكل ١٥٤ - رسم لسبق الأول في شبابه بمنله مهديا تمثال الصدق . رسم باوزمانجورذ من مقبرته بجليه .
 رابع شكل رقم ١٠٩

ولم يهجر هذا الملك قبره المنفى فلم ينشئ له قبرا آخر بوادي الملوك بطيبة . ثم ان جلالة حافظ على ألقابه الرسمية كقائد الجيوش وغيرها المنقوشة على صدر قبره المنفى كما ألمعنا سابقا فلما تولى الملك أضاف الى تلك الألقاب أسماءه وألقابه الفرعونية . ثم رسم الصلّ فوق كل رسومه (شكل ١٥٠) مظهرا بذلك صفته الفرعونية^(١) ولا تزال هذه الرسوم واضحة جلية الى وقتنا هذا .

وجنى خلفاء حورمحب ثمار أعماله العظيمة لما تملكوا زمام الملك في البلاد، ولكننا لم نتأكد الآن اذا كان حورمحب قد نجح في تأسيس أسرة ملكية لأنه يستحيل علينا الآن كشف أى علاقة بينه وبين رمسيس الأول الذي عقبه في الملك عام ١٣١٥ قبل الميلاد . ولما كان رمسيس الأول كهلا وقت توليه الملك فهم ضمنا أنه كان ذا حق في إرث العرش الفرعوني لأنه ليس من السهل الاستيلاء على الملك في سن الشيخوخة في تلك الأوقات . والمعروف عن رمسيس الأول أنه لم يقم بأى عمل هام لمملكته ولم يمين ثمار ما غرسه حورمحب قبله وذلك لتقدمه في السن . وكل ما نعرف عنه أنه وضع رسم قامة العمدة العظيمة بالكركن وبدأ بتشيدتها لكنه توفي عاجلا فأتمها خلفاؤه بعده . وفي السنة الثانية من حكم هذا الملك أحس بالكهولة والعجز عن ادارة شؤون دولته فأشرك معه في الملك ابنه سيتي الأول ، وكانت سنة ثلاثين سنة تقريبا^(٢) . ويظن أن جلالاته تمكن بمساعدة ابنه من شن غارة على النوبة لأن آثار هذه السنة تشير الى "العبيد الذين أسرمهم" جلالاته وأهداهم الى معبد وادي حلفا بالنوبة^(٣) . وليلاحظ أن هذه النقوش الخاصة بالمعبد المذكور^(٤) هي النقوش الواحدة المؤرخة المعروفة عن هذا الملك الآن . لكن لوحظ ورود اسم سيتي بآخر هذه النقوش ولذلك يرجح أنه هو الذي قام بتلك الأعمال ونصب حجره الأثري بالنوبة قبل إياها منها وقتئذ . ودلتنا الآثار أن رمسيس الأول توفي قبل نصب الأثر المذكور بأقل من ستة أشهر (أى في سنة ١٣١٣ قبل الميلاد) وأن سيتي الأول استقل وقتئذ بالملك^(٥) .

ويظهر أن سيتي الأول وضع تصميماته وقام باستعداداته الحربية لاسترجاع المستعمرات الآسيوية وقت اشتراكه مع والده في الحكم الذي يقرب من السنة . ودليلنا على ذلك أنه أصلح طريق فلسطين المتهد من حصن نارو (على حدود مصر والذي استعمله حورمحب منفى لمحجريمه المجدوعى الأنوف) ورمم وقوى القلاع المشيدة لحراسة آثار وصهاريج المياه على ذلك الطريق^(٦) . والمعروف أن المسافة بين نارو وغزّه كانت تقطع وقتئذ في عشرة أيام سيراً على الأقدام^(٧) ومنه يتضح لنا شدة احتياج المسافرين الى الماء على طول ذلك الطريق . ولا يبعد أن كانت مصر وقتئذ محاطة على بعض نفوذها بفلسطين لكن المعروف أن الأحوال السيئة التي حلت بتلك البلاد أيام إخناتون لم تعد لها العتة المناسبة . نعم ان إخناتون أرسل الى تلك الجهات حملة بقيادة ضابط مصرى ولكن هذه القوة انهزمت وفشلت في مهمتها تماما . والثابت أن المعلومات التي تلقاها

(١) ١١٣ - ٢١ (٢) ١٥٧١٣ (٣) ٧٨١٣ (٤) ٧٤١٣ ملاحظة (٥) ١٥٧١٣

(٦) ٨٦٢٨٤١٣ (٧) ٤٠٩١٢

سبتي الأول عن حالة مستعمرات مصر الآسيوية اتفقت تماما هي وما ورد في خطاب أبدو خيبا (AbdKhiba) وإلى بيت المقدس الذي أرسله إلى إخناتون^(١). ويذكر القارئ أن هذا الخطاب ذكر أن بنو الصحارى المجاورة لفلسطين زحفوا واستولوا على مدن فلسطين لكننا لم نتأكد بالضبط هل حصل ذلك بإيماز من حكام تلك الأقاليم أو من تلقاء أنفسهم هؤلاء البدو. وما يبرز مضمون هذا الخطاب ما وجد من الرسوم على الآثار المصرية المثلة هروب الفلسطينيين في عصر من أعدائهم إلى مصر. واليك ترجمة ما وصل إلى سبتي الأول من الأخبار الخاصة بهؤلاء البدو ومنها يتضح لك شدة موافقتها لما ذكرناه سابقا :

"لقد اتخذ رؤساء البدو معا وأخذوا يضعون أيديهم على فلسطين ، وهم الآن يفتكون بالناس ويلعنونهم ويضربونهم ، فصار كل منهم يقتل جاره غير مكترئين لقوانين القصر الملكي"^(٢).

في أثناء هذه الغارات البدوية أخذ الاسرائيليون يستعمرون فلسطين وكانوا يدفعون الجزية لفرعون ويطيعون أوامرهم ولذلك لم يهتم بهم . أما الآن فتغيرت الأحوال وامتنع هؤلاء القوم عن ذلك . وفي السنة الأولى من حكم سبتي الأول قاد جلالته جيشه وزحف على آسيا مبتدئا من تارو وبتجا طريق سينا الذي أصلحه مارا بقلعه وحصونه التي رجمها^(٣) حتى بلغ جنوبي فلسطين المعروف وقتئذ باسم نجب (Negeb) فقابله هناك بدو تلك الجهة المعروفون بالشاسو أو الشوس فشتت شملهم^(٤) ثم بلغ حدود كنعان (وهو اسم أطلقه المصريون على غربي فلسطين وسوريا) فاستولى هناك على مدينة محصنة محاطة بسور في آخر الأقليم الذي حصلت فيه مشاحته مع البدو^(٥) . وبعد ذلك زحف شمالا فاستولى على بلاد سهل مجتو المعروف بيزرل (Jezreel) وعبر وادي نهر الأردن ونصب هناك حجرا أثريا ذكر فيه انتصاراته التي حازها بجبهة حوران (Hauran)^(٦) . ثم زحف سبتي الأول غربا حتى بلغ جنوبي بلاد لبنان فاستولى على مدينة يانوام (Yenoam)^(٧) المحاطة بالغابات الكثيرة والتي وقفها تحوتمس الثالث بعد غزوته لها على معبد آمون وذلك منذ مائة وخمسين سنة تقريبا . في ذلك الوقت أقبل على جلالته وفد من حكام تلك البلاد أظهر له الخضوع والولاء لمصر وقدم له ما يطلب من الخدم . ولاحظ أن هؤلاء الحكام مضى عليهم حوالي خمسين سنة بعد ترك أمحتب الثالث لمدينة صيده لم يشاهدوا في أثناءها فرعون مصر يا قائدا لجيشه كما اعتادوا سابقا^(٨) ، ولذلك أراد سبتي الأول أن يختبر ولاءهم فكلفهم احضار كل خشبية من الأرض ليم بها بناء سفينة آمون المقدسة في طيبة وليصنع منها أيضا سوار طويلة لنصبها أمام صروح معبد ذلك المعبد^(٩) عند ذلك أسرع هؤلاء الحكام في حضرة سبتي بجمع تلك الخشب وقد راقب جلالته شخصيا شحنها من الموانئ البحرية التي أخضعها كما فعل سلفه تحوتمس الثالث . ويظن أن سبتي الأول وصل في حملته هذه إلى شمالي صميره أولازا (Ullaza)^(١٠) . وقد قدم ملك قبرص إلى جلالته وقتئذ

(١) راجع من صحيفة ٢٥٧ إلى صحيفة ٢٥٨ (٢) ٣: ١٠١-٢: ٢-٩ (٣) ٣: ٨٢ ملاحظة

(٤) ٣: ٨٥ ملاحظة (٥) ٣: ٨٧-٨ (٦) ٣: ٨١ (٧) ٣: ٨٩-٩٩ (٨) راجع صحيفة ٢٣٤

(٩) ٣: ٩١-٩٤ (١٠) ٣: ٨١-٩٢

هدايا جزيلة جريا على عادة حكام تلك الجزيرة نحو ملوك مصر . والثابت أن مدينتي صور (Tyre) و أوثو (Otho)^(١) خضعتا لسيتي وقتئذ وأن ساحل فلسطين أصبح آمنا وأن الطريق البحري بين مصر وفلسطين أعيد للقيام بمحلات حرية في المستقبل .

بعد ذلك رجع سيتي الأول وكانت الاستعدادات والاحتفالات قائمة على قدم وساق انتظارا لوصول جلالته ظافرا من آسيا كما كان يفعل لفراعة مصر الفاتحين منذ جليلين . وذاع انتصار سيتي هذا في أنحاء البلاد فبلغ مصر قبل وصوله اليها ولذلك هب رجال الحكومة لمقاومة جلالته على حدود مصر ، فاجتمعوا هناك بجهة ثارو (Tharu) على رأس الجسر المشيد على القناة العذبة الموصلة نهر النيل بالبحيرات المرة (راجع صحيفة ١٢١) فأبصروا هناك الجيوش المصرية قادمة يملؤها الغبار وتبدو عليها علامات التعب يتقدمهم فرعونهم را كما تجلته الحرية وساتقا أمامه أسراه من أمراء فلسطين وسوريا ، عند ذلك صاح موظفو الحكومة بصوت واحد شق عنان السماء هاتفين هتاف التحية والتبجيل^(٢) . ولما وصل جلالته الى طيبة أقيمت له احتفالات عظيمة أخرى عرضت فيها الأسرى والغنائم الحرية الجزيلة أمام آمون كما فعل أيام ملوك عهد الامبراطورية الأولى . وليلاحظ أن أهالي طيبة مضى عليهم نيف وخمسون سنة تقريبا لم يشاهدوا في أثنائها مثل تلك الاحتفالات^(٣) . وقد ضحى سيتي في ذلك الاحتفال ببعض الأسرى أمام المعبودات قربانا لهم^(٤) .

وظهر الآن أن هذه الحملة الأسوية كانت كافية لاختضاع جنوبي فلسطين لمصر ، ويرجح أن معظم شمالي فلسطين ضم أيضا وقتئذ الى الامبراطورية المصرية . ثم أراد سيتي الأول أن يقوم بحملة ثانية بآسيا لكن حصل وقتئذ اضطراب كالذي حدث في مبدأ الأسرة الثانية عشرة اضطر جلالته أن يخضعه أولا . وتفصيل ذلك أن الليبيين القاطنين غربي مصبات النيل تحيزوا فرصة ضعف مصر فهاجروا الى الوجه البحري وأخذوا يضعون أيديهم على كل ما يمكن تملكه فهددوا حدود الدلتا الغربية . ودلتنا قائمة ابرادات سيتي الأول أن جلالته أمضى سنته الثانية كلها في الدلتا^(٥) ويرجح جدا أنه قام وقتئذ بقمع الليبيين . وجاء أن جلالته التقى بهؤلاء الأعداء في مكان غربي الدلتا^(٦) لا يزال مجهولا لنا وانتهى الأمر بانتصار جلالته انتصارا باهرا فأقيم له احتفال كبير بطيبه^(٧) أمام المعبود آمون حيث قدم له الغنائم الجزيلة والأسرى العديدين . والظاهر أن جلالته لم يذهب الى طيبة بعد انتصاره على الليبيين مباشرة بل قصد آسيا بعدئذ لإكمال انتصاراته وتوطيد سلطته بسوريا . وعلى كل فال معروف أنه بلغ أرض الجليل (Galilee) واستولى عنوة على مدينة كدش المحاطة بسور حصين . وهذه المدينة الأخيرة غير كدش التي على نهر الأورونط (العاصي) . وليلاحظ أن هذه الأقاليم كانت تعرف وقتئذ بمملكة أمور وقد معنا سابقا أن أبد شيرتا (Abdashirta) و أزيرو (Aziru) هما اللذان أسسا هذه المملكة كما جاء في خطاب رب أذي (Rib-Addi)^(٨) والآن نذكر القارئ أن هذه المملكة الصغيرة المحتوية على كدش وأرض الجليل كانت بمثابة حد فاصل منبع بين شمال فلسطين جنوبا

(١) ٨٩:٣ (١) ١٠٣-٩٨:٣ (٢) ١١٢-١٠٤:٣ (٣) ١١٢:٣ (٤) ٢٠٧:٣ (٥) ١٢٢-١٢٠:٣ (٦) ٩-١٣٣:٣ (٧) (٨) راجع سابقا من صحيفة ٢٥٤ ال ٢٥٧

ووادى نهر الأورونط المكون لحدود مملكة الحيثيين الجنوبية شمالا . من ذلك يتضح أنه اذا أراد سبتي الأول أن يهجم على الحيثيين وجب عليه أولا أن يخضع مملكة آمور وهذا هو ما قام به جلالتة فقد استولى على تلك المملكة بما فيها كدش (على الأرجح) (١) . بعد ذلك زحف جلالتة شمالا على الحيثيين فانضح لهم أن ملكها المدعو سبلل (Sepel) الذي تحالف مع مصر في أواخر الأسرة الثامنة عشرة توفي منذ مدة طويلة وأن ابنه المدعو مراسار (Merasar) كان قائما بالملك بدله (٢) . في ذلك الوقت التحمت جيوش مصر بجيوش خيشا لأول مرة في التاريخ القديم وكان ذلك في مكان مجهول وعلى نهر الأورونط فدارت رحى القتال بين الفريقين بشدة ركب في أثناءها سبتي الأول مجلته الحربية وحارب أعداءه مع جيوشه حتى انتصر عليهم تماما (٣) . ويستدل من قرائن الأحوال أن هذه المعركة لم يشترك فيها جيش الحيثيين الرئيسي لأن سبتي لم يزعزع مركز أعدائه بسوريا فقد بقيت كدش (التي على نهر العاصي) بأيديهم . وعليه فالغالب أن كل ما أحدثه سبتي حينئذ هو ارجاع حدود الحيثيين يسيرا الى الشمال ووقف زحفهم وتدخلهم في شؤون فلسطين جنوبا . بعد ذلك رجع جلالتة الى طيبة فقابلته رعيته بالحفاوة والاکرام وهناك قدم جزيته وأسراه هدية لآمون معبود الامبراطورية الأعظم بالكرك (٤) . ويتضح من ذلك أن حدود مستعمرات مصر الآسيوية وصلت وقتئذ بوجه التقريب الى حدود فلسطين الشمالية بما في ذلك من مدينة صور (Tyre) وساحل فيلقيا جنوبي نهر ليطاني (Litany) . وليلاحظ أن هذه الفتوحات لم ترجع لمصر إلا ما يقرب من ثلث مستعمراتها السابقة ولذلك كان طبيعيا أن يستمر سبتي في فتوحاته السورية . لكنه مع ذلك لم يظهر جلالتة هناك بعد ذلك لسبب لا تزال مجهله ويظن أنه اقتنع وقتئذ بعدم فائدة نضال الحيثيين لشدة رمسوخ قدمهم بسوريا . زد على ذلك أن مركز مصر بسوريا أضفى مخالفا لمركز الحيثيين الذين احتلوا تلك البلاد احتلالا ملكيا وحربيا ، أما الفراعنة فلم يعبأوا كثيرا بتكمير تلك الجهات بل كل ما عنوا به هو أخذ الجزية السنوية منها ، ولذلك كان منتظرا أن الاستعمار المصرى الضعيف لا يقوى على قلب استعمار الحيثيين القوي . ثم ان مملكة الحيثيين أصبحت مأجمة بالسكان بأكثر مما تسع فكان هؤلاء يهجرون وطنهم نازحين الى سوريا ومنه يتضح أنه لو فرض ونجح المصريون في طرد الحيثيين من جنوبي سوريا فان شمالي سوريا يبقى دائما في حالة حرب مع المصريين . والظاهر أن سبتي اقتنع حينذاك بأن أحوال البلاد تغيرت كثيرا عما كانت عليه أيام نحوتمس الأول فصمم حوالى ذلك الوقت أن يبرم معاهدة ودية مع ملك الحيثيين المدعو متلا (Metella) الذى تولى الملك بعد أبيه مراسار (Merasar) (٥) .

ولما آب سبتي الى وطنه جعل همه توطيد السلام في المملكة وتشييد المعابد . وقد ألعنا سابقا الى أن حورحجب أصلح كثيرا مما أتلفه أتباع مذهب آتون . والآن نذكر القارئ أنه لما تولى

(١) ١٤٠: ٣ - ١٤١ (٢) ٣٧٥: ٣ (٣) ١٤٢: ٣ - ١٤٤ (٤) ١٤٥: ٣ - ١٥٢

(٥) ٣٧٧: ٣



شکل ۱۰۰ — جند اسرار الہام . رسم کی مقدہ باقیہ کی سہہ الہامی طور پر

والدسيتي الأول الملك لم يتمكن من عمل شيء يذكر بالنسبة لكبرسته ، فلما تولى بعده ابنه سيتي وجد كثيرا من هذه الآثار في حاجة الى الإصلاح ، فقام بهذه المسألة بكل احترام وورع ، وتوجد على كل معابد آمون المنتشرة على النيل من عمارة بالنوبة جنوبا الى تل بسطه بالذلتا شمالا نقوش أثرية تشير الى "الإصلاحات التي قام بها سيتي الأول لهذه الأماكن المقدسة" (١). وقد أرسل جلالته البعثات لقطع الأحجار من محاجر مصر بجهة أسوان والسلسلة وجيلين (Gebelen) (٢) واستخدم في ذلك أسرى حروبه كما فعل أسلافه . وفي حالة استخدام المصريين في ذلك كان جلالته يتخبر بمعاملتهم بسخاء ورفق ، خذ مثلا ما ورد عن الألف من العمال الذين استخدموا في قطع الأحجار الرملية من محاجر السلسلة ، فإن كلا منهم كان يتقاضى أربعة أرطال خبزا وحزمتين من الخضراوات وقطعة من اللحم المشوى كل يوم وثوبا من السكبان النظيف مرتين كل شهر (٣) . وبلغت العمارات التي شيدها سيتي الأول في جميع المعابد القديمة درجة فاقت أبنية أرض عصور الإمبراطورية ، ومنه استدل أن دخل الخزانة المصرية وقتئذ كانت عظيما وكافيا للقيام بهذه المصاريف الباهظة على صغر حجم الإمبراطورية . ولا يخفى أن الإمبراطورية المصرية وقتئذ كانت تلك الأقاليم التي بين الشلال الرابع جنوبا ونهر الأردن شمالا .

ومن عمارات سيتي الأول القاعة ذات العمد العظمى التي أسسها رمسيس الأول أمام صرح أمحتب الثالث بمعبد الكرنك ، وقد فاقت هذه القاعة في العظم قاعة أمحتب الثالث ذات العمد التي لم يتم بناؤها في معبد الأقصر . ثم كسى سيتي نقوش أمحتب الثالث الحربية التي على صرحه بالأحجار من الخارج وأكمل بناء عمد معبدها المعبد الشمالي وكذا حائطه الشمالي الذي نقش عليه حقاووه من الخارج نقوشا عظيمة تمثل انتصاراته (شكل ١٥٢) وتبلغ مساحة الحائط المنقوشة من الجدار الى الأفرز حوالي مائتي قدم وتجتمع هذه النقوش نحو باب الدخول في الوسط والمرسوم حوله الملك سيتي راجعا الى مصر مقدما الهدايا والأسرى والفنائم لآمون ومضحيا في نهاية الأمر بالأسرى الى المعبود المذكور . والمشاهد لهذه الرسوم يرى أن جلالته الملك يستعد للدخول والاشتراك في الاحتفال الديني (٤) . ومثل هذه الآثار والرسوم كانت تعمل لملوك الأسرة الثامنة عشرة لكنها بادت الآن فلم يبق منها الا ما ذكرناه خاصا بأمحتب الثالث . من ذلك يتضح لنا ما في رسوم سيتي الأول الحربية من الفوائد . وعاجلت سيتي الأول منيته قبل أن يتم القاعة العظمى ونقشها بالرسوم اليدوية فاتمها خلفاؤه من بعده . وقد اتبع سنة آباءه ملوك الأسرة الثانية عشرة فشيدها لنفسه معبدا بالمهل الغربي بطيبة في الطرف الشمالي لسلسلة معابد الملوك الأقدمين . ولما كان والد سيتي قد توفى قبل أن يشيد له معبدا جعل سيتي معبده هذا مشتركا بينه وبين والده ، ويعرف هذا المعبد الآن بمعبد القرنة (Kurna) والمعروف أن سيتي توفى قبل إتمامه أيضا (٥) .

(١) ٣ : ٢٠٠ - ٣ : ٢٠١ - ٣ : ٢٠٢

(٢) ٣ : ٢٠٧ - ٣ : ٢٠٨

(٣) ٣ : ٢٠١ - ٣ : ٢٠٢

(٤) ٣ : ٢٠٠ - ٣ : ٢٠١

(٥) ٣ : ٢١١ - ٣ : ٢١٢

وشيد أيضا معبدا جديلا بالعرابة لمعبودات مصر العظمى (وهي معبودات تثليث أزوريس وسيتي أيضا) ومحرايا صغيرا أيضا مجاورا له لاقامة الدعوات لمولك مصر الأقدمين وبالأخص ملوك الأسرة الأولى والثانية الذين دفنوا خلف المحراب المذكور بالصحراء^(١) ونقش على جدر معبده هذا قائمة بأسماء ملوك مصر الأقدمين ابتداء من ميتا الى عهده ولا تزال هذه القائمة معتبرة من أهم المستندات التاريخية التي نستمد منها معلوماتنا عن تواريخ هؤلاء الملوك. وقد تلف صرحا هذا المعبد ومع ذلك فان البقية الباقية منه لا تزال تعتبر أنفس الآثار التي أبدعتها أيدي المصريين المهرة . وسنناول الكلام عليها من وجهة الفنون الجميلة فيما بعد . وجاء عن سيتي الأول أنه شيد أيضا معبدا بمنف وأحربعين شمس ومعابد أخرى بالدلتا لم نعرف عنها الا القليل . ويوجد بأبي سنبل معبد عظيم شيده سيتي ولكنه توفي قبل اتمامه^(٢) فأتى بعده رمسيس الثاني وأتمه .

لا يخفى أن هذه المشروعات تطلبت أموالا عظيمة، ثم انه أراد أن يحبس أوقافا ثابتة على معبد العرابة فاضطر إلى البحث عن موارد مالية أخرى فأنجه ذهنه الى استخراج الذهب من مناجم جبل الزبارا على ساحل البحر الأحمر . والعقبه الكثود التي كانت دائما تحول دون تمييز تلك المناجم هي صعوبة الطريق الموصل إليها الذي يتدنى من وادي النيل جنوبي ادفو بعدة أميال ، فأراد الملك أن يذلل تلك الصعوبة فذهب شخصيا الى ذلك الطريق ووضع الخطط لتمهيدته . ولما بلغ تلك الجهة اضطر أن يتوغل في الصحراء سبعة وثلاثين ميلا تقريبا حتى وصل الى محطة استعملت قديما أيام الأسرة الثامنة عشرة للاستراحة وهي تبعد عن النيل بمسيرة يومين تقريبا^(٣) ، وهناك أمر بحفر بئر تحت اشرافه فنبعت منه المياه بغزارة^(٤) وفي الحال أصدر أمره بتشيد معبد يجوار ذلك البئر وتأسيس قرية أيضا^(٥) . والظاهر أن الملك أسس عدة محطات أخرى على طول الطريق الى مناجم الذهب المذكورة كما يستدل من أنشودة الرحالة الظهاء التي كانوا يترنمون بها وقتئذ واليك ترجمتها :

”أيها المعبودات الساكنات هذا البئر أمنجن سيتي العمر الأزل لأنه شق لنا الطريق لنسير فيها بعد ما كانت مهجورة فأصبحنا نسير فيها سالمين ونصل أحياء وأضحى الطريق الصعب سهلا جميلا“^(٦) . ولما تم مشروع هذه المناجم وقف سيتي إيراد هذا المشروع على معبد العرابة وصب اللعنات الشديدة على كل من يعطل هذه الأوقاف وينقض إرادته^(٧) . والغريب أن هذه الأوقاف عطل تنفيذها بعد وفاته . سنة فلما تولى ابنه رمسيس الثاني الحكم أرجعها الى أصلها^(٨) . وأراد سيتي أن يستغل مناجم ذهب النوبة على الطريقة السالفة فأمر بحفر بئر عمقه مائتا قدم تقريبا على الطريق المبتدئ من جنوبي شرق كويان بالنوبة الى وادي علاكي لكنه لم يهتد في آخره الى الماء فبطل المشروع وحرم الملك من استغلال ذهب ذلك الإقليم^(٩) .

(١) ٢٢٥:٣ - ٢٤٣ (٢) ٤٩٥:٣ (٣) ١٧٠:٣ (٤) ١٧١:٣ (٥) ١٧٢:٣ - ٤
(٦) ١٩٥:٣ (٧) ١٧٥:٣ - ١٩٤ (٨) ٢٦٣:٣ (٩) ٢٨٩:٣

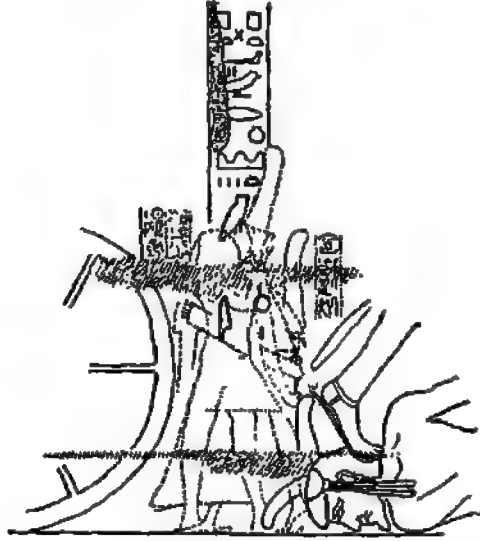


شكل ١٥٦ — السيد في قارب من الأب فوق مياه البركة - رسم في مقبرة باجيت في عهد الإمبراطور تيتوس أمام المتاحف في
روchester ما يعطي الكتاب

لقد حافظت الفنون الجميلة في عهد سبتى على درجتها التي حازتها أيام الأسرة الثامنة عشرة من حيث التأثير والدقة والجمال ، لأن العزيمة ورد الفعل اللذين ظهرا على الاسباطورية أثرا تعاشها من ضعفها السابق لم يقللا كثيرا من درجتهما السابقة ، خذ مثلا قاعة الكرنك العظمى السابقة الذكر فانها لم تقم بالدقة المعهودة في ملوك الأسرة الثامنة عشرة ومع ذلك فهي معتبرة من أعظم آثار المملكة المصرية من حيث الفن ولا تزال في نظر الأثريين معتبرة من أعظم الآثار المصرية المدهشة ببناء ومخاضها رغم ما بها من الأغلاط الواضحة . وتعتبر مجموعة رسوم ونقوش عهد سبتى من أعظم أمثلة الاجتهاد والدقة اللذين اشتهرت بهما الأسرة الثامنة عشرة . وهذا الوصف ينطبق عليها اجمالا لكننا لو فحصنا كل جزء من هذه الرسوم على حدة لوجدنا فيه أغلاطا تخطيطية عديدة . وهناك بعض رسوم جاءت غاية في الدقة والجمال كرسيم سبتى الأول الراجع رحمه الطارد الأمير الليبي أمامه الموجود على حائط الكرنك الشمالي (شكل ١٥٢) . أما أجمل الرسوم البارزة المصنوعة في عهد سبتى فهي التي بمعبد العرابة (شكل ١٥٣) فيها تجتمع الرقة والدقة مع معالم الحياة والشجاعة والمهارة . وتبادل هذه الرسوم في الاتقان الرسوم التي على جدران قبر سبتى البديع بطيبة (شكل ١٥٤) . ولا تزال الصور الملونة تتم عن تقدم واتقان عهد تل العمارنة ، فحجر مقابر طيبة حاوية كثيرا من أمثال هذه الصور البديعة ، مثال ذلك منظر تفقد قطعان الأغنام (شكل ١٥٥) ومنظر القنص في المستنقعات الذي تجسم فيه وحشية الحيوان كما يشاهد ذلك في (شكل ١٥٦) الذي يمثل قفا نائرا قافزا بأرجله على طائرين وحشين ومسلطا أنيابه على جسد فريسة ناكثة في الوقت نفسه .

ولم ترد لنا معلومات عن تاريخ سبتى الأول بعد السنة التاسعة من حكمه ويرجح أنه قضى باقى حياته في إقامة المعابد الضخمة وحفر مقبرته المعتبرة أكبر مقبرة عملت بوادى الملوك الى عهده ، وتشاهد فيها طرق وسجرات متشعبة آخذة في الانحدار بما ينيف على أربعمائة وسبعين قدما (شكل ١٥٩) . وبعد ثلاثين عاما من تعيينه وليا لعهد المملكة أخذ يحضر المسلات لذلك وأعلن في الوقت نفسه ابتداءه لا تزال نجهل اسمه وليا لعهد الاسباطورية ، ثم أراد هذا الأمير أن يشترك هو ووالده فرسم نفسه وهو يحارب الليبيين على حائط الكرنك الشمالي لقاعة والده . ولما لم يكن متظفرا رسم هذا الأمير في هذا المحل من الحائط اضطر الحفارون أن يحوا بعض النقوش الأصلية ليتمكنوا من رسم هذا الأمير . ولما بادت الألوان التي كانت تكسو هذه الرسوم انفضحت لنا اشارات لحوادث تاريخية كانت خافية للعيان ، وتتخلص هذه الحوادث في أن رمسيس الثاني أحد أبناء سبتى الأول من زوجته المدعوة تويبا (Tuya) تأمر في الخفاء على اغتصاب مركز أخيه ولي العهد ، وقام آخر أيام والده بحركة حكومية بغائية استولى بها على العرش . وسبتى الأول توفي قبل الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على توليه عهد المملكة المصرية (حوالي عام ١٢٩٢ قبل الميلاد) فلم يتمكن من نصب مستلين عملهما لذكرى هذا التعيين . ومنه يتضح أن سبتى حكم أكثر من عشرين سنة مستقلا بالملك ، ودفن في تابوت مرمرى بديع داخل قبره الفخيم الذي حفره بالوادى الغربي بطيبة . وقد أسعدنا الحظ فحفظ لنا جثة هذا الملك الى يومنا هذا ولا تزال تبدو عليها ملامح العظمة والأبهة والحلال التي امتاز بها هذا الفرعون وقت اعتلائه العرش المصرى (شكل ١٥٨) .

وقد رسميس الثاني كل اجراءاته في اغتصاب الملك من أخيه الوارد رسمه بالخائط المذكور .
ولآن لم نتأكد اذا كان رسم هذا الأمير نقش في عهد سيّد الأول أو أنه تسلم الملك مدة قصيرة
بعد والده قبل أن يختصب منه رسميس الملك . والمعروف على كل حال أن رسميس اغتصب
الملك من أخيه بدون تردد واعتلى العرش فوراً ثم سماه أخيه ولقبه ورسمه من على الخائط المذكور
(شكل ١٥٢) ورسم نفسه مكانه واضعاً اسمه بدله ولقباً نفسه بولي عهد الملكة كذبا وبهتاناً
(شكل ١٥٧) . كل هذه الأسرار تشهد واضحة في رسوم الخائط بعد ما بادت الألوان التي كانت



شكل ١٥٧ — بعض رسوم بارزة لسبق الأول على جدران الكرنك . يشاهد
في هذا الشكل الابن الأول لسبق الأول مرسوماً بخطوط منقطعة . وقد استنج
في استمرار النصوص الهرغليفية الرأسية الى أعلى الرسم المذكور أن هذا الابن
رسم نفسه هنا بعد القراع من الرسم الأصل . أما الشخص المرسوم بخطوط
قطعية فيمثل رسميس الثاني وقد رسم نفسه كذلك فوق رسم أخيه الكبير الذي
خطه واغتصب الملك منه

تكسوها، ومن هذه المستندات علمنا خبر المشاحنات التي حصلت بين الأخوين الأميرين المصحوبة
قالبا بمنازعات نسوية وتزاع بين أفراد البلاط الملكي . ولا تزال هذه الرسوم باقية شاهدة على تلك
الحوادث وموضحة لكيفية اعتلاء رسميس الثاني عرش مصر . ولما استولى هذا الأخير على العرش
الملكى اتبع طرق التفضيل المعتادة ليقنع الرعية بحقه في العرش فخطب في أمراء قصره مشيراً الى يوم
أجلسه والده أمام الأمراء وليا لعهد الملكة (١) . وبليهي أن الأمراء كانوا على علم تام بحقائق
الأمور لكنهم تظاهروا ساعثين بجهلها وأخذوا يمدحون رسميس كثيراً حتى فاقوا على المعقول ،

(١) ٣ : ٢١٧ - ٨

واليك مثلا من مديحهم اياه : قالوا ان قوة جلالته وشهامته بلغت الذروة وقتما قاد جيشه العظيم في السنة العاشرة من عمره !^(١١) . ولا شك أن هذا الاطراء صعب التصديق جدا لسخافته من جهة ولبعده عن الصواب من جهة أخرى ، لكن الحق يقال ان رمسيس الثاني أظهر شجاعة عظيمة في شبو بيته عما بها كل أثر لمجهودات أخيه المنزول في المطالبة بالعرش .

ووطد رمسيس الثاني دعائم ملكه بسرمة في طيبة عاصمة البلاد فأسرع حالاً من بلاد الدلتا (على الأرجح) الى طيبة ليحتفل بعيد أوبت (Opet) السنوي العظيم بمعبد آمون الرسمي^(١٢) . وهناك حاز جلالته تعظيم الكهنة فبدأ باقامة الاحتفالات الدينية لوالده بهمة لا تعرف الملل . ثم أبحر في النيل شمالاً من طيبة الى العرابة^(١٣) ولا يبعد أن يكون نزل بها وقت رجوعه الى طيبة ، فوجد معبد والده في حالة سيئة . وتفصيل ذلك أن سبتي توفي قبل أيامه ولذا كانت القاعات بلا سقف وكانت أحجار العمد والجدر مبعثرة لم يشيد منها الا اليسير . وأدهى من هذا وأمرته أنه وجد الأوقاف التي حبسها والده على هذا المعبد قد أساء التصرف فيها من وكل اليه رعايتها^(١٤) على الرغم من اللعنات التي أوردعا سبتي في وقفيته على من يتدعا . كل هذا حصل ولم يمض على وفاة سبتي أكثر من سنة واحدة . وبما لاحظته رمسيس الثاني أيضاً وقتئذ أن مقابر ملوك الأسرة الأولى الذين حكموا مصر نحو ألفي سنة أصبحت في حالة تستدعي الالتفات والعتناء^(١٥) . لذلك جمع جلالته رجال قصره وقص عليهم رغبته في اتمام هذه الأعمال وعلى الأخص اتمام بناء معبد والده^(١٦) . وقد أتم جلالته معبد والده على حسب رغبته وجدّد أوقافه ونظم ادارته وزاد عليها باهدائه الأغنام العديدة وضرائب صربي الطيور والصيداين . وأهدى للمعبد أيضاً سفينة تجارية بالبحر الأحمر وصدة سفن نبيلة أخرى وعبيدا وخداما وعين أيضاً كهنة وموظفين لادارة أملاك المعبد المذكور^(١٧) . كل هذه اجراءات اعتبرها القوم نتيجة احترام رمسيس لوالده ، لكنها في الحقيقة عادت عليه بالفائدة والتفجع بدليل ما نقشه جلالته من الرسوم الضخمة بمعبد والده من أن هذه الأفعال جلبت له رضا سبتي وجعلت سبتي خليل المعبودات يرجوهم ليطيلوا عمر رمسيس ويقوّوا حكمه^(١٨) . ومناجاة الأموات لمصلحة الأحياء عقيدة قديمة وجدت على آثار الملكتين القديمة والوسطى ، غير ما ذكره رمسيس سابقا على معبد والده الذي أتمه رمسيس بعده^(١٩) .

والظاهر أن الأوقاف التي حبسها سبتي الأول على الأموات كانت كثيرة حتى أثقلت كاهل مالية رمسيس الثاني فاضطر جلالته أن يبحث عن موارد أخرى للسال . ودلتنا آثار منف أن جلالته اجتمع في السنة الثالثة من حكمه مع وزرائه وشاورهم في تميم مناجم وادى علاكي الذهبية بالتوبة واصلاح الطريق الموصل لذلك الوادى وقد عجز والده عن انجازه^(٢٠) . وكاتب المندوب السامى لكوش حاضرا ذلك الاجتماع فشرح لجلالته صعوبة المشروع وفشل والده في الوصول الى مياه بحفر الآبار في ذلك الطريق وزاد على ذلك قوله : " ان الحالة هناك أصبحت سيئة للغاية ، فالإنحناص

(١١) ١٧ : ١٥٢٨٨ : ٣ (٢) ٢٦٠-٢٦١ : ٣ (٣) ٢٦١ : ٣ (٤) ٢٦٢ : ٣ (٥) ٢٦٢ : ٣ (٦) ٣ : ٢٦٤-٥
(٧) ٣ : ٢٧٤-٧ (٨) ٣ : ٢٥١-٢٨١ (٩) ٣ : ٢٧٩-٢٨١ (١٠) ٣ : ١٥٢٨١ : ٣ : ١٠٣ ملاحظة

الذين يعبرون ذلك الطريق يموت منهم ما يقرب من النصف ظمأً، وكانت الحير تموت أيضا للسبب نفسه^(١١) . لذلك وجب على كل مسافر الى تلك المناطق أن يأخذ كمية من المياه معه تكفيه لذهابه وإيابه ، ولهذا السبب وقف احضار الذهب من تلك الجهات^(١٢) . بعد ذلك أشار والى كوش وأعضاء المجلس على جلالة بطريقه غير مباشرة يستحثونه على أن يقوم بتجربة أخرى للبحث عن مياه بذلك الطريق^(١٣) . وعهد الى والى كوش في ذلك فقام ، هذا بأموريته خير قيام ثم بعث لرئيس خطابا أنباء فيه بأنه عثر على كمية غزيرة من المياه على عمق عشرين قدما تقريبا^(١٤) . وأمر رئيس والى كوش أن ينصب بجهة كوبان — مبدأ طريق وادى علاكي — حجرا أثريا منقوشا عليه تاريخ هذا المشروع^(١٥) . ويلاحظ أن هذه الأعمال الداخلية كانت مقدمة لمشروعات عظيمة أخرى صمم عليها رئيس المستقبل لأنه كان طموحا نحو العلا مشربيا نحو استرداد مستعمرات آسيا التي فتحها قبله فراعاة الأسرة الثامنة عشرة .

(١١) ٢٨٢-٣ : ٢٩٢ (١) (١٢) ٢٨٨-٣ : ٢٩٢ (٢) (١٣) ٢٨٦-٣ : ٢٨٦ (٣) (١٤) ٢٨٢-٣ : ٢٩٢ (٤)

الفصل الحادى والعشرون

حروب رمسيس الثانى

ذكرنا سابقا أنه لما تولت الأسرة التاسعة عشرة الحكم كانت مستعمراتها الآسيوية محفوفة بالمخاطر ، وأن رمسيس الأول كان هرما قصير الحكم عاجزا عن القيام بحروب هناك . فلما تولى ابنه سبتي الأول عجز عن اختراق أقاليم الحيثيين وطردهم الى آسيا الصغرى واسترجاع ما قتمه ملوك الأسرة الثامنة عشرة . ثم أتى رمسيس الثانى فوجد الحيثيين واضعين أيديهم على تلك الأقاليم مدة عشرين سنة تقريبا منذ حربهم مع سبتي الأول . والظاهر أن المعاهدة التى أبرمت بين سبتي ومتلا (Metella) ملك الحيثيين ساعدت الأخيرين على بسط نفوذهم على مستعمراتهم وتحصينها جيدا ، ولذلك زحف متلا على وادى الأورونط (العامى) واستولى على كدش مركز نفوذ سوريا أيام تحوتمس الثالث ، وقد قاومت وقتئذ أكثر من أية جهة بسوريا فلم تخضع إلا بعد كثير عناء . وقد أوردنا سابقا ميزات هذا الحصن الحربية والجغرافية ولا شك أن هذه الميزات استرعت أنظار ملك الحيثيين فجعلها عقبة كثودا في وجه المصريين هناك .

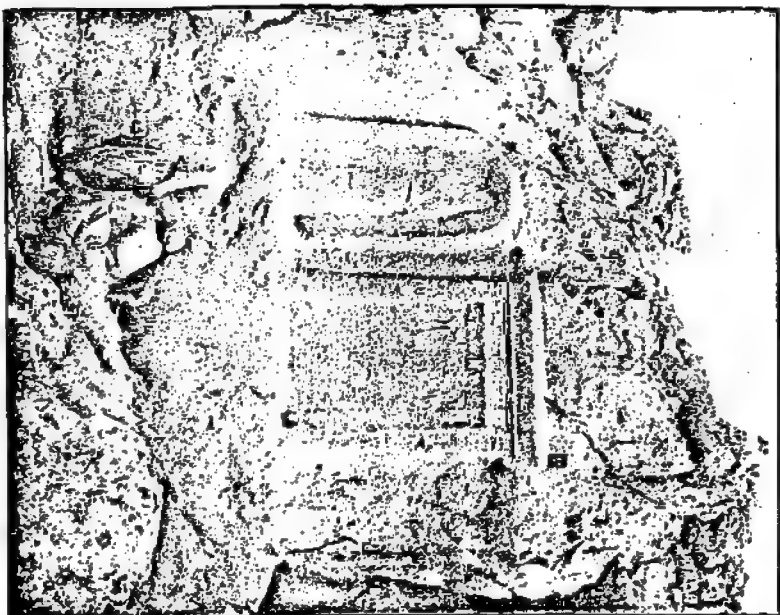
واتبع رمسيس الثانى طريقة تحوتمس الثالث في غزو الحيثيين فبدأ أولا باخضاع الشاطئ البحرى ليتخذ قاعدة حربية لحركاته المقبلة ، لأن المواصلات البحرية كانت أسهل وأسرع من البرية . ولأن لم تعرف ما فعله رمسيس في رحلته الحربية الأولى لما نفذ الشطر الأول من مشروعاته وكل ما تعلمه أنه نصب لوجا من الحجر الرملى على نهر الكلب قرب يروت بليت قورشه تقريبا ولكنه يمكننا أن نميز عليه بصحوبة اسم رمسيس الثانى ، وذكر "السنة الرابعة من حكم جلالتة" (شكل ١٥٩) . ومنه استدل أن تلك الحملة حصلت في السنة الرابعة من حكمه وأن أمر مكان بلغه جيشه هو ذلك المكان على الساحل الفينيق^(١) . ولكن هذه الحملة كانت لسوء الحظ انذارا كافيا لتلا لحروب في المستقبل ، فأخذ هذا يجمع قواته ويستعد بكل جهده ويحير جميع ولائه أن يشتركوا معا في الدفاع عن كيانهم ضد مصر^(٢) . وقد حث على نقوش مسارية ببوغاز كوى (عاصمة الحيثيين القديمة) تشير الى أن متلا نفسه كان يحارب رمسيس الثانى شخصيا في معركة كدش (مأخوذة باذن الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم بجامعة كبرديج صحيفة ١٤١) نانضم اليه ملوك النهرين وأرواد وكاركاميش (Carchemish) وكرد (كنعان) وكدش ونوب وأوجاريت (Ugarit) وحلب وملوك آسيا الصغرى مثل ملك كزودن (Kezuden) وپدس (Pedes)^(٣) . ولم يكف متلا

بذلك بل أتفق أموالا باهظة في استئجار جنود كثيرة من جزر البحر الأبيض المتوسط وشواطئه كالليسيين الذين أغاروا مرة على الدلتا وقبرص أيام الأسرة الثامنة عشرة وكذا الميسين (Mycians) والكليسيين (Cilicians) والدردانيين (Dardanians) وبلاد إرونت (Erwenet) المجهولة^(١) . كل هؤلاء اندمجوا في سلك جيش الحيثيين فكان أقوى من القوات المصرية في أى وقت مضى ، والظاهر أن عدده بلغ وقتئذ عشرين ألف جندى وهو مقدار لا يستهان به في تلك الأزمنة .

أما رمسيس الثانى فلم يكن أقل اجتهدا من ملك الحيثيين في استئجار الجنود الأجنبية بالجيش المصرى . وللاحظ أن جنود النوبة كانت معتبرة جزئا من الجيش المصرى منذ عهد الملكة المصرية القديمة فأهالى الماوى مثلا قاموا بأعمال الشرط بعاصمة إختاطون . وهناك أمثلة عديدة مثل هذه قام بها النوبيون نحو الفراعنة . والمعروف من خطابات تل العمارنة أن جنود الشرديين (Sherden) استعملوا للحفاظ على النظام بسوريا قبل زمن رمسيس الثانى بستين سنة . فلما أتى رمسيس أدخل منهم عددا عظيما في جيشه وكون منهم وحدة حربية كبيرة ولذلك كان الجيش المصرى مقبعا الى ثلاثة أقسام : قسم المشاة وقسم العجلات الحربية وقسم الشرديين (شردن)^(٢) وقال رمسيس انه أسر هؤلاء الشرديين في حروبه السابقة والغالب أنه حقيقة فعل هذا مع بعضهم لما سطوا على ساحل الدلتا الغربى للنهب والسرقة^(٣) . ويرجح أن عدد جيش رمسيس كان حوالى العشرين ألفا مع جعلنا عدد الجنود المأجورة فيه . وقسم جلالة جيشه الى أربعة فيالق هى فيلق آمون وفيلق رع وفيلق پتاح وفيلق سوتخ واختار جلالة أن يقود فيلق آمون شخصيا^(٤) .

في أواخر أبريل للسنة الخامسة من حكم جلالة (حوالى عام ١٢٨٨ قبل الميلاد) زحف جلالة بجيشه العرمرم من مدينة ثارو (Tharu) على حدود مصر الشمالية الشرقية وكان متوليا قيادة فيلق آمون بمقدمة الجيش تتلوه فيالق رع وپتاح وسوتخ بهذا الترتيب . أما الطريق الذى سلكه رمسيس الثانى في زحفه وقتئذ على فلسطين فلا تزال مجهله ، انما المعروف أنه لما بلغ لبنان كان زاحفا على شاطئ فينقيا الذى أخضعه في السنة السابقة . وجاء عن جلالة أنه أسس هناك مدينة سميت باسمه لاستعمالها قاعدة لأعماله الحربية في المستقبل على الأرجح ، ولأن لم نعرف موضع هذه المدينة بالضبط ويرجح أنها قريبة من مصب نهر الكلب بالقرب من الشاهد الحجرى السابق الذكر . في تلك المدينة جمع جلالة قواده وجنوده البواسل ثم زحف (على الأرجح) في طريق وادى نهر الكلب . ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أنه كان هناك طريق آخر أقل خطرا من هذا الى الجنوب على طريق نهر لى (Litany) لكن رمسيس لم يتبعه لسبب لا تزال مجهله . بعد ذلك يم جلالة نحو نهر الأورونط متبعا اياه وذلك في أواخر شهر مايو أى بعد مرور تسعة وعشرين يوما على مغادرته حصن ثارو . وضرب جلالة خيامه فوق آخر قمة شمالى الوادى المرتفع بين سلسلى جبال لبنان ،

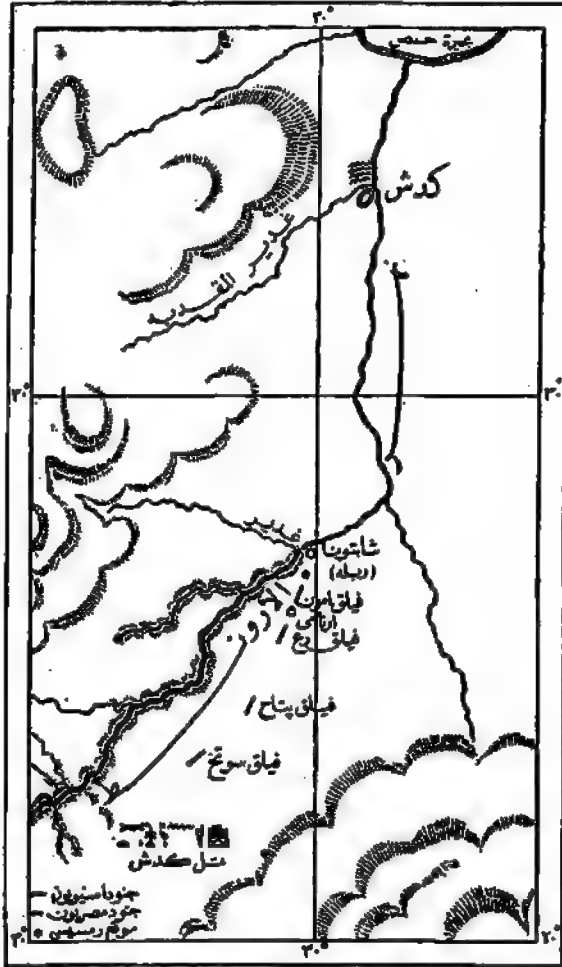
(١) ٣٠٧ : ٣ (٢) شرحه (٣) ٤٩١ : ٣ (٤) لمراجعة أصول الكلام التالى لهذا اراجع ٣ : ٢٩٨ - ٣٤٨
وأىضا كتابي بخصوص معركة كدش طبع جامعة شيكاغو سنة ١٩٠٤



شكل ١٥٩ - شاهد حجرى لرئيس المذبح (أيمين) وكاتدرائية
 أحيو القديس (اليسر) في زيفيتا، متروان لى صغور من الجسر الأول
 على مصب نهر الككب قرب بيروت



شكل ١٥٨ - رأس مرمية سبق الأول
 مأخوذة من مرمية يدار نصف القمامرة



خريطة رقم ٨ مركز كردش الجغرافي
 تبين موقع متل ككده حيث أمضى روسيس الثاني ليلة قبل المعركة
 ومراكز جنوده في صبيحة يوم القتال

وهذا المكان يشرف على كدش ويبعد عنها بمسيرة يوم واحد ولذلك يجوز أن حصون هذه المدينة كانت ظاهرة لجنود رمسيس في الأفق حيث يجول نهر الأورونط مجراه مخترقا ذلك الوادى .

فما طلع نهار اليوم التالى حل رمسيس خيامه وزحف فى مقدمة فيلق آمون تتبعه الفيالق الأخرى والمحمدر بقواته على المنحدر الأخير نحو فرع نهر الأورونط القريب من مدينة شابتونا (Shabtuна) المعروفة عند اليهود باسم ربله (Riblah) . وإذا أمن الصارئى فى جغرافية تلك الجهات يجد أن نهر الأورونط يمتدق منذ الآن أرضا سهله بعد خروجه من الوادى العميق بين سلسلتى الجبال الشاغحة . وسار رمسيس ثلاث ساعات ثم جهز عدته لأن يعبر نهر الأورونط الى الغرب متجها نحو كدش وبهذه الطريقة تمكن جلالة من عبور هذا النهر الواسع قبل أن يهجم على كدش من الجنوب (خريطة رقم ٨) . واقتضى نظام الجيش أن يقدم ضباطه أخبارهم كل يوم بجلالة الملك فكانوا يخبرونه بعدم عثورهم على جيش العدو قائلين له انهم يرجحون وجوده شمالى الجهة التى احتشدوا فيها . عند ذلك ظهر بدويان ادعيا أنهما هربا من جيوش الحيثيين وقالوا ان ملك الحيثيين انسحب بقواته شمالا الى اقليم حلب شمالى تونب (مملك) فصدق رمسيس هذه القصة لانطباقها على عدم عثور طلائع المصريين عن موقع الحيثيين . حيثخذ عبر جلالة النهر مسرعا مصحوبا بفيلق آمون وزحف شمالا متبوعا بفيالق رع وبتاح وسوتخ سائرة الهويينى على هذا الترتيب ورغب جلالة فى حصار كدش ذلك اليوم ، فأمرع مصحوبا بمرسه انلصاص فقط غير مسبوق بمسجلة واحدة تاركا خلفه فيلق آمون يتبعه ، فبلغ جلالة كدش وقت الظهيرة وكان متلا حاشدا جيشه



كلوترة
ملا
خريطة رقم ٩ ، معركة كدش
مراكز القوات للحاربة وقت مجور
الاسيويين

فى الشمالى الغربى لكدش . وأصبح مركز رمسيس حرجا للغاية لأن الفيالق المصرية الأربعة كانت متفرقة على مسافة ثمانية أو عشرة أميال من الطريق وكان ضباط فيلق رع وبتاح يستريحون فى ظلال الغابات المجاورة اثر سيرهم الحثيث المتعب . ثم انضج لمتلا أن رمسيس صدق كلام البدوين اللذين أرسلهما لخداعه فأعد عدته لاعتنام الفرصة فلم يهجم على رمسيس حالا بل سحب قواته الى شرق الأورونط ولكن رمسيس استمر سائر اشمالا غربى كدش وحيثخذ أخذ متلا ينسحب جنوبا شرق المدينة خلصة جاعلا المدينة فاصلا بينه وبين رمسيس كى لا يراه . بهذه الكيفية أحرز متلا موقعا حرجيا يمكنه انا أحسن استعماله أن يسحق به رمسيس وجميع قواته بنهاية السهولة .

فى هذا الوقت العصيب كانت القوات المصرية مجزأة تقريبا الى جزأين : جزء قريب من كدش مؤلف من فيلق آمون ورع ، وجزء آخر مؤلف من بتاح وسوتخ جنوبى كدش لم يعبر فرع شابتونا (ربله) عند مصبه فى الأورونط (خريطة رقم ٩) . ولبعد فيلق سوتخ كثيرا عن حومة الوشى لم يسمع عنه شىء ولم يشترك فى العراك ذلك اليوم . ثم أراد رمسيس أن يستريح فى الشمالى الغربى لكدش وهو على الأرجح المكان الذى حشدت فيه قوات الحيثيين فى طلعة اليوم .

في هذا الموضع ضرب رمسيس خيامه للاستراحة وقت القيلولة . بعد ذلك زمن قصير وصل فيلق آمون وضرب خيامه حول السرادق الملكي وأقام الاستحكامات الخارجية حول المعسكر . ثم أخذت عجلات المؤونة ترد تباعا ففصلت منها الثيران وجمعت القنالات ذات العجلتين في مكان منفرد ضمن الاستحكامات المذكورة . وكانت الجنود المصرية المتعبة تتلصقا وتسقى خيلها وتجهز ذاتها ، فظهر وقتئذ جاسوسان أسويان أحضرتهما الطلائع المصرية الى خيمة رمسيس الملكية فلما ضربا ضربا مؤلما أقرا بأن متلا خبا جميع قوّاته خلف المدينة . فاستشاط رمسيس غيظا لذلك واستدعى حالا قوّاده وموظفيه ووربجهم كثيرا على إهمالهم في عدم معرفتهم موقع العدو ودوّه منهم ثم أمر وزيره في الحال باحضار فيلق يتاح بغاية السرعة ، ويرجح جدا أن الوزير نفسه هو الذي قام بهذه الأمورية شخصيا تخلصا من إهماله وصونا لشرفه . ويستدل من طلب رمسيس لفيلق يتاح فقط أن فيلق صونج كان بعيدا لا يمكنه الحضور والاشتراك في القتال لأنه لم يعبر حتى ذلك الوقت غدیر شابوتونا (ربلّة) . ويستنتج أيضا من رسالة الملك أنه كان عالما بقرب فيلق رع منه واستعداده للقيام بأوامره ، ولكنه لم يدر بجند رمسيس وقتئذ مقدار خطورة مركزه ولا عظم النكبة الموشكة أن تسقط على فيلق رع التمس . ” وبينما كان جلالته يولج أمراءه على إهمالهم اذا بملك الحيثيين عبر نهر الأورونط جنوبي كدش قائدا جيشه العرمرم المستجمع من ممالك عديدة ، وكان ظهور هؤلاء الأعداء من جنوبي كدش فشطروا فيلق رع شطرين وهو سائر على غرة غير مستعد للدفاع “ .

هكذا وصف المكاتب الحربى تلك الحادثة المؤلمة وهو غاية في الإيجاز والوضاحة مما يصعب على مكاتبى الحروب الحديثة أن يأتوا بأبلغ منه .

وكانت جميع قوّات الحيثيين راكبة عجلاتها أما فيلق رع فكان مكوّنا من المشاة فقط ولذلك سهل شطره وتشتيته . والظاهر أن القسم الجنوبي لهذا الفيالق أبيض كله ، أما الباقي فهرب نحو خيام رمسيس مذعورا تاركا عدوّه وأدواته مبعثرة في الطريق ، فأسر الحيثيون منهم عددا عظيما .

وكان أول ما فعله ضباط فيلق رع أن أرسلوا رسولا الى رمسيس رأسا ليخبره بالكارثة و يظهر لنا أن أول نذير وصل الى جلالته كان دخول وحدات فيلق رع عليه مذعورين هارين بينهم نجلا جلالته ، فألقى هؤلاء أنفسهم داخل معسكر آمون لكنهم كانوا متبوعين بعجلات الحيثيين . عند ذلك أسرع حرس رمسيس المشاة في تخلص وحدات رع من الأعداء ولكن الخطر كان شديدا فعجلات الحيثيين كانت تنيف على الألفين والخمسمائة . ثم اقترب الحيثيون من المصريين واتسعت مقدمتهم حتى طوّقت المعسكر المصرى تماما .



خريطة رقم ١٠ : معركة كوش
تبين كيفية فصل قوات رمسيس الثالث
عن مصبات واحاطة العدو به في الدور الثاني
للمعركة

وبنيسى أن فيلق آمون تلقى جنود رع المذعورين بصدمة كالصاعقة لأنه لم يكن مستعداً للقتال بل كان يحاول الراحة من عناء السفر ولذلك كان أعزل من السلاح عديم الضباط . وهكذا انتشر الذعر بين وحداته فهربت هذه شمالاً نحو خيام رمسيس ودب الذعر أيضاً في معظم قوات الملك التي حوله . أما قواته الأخرى الجنوبية فكانت بعيدة تفصلها عنه قوات الحيثيين ولذلك لم يكن هناك أمل في مساعدتها . من ذلك يتضح للقارئ أن هزيمة رمسيس أو شكت أن تكون تامة لا مناص منها (خريطة رقم ١٠) .

في تلك البرهة الرهيبة لم يتردد رمسيس لحظة فيما يجب عليه أن يفعله على قصر الوقت الذى لديه ، لحاول جلالته أن يخرق صفوف أعدائه المحيطة به ليتحقق بقواته الجنوبية فاعتلى عجلته التي كانت بانتظاره وقاد بنفسه حرسه الخاص وبعض الضباط والجنود القريبين منه وهم بشجاعة نادرة على الحيثيين المتدققين عليه غرباً ، فاتضح له أن قوات العدو في الغرب والجنوب عظيمة جداً لا أمل في اختراقها فساد جلالته الى معسكره ، وتأكد أن عجلات الحيثيين في الشرق أضعف قوة لعدم وجود الوقت الكافي لديها

للاستعداد فيه . عند ذلك صوب جلالته قوته المستميتة وشدته الفرعونية نحو تلك القوات الشرقية فأوقع بينهم الرعب والذعر وألقاهم في النهر تحت أعين متلا الواقف على الشاطئ المقابل مصحوباً بنمائاة الآف من المشاة . في تلك اللحظة رأى ملك الحيثيين ضباطه العديدين وكتابه الخصوصى وقائد عربته الشخصية وقائد حرسه الخاص وأخاه يلقون جميعاً في النهر تحت هجمات فرعون الشديدة . فأخذ جنود ميتلاً على الشاطئ يتبحون رجالهم الفرقي وكان بينهم ملك الذى أسعف من الفرع بصعوبة . وقد ضاعف رمسيس مجهوده على تلك الجهة باستمرار حتى شنت شمال أعدائه هناك .

في تلك الساعة حصل أمر كثير الحصول بين جنود الشرق نجى رمسيس من الهلاك الكلى . وتفسير ذلك أن الحيثيين الذين اقتنوا أثر المصريين من الجنوب والغرب وجدوا أدوات وأمتعة المصريين مبعثرة أمامهم بكثرة فأخذوا يسلبونها بدلاً من الاستمرار في مطاردة المصريين والقضاء عليهم . والحقيقة أنهم لو فعلوا ذلك لكسروا المصريين شر كسرة وتمكنوا من أسر رمسيس نفسه . واتضح في الوقت الذى كان هؤلاء الأعداء يسلبون أمتعة المصريين أن وصلت امدادات حربية مصرية آتية من الشاطئ غير الفيالق الأربعة السابقة الذكر للاتحاق ببيش رمسيس ، فانقضت هذه القوة على الحيثيين على غزاة وأبادتهم عن آخرهم .

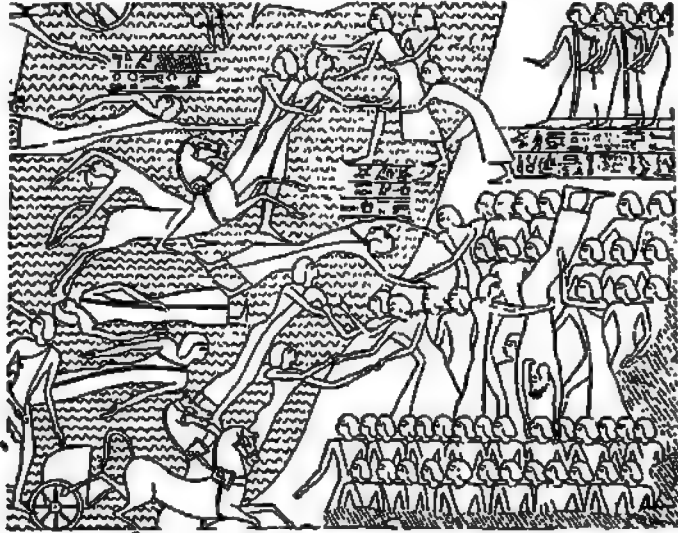
ولاشك أن هجوم رمسيس الشديد بجهة نهر الأورونط والمذبحة العظمى غير المنتظرة التي قامت بها تلك "الامدادات" الآتية بين الشاطئ أضعفا كثيرا من عزيمته الحثيئين وقالوا من همتهم وأعطيا رمسيس في الوقت نفسه مدة كافية لم شعث جيشه . وأخذت بعد ذلك وحدات آمون الهاربة تعود الى معسكرها وتتضم الى "الامدادات" فقل بذلك خطر مركز رمسيس الحربي وبق جلالته متظرا فيلق بتاح .

والمعروف أن المصريين دافعوا عن أنفسهم دفاع الأبطال حتى اضطر مثلا أن يمد جنده بآثر رديف عنده وهو المكون من ألف عجلة حربية مسلحة . وبالرغم من هجوم رمسيس على أعدائه ست مررات فإن مثلا لم يرسل جنده المشاة الثمانية الآلاف الذين كانوا معه على شاطئ النهر الشرقي ، ولذلك لم يحارب من الحثيئين إلا قسم العجلات الحربية أما المشاة فلم يشاركوا في الكفاح . ولاحظ أن مقاومة رمسيس دامت حوالي ثلاث ساعات كان يراقب بشغف في أثناءها وصول قواته الجنوبية القريبة من شابتونا (ربله) . ولما مالت الشمس للغيب لاحت في أفق السماء رموس حراب فيلق بتاح لامة مسرعة مكفهرة فابتسم لها محيا رمسيس إذ علم بقرب نجاحه ، فوقع الحثيئون بين قوتين مصريتين واضطروا بحكم مركزهم أن ينسحبوا الى كدش بعدما تكبدوا خسائر جسيمة على الأرجح . والحق يقال اننا لا نزال نجهد كثيرا عن هذه الحوادث انما الثابت أن الليل لم يحجى حتى نجح رمسيس من وطلته واحتمى عدوه داخل كدش . بعد ذلك أحضر الأسرى أمام جلالته فذكر تابعيه أن الفضل في أسر هؤلاء يرجع اليه وحده دون سواه .

وقد طفحت الآثار المصرية بوصف رجوع جنود رمسيس الهاربة اليه ثانيا وما رأى هؤلاء من القتل والفنك الذريع الذي حل بالحثيئين وبالأخص حاشية مثلا الخصوصية والحكومية . ولا مرء في صدق هذه الروايات لأنه من المؤكد أن الحثيئين خسروا كثيرا اثر هجوم رمسيس عليهم بجهة النهر شمالي كدش وأثر وصول فيلق بتاح . لكن خسارة رمسيس كانت جسيمة أيضا وطل الأخص خسارة فيلق رع ولذا لا يبعد أن يكون المصريون خسروا أكثر من الحثيئين . ومن هذا يتضح للقارئ أن فوز رمسيس في هذه المعركة يمحصر في نجاحه من الهلاك المحقق به ، أما احتفاظ جلالته بمركز دفاعه مدة القتال وبعده فلا قيمة له بجانب النتيجة المذكورة .

وجاء في إحدى الروايات المصرية عن هذه المعركة أن رمسيس كرر هجومه على الحثيئين بثمة عظيمة فأرسل مثلا خطابا الى جلالته رجا فيه الصلح فوافق رمسيس على هذا الطلب ثم رجع متصرا الى مصر . ولم تذكر باقي الروايات شيئا عن حوادث اليوم التالي ولكن يستدل منها أن رمسيس كان موجها للتخلص من وطلته وقيادة جنوده المشاة ثانية الى مصر . ولم يرد في رواية واحدة خبر استيلاء جلالته على كدش ومع ذلك فقد ذكر كثير من الأثريين حصول هذا الأمر بدون دليل تاريخي .

ويجئ نجاة رمسيس من الخطر الذى جرّه اليه طيشه أخذ يباهى بفعله للتخلص من هذا المأزق ، فنقش على جميع عماراته الضخمة المهمة أخبار هذه الواقعة الحربية بأسهاب ما اعتبره هو ورجال حاشيته جدرا بالذكر . وتشاهد أخبار هذه المعركة منقوشة تقوشا بارزة زاهية على جدران معبد أبى سبيل والدز والرماسيوم معبد جلالتة بطيبة ومعبد الأقصر والكرنك والعرابة وغير ذلك من العمارات التى بليت الآن . ومن أهم الاستكشافات الحديثة التى عملت فى بوغاز كوى بأسيوط الصغرى العثود على نص هذه المعاهدة مكتوبا بالخط المسارى . وعثر أيضا على نصوص مسازية أخرى بتلك الجهة استدلت منها أن النفوذ الحيثى كان مبسوطا على مملكة آمور وواصل الى شمالى فلسطين (مأخوذة بأذن من الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم لجامعة كمبرج صحيفة ١٥ طبعة سنة ١٩٢٥) .



شكل ١٦٠ - مظهر من مناظر القوش البارزة لمعركة كدش يشاهد فيه الأسير يون هارين نحو نهر الأورونط واخوانهم على الجهة الأخرى للبريتشلتونهم من . ويرى أيضا ملك حلب مقلوبا ورأسه الى أسفل بواسطة جنده لانخراج ما ابتله من المياه

وأهم حفار هذه القوش برسم المعسكر المصرى ورجوع أنجال رمسيس بعد هربهم وهجوم رمسيس بشنة على الحيثيين جهة الأورونط ووصول الامدادات المصرية التى أسعفت المعسكر فى آنحر الأمر . وقد أكثر أمام رمسيس من رسم قتلى الحيثيين وقش جوار عظائهم اسم كل منهم ومنه استدلت أن بعضهم كانوا أمراء ومن أسر ملكية . ويرى الشاهد على شاطئ الأورونط الشرقى جنودا حيثيين راقعين مقلوبا رأسه الى أسفل محاولين انخراج ما تجرع من مياه النهر ويجوار هذا الشخص قوش ترجمتها : "الحاكم اللعين والى حاب قلبه جنده جاعلين أعلاه أسفله بمد ما ألقاه جلالة الملك رمسيس الثانى فى الماء" (شكل ١٦٠) . وهذه القوش أكثر الآثار المصرية تعلقا بأذهان زوار مصر .

وعثر على روايتين لهذه المعركة مستهلتين بديباجة ملكية يظهر منها أن الروايتين كانتا بمثابة بلاغين وسميين عن سير المعركة . وقد وضع أحد شعراء ذلك العصر قصيدة رنانة ضمنها أخبار تلك المعركة سيأتي الكلام عليها ، وبما يستلقت النظر في نصوص روايات هذه المعركة عبارة "انفراد رمسيس في القتال ودفاعه وحيدا بلا جيش معه" فقد وردت مكررة كثيرا .

ونحن مدينون الى النصوص القديمة في معارفنا عن معركة كدش المنتهية أقدم المعارك الحربية المعروفة بالضبط ، وهذا هو السبب في اسهابنا في وصفها أكثر من سواها ، فاتضح للقارئ أن أهالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد كانوا ملينين بميزات المواقع الحربية وتقسيم القوات الحاربة قبل القتال ، وأن الحيثيين برعوا في القيام بحركات خفية دون معرفة المصريين ، وأنهم قسموا جيشهم الى قلب وجناحين ، ولذلك كانت معركة كدش أقدم معركة تاريخية استعمل فيها هذا التقسيم الحربي . وبناء عليه تكون سهول سوريا شاهدة أقدم أنواع هذه الحركات الحربية التي أتقنها نابليون وفاق فيها سواه والتي تعرف الآن "بفن الانتصار قبل العراك" .

ولما وصل رمسيس الثاني الى طيبة أقيم له احتفال عظيم بمعبد الحكومة وكانت معه أبنائه الأربعة ، فقدم هناك جلالته للعبودات "أسراه الشاليين الذين أرادوا هزيمة جلالته ففتك بهم وأحضر أسراهم ليخدموا في مخازن أبيه آمون" (١) ثم نحل رمسيس لنفسه الألقاب الآتية : "مذل الأراضى والبلدان وحيدا دون سواه" (٢) .

وبالرغم من مباهة رمسيس بهذا المديح وإعجاب به بسائله فقد أيقن أن الحالة التي تركها بآسيا خطيرة بالنسبة لجيوش المصرية هناك ، لأن تأخير معركة كدش المعنوى في حكام فلسطين وسوريا كان ضعيفا رغم ما أظهره رمسيس من الشجاعة والاقدام ثم ان رمسيس رجع الى مصر بسرعة دون أن يحاصر كدش . زد على ذلك أنه خسر هناك فيلقا من جيشه . كل هذه أسباب قللت كثيرا من هبة المصريين بآسيا وعززت جيوشهم في المستقبل للخاطر . ثم ان الحيثيين اتخذوا عدم الفصل في معركة كدش مجالا للتحرش فوطدوا نفوذهم بآسيا وبشوا الفتن والقلقل بالمستعمرات الآسيوية . وقد قلنا فيما سبق أن سبقي الأول استرجع شمالي فلسطين فتانحت امبراطوريته مملكة الحيثيين فسهل على الأخيرين اشغال الفتنة والثورة في مستعمرات مصر هناك . وقد حصل فعلا أن شبت نيران الثورة تدريجيا حتى بلغت الشمال الشرق للدلتا فاضطر رمسيس أن يبنى امبراطوريته من جديد وأن يسترجع ما فقده والده . ومعلوماتنا عن تلك العصور يسيرة جدا ، زد على ذلك أن ما ورد ألتنا من أخبار تلك الحوادث مشكوك في صحته . وكل ما يمكننا ذكره هنا أن رمسيس جتد حملاته الحربية على آسيا مبتدئا بمدينة عسقلون التي استولى عليها عنوة (٣) واستمر كذلك الى السنة الثانية من حكمه

حيث وردت الأنباء بأنه زحف على شمالي فلسطين جائلاً في مدن جليله (Galilee) الغربية^(١) ، وهناك التي مع حراس الحدود الحثيين الذين زحفوا جنوباً بعد معركة كدش ، وكان هذا الالتقاء بالقرب من مدينة دير (Deper) المعروفة عند العبرانيين باسم طابور (Tabor) فاستولى على هذه المدينة عنوة وساعده في ذلك أنجاله^(٢) وذلك بعد ما أقام بها الحثيون مدة يسيرة . ويرجح أنه أظار أيضاً على إقليم حوران (Hauran) وإقليم جليله شرقي البحر حيث ترك هناك حجراً أثراً أثبت عليه غزوته^(٣) .

ولم تمض ثلاث سنوات على ذلك حتى بلغ رمسيس الثاني حدود مستعمراته الآسيوية التي تركها منذ أربع سنوات . والحق يقال أن نتائج أعمال هذا الملك بآسيا تشهد له بكبر الهمة وعظم الكفاية الحربية ، فقد جاء عنه أنه كرر زحفه على وادي الأورونط وطرده الحثيين منه ، وأن قواته حاربت شمالي كدش فاستتج ضمناً أنه استولى على هذه المدينة . بعد ذلك زحف على تونب في بلاد النهرين فاستولى عليها ونصب فيها تمثالاً لنفسه^(٤) . والمعلوم أن هذه الجهات النائية لبثت مدة طويلة منسقة من الحكم المصري فلم يكن إخضاعها بعد ذلك أمراً هيناً . ثم انها كانت أهلة بالحثيين الذين رضوا أن يكونوا تحت حكم رمسيس على الأكثر . لهذه الأسباب لم تستتب السكينة هناك طويلاً بل شبت نار الفتنة بسرعة فاضطر رمسيس الثاني أن يذهب الى تونب ثانية ويطرد الحثيين منها ، وقد تمزق وقتئذ لمخاطر جمة فقد اضطر أن يحارب بدون درع يقيه من سهام . ولما كانت أخبار هذه المعركة قليلة جداً نجد أنفسنا عاجزين عن الخوض في تفاصيلها^(٥) ولكن يستدل من قامة البلاد التي أخضعها اثرها أنه استولى على بلاد النهرين وشمالي سوريا (الرتو السفلى) وأرواد وسكان أرخبيل اليونان (خفتيو) وقطنه (حصص) التي بوادي الأورونط^(٦) . وقد أثبتت هذه النتيجة مهارة رمسيس الحربية والسياسية لأنه قوض مملكة الحثيين في سوريا تماماً ، ومع ذلك فاننا لا نزال غير متأكدين من صحة إخضاع رمسيس لجميع هذه الجهات الآسيوية الشمالية .

وتابرمسيس الثاني على حروب آسيا خمس عشرة سنة تقريباً ثم حصل حادث داخل هام بمملكة الحثيين وقف حروبه هناك فجأة الى الأبد . ويتلخص هذا الحادث في أن متلاً ملك الحثيين توفي في معركة حربية (أو قتل بيد عدوه) فتنبأ أخوه خيتاسار (Khetassar) الملك بعده^(٧) . ولشدته حاجة هذا الأخير الى حفظ مركزه واسكات معارضيه عرض على رمسيس الثاني مشروع معاهدة لإبطال الحروب وتوطيد السلام بينهما بآسيا . وفي السنة الحادية والعشرين من حكم رمسيس الثاني (أى حوالي سنة ١٢٧٢ قبل الميلاد) وصلت رسل خيتاسار الى القصر الفرعوني وكان وقتئذ بالدنا كما سيتضح فيما يلي . ولا بد أن يكون الطرفان اتفقا سابقاً على صورة هذه المعاهدة بمساعي ممثلها لأن الآثار دللتنا أن الرسل لم يرسلوا وقتئذ إلا للواقعة النهائية على المعاهدة . وقد قشقت هذه المعاهدة على لوح نقي وتشمّل ثمانى عشرة مادة رسم أعلاها المعبودة سوتخ محتضنة ملك الحثيين ويجوارها المعبودة عينها محتضنة ملكة الحثيين المدعوة بوتوخيا (Putukhpa) زوج خيتاسار .

(١) ٣٥٦:٣ (١) (٢) ٣٠٩-٣١٠ (٣) ٣٥٨:٣ (٤) ٣٦٥:٣ (٥) ٣٦٤:٣-٥
(٦) ٣٦٦ (٧) ٣٧٥:٣-١٠١

وبجوار هذه الرسوم وضعت أختام سوتخ معبودة الحثيين ورع معبود إرنين (Ernen) ورمسيس وخيتاسار . ويرجح أن ملك الحثيين احتفظ بنسخة أخرى من هذه المعاهدة ، وتعتبر هذه أقدم معاهدة دولية معروفة واليك ترجمة دياجتيا :

”معاهدة منقوشة على لوح فضي بين ملك الحثيين خيتاسار الشجاع بن ميراسار ملك الحثيين الشجاع ابن ابن سبال ملك الحثيين الشجاع (طرف أول) ورمسيس الثاني الملقب أسر معارع استين رع (Usermare-Setepnere) حاكم مصر الأعظم الشجاع ابن ستنى الأول حاكم مصر الأعظم الشجاع ابن ابن رمسيس الأول حاكم مصر الأعظم الشجاع (طرف ثان) .

هذه المعاهدة الطيبة سمات لحفظ السلام والإخاء واستناب السكينة بين الطرفين الى الأزل“ (١) .
على ذلك سرد الأحوال والعلاقات القديمة بين مصر ومملكة الحثيين ثم وصف العلاقات والمعاملات الحديثة ثم الشروط الواجب مراعاتها في المستقبل وأهمها وقوف غزوات كل فريق لأراضي الآخر وإرجاع العلاقات الودية الى أصلها ومساعدة كل فريق للآخر في حالة هجوم دولة ثالثة أجنبية عليه والتعاون في عقاب أشقياء الطرفين في سوريا (غالبا) وطرد الهاربين السياسيين والمهاجرين التابعين لكل فريق الى بلاده . يعقب ذلك ملحق يحض على استعمال الرأفة في معاملة هؤلاء الأشخاص والاستشهاد بألف معبود ومعبودة من مملكة الحثيين وألف معبود ومعبودة من مملكة مصر لهذه المعاهدة ، وقد علمنا منها عدّة معبودات حثية ومحل عبادتها . وتنتهي المعاهدة بصب اللعنات على كل من يخالف شروطها وبطلب الرحمة والسلام لكل من يحترمها . والظاهر أن الملحوظة الأخيرة صيغت في آخر الأمر .

وقد أمر رمسيس بنقش صورتين من هذه المعاهدة بسرعة على جدران معبدين له بطيبة ديجهما بوصف وصول رسل الحثيين وأورد بعد ذلك رسم المعبودات والأشخاص الوارد ذكرهم في اللوح الفضي المذكور (٢) . وقد عثر وينكلر (Winkler) على صور مبدئية لهذه المعاهدة منقوشة بالخط المساري على قالب لبن في بوزاز كوى بآسيا الصغرى .

ولم يرد بهذه المعاهدة بيان حدود الملكتين الحثية والمصرية بآسيا ولكن يرجح أنها عينت في معاهدة سابقا . ومن الصعب وصف هذه الحدود بالضبط . ولكنه يستدل من النقوش المسارية التي عثر عليها وينكلر (Winkler) في بوزاز كوى منذ عام ١٩٠٦ وهي التي أشرنا اليها سابقا (صحيفة ٢٥٢) أن الحثيين استمروا حاكين آمورا بأعلى الأورونت . لذلك لم يثبت تماما اذا كان رمسيس الثاني وسع حدود مستعمراته كثيرا عن حدود والده ولكن الظاهر أنه أبعدا جهة الشاطئ قرب بيروت لأنه أقام حجرين أثريين ذير الحجر الذي ذكرناه في السنة الرابعة من حكمه (٣) . ويقوم من نصوص المعاهدة أن رمسيس الثاني تواضع فساوى نفسه بملك الحثيين ، وهذا لم يمنع رمسيس أن يدعى لنفسه الفوز والنصر ويخجل لقب ”قاهر الحثيين“ كما هي العادة بالبلاد الشرقية (٤) .

(١) ٣٧٣ : ٣ (٢) ٣٦٧ : ٣ - ٣٩١ (٣) رابع صحيفة ٢٨٣ (٤) ٣٩٢ : ٣

منذ ذلك الوقت انتهت الحرب وخيم السلام على المملكتين ، فوقف رمسيس الثانى بأسيا عند حدته . والظاهر أن شروط المعاهدة جاءت فى مصلحة الطرفين كثيرا لأنه بعد إبرامها بثلاث عشرة سنة (حوالى سنة ١٢٥٩ قبل الميلاد) زار ملك الحيثيين مصر وحضر الاحتفال بتأهيل كريمة الكبرى برمسيس الثانى . ودلتنا الآثار أن مجيء ملك الحيثيين الى مصر استدعى اقامة احتفال عظيم بالقصر الملكى تقديمه كريمة جلالة متبوعة بالهدايا الجزيلة ثم جلالة خيتاسار نفسه ثم ملك كود (Kode) (١) . واختلط وقتئذ حرس الحيثيين بالجنود المصرية بعد ما كانوا ألد الأعداء ثم سميت الأميرة الحيثية باسم مصرى هو معات نفروع (Matnefrure) أى الناظرة محاسن رع واحتلت مكانا مبعجلا فى القصر الملكى .

وتشاهد رسوم هذه الزيارة على مدخل معبد رمسيس بأبى سنبل (٢) ، وقد أقيم للأميرة بعد ذلك تمثال بجوار تمثال بلها بتيس (Tanis) (٣) . ووصف الشعراء الملكيون هذه الاحتفالات فى قصائد رثاءة أو منحوا بها طريقة ارسال ملك الحيثيين الى ملك كود متمسكا مرافقته لمصر لتقديم واجبات الاحترام لفرعونها (٤) . وبما جاء فى هذه القصائد أن المعبود يتاح كان وسيلة هذا الفرح وقد وضعت الأشعار مقولة عن لسان هذا المعبود واليك ترجمة ما جاء فى هذا الصدد :

”لقد جعلت مملكة خيتا خاضعة لقصرك ، وألقيت الرعب فى قلوب أهلها فحضروا اليك وجلين حاملين هداياهم ، التى غنمها بسرانهم ، وما يملكونه جزية لصينك الذئاع . لقد أحضرت كريمة ملك خيتا الكبيرة فى مقدمتهم لأطيب بها قلب سيد القطرين“ (٥) .

وكان لهذه الحادثة تأثير كبير فى نفوس المصريين فبنى عليها العوام قصة تتناولها الأهالى مدة طويلة ولم تنقش على الآثار إلا فى عهد اليونان . وتبدأ نقوش هذه القصة بوصف الزواج بلى ذلك طلب حى رمسيس الثانى ارسال تمثال المعبود خونسو بطيبه الى مدينة بختن (Bekhten) ويفظن أنها باكتريا (Bactria) وذلك لطرد الأرواح الخبيثة الحائلة بجسم أخت زوجة رمسيس . ولا يبعد أن يكون حصول مثل هذه الأمور أجرا حقيقيا (٦) ، إذ من الثابت أن العلاقات الحسنة بين الحيثيين ورمسيس استمرت بدون انقطاع ، ويحتمل أن رمسيس تزوج بكريمة أخرى من ملك الحيثيين (٧) . وقد بقى السلام محيا بين الطرفين ضاربا أطنابه ، والمعاهدة نافذة المفعول طوال حكم رمسيس الثانى وفى بعض حكم منفتاح (Merneptah) الذى أتى بعده .

ولاشك أن استمرار رمسيس الثانى فى حروبه مع الحيثيين خمس عشرة سنة أو ست عشرة سنة أعلى كثيرا من مكانته وأنواع من صيته الحربى . والمعركة الواحدة التى نعلم تفاصيلها بالضبط تشهد له حقيقة باليسالة والشجاعة دون المهارة فى القيادة الحربية . والمعروف أنه لما أعلن صلحه مع خيتاسار امتنع عن الحرب امتناعا كليا . وقد حصلت فى التوبة مشاغبات فى السنة الثانية من

(١) ٤١٠-٤٢٠ ج ٣ (١) ٤٢٤-٣٩٤ ج ٣ (٢) ٤١٧-٤١٦ ج ٣ (٣) ٤٢٥-٤٢٥ ج ٣ (٤) ٤١٠-٤١٠ ج ٣ (٥) ٤٤٧-٤٢٩ ج ٣ (٦) ٤٢٧-٤٢٧ ج ٣ (٧)

حكاه لكنها أخضعت (١) ثم تجددت هذه الى ما بعد صلح الحيثيين (٢) ولأنها لم تكن ذات بال لم ينهب اليها رمسيس شخصيا بل عهد في اقماعها الى غيره من الضباط . ودلتنا الآثار أن رمسيس الثاني حارب الليبيين ويرجح أن هذا كان نتيجة اتحاد الشردينين (Sherden) مع الليبيين لتهب غربي الدلتا . ولا تزال معلوماتنا عن هذه الحرب قليلة تكاد تكون معدومة (٣) .

وتعتبر حروب رمسيس الثاني بآسيا آخر مجهودات مصر الحربية التي بدأ بها أحمرس الأول لما طرد الهيكسوس . بعد ذلك قام المصريون ببعض الحملات الحربية لاسترجاع المستعمرات الفاسطينية والسورية المفقودة ولكن ذلك كان بمساعدة جنود ماجورة غير مصرية أو نتيجة امتزاج الدم الفرعوى بدم أجنبي . وأصبح الجيش المصرى منذ ذلك الوقت آلة دفاع لصد هجوم الأجنبي ، ثم عجز القراعنة عن قيادته ، ولم يحصل ذلك إلا بعد انتهاء حكم القراعنة المنتسبين الى المعبود رع .

(١) ٤٩١:٣

(٢) ٤٤٨:٣ - ٤٩٠

(٣) ٤٧٨:٣

الفصل الثاني والعشرون

امبراطورية رمسيس الثاني

لما بسطت مصر سيادتها على آسيا اضطرت بحكم الظروف أن تنقل عاصمة ملكها من طيبة الى الوجه البحرى . وأول من نقل العاصمة في عهد الامبراطورية هو اخناطون الذى اختار مدينة آخت آتون لهذا الغرض . فلما جاء حورحوب - وهو القول الأريج - أرجع الحكم تانيا الى طيبة . وقد ألمنا سابقا الى أن الظروف الادارية اضطرت سنقى الأول أن يمضى بضعة أشهر بالدلتا^(١) . والآن نعلم القارئ أنه لما تولى رمسيس الثاني الملك وأخذ يشن غاراته على آسيا التزم أن ينقل مركز حكومته الى الدلتا ، ومن ثم أضحى طيبة مركزا دينيا فقط لا يؤمها فرعون إلا وقت الاحتفالات الدينية الكبرى . وبديسى أن اقامة فرعون بالدلتا رقت كثيرا من حالة مدننا وعظمت من شأنها ، فمدينة تنيس (Tanis) مثلا صار لها مقام عظيم فكبر حجمها وأقيم بها معبد شاخ مصبوغ بالصبغة الرسيسية نصب على صرحه تمثال عظيم لرمسيس مصنوع من صخرة جرانيتية واحدة . أما ارتفاع هذا التمثال فيليف على تسعين قدما وتقرب زنته من تسعائة طن وكان يبدو للعيان على مسافة أميال عديدة^(٢) . وقد اعتنى رمسيس كثيرا بوادى طميلات وهو على الأريج في طريق القناة الموصلة وقتئذ النيل بالبحيرات المرة ، لأنه كان ممزا هاتما بين القطر المصرى وآسيا ، فشيده في منتصفه مدينة يتوم (أو فيثوم) (Pithum) - ومعناها معبد آتوم - وجعلها مخزنا للحبوب وشيده أيضا مع سنقى الأول مدينة أخرى غربى يتوم وشمالى عين شمس تعرف الآن بتل اليهودية . وأنشأ رمسيس مدينة ثالثة أيضا شرق الدلتا سماها پررمسيس (Per-Ramses) - أى بيت رمسيس - لم نهند للآن الى موقعها بالضبط ولكن يظن البعض أنها تنيس (Tanis) ، والغالب أنها واقعة على حدود مصر الشرقية لأن بعض شعراء ذلك الوقت وصف محاسنها بأسلوب يفهم منه أنها بين مصر وسوريا . ومما جاء عن هذه المدينة الأخيرة أيضا أنها كانت على اتصال بالبحر الأحمر . وقد أصبحت پررمسيس مقر الحكومة وعاصمة البلاد فحفظت بها المكتبات الرسمية وعبد فيها رمسيس كأحد آلهتها . أما وزير الدولة فكان يقطن عين شمس^(٣) .

ولما ارتقت أقاليم متوسط شرق الدلتا وكثرت أعمال وناثر رمسيس بها أطلق عليها اسم "أقليم رمسيس" . وقد ثبت الآن بصفة قطعية أن هذا الاقليم هو الوارد ذكره في رواية بنى اسرائيل أيام سيدنا يوسف ، تلك الرواية التى يرجع تاريخ حوادثها الى ما قبل الرمامسة بمدة .

(١) قورش مس Mes

(٢) Patrie, Tanis, I, 22-4.

(٣) ٢٠٨٢:٣

وليعلم أن فتوحات رمسيس الأسيوية لم تكن وحدها سبب رخاء ورقى شرق الدلتا، بل الفضل في ذلك يرجع أيضا إلى نشاطه وحمته وإلى أنه نشر لواء العز على البلاد وأفاض عليها السعادة والرفاهية. وقد بليت كل آثار رمسيس بعين شمس ولم يبق من آثاره بمنف إلا النادر^(١). وقد ألمنا سابقا إلى مآثره بالعبارة لما تكلمنا على معبد والده هناك. والآن نذكر القارئ أنه لم يكن بأعماله هذه هناك بل شيد لنفسه معبدا قريبا من معبد ستي. وقد أُنفق كثيرا على معبد والده بطيبة وفي بناء معبد لنفسه هناك يعرف الآن بالرمسيوم (Ramesseum) وفي إنشاء حوش عظيم وصرح شاخ بمعبد الأقصر. أما القاعة الكبيرة ذات العمدة العظمى بالكرك التي بدأ بها ستي الأول وأتمها رمسيس الثاني فتعد من أعظم عمارات العالم القديمة والحديثة.

وقصارى القول أن اسم رمسيس الثاني لا يزال منقوشا على جميع معابد مصر العظيمة فوق الحجرات والأحواش والعمد والصرح إلى يومنا هذا. وقد استعمل في بناء عماراته أحجار مبانى أسلافه بلا رافة ولا مبالاة، فهدم مثلا معبد تي (Teti) أحد ملوك الأسرة السادسة واستعمل أحجاره في تشييد معبده بمنف^(٢)، كما أُنفق أيضا هرم سينوستريس الثاني باللاهون ورتج ما حوله من البلاط وهشم آثاره البديعة ليستعمل أبقاضه في بناء معبده في إهناس (هراكليو بوليس)^(٣). أما في الدلتا فلم يظهر أدنى عناية أو اهتمام بآثار الملكة الوسطى. وورد عنه أيضا أنه وسع معبد الأقصر بأحجار المعبد الجرانيتي البديع الذي شيده تحتمس الثالث، جاعلا وجه الأحجار الختومة بختم تحتمس من الداخل حتى لا ترى من الخارج.

وكتب اسمه على كثير من آثار سلفه ونحلهما لنفسه زورا وبهتانا، ومع ذلك فقد شيد آثارا فاقت عمارات سلفه حجما وشكلا، وملا مقابده تماثيله وبالمسلات الشاحنة المنقوشة وغير ذلك من الأحجار. والرأى السائد الآن أن تماثيل هذا الملك هي أخصم التماثيل المصرية، خذ مثلا التمثال الذي ألمنا إليه قبلا عند الكلام على مدينة تنيس، وزيد فنذكر القارئ أن رمسيس صنع تماثلا آخر لنفسه وضعه على صرح الرميوم بطيبة أقل حجما وارتفاعا من تماثيل تنيس لكنه يزن حوالي ألف طن (شكل ١٦١). والمعهود فيه كثرة نصبه للمسلات في كل عيد طوال حياته ولذلك بلغت مسلاته عددا كبيرا، فقد شيد بتنيس مثلا ما يبلغ على أربع عشرة مسلة تهشمت كلها الآن. ويوجد في روما الآن ثلاث مسلات على الأقل لرمسيس وفي باريس إحدى المسلتين اللتين نصبهما في الأقصر^(٤).

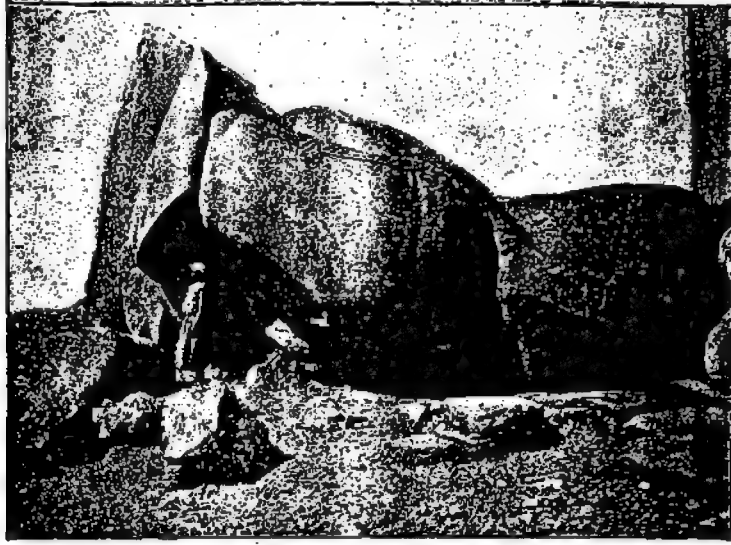
وللاحظ أن النفقات الباهظة التي أنفقها رمسيس لم تقتصر على نصب المسلات وإقامة الهارات، بل شملت أيضا الأوقاف الكثيرة التي حبسها على مستخدمى تلك الهارات. قال جلالتة عن معبد العرابة أنه شيده من الحجر الجيري الجميل، وجعل أفاريز أبوابه من الجرانيت، وأبوابه

Annales, III, 29. (٢)

٣٧ - ٥٢ - ٣ (١)

٩ - ٥٤٢ : ٣ (٤)

Petrie, Illahun, p. 4; Kahun, p. 23; Neville, Aknes, pp. 2, 9-11, pl. 1. (٣)

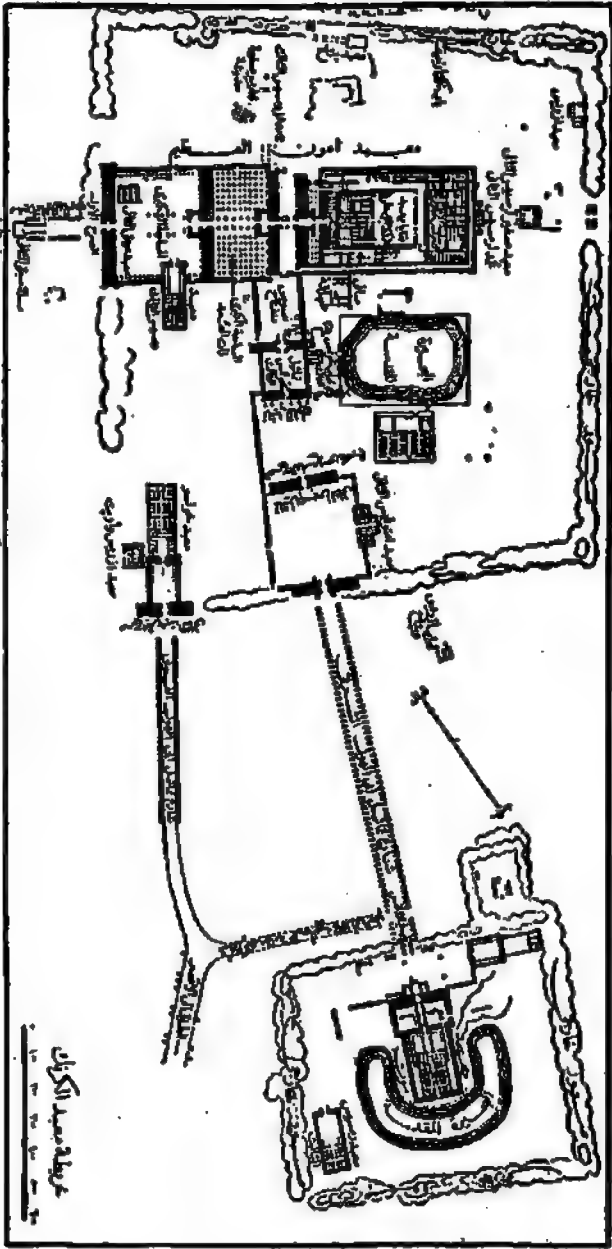


شكل ١٦١ - بعض أجزاء تماثيل وسيس الثاني العظيم البالغ وزنه ألف طن تقريبا
وهو من نوع من الجرانيت من جزيرة الفاتنين ويمثل الملك جالسا وكان منصوبا
أمام الصرح الثاني بالرمسيوم عليه



شكل ١٦٢ - مخازن مدينة يثوم وقد ورد ذكر هذه المدينة
في الأخبار العبرية بأنها شيدت بواسطة العبرانيين
(مأخوذة عن أندروود وأندروود فيو يورك)

نقشه در ۱۱ مساجد اکران



نقشه مسجد اکران

من النحاس الملبس بخليط الذهب والفضة ، وحبس لمعبوده أوقافا يومية عديدة في ابتداء كل فصل وفي كل عيد على توالى الأيام . وملاّ المعبد بكل ما يحتاج اليه من ما كل وخزيرين وبهائم وعجول وثيران وأوز وخيز ونيذ وفاكهة ، كما وظف فيه أيضا كثيرا من العبيد المزارعين وضاعف مساحة أراضيه الموقوفة وزاد من قطمان غنمه وطفحت شونه بالحبوب فبلغت اهمراؤها عنان السماء . . . كل هذه القرابين قدمها لمعبوده المقدس بعد ما استولى عليها بسيفه الظافر . ولم يكف بذلك بل ملاّ خزانة ذلك المعبد بالأحجار الكريمة وسبائك الذهب والفضة وكدرس مخازنه بما دفعته المستعمرات من الجزية ثم زرع أيضا حدائقه الكثيرة بالأشجار المتنوعة الزكية الواردة من الصومال (١) .

وإذا تصورنا أن كل هذه الأوقاف حبست على معبد واحد فقط ولاحظنا أن معابده سييس الأخرى كانت عديدة وكبيرة ومماثلة لهذا المعبد ، علمنا أن نفقاتها كانت كثيرة جدا واستزقت أموال الخزانة المصرية (٢) .

ورغم انتقال عاصمة الملك من الجنوب الى الشمال لم يهمل رمسيس اقليم الصعيد على الاطلاق بل وجه اليه عنايته واهتمام حكومته . فكانت يعبد في النوبة كالمها وقد شيد هناك ستة معابد لمعبودات مصر العظمى وهي آمون ورع وبتاح وكان جلالته يعبد في كل منها كاله عظيم . وقد عبدت زوجته نفر تاري (Nefretiti) بأحد هذه المعابد . ويعتبر معبد أبي سنبل أهم وأجمل آثار رمسيس الثاني بالنوبة ويؤمه الكثير من الزوار في وقتنا هذا . والمعروف أن النوبة أنصبقت في عهد رمسيس الثاني بالصيغة المصرية تماما ، وبالأخص اقليمها الذي هو بين الشلال الأول ، والثاني فقد اترج منه الحكام النوبيين واستبدل بهم مصريين ، كما شككت هناك أيضا محكمة مصرية للنظر في الدعاوى والشكايات تحت اشراف المندوب السامى المصرى بالنوبة (٣) .

وبدبى أن العمارات الشاغرة التي شيدها رمسيس الثاني تطلبت مجهودات عظيمة وعمالا كثيرين . والمعروف أنه صعب عليه جلب الأسرى من آسيا (لوقوف الحرب هناك) كما فعل أسلافه من ملوك الأسرة الثامنة عشرة ليسخرهم في هذه العمارات ، وتؤكد أن هذه الأبنية شيدت بوسائل السخرة والعسف ، ولذلك لا ريب في صدق رواية العبرانيين من أن رمسيس الثاني استعمل الضغط والقسوة على أجدادهم حتى بنوا له مدينتى يتيوم (شكل ١٦٦) وپرمسيس . ولما زاد الضغط عليهم هربت احدى قبائلهم تخلصا من العذاب .

أول معاملات مصر مع فلسطين وسوريا فكانت متينة ثابتة أكثر من أى وقت سالف . وقد جاء في خطاب ضابط مصرى كان مرابطا على حدود مصر أيام خلف رمسيس الثاني أن جماعة من بدو إدوم (Edom) مروا بوادى طميلات ليرعى أغنامهم في مراعى يتيوم كما فعل العبرانيون سابقا أيام يوسف عليه السلام (٤) . وعثر على مذكرة أخرى غير مرتبة لىكاتب أحد القواد المصريين

(١) Hermap, Life in Ancient Egypt, ٥٠٤ (٢)

(٢) ٥٠٤ - ٤٩٢ : ٣

(٣) ٧ - ٥٢٦ : ٣

(٤) ٣٨ - ٦٣٦ : ٣

المراطين على حدود مصر بقلعة تارو ببرزخ السويس وجد بها قاعة بالأقوام الذين سمح لهم بالمرور هناك وهي تشمل الرسل الذين أرسلوا بلاغات رسمية الى ضباط حصون فلسطين وإلى ملك صور (Tyre) وإلى الضباط الذين صحبوا منفتح في غزوته السورية وكنا أسماء الضباط الذين حملوا المراسلات الرسمية أو المرعين الى سوريا ليتحققوا بخدمة فرعون (منفتح) (١١) . ومع أن الطريق الموصل مصر بفلسطين لم يكن محكم التحصين فقد كان محروسا بعمدة حصون مهمة على مسافات مختلفة ، مثال ذلك حصن تارو ورمسيس على طول الطريق في القسم الشمالي لبرزخ السويس فيما بين بحيرة التمساح والبحر الأبيض المتوسط ، ومن ثم يخفى خط الدفاع حول بحيرة التمساح غربا الى وادى طميلات . وقد أخبرنا بنو اسرائيل أن خروجهم من مصر كان عن طريق الجزء الجنوبي لبرزخ السويس لخلقه من الحصون العائمة . أما التجارة عن طريق برزخ السويس فكانت عظيمة جدا فاقت ما كانت عليه أيام الأسرة الثامنة عشرة . زد على ذلك أن السفن المصرية التجارية بالبحر الأبيض المتوسط كانت تقوم بجزء كبير من التجارة .

ولتكلم الآن على الحياة الشخصية في تلك العصور وما حوته من الخيرات ليتصور القارئ عن الامبراطورية المصرية وقتئذ فنقول :

ان مائة فرعون حوت أندر الزينات وأدوات الترف من قبرص وخبثا وأمور و بابل والنهرين . وكان في حوزته كثير من العجلات الثمينة وعدد وافر من الأسلحة والسياط والسوارى ذات الرعوس الذهبية من صناعة فلسطين وسوريا . وقد حوت الاصطبلات الملكية جياذ الخيل الواردة من بابل وأحسن الغنم الوارد من مملكة الحثيين (١٢) . وصار لكل وجيه مصرى سفينة شراعية بالبحر الأبيض المتوسط تحضر له حاجاته من آسيا (١٣) كما أضحى لمعبد سبتى الأول بالعرابة سفن خاصة وهبها له رمسيس بلطب دخله من البلاد الشرقية (١٤) . وما أكثر الأثاث الأسيوى الجميل الذى اشتملت عليه قصور أعيان المصريين . ولاحظ أن هذه المصنوعات الأسيوية أثرت كثيرا في الصناعة المصرية فأكسبتها رونقا أسيويا . وكثر بالفطر العيد الأسيويون من شاميين وغيرهم ، ودوت البلاد بالتجار الفينيقيين والأجانب فصار لهم حى مخصوص ينف تعبده فيه معبوداتهم نحو بعل (Baal) وأستارته (Astarte) ومنذ ذلك الوقت أخذت تلك المعبودات تندمج تدريجا ضمن المعبودات المصرية ، وأخذ الدخيل من الكلمات والعبارات السامية (عبرية كانت أو غيرها) يندمج في اللغة المصرية ، وصار كتاب تلك العصور يحملون كتاباتهم بها . وقد عثر على كثير من هذه الكلمات الدخيلة في أوراق البردى التابعة للأسرة التاسعة عشرة ، وذلك قبل ظهور كتاب العهد القديم بنحو أربعمائة أو خمسمائة سنة تقريبا . وبلغ استعمال الكلمات الدخيلة القصر الملكى فسمى رمسيس الثانى كريمة التي كان شديد الولوج بها "بنت أنات" (Bint-Anath) — أى ابنة أنات وهى معبودة سورية — كما سميت الخليل القرعونية "أنات حرت" (Anath-herte) — ومعناه أنات المتطية .

(١) Ibid., IV, 3, 10-11.

(٢) Pap. Anath., IV, 16, 2-17=III, 6.

(٣) ٦٢٥-٦٣٠:٣

(٤) ٢٧٤:٣

وعظم الاختلاط الدموي بين المصريين والأمسيين في هذه العصور وقد كان في بدايته أيام الأسرة الثامنة عشرة ، فاقترن أهالي تلك البلاد بعضهم ببعض وأصبح للعنصر الأسيوي مقام عظيم بالقصر الملكي والحكومة المصرية . خذ مثلا أن أحد السورين المدعو ابن عوزن (Ben-'Ozen) رقى في عهد متفتاح الى رئيس شرط القصر الملكي^(١) لكنه لم يشترك قط في ادارة البلاد كما ادعى بعض الأثريين . ثم ان علاقة مصر التجارية مع البلاد الأجنبية عادت بالفنى والجاه الجزيلين على الأجانب الموجودين بمصر فتمكن أحدهم وهو ضابط بحرى سورى يدعى ابن أنات (Ben-Anath) من تأهيل كريمة بأحد أنجال رمسيس الثانى^(٢) ، وفتحت سبل الرقى والتقدم أمام الأجانب المتحفين بالجيش المصرى ما عدا مراكر الضباط فانها كانت مقصورة على الغربيين والجنوبيين دون الأسيويين ،



شكل ١٦٢ - اثنان من الحرس الملكى لرمسيس الثانى
المكون من سودانيين مأجورين

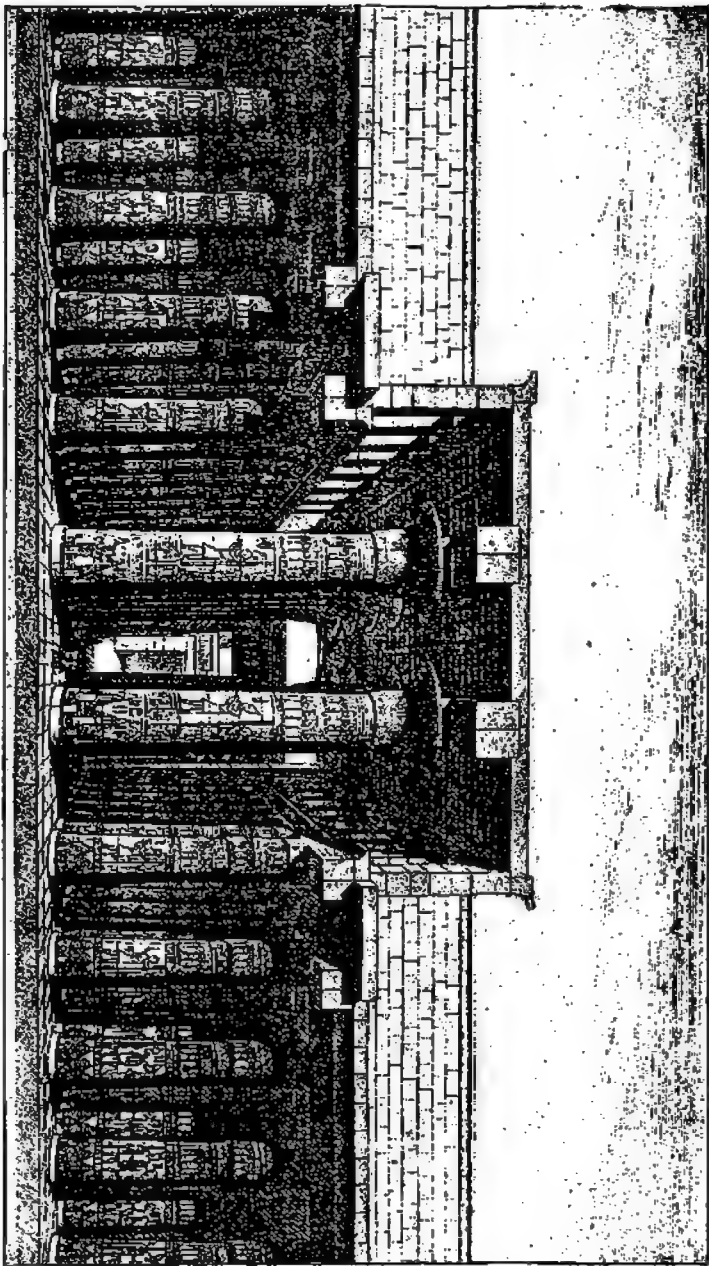
فالتجريدة التي أرسلها رمسيس الثانى مثلا الى وادى الحمامات لقطع الأشجار كانت مكونة من خمسة آلاف جندى منها ما ينيف على أربعة آلاف سردينين وليبيين والباقي زنوج، ولم تشمل هذه البعثة على مصرى واحد .

ويرجع تاريخ خدمة الأجانب بالجيش المصرى الى الأسرة السادسة^(٣) لكن هذا الانخراط الأجنبي في الجيش المصرى هدد كيان الامبراطورية المصرية حتى عجز فرعون ذاته عن ملافاة هذا الخطر . ثم ان الحماس الحربى الذى دب في نفوس المصريين بعد طرد الهيكسوس اضطلع تدريجيا بعد مرور بضعة أجيال ، فمكف القوم على عاداتهم الفطرية السامية وهبطت نخوتهم، وفي هذا الوقت

Mar. Ab. II, 50; Oak. gen. d'Ab., No. 1136, p. 422; BH, 32; BT, VI, 487. (١)

Ostracota, Louvre, Inv. 2362, Davée. Cat., p. 202; No. 15, 64. (٢)

Battle of Kadesh, 9. (٣)



شكل ١٦٤ - مطرانة الكرك المطبق ، ومن الساحة ذات السد بميد أمون ، يرسخ تاريخها الى زمن
الأميرة القاسية حوزة (مأخوذة من كور شيبا)

أظهر الليبيون وأهالى شرق البحر الأبيض المتوسط استعدادهم للانخراط فى سلك الجيش المصرى والدفاع عن مصالح مصر نظير أجر معين . أمام هذه الحالة لم يتردد فرعون مصر فى الانتفاع بهذه الفرصة السانحة وهذا هو السر فى زيادة النصر الأجنبي فى الجيش المصرى .

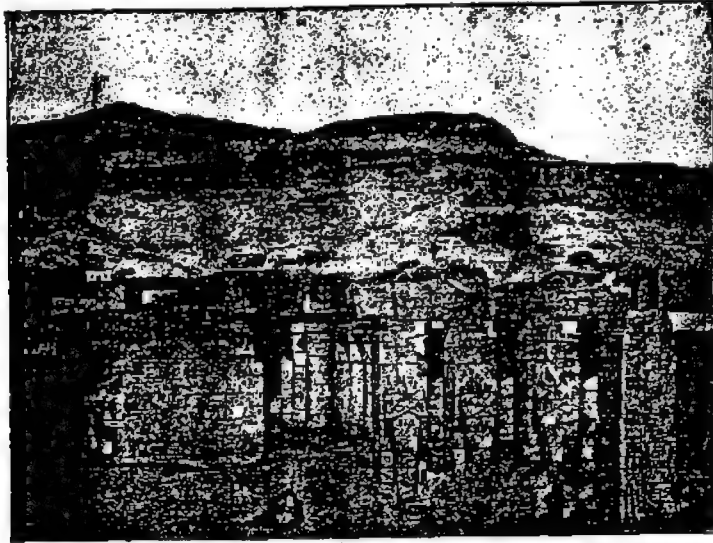
ولا يخفى أن خلفاء تحتمس الثالث عجزوا عن استرجاع مستعمراته ، وأن نفوذ رمسيس الثانى كان مهسوطا على فلسطين وجزء من شمالى سوريا ، الذى كان ينفذ له الجزية سنويا على الأرجح . أما حدود مصر الجنوبية فكانت واصله الى مدينة نپتة (Napata) أسفل الشلال الرابع . واعتاد رمسيس الثانى فى صفوان شبابه أن يحتفل بوفود عظمه دولته المديدين من ولى المهديالى العملة ، وهؤلاء كانوا يقدون عليه لابسين حللهم ومتخذين أجمل زيناتهم تتقدمهم جزياتهم من بلدانهم المتباعدة الممتدة من جنوبى النوبة الى حدود مملكة الحيثيين بأسيا^(١) . وقد صرفت هذه الأموال فى المنافع العمومية كالصناعة التى بلغت أعظم درجاتها فى هذه العصور . وهالك تمثال رمسيس الثانى محفوظا بدار التحف بتورين يمثل جلالاته فى صفوان شبابه لا يزال ناطقا ببراعة الحفار المصرى فى تلك العصور . ويعتبر هذا التمثال أثمن قطعة محفوظة بدار التحف المذكورة (شكل ١٦٨) ، ويكاد هذا التمثال يشبه التماثيل الموجودة بأبى سنبل فى المهارة والافتقان (شكل ١٦٧) . وادعى البعض أن الفنون الجميلة فى عهد رمسيس الثانى أخذت تخطو ولكنه يستدل من تمثال بنت أنات كريمة رمسيس المحبوبة ما يشير الى وجود حفارين مهرة وقتئذ ، لأن معالم وجه ذلك التمثال الطبيعية واضحة بشكل جميل واتقان هائل ، وهناك نقادون لا يساطروننا هذا الرأى .

حقيقة ان عمارات الأسرة الثامنة عشرة ناقصة شيئا من حيث الكمال والجمال كما يتضح من قاعة الكرنك العظمى (شكلي ١٦٤ و ١٦٥) لكنه مما لا مرأى فيه أن هذه القاعة أعظم العمارات تأثيرا فى النفوس . وقد وافق على هذا الأستاذ رسكى (Ruskin) حيث قال "إن أقل ما يقال عن هذه القاعة أنها مضمخة شاهقة لدرجة تؤثر كثيرا فى نفس ناظرها . فإذا وقفت بجوار عمدتها وأقيمت بنظرك على تلك العمدة العديدة الشاححة المعتبرة أعظم أعمال البشر ، وأمعنت فى روسها الباسقة الحاملة لصحن المعبد ، تقول إذا لاحظت أن مسطح قمة كل عمود يسع ما يقرب من مائة رجل وأن جدر هذه القاعة تسع فيما بينها كتيسة نوتردام (Notre Dame) ويبقى منها مكان فسح ، وإذا نظرت الى باب ذلك المعبد العظيم البالغ طول عتبه أربعين قدما وزنتها مائة ونمسين طنا تقريبا ، لا يسعك إلا الإعجاب والافتخار بأعمال ذلك العصر الذى شيد رجاله أعظم قاعة ذات عمد أقامها البشر على ظهر البسيطة الى الآن" .

وإذا كان تأثير السائح من ضخامة هذه القاعة أكثر من تأثيره بجمالها ورواقها فليذكر أن العمال الذين شيدوها قد شيدوا أيضا معبد رمسيس المعروف بالرسوم الذى لا يقل فى الجمال والكامل عن أحسن عمارات الأسرة الثامنة عشرة (شكل ١٦٦) .

ورغم قصر مساحة أراضي التوبة بين النيل والجبال فقد قطع رمسيس الثاني في محفور تلك الجهات معابد تشهد من حيث الجمال بتقدم فن العمارة كثيرا في عهده . وما علينا إلا أن نذكر القارئ بمعبد رمسيس العظيم الذي شيده أبى سنبل ولا تكاد تمحى ذكراه من ذهن كل من رآه ، ففيه تجسم العظمة وهو مشرف على النهرين محفور تلك الجهة الصامتة (شكل ١٦٧) . نحن لا نذكر أن عمارات رمسيس الثاني لم تكن كلها غاية في الاتقان وقد ألمعنا الى ذلك سابقا إذ يوجد بينها ما هو بسيط لا يسترعى النفوس وما هو ضخم اعتيادي قليل الاتقان كالشيد بمعبد الأقصر . وقد زينت عمارات رمسيس الثاني كلها بالنقوش والألوان الزاهية المثبتة لأعماله وشجاعته الحربية وعلى الأخص دفاعه العظيم بجهة كدش (شكل ١٦٩) ، ويتضح من هذا أن الحفار المصرى أبجد أكثر من سواه في رسم معركة كدش ، وبالأخص لما رسم منحى النهر وما حول كدش من الخندق وهرب العدو وما حول ملك الحيثيين من المشاة واجتياحه بمهارة الاشتراك في حومة الوغى على عكس فرعون مصر الذى تبدو عليه ملامح القوة والشجاعة . كل هذه الرسوم جاءت ظاهرة واضحة مع عدم مراعاة حافرها بأصول الزمان والمكان ، وهذا النقص الأخير يقلل كثيرا من قيمة الرسوم المصرية خصوصا والشرقية عموما . وهذا لا يعنى أن نقول إن الرسوم البارزة التي من هذا النوع بلغت شأوا كبيرا في عهد رمسيس الثاني إلا أن وحداتها غير واضحة ولا متقنة من حيث النقش والنحت . والحق يقال أن الناظر الى هذه الرسوم اجمالا على العموم يجدها تشهد بطول الياع لصانعها المصرى الذى بقى محتفظا بزعامه الحفر في البلاد الشرقية نحو ستمائة سنة بعد عهد رمسيس الثاني .

ولم يقتصر تأثير معركة كدش على ترقية الفنون الجميلة من حيث الرسم والحفر ، بل شمل أيضا شعراء القصر الملكى فنظموا القصائد الرنانة عن تلك المعركة وأجادوا في وصفها ، ويعتبر هذا الوصف من أحسن أدبيات ذلك العصر ، ففيه شبهت جنود المدوق الكثيرة المرابطة على التلال بالصرابير ، ثم ذكر بأسباب اندحار القوات المصرية أول المعركة ، ثم وصف أفراد فرعون مصر مقاتلا أعداءه وتضرعه الى آمون على يده من طيبة طالبا مساعدته ، ثم اجابة هذا المعبود دعاءه بتقوية ذراع رمسيس وشد أعصابه وقوته مما جعله يقوم بما لا متيل له من ضروب الشجاعة والإقدام . من ذلك يتضح للقارئ أن تلك القصائد حوت وصفا لمواقف متباينة مؤثرة للغاية ، وقد نعت الشاعر قائد عجلة ملك الحيثيين بالجن والفرع على عكس رمسيس الذى بدت عليه الشجاعة وكان يحس رجاله على القتال غير مبالين ولا وجلين ويونهم على اهمالم . وما يسترعى نظر القارئ لهذه القصائد ما ورد فيها من أنه لما انتهت المعركة وزال الخطر أقسم جلالة يمينا بأنه سيتولى بنفسه اطعام خيله التي حملته ظافرا على أعدائه . وقد وصلت بنا صورة من قصيدة وضعت لهذه المعركة نسخها كاتب مصرى قديم يدعى پنتاور ("Pentaur" "Pentawere") على قرطاس بردى ظنها الأثريون أولا من بنات أفكاره واتضح بعد ذلك أنه (على الأرجح) ناسخها فقط . ولا تزال هذه القصيدة تعرف باسم قصيدة پنتاور خطأ بين الناس .



شكل ١٦٦ - أرسيموم وهو مبد قبر رمسيس الثاني ، وترى خلفه صحف وادي النيل
الغربية منحوتة في عدة مواضع ، وهذه النقوب هي مداخل مقابر الجلالة القديمة



شكل ١٦٧ - صورة لمبد أبي سنبل الصخري
ماخرقة في اتجاه مستعرض لمداخل المبد



شكل ١٦٨ - تمثال رمسيس الثاني مصنوع من الجرانيت الأسود
(دارتحف تورين)



شكل ١٦٩ - منظر لمركبة كرش النخيلة التي حاربها رمسيس الثاني . وجدت هذه الصورة مرسومة زجاجاً على جدار الرسيوم مريمى في هذا المنظر
 رسوم الثاني وسطه (مع أنه كان مرافقاً لداشيه بالآ كيد) مما لا يبررات الحرب الأسيوية (أهل ما سفل) وأمامه زدهاء جيش ملك الحيثيين ساطقين
 ويجراد كل منهم اسمه وقتبه سقوشين على المنظر . ويعلل المنظر هجوم رمسيس الثاني من القناه جاح أهدم الأيبين في البر (رابع خريطة رقم ١٠) . مريمى
 الماريون ساجين في البر يقتضهم أصحابهم من الصالح القابل (الجزء ملك حلب شكل رقم ١٦٠) وذلك بين ملك حلب حيث الملائكة الهيم يشاهد ملك
 البريقين وأثنا في مريمى بين ثمانية آلاف من المقاتلة الأسيوريين . مريمى في القسم الأعلى من الأيبين الصورة رسم مدينة كرش جامعة جنوديين مارجين

والقارئ لهذه القصيدة يتضح له أن واضعها أخذ يضرب على نعمة جديدة هي تشجيع القوم وتحميسهم ليقعدوا بأفعال ملكهم ، لكن هذا التشجيع أتى بعد أوامره فقد أخذت الروح الاستيعارية تتضائل في نفوس المصريين ، فلم تحدث تخيلات وأوصاف هذه القصيدة ما كان منتظرا منها إذا ما وضعت في الزمن السابق . والظاهر أن هذه القصيدة حوت حقائق الأمور بلا تغيير ولا تبديل بلغات برهانا على صدق روايات الأسرة التاسعة عشرة . قارن هذا بروايات الملكة الوسطى المشهورة تحرقات ونزعبلات والمكتوبة باللغة الدارجة بدون ترتيب ولا سلامة ذوق ، وقد اهدنا إلى عدّة روايات وقصص من الأسرة الثامنة عشرة تماثل قصص الأسرة التاسعة عشرة لكنها أقل عددا منها . من ذلك القصة الخاصة بالتزاع بين ملك الهيكسوس المدعو أپوفيس (Apophis) وفرعون مصر بطيه المدعو سكتنرع ، وقد استنتجنا من هذه القصة غرضها الأصلي رغم فقد بقيتها ألا وهو وصف طرد الهيكسوس من القطر المصري . وقد ذكرنا هذه القصة سابقا عند الكلام على لهيكسوس^(١١) وكثيرا ما تناول الأهالي في عهد الأسرة التاسعة عشرة حكايات عن أفعال ضباط تحوتس الثالث مثل تحوتى واستيلائه على مدينة يافا (Joppa) وتخبثه لجنده داخل زلع كبيرة محملة على حير ، ويظن أن هذه القصة الأخيرة هي أصل حكاية علي بابا واللصوص الأربعين المعروفة لدى عانتا اليوم . وهناك قصص أخرى للذئبة لكنها لم تتناول حوادث تاريخية كالسابقة .

وجاء في إحدى الروايات أن أميرا شابا حكمت عليه المعبودات حاتحورات (Hathors) وقت ميلاده أن يموت بتمساح أو شعبان أو بكلب ، فسافر إلى سوريا حيث وجد قصرا تسكنه ابنة ملك النهرين وحوله الشبان يحاولون تسلقه ، وذلك لأن والدها وعد أن يؤهلها بمن يتساق جدار القصر ، فحاول الأمير المصري ذلك ونجح وبلغ الأميرة لكنه ادعى أولا أنه ابن ضابط مصري يخفي بذلك حقيقته فلما علم ملك النهرين بخبره اغتاط وامتنع من إعطائه ابنته حتى كاد يقتله ، حينئذ أقسمت الأميرة أنها ستتحر إذا أعدم الأمير فتكدر والدها من هذا القسم وأخيرا سمح لها باقترانه . وجاء أن الأمير نجى من الموت من تمساح ثم من شعبان وفقدت بقية القصة بعد ذلك ، والمظنون أنها انتهت بموت الأمير من كلب تبعه من مصر طول رحلته الأسيوية . ويلاحظ أن هذه الرواية تحوى أقدم مثال للمقيدة العالمية بأن كل شاب يحتم عليه قبل الاقتران بزوجه أن يظهر لها ضروب الشجاعة كي يستميل قلبها ، وكثيرا ما تشاهد مثل هذه الأعمال المحزنة في القصص اليونانية المعينة مثل رواية أوديب (Oedipus) وأبي الهول (Sphinx) وسوفلكيس (Sophocles) .

ومن قصص هذا العصر أيضا ما تناوت أمور الفلاحة وهي تعرف بقصة الأخوين تلخص في أن أخوين عاشا معا في كوخ بأحد الحقول وكان أكبرهما متروجا وقابضا على زمام البيت أما الأصغر فكان عائشا معه كإبن له ، فصبت نفس زوجة الكبير إلى الصغير فرفض طلبها . عندئذ أرادت أن تكيد له فوشت في حقه عند أخيه الكبير فصمم على الاقتصاص من أخيه وأراد قتله خلسة فتحفظ

(١١) راجع صحيفة ١٤٠ وصحيفة ١٤٥ من هذا الكتاب

له وراء الباب . وفي مساء اليوم عاد الأخ الصغير بالبهائم ليدخلها اصطبلاتها فلحظت إحدى هذه الحيوانات الأمر وأسرت الى راعيها بما يضمر له أخوه الكبير . فلما علم ذلك فزهاربا خوفا من القتل ثم حصلت بين الاثنين حادثة نرافية لا تتشبه مع ما جاء أولا من مطابقتها للواقع . وبالتأمل لهذه الحكاية يجد القارئ في جزئها الأول شبا بقصة سيدنا يوسف الغرامية التي رواها لنا بنو اسرائيل .

وكثر هذه القصص في العهد اليوناني فتفرعت منها عدّة حكايات يونانية اعتبرها المؤرخون اليونانيون ومايتو أيضا مراجع تاريخية يعتمد عليها .

أما شعر ذلك الوقت (الامبراطوري) فكان جيدا معنى وروحا ، لكنه كان ناقصا أسلوبا بدرجة أقل من قصائدنا الحديثة . وتوجد بعض قصائد عن تلك العصور جيدة الأسلوب لا بأس بها يمكننا مقارنتها ببعض القصائد العصرية أحيانا .

وكثرت روايات الحب والغرام عند أهالي ذلك العصر ، وبالرغم من خلوتها من التخيلات الفكرية فقد أخذت يجامع قلوب قرائها في عصرنا هذا . وعثر على كثير من القصائد الدينية والأطافي والدعوات لوحظ على بعضها مسحة أدبية واضحة وسيأتي الكلام عليها عند البحث في ديانة ذلك العصر . ووجدت عدّة خطابات لكاتب وموظفين ، وعدّة تمرينات مدرسية قام بها تلاميذ المدارس ، وعدّة صكوك ومستندات ومذكرات عن المعابد وحساباتها مما اهتم به الأثريون كثيرا وصرفوا فيه طويلا من وقتهم حتى فهموا مضمونها وعرفوا محتوياتها .

وأغلب أدبيات تلك العصور دينية وحكومية ، وهي ليست من مبتكرات الأهالي ولذلك لا يجد القارئ فيها ما يفيد من عقائد الموم . وليلحظ أن عزل إخناتون وعكوف الأهالي بعده على عقيدة آمون القديمة حالا دون تقدم ورقى الآراء الدينية . والسبب في ذلك أن الكهنة أصبحوا شديدي المحافظة على كليات وجزئيات عقائدهم العتيقة ، ولكنه بالرغم من هذه الحركة الرجعية التي حالت دون تقدم الدين من الوجهة الفلسفية قد تقدمت الآراء الدينية بطريق آخر غير السابق . وتفصيل ذلك أن المصريين أخذوا يعتقدون أن مملكتهم عبارة عن معهد ديني تام تقدس فيه معبوداتهم في شخص فرعون ، لأنهم اعتبروا الديانة والحكومة جزأين لا يتفصلان . وهكذا بعد ما كانت المعابد تعرف بأسماء "أحسن المحاسن" و "أحسن الآثار" و "هبة الحياة" الخ ، أصبحت الآن تسمى "ماوى سبتى في معبد آمون" و "ماوى رمسيس بمعبد يتاخ" . وأول ما ظهر هذا الاعتقاد الأخير كان أيام الملكة الوسطى لكنه أصبح الآن عاما فصار القوم يعتقدون بأن جميع معابدهم عبارة عن أمكنة شيدت لعبادة فرعون ، وهذا يعنى طبعاً أنهم اعتبروا فرعون إله مصر الأعظم ، واعتبروا مصر مملكة المعبودات تحت رئاسة فرعونها الذى هو رئيس كهنتها أيضا . ولما تضعضت مالية الحكومة تدريجا بزيادة أوقاف المعابد - لأن أملاك المعابد كانت معفاة من الضرائب - زاد الارتباك المالى

كما ألمنا الى ذلك في عهد سبتي الأول ورسيس الثاني ، ولم تقف الحال على ذلك بل استمرت هذه الأوقاف تكثر حتى شملت معظم موارد القطر فأصبح أكثر أملاك القطر معنى من الضرائب ، ثم أصبحت المصانع ذات أهمية ثانوية .

ولما كثرت إيرادات المعابد (وبالأخص معبد آمون) عظمت منزلة رئيس الكهنة . وقد تقدم لنا أن رئيس كهنة آمون أصبح بحكم القانون رئيسا على جميع كهنة المملكة ، فصار مركزه بذلك عظيما لا يستهان به ، وقد تمكن هذا الرئيس الكهنوتي بعظيم نفوذه في عهد الملك من تعيين ابنه خلفا له في وظيفته ، وهكذا تمكن من وضع أعظم طائفة وأقوى حزب في المملكة تحت نفوذ أسرته (١) . ويقال ان هذا المشروع بدئ به في عهد رسيس الثاني لكن ذلك لم يتأكد الآن . ولا شك أن القارئ قد لاحظ أنه في حالة اعتزال الأسرة الملكية الحكم يكون رئيس كهنة آمون أقوى رجل في المملكة وأكفا شخص للقيام بأمور الدولة . وهذا ما وقع تماما بعد مضي مائة وخمسين سنة من العهد الذي نحن بصدده ، وفي هذه المدة اجتهد رئيس الكهنة أن يؤثر في فرعون ليزيد دخل وأوقاف آمون ، فلم ينته حكم الأسرة التاسعة عشرة حتى أصبح آمون يملك مناجم الذهب النوبية خاصة ؛ ولما وضعت هذه المناجم تحت إشراف وإلى كوش لقب هذا "بجأكم أرض آمون الذهبية" (٢) . وهذا بيان موجز لأصل حكم الكهنة الذي لقبه كهنة المصريين في عهد ديودور الصقلي "بالحكم الذهبي" . ولا يخفى أنه كلما زاد دخل الكهنة انتشر نفوذهم وعظمت مظاهرهم وعلا قدرهم ، ولذلك كانت منزلة فرعون بين رعيته وحجبه إياه مرتين طبعا على مقدار ميله نحو الكهنة ودرجة استعداده لإجابة طلباتهم .

وجرت العادة أن يكون اظهار شعائر الدين في المملكة اجباريا ، لكن الفراعنة اختلفوا كثيرا في تقديرهم للدين ومظاهره كما اختلفوا أيضا في تقديرهم للأخلاق . خذ مثلا الملك حورحوب ، فقد وقف جهوده على تركيز الأمانة والصدقاة بين موظفي حكومته ، كما اشتهر نحوتمس الثالث بحبه للعدالة ودفاعه عنها . ونقش رسيس الثالث على معبده بطيبة ما يفيد أنه لم يهتد مقابر قديمة ليستعمل أحجارها في تشييد عماراته (٣) ، كما أعلن لئلا أنه احتل العرش بحق وجدارة لا عن طمع واغتناب (٤) . أما رسيس الثاني فلم يظهر أقل احترام نحو آثار أجداده كما يتطلبه الواجب وتقتضيه العادات . ومن هذا يتضح للقارئ أن معظم فراعنة العهد الذي نحن بصدده لم يهتموا إلا بتحقيق أغراضهم بصرف النظر عن مراعاة الاخلاق . واليك ترجمة ما ورد عن رسيس الرابع في دعواته لأزوريس :

"هب لي الصحة والحياة والعمر الطويل والحكم المديد والأزلية لأعضائي والإبصار لعيني والسمع لأذني والفرح لقلبي . هب لي هذه الأشياء جميعا كل يوم . أطعمني حتى أشبع وأشربني الخمر حتى أسكر واجعل ذريتي ملوكا الى أبد الأبد . أجب رغباتي ولب طلباتي اذا ما طلبتها منك وليكن ذلك عن رغبة منك . هب لي نيلا كثير المياه والفيضان لا يمكن من تقديم القرابين لك ولكل معبود

(١) ١٨٨: ٤

(٢) ٤: ٤

(٣) ٦٤٠: ٣

(٤) ٦١٨: ٣

ومعبودة في الجنوب والشمال ولتعيش النيران المقدسة وليعيش كل الناس على اختلاف أوطانهم وكذا بهائمهم ووزرعهم الذي أنبتته أرضهم . أنت خالق كل هذه الأشياء فاذن ليس لك أن تتركها لتتخذ فيها قرارات أخرى مخالفة للعقل" (١) .

ووجدت بين الأهالي وقتئذ طائفة نظرت الى الديانة من وجهتها الفلسفية الظاهرة، خلافا لما هو واضح في الدعاء الملكي السابق ، فكانت هذه الطائفة تتوسل الى آمون بتوسلات تحوى كثيرا من الآراء الفلسفية العالية والنظريات الراقية كالتي حوتها عقيدة آتون . ومن ذلك صلنا أن أفراد هذه الطائفة كانوا أقرب اتصالا ومعرفة برأفة ورحمة معبودهم ودفاعه عنهم . واليك ترجمة ما ورد في دعاء بعضهم :

"يا آمون أنا أحبك وحبك في قلبي لقد ابتعدت عما تفرى به نفسى ، لأن كل من يطبع أوامرِكَ يفوز" (٢) .

وجاء أيضا في عبارة أخرى ما ترجمته أن آمون يسمع كلام الشخص الذى لا ناصر له وقت المحاكمة (٣) . ولما انتشرت الرشوة بالبلاد اعتقد الفقير أن آمون وزيره ينصره ويدافع عنه (٤) . ودلتنا دعوات القوم أنهم أخذوا يقتدرون خطاهم وما أتوه من ذنوب ، فقد قال أحدهم مناجيا لمعبوده آمون ما ترجمته : "لا تعاقبنى على ذنوبى" (٥) وهذا أمر كثير الوجود بين توسلات أهالى تلك العصور . وهكذا تغيرت الحال ، فبعد ما كانت الدعوات تتلى لإصلاح الأخلاق صارت الآن تتلى للإفلاج عن السوء واجتتاب المعاصى ، وأضحى الصلوات تتحدر من القلوب ولا تكون مجرد ألفاظ . واليك ترجمة ما قاله بعض الأهالى مناجيا للمعبود تحوت :

"أيها المعبود ! أنت البئر العذبة للظمان فى الصحارى ، أنت البئر التى تتفعل فى وجه المتكلم والى تفتح لمن يلزم السكوت ، حقيقة أن كل صامت يأتى بجذ البئر" (٦) . لكن كهنة تلك العصور سمموا عقول الرعية بخرافاتهم السحرية ، ومن دواعى الأسف أن هذه الآراء الساذجة وجدت مكانا خصبا فى أذهان الطبقة الوسطى انبت فيها وأينمت وأودت بكثير من تعاليم الديانة الراقية وارشاداتها الشريفة . وبديهي أن هذه التعاليم وهذه الارشادات هى البقية الباقية من رقى الديانة المصرية ، ولذلك كان هذا العصر أحسن الأزمنة لدرس عقائد الأهالى الدينية . واليك بيان ذلك بالإيجاز :

لما وضعت الحكومة يدها على المعابد لتولى شؤونها دون العامة أبعد هؤلاء بطبيعة الحال وصاروا غير لائقين للخدمة بالمعابد لفقرهم وعدم قدرتهم على تقديم القرابين المناسبة ، فامتنع الفقراء من التدخل فى شؤون المعابد الكبرى وأمور المعابد الرسمية العظمى ، وعكفوا على معبوداتهم الصغرى كآله الفرح والطرب ومعبودات الأخطاط ، لأنهم اعتقدوهم سماهين لأقوالهم مساعدين لهم فى أعمالهم اليومية .

Pap. Anast., II, 8, 6. (٢)

Birch, Inscr. in the Hier. Char., pl. XXVI. (٢)

٤٧٠ : ٤ (١)

Pap. Sallier, I, 8, 2 ff. (٦)

Erman, Handbuch. (٥)

Ibid., 6, 5-6. (٤)

لهذا السبب أيضا عبد الفقير كل شيء، توهم فيه صفات الألوهية . خذ مثلا ما جاء بخطاب أحد أهالي طيبة أرسله الى صديق له أوصى به آمون وموت وخونسو ألمة قسم طيبة العظام وأيضا "باب بكى (Beki) الكبير والثمانية القردة التي في الحوش الأمامي" والشجرتين^(١) . وجاء أيضا أن أهالي طيبة عبدوا أمنتحتب الأول وزوجته نفرتاري (Nefretiri) المئين لتلك المدينة، ووضع أحدهم يده في حجر مخنبي به ثعبان عظيم ثم أخرجها منه فلما لم يلدغه الحيوان نصب حجرا تذكارا أثبت عليه هذه الحادثة شاكرًا فيه أمنتحتب الأول الذي كانت قوته سبب نجاة الوحيد^(٢) . وروى أحد الأهالي مرة أنه أساء الى إحدى المعبودات التي كانت تقطن تلا بطيبة فأصابه مرض شديد ثم مننت عليه المعبودة بالشفاء فأقام لذلك حجرا للذكرى أثبت لها فيه الشكر واعترافه بفضلها . وكتب ضابطا الى روح زوجته المتوفاة أودعه يد شخص حديث الوفاة ليسلمه لها في الآخرة رجاها فيه أن تمتنع عن تعذيبه وأن تصطحب معه، ومن ذلك استنتجنا أن بعض أهالي ذلك العصر اعتقدوا بتعذيب الموتى للأحياء .

ولم تقتصر عبادة الفقراء على آلهة الخطط وما شاكلها بل شملت أيضا معبودات سوريا وغيرها مما عبدها الأسرى الآسيويون . ودلتنا الألواح الحجرية لتلك العصور أن الدعوات وقتئذ اشتملت على الآلهة الآسيوية الآتية وهي : بعل (Baal) وكدش (Kadesh) وأستارته (Astarte) ورشپ (Reshep) وأنات (Anath) وسوتخ (Sutekh) وللاحظ أن سوتخ هو معبود مصري قديم وهو في الوقت نفسه صورة أخرى للعبود ست (Set) أدخل في سوريا ثم انتشرت عبادته هناك، فلما غزى الهيكسوس مصر أجمعهم فصار محبوبا بين الأهالي واختصه أهالي مدينة رمسيس الثاني بمديتهم . وأخذت تظهر في هذا العصر أيضا عبادة الحيوانات بين الأهالي والموظفين الحكوميين .

سارت هذه التغيرات الدينية ببطء مطرد في عهد رمسيس الثاني، ولقلة معلوماتنا عن أعماله في هذا الصدد استنتجنا أنه لم يتم غالبا بأعمال ذات بال لصدد ذلك التيار الديني الجديد. زد على ذلك أن نصوص جلالاته صبغت بالصبغة الدينية الواضحة، وكلها أساليب كهنوتية مصحوبة بالثناء والمدح الاعتياديين بدرجة ينهم على قارئها فهم الغرض الأصلي لكاتبه هذه النصوص . ومما يساعدنا على معرفة مقدار اخلاص هذا الملك الديني تمثاله الذي يدار التحف بتورين (شكل ١٦٨) ومومياء المحفوظة بدار التحف بالقاهرة (شكل ١٧٠) فهما يدلان أنه كان طويل القامة مترهفا تبذره عليه ملامح نسوية جذابة مما لا يتناسب تماما مع شدته وبأسه المشهور بهما ، ومع ذلك فان معارك كدش تصفه بأنه شهيم قادر على ملاقات الكوارث الشديدة . واستنتج من زحفه الثاني على آسيا ومجربته ثانيا مع الحيثيين وتوسيعه مستعمراته السورية — لمتة من الزمن على الأقل — أنه كان صلب الرأي ماضي العزيمة . زد على ذلك أنه حارب بأسيا خمسة عشر عاما قام في أثناءها بأعمال حربية عظيمة غطى بها ما لحقه من سوء الحظ في معركة كدش الأولى واستحق بعدها أن يمضي باقي حياته في راحة وسكينة . ومما لا جدال فيه أنه كان كثير الفخار شديد التظاهر بحروبه وانتصاراته على الأتار أكثر

من تحوتمس الثالث بمراحل . وكان ميالا أيضا للفرح والسرور ولم يمنع نفسه من الانغماس فيهما فأكثر من زواجه وورث منهن ذرية كثيرة جدا بلغت ما يزيد على المائة من الذكور وما يقرب من الخمسين من الإناث ، وقد تزوج هو بكثير من بناته . ويتضح من ذلك أنه أعقب ذرية حافظت على اسمه بين أحفادها نحو أر بمائة سنة حتى صار اسم رمسيس مرادفا لألقاب الامارة وطول الشأن . ولما عجز رمسيس عن العثور على زوجات يلحق للاقتران بأنجاله زوج أحدهم بكريمة ربان سفينة سورية كما ألمنا الى ذلك سابقا . والمعروف أنه كان يقتخر كثيرا بأسرته فرسم أفرادها على جدر المعابد ذكورا وإناثا صفوفا صفوفا ، وراققه أولاده في حروبه الأولى كقواد لقرق الجيش كما رواه ديودور الصقلي^(١) ، وكان أحب أنجاله اليه المدعو خامويس (Khamwese) الذي عين رئيس كهنة بتاح بمنف ، لكن هذه المحبة شملت أيضا جميع أفراد الأسرة لأنه رسمهم جميعا حتى الزوجات والكرميات على آثاره .

ولما مضى على توليته ثلاثون عاما أقام لذلك احتفالا عظيما عهد ادارته الى مجله المحبوب خامويس الذي كان وقتئذ رئيس صحرة وكهنة بتاح . واستمر القوم يتحدثون برمسيس الثاني في حكاياتهم مدة ألف سنة تقريبا بعد وفاته . وقد عاش بعد الاحتفال السابق عشرين سنة أخرى أقام في أثناءها ما لا يقل عن تسع احتفالات بين كل واحد والآخر مدة تتراوح بين سنة وثلاث سنوات ، ولذلك كانت أعياد هذا الملك أكثر عددا من أعياد أي فرعون سابق^(٢) . وقد أشرنا الى كثرة المسلات التي أقامها في احتفالاته ، وهذه أذاعت صيته كثيرا في جهات القطر من مستنقعات الدلتا شمالا الى الشلال الرابع جنوبا . وقد عظمت مكانته ففاقت مكانة أمحتب الثالث ، والحق يقال ان جلالة كان آخر الفراعنة النشيطين العاملين الذين شرفوا تاريخ مصر القديم بآثارهم العظيمة .

وتوفي أنجال هذا الملك بمرور الزمن الواحد بعد الآخر ومن بينهم النجل العزيز خامويس الذي كان يشرف دائما على نظام احتفالات والده ، ولم يتمكن الا الثالث عشر من أنجاله من إرث أبيه . ولكهولة جلالاته وقتئذ وقلة نشاطه اجترأ الليبيون واتحدوا مع أهالي البحر الأبيض المتوسط من لبسين وسردنيين ويونانيين وتوغلوا غربى الدلتا حيث سحقهم جلالاته سابقا وأجبرهم على الخدمة في جيشه . والمعروف أن الليبيين بلغوا في زحفهم أبواب منف وصبوا رأس الدلتا الجنوبي حتى بلغوا أسوار مدينة عين شمس حيث يقطن وزير الدولة . ولشيوخوخة رمسيس واضمحلال سمعه عجز عن مقاومة أعدائه ولم يحرك ساكنا ضد هذا الخطر الذي هدد بكان دولته من الغرب ، واستمر عاشنا بعاصمة مملكته شرق الدلتا قليل العناية بأمور دولته الحربية حتى توفي وقد بلغ من العمر نيفا وتسعين سنة (وذلك حوالي عام ١٢٢٥ قبل الميلاد) ، وكانت وفاته في السنة السابعة والستين من حكمه وقد ترك مملكته مهتدة بأشد المخاطر . أما مومياء هذا الملك فتظهر عليها علامات العز والبذخ وقرب الشبه بتمثال صباه المحفوظ بدار التحف بتورين .

وقد استمر عشرة من الفراعنة يسمون أنفسهم باسمه بعد وفاته بربع قرن تقريبا وتبنى أحدهم أن يعمر فيحكم مصر سبعة وستين سنة مثل حكم سلفه العظيم^(١) ، وتمثلت في كل أعمال ذريته الشجاعة والعزة بدرجات متباينة . والحق يقال أن ذريته جرت على أثره مائة وخمسين سنة تحتم في أثنائها على كل فرعون أن يسمى رمسيس . لكن الأمة المصرية أخذت تفضل ولذلك كانت همة هؤلاء الرماسة غير كافية لإرجاع شأوها العظيم القديم وتوسيع ممتلكاتها ، وهكذا اقتصر هؤلاء الملوك على أحياء الشعائر الدينية التي أصبحت مطمح أنظار القوم ، وأخذت الإمبراطورية المصرية في آخر عهد الرماسة تفضل لأن معظم المالية أصبح وقفا على المعابد . ومما زاد الطين بلة أن معظم الجيش المصري كان من الجنود الأجنبية المأجورة في وقت كانت مصر أحوج ما تكون إلى الاتصال في المصروفات والانتفاع بمواردها جهد الاستطاعة .

الفصل الثالث والعشرون

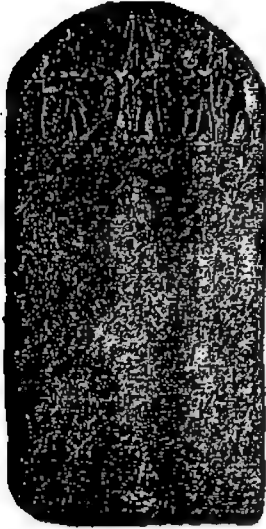
انحلال الامبراطورية النهابى : منفتح ورمسىم الثالث

اقلبت الامور فاصحت الامبراطورية المصرية منقاعة بعد أن كانت مهاجمة وقد حصل هذا تحت تأثير تغيرات داخلية وخارجية . وقد ألمنا سابقا أن الامبراطورية المصرية نبذت فكرة الاستعمار جانباً وفقدت الدافع لذلك الذى اكتسبته منذ نحو ثلثة وخمسين سنة اثر طرد الهيكسوس . وبقى الأهالى يترغون بأعمال قواد نحموس الثالث ويمتد حونها رغبة فى الاحتفاظ بالروح الاستعمارية التى اكتسبتم المستعمرات الآسيوية لكن ذلك جاء على غير جدوى . هنا وصف نخصر لما أصاب داخلية القطر المصرى من التغيرات . أما ما انتابه خارجاً فيتأخص فى انتشار الفوضى والمنازعات المستمرة على حدود المملكة المصرية ، فقد أخذ سكان البحر الأبيض المتوسط يزحفون على شواطئ مصر للنهب والاسيطان ، ثم اتحدوا مع الليبيين وأهالى آسيا فضغطوا باستمرار كأموج البحر الزانح على حدود الامبراطورية المصرية ، ولذلك لم يبق لمصر وسيلة إلا الدفاع عن كيانها وهكذا انقضت أيام استعمارها . وقد مكثت كذلك حوالى ستمائة سنة لم تتم فى أثناءها بمحاولة جدية نحو توسيع حدودها . وسنرى فيما يلى أن القراعنة الذين حكوا القطر مدة ستين سنة بعد وفاة رمسيس الثانى بذلوا جهدهم للحفاظ على كيان مملكتهم بدلاً من توسيعها كما فعل أجدادهم العظام سابقاً . ولا بد أن القارئ يتذكر ما قلناه سابقاً من أن هذه العوامل السيئة التى حلت بالقطر المصرى أخذت تسرى سمومها فيه أثناء السنوات العشرين الأخيرة من حكم رمسيس الثانى ، لما أخذ هذا الملك يتقدم فى السن ويفقد من قوته . ولما توفى كانت مملكته فى أشد الحاجة الى حاكم شاب قوى نشيط يأخذ بناصرتها ويخرجها من الأخطار المحيطة بها ، لكنها رزنت فى تلك الآونة بابن رمسيس الثالث عشر المدعو منفتح المسن الفاسد لجزء كبير من قوته ونشاطه ، وهكذا انتقل الملك من هرم الى هرم ، ولا يخفى أن لهذه الحوادث نتيجة واحدة لا تانى لها ألا وهى الضعف والكسل والإهمال فى مقاومة المخاطر . لهذا نرى أن زحف الليبيين وأهالى البحر الأبيض المتوسط كان كالسيل الجارف يتغلب على مصر من الغرب بدون مقاومة تذكر . أما المستعمرات الآسيوية فلم تحصل فيها ثورات اثر وفاة رمسيس الثانى ، وكانت الحدود المصرية وقتئذ واصله الى أطلال الأورونط وشاملة جزئاً من مملكة آمون على الأقل وهذا الجزء يحوى مدينة تعرف باسم منفتح ، ويظن أن هذه المدينة كانت مسماة باسم رمسيس الثانى ، فلما حكم منفتح سماها باسمه . وبقىت علاقة منفتح مع الليبيين ودية والفضل فى ذلك يرجع الى المتساهلة التى عقدها والده مع هؤلاء القوم منذ نحو ست وأربعين سنة . ودلتنا الآثار أن جلالتة أرسل الى الليبيين سفناً مشحونة حبوا لدرء الهجمة التى حلت بهم ، ويرجح أنه قبض ثمنها رغم ما يفهم

من الأسلوب الذى دوت به تلك الأعمال من أن جلالتة تبرع بها جودا ومخاء^(١) . وهذا الود وهذا السلام لم يدوما طويلا ففى نهاية السنة الثانية من حكمه تقضى ما اعترف به والده فى معاهدة الحيثيين وندم على ما أظهره والده نحوهم من العطف والرافة . والمرجح أن جلالتة تحقق أن الحيثيين الذين حاربوا المصريين بكدش سابقا أخذوا الآن يساعدون أهالى البحر الأبيض المتوسط من لبيين ودردانيين ، وهم الذين اتحدوا مع اللبيين فى غاراتهم على غربى الدلتا . والظاهر أن الحيثيين حقيقة ساعدوا هؤلاء الأقوام أدبيا على الأقل ان لم يكن ماديا ، ثم زادوا على ذلك فأوقدوا نار الفتنة فى مدن مستعمراته الأسيوية رغبة منهم فى ضمها الى أملاكهم . وعلى أى حال ففى السنة الثالثة من حكم مفتاح (حوالى سنة ١٢٢٣ قبل الميلاد) هبت ثورة عامة بمستعمرات مصر الأسيوية بلغت عسقلون على حدود مصر ويخازر التى بنىها وادى أياالونا (Ajalon) الموصل الى بيت المقدس ومدينة يانوام (Yenoam) بطرابلس الشام ، والتى حبسها تحوتمس الثالث على العبود آمون منذ مائتين وستين سنة ، واشترك فى هذه الثورة قبائل بنى اسرائيل وأهالى غربى سوريا وفلسطين التى كانت خاضعة لمصر . أما سين حوادث هذه الثورة وكيفية إقماعها فلا نعلم عنها شيئا ، وكل ما وصل الينا خاصة بها أنشودة النصر التى وضعت لأجل فوز مفتاح على هؤلاء العصاة فى هذه الثورة . والظاهر أنه ذهب شخصا هناك فى السنة الثالثة من حكمه وأقع الاضطرابات على الرغم من كبرسته^(٢) ، ولا يبعد أن يكون قد اقتصر تماما وقتئذ من الحيثيين ، وأن كل ما عمل لإخضاع الثورة لم يتعد نهب أو سلب مدينة أو مدينتين على الحدود . ولقد كانت الصدمة التى وجهها مفتاح للعصاة شديدة للغاية تمكن بها من إذلال فلسطين إذلالا تاما ، وكانت قبائل بنى اسرائيل ضمن المعاقبين الذين وقع عليهم القصاص ، والمعروف عن هذه القبائل أنها استوطنت فلسطين فى أواخر حكم الأسرة الثامنة عشرة وأوائل الأسرة التاسعة عشرة كما ألمعنا سابقا ، ولا بد أن هذه القبائل اتحدت أيام مفتاح وكونت قوما عرفوا بإسم "اسرائيل" وقد جاء ذكرهم فى التاريخ لأول مرة فى عهد هذا الملك . وقد دافقت مدينة جازر عن نفسها كثيرا فى هذه الثورة ضد مفتاح حتى اضطر أن يحاصرها فسلمت له أخيرا فنحل لنفسه بعدئذ لقب "محاصر جازر"^(٣) وكان له فى اخضاعها الشرف . وقد شغله حصار جازر عن محاربة أعدائه غربى الدلتا مدة طويلة فلم يتمكن من قتال هؤلاء إلا فى السنة الخامسة من حكمه . والثبات أن جلالتة لم يرجع من آسيا إلا بعد أن قمع ثورتها وأرجع الأمن الى نصابه ، ولا يحتمل أن يكون وسع حدوده هناك عما كانت عليه أيام والده .

فى تلك الأحيان أخذت الحال فى غربى الدلتا تتغير من سبي^٤ الى أسوأ لأن اللبيين التحنو (Tehenu-Libyans) استمروا يزحفون على مصر بطريق مستعمراتهم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، ويحتمل أن تكون طلائعهم وصلت وقتئذ الى قناة عين شمس^(٥) . أما معلوماتنا عن اللبيين فى تلك العصور قليلة جدا ، والمعروف أن اقلم التحنو متاخم لحدود مصر الغربية ، وبلى ذلك غربا القسم المعمور بقبائل ليبو (Lebu) أو ريبو (Rebu) المعروفين عند اليونانيين باللبيين .

(١) ٢٤: ١٠٨٠: ٣ (٢) ٣٥-٦٢٩: ٣ (٣) ٦٠٦: ٣ (٤) ٥٧٦: ٣



شكل ١٧١ - نشيد النصر للذك مفتاح
(مرنبتاح) . ويحوى هذا النشيد أقدم
ذكر لى اسرائيل على الآثار



شكل ١٧٠ - رأس مومياء رمسيس الثانى
(دار تحف القاهرة)



شكل ١٧٢ - بعض الأسرى الفلسطينيين (فلسطين Peleset) الذين استول عليهم رمسيس الثالث .
رسم بارزة على الصرح الثانى لمعبد مدينة هايو

أما قدماء المصريين فكانوا يطلقون اسم ليو على سكان البادية الغربية . وغربي بلاد الليبيين قوم يقال لهم المشواش (Meshwesh) قطنوا الصحراء الجبولة الحد وقتئذ ، وقد ذكر هيردوت هؤلاء القوم تحت اسم ماكسيذ (Maxyes) وهم بلا جدال أصل البربر الذين استعمروا شمالي إفريقيا . والشواش قوم ممتدينون نوط ماهرون في القنون الحربية مسلحون جيدا قادرون على القيام بحركات هجومية ضد فرعون مصر ، وقد أخذت قبائلهم في هذا الوقت تتحد تحت ساطة أمير منهم فكثرت مملكة قوية طمحت نحو الاستعمار وتبعد عن ماوى فرعون شرقى الدلتا بمسيرة عشرة أيام . ويلاحظ أنت جهات غربى الدلتا امتزجت بالدم الليبى وكثرت فيها الأسر الليبية . وتقدم الليبيون غربى مصر حتى بلغوا الشاطئ الغربى لفرع النيل الكنوبى (Canopic) المعروف وقتئذ بالنهر الكبير ، ثم ستوطن ليبيون آخرون الواحيتين اللتين هما جنوى وغربى الفيوم . ووصف منفتح هؤلاء القوم بأنهم يمضون أوقاتهم بحاربن ليمثوا بطونهم كل يوم ، وقد أتوا الى مصر ليحصلوا على ما تحتاج اليه الجماهير^(١) . ولما زاد عدد الليبيين بالدلتا تجاسروا وتناولوا على فرعون مصر لحملهم وشملهم وكثرت قوة نظامية للاستيلاء على أرض مصر ، وكانوا وقتئذ تحت قيادة ملكهم المدعو ميري (Meruey) وهذا أجبر بدو التحن أن يرضعوا اليه ، ثم استعان بقرصان البحر الأبيض المتوسط وأحضر زوجته وأولاده^(٢) كما فعل ذلك أيضا سلفاؤه^(٣) وأخذوا يزحفون على مصر للاستيلاء عليها والاستيطان بها . أما سلفاؤه من قرصان البحر الأبيض المتوسط فكانوا مكونين من سردينين (Sherden) وشكلاشين (Sheklesh) من صقلية وآشين أو اللبيين المعروفين باسم (Elkweh) وهم الذين سطوا على مصر أيام أمنحيب الثالث والأتراكين (Etruscans أو Tyrsenians)^(٤) المعروفين على الأكار باسم ترش (Teresh) وهؤلاء الأقوام هم أقدم من أتوا الى مصر من سكان أوروبا وكانوا ينهبون البلاد بالسطو وقد ورد ذكرهم في نصوص عهد الملكة الوسطى . لكن هؤلاء الأقوام ليسوا أوله الأوربيين الذين أتوا الى مصر لأن المعروف عنهم أنهم عبروا البحر الأبيض المتوسط كثيرا فيما مضى واليهم يعزى أصل الليبيين البيض البشرية . ويظهر من عدد الأسرى والقتل الليبيين الذين أصيبوا في معركتهم مع منفتح أن عدد جيشهم كان لا يقل عن عشرين ألف مقاتل .

وعلم منفتح بالخطر المهدد لكان مملكته فخصن قلاع عين شمس ومنف^(٥) . وفي آخر مارس من السنة الخامسة من حكمه بلغه خبر زحف الليبيين على مصر فاستدعى موظفيه بسرعة وأمرهم بحشد جيوشه وتجهيزها للقتال في ظرف أربعة عشر يوما^(٦) . ورأى في المنام المعبود بتاح في هيئة شيخ عظيم أهدي اليه سيفا وطلب منه أن يبطل الخوف والوجل^(٧) . فلما حل منتصف أبريل كانت الجيوش المصرية معسكة غربى الدلتا وبالغة صفوف الأعداء وذلك وقت المغيب^(٨) بالقرب من بربوع (Perite) وهي مدينة مجهولة الموقع بالضبط لكنها تبعد عن القلاع التى على رأس الطريق المؤتجال الدلتا بصحراء ليبيا بعدة أميال^(٩) . وكان لمنفتح بالقرب من بربوع قصر عظيم وسط كروم

(١) ٥٨٠:٣ (١) (٢) ٥٧٩:٣ (٣) ٥٩٥:٣ (٤) ٥٧٩:٣ (٥) ٥٧٦:٣ (٦) ٥٨١:٣ (٧) ٥٨٢:٣ (٨) ٥٨٢:٣ (٩) ٦٠٠:٣

كثيرة ، وشرق ذلك تمتد حقول الدلتا الجميلة الجزيلة الخيرات والتي كان مزارعوها في ذلك الوقت يحصدونها بهمة ونشاط . فلما وقع نظر الليبيين على هذه الخيرات العظيمة ازدادت همهم واشربت أعناقهم اليها فاخترقوا صفوف القلاع الغربية وهناك التحموا بجيش منفتح بالقرب من حصره في صباح الخامس عشر من أبريل ، واستمرت المعركة دائرة بشدة مدة ست ساعات انتهت بطرد الليبيين بعد ما تكبدوا خسائر فادحة ، فحقبهم منفتح بجيله كما تفعل الجيوش الحديثة ومنهم شر ممزق واستمر في اقتفائهم حتى بلغ "جبل قرون الأرض" وهو آخر حدود الدلتا الغربية ومنه هرب الليبيون^(١) . أما مريي (Mervey) فقد فر الى بلده بأسا من النصر تاركا جميع أسرته وأثاث منزله في أيدي المصريين^(٢) . وقد استولى المصريون في اقتفائهم أثر أسدائهم على أسرى عديدين كما قتلوا منهم أيضا عددا يمائل ذلك ، وتقدر خسارة الأعداء بتسعة آلاف قتيل ثلثهم تقريبا من سكان البحر الأبيض المتوسط ، أما الأسرى فيقرب عددهم من هذا المقدار أيضا ، وقد وقع بين القتل أنجال ملك الليبيين الستة^(٣) . وغنم المصريون من هذه المعركة أشياء كثيرة منها تسعة آلاف سيف نحاس وعدد كبير من أدوات الحروب المختلفة البالغ عددها مائة وعشرين ألفا وأسلحة جميلة أخرى وأثاث بديع وجد في خيام ملك الليبيين ورؤساء بلاده ينيف على ثلاثة آلاف قطعة^(٤) . ولما نهب المصريون خيام الأعداء تماما أضرموا فيها النار فالتهمت كلها^(٥) .

ورجع الجيش المصرى الى قصر منفتح شرق الدلتا فأتت اليه الخبر متقلة بأيدي الأسرى وأمتعتهم^(٦) ثم أحضرت الغنيمة وعلامات الانتصار تحت شرفة القصر الملوك فتفقدتها الملك واستقبل جمهور رعيتة بالجدل^(٧) ، وبعد ذلك جمع أمراء مملكته في القاعة الكبرى من قصره والتي عليهم خطابا عظيما . وبينما كان جلالته يوجه كلامه نحو أمراءه وصل اليه نبأ من قائد قلاع غربى الدلتا يفيد أن ملك الليبيين هرب مخترقا خط الدفاع المصرى ليلا وأن قومه يتسوا منه بظلمه وملكوا عليهم غيره من خصومه^(٨) . وهكذا سقط الحزب الحربى في ليبيا ووقف كل هجوم من تلك الجهة على مصر في عهد منفتح على الأقل .

ويستدل من شدة الفرح الذى عم أهالى القطر اثر هذا النصر الحربى أن هذا الجدل لم يكن مجرد الفوز العسكري بل كان أيضا خلاص مصر من الوقوع في أيدي هؤلاء الأعداء ، فقد وقف بذلك سلب غربى الدلتا الذى استمر جيلا تقريبا من هؤلاء الليبيين . لذلك لم يكن هذا النصر درسا لخطر داهم تهدد الامبراطورية المصرية فقط بل كان فرجا وخلصا من كابوس أثقل كاهل الأهالى وأذاقهم مرارة الحياة، واذا لاحظنا هذا انضح لنا سر شدة فرح المصريين وترنهم بالأنشودة الآتية:

"شمل مصر فرح عظيم وصعدت من بلاد الدميرة (مصر) أصوات السرور ، فأصبح الكل يتحدثون بنصر منفتح على التحنن قائلين ما أحب هذا الملك المنتصر! وما أعظمه بين العبودات!

(١) ٥٨٤:٣ و ٦٠٠ (٢) ٥٨٤:٣ (٣) ٥٨٨:٣ (٤) ٥٨٩:٣ (٥) ٥٨٩:٣ و ٦١٠

(٦) ٥٨٧:٣ (٧) شرحه . (٨) ٥٨٦:٣ و ٦١٠

وما أسعد هذا القائد الحاكم! اجلس ممرورا وتكلم أو امش بعيدا حيثما أردت فلا خوف الآن في قلوب الخلق . القلاع تركت وشأنها والآبار فتحت من جديد . وأصبحت الرسل تنظر حول القلاع مستريحين في ظل جدرانها من حرارة الشمس حتى يتنبه الحراس من الداخل . أما الجنود فصارت تنام مستريحة البال ، وأضحى حرس الحدود يشغل في حقوله كالعادة ، وأصبحت قطعان الأغنام ترحى بدون راع وتعبهر النيل في منتهى فيضانه وقتها تريد . لا أثر الآن لأصوات مثل "قف! ها قد أتى أحد! ها قد أتى شخص يتكلم بلهجة أجنبية!" بل صار الإنسان يروح ويفلو مفتيا وانعدم الترح بين الأهالي وأخذت المدن تشيد العمارات من جديد وكل إنسان جنى ثمار أتعابه . حقيقة! لقد رجع رع الى مصر! كيف لا فقد ولد ليدافع عنها ويحميها في شخص الملك مفتاح!" .

"لقد خضع الملوك صائحين سلام! فلم يرفع رأسه فرد من القبائل التسع ذات الأقواس .
"لقد أظفت أرض تحنو ، وأرض الحيتيين أسكتت كذلك ، أما أرض كنعان فسلبت بأشد قسوة ،

"وأما عسقلون فأخذت وكذا جازر استولى عليها جلالته . وقد انعدم أثر مدينة يانوام .
"لقد أبيت إسرائيل واستوصلت وأصبحت فلسطين أرملة (ضميقة) لمصر . واتحدت البلاد وخيم السلام على الجميع وأصبح الملك مفتاح يوثق بمجاليه كل من يشور على النظام" (١) .

لا شك أن القارئ لاحظ أن الجزء الأخير من هذه الأشرطة يلخص لنا كل انتصارات مفتاح بآسيا وهو الآن مرجعنا الوحيد في حروبه الآسيوية وقد جاء موضعه في الأشرطة خير ختام لها .

هذه الطريقة تمكن مفتاح على كبر سنه من دره أول زويمة من سلسلة الزواج التي أخذت تهب على بناء الامبراطورية المصرية . والمعروف أنه عاش في الدلتا بعد ذلك خمس سنوات خيم السلام في أثنائها على مملكته . ومما ورد عنه أنه حصن حدوده الآسيوية بقلمه سميت باسمه (٢) وأخضع ثورة نوبية في الجنوب أيضا (٣) .

قال بعض الأثريين أن أحد السوريين المدعو ابن عوزن والذي كان موظفا في القصر الملكي قبض في آخر الأمر على مفتاح وأدار أمور المملكة لكننا لم نجد أساسا لذلك . والظاهر أن سبب سوء هذا الفهم يرجع الى عدم معرفة معنى الألقاب الكثيرة التي أغدقت على هذا السورى وقتئذ ، وقد ألمعنا الى ذلك فيما تقدم (٤) .

وليعلم أن طول حكم رمسيس الثاني وأسرافه في الأموال ووجهه الشديد لتشيد العمارات الضخمة منع مفتاح من انجاز كل ما صبت إليه نفسه . زد على ذلك أن أيامه كانت على طولها خاصة بالحركات الحربية والفتوحات فلم يكن لديه وقت لقطع الأبحار وتشيد معبد له بطيبة تقدم إليه فيه

(١) ٦١٦:٣-٦١٧ Pap. Anst., VI, pl. 4, l. 18-pl. 5, l. 5. (٢) ٣: ٢٥٩ صحيفة

ملاحظة (١) (٤) راجع صحيفة ٢٠٢

القرابين بعد وفاته كما فعل أسلافه ، ولهذا السبب أخذ مفتاح بهلم آثار أجداده بقسوة عظيمة فهدم معبد أمنحتب الثالث في السهل الغربي لطيبه وحطم جدره وكسر تماثيله ليستعمل من أجزائها أحجارا لبنائه الجديد . فمن هذه الأحجار التي احتكرها هذا الملك لنفسه شاهد جرانيتي ينيف طوله على عشر أقدام مكتوب عليه بيان المهارات التي شيدها أمنحتب الثالث^(١) (شكل ١٧١) وقد أمر مفتاح بوضع هذا الحجر في عمارته الجديدة مديرا لقوش أمنحتب الثالث الى الحائط ثم نقش على الوجه الآخر أنشودة انتصاره على الليبيين السابقة الذكر^(٢) ، ولهذا الأنشودة قيمة أثرية عظيمة لاحتوائها على أقدم ذكر لإسرائيل^(٣) . ولم يقتصر ائتلاف مفتاح لآثار أجداده بل شمل أيضا آثار والده الذي سبق أن وضع له مثلا لمثل هذا الاعتداء قبل وفاته . والتريب أن رمسيس الثاني مع ما أظفه من آثار أجداده نقش على جدر معبد العراية رجاء خلفائه أن يحترموا أعماله وأبنيته ويحفظوها من التبيد ، ولما أتى ابنه بعده لم يظهر أقل احترام لهذا الرجاء الأيوبي^(٤) بل استمر يضع اسمه على آثار والده طول حياته .

وتوفي مفتاح عام ١٢١٥ قبل الميلاد بعد ما حكم عشر سنوات ودفن بطيبه بالوادي الذي دفن فيه أجداده ، وقد صر على جثته هناك حديثا فظهر بذلك خطأ الرأي الفائل بفرقه بالبحر الأحمر لما ورد على الآثار من علاقته ببنى إسرائيل .

والحق يقال أن هذا الملك وإن عيب عليه ائتلاف آثار أسلافه فإنه يستحق الإعجاب والمدح لما أتاه من الشهامة والإقدام على ضعفه وتقدم سنة لصنمه الأجانب عن مصر وهم الذين أوشكوا أن يستولوا عليها تماما .

ولا يخفى أن حكم رمسيس الثاني ومفتاح الطاعنين في السن صحبه ضعف وتهاون في إدارة القطر مع تدخل وآمر على دوائر الحكومة ، لذلك لما توفي مفتاح حصل نزاع داخل على العرش الملكي دام عدة سنوات نجح فيه اثان أولها امنمسس (Amenmeses) ومفتاح سبتاح (Merneptah-Siptah)^(٥) . أما الأول فكان ضعيف الحق في المطالبة لأنه ارتكن في دعواه على علاقة قرابة بعيدة تربطه بالبيت المالك ، وكان أيضا معاديا لمفتاح ولذلك لم يدم طويلا لحل محله مفتاح سبتاح الذي وضع يده بسرعة على آثاره وهشم قبره بوادي طيبه الغربي . وسرى منذ الآن أن التوبة امتد إليها لهيب الثورة فكانت ميدانا للحركات الثورية ضد العرش الملكي ، وقد تكرر هذا الأمر أيضا في عهد الرومان وذلك لبعده التوبة عن العاصمة المصرية ولسهولة العمل هناك ضد العرش الفرعوني وسهولة تأسيس حزب كبير يعارض الحركات الثورية . ولا يبعد أن يكون سبتاح توصل الى الملك عن طريق التوبة حيث توج ملكا على مصر ، وعلى كل حال فالمعروف أنه ذهب الى التوبة في أول سنة من حكمه وصين مندوبه السامى هناك وأرسل رسله لتوزيع الهبات على الأهالي^(٦) . بهذه الطريقة وباقتراانه بالأميرة توسرت (Tewosert) التي يغلب أنها من أصل فرعونى عريق ، تمكن سبتاح من الاستقلال بالملك ست سنوات أرسلت

(١) ٢ : ٨٧٨ ، حقه (٢) ٣ : ٦٠٢ - ٦١٧ . (٣) راجع صحيفة ٣١٧ (٤) ٣ : ٤٨٦

(٥) ٣ : ٦٤١ (٦) ٣ : ٦٤٢ - ٤

في اثنتائها بلاد النوبة جزيتها السنوية بانتظام^(١) وسارت المعاملات الاعتيادية مع امارات آسيا أيضا في مجراها الطبيعي^(٢). أما المنتدوب السامى الذى عينه سبتاح في النوبة فكان يدعى سبتى وقد لقب كما ألمنا سابقا "حاكم أرض آمون الذهبية"^(٣). وليلاحظ أن هذه الوظيفة الأخيرة وطدت العلاقة بين المنتدوب السامى وكهنة آمون بطيبة ولذلك لا يبعد أن المنتدوب للتبلى اتبع طريقة سبتاح للحصول على عرش مصر مستغنيا على ذلك بنفوزه بالنوبة. وقد حصل فعلا أن الذى أعقب سبتاح في الحكم هو ملك يقال له سبتى اعتبره القوم الشخص الوحيد ذا الحق الترسى في العرش القرعونى من بين خلفاء متفتاح الثلاثة. والظاهر أن هذا الملك كان قويا ناجحا فوجها ما فقد شيد معبدا صغيرا بالكرك وأخر بالاشمونين (هرموپوليس) ، ثم وضع يده على مقبلة سبتاح وتاوسرت ، ثم شيد لنفسه أخيرا قبرا خاصا له. وظهرت في البلاد عوامل داخلية شديدة أضعفت من الحكم لأن البلاد كانت في حاجة الى حاكم قوى شديد ماهر خاذق ، وهذه العوامل تلخص في ظهور أمراء البلاد بشيء من الفطرسة والكبرياء والإكثار من الأجناب في الحاشية الملكية ، وشدة نفوذ الكهنة وتعدد المطالبين بالعرش. ولما كان سبتى الثانى ضعيف الشكيمة بالنسبة لهذه الاعتيادات وقع ضحيتها ، ولا غرابة في ذلك فتيار العوامل المذكورة يكفى لأن يذهب بسنة رجال يفوقون سبتى لهذا قوة وذلك.

ولما ترك سبتى الثانى الحكم عجز مسقطوه عن القيام بأعباء الحكم فشبت في البلاد حرب أهلية جزأت القطر وانقسمت تحت تأثيرها الى عدة أجزاء مستقلة ، فم البؤس وسوء النظام سائر أنحاء المملكة وهو ما يشاهد كثيرا في مثل هذه الأحوال بالبلاد الشرقية. واليك ترجمة ما جاء بالآثار في هذا العهد:

"لقد فقد كل انسان متاعه فلم يبق هنالك حاكم يرد الحق الى نهبائه عدة سنوات. وبهطلت مصر في أيدي أمرائها وحكام ملتها ، فصار الجار يقتل جاره قويا كان أو ضعيفا"^(٤).

ولم ننتد الآن الى مدة هذه الاضطرابات لكن الثابت أن الامبراطورية المصرية كانت سائرة بسرعة نحو التفكك والانحلال بالكيفية التى وصفها لنا كتاب العرب أيام المماليك. وما أقوى الشبه بين ما وصفه كتاب العرب أيام القرن الرابع عشر بعد الميلاد وما ورد في قرطاس هريرس (Harris) المدون أيام رمسيس الثالث حيث سردت أخبار تلك الجماعة والثورة بالإيجاز^(٥).

وصادف في ذلك الوقت توظف أحد البهوريين في القصر الملكى فرأى البلاد في حالة حط شديد واضطرابات كثيرة فاغضب الملك وساس القطر بالقسوة والجبروت مبتوليا على جميع يراد البلاد. ثم جمع رفقائه وسلب أموالهم وعامل المعبودات كالآدميين فلم يقدم لها قرابين بالمعابد^(٦) ، فضاغ الحق وأبطلت أوقاف المعابد.

ويدهى أن الليبيين كانوا وقتئذ على علم تام بما حصل بالقطر المصرى من الدمار والجوع ، فأخذوا يهاجرون الى غربى الدلتا وصار جناتهم ولصوصهم يعبتون في البلاد بين منف والبحر الأبيض

(١) ٦٤٤:٣ (٢) ٦٥١:٣ (٣) ٦٤٠:٣ (٤) ٣٩٨:٤ (٥) شرحه. (٦) شرحه.



خريطة رقم ١٢ تظهر علاقة مصر الجغرافية مع العالم القديم
مذكور بها بعض أسماء حديثة لمواقع وغيرها لتسهيل فهم القارئ

التوسط ثم استولوا على الحقول واستوطنوا شاطئي فرع النيل الكانوبي^(١) . عند ذلك ظهر بين المصريين رجل قوى الشكيمة مجهول الأصل يدعى سننخت (Setnakht) حوالي عام ١٢٠٠ قبل الميلاد يرجح أنه من سلالة سبتي الأولى ورمسيس الثاني نجح في الاستيلاء على العرش الفرعوني واثبات حقه ضد كل مدع رغم كثرة أعداء مصر خارجا وداخلا ، واستعمل في ذلك حنكة ومهارة سياسيتين استحق عليهما جريل الثناء . بعد ذلك بسط سننخت النظام ووطد الأمن والسكينة في البلاد وأرجع القوانين الفرعونية الى ما كانت عليه سابقا . ومن دواعي الأسف أن الأخبار التي وردت اليانا عن هذه الأزمنة قليلة جدا تتلخص فيما أورده رمسيس الثالث بن سننخت حيث قال ما ترجمته :

”ولما اتفقت كلمة المعبودات على السلم وأجمعت رأيها على العمل معا لما فيه مصلحة البلاد كالعادة ولت ابنها من سلاتها المدعو سننخت حاكما على كل الأراضي فأرجع النظام في جميع البلاد النائرة وقتل العصاة الذين كانوا بمصر وطهر العرش المصرى العظيم عفر كل انسان أخاه بعد ما كان مضطرا الى المعيشة بين جدر المنازل (للحماية من العيب) . ثم أعاد القرى الى المعابد كما كانت من قديم الزمان“^(٢) .

يتضح من هذه العبارة أن الرجل السورى الذى اغتصب الملك أغضب الكهنة بإبطال أوقافهم ، أما سننخت فاتخذ ارجاع أوقاف الكهنة لأصلها وسيلة للوصول الى العرش لأن طائفة هؤلاء القوم كانت أغنى وأقوى حزب في البلاد .

وسرى أن المشاق التي صادفها سننخت في حكمه كانت صعبة منته من تشييد المعابد والهيكل كسلفه بل حالت أيضا دون انشائه نبرا له بطيبة . لذلك وضع يده على قبر سيتاح وتوسرت الذى اغتصبه سبتي الثاني سابقا ولم يستعمله . والظاهر أن حكم سننخت كان قصيرا لأن كل الآثار التي عثرنا عليها لهذا الملك ترجع الى السنة الأولى من حكمه . وأقصى تاريخ اعتدنا اليه من حكم هذا الملك هو الوارد على ظهر درج بردى خطه كاتب مصرى كان يجرب قلعه وهو يشير الى السنة الأولى من حكم الملك سننخت . وقبل أن يتوفى هذا الملك (عام ١١٩٨ قبل الميلاد) عين ابنه رمسيس الثالث شريكا له في الملك وولى عهد حكومته .

اعتبر مانيتو رمسيس الثالث مؤسس الأسرة العشرين رغم ما ذكرناه من انقطاع الصلة الدموية بين الحكام بعد وفاة منفتاح وفي عهد سننخت . أما الظروف التي اعتلى فيها رمسيس الثالث الحكم فكانت كثيرة الشبه بظروف منفتاح وقت توليته الملك ، ونظرا لحدائثة من أولها وشجاعته تمكن من علاج المصاعب التي اضطرته أحسن من منفتاح ، فأخذ رمسيس الثالث يصلح قوته الحربية بسرعة ويقسمها الى طبقات على حسب لياقة الأفراد للخدمة ، وزيادة على ذلك فقد أدخل على جيشه فرقة السرديين المأجورين التي لا تزال نجهل عدد أشخاصها — وقد كانت وقت رمسيس الثاني — وفرقة كحك (Kehek) وهى قبيلة ليبية^(٣) . وبهذه أن هذه الجنود المأجورة كانت تتخدم ما دامت

(٢) ٤٠٢ : ٤

(٣) ٣٩٩ : ٤

(١) ٤٠٤ و ٢٢ - ٢٠ : ٢٠٤ : ٤

تسلم أجورها . أما الجنود المصرية فكانت كثيرة التغير والتبدل بدخول طبقة بعد أخرى ولذلك كان معظم اعتماد فرعون على جنوده الأجنبيّة المأجورة . وقد شغل نظام القطر الداخلي وقت رمسيس الثالث كله فلم يتمكن من علاج الخطر الليبّي إلا مكرها كما حصل لمنفتح . ومما زاد الطين بلة أن سكان شواطئ البحر الأبيض المتوسط أخذوا يفتدون بكثرة على مصر ، وأخصهم قومان نطيعان يعرفان بالثكاليين (Thekel) والبلست (Pelaset) — المعروفين عند اليهود بالفلسطينيين (شكل ١٧٢) — اشتهرا بإحداث القاق والاضطراب^(١) . أما أهالي بلنت وهم السلطينيون فأصلهم من جزيرة كريت ، وأما الثكاليون فالثقالب أنهم يونانيو الأضل من جزيرة صقلية . وقد احدث الثكاليون وأهالي بلست مع الدناويين (Denyen) والسردينيين والوشاشيين والشكلاشين وجمعوا كلمتهم على الهجوم على مصر ، وزحف القومان الأولان جنوبا وشرقا تحت ضغط الباقين من حرب هذا الاتحاد . وقلّة معرفتنا للغة هؤلاء القوم ومجتمعاتهم وما وصل إلينا من رسوهم على الآثار المصرية ، تلك الرسوم الخاصة بملابسهم وأسلحتهم وسفنهم وعددهم ، لا تزال تجهل أصلهم بالضبط . والظاهر أن هجرتهم الجنوبية هذه جاءت دليلا على سبق حصول مثل هذه الهجرات قديما . وقد اتخذ هؤلاء الأعداء طريقين في هجرتهم أحدهما طريق سوريا فأطلى الأورونط ومملكة أمور^(٢) ، والثاني طريق أساطيلهم التي سيرها رجال جسورون منهم عن طريق شاطئ الدلتا ، وقد اتبع هؤلاء الأخيرون أساليب النهب والقرصنة حيثما حلوا^(٣) . ولما وصل الفريق الثاني إلى شاطئ إفريقية وجد فيه الليبيين الذين أظهروا استعدادهم للاتحاد معهم على نهب الدلتا واحتلالها . وسبق القول أن الليبيين غزروا ملكهم المدعو ميري (Meryey) بعد ما هزمه متفتح ، والآب نذ كر القارئ أنهم ملكوا عليهم ملكا يدعى وورمر (Wermer) ، ولما مات هذا تولى بعده الملك ثيمر (Themer) ، وهذا الأخير هو الذي قاد الليبيين ضد مصر في عهد رمسيس الثالث . وكان الهجوم على مصر من غرب الدلتا بطريق البر والبحر ، والتقت الأعداء بجنود رمسيس الثالث بجوار مدينة "رمسيس الثالث معاقب أهل النحو (أى ليبيا)"^(٤) ، وهناك هزمهم رمسيس وحطم جانبا من سفنهم وأسر الجانب الآخر ، فرجع الأعداء بعد ما خسروا كثيرا لأن قتلهم بلغوا اثني عشر ألفا وخمسةائة نسمة ، وأسراهم ألف نسمة على أقل تقدير ، وأغلب القتلى كانوا من القرصان^(٥) .

وإحتفل رمسيس الثالث بهذا النصر اجماعيا كبيرا كالعادة فقابل في شرفة قصره أعريان بلاذه الفرحين واستعرض الفتيمة الحزبية^(٦) وذهب كثيرا من الأسرى لآمون^(٧) كالعادة المتبعة ، وجمع البلاد وقتئذ الأمن والسلام واليك ترجمة ما قاله الملك :

"لقد أمكن كل امرأة الآن أن تسير خارج منزلها كما تريد زائمة قناعها بلا خوف ولا وجل لأنه لم يعد أحد يتعرض لها"^(٨) .

(٥) ٥٢ : ٤ — ٤

(٤) ٥٢ : ٤

(٣) ٤٤ : ٤

(٢) ٣٩ : ٤

(١) ٤٤ : ٤

(٦) ٤٢ : ٤ و ٥٢ — ٥٧ : ٤ (٧) : ٥٧ : ٤ — ٧٣ : ٤ (٨) ٤٧ : ٤

وحصن حدود مملكته الغربية ضد اللبيين فشيء قلعة ومدينة على رأس الطريق المتد من غربى الدلتا الى الصحراء وذلك فى مكان مرتفع يعرف "بجبل قرون للأرض" الوارد ذكره ضمن أخبار مفتاح السافرة (١) .

وأجندت بحسب المخاطر تتجمع وتتبدل فى سماء الامبراطورية الشمالية وقد أشرنا الى بوادر هذه الزوجة لما تكلمنا على الهجوم السابق على سواحل الدنا . والظاهر أن السفن الوارد ذكرها قبلا والامدادات البرية التى أمد بها هؤلاء البحارة الأهلى اللبيين وقت هجومهم على مصر فى السنة الخامسة من حكم رمسيس الثالث لم تكن سوى تمهيدات أولية لهجوم شديد دام آت عن طريق سوريا . وتفصيل ذلك أن هؤلاء الأجانب (أهالى البحر الأبيض المتوسط) أخذوا يفتنون مع أسيرهم على سوريا فى عجالات ضخمة ، كل واحدة لها عجلائان تجرها ثيران ، وفى سفن عديدة تطوف الشاطئ السورى ، ولحسن تسليح هؤلاء الأقوام عجز أهالى مدن آسيا عن مقاومتهم . ولذلك سهل عليهم الاستيلاء على جميع بلاد الحنين شمالى سوريا حتى كاركاميش (Carohemish) على الفرات . بعد ذلك زحفوا محترقين أرواد (Arvad) على ساحل فيقيا ثم ساروا جنوبا حتى مملكة آمون متبعين طريق نهر الأورونط ناهيين ومتلفين كل ما وقعت عليه أيديهم . والظاهر أن مستعمرة الحنين بسوريا انقطعت صلتها بهؤلاء منذ مدة فلم يعد لهم هناك سلطة مطلقا .

وزحف أسطول سكان البحر الأبيض المتوسط على جزيرة قبرص المعروفة قديما باسم الألام (Alaen) فلم يجد فيها مقاومة تذكر فاحتلها . بعد ذلك "أقبل هؤلاء الأقوام والنار تتأجج أمامهم مولين وجوههم نحو مصر . وكانوا وقتئذ مكونين من أهالى بلست (كريت) وشيكل (صقلية) وشكلش ودنان ووشواش . كل هؤلاء اتحدوا معا وأخذوا يستولون على الأراضى حتى بلغوا "أفق الأرض" (٢) . وقد دلنا الآثار أن "هؤلاء الأقوام أتوا من جزرهم فى وسط البحر الأبيض المتوسط معتمدين على أسلحتهم ووجهتهم القطر المصرى" (٣) ، فلما بلغوا آمورضروا خيامهم ولبثوا بها مدة وجيزة (٤) .

أما رمسيس الثالث فقد أخذ يتجهز ويستعد بكل قوته لصمد هجوم أعدائه لحصن حدوده السورية وجمع أسطولا ضخما بسرعة وزعه على الموانئ الشمالية (٥) وراقب من شرفة قصره تجهيزات مشائه (٦) . ولما كل استعداده قاد بنفسه قواته الى سوريا ليصمد زحف أعدائه . ولأن لم نهتد الى مكان المعركة التى نشبت بين الطرفين بالضبط . لكنه لما كان الأعداء وصلوا الى آمور من المحتمل جدا أن يكون العراك قد حصل بتلك الجهات ، ولم يخبرنا رمسيس الثالث عن سير المعركة إلا خيرا مجالا فقال إنه انتصر على أعدائه وهزمهم ، ويستدل من صور تلك المعركة أنه جتوده السرديين شقوا صفوف أعدائه واستولوا على عجلائهم ، ولما كانت قوات الأعداء تشمل أيضا بعض السرديين اضطر هؤلاء الأخيرون أن يحاربوا أبناء وطنهم المتضمن الى الطرف الثانى . وقد

(١) ١٠٢:٤ و ١٠٧:٣ و ٥٨٨:٣ و ٦٠٠:٣ (٢) التى يحيطها الأناضول (٤:٦٤) (٣) ٧٧:٤

(٤) ٦٤:٤ (٥) ٦٥:٤ (٦) ٧١-٧٠:٤

تمكن رمسيس الثالث من الوصول الى ميناء على شاطئ فينيقيا راقب منها سير المعركة البحرية التي دارت رحاها بين أسطوله وأسطول أعدائه وأدار حركة الدفاع من الشاطئ . أما الأسطول المصري فكان مزودا ببحيرة البحارة المصريين المسلحين جيدا ولذلك ألحقوا الهزيمة والتلف بسفن الأعداء قبل أن تصل الى الشاطئ . وما زاد الطين بلة أن رمسيس وضع على الشاطئ المقابل لمكان المعركة قوة برية مصرية مسلحة بالسهام صوّبت أسلحتها الفتاكة نحو رجال أسطول العدو فأصلتهم نارا حامية ، وإشترك في القتال فرمى أعداءه بسهامه . بعد ذلك تقدم الأسطول المصري نحو الأسطول الأجنبي ليحتل وحداته ويفتك برجاله ، فانتشر الذعر بين الأعداء وانعدم النظام بينهم (شكل ١٧٣) ففرق من سفنهم ما غرق ، ثم دب الرعب في نفوسهم فوجروا أصحابهم وألقوا أسلحتهم في البحر ، وكانت سهام جلالة تصيب جسم كل من يصوبها نحوه فتريده في الماء قتيلاً^(١) .

بعد ذلك سمحت السفن مقلوبة الى الشاطئ وكانت القتل كومات مكسدة على ظهر السفن من مقدمها الى مؤخرها ، وألقيت جميع أمتعة الأعداء في البحر تذكارا لمصر^(٢) ، ومن حاول من الأعداء الهرب تأمما نحو الشاطئ تأسره القوات المصرية هناك .

والظاهر أن هاتين الضربتين اللتين صوّبهما رمسيس الثالث نحو أعدائه كانتا كافتين لبسط نفوذه على بلاد آسيا كلها حتى أمور ، وقد اعترف له أعداؤه بذلك ، وأخذ بعض هؤلاء الأعداء يهاجرون بعد ذلك الى سوريا لكنهم كانوا يطيعون الأوامر المصرية ويدفعون الجزية لفرعون .

بهذه الكيفية نجت الامبراطورية المصرية بأسيا للمرة الثانية من الخطر الأجنبي ، ثم رجع رمسيس الثالث الى مقره بالدلتا ليشارك في احتفالات النصر العظيمة التي أقيمت له عن جدارة واستحقاق .

ومضت على جلالة مدة قصيرة لم تحصل فيها مشاكل ولا اضطرابات ، ومع ذلك فقد أمضاها في الاستعداد للطوارئ . وقد حصل فعلا ما كان محتاط له جلالاته وخلاصة ذلك أن سكان الغرب الأقصى بدعوا بهجرة عظيمة ثانية الى غربي الدلتا ، ويرجع السبب في هذه الهجرة الى قوم المشواشين القاطنين غربي الليبيين . ولما كان الليبيون قد عوقبوا بقسوة في السنة الخامسة لحكم رمسيس الثالث لم يعد لهم غرض في غزو الدلتا ، ولكن المشواشين غزوا بلادهم وأتلفوها^(٣) ثم اضطروهم أن يتحدوا ويحاربوا مصر^(٤) . بعد ذلك انضم الى هؤلاء الأعداء قوم آخرون ، ثم تولى قيادة الحملة المدعو مششر (Meshesher) ابن ملك المشواشين المدعو كبر (Keper) وكان غرض هؤلاء الأعداء الأول الهجرة والاستيطان بالدلتا ، وقد صمم هؤلاء الأقوام أن يعيشوا في مصر ويستولوا على تلالها وسهولها^(٥) فصاحوا بصوت واحد "لنستوطن مصر! ثم عبروا الحدود المصرية باستمرار"^(٦) . كل ذلك حصل في الشهر الثاني عشر من السنة الحادية عشرة من حكم رمسيس الثالث .

ثم أخذ القوم يغزون مصر من الطريق الغربي كما فعلوا أيام متفتح فحاصروا قلعتها نشو (Hatshe) التي تبعد عن حدود الدلتا نحو أحد عشر ميلا وتقع بقرب ترعة "مياه رع" . في تلك الجهة وثقت

(١) ٧٥:٤ (٢) ٦٦:٤ (٣) ٨٧:٤ (٤) ٩٥:٤ ٨٦:٤ (٥) ٩٥:٤ (٦) ٨٨:٤



شكل ١٧٣ — صورة معركة بصرى انصرفت في رجب الثامن من سنة ١١٧٣ هـ على الجدار الشمالي لمدينة طبرستان.
وذكر الفقيه القمي في كتابه تاريخ طبرستان في سنة ١١٧٣ هـ في وصفه الجدار الشمالي لمدينة طبرستان.

أسوار قلعة هاتشو هم رمسيس الثالث مع جيشه على أعدائه هجوما مرأ وأخذت حامية القلعة المذكورة تمطر الأعداء في الوقت نفسه نارا حامية حتى دخل رعب فرعون في قلوبهم وعجزوا عن المقاومة ودب الذعر بينهم ففروا هارين ، لكن قلعة ثانية أصلتهم نارا حامية وقت هربهم قضت عليهم بقسوة عظيمة^(١) . بعد ذلك تعقبهم رمسيس بجيوشه لمسافة أحد عشر ميلا الى حدود الدلتا حتى تأكد من خروجهم تماما من أرض مصر^(٢) ، ثم استراح في حصن هناك يعرف بحصن "مدينة رمسيس الثالث" الذي سبق أشرنا اليه بأنه شيده على قمة "جبل قرون السماء" .

وانتهت هذه المعركة بقتل مششر (Meshesher) قائد المشواشين وأسر والده ملكهم المدعو كبر (Kper)^(٣) ، وقتل ما يبلغ ألفين ومائة ونحسا وسبعين نسمة وأسر ما يبلغ ألفين وأثنتين وخمسين نسمة بينهم نساء يزيد عددهن على ربع هذا المقدار^(٤) . واليك ما قاله رمسيس عن معاملته هؤلاء الأسرى : "لقد اعتقلت رؤساءهم في قلاعى باسمى ، ووسمت قوادهم ورؤساءهم الذين وهبتم تلك الصلاح كمييد باسمى ، وعاملت نساءهم ورجالهم المعاملة نفسها"^(٥) .

ويبلغ عدد الأسرى المشواشين الذين سخرأ عبيدا لخدمة قطع المعيد المسمى "رمسيس الثالث المتصر على المشواشين بجوار مياه رع"^(٦) ألف نسمة تقريبا . واعتبر جلالة هذا النصر العظيم عيدا احتفل به سنويا وسماه "عيد قتل المشواشين"^(٧) . ولقب جلالة نفسه بعد ذلك بالألقاب الآتية : "حامى مصر والمدافع عن الأقطار وغازى المشواشين ومثلف أرض النحو"^(٨) .

هذه هى المرة الثالثة التى صدت فيها القبائل الغربية عن الدلتا ولم يعد عند رمسيس الثالث بعد ذلك مجال تخوف من تلك الجهة ، انما يلاحظ أن قوة الاستعمار عند الليبيين لم تنعدم بالرة . والمعروف أن هؤلاء القوم لم تحدد لهم كلمة بعد ذلك ، لكنهم أخذوا يهاجرون مسالين الى القطر المصرى كما فعلوا قبل حكم الأسر ، وقد فعلوا ذلك تدريجا وبمفر قليل لم يقاومهم فرعون مصر ولم يتم بهم كثيرا لعله يضعفهم وعجزهم .

ولقد أحدثت فتنة أهالى شمالى البحر الأبيض المتوسط بالشام تأثيرا سيئا في ولاة مصر رغم انتصار رمسيس الثالث وصدته للفزاة . وللاّن لم يثبت ان كان ملك أمور اتحد مع الفزاة ضد مصر وقتئذ كما فعل أيام الضمط الحيثى أم لا ، لكن المعروف أن رمسيس الثالث حالمأ انتهى من صدته الليبيين سافر تورا في جيشه الى أمور ، ولم يصل اليها من أخبار هذه الحملة الا اليسير^(٩) . ومنه استدلل على أن جلالة استولى عنوة هناك على خمس مدن على الأقل : واحدة في أمور ، وثانية يظن أنها كدش لكونها محاطة بالماء ، وثالثة واقعة على تل لا تزال مجهولها . أما الاثنان الباقيتان فتسمى احداهما إرت (Bret) ^(١٠) والأخرى مجهولة الاسم ، وقد دافع الحيثيون عنها . والظاهر أن رمسيس الثالث لم يتوغل كثيرا في الأقطاع الحيثية رغمًا من ضعف مملكة الحيثيين وما انتابها من ظارة أهالى جزر البحر الأبيض

(١) ١٠٧: ١٠٢: ٤ (٢) ١٠٢: ٤ (٣) ١١: ٣٩٠: ٤ - ١١: ٣٧٧: ١٢ - ١١: ٣٠١: ٢ - ١١: ١٢: ١١

(٤) ١١١: ٤ (٥) ٤٠٥: ٤ (٦) ٢٢٤: ٤ (٧) ١٤٥: ٤ (٨) ٨٤: ٤ (٩) ١١٥: ٤ - ١٣٥

(١٠) ١٢٠: ٤

المتوسط عليها ، وتمبر هذه الغزوة الأخيرة من نوعها بين فرعون مصر والحيثيين إذ بعدها انحطت مملكتا مصر والحيثيين بسرعة فلم نسمع بعدئذ في تاريخ مصر شيئا عن الحيثيين بسوريا .

وقد ورد ضمن جداول البلاد^(١) التي غزاها رمسيس الثالث ذكر لعدة مدن في شمالي سوريا وعلى نهر القرات كانت فيما سبق تحت حكم الامبراطورية المصرية أيام عزها ومجدها ، ولما كانت هذه الجداول مقولة عن جداول أسلافه لم يعلق عليها الأثريون أهمية كبيرة . والمعروف أن رمسيس الثالث أخذ ينظم مستعمراته الآسيوية بعد ذلك ويرجح أنه لم يبعد حدوده عما كانت عليه أيام مفتاح ، لذلك كانت مملكة أمور على أعالي الأورونط وأقصى مستعمراته الآسيوية . وأراد أن يزيد اطمئنانه من عدم حصول اضطرابات في المستقبل بسوريا وفلسطين فشيّد حصونا كثيرة بتلك الجهات في المواقع الهامة^(٢) . وشيّد أيضا معبدا لآمون ببعض جهات سوريا نصب فيه تمثالا عظيما لهذا المعبود الحكومي ، وأجبر أمراء آسيا أن يعلنوا ولاءهم لجلالته بأن يقدموا جزيتهم السنوية أمام ذلك التمثال^(٣) . ثم مهد وسائل النقل بين مصر وسوريا فحفر بئرا عظيما في صحراء أيان (Ayan)^(٤) شرق الدنا ، مما بذلك موارد المياه التي أسسها سبقي الأول هناك من قبل .

بعد ذلك لم تحدث اضطرابات تذكر الا ثورة صغيرة قام بها بنو صير (Seir) ، وقد أخضعت بسهولة ثم عاذ النظام والسلام الى نصابهما حتى توفي رمسيس الثالث^(٥) .

وأثرت معاملات مصر التجارية والادارية بأسيا كثيرا في وسائل التخاطب والمراسلة ، فقبل تلك المصور كانت الخطابات عبارة عن ألواح طينية ينقش عليها مضمون الكلام . أما الآن فقد استبدلت بهذه الألواح الثقيلة أدرج بريدية ، وأصبح حكام فينقيا يقيدون حساباتهم في هذه الأدرج ، ولذلك كثرت كمية البريد الذي كان يصدر من مصانع الدنا بمصر مقابل مصنوعات فينقية أخرى^(٦) . ولما استحال على الفينقيين كتابة حسابهم على الأدرج البريدية بالخط المسامري أخذوا يقيمون الخط المصري مقامه تديريا . وفي القرن الحادي عشر قبل الميلاد كانت فينقيا تستعمل أحرف الهجاء المصرية في مخطوطاتها بشكل أحرف ساكنة ، ومن ثم انتشرت هذه الأحرف الى اليونان ومنها الى سائر ممالك أوزبا .

ولا يخفى أن أهم ما يهتم به حكام الشرق هو جمع الجزية فوجه رمسيس الثالث لها في أيامه مزيد اهتمامه ، وقد قال جلالتة : "لقد فرضت الخراج على وارداتهم كلها فأصبحت كل مدينة تجمع جزيتها وترسلها كتلة واحدة"^(٧) . وقد حصلت في عهده اضطرابات بسيطة بالنوبة لكنها لم تعكر صفو السلام في الامبراطورية^(٨) ، لأنه قال : "لقد جعلت المرأة المصرية تذهب كما تذهب مكشوفة الأذنين فلا يتعرض لها أجنبي أو غيره . لقد جعلت مشاتي ورجال عجلاقي الحربية يعيشون بنازلهم مدة حكي ، وصار جنودي السردينيون والكاماكيون يسكنون مدنهم نائمين على ظهورهم بلا وجل ، ولم يعد يبدو

(١) ١٣٥١-١٣١١ : ٤ (١) ١٤١٠ : ٤ (٢) ٢١٩ : ٤ (٣) ٤٠٦ : ٤ (٤) ٤٠٤ : ٤ (٥)
٨-١٣٦ : ٤ (٨) ١٤١ : ٤ (٧) ٥٨٢ و ٥٧٦ : ٤ (٦)

عدو من بلاد كوش ومن سوريا ، ولذلك كانت أقواس وأسلحة هذه القوات مكسدة في مخازنهم ، أما هم فكانوا مزقدين بالمأكولات والمشروبات وقلوبهم طالحة بالسور ، وكانت زوجاتهم وأولادهم عاتنين معهم فلم ينظروا خلفهم لأن قلوبهم كانت مطشنة ، ولأخى كنت أحميم وأدافع عن أعضائهم . لقد أحيت سكان الأراضي كلها ، أجانبا ووطنين ، ذكورا وانا . لقد فرجت هم البانس وأرجعت له الأمل والحياة ونجيت من ظالمه القوى . لذلك صار كل انسان آمنا بيلده ، وكل شخص له دعوى في الحاكم أنه حقه كاملا . لقد أصلحت الأراضي التالفة وساد الأناش أثناء حكمي " (١) .

وبلغت المعاملات والتجارة بين مصر والبلاد الأجنبية منتهى كمالها كما كانت في أزهي أيام الامبراطورية . وكان لمعابد آمون ورع وبتاح أساطيل تجارية تمخر مياه البحر الأبيض المتوسط أو البحر الأحمر ، حاملة دخل تلك المعابد من فينيقيا وسوريا والصومال (بونت) (٢) . واستخرج ومسبس النحاس من مناجم في أتিকা (Atika) بشبه جزيرة طورسيناء ، فأرسل الى تلك الجهة أسطولا كبيرا أفلق من إحدى موازي البحر الأحمر وعاد بكيات عظيمة من النحاس عرضت تحت شرفة قصر رمسيس ليراها جميع رعيته (٣) . وأرسل بعثة أخرى لاستخراج معدن الملائيت الكرم من سيناء فأحضرت كيات عظيمة منه أهدي جزءا كبيرا منها للعبودات (٤) . وأعظم من هذا وذلك الأسطول التجاري الضخم الذي أرسله الى بلاد الصومال . والظاهر أن القناة التجارية التي كانت مخترقه وادي طميلات وواصله النيل بالبحر الأحمر (راجع صحيفة ١٢١) عطلت فانعدمت التجارة ، ولذلك لما رجع الأسطول المذكور من بونت رسا بميناء البحر الأحمر تجاه قفط (Coptos) ، حيث أنزل بضاعته . وقد نقلت هذه البضاعة على ظهور الجمير برا الى قفط ثم شحنت هناك في سفن نيلية الى مقر رمسيس الثالث بشرقي الدلتا (٥) . وكانت التجارة البحرية في ذلك العصر أكثر مما كانت في كل أزمنة الأسرة الثامنة عشرة ، فذملا ما رواه رمسيس الثالث نفسه من أنه شيد لآمون بطيبه في مصنعه سفينة مقدسة طولها مائتان وأربعة وعشرون قدما من كتلة عظيمة من خشب الأرز الوارد من لبنان (٦) .

وبديهى أن هذا التضخم المالى الكبير أعان فرعون كثيرا على القيام بالأعمال النافعة العمومية ، فأكثر من غرس الأشجار في أنحاء القطر كله وعلى الأخص بطيبه ومقر جلالة بالدلتا ، فارتاح لذلك الأهالى كثيرا لأن القطر المصرى كما لا يخفى عديم الغابات شديد القبط في زمن الصيف (٧) . وجدد جلالة أيضا عهد العمارات التي كانت عطلت بعد وفاة رمسيس الثاني ، فشيّد في سهل طيبه الغربى معبدا كبيرا بديعا لآمون يعرف الآن بمدينة هابو (٨) بدأ بنشيدته في أوائل حكمه (شكلى ١٧٤ و١٧٥) واستمر على توالى السنين يوسع من الأمام والخلف ويسجل على جدره أعماله الحربية كل سنة حتى أصبحنا الآن نجد أخبار هذا الملك كلها مدوّنة على هذا المعبد . وتبدئ هذه النقوش التاريخية من أقدم قاعاته بالخلف وتستمر تدريجا حتى تنتهى بأحدث صرح وساحة من الأمام . وتشاهد على جدر هذا المعبد رسوم أهالى البحر الأبيض المتوسط يجارون جنود رمسيس الثالث السرديين

(١) ٤١٠ : ٤ (٢) ٢٢٨ و ٢٧٠ و ٢١١ : ٤ (٣) ٤٠٨ : ٤ (٤) ٤٠٩ : ٤ (٥) ٤٠٧ : ٤
(٦) ٢٠٩ : ٤ (٧) ٢١٣ : ٤ و ٢١٥ : ٤ (٨) ١٨٩ و ٢٠ : ٤ - ١٩٤

الذين اخترقوا صفوفهم واستولوا على عجلاتهم ذات الثيران كما تقدم القول . وتشاهد أيضا على جدر هذا المعبد رسوم أقدم معركة حربية بحرية حصلت في المياه المالحة معروفة للآن ، ومنها يتضح للباحث كيفية تسليح البحارة الشماليين وقتئذ ، وكذا أنواع ألستهم وصفنهم الحربية وأمتعتهم مما لا تخفى أهميته على أحد . والمعروف أن هؤلاء القوم أقدم أوريين اشتركوا هم والعالم القديم في معترك الحياة (١) .

وحفر رمسيس الثالث بحيرة مقدّسة كبيرة أمام معبده بمدينة هايبو وأنشأ له أيضا حديقة غناء وأكثر من العمارات المجاورة والمخازن، وشيد لنفسه قصرا عظيما متصلا بالمعبد المذكور له أبراج حائلة مقامة بالأشجار الضخمة . ثم أقام سورا عظيميا حول ذلك البناء المركب المشرف على الجزء الجنوبي لسهل طيبة الغربى، فأصبح الواقف فوق صرح ذلك المعبد يرى جميع المبادئ المشيدة بالجهة البحرية بسهل طيبة الغربى التي أقامها فراعنة مصر العظام . ويعتبر معبد مدينة هايبو آخر المباني الشائعة التي شيدها فراعنة مصر الكبار من حيث الموقع والقيمة التاريخية . والحق يقال ان رمسيس الثالث هو آخر امبراطور مصرى عظيم في تاريخ مصر القديم . وقد شيد عمارات أخرى غير هذا المعبد بليت كلها هربيا ، منها المعبد الصغير الذي أقامه لآمون بالكرك، ومنه استدل أن رمسيس كان متيقنا بأنه لا يمكنه أن يشيد من المباني ما يناظر ساحات الكرك العظمى لضفافة الأخيرة وما تتطلبه من تعب وعناء ، ودليلا على ذلك أنه جعل معبده الصغير المذكور مستعرضا لمحور الكرك الأصلي ، لكنه في الوقت نفسه جاء مثلا لحسن ذوق رمسيس الثالث في هذا الموضوع (شكل ١٨٣) (٢) . وغير ذلك شيد أبنية صغيرة أخرى بالكرك (٣) ، عدا ما أقامه بمعبد موت (Mut) جنوبي الكرك (٤) . وبدأ جلالة أيضا ببناء معبد صغير لخنوسو (٥) وكذا بعض هياكل صغيرة بمنف وعين شمس لم يبق منها إلا الترسير (٦) . وهناك هياكل عديدة أخرى أقامها رمسيس الثالث لمعبودات مصر في جهات القطر كلها لم يبق منها إلا القليل (٧) . ومن ما أثره أيضا على الجيل الذي شيده لآمون بمقر اقامته بالدلتا، وقد وصفه جلالة بأنه كان محلى بالحدائق العظيمة والماشى الكثيرة وأنواع النخيل كافة، غير الطريق المقدس الذي أنشأه وحلاه بالأزهار من جهات القطر كلها (٨) . وقد خصص لخدمة هذا الحى ثمانية آلاف عبد (٩) وشيد في المدينة نفسها معبدا لسوتخ في الأراضى الموقوفة لمعبد رمسيس الثانى (١٠) .

ودلتنا أبنية تلك العصور أن فن العمارة أخذ في الانحطاط ، فالخطوط والساحات ذات العمد فقدت عظمتها وأبهتها اللتين امتازت بها ساحات العهد القديم واللتين كانتا سترعيان نظر كل متطلع . فالناظر مثلا الى الآثار القديمة يتجه نظره من دون شعور الى قمتها ليرى ماذا يتهى هذا البناء المدهش الآخذ بالأبواب . أما بناء رمسيس الثالث فقليل الزهو والإتقان . وبمقارنة نقوش معبد مدينة

(١) ٨٢ - ٦٩ : ٤ (٢) ١٩٥ : ٤ (٣) ٢١٣ - ١٩٧ : ٤ (٤) ١٩٦ : ٤ (٥) ٢١٤ : ٤

(٦) ٢٦٥ - ٢٥٠ : ٤ (٧) ٣٢٨ - ٣١١ : ٤ (٨) ٢١٥ : ٤ (٩) ٢٢٥ : ٤

(١٠) ٣٦٩ و ٣٦٢ : ٤

هابو البارزة بتقوش معبد سبتى الأول بالكركك يشاهد أن الأولى أقل اتقاناً واعتناء من الثانية ، لكن هذا لا يمنعنا أن نعترف بوجود بعض تقوش بمعبد مدينة هابو لا تقل من حيث الاتقان والجمال عن رسوم معبد سبتى المذكور التي تمثل منتهى التقدم في فن الحفر القديم . خذ مثلاً ما جاء من رسم رمسيس الثالث وهو يصطاد ثورا وحشيا ، فمع تصور عتة غلطات فيه من حيث الدقة والاعتقان فإنه يستحق المدح والإعجاب من حيث الجمع بين الشعور والمناظر المتعددة مما يسترعى النظر (شكل ١٧٦) . وليلاحظ أن رسم المعركة الحربية التي حصلت بالقرب من شاطئ سوريا في عهد رمسيس الثالث والتي تقدم الكلام عليها جاء مثلاً واضحاً على الذكاء الفطري والتصوير القوي عند راسمها وبرهانا آخر على البراعة وتأثير الرسم في النفوس ، ولذلك اعتبر هذا الرسم أول خطوة جديدة في الحفر أظهرت ابتكاراً وشجاعة (شكل ١٧٣) .

وقد راعى رمسيس الثالث في فنونه الجميلة قواعد العصور السالفة فسجل أخباره بما يشبه تسجيل أخبار العصور القديمة رسماً وشكلاً . ولما أراد كاتب تقوش جدر معبد مدينة هابو أن يسرد أعمال رمسيس الثالث اتبع الطريقة والأسلوب القديمين ، فأكثر من تكرار الجمل والعبارات الدالة على الشجاعة والإقدام والمهارة الحربية والحكمة السياسية كما فعل كاتب الملوك الأقدمين . فلذا طالع الباحث مثلاً نصوص بعض حروب هذا الملك على جدر معبد مدينة هابو يجد كثيراً من الجمل والعبارات القديمة مكررة بدون مناسبة لمسافة بضعة آلاف من الأقدام المربعة ، بينها القليل من الأخبار التي هي للباحث لب الموضوع ، ولذا كانت نصوص هذا المعبد صعبة الوضوح عسرة الفهم مثقلة التركيب .

والظاهر أن رسوم رمسيس الثالث التي تمثله وهو يقود جيوشه بجرأة في ساحة قتال ، أو هازماً أعداءه باستمرار وقت هجومهم الشديد على مصر ، لم تترك نفس الكاهن الذي نقش تلك الرسوم حسنة لأنه استمرس في ذكر الأساليب القديمة بقصد نقشها فقط . والظاهر أن الكاتب كان متبحراً في الدعوات والأغاني وأساليب الكلام القديمة فاستعملها هنا ليظهر مقدرة وشجاعة ملكه الحقيقيين . ولعل اللوم في ذلك لا يقع على الكاتب لأن المعروف عن رمسيس الثالث أنه كان ميالاً بطبعه إلى عوائد وأعمال وأساليب رمسيس الثاني ، ودليلنا على ذلك أنه اختار لنفسه اسماً مكوناً من جزأين: الجزء الأول اسم رمسيس الثاني الملكي والجزء الثاني اسم رمسيس الثاني الشخصي ، ثم انه سمي أولاده وخيله بأسماء أولاد وخيل رمسيس الثاني ، واستمرس في تهليله فاستصحب معه أسداً مستأنساً في حروبه بجوار عجلته . والمعروف أن أعمال رمسيس الثالث كانت نتيجة اجبارية لظروف حكمه ، لأنه لما تولى الحكم وجد نفسه أمام عتة صعوبات ليس من الهين تذليلها ، وأهمها الخطر الأجنبي الذي هدد بكان المملكة من الخارج ، وأنه وإن درأ هذا الخطر لم يستطع حماية الأمة من الهاوية التي أشرفت عليها . وقد كان رمسيس الثالث رجلاً قويا وكفءاً لمكافحة الخطر الخارجي ، لكنه كان ضعيفاً في معالجة مشاكله الداخلية التي امتاز بها بعض الحكام وأظهروا فيها كفاية عظيمة أحياناً . ودليلنا على ذلك موقفه تجاه المسائل الدينية الموروثة عن الأسرة التاسعة عشرة ، فقد ذكرنا سابقاً أن

سنتخت والده تولى الملك بمساعدة الكهنة كما فعل الفراعنة قبله ، ولما تولى رمسيس الثالث الملك لم يتخلص من نفوذ الكهنة على العرش المصرى بل ترك المعابد والكهنة تهتد كما كان الحكومة سياسيا وماليا، واتبع سياسة سلفه أيضا فأغدى على الكهنة الأموال الطائلة والخيرات الجزيلة، واليك ترجمة ما قاله جلالتة في ذلك :

”لقد فعلت أفعالا كبيرة وقدمت من الإحسان كثيرا لآلهة وإلهات الجنوب والشمال . لقد مؤهت تماثيلهم بالذهب في المصانع ورمت معابدهم المهدامة وأقمت المنازل والمعابد في أحواشهم وغرست لهم حدائق غناء وحفرت لهم البحيرات وربيت لهم الخيرات المقدسة من شعير وقمح ونبيذ وبجور وفاكهة وغنم وطيور . لقد شيدت الهياكل المعروفة باسم ”ظلال رع“ في أقسامهم وملاحتها بالقرابين المقدسة كل يوم“ (١) .

هذا وصف لما فعله جلالتة للمعابد الصغيرة بالأرياف . أما معابد المعبودات العظيمة كأمون ورع ويتاح فقد عمل لها أكثر من هذا بمراحل . واليك ترجمة ما قاله جلالتة في هذا الموضوع مخاطبا المعبود أمون :

”لقد صنعت لك مائدة للقرابين من الفضة المطرقة الممّوجة بالذهب الجميل والمرسوم عليها مناظر ملهسة بذهب كيم (Ketem) حاملة تماثيل الملك المصنوعة من الذهب المطروق . كيف لا يكون ذلك وهى مائدة قرابينك المقدسة التى تقدم أمامك ! لقد عملت لك حماله كبيرة لأوانى حوش معبدك مموجه بالذهب الجميل ومرصعة بالأحجار الكريمة . أما أوعيتها فمن الذهب وهى تحوى النبيذ والبعة الذين يقدمان لك كل صباح لقد صنعت لك موائد كبيرة من الذهب المطروق منقوشة باسم جلالتك الأعظم مع دعائى لك . لقد صنعت لك موائد أخرى من الفضة المطرقة محفور عليها اسم جلالتك الأعظم وكل أوقاف معبدك“ (٢) .

بهذا الإسراف العظيم كان رمسيس الثالث يقدم لمعبوده الهدايا الثمينة (٣) . أما فيما يختص بالسفينة المقدسة التى بناها جلالتة لمعبوده فقد وصفها قائلا :

”لقد شيدت لك سفينتك المسماة أسرحت (Userhet) طولها مائة وثلاثون ذراعا مصريا (حوالى ٢٢٤ قدما) حل النهر، من خشب الأرز المستحضر من الأملاك الملكية، فكان حجمها (أى حجم السفينة) عظيما جدا . وكانت ممّوجة بالذهب الى سطح الماء كسفينة الشمس وقت ظهورها من المشرق وقتما يحى كل انسان برؤيتها . وقد صنعت لك فى وسطها ناووسا عظيما من الذهب الجيد مرصعا بالأحجار النفيسة كالقصر الملكى ، ونصبت على السفينة رعوس خرفان ذهبية من المقدمة الى المؤخرة تعلوها التيجان والأضلال“ (٤) .

ولما أراد رمسيس الثالث أن يصنع ميزاتا عظيما يزن به الهدايا المقدمة للمعبود رع بين شمس استعمل لذلك حوالى مائتين واثنى عشر طلا ذبا وحوالى أربعمائة وواحد وستين رجلا من الفضة (٥) .

(٤) ٢٠٩: ٤

(٣) ٢١٠-١٩٨: ٤

(٢) ٢٠٢ و ١٩٩: ٤

(١) ٣٦٣: ٤

(٥) ٢٨٥ و ٢٥٦: ٤

ويجد القارئ وصفا ممبها لهذه الأعمال في درج هريرس البردى^(١) الذى سأتى الكلام عليه . ولكننا نستدل من هذه الهدايا والثروة أن الامبراطورية المصرية كانت وقتئذ غنية جدا ومواردها كثيرة من الأراضى والعبيد والدخل ، ونستنتج منها أيضا أن أوقاف المعابد الأخرى كانت جسيمة أيضا مشال ذلك ما ورد عن المعبود خنوم بجمهة جزيرة القيل بأسوان، فان رمسيس الثالث حبس لأجله أوقافا أرضية على شاطئ النيل بتدئى مساحتها من تلك الجزيرة إلى مدينة تاكومبسو (Takompsu) وهى مسافة يقرب طولها من سبعين ميلا وتعادل بالمقاسات اليونانية اثنى عشر شونيا لذلك سماها اليونان دوديكا شينوس (Dodekashoinos)^(٢) .

وتمكنا هذه الطريقة لأول مرة في تاريخ مصر القديم أن تقدر دخل المعابد بالضبط ، والفضل في ذلك يرجع الى ما ورد بدرج هريرس البردى فانه يحوى قائمة يستدل منها أن دخل معابد الامبراطورية كان يبلغ وقتئذ حوالى مائة ألف وسبعة آلاف عبد^(٣) وهذا يعنى أن خدمة المعابد كانت تتطلب ما يتراوح بين $\frac{1}{10}$ و $\frac{1}{8}$ من أهالى القطر ، أو بعبارة أخرى أن نسبة العبيد المسخرين لخدمة المعابد وقتئذ كانت حوالى $\frac{2}{3}$ من سكان القطر . أما الأراضى الموقوفة على المعابد فكانت حوالى ثلاثة أرباع مليون من الأقدنة أو سبع أراضى القطر المزروعة وهى نسبة تعادل ١٤,٥ ٪ من الأراضى المزروعة . ولما كانت أوقاف المعابد الصغيرة كمعد خنوم مثلا لم تدرج ضمن قائمة درج هريرس ، فلا يبعد أن تكون نسبة الأراضى المحبوسة على جميع معابد القطر حوالى ١٥ ٪^(٤) . ولا يخفى أن هذه المعلومات تمكنا على صفرها من تقدير مالى الامبراطورية المصرية ودخلها وقتئذ ، ولا ريب أن هذا التقدير غير تام . والمعروف أن تعداد الأغنام والبهائم التى حبست على المعابد كان قريبا من نصف مليون ، وأن عدد السفن كان ثمانين وثمانين سفينة ما بين كبيرة وصغيرة ، وأن عدد المصانع كان حوالى ثلاثة وخمسين مصنعا تستهلك فيها المواد الخام الواردة الى المعابد لتعمل منها المصنوعات . أما المدن المحبوسة على معابد مصر فكانت تبلغ مائة وتسعة وستين مدينة في سوريا وكوش ومصر^(٥) . وإذا لاحظنا أن مساحة الأرض المزروعة بمصر وقتئذ كانت حوالى عشرة آلاف ميل مربع ، وأن تعداد سكان القطر كان حوالى خمسة ملايين أو ستة من النسمات ، لا يسعنا إلا أن نجزم بأن الأوقاف المذقورة أثرت كثيرا في ميزانية البلاد لأنها كانت معفاة من الضرائب للخرانة المصرية^(٦) .

ومما زاد الطين بلة أن الهبات والأوقاف لم توزع على معبودات مصر بنظام واحد أو نسبة مخصوصة . والمعروف أن معظم هذه الهبات كانت تعطى لآمون ، ولذلك أصبح لكهنة هذا المعبود تأثير عظيم وكلمة كبيرة مسمومة وسلطة واسعة على الخزانة المصرية . ولاحظ أن تفقات كهنة آمون لم تكن قاصرة على معابد هذا المعبود بطيبه بل شملت أيضا محاريبه وتمائله بكل أنحاء القطر^(٧) ، مثال ذلك معبد آمون بسوريا الذى تقدم الكلام عليه^(٨) ومعبده بالثوبة الخليلي^(٩) ، وذلك غير المعابد التى شيدها رمسيس الثانى هناك .

(١) ٤١٢-١٥١:٤ (٢) ١٥٠-١٤٦:٤ (٣) ١٦٦:٤ (٤) ١٦٧:٤ (٥) ٩٧:٤

(٦) ١٤٦:٤ (٧) ٢٢٦-١٨٩:٤ (٨) ٢١٩:٤ (٩) ٢١٨:٤

ولما انتهى رمسيس الثالث من حروبه في السنة الثانية عشرة من حكمه أتم بناء معبد آمون بمدينة هابو ونقش على أحد جدره أخبار الأعياد التي أقامها جلالته واحتفل بها^(١) ، ومما ورد فيها أن عيد آمون الكبير المدعو أوبت الذي احتفل به نحو خمس الثالث أحد عشر يوما بلغ في عهد رمسيس الثالث أربعة وعشرين يوما . ودلتنا هذه النقوش أيضا أن آمون كان يقام له كل ثلاثة أيام عيد غير الأعياد الشهرية^(٢) . وبالرغم من هذا كله فقد أطال رمسيس الثالث مدة عيد أوبت بفعلها سبعة وعشرين يوما ، كما جعل عيد تنويجه السنوي عشرين يوما بعد ما كان يوما واحدا^(٣) . وإذا كان الأمر كذلك فلا غرابة إذا سمعنا أن إحدى طوائف عمال طيبة أيام أحد خلفاء رمسيس الثالث تعطلت عن الشغل أياما بقدر أيام العمل لأجل الأعياد الطويلة^(٤) ، وبدهى أنه كلما كثر عدد الأعياد وطالت مدتها نالت الخزانة المصرية بالنفقات الباهظة ، ودللتنا على ذلك ضخامة خزائن معبد مدينة هابو وسماك جدرها وارتفاع سقفها مما تطلب ملؤها أموالا طائلة^(٥) . واليك ترجمة ما قاله رمسيس الثالث عن هذا المعبد :

”لقد ملأت خزائنه بخيرات مصر من ذهب وفضة وأحجار كريمة بما يعد بمئات الألوف ، أما الشون فكانت طلحة بالشعير والقمح ، وأما أراضيه وأغنامه فكانت عديدة كرمال الشاطئ . لقد فرضت الجزية لهذا المعبد على أراضى الجنوب والشمال وسور يا والنوبة بما يقدر بعشرات الألوف لقد ضاعفت القرابين أمامك يا آمون من خبز ونبيذ وجمعة وشحم إوز وثيران كثيرة وعجول وأبقار وعول بيض وغزلان ، مما يقدم لك منه ذبايح على مذبحك“^(٦) .

وجريا على عادة امبراطرة الأسرة الثامنة عشرة وهب رمسيس الثالث غنائه الحربية الى خزانة آمون^(٧) ، فنجم عن ذلك أن آمون ملك ما ينيف على خمسمائة وثلاثة وثمانين ألفا من الأقدنة من بين ثلاثة أرباع المليون من الأقدنة الموقوفة على سائر معبودات مصر ، ولذلك أصبح آمون أغنى من رع معبود عين شمس بما يقرب من خمسة أضعاف ، لأن الأخير كان يملك حوالى مائة ألف وثمانية أقدنة . أما أملاك پتاح معبود منف فكانت تقرب من تسع أملاك آمون^(٨) . وهكذا كانت حصة آمون تنيف على الثلثين من حصص جميع المعبودات التي تقدر بحوالى ١٥ ٪ من أراضى مصر المزروعة . وقد قلنا فيما سبق أن عدد عبيد معبودات مصر كان يقرب من ٢ ٪ من سكان القطر ، والآن نخبر القارئ أن ١,٥ من هذه النسبة كان خاصا بآمون ، وعليه فكان عدد عبيد آمون ينيف على ستة وثمانين ألف وخمسمائة نسمة ، أى سبعة أضعاف عبيد رع^(٩) . وليلحظ أن هذه النسبة العظيمة وهذا الفرق الشاسع كانا مرعيين أيضا فيما يتعلق بالخيرات الأخرى مع سائر المعبودات ، فحذ مثلا البهائم الصغيرة والكبيرة التي كانت مقسمة خمسة قطمان فقد كان نصيب آمون منها ينيف على أربعة وعشرين ألفا ، فى حين أن نصيب المعبودات الأخرى من هذه البهائم كان أقل من نصف مليون . وتملك

(٣) ٢٣٦ : ٤ - ٧

(٢) ١٤٤ : ٤

(١) ١٣٩ : ٤ - ١٤٥

(٦) ١٩٠ : ٤

(٥) ٢٥٠ : ٤ - ٣٤

(٤) Erman, Life in Ancient Egypt.

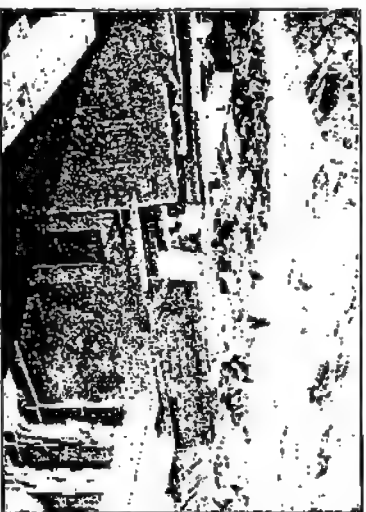
(٩) ١٦٥ : ٤

(٨) ١٦٧ : ٤

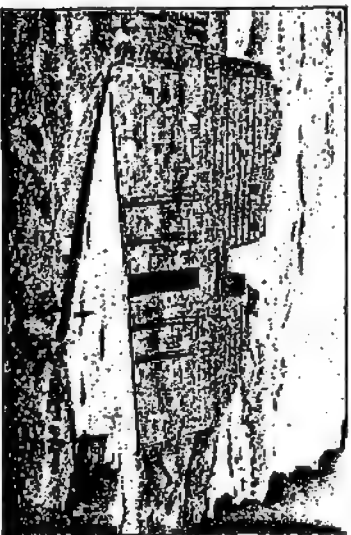
(٧) ٤٠٥ ٢٢٤ : ٤



شكل ١٧٦ - رسمين الثالث يعطاد ثورا وحشيا - رسوم بارزة عنف السمح الأول
بجهد مدينة هاور.



شكل ١٧٤ - سيد رسمين الثالث بمدينة هاور، مأخوذ من قبة السمح
الأماسي، ويرى جزء من الساحة الأول للبيوت السمح الثاني



شكل ١٧٥ - سيد رسمين الثالث بمدينة هاور، صورة للسمح الأول
مأخوذة من مدخل القصر التي يقفم الميبد

آمون أربعمائة وثلاثا وثلاثين حديقة وغابة من بين حدائق وغابات جميع المعبودات البالغ مجموعها خمسمائة وثلاث عشرة حديقة وغابة. أما عدد السفن الخاصة بمعبودات مصر كلها فكان ثمانيا وثمانين سفينة كانت كلها موقوفة لآمون ما عدا خمس سفن كانت وقفا للعباد الأخرى . أما المصانع التابعة لآمون فكانت ستة وأربعين مصنعا وذلك من ضمن ثلاثة وخمسين مصنعا خاصا بمعبودات القطر كلها^(١) . وكان آمون المعبود الوحيد المالك لمدينة سوريا وكوش وبعدها تسع . أما في مصر فكان ربع يملك مائة مدينة وثلاث مدن مقابل ست وخمسين مدينة لآمون فقط . ولجهدنا حرم وأهمية تلك المدن لا يبعد أن تكون مدن آمون الصفوة المختارة من ذلك المجموع ، أو على الأقل أحسنه وأكبره زماما ، إذا راعينا الأفضلية الظاهرة في الأملاك السابقة . أما دخل آمون السنوي من الذهب المتحصص فكان ستا وعشرين ألف قمحة وهو مقدار لم تستول عليه سائر معبودات القطر ، وبديهي أن هذا الذهب كان يستخرج من مناجم الذهب بالنوبة التابعة لآمون منذ أواخر الأسرة التاسعة عشرة والمعروفة وتقتد "بأرض آمون الذهبية" كما سبق القول . واليك بيان ما خص هذا المعبود بالنسبة للمعبودات الأخرى في مواد غير المذكورة هنا :

كان يراد آمون من الفضة سبعة عشر ضعفا ومن النحاس واحدا وعشرين ضعفا ومن الفم سبعة أضعاف ومن النيذ تسعة أضعاف ومن السفن عشرة أضعاف^(٢) ، ومن ذلك يتضح لك أيها القارئ أن أملاك آمون أصبحت تلي أملاك الملوك من حيث العظم ، وأن نفوذ كهنة آمون وسلطتهم أصبحتا لا يستمران بهما حتى عند فرعون . لذلك كان كل ملك لا يتفق آراؤه وآراء كهنة آمون لا يستمر في الحكم طويلا ، ولهذا السبب أيضا ظن بعض الأثريين أن كهنة آمون اغتصبوا العرش الفرعوني فيما بعد بثروتهم الطائلة . لكن يلاحظ أن هذا الرأي الأخير لا يتفق تماما هو وما استنتاجناه سابقا ، لأن هذه النتيجة أتت من علة أسباب فيها بسط نفوذ آمون على المعابد الأخرى وعلى دخلها ، وترؤس عظيم كهنة هذا المعبود على كهنة القطر منذ الأسرة الثامنة عشرة ، وجعل هذا المركز وراثيا تتوارثه الأبناء عن الآباء منذ أيام الأسرة التاسعة عشرة ، وصيرورة معبد آمون بطييه مركزا عاما لحفظ سجلات المعابد الأخرى ، أو بعبارة أخرى جعله عاصمة الامبراطورية الدينية ، ثم اعطاء كهنته بعض الحق في الإشراف على انارة الأوقاف الدينية^(٣) ، مما سبب امتداد سلطة آمون على جميع أوقاف المعابد بالقطر .

ومن الخطأ القول بأن رمسيس الثالث كان المبدع لهذه الأمور بالقطر كما يدعيه كثير من الأثريين ، إذ من المحال على جلالة أن يبدأ هباته للمعبدات بهذا المنوال بالتبذير العظم ، سواء أكان ذلك خاصا بمعبد آمون أم بسواه من المعابد ، لأن الغالب أن مجرد ذكر هبة السبعين ميلا من شاطئ النيل النوبي المعروفة عن اليونان باسم دوديكا شينوس (Dodekaschoinos) إلى المعبود خنوم لم يقصد به إلا تسجيل وتأكيد من ناحية رمسيس الثالث لحق كهنة خنوم في تلك الأرض ، كما أن الهبات الجزيلة الواردة في درج هريس

(١) ١٦٥:٤ (١) ١٧٠:٤-١٧١ (٢) ٢٠٢:٤ (٣)

البردى العظيم بأنها من أعمال رمسيس الثالث لا يمكن اعتبارها إلا مجرد سرد لما قُدم الى تلك المعاهد الدينية قبل عهده وأن الغرض من ذلك اعتراف جلالته بمشروعية ما تم^(١) . وقد استتجنا من قائمة درج هريس البردى أن الاحصائيات السالفة للهبات الدينية المذكورة كانت أمرا واقعا ووراثيا منذ حكم الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . وقد وهب تحتمس الثالث الى آمون ثلاث مدن بسوريا ، ولما أتت الملوك بعد تحتمس الثالث سارت على منواله في ذلك كما أن الطمع الكهنوتي استمر يزداد بلا زاجر ولا رادع حتى أتى عهد رمسيس الثالث فوجد نفسه أمام أمر واقع لم يستطع التخلص منه . ومما زاد الطين بلة أن جلالته كان مضطرا بحكم الظروف أن يشميل اليه الكهنة ليكتسب معاضدتهم فلم يجد بدا من إجزال العطاء اليهم جريا على عادة أسلافه . وهكذا عظم عبء الخزانة المصرية فأخذت تضعف تدريجا نتيجة هذا التبذير وعدم الاقتصاد ، ولذلك أصبحتنا نرى أن العمال الذين اشتغلوا بعبادة طيبة تحت حكم رمسيس الثالث استمروا مدة عشرين في آخر كل شهر من أن يتناولوا رواتبهم الشهرية وهي نحسون كيبسا قحما ، وقد عزا بعضهم ذلك الى البطء في دفع مرتبات الموظفين ، الأمر الذي كان حاصله الى زمن قريب بالقطر ، الا أن هذا لا يمنعنا أن ننظر الى المسألة أيضا من وجهة الإفلاس المالى الذى أصاب الخزانة المصرية . وكيف يمكننا أن نفرض النظر عن هذا الأمر وقد ورد عن هؤلاء العمال أنهم استمروا بهذه الحالة مدة أشهر اضطروا بعدها الى اتخاذ أقصى الوسائل فتسلقوا جدران الجبانة مدفوعين بعامل الجوع ومهتدين في الوقت نفسه سكان المعابد بنهب شونهم ان لم تصرف لهم استحقاقاتهم . وقد أخبرهم الوزير أحيانا أن سبب تأخير دفع أجورهم هو إفلاس الخزانة ، وأخبرهم أحد الكتبة مرة أخرى أن أجورهم سيعطونها بعد مدة قصيرة وبذلك رجعوا في اليوم التالى الى أشغالهم ، لكنهم لم يلبثوا أن يتقنوا عدم صرف أجورهم فعمدوا الى مكتب رئيسهم صارخين طالبين أجورهم الشهرية^(٢) . وهكذا بينا كان الفقراء يموتون جوعا من إفلاس الخزانة كانت شون ومخازن المعابد تملأ لآخرها بالخيرات ، لأن دخل آمون وحده وقتئذ كان لا يقل عن مائتين وخمسة آلاف مكال قحما في أعياده السنوية فقط^(٣) .

لم تكن لدى رمسيس الثالث ومعاصريه حيلة يقاومون بها نفوذ الكهنة الا الأسرى الأجانب التابعين للوك رأسا والموسومين باسمه ، وقد ضم جلالته هؤلاء الى جنوده المأجورة فزادت بذلك قوته وعظم نفوذه^(٤) . وقد ألمعنا سابقا الى أن معظم قوآت رمسيس الثالث التى صدت بها أعداءه كانت أجنبية ، والآن نذكر القارئ أن نسبة هؤلاء الأجانب بالجيش أخذت تكبر بمرور الزمن وبزيادة المصاعب والمشاكل الكهنوتية الداخلية ، وقد تخرج مركز جلالته لدرجة اضطرت فيها أن يكون حرسه الخاص من الأجانب .

وجرت العادة منذ عهد الملكة الوسطى أن يكون لدى الملوك والأمراء طائفة "حجاب" يخدمون سادتهم وقت تناول الطعام ويحافظون على مخازن أغذيتهم ، فلما جاء عهد رمسيس الثالث

(١) Kemm, Life in Ancient Egypt, 121-126. (٢)

(١) ١٥٧ : ٤ - ٨

(٤) ١٥٤ : ٤

(٣) ١٧٤ : ٤

كانت طائفته الملكية مكونة من سوريين وناضولين وليبيين، وكان الأولون أكثر عددا من الآخرين، واتفق جلالته وقتئذ فائدة هؤلاء الأقوام ونشاطهم في أداء أشغالهم فبينهم في الوظائف العالية بالحكومة والقصر الملكي على الرغم من أنهم عبيد وأسرى حروب، وبهذه الكيفية أصبحت حاشية فرعون مماثلة تماما لحاشية سلاطين مصر في القرون الوسطى كما أشار إليه الأستاذ إيرمن (Erman). وذلنا الآثار على وجود أحد عشر "حاجبا" في خدمة رمسيس الثالث منهم خمسة أجنب ارتقوا في الوظائف والرتب الحكومية حتى صار لهم شأن كبير ونفوذ قوى كما سيتضح ذلك في أخبار المؤامرة التي دبرت لاغتيال رمسيس الثالث^(١). وهكذا بينما كانت البلاد مكسوة بحلة الفخار والسكون مخفلة بملكها الذي أتقدها من مصائبها، اذا عوامل الضعف والاضلال تختر عظام الامبراطورية المصرية وترج بها تدريجا الى مواطن الدمار، وكيف لا يكون ذلك وشره الكهنة لا حد له ولا يعرف للفنعة معنى كما أن معظم ثروة البلاد أصبحت في أيدي رجال تلك الطائفة. زد على ذلك أن معظم وحدات الجيش المصري كانت أجنبية مستعدة لخدمة كل من يجزل لها العطاء، وهذا علاوة على صيرورة حاشية الملك من العبيد الأجنب التي ترتب قيمة أمانتهم وصدقاتهم على ما يتناولونه من أجر. هذه هي عوامل السوء الخطيرة التي كان يكالها رمسيس الثالث مستعملا بعضها ضد بعض كي يتمكن من بلوغ مآربه وتنفيذ أوامره. وما زاد الحالة تقيدا واضطرابا كثيرة تعدد أفراد الأسرة المالكة كما سيتضح لنا فيما بعد.

ولا شك أن هذه العوامل السيئة كانت تحز في جسم الامبراطورية المصرية وقد أخذت نتائجها تظهر تدريجا فكانت أولى هذه النتائج عصيان وزير رمسيس الثالث وجمعه لقوة كبيرة وتحصنه بينها (Athribis)، لكن هذه القوة لم تكن كافية فسلمت بسرعة لقوات رمسيس الثالث الذي استولى على أثريب (بها)^(٢) وأرجع النظام الى أصله.

ولما قرب حلول السنة الثلاثين من حكم جلالته أخذت الامبراطورية تستعد لإقامة الاحتفالات، فأرسل جلالته وزيره الجديد المدعو تا (Ta) الى الجنوب في السنة التاسعة والعشرين من حكمه لجمع تمائيل المعبودات كي تشارك في الاحتفال العظيم المزمع إقامته بمنف^(٣). لكن بعد ما ينيف على السنة حدثت في القطر فاجعة مؤلمة أشد خطرا من السابقة كان جلالته وقتها شيخا هرما، أما أصل هذه الحادثة فيرجع الى تدير نسوى في القصر الملكي وهي عادة كثيرة الحصول في بلاد الشرق. وخلاصة ذلك أن إحدى الحرم الفرعونى المدعوة تي (Tiy) اعتقدت أن ابنا المدعو بتساورع (Pentewares) أحق بالملك من ابن حمانها الذى كان معينا وليا للعهد وقتئذ^(٤). فدبرت هذه السيدة مؤامرة لاغتيال رمسيس الثالث تحت رياستها اشركت فيها "الباش أغا" المدعو بيك كامن (Pebkamen) و"حاجبا ملكيا" يدعى مسدسورع (Mesedsure). وأخذ بيك كامن يستعمل

(١) ٤١٩: ٤ ملاحظة (٢) ٣٦١: ٤ (٣) ٤١٣: ٤ — ٤١٥ (٤) كل الكلام

التال مأخوذ من ٤١٦: ٤ — ٤٥٦

السحر ليمنع حرس القصر من العلم بهذه المؤامرة ويسهل المخابرات بين أعضاء المؤامرة الثلاثة داخل القصر وزملائهم خارجه . وأحضر بيك كامن لذلك تمانيل صغيرة من الشمع تمثل معبودات وآدميين واجتهد الباش آغا والحاجب الملكي في حض غيرهم على الاشتراك فضموا اليهم عشرة موظفين من مختلف المراتب من الحرم الفرعوني وأربعة حجاب ورئيس خزانة وقائدا يدعى بيس (Peyes) وثلاثة كتاب مختلفى الدرجات ومساعد بيك كامن وغيرهم من المرعوسين ، ولا يخفى على القارئ خطورة مثل هذه المؤامرة ولا سيما أن معظم أعضائها من رجال البلاط الملكي . ثم انضم الى هذه المؤامرة ست زوجات لضباط حرس باب الحرم في القصر وهذا سهل كثيرا مبادلة المراسلات والمخاطبات بين الحرم وأصدقائه داخل القصر وأقاربهم ومعارفهم خارجه . وكانت من ضمن أصدقاء الحرم الفرعوني أخت قائد فرقة الرماة بالنوبة فأرسلت هذه خطابا الى أخيها دعته فيه الى الانضمام الى مؤامرتهم ففعل ذلك .

ولما تم الاستعداد للقضاء على حياة رمسيس الثالث داخل القصر واحداث ثورة وخبثة خارجه في الوقت نفسه ليتمكن المتآمرون في تلك الأثناء من تملك الأمير بتناورع على العرش وتنفيذ مشروعاتهم ، بلغت أخبار تلك المؤامرة حزب الملك ففشلت حركة الاغتيال ووقفت رسائل الثورة وقبض على أفراد المؤامرة وأرسلوا الى القضاء . وبالرغم مما اعترى هذا الملك المسن من الصدمة العصبية ، ولا يبعد أن يكون قد أصابه من الاعتداء الجسماني من جراء ذلك ما أصابه ، فإن جلالاته أصدر أمرا بتشكيل لجنة خاصة لمحاكمة المتهمين . ويستدل من الأمر الملكي القاضي بذلك أن جلالاته لم يكن آملا في المعيشة طويلا بمد تلك الصدمة وإن كان في الوقت نفسه شدد على المحققين ليتبعوا العدل فلا يظلموا شخصا بل يوقعون العقاب على مستحقه . ويعتبر هنا مثالا ساطعا لعدالة ذلك الملك الذي كانت يده مقاليد الأمور يفعل بها كيف يشاء ، مع العلم أيضا أن شخص جلالاته كان المقصود بالقتل . والبك ترجمة بعض ما جاء في هذا الأمر الملكي :

”أنا أمر القضاة (وهنا ترد أسماء حضراتهم ووظائفهم) قائلا أما من خصوص الكلام الذي يدور على ألسنة الناس فلا علم لي به ، فاذهبوا واغصوا الأمر ، فاذا حققتم وتبينتم المتهمين فأمرهم أن يتحروا بأيديهم بدون اخطاري . ووقعوا العقاب على كل من يستحقه بدون استشارتي أيضا استرسوا من عقاب البريء . هأنذا أكرر لكم أن كل شخص ارتكب أو اشترك في هذه الجناية يجب أن ينال نصيبه من العقاب . أنا أمين ومحروس الى الأبد ، لأنني ضمن الملوك المادلين أمام آمون رع ملك المعبودات وأمام أزوريس حاكم الأزلية “ . ولما كان أزوريس إله الأموات لا يبعد أن رمسيس الثالث اعتقد بجواز وفاته قبل انتهاء التحقيق في هذه الجناية (١) .

وكانت المحكمة مكونة من سبعة عشر عضوا بينهم سبعة ”حجاب“ . ومن هؤلاء السبعة كان أحدهم لييا وأترليسيا وثالث سوريا يقال له مهر بعل (Maharbaal) — أى بعل السريع — ورابع

أجنبيا يغلب أنه أسوى . ويعتبر هذا الخلط فى الجنسية برهانا على شدة اعتماد فرعون على أمانة الأجنب حتى فى أخرج الظروف . وحصلت فى أثناء التحقيق حادثة شذبة أظهرت اهمالا شديدا من القضاة وقت تأدية أعمالهم مع شدة عااد المتهمين ، وخلاصة ذلك أن القائد المدعو بيس (Peyes) اتحد هو وبعض النسوة المتهمات وأرضوا رجال الشرط المحافظين عليهم فتوجهن الى منزل قاضيين من المحققين حيث قضيا فيهن المنكر رغبة فى اكتساب رافة القضاة بهن ، ووجد مع هذين القاضيين قاض ثالث لا علاقة له بالفسق . فلما اتضح هذا الخبر أجرى تحقيق فى ذلك حكم بمقتضاه على القاضيين المجرمين وعلى شرطيين بجدع أنوفهم وأذانهم وبراءة القاضى الثالث ، وقد اتهم أحد هذين القاضيين بعد ذلك بقليل لما اعتراه من الخرى وضياح الشرف^(١) . واستمر التحقيق فى المؤامرة الأصلية يسير بنظام ويستدل من سجلات ثلاثة تحقيقات^(٢) أن اثنين وثلاثين موظفا مختلفى المراتب وجدوا مذنبين ومن ضمنهم الأمير يتاورع الذى لم يكن فى الحقيقة سوى آلة فى أيدى المجرمين وكذلك القائد الجرىء بيس (Peyes) الذى أغرى القاضيين السابقين . ولم نعتد الآن على أوراق قضية الملكة تى ولذلك لا نعلم ماذا تم فى أمرها ، لكن المعروف أنها لم تعامل بأقل مما عومل به سواها الذين أجبروا على الاتجار طوعا لأمر رمسيس الثالث .

فى ذلك الوقت حل ميعاد الاحتفال بعيد مرور اثنين وثلاثين عاما على جلوس رمسيس الثالث ، فأقيمت لذلك الزينات والأفراح عشرين يوما جريا على عادة جلالة الذى اتبعها منذ السنة الثانية والعشرين من حكمه^(٣) . بعد ذلك بعشرين يوما توفى رمسيس الثالث (حوالى عام ١١٦٧ قبل الميلاد) قبل أن يعدم المتهمون فى مؤامرة اغتياله ، وعليه فىكون جلالة حكم مدة احدى وثلاثين سنة وأربعين يوما .

الكتاب السابع

دور الاضطلاع

الفصل الرابع والعشرون

سقوط الامبراطورية

سبع رمسيس الثالث في الحكم تسعة ملوك ضعاف سمووا كلهم باسم رمسيس الكبير لكنهم لم يستحقوا ذلك الاسم العظيم ، وقد أخذت سلطة هؤلاء الملوك تقل بسرعة فبلغت الحضيض في مدة يسيرة .
نعم ان نجل رمسيس الثالث وهو رمسيس الرابع اجتهد في مكافحة الظروف السيئة التي أحاطت به بعد وفاة والده حوالي عام ١١٦٧ قبل الميلاد لكنه لم يفلح في سماعه . والمعروف عن هذا الملك أنه بمجرد جلوسه على العرش المصري دقن جميع أعمال والده في الدنيا في درج بردى مستعظما بذلك الآلهة لأجل والده فلما منه أن هذا العمل ينال رضا والده أيضا عن طريق المعبودات . ويتر هذا الدرج البردى الذي دقن فيه جلالته أعمال والده من أهم السجلات التاريخية التي عثر عليها للآن وهو يحوى قائمة بالأعمال الخيرية الكبيرة التي فعلها رمسيس الثالث للمعبودات العظمى آمون (معبود طيبة) ورع (معبود عين شمس) وبتاح (معبود منف) وكذا المعبودات الأخرى الصغيرة والأعمال الحربية والعطايا والهبات التي أغدقها على الرعية . ويبلغ طول هذا الدرج مائة وثلاثين قدما وهو يحوى مائة وسبعة عشر نهرا من الكتابة طول كل نهرا اثنا عشرة بوصة تقريبا . ويعرف هذا الدرج الآن بقرطاس هريس (Harris) وهو أكبر قرطاس وصل الينا من العهد الشرقى القديم^(١) . ولما كانت الأملاك والأوقاف المذكورة بهذا القرطاس والمحبوسة على معبودات مصر عظيمة جدا أيام تولى رمسيس الثالث على مصر استنتج أن جلالته لم يجد بدا من الاعتراف وقتئذ بها كما استنتج أيضا أن معابد مصر استنزفت جزءا عظيما من ثروة مصر كما ألمعنا الى ذلك سابقا . وقد وضع هذا القرطاس العظيم الحاوى لأعمال رمسيس الثالث الخيرية مع مومبااه بمقبرة منفردة بوادى الملوك . ولا مرء في أن الغرض الأصيل من كتابة هذا القرطاس استجداء الشفقة والرأفة من المعبودات الى رمسيس الثالث ، فالدعوات الكثيرة الواردة بالدرج البردى المذكور مقولة على لسان رمسيس الرابع لأجل والده تكفى لاستنرار رحمة المعبودات للوالد وإطالة مدة حكم الابن كثيرا في مقابلة هذا العمل الخيري . ولا يبعد أبدا أن يكون السبب الأخير من أقوى العوامل لكتابة ذلك السجل العظيم ، خصوصا وأن فراعنة مصر وقتئذ كانت تتكل كثيرا على تأثير مثل هذه السجلات أكثر من اتكالمهم على أنفسهم . وعليه فالقرطاس المذكور كان هاما جدا وقتئذ . ومما يثبت ما استنتجناه الدعوات التي نقشها رمسيس الرابع لأزوريس بالعراية في السنة الرابعة من حكمه واليك ترجمتها :

”اجعلنى (أيها المعبود) طويل الحكم بقدر ضعف حكم رمسيس الثانى المعبود العظيم . كيف لا وقد نقتنه فى الأعمال والخيرات العظيمة لمعبدك حيث قدمت لك القرابين والهدايا المختلفة كل يوم ، فأصبحت الهدايا التى قدمت لك فى الأربع السنوات من حكمي أكثر من التى قدمها رمسيس الثانى المعبود العظيم فى مدة حكمه البالغ سبعا وستين سنة“ (١) .

هذه الطريقة تمكن الكهنة من ابتزاز ما رغبوه من الفراعنة مؤكدين لهم فى الوقت نفسه أن معبودهم سيهب لهم حكما طويلا وأن المعبودات ستشملهم برطابتها .

أما الحية التى تولدت فى نفوس المصريين أثر غرزا الهيكسوس فقد انعدمت بل صارت فى خبر كان واستعوضت الآن بمقائد فاسدة دينية وسحرية ، وهكذا تغلب الجهل والضعف على الحكمة والروية . ومن ذلك الوقت سارت سفينة السياسة المصرية فى طريق أوجح خطير يقضى الى الدمار ، لأن السلطة التنفيذية أخذت تخضع تدريجيا للسلطة الدينية فلم تعد هناك صعوبة على رئيس كهنة آمون أن يقتصب الملك وينفرد بالحكم انا ما سنحت القرص .

اذا كان الأمر كذلك فليس بالغريب أن يكون كل ما نعرفه عن أعمال رمسيس الرابع يتعلق بإرضاء المعبودات فقط . فى السنة الثانية من حكمه توجه جلالاته شخصيا الى مجاور وادى الحمامات مع بعثة للبحث عن أحجار جيدة لتشييد معبده . وقد استغرقت هذه الرحلة مسير خمسة أيام تقريبا فى الصحراء من وادى النيل . وبعد ذلك بسنتين أرسل جلالاته الى تلك الجهة أيضا تجريدة عظيمة مؤلفة من تسعة آلاف رجل للفرض نفسه ، ودلتنا الآثار أنه مع الاحتياطات العظيمة التى اتخذت لهذه البعثة من حملة للأمتعة واستعمال عشرات عجلات يجر كل منها ستة ثيران فقد توفى منها ما ينيف على تسعمائة نسمة من شدة القيظ والتغيرات الجوية ، وبذلك تكون الخسارة ١٠٪ تقريبا من عدد الأنفس (٢) . ولم نهند للآن الى المحل الذى استعملت فيه الأحجار المقطومة من وادى الحمامات والتى سببت هذه الخسارة الأدمية الجسيمة ، وكل ما بقى من آثار رمسيس الرابع هو امتداد الحجر الخلقى لمعبد خونسوبطيه ، وكذا القاعات الصغيرة ذات العمدة التى بدأ والده بنائها قبل ذلك بمدة يسيرة (٣) . ودام حكم هذا الملك ست سنوات تقريبا لم يقم فيها بأعمال تذكر ثم تولى بعده رمسيس الخامس (وهو ابنه على الأرجح) وذلك عام ١١٦١ قبل الميلاد . وفى عهد هذا الملك وقف العمل فى مجاور ومناجم طورسيناء ، لأن أحراس فرعونى وجد هناك هو اسم رمسيس الرابع . وتوفى هذا الملك بعد حكم قصير فتبعه فى الملك رمسيس السادس الذى يغلب أنه حفيد رمسيس الثالث من ابن آخر .

ويظن أن رمسيس السادس اغتصب الملك من نجل رمسيس الخامس لكن هذا الملك لم يعش طويلا تبعه فى الملك رمسيس السابع ثم رمسيس الثامن وهذان أيضا لم يحكما طويلا . وقد حفر هؤلاء الفراعنة مقابرهم بوادى الملوك بطيه وفوق ذلك لا نعلم شيئا عن أعمالهم (٤) ، وكل ما وصلنا عن أخبار تلك العصور يشير الى اضطلال عام بكيان الدولة ، لكن نقوش مقبرة بنو (Penno) مندوب

(١) ٤٧١: ٤ (٢) ٤٥٧: ٤ — ٤٦٨ (٣) ٤٧٢: ٤ (٤) ٤٧٣: ٤ ملاحظة

رئيس السادس بابريم ببلاد النوبة تشير الى أن الحكم المصرى هناك كان يانما وطيدنا بفضل مهارة الحكام المصريين الذين أقالوا السودانين من الوظائف وانفردوا بالحكم من آخر عهد الأسرة الثامنة عشرة . وقد عين بنو أفراد أسرته في الوظائف الكبيرة هناك والظاهر أن كثيرا من الأسر المصرية تزحت وقتئذ الى النوبة لمصرتها . وكان بنو رجالا ثريا فنصب تمثالا لرئيس السادس بمعد رمسيس الثانى بالدزوحس عليه ايراد ست قطع ارض ، فكافاه الملك على ذلك بهدية ثمينة عبارة عن آيتين فضيتين باهى بهما بنو ونقش خبرهما على قبره (١) .

والمعروف أن العرش المصرى انتقل بين أيدي الرماسة عدة مرات في ظرف ٢٥ أو ٣٠ سنة بعد وفاة رمسيس الثالث وأن آخر ملك في تلك المدة هو رمسيس التاسع . وحصلت كل هذه التغيرات في العرش في حياة رئيس كهنة مدينة الكاب الذى كان موظفا في الأعياد التى أقامها رمسيس الثالث (٢) . أما رئيس كهنة آمون بطيبة أيام رمسيس التاسع فكان يدعى أمحتب وهو ابن رئيس كهنة آمون في عهد رمسيس الثالث والرابع المدعو رمسيس نخت (٣) . ولا يخفى أنه في عهد الرئيسين أمحتب ورمسيس نخت تولى عرش مصر ستة رماسة ضعاف لم يستمروا طويلا وكان همهم المحافظة على مركزهم . وزادت ثروة أمحتب رئيس الكهنة في تلك المدة كثيرا فأصلح مائة الطعام والمطبخ بمعد الكرنك الذى شيده سيزوستريس الأول منذ ثمانمائة سنة تقريبا (٤) ، وصرف أمحتب على هذا الاصلاح بسطاء وكرم أظهره كثيرا في أعين الناس . واستعمل أمحتب فرعون مصر آلة لجمع الخيرات والهدايا ، ففي السنة التاسعة من حكم رمسيس التاسع دعا جلالة أمحتب هذا الى الساحة الكبرى الأصلية بمعد آمون بطيبة فحضر هذا الكاهن مصحوبا بأعوانه وأقرانه وتسلم من ملكه هدايا عظيمة من أوان ذهبية وفضية وحل وأدهان ثمينة قدمها اليه صف طويل من الجنود الملكية . قارن ذلك بتلك الأيام التى كانت تقدم فيها أمثال هذه الهدايا مكافأة على الإقدام والشجاعة في الحروب السورية ، وهكذا اقبلت الحال فأصبحت هذه الهدايا تعطى للكهنة لضمان سلامة العرش المصرى وإطالة الحكم الفرعونى . والأغرب من هذا ما قاله رمسيس التاسع الى أمحتب وقت اغداقه بالهدايا فقد خاطبه بصيغة كلامية لا تقال الا من شخص وضيع الى سيد كبير . وأخبر الملك رئيس كهنته أن هناك أموالا كانت تجمعا الخزانة الملكية لتدفعها الى معبد آمون فيجب من الآن فصاعدا أن تورد مباشرة الى خزانة آمون بدلا من توريدها أولا الى خزانة الدولة . وهذه العبارة في الحقيقة غامضة لكن يفهم من مضمونها أن جلالة سمح لكتابة معبد آمون أن يجبوا أموال المعبد بأنفسهم بدون تدخل الحكومة ، وبعبارة أخرى أن جلالة سمح لتقود كهنة آمون بأن يتند الى بعض شؤون الدولة . وسجل أمحتب المذكور هذه الانعامات الملكية السابقة مرتهن على جدر الكرنك وزاد عليها ما شيده من العمارات (٥) وشمل هذه النقوش برسوم بارزة تمثله بحجم كبير كالملك الذى ينعم عليه بالهدايا والهبات ، ويعتبر هذا أول رسم من نوعه في التاريخ المصرى القديم إذ لم يسبق لأى

(١) ٤٧٤:٤-٤٨٣ (٢) ٤١٤-٤١٥ (٣) ٤٨٦:٤ ملاحظة (٤) ٤٨٨:٤ ملاحظة

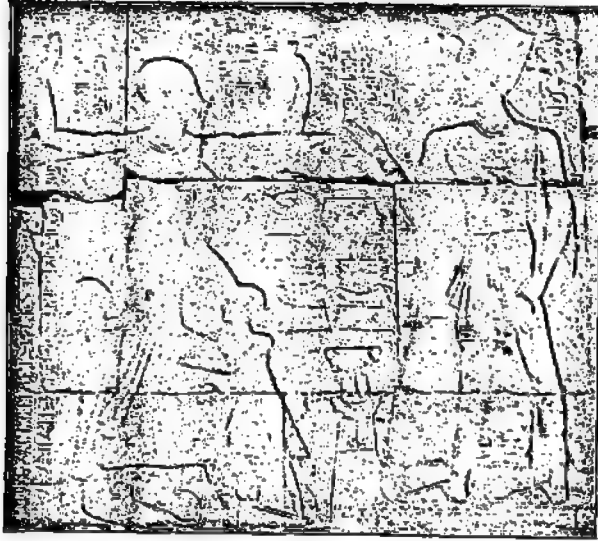
(٥) ٤٨٦:٤-٤٩٨

موظف مصرى أن يمثل بهذه الكيفية ، لأن العادة المتبعة من قديم الزمان أن أفراد الرعية يسمون دائماً صغار الحجم بالنسبة لقراعتهم ، أما الآن فقد ساوى نفوذ أمنحنب نفوذ الملك دينا وسياسيا ولذلك رسم مساويا له حجما . ومعلوم أن رئيس كهنة آمون كان له جنود خاصة ، فلما تدخل تدريجيا في المالية المصرية وصار له نفوذ عليها تجاسر على مقارنة نفسه بالملك . وطبيعى أننا لا نعثر في الآثار على ما يشير الى وجود حزازات ومشاحات بين هذا الكاهن وفرعون مصر ، وكل ما بلغنا عن ذلك ما جاء في رواية أفضت بها امرأة مصرية وقت التحقيق معها في سرقة حصلت بمثل والدها في عهد رمسيس التاسع حيث قالت ان تلك السرقة " حصلت وقت الثورة التي أشعلها رئيس كهنة آمون " (١) .

وتدلنا المكتابات الرسمية الخاصة بيجانة طيبة التي وصلت اليها من عهد رمسيس التاسع على مقدار انحطاط نظام القطر الداخلى وقتئذ (٢) . وقد سبق أن قلنا أن الفراعنة هجروا طيبة واتخذوا الوجه البحرى مركزا لإقامتهم منذ مائتى سنة تقريبا ، لكنهم استمروا رغم ذلك على دفن موتاهم بطيبة . وجرت العادة أن القوم كانوا يدفنون مع موميات قراعتهم الحلى التي كانت يتقربا بها هؤلاء الحكام في دنياهم . وقد ألعنا سابقا الى أن كبار ملوك الامبراطورية اختاروا الوادى الغربى لطيبه وهو في وسط الصحور الجبلية جبانة لجتهم المحلاة بما عاد عليهم من الثروة من المستعمرات الآسيوية ، فلما ضعفت القوة الحاكمة وعجزت عن صيانة هذه القبور ومحتوياتها من ألبدى اللصوص كثر نهبها وسلبها ، ففى السنة السادسة عشرة من حكم رمسيس التاسع سلب اللصوص أمتعة بعض المقابر الملكية المقابلة لصحور طيبة الغربية كقبرة الملك سبك إم ساف (Sebekemsaf) أحد ملوك الأسرة الثالثة عشرة (٣) فاقصدها هؤلاء الجناة وسرقوا أمتعتها وأثاثها وعبثوا بمومياء الملك وزوجته بجنا وراء حليهما الملكى . وقد ضبط اللصوص وقتئذ وعوقبوا على ذلك لكن يتضح لنا من مجرى التحقيق أن المحققين أنفسهم لم يكونوا عفاف النفس . بعد ذلك بثلاث سنوات (أى لما أشرك رمسيس التاسع ابنه رمسيس العاشر معه فى الملك قبض على ستة أشخاص بتهمة نهب قبرى سيقى الأول ورمسيس الثانى ، وهذا يدل على أن اللصوص ازدادوا جرأة فتركوا مقابر سهل طيبة الغربى وولوا وجههم نحو مقابر الوادى الغربى ، وهكذا وقع قبر رمسيس الثانى فريسة السلب والنهب كما فعل صاحبه بأهرام سيزوستريس الثانى باللاهون . بعد ذلك نهب مقبرة إحدى ملكات سيقى الأول ثم مقبرة أمنحنب الثالث العظيم . وخلاصة القول أنه لم تمض عشرون سنة على هذه الحالة الا وأصبحت جميع المقابر الملكية بطيبة من ابتداء الأسرة الثامنة عشرة الى آخر الأسرة العشرين منهوبة تقريبا ، ولم نعثر الآن على جثة واحدة نجت من تلك الجرائم الا جثة أمنحنب الثانى التي وجدت في تابوتها الأصلي رغم نهب قبرها . وهكذا صارت موميات ومقابر ملوك مصر العظام تسلب ونهب بلا شفقة ولا احترام ، فى الوقت الذى كانت تتصدع فيه أركان الامبراطورية المصرية التي شيدها هؤلاء الحكام .

ولم تصل اليها معلومات ما عن تاريخ رمسيس العاشر سوى ما تعلق بسرقة المقابر الملكية . أما رمسيس الحادى عشر فجهل كلية جميع أخباره . ولما تولى رمسيس الثانى عشر الملك هوى العرش

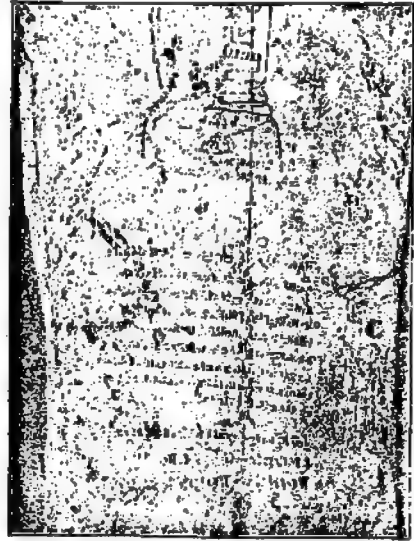
(١) ٤٨٦: ٤ (٢) ٤٩٩: ٤ - ٥٥٦ (٣) راجع اعتراضات اللصوص السابقة صحيفة ١٣٨



شكل ١٧٧ - أمنحوتب رئيس كهنة آمون يقبل انعام ويسيئ التاسع .
 يلاحظ أن رسم هذا الكاهن (ال اليسار) يتبادل في الحجم مع رسم الملك
 (ال اليمين) الأمر المخالف للعادات القديمة المرجحة



شكل ١٧٩ - مخبأ الدير البحري وترى فتحة هذا الخبأ
 كمنطقة سوداء في آخر الطريق المبتدئ من الحجر
 (انظر صفحة ٢٥٥)



شكل ١٧٨ - ملاحظات كاتب على تابوت ستنى
 الأول تشير الى تنقلات المزياء حتى وضعها الأخير
 في مخبأ الدير البحري في عهد حكم الكهنة ملوك
 الأسرة الحادية والعشرين.

الفرعونى وحصل في البلاد انقلاب حكومى عظيم لا يزال تحت البحث والاستيضاح . واليك بيان ما وصلنا الى معرفته منه :

قبل أن يتم رمسيس الثانى عشر خمس سنوات على عرش مصر استقل الوجه البحرى بأجمعه تقريبا تحت سلطة أحد أعيان تيس المدعو نسوبانبد (Nesubeneded) المعروف عند اليونان بسمنديس (Smendes)^(١) . وقد كانت حركة انفصال الدلتا كبيرة وكثيرة الشبه بما عمله وزير رمسيس الثالث المجهول الذى شق عصا الطاعة على مليكه جهة بنا (Athribis) ، لكن رمسيس الثالث كان يقظا فأخضع التأثير بسرعة وأزل به القصاص^(٢) . أما رمسيس الثانى عشر فكان ضعيفا قليل النفوذ سجا أن أحوال البلاد تغيرت كثيرا عما كانت عليه أيام رمسيس الثالث ولذلك لم يجد جلالة بدا من التقهقر الى طيبة والاحتفاظ بالوجه القبلى . ويرجح جدا أن انتقال جلالة الى طيبة حصل قبل انفصال الدلتا عنه ، وعلى كل حال فاستقلال الوجه البحرى فصل طيبة عن البحر الأبيض المتوسط وحال بينها وبين آسيا وأوربا ، وبدى أن الوجه البحرى أصبح معاديا للوجه القبلى وقتئذ . ثم اتنا أشرنا الى أن رئيس كهنة آمون بطيبة كان ذا نفوذ عظيم وثروة طائلة جعلاه بمثابة حاكم قسم طيبة الأعظم دينا وسياسيا ، ولذلك لما عاد رمسيس الثانى عشر الى طيبة اتحد هو ورئيس كهنة آمون وتعاونوا معا فى بسط نفوذ جلالة على الوجه القبلى وبلاد النوبة .

وقد عرفت سورية بسرعة تغير أحوال البلاد الداخلية المصرية حتى قبل انفصال الوجه البحرى بمدة . لذلك أخذ الكاليون وأهالى كريت يشنون الغارة ثانية على سوريا بعد ما وقفهم رمسيس الثالث بهجانه وقسوته مدة من الزمن ؛ فزحف هؤلاء القوم جنوبا طاردين أمامهم أهالى آمور وما بقى من أهالى الحثيين حتى بلغوا فلسطين حيث التقى بهم بنو اسرائيل بعد ذلك بمدة . وهكذا تمكن الكاليون من تشكيل مملكة مستقلة جهة دور (Dor) جنوبى كرهل بعد ما هزمهم رمسيس الثالث بنحو خمس وسبعين سنة^(٣) . ولما لم ترد عن هؤلاء القوم إشارة فى أخبار بنى اسرائيل لا يبعد أنهم تفرقوا واختلطوا مع أهالى فلسطين القاطنين بالأراضى الممتدة من بيت شين (Beth-Shean) بوادى الأردن الى الغرب والجنوب بما فى ذلك من سهل يزدك ويمتد حتى ساحل البحر الجنوبى ، فقطعوا بذلك حلقة الاتصال بين قبائل بنى اسرائيل الجنوبية والشمالية . واستدل من أوانى هؤلاء القوم الخزفية التى عثر عليها بجهة لاكش (Lachish) وجازر أنها من كريت ، ثبت بذلك صحة رواية اليهود من أن الفلسطينيين قوم أتوا من جزيرة كريت^(٤) . ثم ازدادت هجرة الفلسطينيين من كريت فأخذوا يتأهبون لسحق الاسرائيليين كما فعلوا بأهالى آمور . وذلك قبل أن يتمكن رؤساء الاسرائيليين من جمع كلمة أهالى فلسطين وانشاء أمة سامية منهم . ويرجح جدا أن هؤلاء الفلسطينيين الحريين الذين أتوا من شمالي البحر الأبيض المتوسط امتنعوا عن دفع الجزية لمصر بعد وفاة رمسيس الثالث بقليل (حوالى سنة ١١٦٧ قبل الميلاد) لأنهم وصلوا وقتئذ الى حدود مصر تقريبا .

(١) ٤ : ٥٥٧ و ٥٨١ (٢) راجع صحيفة ٣٣٥ (٣) ٤ : ٥٥٨ (٤) أربا ٤٧ : ٤ و طاموس ٩ : ٧

ومما يثبت لنا تغير الأحوال بأسيا أنه في عهد رمسيس التاسع (سنة ١١٤٢ - ١١٢٣ قبل الميلاد) اعتقل حاكم بيلوس (جيبيل) رسلا مصرية لمدة سبع عشرة سنة دون أن يسمح لهم بالرجوع الى مصر حتى ماتوا (١) . ومن ذلك يتضح لنا أن أمراء سوريا لم يعودوا يظهرزون أقل احترام لنفوذ فرعون مصر بعد وفاة رمسيس الثالث بعشرين أو خمس وعشرين سنة . وللاحظ أن هؤلاء الحكام كانوا يقدمون الهدايا والضرائب لآمون في المعبد الذي شيده هذا الفرعون العظيم بسوريا وقت حياته ، أما الآن فقد أصبح كل ذلك في خبر كان .

ولفتنا وصف لأحوال سوريا أيام رمسيس الثاني عشر يقول عن لسان رسول مصرى يدعى وينامون (Wenamon) أوفد باذن من المعبود الى بيلوس جنوبي لبنان لإحضار خشب الأرز اللازم لبناء سفينة آمون المقدسة . وكان هذا الرسول حاوى الرفايع لا يملك سوى دراهم ذهبية وقضية معدودة أعطاها إياه رئيس كهنة آمون المدعو حريحور (Hrihor) ، ولقلة هذه النقود أرسل الكاهن مع الرسول تمثالا للمعبود آمون يدعى "آمون الطريق" ليؤثر به في حاكم جيبيل بأنه يطيل عمره وسببه الصحة والعافية فيجمع بذلك الأموال اللازمة لإحضار الخشب المطلوب . ورتد حريحور رسوله المذكور بخطاب الى ملك الوجه البحرى المدعو نسيو بانيدد ليسهل له السفر ويجهز له سفينة ربانها سورى لتقله الى سوريا . ولا يمكن أن يتصور القارئ مثلا أوضح من قصة هذا الرسول وينامون التي انتهت بلا نزاع ما وصلت اليه مصر وقتئذ من الضعف والانهطاط . واليك بيان تلك القصة :

لما أوفد وينامون للقيام بالمهمة المذكورة كان وحيدا لا يملك أوراقا رسمية أو سفنا مصرية رسمية ، كما أنه كان قليل المال لا يعتمد في مهته الا على مجد مصر التالذ وعزها السابق . وظن وينامون أن مجرد ذكر ذلك الى حاكم مدينة جيبيل يكفى لإقناعه بوجوب مساعدته لتنفيذ مهمته ، لكنه لما وصل وينامون الى مدينة دور سمرقت تقوده فعمد الى حاكم المدينة التكالى الأصل وقص عليه ما حصل له فرفض مساعدته واضطر وينامون أن يمكث بدور مدة تسعة أيام بلا جدوى . بعد ذلك سافر الى جيبيل بطريق صور وقد أخذ معه كيسا مملوا بالنقود الفضية من الشكاليين نظير ما لحقه من الضرر بدور ، لكنه لم يكده يهبط جيبيل حتى أمره حاكمها المدعو زكريبل (Zabar Baal) بتركها دون أن يراه . اعتبر هذه المقابلة الجافة المزرية لرسول مصر في بلاد فينيقيا ولم يمض على وفاة رمسيس الثالث خمسون أو ستون سنة . وقد هم وينامون بالعودة الى مصر ثانيا لكن أهدأ أمناه زكريبل دفنته النخوة الدينية فقام بين قومه وحثم على معاملة هذا الرسول بالشرف وبإعطائه ما يطلبه وترجيله الى وطنه . ويعتبر هذا أقدم مثل للعاملات الدينية الواردة بسفر العهد القديم من الكتاب المقدس التي تمكن بها وينامون من مقابلة زكريبل . واليك ترجمة ما قال وينامون عن مقابله لذلك الحاكم :

"لما حل الصباح أرسل الى يطلبنى للثول بين يديه ، وكان ذلك وقت تقديم القران بالقلعة الكائنة على شاطئ البحر ، فوجدته جالسا في القاعة العليا ساندا ظهره الى نافذة الحجر وأمواج البحر

السوري العظيم تتلاطم خلفه على الشاطئ . فسأمت عليه قائلاً "سلام من آمون!" فأجابني "كم يوما أمضيتها في سفرك منذ تركت معبد آمون" فقلت له "خمسة أشهر ويوما واحدا الى الآن" .
ثم سألتني : "اذا كنت صادقا فأين كتاب آمون ؟ هل هو في يدك ؟ هل عندك كتاب من رئيس كهنة آمون ؟"

فأجبتني : "انني قد أعطيت ذلك نسوبا نبند " فاستشاط غيظا وقال يحق : "ليس معك خطاب ولا مكتابة ! أين هذه السفينة المصنوعة من خشب الأرز التي أعطاه اياك نسوبا نبند وأين رجالها السوريون ؟ ان نسوبا نبند لا يمكن أن يسمح لك بأن تؤدي هذه المهمة مع قبطان سوري يجوز جدا أن يقتلك أو يريك في البحر ! خبرني من أين اذن يمكنهم احضار تمثال معبودك هذا ؟ ثم أين كانوا يعثرون عليك ؟"

فأجبتني : "ان لدى نسوبا نبند سفنا مصرية وبجارة مصريين لكن ليس لديه بجارة سوريون" .
فأجابني : "عندي حقيقة بهذه الميناء عشرون سفينة تبع نسوبا نبند وأيضا بميناء صيدا حيث يحتمل أن تذهب اليها عشرة آلاف سفينة تبع بركت إل (Berket-El) يغلب أنه تاجر من مدينة تيس بالوجه البحري - وهذه ستسافر الى منزله" .

فسكت في تلك الساعة الرهيبية ولم أدر بماذا أجيب . ثم سألتني "لماذا أتيت الى هنا ؟"
فأجبتني : "أتيت لأخذ خشبا لسفينة آمون رع العظيمة ملك المعبودات وقد عمل والدك ذلك من قبل . وأنت أيضا مستقوم بالعمل نفسه" .

فأجابني : "حقيقة لقد عمل مثل هذا العمل سابقا . أما الآن فلا أعجل شيئا ما لم تأجرني عليه . أن عمالي هم الذين يديرون أشغالي . لقد أرسل الى فرعون مصر ست سفن مشحونة بضائع مصرية أفرغت كلها بالمخازن . فاذا أردت أنت شيئا مني فلتعطني أجرة أيضا" .

بعد ذلك أمر باحضار سجل أعمال والده نقرى أمامي فوجد أن والده أرسل ألف دين (Deben) (أى ٢٤٤ رطلا) من كل نوع من الفضة الى مصر ثم قال لي : "اذا كان حاكم مصر هو مالك ثروتي وندت أنا خادمه فلا يمكن أبدا أن يرسل لي الذهب والفضة ويقول لي أنجز مطالب آمون ! ان النقود التي أرسلها والدي الى مصر سابقا ليست جزية ! وأنا على يقين بأنني لست خادمك ولا خادم من أرسلك . اعلم أنني لو طلبت شيئا من لبنان تفتح السماء فتجد الأخشاب التي ترجوها على الشاطئ ! أرني القلاع التي أحضرتها معك لتسير السفن التي تحمل الأخشاب لمصر ! أرني الحبال التي أحضرتها لتوثق بها كل الأخشاب التي أسقطها لك حتى لا تبعثر منك ! ما ذا تعمل اذا رعد آمون في السماء وقامت في البحر عليك طاصفة تفرقك وخشبك ! أنا أقربان آمون هو المنعم على الأراضي كلها ، وهو الذي أنعم على مصر قبل كل البلاد ، ومنها أتيت الى هنا ، فصناع مصر أتوا الى وكذا العلوم والمعارف أتت الى محل اقامتي من مصر . فما معنى هذا السفر السخيف الذي أمروك بالقيام به !"

فأجبتة : "يا أتم ! سفرى هذا ليس سخيفا . اعلم أنه لا توجد سفينة على نهر الاو وعلمكها آمون . واعلم أن هذا البحر ملكه أيضا . ولبنان كذلك رغما مما تدعيه بأنها ملكك ! فاشجارها تنبت لأجل سفن آمون المقدسة رب كل سفينة . لقد قال آمون رع الى سيدى حريحور رئيس الكهنة "أرسلنى" فأرسلنى سيدى حاملا هذا التمثال "آمون الطريق" . اسمع ! لقد جعلنى أمكث بهذه المدينة تسعة وعشرين يوما مع علمك بوجود هذا المعبود هنا . ان هذا المعبود لا يزال كما كان رغم معارضتك لإرادته وهو سيد لبنان . أما قورك ان ملوك مصر الأقدمين أرسلوا الذهب والفضة ثمنا لما طلبوه منك ، فاعلم أنهم فعلوا ذلك بدلا من الإتمام عليك "بالحياة والصحة" ، اذ لو كانوا وهبوا لك "حياة وصحة" ما أرسلوا اليك ذهبا وفضة . أما آمون رع فهو إله الحياة والصحة وهو سيد أجدادك الذين أمضوا حياتهم يقدمون له القرابين والهدايا . وأنت أيضا خادم لآمون ، فأنا قلت لآمون سأنجز رغبتك ! سأنجز رغبتك ! ونفذت ذلك تماما فانك تتحج وتعيش طويلا وتتم بصحة جيدة وتكون محبوبا في بلدك وعند كل رعيتك . لا تحفظ لنفسك شيئا هو ملك آمون رع ملك المعبودات . حقيقة ! ان الأسد لينود عن أملاكه ! احضر لى كاتى وأنا أرسله الى نسوبا بنبد وزوجته تلت آمون (Tentamon) اللذين أعطاهما الوجه البحرى وهما يميان طلي قائلين "ليحضره كل ما يطلبه" فإذا ما وصلت الى الوجه القبلى سددت لك كل ما على من الديون" هكذا أجبتة .

لا بد أن القارئ استرجع أشياء كثيرة من هذه القصة الغربية . من ذلك اعتراف الحاكم الفيليني بجلاء ووضوح ما تدعى به بلده من العلوم والحضارة لمصر وما كان لمصر عليها من السلطة والنفوذ . لكن يلاحظ أن هذا الحاكم رفض في الوقت نفسه الاعتراف بسلطة مصر عليه وتتصل جهارا من كل سلطة لفرعون على بلده . ومما يجدر ملاحظته أيضا أن ذكر بل تكلم عن "حاكم مصر" ولم يستعمل لفظ "فرعون" إذا أراد الحاضر أما اذا عنى الماضى فإنه يستعمل اللفظ الأخير . فما معنى هذا ياترى ؟ لا شك أن القارئ أدرك السر في هذا الأسلوب الكلامى لكن هذا لا يمنعنا أن نشرحه له حتى يكون على المسامح جميع مباحثه .

معلوم أن مصر ليست بلادا حربية بطبيعة حالها ولما يوجد بين أهلها من يجب الكفاح والنضال . فلما حكم القطر فراعة أقوياء مدفوعون بعامل الفتح والاستعمار أثر الضغط الأجنبي اضطرت الرعية أن تنفذ ارادة حكامها . لكنه لما انقضى جيل هؤلاء الفاتحين نهدت الروح العسكرية بالبلاد ورجعت المياه الى مجاريها وأصبح القوم يفتخرون بأعمال أجدادهم بشكل يبعث في النفوس الشفقة والرأفة لما أصاب وطنهم من الحزن . ومما يجدر ملاحظته أيضا أن ويتامون لم يرتكن في محادثته مع حاكم بيلوس إلا على الأمور الدينية المحضة ، فلم يتعرض لأمر سياسى قط مما يتفق هو وعلاقة مصر بآسيا وقتئذ وما آلت اليه أحوال القطر المصرى . وبهذه الكيفية صار الرسول المصرى يطلب من الحاكم الفيليني ما يلزمه من الخشب شفها قائلًا له ان تمثال آمون الذى معه "يطيل عمره ويهب له الصحة" اذا هو أنجز ما موريتسه . قارن هذا بما كانت عليه الحال أيام تحوتمس الثالث وسبقى الأول لما كانت كلمة واحدة منهما كافية لإحضار ما يشاءان، والسر في ذلك يرجع الى

وجود الجيوش الحاررة المستعدة لتنفيذ أوامر فرعونها بلا تردد ولا تدلل . وبديهي أن تمثال "آمون الطريق" كان أقل تأثيرا في نفس زكربعل من الجيوش الفرعونية في نفوس أسلافه . وليلاحظ أيضا أن هذا الحاكم الفينيقي لم يعط وينامون خشبا الا بعد وصول رسل من مصر بناء على طلب وينامون حاملين بعض أوان فضية وذهبية وبعض أقمشة جميلة وأدراج بردية وجلود وحبال . والظاهر أن زكربعل أراد أن يظهر حسن نيته لوينامون فوضع بعض الأخشاب الثقيلة في فرار السفينة قبل مجيء رسل مصر .

ولما هم وينامون بالرحيل الى طيبة وشحن الخشب في سفينته ذكره زكربعل بما حصل للرسل المصريين سابقا لما حجوزوا حوالي سبع عشرة سنة في بيلوس حتى توفوا . ولم يكنف الحاكم الفينيقي بذلك بل عرض على وينامون أن يطلعه على قبورهم فرفض وينامون طبعاً هذه الدعوة خوفاً ووجلاً ثم أجاب قائلاً :

"اعلم أيها الحاكم أن تلك الرسل أتت من قبل آدميين . أما أنا فأتيت من قبل المعبود آمون الذي أصبح الآن راضياً عنك ومعظماً إياك لكريمك" .

بعد ذلك وعد وينامون بدفع الباقي عليه وسار بالسفينة نحو مصر ، لكنه ما كاد يترك الشاطئ حتى اعترضته إحدى عشرة سفينة ثكالية معها أوامر بالقبض عليه لا لسبب سوى استرداد الفضة التي أخذها من الثكاليين وقت مروره بمدينة صور على طريقه لبيلوس . عندئذ فقد وينامون كل رجاء وألقى بنفسه على الشاطئ بايكا فأشفق القوم عليه حتى زكربعل نفسه الذي أخذ يطمئنه وأرسل إليه نبيذا وطعاماً وغانية مصرية تفرج عنه الهموم . وفي اليوم الثاني حجوز أمير بيلوس سفن الثكاليين حتى هرب وينامون في سفينته ، لكن عاصفة هبت على البحر أضلت الرسول المصري الطريق وقذفت بسفينته على شاطئ قبرص ، فاجتمع عليه أهالي الجزيرة وهما بقتله بجوار قصر الملكة هاتيبا (Hatiba) حاكمة قبرص . ومن حسن حظ وينامون أن صادف انتقال هذه الملكة وقتئذ من قصرها القريب من الحادثة الى قصر آخر فاعترضها وينامون في الطريق ووجد شخصاً قريباً يجيد المصرية فرجاه وينامون أن يفهم الملكة حاله قائلاً : "قل لسيدتي أنه بلغنا حتى في طيبة أن الظلم والحيف حاصل في كل بلد ما عدا قبرص (Alasa) . لكنني تحققت الآن أن الظلم يحصل هنا أيضاً كل يوم" فأجابته الملكة في دهشة "هل هذا صحيح ؟ ماذا تقول أيها الرجل ؟" فأجابها وينامون قائلاً : "كنت مسافراً بالبحر فهبت على عاصفة قذفت بي الى هذه الجزيرة فأراد أهلها قتل وأنا رسول آمون ولن يندر قومي جهداً للبحث عني وتخليصي . أما بحارة حاكم بيلوس الذين معي في السفينة فاني أؤكد أن ذلك الحاكم لا يعدم وسيلة في إيجاد عشرة من بحارة قبرص يقتلهم تشفياً وانتقاماً اذا ما تعرض سكان جزيرتك لهم" . بعد ذلك طلبت الملكة مقابلة بحارة سفينة وينامون وأمرته بالذهاب والنوم مستريحاً .

الى هنا انتهت معلوماتنا عن هذه الرحلة ومنها يلاحظ أن الرسول المصري مجزعن صيانة نفسه . وقد كان ذراعتة مصر السابقون يحققون مع ملك قبرص (الذي كان تابجا لم) عن كل تمد يحصل على أى مصرى بتلك الجزيرة . ويلاحظ أيضا أن وينامون لم يذكروا الملكة قبرص شيئا من فرعون مصر في حين أنه هددها بانتقام أميريلوس ومصر معا .

ان الانسان لا يكاد يصدق حصول هذه التغيرات في مدة يسيرة لا تتجاوز أربعين سنة بعد وفاة رمسيس الثالث ذلك الفرعون الذى هزم أساطيل سكان البحر الأبيض المتوسط مجتمعين في معركة بحرية هائلة في المكان نفسه الذى أهين فيه وينامون . وتعتبر رواية وينامون هذه أكبر برهان على اضمحلال نفوذ المصرى في تلك الجهات الأجنبية^(١) وعلى سرعة انحطاط الدولة الداخلى في المدة اليسيرة التى حكمها خلفاء رمسيس الثالث الضعاف . ويرجح بعض الأثريين أن ملك آشور المدعو تيجلات پيلسر (Tiglath-pileser) اقترب من مصر وقتئذ (حوالى عام ١١٠٠ قبل الميلاد) تخاف منه لسوبا بنيد ملك مصر وأرضاء بهدية وتمساح كي يتعد عنه ولا يمسه بسوء . هكذا اندم نفوذ مصر بسوريا تماما أما نفوذها على فلسطين فلم يكن الا اسميا تتناقله السنة رجال حاشية الملك فقط . وسرى أن ملوك مصر حاولوا استرداد تلك البلاد عدة دفعات بعد ما تألفت بها الملكة اليهودية .

لا يخفى أن الانقلابات الداخلية في القطر ألفت بطييه في طريق لامناس من ولوجه . أما هذه الانقلابات فمديدة ، منها ارسال رئيس كهنة آمون المدعو حريمور رسوله وينامون لإحضار خشب الأرز من فينيقيا للمعبود آمون بعد ما كانت الرسل ترسل بأذن فرعون . ثم زاد نفوذ هذا الكاهن في السنة التالية فأرسل بعض رجاله لإصلاح ما أفسدته أيدي النهايين لجتى سبتى الأول ورمسيس الثانى في السنة الأولى من حكم رمسيس العاشر^(٢) . وأكل حريمور بناء معبد خونسو (شكل ١٨٣) الذى بنى فيه رمسيس الثالث قدس الأقداس وبعض الحجرات الخلفية . أما عمارات حريمور التى شيدها بالمعبد المذكور فعبارة عن حوش وإيوان ذى عمد وصرح ، ولا تزال جدر هذه العمارات تشهد بتغيير أحوال مصر الداخلى الادارية ، فالنقوش والدعوات المكتوبة على أعلى جدر إيوان هذا المعبد الكبير سجلت على الطريقة القديمة وعلى الأسلوب المعبود للملكة القديمة . واليك ترجمة بعضها :

” إيجى الملك رمسيس الثانى حشرا لقد شيد لوالده خونسو المتطيب بطييه هذا الإيوان لأول مرة المسمى حامل التيجان واستعمل في ذلك الأحجار الجيرية الجميلة فازدان بها المعبد الى أبد الأبدين . ولم لا يكون ذلك وقد شيده رمسيس الثانى عشر ابن الشمس لهذا المعبود “^(٣) . أما أسفل جدر هذا الإيوان فيحوى نقوشا لم يسبق وجود مثلها في عهد فرعونى واليك ترجمتها :

” رئيس كهنة آمون رع ملك المعبودات قائد قوات جيوش الوجه القبلى والبحرى الرئيس حريمور الظافر ، لقد شيد هذا الأثر لأجل خونسو المتطيب بطييه فعمل له بذلك أول معبد من نوصه في أفق السماء... “^(٤) .

(١) ٥٥٧:٤ - ٥٩١ (٢) ٤:٥٩٢ - ٤ (٣) ٤:٦٠٢ (٤) ٤:٦٠٩

لا مرء اذن في أن هذا القائد لجيوش الوجه القبلي والبحرى هو الذى شيد هذا الإيوان . ومن غرائب هذا البناء أيضا أن النقوش البارزة على حافتي الباب الموصل ذلك الإيوان بجيوش المعبد تمثل المعبد محتفلا به وأمامه رئيس الكهنة حريحور يقود الاحتفال ويحرق البخور للمعبود ، وهو مركز كان يقوم بأعبائه فرعون مصر دون سواه ، ولذلك جاء رسم حريحور بالصفة المذكورة مخالفا العادة المتبعة على الآثار المصرية منذ آلاف السنين . والأدهى من هذا أن الدعوات والتوسلات الاعتيادية التي كان يقولها المعبد لفرعون مصر ذكرت على جدر معبد خونسو مقولة على لسان المعبد وموجهة الى الكاهن حريحور^(١) . وهذه حادثة تذكرنا تماما بما حصل أيام ذهبت سلاطين مصر الى بغداد وأحضرت الخليفة الى القاهرة وأبقته بها مدة قصيرة . وقد عثر على نص خطاب أرسله رمسيس الثاني عشر الى والى النوبة في السنة السابعة عشرة من حكمه استدل منه على أنه كان محتفظا بنفوذته هناك^(٢) . لكن الرسيمين الموجودين على باب معبد خونسو السالف الذكر يمثلان الكاهن حريحور في مركز وال في عهد رمسيس الثاني عشر بقاء هذا اثباتا لاحتكار هذا الكاهن لسلطة الملك على السودان أيضا^(٣) . وقد سبق أن ذكرنا عند الكلام على تاريخ أواخر أيام الأسرة التاسعة عشرة أن آمون وضع يده على مناجم الذهب بالنوبة^(٤) . والآن يتضح لنا أن حريحور رئيس كهنة هذا المعبد بسط نفوذه على أعلى النيل أيضا . وعثرنا أيضا على نقوش بمعبد خونسو تشير الى أن حريحور شغل وظيفة "مدير مخازن غلال الوجه القبلي والبحرى" وهو المركز الوحيد الذى يلى في الأهمية مركز رئيس المالية لأن الفصح كما لا يخفى أهم مصادر الثروة في مصر .

يتضح من ذلك أن رئيس كهنة آمون وضع يده على كل الأمور الادارية والدينية تقريبا ولم يبق أمامه شيء يستحق الذكر لأنه أصبح الآن قائدا لقوات مصر وواليا على كوش ورئيسا لغزاة ومشرفا على عمارات المعبودات . وبعد مضي سبع وعشرين سنة على حكم رمسيس الثاني عشر الاسمي كان كل شيء تقريبا ناضجا لتسلم حريحور رئيس كهنة آمون تاج العرش المصرى ، ففى احدى الحفلات الدينية اعترف المعبد خونسو بتولية حريحور ملكا على مصر ثم أيده في ذلك آمون فأصبح هذا القرار أمرا واقعا .

هذه القصة منقوشة باختصار وغموض على باب معبد خونسو^(٥) المذكور آنفا وتعتبر هذه النقوش الآن برهانا ساطعا على انتقال السلطة الحاكمة من فرعون الى رئيس كهنته . والزائر الآن لمعبد خونسو يتر في الإيوان الداخلى فيجد اسمى حريحور ورمسيس الثاني عشر منقوشين على جدره ، ثم يتر بالحوش الأمامى فلا يجد فيه أثرا لفرعون مصر بل يشاهد حريحور مرسوما بوضوح وجلاء مكتوبا اسمه في خانة ملكية مسبوقة بالألقاب الفرعونية . ومنذ ذلك الوقت بقى اسم رمسيس مستعملا بين الرعية اثباتا لقرابة حامله بالمامسة العظام دون اشارة الى سلطة أو نفوذ كما كانت الحال في الزمن السابق .

(١) ٦١١ : ٤ (٢) ٥٩٥ — ٦٠٠ : ٤ (٣) ٦١٥ : ٤ (٤) ٦٤٠ : ٤ (٥) ٦١٤ — ٦١٨ :

الفصل الخامس والعشرون

الكهنة والجنود المأجورة : سيادة الليبيين

أثر استقلال طيبة الديني كثيرا في كان الامبراطورية المصرية لأنه جاء بمثابة انهيار صرح مجدها وافتكاك عرى مملكتها ، وأصبح كهنة آمون يحكمون بأنفسهم لكن لم تتعد سلطتهم قسم طيبة وما حوله . وبالنسبة لبسط نفوذ الكهنة على جميع أنحاء القطر نشأت منازعات ومشاكسات داخلية نجم عنها اهتمام القطر وانحلاله ، وقد بدأ التغير منذ عهد نوبانيد وحر محور في أواخر القرن الحادى عشر قبل الميلاد واستمر نحو أربعين سنة . وتمادى حر محور في ادعاءاته فقال انه أصبح ملكا ذا سيادة مطلقة ، لكن هذا القول بعيد عن الصواب كثيرا^(١) . ولم يكن ذلك بل ازداد تجمعا وادعى أن نفوذه امتد الى سوريا حتى يعبد أمراء تلك الجهات له كل يوم خوفا من سلطته وبأسه العظيمين^(٢) . وقد أفادت الأخبار الواردة ضمن قصة ويتامون الشجاع الخاصة بسياحته الى مدينتى دور وبيلوس أشياء كثيرة عن أحوال تلك المصور . والمعروف أن حر محور لم يتبع سياسة الشدة والحزم ليخضع بها أمراء سوريا بل اكتفى بحكومة زمنية وروحية بسيطة جدا .

لقد تدخل آمون في شؤون الامبراطورية المصرية أيام حمتشسوت وحتوتس الثالث فلما الأخير عرش مصر كما أنه كلف حمتشسوت إقامة المسلات وارسال البعثات الى الصومال لإحضار الخيرات له ، لكن هذا التدخل حصل بصفة استثنائية فلم يكن مطردا ولا كثيرا . فلما تولى حر محور الحكم تدخل هذا المعبود في أمور الدولة بشدة لدرجة تحم أخذ رايه في كل شؤون المملكة ، فالأمر الذى يوافق عليه آمون كان يحرك له رأس تمثاله الى الأمام بقوة ويشفع ذلك بالنطق الإلهي . وزاد تدخل آمون فصارت وصايا ومواريث أفراد الأسر لرؤساء كهنة آمون تسجل بناء على طلب هذا المعبود^(٣) ، وهذه الكيفية انصبغت الأمور الأهلية بالصيغة الدينية .

ثم اتسع الخرق فأصبح آمون يصدر أمره بإرجاع المعتقلين السياسيين الى وطنهم ويفصل فى الجنائيات ويحكم بالإعدام على المجرمين . من ذلك أن موظفا بأحد المعابد اتهم بتبديد أموال معبده فحرقه أمام آمون ودقن الحكم فى سجلات ذكر بأحدها أن الموظف المذكور مذنب وكتب فى آخر أنه برى وترك الأمر للمعبود ، فأصدر هذا حكمة يتناول السجل الواردة فيه براءة المتهم وبذا برئت ساحة الموظف . والسبب فى ذلك أن رئيس الكهنة كانت له مصلحة فى الأمر فقدر هذا التدبير^(٤) . من ذلك يتضح أن رئيس كهنة آمون حكم البلاد بالشعوية بلا اعتبار العدل والقانون مستندا فى تنفيذ أوامره الى مساعدة آمون .

(١) ٦٧٠ : ٤ - ٦٧٤ (٢) ٦٢٣ : ٤ (٣) ٧٩٥ : ٤ (٤) ٦٧٠ : ٤ - ٦٧٤

ولما كان حريجور طاعنا في السن وقت توليه عرش مصر (عام ١٠٩٠ قبل الميلاد) لم يمض طويلا بعد رمسيس الثاني عشر، تبعه في الحكم ابنه باي عنخ (Payonekh) الذي كان أيضا طاعنا في السن فلم يحسر على الانفراد بالحكم ضد نسو بانبدد الذي أخذ بسط نفوذه لمدة قصيرة على القطر المصري. قال مانيتو ان نسو بانبدد التتيمي هو المؤسس للأسرة الحادية والعشرين، لكن هذا خطأ تاريخي يرجع سببه الى جهل هذا المؤرخ باستقلال طيبة وقتئذ (١).

وتوفي باي عنخ تبعه في الملك باي نزم (Paynozem) الأول (٢) الذي حكم في طيبة واستقل بها. في ذلك الوقت توفي نسو بانبدد تبعه في حكم تيسيس بسبب خنو (Pesibkhenno) الأول وهو على الأرجح ابنه. والمعروف أن باي نزم عجز عن استرجاع العرش المصري الذي استولى عليه جده، لكنه استعمل الشدة في حكمه بطيبة فأكل معبد خونسو وأصلح بعض المعابد القديمة (٣) وجمع جيش ملوك مصر المدفونة بمبانة طيبة الغربية بمقبرة سبتى الأول حفظا لها من عبث اللصوص (٤) والسبب في ذلك أنه عجز عن ابعاد اللصوص عن تلك المقابر فلجأ الى ما بلغا اليه أخيرا.

وركن باي نزم بعد ذلك الى طريقة سياسية ماهرة فاقترن بكريمة ملك تيسيس المدعو بسبب خنو الأول فلما توفي هذا عام ١٠٦٧ قبل الميلاد اعتلى باي نزم عرش مصر مستعملا في ذلك حقه المكتسب عن طريق زوجته، فضم بذلك الوجهين القبلي والبحري تحت سلطته. ثم عين ابنه رئيسا لكهنة آمون بطيبة، لكن هذا النجل توفي فعين ابنا آخر مكانه. وكان لباي نزم ابن ثالث يدعى من خپرورع (Menkheperre) عينه في السنة الخامسة والعشرين من حكمه رئيسا لكهنة آمون (٥) بعد نضال شديد مع خصومه. ودليلنا على وجود هذا النضال أنه لما عين من خپرورع رئيسا لكهنة آمون أصدر آمون أمره بالنفوس عن بعض المعتقلين السياسيين باحدى الواحات. ولم نهدد للآن عن سر هؤلاء المعتقلين ويظهر أن العفو صدر ارضاء لأهالي طيبة الذين ظهروا وقتئذ بمظهر الثورة والمصيان كما حصل أيام البطالسة (٦).

وحكم باي نزم أربعين سنة تقريبا متخذًا تيسيس مركزا له. وكان ابنه من خپرورع رئيسا لكهنة آمون بطيبة طويلا هذه المدة. فلما توفي باي نزم لحل ابنه بعض الألقاب الفرعونية وذلك عام ١٠٣٦ قبل الميلاد (٧) لكن هنا الابن لم يعتل عرش مصر لأن شخصا آخر يدعى أمن إمام أوبت (Amenemopet) اغتصب منه العرش. ويرجح كثيرا أن هذا الأخير لم يكن متصلا بلاقة دموية مع باي نزم والحقيقة أننا لا نعلم شيئا من أعمال باي نزم الذي حكم حوالي نصف قرن. إنما الثابت أن هؤلاء الملوك التيسيين لم يكونوا عظام ولا محبين للعبارات الضخمة، مع استثناء ما شاهده بسبب خنو من الجندار الشاخ البالغ سمكه ثمانين قدما والقائم حول معبده بتيسيس (٨). ويرجح جدا أن القرن ونصف القرن الذي حكم فيه هؤلاء الملوك التيسيون كان مقرونا باضمحلال الصناعة

(١) ٦٣١ و ٦٢٧ : ٤ (١) ٦٣١ : ٤ (٢) ٦٣٣ : ٤ - ٥ (٣) ٦٤٢ : ٤ (٤) ٦٥٠ : ٤ (٥)

(٦) ٦٥٠ - ٥٨ (٧) ٦٩١ : ٤ (٨) Petrie, Tanis I, 39

وتقهقر حالة البلاد الاقتصادية لأن هؤلاء الحكام لم يظهروا استعدادا الى الرق والتقدم والنشاط . ورغم جهلنا بأحوال البلاد الاقتصادية في تلك العصور وقبلها لتمكن من مقارنتها فاننا متيقنون أن ثمن الأراضي كان وقتئذ منخفضا جدا ، فقد بيعت قطعة أرض مساحتها ستة أفدنة ونصف تقريبا بجملة العراية بمبلغ ألف وأربعمائة قسمة فضة^(١) . ومن مآثر نسوبانبيد أنه أرسل الى عليه عددا عظيما من المال لإصلاح التلف الذي لحق بمعبد آمون أثر فيضان النيل وقتئذ^(٢) لكنه لم يعمل هو ولا أقرانه شيئا يذكر في تيسر عاصمة المملكة المصرية التي كانت تتنقل باطراد من سيء الى أسوأ . وكل ما فعله ملوك تيسر أنهم باهوا واقتخروا بأعمال أجدادهم العظام وتباروا مع رؤساء كهنة آمون في حفظ جنث هؤلاء الأجداد .

ثم توفي أمن إم أوبت وتولى بعده سيامون (Siamon) فتقلت في مدهم موميات رمسيس الأول وسيتي الأول ورمسيس الثاني من مقبرة سيتي الأول الى مقبرة الملكة إن حابي (Inhapi)^(٣) . أما اضطراب الأمن وانعدام النظام فقد استمر سائدين . ولما تولى يسيب خنو الثاني آخر الملوك التيسيين على مصر أسرع في نقل الموميات الملكية الى مقبرة حفوها أمحتب الأول لنفسه ولم يستعملها (على الأرجح) بالقرب من الدير البحري (شكل ١٧٩) وبقيت هذه الموميات مدفونة بتلك المقبرة حتى عثر عليها حديثا . وكتب الكتاب الذي تمهدوا نقل هذه الموميات قديما ملاحظات على توابيتها ذكروا فيها تاريخ النقل كما فعل من سبقهم من الكتاب وقت نقل الموميات السابقة الذي حصل قبل ذلك الوقت بمائة وخمسين سنة تقريبا (شكل ١٧٨)^(٤) . ولا تزال هذه النقوش الباقية على الموميات الملكية وتوابيتها التي كتبت على عدة دفعات وقت النقل من مقبرة لأخرى حفظا لما من عبث اللصوص برهانا ساطعا على انحطاط الأمن والنظام في تلك العصور المتأخرة . وآخر مرة ختمت فيها هذه المقبرة يرجع تاريخها الى السنوات الأخيرة من حكم الأسرة الثانية والعشرين (أى حوالي سنة ٩٤٠ قبل الميلاد) . وبقيت موميات هؤلاء الملوك العظام بتلك المقبرة محفوظة مدة ثلاثة آلاف سنة تقريبا حتى عام ١٨٧١ أو ١٨٧٢ ميلادية لما توصل اليها بعض لصوص المقابر بالأقصر ، وهم سلالة أجدادهم الذين احترقوا باللصوصية قبلهم أيام رمسيس التاسع ، وقد ألمعنا الى ذلك سابقا لما تكلمنا على محاكمة هؤلاء الأئمة المحرمين . ومما هو جدير بالذكر أن الحكومة الحالية أجبرت الجناة على الاعتراف بجرمهم بالطريقة نفسها التي اتبعتها حكومة رمسيس التاسع سابقا . وهكذا ظهرت للعالم تلك الموميات بعد ما خبئت لمدة تسعة وعشرين قرنا . وتقدر المدة التي مضت على أقدم هذه الجثث المحنطة بحوالى ثلاثة آلاف سنة . ويمكن القارئ الآن أن يرى هذه الموميات الملكية (لأنها معروضة للزائرين بدار التحف المصرية بالقاهرة) وعند ذلك يتذكر ما قام به أصحابها من الأعمال الخالدة التي ذكرناها والتي يرجع تاريخها الى حوالى ثلاثة آلاف سنة تقريبا .

(١) ٦٨١:٤ (٢) ٦٢٧:٤ ملاحظة (٣) ٦٦٤:٤ (٤) ٦٩١:٤

وكانت السياسة الخارجية أيام الأسرة الحادية والعشرين ضعيفة كسياسة الأسرة العشرين والظاهر أن مصر حافظت على نفوذها في النوبة . أما في سوريا فكانت علاقتها تطبق تماما على الوصف الوارد في قصة وينامون الشمس عند مقابلته لحاكم بيلوس . ولم يكن لمصر سيادة على فلسطين إلا بالاسم تلوكتها السن رجال القصر الفرعوني وقد استمرت كذلك مدة قرن تقريبا .

ويلاحظ أنه في الوقت الذي انحط فيه نفوذ مصر بفلسطين أخذت قبائل بني اسرائيل تجمع كاستها وتبسط نفوذها على البلاد المجاورة فكوتت لها وطنا بفلسطين تحت ادارة شاول (Saul) وداود (David) . ولأن لم تناك اذا كان هذا الأمر تم بمساعدة المصريين بقصد اخضاع أعدائهم المستوطنين بشواطئ تلك الجهات ، والسبب في هذا الجهل قلة ما لدينا من الأخبار التاريخية المنبثقة بعلاقة مصر السياسية بآسيا وقتئذ . أما أخبار أهالي البحر الأبيض المتوسط فقد انعدم ذكرها على الآثار المصرية فلم نسمع عنهم شيئا . وأما الليبيون فقد بسطوا نفوذهم بسهولة على الوجه البحري بطريق المهاجرة السلمية . وما ساعد على ذلك زيادة الجنود الليبية المأجورة بالجيش المصري باطراده . ولما كان جزء الجيش العسكري بالدلتا لحفظ النظام هناك تحت ادارة رئيس كهنة آمون وتحت قيادة ضباط مشواشين قابضين على قلاع تلك الجهة فقد قوى نفوذ المشواشين هناك . وحصل في عهد الأسرة الحادية والعشرين هناك أن أحد الليبيين (التحنو) المدعو بيواوا (Buyuwawa) استوطن مدينة إهناس (Heracleopolis) فرزق ولدا يدعى موسن (Musen) عين بعد ذلك في وظيفتي معبد إهناس وقائد حرس تلك المدينة . بعد ذلك صارت هاتان الوظيفتان وراثيتين مقصورتين على أفراد هذه الأسرة^(١) . ثم رزق موسن هذا بنجل يدعى شيشنق (Sheshonk) لقب "رئيس المشواش العظيم" وكان قويا ثريا حتى أنه لما توفي ابنه المدعو ناملوت (Namlot) دفنه في العرابية باحتفال عظيم ووقف له خيرات كثيرة من أراض وحدائق وعبيد وخدم وقرابين يومية . بعد ذلك اتضح له حصول تلاعب من الرؤساء الموكول اليهم تنفيذ هذه الخيرات فتوسط لدى ملك (لا تزال نجله اسمه) من ملوك الأسرة الحادية والعشرين ليماقب المهملين وليصدر بذلك أمرا من آمون بطييه^(٢) . ويرجح كثيرا أن يكون القواد الليبيون بالدلتا جروا على هذا المثال حتى أصبح لهم نفوذ يجارى نفوذ شيشنق المذكور ، أو عبارة أخرى حتى استأثروا بالسلطة في أيديهم تدريجا . واستمرت الأسرة الحادية والعشرون في الضعف المطرد مدة حكمها البالغة مائة وخمسين سنة تقريبا كانت في أثنائها ذرية بيواوا بمدينة إهناس تظهر وتعظم ، فتمكن أحد أفرادها وهو شيشنق حفيد شيشنق السالف من قيادة أسرته الليبية ونشر نفوذها (على الأرجح) على الأراضى المجاورة الى قسم منف شمالا وقسم أسيوط جنوبا . وفي عام ٩٤٥ قبل الميلاد تمكن رئيس هذه الأسرة من الاستيلاء على عرش مصر والترجع فيه بمدينة تل بسطه شرق الدلتا^(٣) . ويعتبر هذا التغير الملكي إما نتيجة ضعف آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين ، وأما نتيجة وفاته واقراض ذريته .

(١) ٧٨٥-٧٩٢ ٦٦٩-٦٨٧ (٢) ٤ : ٧٨٥ ملاحظة .

واحتبر بما يتوشق هذا مؤسس الأسرة الثانية والعشرين ، ومن ذلك يتضح أن الليبيين تمكنوا هذه المرة من التربع على العرش المصرى بلا تعب ولا حاجة الى امتشاق الحسام بعد مضى مائتى سنة تهرابا من وفاة رمسيس الثالث الذى صحقهم صحقا لما علم بنواياهم الخبيثة نحوه . وبليسى أن انتقال العرش تدريجا من أيدي الفراعنة الى أيدي ضباط أجاناب صحبه أيضا انتقال تدريجى فى ادارة الحكومة الى أيدي الكهنة . لكن حكم الأخيرين تقوض بسرعة أما حكم الضباط الأجاناب فدام مدة أطول ، بالرغم من أن نفوذ هاتين الطائفتين كان موطدا فى البلاد بدرجة متعادلة تقريبا منذ أيام الأسرة الثامنة عشرة .

ويجرد جلوس شيشق على عرش مصر حصر هذا الشرف الرفيع فى أفراد أسرته ، وتوصل الى ذلك بأن زوج نجله بكرمة بسبب خنو الثانى التيسى آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين ، بذلك منح ابنه حقا شرعيا لتولى عرش مصر بعد وفاته وذلك عن طريق زوجته (١) . والمعروف عن شيشق هذا أنه كان حاكما قويا شجاعا نهض بمصر وعزم على استرجاع عزها القديم وتاريخها الحيد . ولما كانت البلاد فى حالة سيئة كان مجهود هذا الملك أشبه بمن بنى عمارة عظيمة بأقراض عتيقة . زد على ذلك أن القطر كان تحت نفوذ حكام المشواش المنيرين للفتن والغلاقل . وبما حسن الحالة نوحا أن هؤلاء كانوا يهابون شيشق ويعرفون أصله وكيفية توصله لذلك ، لكنهم كانوا أيضا على يقين من أنهم لو اتبعوا خطة شيشق هذا ربما توصلوا الى العرش المصرى أيضا . ولم تهتد للآن الى معرفة الأقاليم التى كانت تحت حكم قواد المشواش ، إنما يظن أن معظمها كان بالوجه البحرى وأن علاقهم بفرعون مصر وقتئذ كانت أشبه بعلاقة المالك بسلاطين مصر المسلمين . أما الوجه القبلى فكان منقسما الى إمارتين : إمارة إهناس الواصلة الى أسيوط جنوبا ، وإمارة طيبة المنتدة من أسيوط شمالا حتى الشلال الأول جنوبا ويرجح أنها كانت تشمل النوبة أيضا .

من ذلك يتضح أن القطر المصرى انقسم وقتئذ الى ثلاث إمارات أشبه بما حصل فى عهد البطالسة والرومان (٢) . أما نفوذ شيشق فكان مهسوطا على قسم إهناس لكنه كان على وفاق ووداد مع رؤساء كهنة بتاح بمنف . وقبل انتهاء السنة الخامسة من حكمه انضمت طيبة تحت لوائه (٣) لكنها كانت أشبه بمستقلة قادرة على مقاومة الأسرة الحاكمة بالوجه البحرى ، وأراد شيشق أن يستفيد بمساعدة هذه المدينة فعين ابنه رئيس كهنة آمون هناك (٤) والمعروف أن طيبة كانت معفاة من الضرائب كما أن موظفى مالية حكومة الدلتا الإداريين لم يزوروا تلك المدينة رسميا (٥) . وطيه فقطر هذه حاله يسهل شوب الفتن فى إماراته الثلاث فى أى وقت يجرد زوال سلطة قائده الأعلى الشديد ألا وهو شيشق الأول .

وأخذ شيشق الأول يسطر نفوذ مصر على فلسطين حتى جعل سيادته هناك فعلية بعد أن كانت اسمية . والظاهر أن سليمان الحكيم كان واليا وقتئذ تحت النفوذ المصرى هناك ويرجح أنه تزوج

(١) ٧٣٨ : ٤ (٢) ٧—٧٤٥ : ٤ (٣) ٧٠٠ : ٤ (٤) ٦٩٩ : ٤ (٥) ٧٥٠ : ٤

بكرمة فرعون الذي أوسع له الأقاليم تحت إشرافه يضم مدينة جازر المهمة إليه^(١) ، وقد المعنا سابقا الى هذه المدينة لما تكلمنا عن الملك منفتاح قبل العصر الذي نحن بصدده بجوالي ثلاثمائة سنة . في ذلك الوقت عجز بنو إسرائيل عن اخضاع هذه المدينة ، لكن لما شق أميرها الكنعاني عصا الطاعة على شيشق الأول استولى جلالته عليها عنوة وأحرقها ثم أهداها الى سليمان الذي شيدها من جديد^(٢) . وبديهى أن مثل هذا العمل لا يمكن نسبته الى ملوك الأسرة الحادية والعشرين الضعفاء ، بل المرجح كثيرا أن الذي استولى على مدن عظيمة بفلسطين مثل جازر وأحرقها هو ملك قوى شجاع عظيم ، ولم يتصف بذلك في تلك العصور سوى شيشق الأول .

ولما انقسمت مملكة اليهود في عهد رحبعام (Rehoboam) الذي خلف سليمان رأى شيشق أن الوقت حان ليهبط نفوذه على فلسطين كلها . وفي ذلك الوقت التجأ يربعام (Jeroboam) المدعو الشمالى لرحبعام الى شيشق الأول طالبا حمايته ، فتوجه شيشق الى فلسطين وغزاهها وكان ذلك في السنة الخامسة لحكم رحبعام (حوالى عام ٩٢٦ قبل الميلاد) . والمعروف أن جلالته لم يذهب الى أبعد من حد شاطئ بحر الجليل شمالا وماهنايم (Mahanaim) التي هي بوادى الأردن شرقا (على الأرجح)^(٣) . وليلاحظ القارئ أن الجنود المصرية مضى عليها الى ذلك الوقت مائتان وسبعون سنة لم تظأ أقدمها الأرض الآسيوية ، فلما وصل شيشق الى آسيا أرسل قواته اللبية لنهب مدن سهل يزرل (Jezreel) بادنة برهوب (Rehob) شمالا ومخرقة حفرايم (Hapharaim) ومجتو وبتاخ وشونم (Shunem) حتى بيت شين (Beth-Shean) شرق وادى الأردن . أما في الجنوب فسلبت الجنود يازا (Yerza) وبيت حورن (Beth-Horon) وأيالونا (Ajalon) وجيبون (Gibeon) وسكو (Socoh) وبيت أنوت (Beth-Anoth) وشرحان (Shuruben) وأراد (Arnd) ، والموقعان الأخيران يحدان نهرى ما يلفه اللييون وتمتد جنوبا .

جاء في كتاب الملوك الأول بالإصحاح الرابع عشر بالآية الخامسة والعشرين أن شيشق ملك مصر صعد الى اورشالم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شيء وأخذ جميع أتراس الذهب التي عملها سليمان^(٤) . لكن يستدل من قرائن الأحوال أن حملة شيشق كانت موجهة الى الملكتين الآسيويتين فلم يقصد بها مملكة يهوذا (Judah) وحدها^(٥) . وادعى شيشق (شيشق) أنه بلغ أرض متانى (Mittanni) لكن ذلك لا بد أن يكون من قبيل الغلووالفخر فقط ، والسبب في ذلك أن مملكة متانى انعدمت من الوجود فلم يعد لها اثر وقتئذ^(٦) . وبما ادعاه شيشق أيضا أنه استولى على الجهة المعروفة "بمقل إبراهيم" وهذا الاسم هو أقدم عبارة ورد بها اسم إبراهيم علم بنى إسرائيل (شكل ١٨٠) . وعاد شيشق (شيشق) بعد غزوته بنناثم عظيمة فجدد بذلك عهد

(١) ١ ملوك ٩ : ١٥ - ١٧ (٢) ١ ملوك ٩ : ١٦

(٣) ٤ : ٧٠٩ ملاحظة وأيضا مقالى فى : Amer. Jour. of Sem. Lang., XXI, 23-26

(٤) ١ ملوك ١٤ : ٢٥ (٥) ٤ : ٧٠٩ - ٧٢٢ (٦) ٤ : ٧١٠

فراخنة مصر الأقدمين، ونقش جلالتة على جدر الكرنك بطييه الجزرية التي تقاضاها من فلسطين والنوبة (التين خضعتا له وقتئذ) بالقرب من قوش ملوك مصر العظام^(١) ثم عين جلالتة حاكما لليبيا على الواحة الكبرى وعهد الى أحد الرؤساء الليبيين في الإشراف على غربي الوجه البحرى وطرق مواصلاته البرية مع الواحات^(٢) . وهكذا رجع لمصر لأمد قصير بعض مجدها القديم الذى شاهدهه زمن الامبراطورية في عهد الأسرة التاسعة عشرة لما أخذت ترد على خزانتها جزية الأقاليم الواسعة الممتدة من شمالي فلسطين شمالا الى أعلى النيل جنوبا، ومن الصحارى الغربية غربا الى البحر الأحمر شرقا . ولما ضخمت المالية شيد شيشق العارات الشاغحة كما فعل فراخنة مصر الأقدمون منذ مائتى سنة تقريبا ، فاخطت تل بسطه مقره ووسع الكرنك بطييه . وكان لشيشق نجل يدعى يويت (Yewepet) عين رئيسا لكهنة آمون بطييه ، وقد أرسل هذا الابن بعثة الى جبال السلسلة لقطع الأحجار اللازمة ليشيد بها حوشا عظيما وصرحا شاهجا بالجهة الغربية للكرنك كي يتم بناء هذا المعبد ويكسوه شكلا بديعا من جهة النيل . وليلاحظ أن جدر جانبي الحوش وعمده أسست سابقا بعد انقراض الأسرة التاسعة عشرة بمدة، أما الصرح فلم يبدأ ببنائه الا في عهد شيشق . ولا يزال هذا الحوش أكبر أحواش المعابد الآن، يبلغ طوله ثلثمائة وأربع عشرة قدما وعرضه مائتين وتسعا وستين قدما . أما الصرح فشييد أمام وجهة هذا الحوش وهو أكبر صرح من نوعه في القطر يبلغ سمكه ستا وثلاثين قدما وارتفاعه مائة وخمسين قدما ووجهته ثلثمائة وسبعا وخمسين قدما (خريطة رقم ١١) .

وقصد شيشق أن يحتفل ببناء هذا الصرح في عيد مرور ثلاثين عاما على حكمه لكننا لم نتهد لأن اذا كان أنجز ذلك أم لا . والمعروف أنه لم يش طويلا ليراه كاملا لأن الألواح الخشبية وأدوات البناء لا تزال مكسوة تحت كومات التراب والأحجار الساقطة بجوار الصرح . ومن الثابت أيضا أن حلية هذا الصرح لم تم في عهد شيشق . ووجدت نقوش بارزة على الباب الجنوبي للكرنك المعروف "بباب تل بسطه" لملك شيشق قلد فيها ملوك العهد القديم ، فرسم نفسه فاتكا بالأسويين أمام آمون ، ورسم معبود طييه هذا وزوجته معبودة طييه يقدمان له عشرة صفوف من الأسرى يبلغ عدد أفرادها مائة وستة وخمسين فلسطينيا رمز بكل منهم لمدينة من المدن التي استولى عليها جلالتة وكتب تحت كل رطل منهم اسم المدينة التي يمثلها^(٣) ، ووردت بين هذه الأسماء بعض أعلام المدن جاء ذكرها بالكتاب المقدس ألغنا الى أهمها سابقا .

وفي سنة ٩٢٠ قبل الميلاد توفى شيشق الأول وتولى بعده ابنه أوسركن الأول (Osorkon) زوج ابنة الملك بسبب خنواثر ملوك الأسرة الحادية والعشرين . وكان اعتلاء هذا الملك للعرش مطابقا للقوانين والمعادن المتبعة، وكانت المملكة التي ورثها هذا الملك عن والده غنية واسعة الثروة حتى تمكن جلالتة أن يتبرع لمعابد مصر في السنوات الثلاث الأولى من حكمه تقريبا بما ينيف على أربعمائة وسبعة وثمانين ألف رطل فضة ، ولما أضيف هذا المقدار الى ما تبرع به من الذهب بلغ المجموع خمسمائة وستين ألف رطل من المعدنين النفيسين^(٤) ، وتعتبر هذه الهبات أعظم رهان على الفنى وبمجموعة الحياة بالقطر المصرى في مبدأ الحكم الليبي . وأراد أوسركن أن يدعم حكمه بامارة إهناش فشييد

(١) ٤-٧٢٣: ٤ (١) (٢) ٤-٧٨٢: ٤ (٣) ٧٢٢-٧٠٩: ٤ (٤) ٣٧-٧٢٩: ٤

قلعة حصينة عند مدخل الفيوم^(١) واتبع سياسة والده فعين ابنه رئيسا لكهنة آمون بطيبة موقدا توفي له نجلان عينا في هذه الوظيفة وأخيرا عين نجله الثالث المدعو شيشق أيضا في هذه الوظيفة عينا . وقد ظهر هذا النجل بمظهر الأبهة والجلال ونجل لنفسه الألقاب الفرعونية واحتفظ بمركز رئيس كهنة آمون لابنه^(٢) . وفي سنة ٨٩٥ قبل الميلاد توفي أوسركن بتل بسطه فورته في الملك ابنه تاكلوت الأول (Takelot) . فلما اعتلى الأخير العرش وجد أخاه شيشق بطيبة قويا شديد الرأس معاديا له ، ثم توفي تاكلوت الأول بعد مدة يسيرة فتبعه في الملك ابنه أوسركن الثاني الذي بسط نفوذه على طيبة ثانيا وأصلح التلف الذي أصاب معبد الأقصر أثر فيضان النيل العظيم وقتئذ^(٣) . ويستدل من دعوات منقوشة على تمثال لأوسركن الثاني بتتيس أن حالة مصر الداخلية كانت وقتئذ خطيرة للغاية ، فقد جاء في هذه الدعوات أن جلالة تضرع الى المعبود ليخلد ذريته في الحكم ويصمهم السلطة على رؤساء كهنة آمون رع ملك المعبودات وعلى رؤساء المشواش العظام أو كهنة هرسافيس (Harsaphes)^(٤) ، وهؤلاء الآخرون هم أمراء لبيون استوطنوا إمارة إهناس واليهم ينتمى أوسركن الثاني . وما جاء أيضا في هذه الدعوات العبارة الآتية ترجمتها :

”اجعل أولادى في الوظائف التي عينتهم بها . ولا تجعل قلب أخ يكبر ويعظم على قلب أخيه“^(٥) ، ومنها يستنتج أن أفراد الأسرة الحاكمة كانوا يومئذ منشقين بعضهم على بعض ومتنافسين ، وأن قواد الجنود المأجورة كانوا دائما على استعداد لإثارة الفتن اذا أصابهم حيف أو رأوا في أنفسهم القوة الكافية لتحسين مركزهم .

ولا جدال في أن الحكام الليبيين تطبعوا تماما بالطباع المصرية ، فجد شيشق الأول دفن ابنه بالعراية واتبع العادات المصرية نحو الموتى فوقف على قبر ابنه الخيرات على حسب ما تقتضيه الديانة المصرية^(٦) . وبالرغم من احتفاظ الحكام الليبيين بأسمائهم الأصلية فانهم حافظوا على الألقاب والعادات الفرعونية التي ألفها المصريون لمدة تقرب من ألف وخمسمائة سنة . أما القواد الليبيون حافظوا على ألقابهم الليبية (ك رئيس المشواش الأكبر) ، وقد اختصر هذا اللقب بعد ذلك فورد على الآثار بكثرة كرئيس مي (Me) الأكبر . وعبد الليبيون المعبودات المصرية وقدموا لها القرابين كالمصريين^(٧) وذلك رغم أنهم من البربر وأنهم شديدو المخالفة للمصريين . وليس أقوى برهانا على تطبع هؤلاء القوم بالطباع المصرية من الحوش العظيم الذي شيده أوسركن الثاني بتل بسطه احتفالا بمرور ثلاثين عاما على تعيينه ولما لمهد الملكة المصرية جريا على عادة المصريين الأقدمين^(٨) ، لكن هذا لا ينسيتنا الخطر الداخلي الذي أخذ يهدد الليبيين في تل بسطه ، فأخرج كثيرا من مركزهم . وأشرك أوسركن الثاني ابنه شيشق الثاني معه في الحكم لكنه لم يعيش طويلا^(٩) فأشرك معه ابنه الآخر تاكلوت لمدة سبع سنوات توفي بعدها فورته تاكلوت وذلك عام ٨٦٠ قبل الميلاد ، وعرف هنا بعدئذ بالملك تاكلوت الثاني .

(١) ٨٥٣ : ٤ (١) ٧٣٨ : ٤ (٢) ٧٤٣ : ٤ (٣) ٧٤٧ : ٤ (٤) (٥) شرح
٦٦٩ : ٤ ملاحظة (٦) ٧٨٢ : ٤ (٧) ٧٤٨ : ٤ (٨) ٦٩٧ : ٤ رقم ١٣ و ٧٧٢

من هذا التاريخ أخذت الأسرة الثانية والعشرون تضمحل تدريجيا كما يشاهد ذلك على آثار اماراة طيبه التي تظهر بوضوح ما حصل بين حكام أقسام القطر وقتئذ من مشاحنات واضطرابات . من ذلك أن رئيس كهنة آمون المدعو أوسركن لما وصل الى طيبه في السنة الحادية عشرة من حكم تا كلوت الثاني قش على جدر الكرنك أعماله وعطاياه للعبد باسمه الخاص^(١) . لكن بالرغم من محاولته إرضاء أهل طيبه وكهنتها وما صرفه عليهم من الهبات والعطايا بمعبد تلك العاصمة الدينية فإن أهالى طيبه قاموا عليه قيامة انتشرت بعد ذلك في الوجه القبلي والبحري هرب على أثرها هذا الرئيس الكهنوتي ولم يرجع الا بعد مضي عدة سنوات أمضاها في حرب وتزاع حتى اصطلح مع بعض أعوان والده، وبذلك تمكن من الرجوع الى طيبه وسط أسطول نيل عظيم . عند ذلك قابله تمثال آمون في احتفال عظيم ثم أصدر أمره اللاهوتي بالعمو عن أهالى طيبه لما أتوه من ثورة وعصيان . وبعد ذلك قام رئيس الكهنة بالإصلاحات والترميمات لمعبد آمون .

هذه المعلومات وردت مدققة باختصار بين نقوش رئيس كهنة آمون المذكور على جدر الكرنك^(٢) وهي تشير الى أن حكم الثلاثة الملوك اليبين الآخرين الحاكين من تل بسطه كان مشحونا بالاضطرابات والاضطرابات مدة مائة سنة تقريبا . وقد تلفت تل بسطه تماما فلم نثر فيها على أخبار تتعلق بهؤلاء الملوك . وليلحظ أن الاضطرابات الداخلية لم تنحصر وقتئذ على ما أوردها سابقا بل تعدت ذلك ، فإن إمارتى إهناس وطيبه تشاحتا أيضا بمعضما مع بعض ، كما تشاحن أيضا بعض القواد الأجانب بالوجه البحري مع بعض^(٣) ، وهكذا أصبح القطر المصري وقتئذ في حالة أشبه بما كان عليها أيام الممالك لما كانت الضرائب تفرض على أهالى كل بقعة وتجي بالقوة فيثور القوم ثم يمشق الحسام بمعونة الجنود المأجورة فيرجع الأمن الى نصابه . ومن المؤكد أن نفوذ مصر بفلسطين وقتئذ انعدم . ودلتنا الآثار أن ظهور مملكة نينوى الغنية العظيمة أفزع أحد ملوك تل بسطه ، وهو تا كلوت الثاني على الأرجح ، فأرسل هذا ألف مقاتل مددا الى اتحاد آسيا الغربى لمقاومة آشور ، لكن هذا الاتحاد وضعه شالمنصر (Shalmaneser) الثانى جهة قرقار (Qarqar) على نهر الأورونط وذلك عام ٨٥٤ قبل الميلاد .

ولم نهند للآن الى معرفة نوع العلاقة التي ربطت الثلاثة الملوك الآخرين الذين حكموا في تل بسطه بعد تا كلوت الثانى . أما هؤلاء الملوك الثلاثة فهم شيشق الثالث وبمو (Pemou) وشيشق الرابع ، والظاهر أنهم لم يرتبطوا بصلة ما بتا كلوت الثانى ، والمعروف عنهم أنهم احتفظوا بمنف وطيبه وأن أسماءهم وجدت فوق بعض الآثار في عدة جهات بالقطر . وقد هشم هؤلاء الملوك آثار مصر العظيمة بقسوة شديدة ، فطم شيشق الثالث تمثال رمسيس الثانى الضخم الذى كان بتنيس واستعمل أجزاءه أحجارا لتشييد صرحه العظيم بتنيس . ولا حاجة بنا أن نذكر أن أمراء الوجه البحرى سعوا فى الاستقلال بالحكم فى عهد هؤلاء الملوك ، وأن عددا كبيرا منهم قطع علاقته السياسية معهم قبل وفاة شيشق الرابع آخر ملوك الأسرة الثانية والعشرين (حوالى عام ٧٤٥ قبل الميلاد) .

(١) ٧٠٠ : ٤ - ٧٠٦ : ٤ (٢) ٩ - ٧٦٣ : ٤ (٣) ٧٩٠ : ٤

ولما توفي شيشنق الرابع ظهر بالدلتا أمير يدعى يدبست (Pedibast) بسط نفوذه على الأمراء الآخرين وانتزع الحكم من ملوك تل بسطه ، وقد اعتبره مانيتو مؤسس الأسرة الثالثة والعشرين . قال مانيتو أن هذه الأسرة الجديدة حكمت من تيس لكن اسم يدبست يشير بلا مرء الى تل بسطه عاصمة الأسرة المعزولة ، زد على ذلك أن هناك أسبابا تجعلنا نحكم بأن يدبست حكم من تل بسطه كما سيأتي الكلام بعد ، وعليه فلا يبعد أن تل بسطه كانت عاصمة القطر وقتئذ . والمعروف أن يدبست قبض على ناصبة الحال بطيبة حتى السنة الثالثة والعشرين من حكمه ، لكنه ورد أنه اضطر في السنة الرابعة عشرة من حكمه أن يقسم الحكم هناك مع أحد حكام شرق الدلتا المدعو يويت (Yewepet) (١) .

وبدار التحف بثينا درج بردى فيه حكاية تشير الى حدوث قلاقل واضطرابات داخلية كالمذكورة ، سبها أمراء مصريون مثل يدبست ويويت . ومما جاء فيه أن أمير تمي الأמיד المدعو كما أمحتب (Kaamenhotep) ناضل أمير عين شمس الأجنبي المدعو پمو (Pemou) لأن الأخير استولى على درع حديدي ثمين ملك الأول . وقد عجز يدبست عن حقن الدماء بين أمراء الدلتا الذين أخذوا يهتمون الى أحد هذين الأميرين على حسب ما تراءى لهم (٢) .

ولما تولى أوسركن الثالث الملك بعد يدبست أخذت داخلية القطر تسوء فانقسمت البلاد الى عدة إمارات صغيرة مستقلة من الوجه البحرى شمالا الى الأشمونين جنوبا . وقد اهتمت لنا الآن الى أسماء ثمانية عشر أميراً (٣) تناولوا قندهورت مصر وانقسمت البلاد بذلك الى عدة أقسام صغيرة كما كانت عليه قبل حكم الأسر ، أى قبل انشاء حكومة ثابتة وطيدة بالقطر المصرى .

لذلك شلت القوة المصرية وانعدم وجودها فلم يعد فيها رجاء لمساعدة بنى اسرائيل ضد آشور . والحق يقال ان نبوءات أنبياء بنى اسرائيل وقتئذ عن مصر لم تكن فى حاجة الى كثير تفكير لأن ضعف القطر المصرى والحلله كانا واضحين جليين .

وبلغ من شدة انشقاق أمراء مصر بعضهم على بعض أنه لما اقتربت جنود تجلات بليسر (Tiglath-pilaser) الثالث الآشورى من حدود مصر فيا بين عامى ٧٣٤-٧٣٢ قبل الميلاد عجز هؤلاء الأمراء عن اسداء أى معاونة لبنى اسرائيل ، كما أنهم لم يفكروا مطلقا فى قرب مبعاد مجىء جيوش آشور وجواز عبورهم الصحراء الفاصلة مصر عن فلسطين واحتمال ضم مملكة وادى النيل الى آشور . ولكن شاء القادر أن يعتلى عرش مصر قوم أجانب آخرون قبل أن تضرب آشور ضربتها القاضية على بلاد القرائة الأماجد .

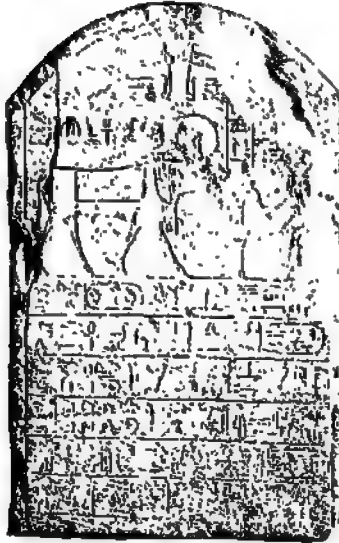
(١) ٤ : ٧٩٤ و ٨٧٨ رقم ٢

(٢) Wiener Zeitsch. für die Kunde des Morgenlandes, XVII, sequel to Mitth. aus der Samml. der Pap. Erzbischof Rainer, VI, 19 ff.

(٣) ٤ : ٧٩٦ ملاحظة و - ٨٢ و ٨٧٨



شكل ١٨٠ - "حقل ابراهيم" اسم لمكان جغرافي
وارد في قائمة شيشي الأول على جدار الكرنك وهذا
النص هو أقدم ذكر لاسم ابراهيم في الآثار



شكل ١٨٢ - شاهد حجرى لملك بسانتيك الأول
وجد بالسرابيوم مذكور عليه تاريخ وفاة المعبد
أبيس وذلك في السنة الحادية والعشرين من عهد
بسانتيك الأول - وكان عمر هذا المعبد احدى
وعشرين سنة وتاريخ ميلاده السنة السادسة
والعشرون من حكم طهراته



شكل ١٨١ - شاهد حجرى سنجرى
لاشور أخى الدين يمثل هذا الملك
فابضا على بعل مدينة صور وعلى طهراته
الباقي على ركبتيه . وشاهد على الأخير
ملاحم الزوج (دارتحف برلين)

الفصل السادس والعشرون

سيادة إثيوبيا على مصر وانتصار آشور

استمرت مصر تحكم النوبة مدة تيف على ألف وثمانمائة سنة . أما ما بين الشلالين الأول والثاني فبقى تحت الإدارة المصرية مدة تقرب من ألف سنة . وقد تقدم القول الى أن تلك البلاد انصبحت بالصبغة المصرية تماما فشيء بكل مدينة فيها معبد مصري عظيم وعبدت بها المعبودات المصرية في عهد رمسيس الثاني . وبالرغم من محافظة أهالي النوبة على لغتهم فان اللسان المصري صار اللغة الرسمية وتنتد بتلك البلاد وازداد انتشارا بين الأهالي بزيادة هجرة المصريين اليها .

منذ ذلك الحين فقه النوبيون الى أهمية بلادهم وكثرة خيراتها خصوصا لما رأوا المصريين يثرون أعلى النوبة المنحصبة ويستولون مناجم الذهب بأسفل النوبة . زد على ذلك أن موقع بلادهم الجغرافي على الطريق التجارى العظيم بين مصر والسودان أوضح للنوبيين مع الأسباب السالفة عظم شأن بلادهم فأخذوا يبحثون عن حقوقهم الشرعية فيها . ويلاحظ أن الغارات العرضية التي شنها زنوج إفريقية وغربى الصحراء الشرقية على النوبة لم تؤثر مطلقا في نمو البلاد ورفقها اقتصاديا .

والمعروف أن شيشق الأول حافظ على النوبة^(١) كما ورد أن رئيس كهنة آمون في النصف الأخير لحكم تاكوت الثاني وهب الى آمون ذهب النوبة^(٢) ولذلك يرجح أن إقليم الشلالات استمر تحت النفوذ المصرى حتى منتصف حكم الأسرة الثانية والعشرين (أى حوالى سنة ٨٥٠ قبل الميلاد) . وقد ذكرنا فيما سبق أن النوبة كانت على اتصال تام بطيبه وعبد آمون مدة طويلة من الزمن ، مثال ذلك أن معبد آمون كان صاحب الحق في مناجم الذهب النوبية التي سميت وقتئذ "أرض آمون الذهبية" ابتداء من نهاية حكم الأسرة التاسعة عشرة . وفى أواخر الأسرة العشرين أصبح رئيس كهنة آمون حاكما على النوبة . وفى عهد الأسرة الحادية والعشرين كانت الإمارة الديفية بطيبه تشغل هذه الوظيفة الرفيعة أيضا^(٣) . بهذه الطريقة أخذ حكام طيبه يسيطرون نفوذهم على النوبة مائة سنة منذ أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد . بعد ذلك وضع المصريون يدهم بقوة على ذلك الإقليم مائتين وخمسين سنة . وبعد النوبة عن مصر اتخذت منى للعصاة وذلك فى عهد الأسرة الحادية والعشرين التنيسية لما أبدوا اليها أمراء طيبه المنافسين لهم والذين أخرجوا عنهم بعد ذلك . وفعل تاكوت الثاني^(٤) هذا العمل أيضا مع ثوار طيبه ثم عفا عنهم بناء على طلب آمون . من هذا يتضح أن شلالات النوبة كانت حاجزا حصينا لكل من يتجئ اليها من طائفة كهنة طيبه وأفراد أسرهم فرارا من قسوة وعسف المصريين .

(١) ٧٦٤ : ٤ ملاحظة

(٢) ٧٩٦ : ٤

(٣) ٧٧٠ : ٤

(٤) ٧٢٤ : ٤

وبما أن مثل هذا الفرار لا يسجل عادة على الآثار نستبعد حصولنا على معلومات بصدده . والمعروف أنه في القرن الثامن قبل الميلاد ظهرت في أفق التاريخ بالنوبة مملكة كاملة صاحبتها نبتة (Napata) الواقعة أسفل الشلال الرابع بقليل . وبديهى أن نبتة كانت حصنا من حصون حدود مصر الجنوبية أيام أمنحتب الثانى - أى قبل العصر الذى نحن الآن بصدده بمسبعمائة سنة تقريبا - وقد كانت قبل ذلك الوقت محطة تجارية عظيمة على الطريق الموصل مصر بالسودان، لذلك كانت نبتة أبعد المراكز فى المملكة المصرية وأمنها من هجمات الشمال .

وللاحظ أن المملكة النوبية المذكورة جاءت مطابقة تماما لما ذكرناه عن أصلها فقد كانت بمثابة صورة طبق الأصل لإمارة آمون الطيبة وكان آمون معبود هذه المملكة الرسمى شديد التدخل فى شؤون حكومتها منطبقا وبدرجة فاقته تدخله فى مصر حتى صار يعزل الملوك ويولى غيرهم، ولا يخفى أن مثل هذا النظام حصل تدريجيا . واعتقد اليونانيون خطأ أن إثيوبيا سبب حضارة مصر لأنهم شاهدوا كهنة مصر كثيرى الاعتبار والإعجاب بالنوبة . وبما هو جدير بالذكر أيضا أن ملك إثيوبيا نحل لنفسه جميع الألقاب الفرعونية " كسيد القطرين " مع أنه لم يحكم مصر، كما أنه أطلق على نفسه اسما مصرية، لكن ذلك لم يدم طويلا لأنه استبدل به بسرعة اسما نوبيا صحيا وبقي الاسم الرسمى الملكى والألقاب الفرعونية مستعملة مدة طويلة . وشيد ملوك إثيوبيا معابدهم على الطراز المصرى وزينوها بالرسوم المصرية والنقوش الهيروغليفية وقدموا فيها قرابين وهدايا كما فعل قدماء المصريين . ثم انهم زخرفوا جدر المعابد بالدعوات كعبد طيبه ، تثبت بذلك بلا مرأه أن هذه المملكة النوبية مصرية الأصل مصبوغة بالصبغة الطيبية . وبالرغم من ذلك فهناك بعض الأثرين لا يشاطرونا هذا الاستنتاج .

وأول من عرف من ملوك هذه المملكة هو كاشتا (Kashta) ويرجع تاريخه الى أوائل القرن الثامن قبل الميلاد^(١) . ولا نعرف شيئا من حكم هذا الملك ولا منتهى نفوذه شمالا . والظاهر أن يعنى (Piankhi) نحل هذا الملك حكم حوالى عام ٧٤١ قبل الميلاد وأخذ يستعمر مصر . وسواء أكان هذا صحيا أم غير صحيح فالثابت أن يعنى استولى حوالى عام ٧٢١ أو ٧٢٢ قبل الميلاد على صعيد مصر حتى مدينة إهناس جنوبى الفيوم ووضع جنوده النوبية فى المدن المهمة . وفى هذا الوقت كانت سلطة أوسركن الثالث المستوطن بتل بسطه منحصرة فى إمارته ومحاطة بأعداء كثيرين من أمراء الوجه البحرى أهمهم تفتخت (Tefnakhte) أمير صا الحجر غربى الدلتا^(٢) .

وفى السنة الحادية والعشرين من حكم يعنى بلنه أن تفتخت أخضع كل أمراء غربى الوجه البحرى كلهم وشاطن الصعيد الى مدينة بنى حسن وبسط نفوذه أيضا على أمراء شرق الدلتا ووسطها فأصبح بذلك ملكا على جميع الوجه البحرى والجزء الأسفل من الوجه القبلى .

(٢) الكلام التالى مأخوذ من حجر يعنى (٤ : ٧٩٦ - ٨٨٣)

(١) ٤ : ٩٤٠

ولم يقاومه في الوجه القبلى الا إمارة إهناس التى أشرنا الى قوتها وسلطانها ، لحاصرها فنفتخت
بمجنوده وبامدادات حربية من أمراء الدلتا تحت قيادتهم الشخصية ، فانضح ليعنضى وقتئذ أن ميزان
القوى بالوجه القبلى اضطرب فصمم جلالتة أن يستدرج عدوه جنوبى مستنقعات الدلتا الحصينة
الصعبة .

بعد ذلك بلغ يعنضى أن ناملوت (Namlot) أمير الأشمونيين سلم الى تنفتخت فأرسل يعنضى
جيشا قويا تحت قيادة ضباط الى الجهات الشمالية بقصد وقف تقدم تنفتخت جنوبا وحصار
الأشمونيين . فنفذ جيشه هذه الأوامر . ثم أرسل الملك جيشا ثانيا الى الشمال لمساعدة قواته هناك
فوصل الى مدينة طيبة ثم سار شمالا فتقابل مع أسطول تنفتخت النيل واشتبك الفريقان في معركة
حربية انتهت بهزيمة المصريين وأسركثير من سفنهم ورجالهم . بعد ذلك زحف النوبيون شمالا متبعين
في سيرهم بحر يوسف (على الأرجح) حتى بلغوا مدينة إهناس فوجدوا قوات تنفتخت منهمكة في حصارها
فهزموا تلك القوات واضطروها للفرار شمالا برا وبحرا . وقد فر جنود تنفتخت الشاليون عن طريق
بحر يوسف فاقتنى أثرهم الجيش النوبى في الصباح التالى واضطرم للفرار الى الدلتا .

وكان ناملوت منضيا الى قوات تنفتخت فلما انهزم هذا الأخير انفصل عنه وصمم على الذهاب الى
الأشمونيين مدينته والدفاع عنها ضد النوبيين . فبلغ هذا الخبر القوات النوبية فعادت هذه ثانية عن
طريق بحر يوسف الى الأشمونيين وحاصرتها .

ولما بلغت يعنضى هذه الأخبار استشاط غيظا خصوصا لما علم بهرب جيش الوجه البحرى
الى الدلتا . ولما كان وقتئذ آخر السنة عزم جلالتة على الاحتفال بعيد رأس السنة في بلده ثم الذهاب
الى طيبة للاحتفال بها بعيد أوبت وذلك في الشهر الثالث ثم الزحف شخصيا على مصر . في أثناء ذلك
كان قواد النوبيين يستولون على مدن مصر الواحدة تلو الأخرى وأهم هذه المدن اليهنسه (Oxyrhyncus)
ولم تقاومهم الا مدينة الأشمونيين التى استمرت في عنادها كثيرا .

وقد بلغ يعنضى خطته السالفة فزحف يجنده شمالا في أوائل السنة واحتفل بعيد أوبت بطيبة
في الشهر الثالث ، ثم ولى وجهه شطر الشمال وسار نحو الأشمونيين فوجد جنده يحاصرونها مدة أربعة
أشهر أو خمسة، وشدد جلالتة عليها الحصار وأمطرها وابلا من السهام والمجارة من فوق الاستحكامات
والبروج حتى تصاعدت الروائح الكريهة من موتاها فأخذت تسلم الى جلالتة . وأراد أميرها أن يرضى
قلب يعنضى نحوه فأرسل اليه هدايا ثمينة ضمنها تاجه الملكى لكن يعنضى كان صلب الرأى فأرسل
ناملوت زوجته الى زوجة يعنضى لتسترحه لزوجها ونجحت هذه الحيلة وسلم ناملوت على أثرها المدينة
وجميع خيراتها الى الفاتح النوبى نظير السباح له بالبقاء حيا . بعد ذلك تفقد يعنضى قصر ناملوت
ونخزائنه وتفقد الخليل فراها جامعة فقال جلالتة "أقسم برع الذى يجنبى لئن أرى خيلى جامعة ليكون
هذا أصعب على من كل جرم تركبه" (١) . بعد ذلك سلم ناملوت كل أملاكه الى نخزائن يعنضى
وأمون المقدس .

ووصل يبعنخي الى إهناس بعد ما ذاقته الأميرين من حصار تفتخت لها لخروج أميرها المدعو بف نف دبست (Pefnefdibast) وحيا يبعنخي ومدحه كثيرا على تخليصه من تفتخت. ثم زحفت القوات النوبية بحرا بطريق بحر يوسف الى الدلتا واستولت في طريقها على المدن المهمة الغربية التي كانت تسقط بمجرد رؤية يبعنخي . ولم تجاسر مدينة على مقاومة النوبيين الا مدينة كيان فارس في الفيوم (Crocodilopolis) ومنه استنجنا أن يبعنخي عدل خط سيره فزحف غربا مارا باللاهون بمضيق الفيوم ولم يذهب الى مدينة أطفح (Aphroditopolis) شرق النيل والبعيدة عن الطريق الموصل الى ميدوم وإتوى ومنف . وقدم ملك النوبة القرابين لكل مدينة مر بها وأخذ معه كل ثمن لتقديمها الى خزنة آمون .

ولم يبعنخي منف فوجدها محصنة جيدا بقوات تفتخت الذي اعتبرها جزءا من مملكته منذ زمن بعيد والذي اعتبر نفسه كاهن معبودها الأكبر بتاح ، فطلب يبعنخي من المدينة أن تسلم نفسها لكنها أقفلت أبوابها ثم قامت حاميتها بحركة هجوم خارجا فلم تتحجج . بلحق الليل ودخل تفتخت المدينة وحث حاميتها على الدفاع والاعتماد على جدرانها ومثوتها الكثيرة وارتفاع مياه فيضان النيل شرق المدينة . وطلب من جنده هناك أن يستمروا على الكفاح حتى يذهب شمالا ليحضر اليها امدادات أخرى .

ولما وصل يبعنخي شمالى منف دهش لثانة حصونها ، فأشار عليه حينئذ بعض ضباطه أن يحاصرها وحيد الآخرون المهجوم والاستيلاء عليها عنوة وذلك باقامة استحكامات وطرق خصوصية . لكن يبعنخي صمم أن يهجم عليها عنوة بلا استحكامات وابتكر لذلك فكرة صائبة تشهد له بالبراعة في الفنون الحربية . وتفسير ذلك أن جلالاته لاحظ أن سور المدينة الغربي رفع عن مستواه حديثا وأن السور الشرقي مهمل نوعا ومحاط بمياه الفيضان . أما ميناء البلاد ففى جهتها الشرقية وفيها سفن الأسطول مثبتة يجدر المنازل نظرا لارتفاع منسوب المياه وقتئذ . فأرسل يبعنخي أسطوله بسرعة الى الميناء واستولى على سفنها عنوة وضمها الى أسطوله ثم قاد هذه القوة البحرية بنفسه وهاجم أسوار المدينة الشرقية وتسلفها رجاله فاستولوا على المدينة قبل أن يتمكن أهلها من تعزيز حصونها . بعد ذلك حصلت في المدينة منجحة عظيمة ووعيت في أنثائها حرمة المعابد واتهمت بنذ تفتخت بواسطة المعبود بتاح والاعتراف يبعنخي ملكا على مصر كما كان متظرا .

هكذا خضع إقليم منف بأجمعه الى يبعنخي وطل أثر ذلك أنى أمراء الدلتا الى جلالاته بالهدايا معترفين له بالسلطة والسيادة ، وجزأ جلالاته خيرات منف بين خزائن آمون وبتاح . ثم عبر النهر وأدى الصلاة بمعبد قديم بجهة نريحا بابل (Kherha-Babylon) ثم اتبع الطريق المقدس من هناك حتى بلغ مدينة عين شمس حيث استراح بمرفقها . وجاء في أخبار جلالاته الرسمية أنه دخل قدس الأقداس بمعبد عين شمس وهناك اعترف به رع بأنه ابنه من سلالته الجالس على عرش مصر كالمادة المتبعة منذ حكم الأسرة الخامسة . ووفد على جلالاته في ذلك المكان أوسركن الثالث (أمير تل بسطة)

المتسمى الى الأسرة الثالثة والعشرين وقدم الطاعة ليعنخى واعترف له بسيادة النوبة على مصر . ثم زحف يعنخى الى شرق بنها (أريب) بالقرب من مدينة تعرف باسم كهني (Keheni) وهناك أقبل عليه أمراء الدلتا مظهريين له الولاء والخضوع وكان عددهم خمسة عشر أميرا وهم أوسركن الثالث (وكان موجودا من قبل) والأمير يويت المسيطر على اقليم تلت رمو (Tentremu) بشرق الدلتا والمشارك سابقا مع يدبست سبق أوسركن الثالث في حكم طيبة وتسعة أمراء مسيطرين على أقاليم تمي الأمديد (Mendes) وسمنود (Sebennytyos) وسفط الحنة (Saft el-Henneh) وأوصير (Busiris) وحسبكا (Hesebka) (وهي القسم الحادى عشر للوجه البحرى) وجزرور يوبوليس (Phagroriopolis) وخرحبا بابل (Khereha-Babylon) وغير ذلك من مدن الدلتا المجاورة التى لم تعرف مواقعها للآن بالضبط . بعد ذلك حضر قائد قوات الأشموين الأجنبي المدعو يارقا (Parva) ابن أمير تمي الأمديد وكذا كاهن المعبود حوريس الذى أسس إمارة وسيم (Letopolis) كما أسس كهنة إهناس الأسرة الثانية والعشرين . وامتاز بين هؤلاء الأمراء أمير بنها المدعو يديس (Pediase) فأظهر احتراماً واكراما عظيمين ليعنخى ودعاه لزيارة بنها واضعا كل أملاكه تحت تصرف جلالتة ، فذهب جلالتة على اثر ذلك الى بنها وتسلم هدايا يديس مختارا لنفسه أجودها ، ثم دعاه الأمير لتفقد اصطبلات أجود خيله لعلمه بحب يعنخى للخيول . وسمح يعنخى هناك للأمراء الدلتا بالذهاب الى أقاليمهم (الا أمير بنها طبعاً) واحضار الهدايا لجلالتة ليتباروا في ذلك مع ما قدمه يديس .

أما تفنخت البأس فتحصن في مدينة صغيرة مجهولة المركز تعرف باسم مسد (Meesd) بظن أنها على حدود قسم صا الحجر . وخاف تفنخت من وقوع سفنه وخيراتهما في أيدي النوبيين فخرقها فأرسل يعنخى قوة حربية الى مسد فكتك بحاميتها كلها واضطر تفنخت اثر ذلك أن يلجأ الى جزيرة بعيدة بأحد أفرع النيل الغربية حيث تفصله عن يعنخى أميال عديدة من المستنقعات والترع فكانت كأنها محصنة . ثم أرسل تفنخت من هناك هدايا ورسالة الى يعنخى أظهر له فيها الخضوع وطلب منه أن يرسل رسولا من قبله يذهب معه الى معبد مجاور يحلف فيه بين الطاعة لجلالتة ، فسر يعنخى من ذلك كثيرا وهكذا اعترف تفنخت بسسلطة يعنخى طائفا مختارا . ثم ظهر أمير الفيوم وأمير أطفيج (Aphroditopolis) (الذين لم يتعرض لها جلالتة بأذى وقت زحفه شمالا) واحضرا معهما الهدايا ليعنخى ، فأصبح هذا الأخير فرعون مصر النوبى الذى خضعت له جهات القطر كلها والذي تزج الملك من أيدي الليبيين ، وبعبارة أخرى أضخى يعنخى حاكم مصر المطلق .

وتشرف أمراء الوجه البحرى بزيارة يعنخى لآخرة ثم شئن جلالتة سفنه بالهدايا والغنائم العظيمة قاصدا صاحمته الجنوبية في وسط تحيات الأهالى وهتافهم العالى .

لقد أطلنا الكلام على هذه الغزوة لأنها تظهر لنا بأجلى وضوح أحوال مصر وقتئذ وهى سنة طبيعية لتزريق شمل مصر كما ضعفت سلطة حكومتها المركزية وزاد نفوذ حكام أقسامها ، ومثل هذه الظروف تنتهى غالبا باستقلال الأقسام واغتصاب العرش .

ولما وصل يبعثى نبته نصب بمعبدها شاهدا جرانيتيا بديما^(١) نقش على جهاته الأربع أخبار هذه الرحلة تفصيلا، وأظهر نفسه فيه كإبن آمون ومذل أعدائه الشماليين، ويعتبر هذا الوصف أنقى وأصح بيان تاريخي وحربي قديم بعد أخبار حروب تحتمس الثالث ووصف معركة كدش لمسيس الثاني. ويتضح من وصف الحجر المذكور أن حالة مصر كانت سيئة للغاية. ولما كان النص الهيروغليفي المكتوبة به نقوش هذا الحجر خاليا من الأسلوب الجاف المتبع عادة في مثل هذه الظروف فإن القارئ يجد سهولة عظيمة في فهم ومتابعة معاني الأثر وإدراك أعمال أشخاصها، كما تتضح له أيضا شهامة يبعثى وحبه للخيل وظهوره بمظهر الرجال خلافا للعادة القديمة التي تظهر الملوك بمظهر الآلهة. وهذا الحجر الجرانيتي هو مرجعنا الوحيد وأصل معلوماتنا عن غزوة يبعثى للقطر المصري.

لم يخضع تفتخت ليعبثى إلا اسميا لأنه ترقب رحيل ذلك النوبي ليبتد علماءه، فأنشأ في الوجه البحري مملكة مستقلة وحل لنفسه الألقاب الفرعونية وبقى حاكما على أمراء الدلتا ثمانى سنوات كما فعل أسلافه وقت حكم الأسرة الثانية والعشرين. وكان تفتخت هذا معاصرا لآخر أيام الأسرة الثالثة والعشرين المستوطنة تل بسطه والتي يرجح أنها خضعت لإرادته وحكمه.

والمعروف عن تفتخت أنه كان رجلا عظيما ذا مييزات كثيرة على أمراء الوجه البحري ولذلك رفع منزلة صا الحجر كثيرا. فلما توفى ورثه في الملك ابنه بوكوريس (Bocchoris) مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين الصاوية وذلك حوالي عام ٧١٨ قبل الميلاد.

أما في الصعيد فقد استمر حكم يبعثى ميسوفا مئة قصيرة أقام في أثناءها بعض عمارات طافية بمعبد موت بطيه ونقش رسوما تمثل أسطوله في النيل مبديا فرجه بالانتصارات التي حازها على الأرجح في الجهات الشمالية، وتشاهد بين وحداته سفينة تفتخت الصاوية الرسمية التي أسرت في تلك الحرب، ومنه يتضح أن نفوذ يبعثى استمر باقيا على صعيد مصر إلى مدينة إهناس. وذلنا النقوش السالفة أن حاكم إهناس كان قائد الأسطول النيل ليعبثى^(٢).

وطمع يبعثى في خيرات آمون فحاول الاستيلاء عليها بطريق شرعي، فعين أخته وزوجته المدعوة أمنارديس (Amenardis) بدل ابنة أوسركن الثالث المدعوة شپ نوبت (Shoptnupet) أميرة طيه الدينية وقتئذ^(٣)، والظاهر أن هذه الحيلة لم تكن الأولى من نوعها لجواز تعدد حصول أمثالها سابقا. ولما انسحبت قوات يبعثى اجتهدا أوسركن الثالث في إرجاع سلطة أسرته الثالثة والعشرين فبسط نفوذه على طيه مدة يسيرة وأشرك معه في ذلك حاكما يدعى تاكلوت الثالث. والظاهر أن حكم يبعثى وما قام به من الأعمال حصل في عهد أوسركن الثالث. لكن أمراء صا الحجر أخذوا ينافسون تل بسطه في الحكم فاعتصب بوكوريس بن تفتخت الصاوي عرش مصر السفلى حوالي عام ٧١٨ قبل الميلاد وأسس بذلك الأسرة الرابعة والعشرين، وصار بعد ذلك الملك الوحيد لهذه الأسرة بقدر

(٢) ٤: ٩٤٠

(٣) ٤: ٨١١

(١) ٤: ٧٩٦-٨٨٣

ما تسمح لنا به معلوماتنا عن تلك العصور . أما الآثار المصرية فلم تفدنا كثيرا عن حكم هذا الملك القصير وكل ما وصل اليها هو لوح حجري وجد بالسرايوم يرجع تاريخه الى السنة السادسة من حكم بوكوريس اقيم وقت الاحتفال بدفن نور آيس بتلك المقبرة^(١) . وجاء في رواية يونانية لاشك في صحتها أن هذا الملك كان عادلا مجتهدا في تنقيح القانون ساهرا على الحق بكل قواه ، ولا غرابة في ذلك فأحوال البلاد الداخلية وقتئذ كانت سيئة للغاية تتطلب أمثال هذه المجهودات . ومن غرائب تاريخ هذا الملك ما ورد في قرطاس بردي مؤرخ في السنة الرابعة والثلاثين من حكم الامبراطور الروماني أوغسطس من أنه في السنة السادسة من حكم الملك بوكوريس نطق كيش متغيا بغزوة آشور لمصر قائلا ان المحن ستظل حالة بمصر تسعمائة سنة^(٢) ، ويعتبر هنا التنبؤ آخر ما عرف من مثله في التاريخ القديم ، أما أقدم تنبؤ ورد لنا من هذا القبيل فهو ما أشرنا اليه سابقا لما تكلمنا على إيور (Ipuwer) أيام المملكة الوسطى^(٣) . وعلق ما يتو على حادثة هذا الكيش أهمية كبيرة واعتبرها شيئا مدعشا في تاريخ الملك بوكوريس .

لا يخفى على القارئ أن مصر ظلت محكومة بأمراء الأقسام العديدين مدة تزيد على قرن ونصف تقريبا . وبدىي أن انحلال السلطة المركزية الحكومية صحبه اضطلال عظيم في المالية فاندمت بذلك تجارة مصر مع البلاد الأجنبية وانحطت الزراعة والصناعة وأصبحت موارد الخيرات في أيدي الأمراء يترونها لأغراضهم الشخصية . ثم أخذت أنظمة الزراعة تتلف تدريجا وكذا الطرق والجسور وانعدم الأمن في المدن والحقول وهكذا انتقلت موارد ثروة البلاد من سيء الى أسوأ . وبدىي أنه لا ينتظر أن نثر على اثبات تاريخي لهذه الأحوال لعدم جواز تسجيل مثل ذلك وقتئذ ، ونحن نستنتج ما قلناه مما لحق القطر في العصور التالية . وأصدق رواية لذلك ما جاء بالكتاب المقدس عن حال مصر وقتئذ ، فقد جاء في الاصحاح التاسع عشر من سفر اشعيا ما يأتي :

(١) وحى من جهة مصر . هوذا الرب راكب على صحابة سريعة وقادم الى مصر فترتجف أوتان مصر من وجهه ويذوب قلب مصر داخلها .

(٢) وأهيج مصريين على مصريين فيحارب كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه مدينة مدينة ومملكة مملكة .

(٤) وأغلق على المصريين في يد مولى قاس فيتسلط عليهم ملك عزيز يقول السيد رب الجنود .

(١٠) ان رؤساء صوعن (تنيس) أغبياء . حكاء مشيرى فرعون مشورتهم بيهيمة .

(١٣) رؤساء صوعن (تنيس) صاروا أغبياء . رؤساء نوب (نبته ؟) اتخذوا . وأضل مصر وجوه أسباطها .

(٣) راجع سابقا

(٢) Krall, in Festgaben für Böldinger, Innsbruck, 1898.

(١) ٨٨٤ : ٤

- (١٤) مزج الرب في وسطها روح غني فأضلوا مصر في كل عملها كترخ السكان في قيته .
 (١٥) فلا يكون لمصر عمل يعمله رأس أو ذنب ، نحلة أو أسلة .
 بديهي أن هذا الوصف لا يمكن أن يؤتى بأصدق منه دقة ومثانة .

في أثناء هذه الاضطرابات الداخلية أخذ فن الحفر في مصر يتقدم في طريق جديد بدرجة مذهشة .
 ومثل هذا التقدم في الفنون الجميلة حصل في أيام الاضطرابات في عهد أسرة مديسي في ايطاليا
 فعم هذا التقدم ايطاليا عموما وفلورنس خصوصا حتى استرعى الألباب . ثم ان القارئ الذي يتبع
 تاريخ المسالك بمصر يجد ان عهدهم المصحوب بفضي اضطرابات وجنات من قتل وسلب
 وحيف عمومي بأعماء القطر ، كان أيضا مقرونا بتقدم عظيم في عمارة المساجد . والحقيقة أن المهارات
 النوبية تحدث الناس بجمالها وقتشذ . ففي ظروف كهذه في العصر الذي نحن الآن بصده تقدم فن
 الحفر تدريجيا حتى بلغ أعظم درجاته في عهد الاصلاح الذي تلاه بعد مضي خمسين سنة تقريبا ذاتت
 مصر في أثنائها مرارة حكم الأجنبي وعسفه . وبديهي أنه لم يبق من هذه المهارات الا القليل كالميكيل
 الصفير الذي شيده أوسركن الثالث بطيبة حيث يحوى رسوما بارزة لا ينقصها الا رقى الحياة
 الاجتماعية والسياسية والاقتصادية حتى تصبح أعظم وأرق ما تخرجه أيدي الصناع الشرقيين .

في ذلك الوقت عصفت ريح التغيرات الأسيوية المذكورة آقا بسرعة وصارت مصر من أجلها
 محفوفة بأعظم المخاطر . وتفصيل ذلك أن مملكة القررات القوية بذلت جهدها لتحفظ بسيادتها على
 غربي آسيا . وقد ألمنا سابقا أن نسو بانبدد الذي يرجع تاريخه الى حوالي سنة ١١٠٠ قبل الميلاد
 كان أول فرعون تسمى أرسل الهدايا الى تجلات بليسر الأول لما اقترب هذا الأخير من حدود
 مصر . وبعد مضي مائتين وخمسين سنة تقريبا آمد فرعون مصر اتحاد ولايات آسيا الغربية بمساعدة
 حربية لسحق قوى شالمنصر (Shalmaneser) الثاني جهة قرقار (Qarqar) وذلك حوالي عام ٨٥٤
 قبل الميلاد . فلما أتى دور تجلات بليسر الثالث في الحكم بأشور جمع موارد مملكته وشن الغارة على غربي
 آسيا فأخضع سوريا وفلسطين فيما بين سنة ٧٣٤ وسنة ٧٣٢ قبل الميلاد ووصلت جنوده الى حدود
 مصر . وقد سقطت وقتشذ مملكة دمشق العرامية فأصبح غربي آسيا تابعا لأشور بأجمعه . وتوفي
 تجلات بليسر الثالث فتبعه في الملك شالمنصر الرابع الذي حكم مدة قصيرة ثار في أثنائها بنو اسرائيل
 وغيرهم بمساعدة ملك سوا (Sewa or So) ^(١) ، الوارد ذكره في الآية الرابعة بالإصحاح السابع عشر من
 سفر الملوك الثاني . ولا يبعد أن يكون سوا هذا أحد أمراء الوجه البحري المجهولين أو حاكما لولاية
 موصرى (Musri) شمالي بلاد العرب واسمها شبيه باسم مصر ، ولذلك حصل كثير من سوء الفهم
 لنصوص تلك الأزمنة ، ولا يبعد أن يكون قد وقع في هذا الخطأ كتاب النصوص المسماة السابقة
 الذكر . وقاومت مدينة السامرة (Samarria) عدة سنوات قبل غزوة آشور ، لكن لما جلس سرجون
 (Sargon) الثاني العظيم عام ٧٢٢ قبل الميلاد على عرش آشور بعد شالمنصر الرابع استولى على هذه

المدينة ثم تمى رؤساء بني اسرائيل فلحققت الأمة اليهودية وقتئذ الذلة والمسكنة ، وفي تلك اللحظة أيقن أمراء مصر الصغار بعجزهم عن مقاومة آشور فأوقدوا نار الثورة والاضطراب ضد آشور في ولايات سوريا وفلسطين لجمعها حازما بينهم وبين آشور . وفي سنة ٧٢٠ قبل الميلاد ظهر سرجون لثورة الثانية غربى آسيا وأخضع ثورة هناك كانت لمصر يد فيها على الأرجح ، ثم أكل انتصاره شمالا ثم زحف جنوبا نحو رخ (Raphia) حيث هزم جنود أعدائه وكانت بينهم وحدات مصرية تحت قيادة الضابط سبى (Sabi) (١) . وهذه هي المرة الثانية لوصول الآشوريين الى حدود مصر ولذلك أيقن أمراء مصر وقتئذ بالمهالك . والظاهر أن تجلات بيلسر الثالث وسرجون الثانى لم يستوليا على مصر لما لهذه الأخيرة من التاريخ القديم المجيد ، كانت آشور في أثنائه تهتم الهدايا لمصر رغبة في التخلص من حكمها . لكن حالة مصر الداخلية السيئة أصبحت أظهر من أن تكتم فانقلبت الأحوال السياسية عندئذ . وجاء في نصوص آشور أنه في عام ٧١٥ قبل الميلاد أرسل فرعون مصر (يرجح أنه بوكوريس) هدية عظيمة الى سرجون الثانى طالبا بذلك رضا آشور وتحويل مطامعها عن القطن المصرى (٢) . وبعد ما مضى على رجوع يمينى الى النوبة عشر سنوات أخذ ملوك نبتة يسترجعون سلطتهم على الوجه البحرى الذى كان في حالة بؤس وشقاء . والمعروف أنه لما توفى يمينى ورثه في الملك أخوه شاباكا (Shabaka) الذى اقترن بابنته (٣) فصار له بذلك حق شرعى في السدة الملكية تلاوة على حقه الطبيعى من حيث مولده . ولم يمتد الى أخبار تاريخية مصرية تثبت غزو شاباكا لمصر ، لكن ما يتبوء ذكر أن هذا الملك أحرق بوكوريس حيا وبسط نفوذه على الوجه البحرى بأجمعه وقوى مركزه حتى أسس الأسرة الخامسة والعشرين الإيتوبية . واتضح لشاباكا خطورة مركز مصر ازاء آشور فأرسل الى سوريا وفلسطين من أوقد الثورة ضد آشور ، ووجد ولاية سوريا بالمساعدة اذ هم ثاروا على سيلهم النينوى ، فانصاع له ولاية يهوذا (Judah) وموآب (Moab) وإدوم (Edom) (٤) ، ارتكانا منهم على مجد مصر القديم جاهلين انحطاطها الداخلى وقتئذ ومؤملين التخلص من الحكم الآشورى الشديد . ولم يفقه من هؤلاء الولاة خطورة الحالة الا النبي السياسى أشعيا حاكم ولاية يهوذا ، فقد أكد أن الاعتماد على مصر لا طائل تحته لأنه اعتقد أن آشور ستستولى على مصر يوما ما (٥) . ولما علمت آشور بهذه المخالفة ضدها أدركتها بسرعة فانفك المتحالفون وأظهروا ولاءهم لها في الحال . وقد نجح سرجون في توطيد مركزه رغم ثورات بابل واضطرابات الأقاليم الشمالية ، ثم توفى عام ٧٠٥ قبل الميلاد فتبعه في الملك ابنه سناشريب (Sennacherib) فوجد نفسه حاكما على أول مملكة سامية معروفة لنا في التاريخ مدعمة الأساس قوية الأركان .

ولما تولى سناشريب الملك اشتيك في انحسار اضطرابات بابل المعتادة التى سببها أحد أمراءها المدعو مردوق بالدين (Mardukhaliddin) . وتفصيل ذلك أن هذا الأمير طالب بعرض بابل ومبب لوالده سناشريب متاجب بجمه ، فلما عجز عن بلوغ مآربه أرسل رسله الى أعداء آشور الغربيين

Winckler, Ibid., p. 94. (٢)

Winckler, Unten. sur Altoriental. Geschichte, p. 92. (١)

٢٠ : ٤ (٣) Winckler, Ibid (٤) أشعيا : ٥ (٥)

يخرجهم على الثورة والعصيان ، فانصاع اليه ملك صور النسيط المدعو لولي (Iadli) وحزقيال (Hezekiah) ملك يهوذا وأمراء إدوم وموآب وعمون (Ammon) ورؤساء العرب المجاورين لهم . بهذه الكيفية انضمت جميع مستعمرات آشور الآسيوية الغربية بعضها الى بعض ، ثم دخلت مصر هذا التحالف وقر قرارهم أخيرا على محاربة نينوى . لكن قبل أن يبدأ هذا التحالف هجومه ظهر سناشريب بقاءة بالغرب مارا بفيليقيا مستوليا على قلاعها ما عدا صور ثم زاحفا جنوبا على مدن فلسطين العامة ، فعاقب عسقلون على عصيانها ثم زحف على ألتاكو (Altaqu) حيث التقى بجيش التحالف الذي جمعه شاباكا من الولاة الشماليين الذين عبر عنهم سناشريب بملوك موصرى ، ولم نهدل لأن الى معرفة عدد هؤلاء الجنود وقمشد لكن سناشريب وصفها بأنها تفوق الحصر ، والمختمل أنها لم تكن قوية جدا . أما الجنود المصرية التي اشتركت في المعركة فلم تكن بأى حال من الأحوال جديرة بقتال جيش آشور لعدم وجود السلطة المركزية بالفطر ولتفوق كلمة أمراء الوجه البحرى وعدم اعتنائهم بأمرهم الحربية . أما الجيش الآشورى فكان مدرزا بمنحكا لدرجة جعلت آشور الشغل الشاغل فى آسيا الغربية .

والحق يقال ان الجيوش المصرية لم تلتق للآن مع جيوش آشور فى معركة كبيرة . أما الامدادات التي أرسلتها مصر الى سوريا وفلسطين ضد آشور فكانت ضعيفة لا يعابها . ولما التقت القوتان السالفتا الذكر كان سناشريب يقود شخصيا قواته ، وكان طهراقه (Taharka) ابن ييمعنى^(١) موكلا من شاباكا لقيادة القوات المصرية . ولصيرورة طهراقه فيما بعد ملكا على إثيوبيا نمت اليهود فى هذه المعركة بملك^(٢) . ويذهبى أن المعركة التي دارت رحاها انتهت بهزيمة المصريين كما هو متظر ، وقد تم هذا بسرعة ، ثم عقبه حصار بيت المقدس وتخريب مقاطعة يهوذا . بهذه الكيفية وقف سناشريب كل مشاحنات الغرب وشتت شمل أعدائه . وبنينا هو يحاصر بيت المقدس فشاين قواته وباه ذريع أنى اليهم من مستنقعات الدلتا الموبوءة بالملاريا لخصد من جيش آشور عددا عظيما . وفى أثناء تلك المحنة وردت على سناشريب أنباء سيئة من بابل تفيد حصول اضطرابات خطيرة هناك ولذلك أسرع الى نينوى قبل أن يستولى على بيت المقدس . وهنا تحققت نبوءة أشعيا بنجاة هذه المدينة وقد طلتها بعد ذلك رواية مقدسة بمساعدة ملاك السيد الرب .

ولا يخفى أن رجوع سناشريب جاء بمثابة انفراج للكربة الحائلة ببيت المقدس ومصر معا . ولا بد أن القارئ قد فقه الآن أن جيش آشور وصل للرة الثالثة الى حدود مصر ثم رجع ثانيا مضطرا لظهور حوادث اجبارية لم تكن فى الحسبان . أما فلسطين وسوريا فقد انعدمت تقتم باثيوبيا حتى صموا آذانهم عن كل مشروع أشارت به هذه الأخيرة عليهم ، والسبب فى ذلك أنهم عرفوا حقيقة الحال كما عرفها الاسرائيليون قبلهم ، ودليلنا على ذلك ما جاء بخطاب ضباط سناشريب الذى أرسلوه لنواب بيت المقدس التمساء واليك ترجمته :

”لقد اتكلت على عكاز هذه القصبه المروضه ، على مصر ، واذا تركا أحد عليها دخلت فى كفه وتقتبها . هذا هو فرعون مصر وهذا شأن المتكئين عليه“^(٣)

(١) ٢ ملوك ٤ : ١٨

(٢) ٢ ملوك ٤ : ١٩

(٣) ٤ : ٨٩٢

ويظهر أن شابا كا ظل حاكما أمراء القطر المصري طول حياته ، ويرجح أنه اتفق مع سناتشريب في مخالفة بدليل وجود ختمى هذين الملكين يحاور أحدهما الآخر على قالب لبن جهة كيونجيك (Kuyunjik) . وأظهر شابا كا عطفًا ومساعدة نحو طائفة الكهنة والمعابد . ومن مآثر هذا الملك ترميمه لنقوش ديفية قديمة على جدر معبد بتاح^(١) تعتبر الآن أهم القطع الأدبية القديمة المعروفة ، ثم أرجع أخته أمنا رديس في وظيفتها السابقة بمعبد آمون بطيبة بعد ما طردها أوسركن الثالث لمدة قصيرة . ثم اتحد مع أخته هذه وشيد معبدا بالكرك وأرسل لذلك بعثة لقطع الحجر اللازم من محاجر وادي الحمامات . وتوجد بطيبة نقوش تشير إلى إصلاح شابا كا للمعابد هناك^(٢) ولذلك يظهر أنه أظهر عطفًا واحترامًا للمعابد مصر كما فعل فراعنة مصر قبله . أما أمنا رديس فمكت في طيبة مستقلة استقلالًا كبيرًا . والظاهر أنه بالرغم من المساعدة التي أسداها شابا كا لكهنة مصر فإنه شل نفوذ رئيس كهنة طيبة كما سيحيى الكلام على ضعفه وعجزه بعد .

وتوفى شابا كا عام ٧٠٠ قبل الميلاد بعد ما حكم اثنتي عشرة سنة تقريبًا، ويرجح أنه حكم أطول من ذلك في النوبة . وتبعه في الملك نوبي يدعى شاباتا كا (Shabataka) لا تزال نجعل علاقته بالبيت المالك النوبي بالضبط ، رغم ما أورده مايتو من أنه ابن شابا كا ، وقد سماه مايتو تاريخه سيكوس (Sebichos) . وبقي شاباتا كا حاكما في هدوء وسكينة لأن مستعمرات آسيا الغربية بقيت ساكنة لا تتحرك ضد آشور ، زد على ذلك أن سناتشريب كان مشغولاً في حروبه مع مستعمراته الشرقية . ولم نعتد الآن على اسم شاباتا كا على الآثار المصرية إلا نادراً ، وإنما يستدل من الحوادث التي تلت حكمه أنه كان ضعيفاً غير كفء لمخافة أمراء أقاليم مصر وجمع قوتهم كي يستعد لقتال آشور الذي كان ينتظر حصوله آناً قاناً .

لقد وضع للعيان أن الإثيوبيين ليسوا أكفاء لاستلام مقاليد الحكم ، وقد زاد هذا وضوحاً في أواخر حكم شاباتا كا الذي انتهى حوالي عام ٦٨٨ قبل الميلاد .

ويحدر بنا في هذا المكان أن نستقصي أخبار الأمير طهراقه بن بيعنخي الذي ترك نبتة شابا بالفا من العمر عشرين سنة وتوجه إلى مصر مع الملك شابا كا على الأرجح —^(٣) فنقول : ان طهراقه هذا ابن امرأة نوبية وتبدو على وجهه ملامح الزوج . والحق يقال ان هذا الأمير قام بأعمال عظيمة تناسب علاقته ببيعنخي ، من ذلك ما ذكرناه آنفاً من أنه قاد الجيوش المتحدة ضد سناتشريب . أما كيفية جلوس هذا الأمير على العرش فلا تزال مجهولها لكن مايتو أخبرنا أنه قاد جيشاً جراراً من إثيوبيا وقتل شاباتا كا ثم اغتصب العرش الفرعوني . أما الآثار المصرية فلم يثر على ما يشير إلى مثل هذا الانقلاب فيها ، وكل ما وجد على آثار تيس أن الملك طهراقه طلب من أمه أن تحضر إلى مصر من نبتة بعدما غاب عنها عدة سنوات ودعاها لتسلم مركزها السامي بمصر كالأم الملكية^(٤) . من ذلك يستنتج أن المصريين كانوا في انتظار غزوة آشور للدلتا وأن الإثيوبيين اتخذوا تيس صاحبة لقربها من آشور .

(١) راجع سابقاً صحيفة ٢٣٦ (٢) ٨٨٩، ٨٨٦ : ٤ (٣) ٨٩٥، ٨٩٢ : ٤ (٤) ٨٩٢ : ٤

واستمر طهرافه يحكم بلا منازع من جهة آسيا لمدة ثلاث عشرة سنة شيد في أثنائها عمارات صغيرة بتيس ومنف وأخرى أكبر حجما بطيبة ، وأيقن قرب هجوم آشور عليه فأخذ يصعد عدته لذلك . وللاحظ أن آسيا الغربية مضى عليها حوالي عشرين عاما لم ترفها سناشريب الذي قتله أولاده عام ٦٨١ قبل الميلاد . بعد ذلك تولى ابنه آشور أنخى الدين (Easrhaddon) الملك فأخذ يستعد لغزو مصر والقضاء على فرعونها كي يستريح من تدخلها المستمر في شؤون مستعمراته الفاسطيدية والسورية ، فوصل يبيشه العرمم الى حدود الوجه البحري عام ٦٧٤ قبل الميلاد^(١) وهناك التقى بقوات طهرافه الذي كان أكثر شجاعة واقداما من سلفيه . ودارت رحى القتال بين الطرفين وانتهى الأمر بفوز المصريين على آشور كما ورد على الآثار عام ٦٧٣ قبل الميلاد .

بعد ذلك أخذ آشور أنخى الدين يستعد طي الخفاء لغزو مصر . وفي ذلك الوقت انضم بعل ملك صور الى المصريين ضد آشور ، وذلك على أثر علمه بهزيمتها الأخيرة على الأريخ ، وفي عام ٦٧٠ قبل الميلاد ظهر آشور أنخى الدين تانيا في غربي آسيا قائدا جيشه وحاصر صور وانضم اليه بعض العرب فدلوه على طريق الصحراء الى مصر ، وقد استخدم جمالم الحبل لمياه الشرب وقت اختراق الطريق . بعد ذلك التقى يحنود طهرافه الذي لم يكن مستعدا جيدا لهذا الكفاح ، فدارت رحى القتال بين الطرفين وانتهت بفوز آشور وتمزيق شمل المصريين . على أثر ذلك تفهقر طهرافه نحو منف لكن آشور أنخى الدين تتبعه بشدة وبسرعة لا تعرف الملل فاستولى على منف وملكها من كل ثمين ، ثم فر طهرافه جنوبا تاركا الوجه البحري في أيدي آشور أنخى الدين الذي نظمه وضمه الى أملاكه . وذكر آشور أنخى الدين أسماء عشرين أميراً عينهم ملوك النوبة على الدلتا وقال عنهم انهم أتوا اليه وحلفوا له بين الطاعة فسمح لهم بالبقاء في مراكرم بشرط أن يستمروا مواليين له . وقد لاحظنا أن في هذه الأسماء المكتوبة بالخط المسماري ما يشير الى تكرار بعضها أو الى انتماء بعض هذه الأسماء المتشابهة الى أسرة واحدة ، وقد سبق ليعنخي أن عامل أمثال هذه الأسر سابقا كما ألعنا . وجاء بين هذه الأسماء اسم الأمير نيجاو (Neaho) بن تفنخت نعت بأنه أمير صا الحجر ومنف . وورد ضمن هذه القائمة أيضا اسم أمير طيبة لكن هذا القول يستبعد تصديقه لأن آشور أنخى الدين لم يحتفظ إلا بالسلطة الاسمية على الوجه القبلي . ورجع آشور أنخى الدين الى وطنه متبعا طريق الساحل البحري شمالا مارا بصخور نهر الكلب فنقش عليها لوحا أثريا أثبت عليه انتصاراته الحربية ، وهو يحاور الأثر الجبري الذي تركه رمسيس الثاني المذكورة فيه انتصاراته أيضا (شكل ١٥٩) . ولما بلغ آشور أنخى الدين شمال سنجرلي (Samal or Senjirly) شمالي سورية نصب فيها أثرا عظيما يمثله قابضا على أسيرين يثلب على أحدهما أنه بعل ملك صور وعلى الآخر أنه طهرافه المسكين لما تبدو عليه من ملامح الزوج (شكل ١٨١) .

وهكذا يتضح للقارئ أن القطر المصري حكاه الأجنبي في عهد الليبيين ثم في عهد النوبيين ثم أتت آشور بعد ذلك فبسطت نفوذها على مصر . وبديهي أن القوة الثالثة الأجنبية متباينة تماما عن

(١) راجع مصادر الفترات المنقبة لآشور أنخى الدين بكتاب فنكار ، شرحه ، ص ٩٧ - ١٠٦

النسابتين وأن الليبيين والنوبيين ثَمَّصوا وحكوا مصر كأنهم قراعتة . أما آشور فحكمت الدلتا من هورن مرعاة شفقة أو عطف نحو المصريين وطاعتهم ولذلك لم يحتمل الأمراء المصريون ذلك العسف الإسيوي، فحشوا في يمين ولائهم الذي أقسموه لآشور وأخذوا يتحدثون سرا مع طهرافه ليستعيد الحكم في الدلتا، على أثر ذلك أتى طهرافه إلى الوجه البحري بعد ما رجع جيش آشور إلى وطنه، فاضطر آشور أمي الدين أن يعيد الكرة على مصر، لكنه توفي في أثناء زحفه عليها عام ٦٦٨ قبل الميلاد . فلما تولى الملك بعده ابنه آشور بانبال (Ashurbanipal) اتبع خطة والده بسرعة وعهد إلى أحد ضباطه بقيادة الحملة إلى مصر، فلما التحمت جيوش آشور مع جيوش طهرافه فيما بين منف وشرقي الدلتا انتهزم طهرافه الذي لم يتحصن بعد ذلك بمنف كما فعل سابقا بل فر نحو طيبة حيث تحصن . لكن الآشوريين جمعوا المدد من الوجه البحري وزحفوا أربعين يوما حتى بلغوا طيبة فاضطر طهرافه أن يغادرها وأن يتحصن بأعلى النيل . عند ذلك لم يتعقبه جيش آشور بل تركه وشأنه . ولم يثبت للآن إذا كانت آشور استولت على طيبة وقتئذ أم لا ، لكن الثابت أن سلطة آشور بانبال لم تمتد إلى الوجه القبلي . ولما أراد آشور توطيد نفوذه بالدلتا أخذ ولاته هناك يراسلون سرا مع طهرافه ليقتدحهم من نير آشور . وكانت هذه العصاة برياسة نياخو الذي ولاه آشور أمي الدين على ضوا البحر وشارولوداري (Sharuludari) وإلى تيس وباكرورو (Pakruru) ، وإلى سفظ الحنة (Persepet) وأرسلت عيون آشور بمصر خبر هذه المؤامرة إلى آشور بانبال فأمر بإرسال هؤلاء الرؤساء مصفدين بالأغلال إلى نينوى . عند ذلك احتال نياخو بدهائه حتى استمال عطف آشور بانبال عليه فصصح عنه وأغلق عليه النعم ثم أرجعه إلى مركزه بصا الحجر وعين ابنه وإيا على أتريب (بها) لكنه أرسل معه موظفين آشوريين لمراقبته . وقد نجحت هذه الحيلة جيدا فلم يظهر طهرافه ثانيا بالدلتا لعدم مساعدة ولاية الوجه البحري له ، لكنه بالرغم من ذلك قد أُنخ كهيئة يتاح بمنف تاريخ وفاة عجل من عجول آيس سرا بإحدى الطرق المحفورة تحت الأرض بمدفن تلك العجول المعروف بالسرأيوم فكتبوا عليه السنة الرابعة والعشرين من حكم طهرافه (عام ٦٦٤ قبل الميلاد) (١) .

ومضى على هذه الحال عدة سنوات كان الوجه القبلي في أثنائها تحت سلطة طهرافه الفعلية . أما رئيس كهنة آمون بتيه فقد أصبح الآن قليل النفوذ ضعيف السلطة ، والسبب في ذلك أن النفوذ كان هناك في يد شخص يدعى منت ممت (Mantemhet) الملقب "أمير طيبة" أو "حاكم الجنوب ورئيس كهنة مصر" وذلك رغم كونه الرابع في ترتيب طيبة الكهنوتي ، والظاهر أن زهرة طيبة ذبلت وقتئذ، والمعروف عن هذا الأمير أنه كان قويا ثريا صرف أموالا طائلة في إصلاح مائلف من المعابد بعد الذي أحدثه الآشوريون (على الأرجح) بالرغم من فقر مصر وبؤسها (٢) . واستولى طهرافه على دخل آمون بتيه بأن عين أخته المدعوة شبنوپت (Shepnupet) بدل الأميرة أنارديس أميرة طيبة الدينية التي عينها يبعثي بطريقة مماثلة (٣) . ويعزى إلى طهرافه أنه شيد أو أصلح معبدين عظيمين بنته عاصمة إثيوبيا (٤) التي عظمت وصارت لها منزلة كبيرة تتناسب مع مقام مملكتها السامي وقتئذ .

(١) ٩١٧ : ٤ ملاحظة (٢) ٩٠١ : ٤ ملاحظة (٣) ٩٤٠ : ٤ ملاحظة (٤) ٨٩٧ : ٤ ملاحظة

وبعد ما حكم طهراقه نحسا وعشرين سنة أشرك معه في الملك ابن شاباكا المدعو تانوت آمون (Tanutamoni) - بلواع اجبارية على الأريج - وعينه حاكما على صعيد مصر وذلك عام ٦٦٣ قبل الميلاد. والظاهر أن تانوت آمون استمر في طيبه وقتما كان منت محت أمير طيبه محافظا على سلطته هناك. أما طهراقه فرجع الى نبتة متعبا من كفاحه مع آشور واستقر هناك حتى توفي، وذلك قبل أن تنقضي سنة تقريبا على تولية تانوت آمون (أى عام ٦٦٣ قبل الميلاد). عند ذلك أسرع تانوت آمون الى نبتة وتسلم عرش النوبة^(١). وقبل ذلك بقليل رأى تانوت آمون فيما يرى النائم حلما فسر بأنه سيستولى يوما ما على وجهى مصر^(٢)، فبدأ حال توليته الملك بتحقيق التمام وذلك سنة ٦٦٣ قبل الميلاد. ولعب على مسرح الحياة مثل الرواية التي مثلها طهراقه، فلما بلغ الوجه القبلى حيث الأهالي بالمديح والتصفيق، لكنه لما بلغ منف قابلته قوات آشور ومدن أمراء الدلتا الوجهين من آشور، فغلب عليهم واستولى على منف^(٣). والظاهر أن نيجاو تحصرهما في هذه المعركة وقال هيردوت أن ابنة المدعو پسامتيك (Psamatik) فتز الى سوريا، ففرح تانوت آمون بنصره كثيرا وأرسل بعض غنائمه الى نبتة ليشيد بها معابد جديدة^(٤). أما ولاية الوجه البحرى فانهم لم يسلّموا بلادهم لتانوت آمون لخوفهم من آشور، فلم يتمكن تانوت آمون من الالتقاء بجيوشهم أو القبض على بلادهم^(٥)، فرجع الى منف وقابل هناك أمراء الوجه البحرى الذين أظهروا له الود والخضوع بشكل لا يفهم منه أنهم قطعوا صلّتهم مع آشور^(٦).

واقصر تانوت آمون على سيادته على الوجه البحرى فاتخذ منف مقرا له محققا بذلك منامه، لكن ولاية آشور بالوجه البحرى كانوا قد طيروا خبرا على جناح السرعة الى آشور بانال في نينوى حالما غادر تانوت آمون نبتة، ولذلك أتى جيش آشور عام ٦٦١ قبل الميلاد الى مصر وطرد الإثيوبيين من الوجه البحرى نهائيا ففرّ تانوت آمون بشكل غمز الى الصعيد، لكن الآشوريين تعقبوه حتى طيبه وسلبوا عاصمة القطر فلم يتركوا فيها شيئا الا سلبوه، فاستولوا مثلا على التماثيل البديعة والأثاث الجميل والأدوات الغالية التي أهداها الأمير منت محت الى المعابد. وأخذ الآشوريون خلاف ذلك مستلّين فضيتين زاهيتين زنة كل منهما ٢٥٠٠ تالنت (التالنت يقرب من ٥٧ رطلا) كانتا منصوبتين على مدخل أحد المعابد^(٧) وقد نقلوهما الى نينوى. ومن هذا يتجلى لنا أن معابد طيبه المهمة كانت محتفظة بثروة عظيمة حتى في ذلك العهد. وانتشر بنا خراب طيبه في الآفاق فبقى ثابتا في ذهن النبي ناحوم وقتما تنبأ بخراب نينوى بعد مضي خمسين سنة على هذه الحنة. واليك نص ما جاء بالكتاب المقدس بسفر ناحوم بالإصحاح الثالث آية ٨-١٠ :

” (٨) هل أنت أفضل من نو آمون (طيبه) الجالسة بين الأنهار رحولها المياه التي هي حصن البحر ومن البحر سورها ؟ (٩) كوش قوتها مع مصر وليست نهاية فوط ولويم كانوا مموتك . (١٠) هي أيضا مضت الى المنفى بالسبي وأطفالها حطمت في رأس جميع الأزقة وعلى أشرافها ألغوا القرعة وجميع عظامها تقيدوا بالقيود“ .

(٤) ٤ : ٩٢٩

(٢) ٤ : ٩٢٥-٨

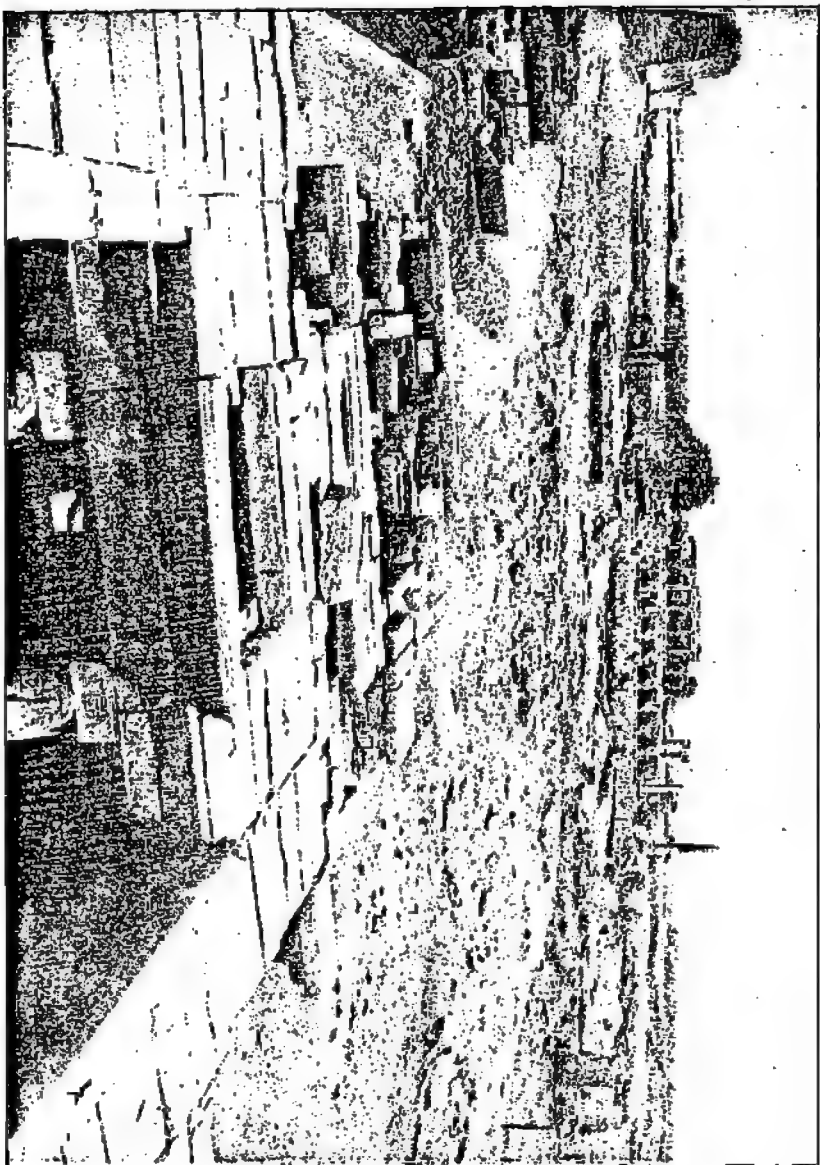
(٢) ٤ : ٩٢٢

(١) ٤ : ٩٢٣ ملاحظة

(٧) Winckler, op. cit.

(٦) ٤ : ٩٣١

(٥) ٤ : ٩٣٠



شكل ١٨٢ - سطر عام أبي الكرم، مأخوذ من آثار العصر البرونزي من جهة الجنوب من ساحة ميدان عوزيس الذي أسسه رستم الثالث .
وتجاه حجر ميدان عوزيس في الجزء الأيمن للصورة ، وتجاه وسط الساحة الأمامية بقعة بيضاء ، هي عبارة عن حوزة داخل الميدان من
طريق الباب الأزرق ذكره في سلب الكتاب في صفحة ٢٥١

منذ ذلك الوقت أخذت طيبة تضمحل وتندثر بعد ما كانت مضرب الأمثال في الغنى والجاه ، ولا تزال الى الآن حاوية أعظم الآثار والأطلال من تلك العصور القديمة .
 وكان رجوع تانوت آمون الى نبتة نهاية الحكم الإثيوبي بمصر . أما حياة هذا الملك فملوثة بالضعف وقلة الكفاية كأصله . ولا يخفى أن الإثيوبيين بدعوا ملكهم بوسط إفريقية ثم رغبوا في منافسة سياسة غربي آسيا في الوقت الذي كانت فيه آشور مهيمنة على الشرق ، ولم يكن في وادي النيل المساجد التاريخ من يعارضها في الحكم سوى الإثيوبيين الذي لم يحوزوا أقل كفاية في مقاومة ومكافحة آشور . وعجز الإثيوبيون عن ضم سلطة أملاكهم لمكلفة آشور وحاولوا كثيرا مقاومتها لكنهم أظهروا في كل محاولة مثالا من الضعف وعدم الكفاية . ونحن لا ننكر أن طهراته نجح في صد هجوم آشور أخى الدين وحافظ على مكان مملكته مدة يسيرة ، لكن ذلك لم يدم طويلا لأن آشور سرعان ما أرسلت اليه قوة حربية قضت عليه وأقصته بشكل غزى الى أعلى النيل . وقصارى القول أن كفاف آشور في عزها مع إثيوبيا لم يكن بحال من الأحوال كفاف النندلند من حيث المقدرة والقوة والكفاية .

ولما رجع الإثيوبيون الى بلادهم لم يحاولوا الإياب الى مصر بل صرفوا همهم في ترقية النوبة ثم أخذ عدد المصريين في تلك الجهات يقل بمرور الزمن ، فنالشت تدريجا الصبغة المصرية بها ثم تددت البلاد ودخلت في طور البربرية وانتقلت سلطتها تدريجا من الملوك الى الكهنة فأصبحت سلطة الملك اسمية . ثم قويت شوكة الكهنة فكانوا يأمرؤن الملوك أحيانا بالاعتقاد ويعينون غيرهم بدلم . وبعد ما كان الملوك يستوطنون نبتة ويشيدون بها العمارات ويزينونها اضطر خلفهم أن ينتقل الى أعلى النيل ، ولهذا الانتقال عدة أسباب أولا غزوة بسامتيك الثاني للنوبة في القرن السادس قبل الميلاد . والمعروف أن النوبة أخذت تتسع من ذلك الوقت جنوبا فانضم إليها وادى النيل الأزرق الخصب المعروف عند العرب باسم ألوا (Aloa) فانصلت بذلك نبتة عن إقليم الشلالات النيلية ، ثم أخذت تجارة النوبة مع الأقاليم الجنوبية تزداد كما كثرت أيضا مستعمراتها بتلك الجهة ولذلك لم يحل عام ٥٦٠ قبل الميلاد حتى كان ملوك النوبة مستوطنين عاصمتهم الجديدة المعروفة عند اليونان باسم مروة (Meroe) .

وبدئى أن انتقال العاصمة جنوبا قطع عنها الصلة بالعالم الشمالى وأدخل إثيوبيا تدريجا عالم الجهل والخيال مع أن اليونان اعتبروها منبع الحضارة .

بعد ذلك امتنع ملوكها من استعمال الخط المصرى القديم واللغة المصرية القديمة فلم تبرز شمس عهدنا حتى صار أهالى تلك البلاد يستعملون خطا مخالفا لخط الميروغليفى كلية ولأن لم تحل رموز هذا الخط . ولما غزا الرومان تلك البلاد تحطمت أركان المملكة الإثيوبية ولم يمض على ذلك قرن أو اثنان حتى احتل الأقوام المعروفون باسم بلهيس (Blemmyes) الآتون من الشرق جزءها الشمالى ، أما الجزء الجنوبى فقد احتكرته مملكة الحبش المسيحية التى نشأت حول مناج النيل الأزرق في القرن الرابع بعد الميلاد واحتكرت لنفسها الآن اسم الوطن الأصلى لإثيوبيا .

الكتاب الثامن

دور الإصلاح - النهاية

الفصل السابع والعشرون

دور الإصلاح

يرجح كثيرا أن نبحاؤا أميرضا المجر توفى فى كفاف مع ثانوت آمون وأن ابنه المدعو بسامتيك هرب الى الآشوريين كما سبق القول ، وعلى أثر ذلك عينه آشور بانبال أميرا على اقليم والده الأصل وأضاف اليه أيضا اقليم منف . ومنذ ذلك الوقت صارت مصر فى حالة بؤس وخضوع تحت حكم الآشوريين الذين شجعوا هجرة الأجانب اليها ونظموا ترتيب ولايتهم .

ومعلوم أن الوجه البحرى كانت تحت رحمة أمراءه الأجانب الماجورين منذ الأسرة الحادية والعشرين . أما الصعيد فلم يكن واضح النظام والتبعية ، لكن المعروف أن منت تحت استمر محافظا على سيطرته هناك . وفى وسط هذه الظروف السيئة لم يتصور أحد ما قدر لمصر فى عالم الغيب من أيام البشم والسرور فى القريب العاجل ، والفضل فى فك هذه الكربة يرجع الى بسامتيك الذى بذل كل جهده للاستيلاء على موارد القطر ليحقق بذلك آماله من الاستقلال بمصر والحلوس على عرشها . ولا غرابة فى ذلك فهو من سلالة نفعخت الصاوى الشديد رئيس إمارة صا المجر فى عهد بيمعنى الذى امتاز على كل أفراد أسرته بالقوة والحكمة السياسية كما ظهر لنا من تاريخهم .

وأول خطوة خطاها بسامتيك كانت انخلاص من سلطة ولاة آشور بمصر . والظاهر أنه كان عالما بقرب حصول نزاع شديد بين آشور بانبال وأخيه ملك بابل واشترك بلاد . عيلام (Elam) فى الأمر . وفى سنة ٦٥٢ قبل الميلاد قامت الحرب المنتظرة فأرسلت بلاد العرب مددها الى بابل ضد آشور فاضطرت هذه الأخيرة الى ارسال جيش قوى لعقابها . ثم حصلت اضطرابات فى البلاد شمالي نينوى تطلبت ارسال قوات أخرى من آشور لإخضاع أهالى السميريين (Cimmerians) بقليقيا (Cilicia) واستمرت رعى الحرب الآشورية العظمى دائرة مدة اثنتى عشرة سنة فلم تهدأ إلا فى سنة ٦٤٠ قبل الميلاد لما كانت حركة بسامتيك بلغت حدا بعيدا لم يجرؤ آشور بانبال بعد ذلك على ما يظهر أن يخاطر باخضاعها .

لقد ترك لنا اليونانيون عدة حكايات عن عهد بسامتيك اعتبروها صادقة ، وهى فى الحقيقة تحوى كثيرا من الحوادث الواقعية . من هذه ما رواه هيرودوت عن كيفية جلوس بسامتيك على عرش مصر حيث قال : "أن بسامتيك كان واحدا من اثنى عشر أميرا مصريا اقتسموا مصر فيما بينهم . وفى يوم من الأيام أخبر أحد الكهنة أمراء مصر أن أحدهم لا بد أن يشرب الشراب ذات يوم للتقرب الى

المعبود بتاح في قدح من البرنز، وبهذا يصير ملكا على الأقاليم المصرية . فلما كان هؤلاء الأمراء مجتمعين للنادمة على الشراب تقربا الى تمثال بتاح ولم تكن أقداح الذهب المعروضة بينهم على قدر صدهم إذ كانت تنقص كأسا لسهو حصل من الكاهن المكلف تهديم الأقداح اليهم ، فبقي أحدهم وهو يسامتيك بدون قدح فتزع مغفّره (١) من رأسه وكان من البرنز وشرب فيه الشراب فذكر رقاقؤه بشرى الكاهن السابق فأكرهوه على أن يساجر الى بعض أجمات الوجه البحري خشية أن يستبد بالملك دونهم . وأقام ببعض الأجمات وبعد وصوله اليها أحضر كاهنا من الكهان وسأله عما سيقع له فأخبره أنه لا بد أن يستبد وحده بملك مصر وأن ينصره على أقرانه رجال من البرنز يقعون عليه من جهة البحر الأبيض المتوسط ، فانتظر وعده . واتفق أن ألقت عاصفة بحرية سفنا بتلك الجهة فيها رجال أشداء بن ملاحى اليونان (كارين وأيونين) مسلمين بأسلحة من البرنز فخرجوا في البر وأخذوا يهبون الوجه البحرى . وتذكر يسامتيك خبر الكاهن فيادر الى الملاحين الوافدين وأكرمهم وتخلف معهم على أن ينصروه فدخلوا في خدمته واستعان بهم على شن الغارة على اخوانه فظفر بهم واستبد بالملك وحده .

إذا استئينا ما جاء بهذه الرواية من المبالغات فان القارىء يجد فيها حقائق هامة عن أعمال يسامتيك الأولى . فالأمراء الاثنا عشر هم أمراء الوجه البحرى السابق الكلام عليهم . أما الهنود الأيونيون والكاريون فقد خبرنا عنهم ماير (Meyer) بانهم أرسلوا من قبل جيجس (Gyges) ملك ليديا الى مصر بقصد الاتفاق معها على التخلص من حكم نينوى بسد ما تخلص من أعدائه الساميريين بالجماعة الى آشور سابقا . وجاء في الآثار الآشورية أن هذا الملك أرسل مساعدة حربية الى مصر ، وعلى كل فلا بد أن يكون يسامتيك يد في الاضطرابات ضد آشور وأنه اختتم تلك الفرصة فانتصر على أقرانه أمراء مصر واحتل العرش الفرعونى .

وأسرع يسامتيك الى لم شعث مملكته ففى سنة ٦٥٤ قبل الميلاد لما كانت الجيوش الآشورية زاحفة على بابل كان يسامتيك قد استولى على طيبة واعترف به متمتحت صديق طهراقه (٢) ، أما إمارة طيبة فقد تشنت وتفرقت اثر الغزوات الإثيوبية ولذلك لم تعترض يسامتيك هناك اضطرابات أو مشاغبات . وأراد يسامتيك أن يستولى على ما بقى من دخل آمون فحين اخته يتقريس (Nitoxia) ببل شپ نوبت سيدة كهنة طيبة وأخت طهراقه المتوفى . وقد عثرنا على المرسوم الملكى القاضى بذلك وهو النص الوجيد الطويل الذى عثر عليه للآن من آثار يسامتيك الأولى . وجاء فى هذا المرسوم أن شپ نوبت تنازلت عن أموالها وأمتعتها الى يتقريس (٣) ، ومنه يتضح أن هبوط كهنة آمون كان سر بعا ، ففى ظرف ستين سنة تقريبا تغير رؤساء كهنة آمون الأقوياء الأشداء واستبدل بهم أميرات مقدسات وهكذا أصبح رئيس كهنة آمون امرأة ! (٤) .

(١) المنغريوزن المبعث زرد يسج على قدر الرأس بليس تحت النقشوة ٩٤٩٠-٩٣٧٠: ٤ (٢)

(٣) ٩٣٩٠-٩٤٨٠: ٤ (٤) ملاحظة (د)

ان قضاء سامتيك على امراء مصر جاء رحمة ونعمة على القطر الذي كان من ايد يتلقى بتار الضوضى ، وبهذه الكيفية نجحت مصر من حكم هؤلاء الامراء واتباعهم الحريين الذين هموا على وطنهم الذل والهوان مدة اربعمائة سنة تقريباً ، وصار سامتيك بفضل هذه الاعمال من اعظم نوا كفا فراعنة مصر . ولقد واجهته مشاكل عديدة خطيرة زيادة على الآفات التي كانت مختلفة بالقطر من قديم الزمن ، ومع ذلك فقد نجح سامتيك في حلها وأرجع النظام الى نصابه ، فسأوى سامتيك في الشرف والمثلة . أمضحت الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة وأحمسن الأول طارد الهيكسوس ، وبالرغم من الاعمال التي قام بها سامتيك فانه لم يتمكن من استئصال الامراء كما يدعي البعض لأن بعضهم اتفق اليه فلم ينله الضرر . وقد عثرنا على أخبار هؤلاء الامراء على الآثار مثل الأمير منت تحت بطييه فتدعي سمح له سامتيك أن يبنى حاكماً الجنوب^(١) وكذا أمير هاناس المدعو هور (Hor) القائد قد سمح له سامتيك أيضاً بالبقاء في امارته حيث شيد معبدا عظيماً باسمه بعد وفاة سامتيك الأول بجبل تقرينا^(٢) . وعثر على مقبرة بطييه لشخص يدعى ايتاويت (Pediamanemopet) غاية في الجمال والرفق مما يؤكد أن صاحبها كان عظيم النفوذ في مصر في عهد سامتيك ، ومما يستدعي النظر أن الأمير منت تحت بطييه طلب منه أن يدفع الضرائب الى نيتقريس كريمة سامتيك الأول^(٣) . وأهم من هذا وذلك أن منت تحت لم يرثه ابنه المدعو نسوتاح (Nesuptah) بل تبعه رجل يقال له پدى حور (Pedihor) لقب "أمير طييه وحاكم الجنوب"^(٤) . ولا يبعد أن تكون هذه نتيجة سياسة سامتيك التي كانت ترمى الى التخلص من نفوذ امراء مصر ومحو توريث المراكز الحكومية .

يتضح من ذلك أن سامتيك سمح لبعض الامراء أن يحتفظوا ببعض نفوذهم ، لكن هؤلاء كانوا قليلي العدد مقيدى السلطة ، بقاء عمله هذا مشابها تماماً لما فعله أمضحت الأول أيام المملكة الوسطى ، وبهذه الكيفية زال خطر انحلال الأمة المصرية .

وكان من أصعب الأمور على سامتيك إنشاء قوة حربية ففكر في الأمر فوجد أمامه الليبيين الذين طاشوا بمصر عدة قرون حتى كثرت عددهم وهم كما لا يخفى حربيون لكنهم أصبحوا الآن عددياً الخطر على العرش المصري . وقد فلا هيروودوت في مقدار عددهم والحقيقة أننا لا نزال نجهد ذلك بالضبط نجماً المعروف عنهم أنهم كانوا مستوطنين بالدلتا . وقد قسمهم هيروودوت الى قسمين قسم يدعى هرموتيبس (Hermotybies) وقسم يقال له كالاسيريس (Calasiries) وهؤلاء لم تستفد منهم الأمة المصرية شيئاً من الوجهة الاقتصادية بل كانوا عتبة كنفودا في سبيل سامتيك ، لذلك لم يجد حلالته بدأ من تسليط الجنود اليونانية والكارية (Carians) عليهم ، وهكذا يمد ما قطعت مصر شوطاً بعيداً المبدى في الحياة الحربية أصبحت الآن تستخدم لجماعتها جنوداً اجانب ماجورين تابعين للدول متباينة . فالقب سامتيك جيشه من يونانيين وكاريين ونسوريين من جهة ، ومن ليبيين وغيرهم من الاجانب

(١) ٥٤٩٤٤ (٢) ٩٦٧٤٤ - ٩٧٢ (٣) ٩٦٩٤٤ (٤) ٩٠٢٤٤ (الاجيز) .

المتحصنين من جهة أخرى ، وحشد عسكره الأيونيين والكاريين بالقرب من دفته (Daphnæ) وهي على حدود مصر الشمالية الشرقية التي يخترقها فرع النيل . أما غربي الدلتا فكان يحيا بقوة حربية أخرى من هذا النوع يجهة قلعة مريا (Marea) القريبة من الاسكندرية . ووضع بسامتيك حامية أخرى بجزيرة الفيل بأسوان لمنع غارات النوبة من الجنوب .

قال هيرودوت أن مائتين وأربعين ألفا من جنود مصر هجرت معسكرها جهة أسوان وعرضت مساعدتها لملك إثيوبيا لاستيائها من لبث ثلاث سنوات بمعسكرها بدون تنقل ، ولا يخفى أن هذا العدد مبالغ فيه كما هي العادة عند هيرودوت ، لكن الرواية في حد ذاتها تحوى شيئا من الحقيقة لأنها تتشبه مع معلوماتنا عن أحوال القطر في عهد بسامتيك الأول . وقد اختار الملك ألفا من جنود الهرموتيليس وألفا من الكاليسيريس ليكونوا ضمن حرسه الخاص ، أما الجنود الأجانب التي كانت لدى جلالة فكانت كثيرة جدا على حسب ما اقتضته الظروف .

ان رقى مصر وحضارتها في هذا العهد الذي نحن بصدده يختلفان كثيرا عنهما في العصور السابقة . لأن الأمة المصرية فقدت تلك الروح العسكرية التي دبت فيها اثر غزوة الميكسوس فاستحال على بسامتيك جعلها أمة حربية وصرف مجهوده في توطيد حالة البلاد الاقتصادية ، واتكل لنيل غرضه على الجنود الأجانب المأجورة التي صارت ضرورية لكل حاكم شرقي . لكن بسامتيك كان كثير الاهتمام بإنشاء مملكة حربية بعد ما حسن حالة وطنه الاقتصادية وحشد لها جيشا مصريا عظيما وإن كان معظمه أجنبي الأصل . وبدى أن دخول المنصر الأجنبي في الجيش كان أمرا لا يمكن التخلص منه . ومعلوم أن الاحتفاظ بجيش كامل في مثل هذه الظروف تطلب ترقية مالية المملكة المصرية بازدياد ايرادها لأن وجود أحد هذين الأمرين يحتم وجود الآخر . لذلك كان مركز بسامتيك وقتئذ أشبه كثيرا بمركز عمر والخلفاء الأول . وهكذا يتضح أن رقى القطر في مثل هذه الظروف يتعلق كثيرا بكفاية حاكمه ومقدرته في استعمال القوى التي لديه كالجيش والعمال كي ينتظم بذلك دولاب الأمور ويسير نحو النمو والتحسين . ولقد كان بسامتيك اليد المحركة والرأس المدبرة ، أما الأهالي فكانوا يقومون بالأعمال بحرية حيثما يوجههم ، لكنهم كانوا فاقدي الحماسة والغيرة (على عكس ما كانت عليه الحال أيام الخلفاء) . فلما انتظم دولاب الحكومة تبعه عهد الرخاء وانغمس القوم في الرفاهية وعكفوا على التمتع الذي شمل أسلافهم أيام الأمرة الثالثة والعشرين . وبدلا من بذل المجهود في ابتكار الطرق الجديدة لتحسين حال القطر كما فعل أهالي الامبراطورية رجع الأهالي الى اتباع نظام الحكم القديم السابق لعهد الامبراطورية والذي يرجع تاريخه الى ما ينيف على ألف سنة . لذلك عبد القوم ملوك منف الأقدمين وجددوا قربان والهدايا التي كانت توزع على أرواحهم ورموا أهمهم العظيمة واستعملوا الألقاب والرتب التي تحلى بها أسراء عهد الأهرام في القصر الملكي والحكومة وبدلوا جهذ طاقهم في صيغ حكومتهم بصيغة حكومة أجدادهم الأقدمين . ولم يكتفوا بذلك بل استعملوا الخط الهيروغليفي في مكاتبتهم وفي احتفالاتهم الرسمية ، ولا بد أن كتابهم لقوا صعوبة عظيمة للرجوع الى ذلك . أما الديانة فقد عمل فيها كل ما يمكن لتطهيرها من العقائد الأجنبية والبدع الحديثة ، فأبطلت عبادة

ست المعبود الأجنبي الذي كان يرمز به للخراب والدمار . وهكذا انفردت الأمة المصرية بنظام عام صعب التغيير كالذي حل بالأمة الاسرائيلية بعد ذلك بقليل . ثم أخذ القوم يستعملون نصوص الأهرام القديمة من جديد وينقشونها على توابيتهم الحجرية الضخمة رغم جهلهم بمعانيها في أغلب الأحيان . ثم نظموا نصوص كتاب الموتى لأحرمة فصار طوله ستين قدما من الورق البردي ، ومنه تتضح لنا شواهد عديدة لإحياء أدبيات الموتى القديمة . وصار الانسان يشاهد على جدر المعابد والمقابر رسوم أحوال المعيشة في البرارى والحقول وكذا رسوم المعامل ومصانع السفن . وقد أخذت هذه المناظر في الحقيقة من مصاطب عهد الملكة القديمة بدقة يجيل لناظرها من أول وهلة أنها من العهد السحيق ، فقد جاء في الآثار أن رجلا من طيبة يدعى أبا (Aba) أرسل حفاريه الى مقبرة بأسبوت من مخلفات الملكة القديمة ليرسموا له نقوشها على قبره لشبه في اسمه باسم صاحب تلك المقبرة القديمة .

ولا يخفى أن عودة الديانة وأحوال المعيشة والحكومة الخاصة بالعهد القديم لازمتها مصاعب ظاهرة وخفية لأن هذا التغيير شمل حياة القوم وأحوالهم السياسية والاقتصادية ، وهذا أمر لا يحتاج الى بيان لأن التغيرات التي اعترت القوم مدة ألفي سنة بعد الملكة القديمة ليس من الممكن القضاء عليها بسهولة ، ولذلك ترى أنه مع صيغ الأحوال الخارجية بالصيغة الوطنية القديمة فان الحقائق الثابتة الحديثة لا تزال باقية من وراء ذلك الثوب الخارجي ، وهذه الحالة تشابه تماما حالة بني اسرائيل لما أرادوا الرجوع الى أحوال المعيشة والنظام التي كانوا عليها أيام سيدنا موسى ، فكانت نتيجة هذه الجهود كلها أن القطر انتعش منها نظريا أكثر منها عمليا . ولم يكن هذا الانتعاش بالصعب في العهد الصاوي لأن المصريين اعتادوا من قديم الزمان أن ينسوا معظم نصوصهم الدينية وعلاجاتهم الطبية المحبوبة والأمثال والحكم الى عصورهم العتيقة . وبديهي أن هذه النسبة كانت صائبة أحيانا في بعض أمور عهد الامبراطورية ، أما في عهد الأسرة السادسة والعشرين فلم تكن كذلك .

وكان الرجوع الى النوق القديم في الفنون الجميلة من أصعب الأمور ، والسبب في ذلك أن هذه الفنون ارتفعت كثيرا في العهد الإثيوبي فكان النوق السليم في العهد الصاوي يقظا لكل تغير يعتره كالذي نحن الآن بصدده . وبالرغم من أن نصوص ورسوم العهد الصاوي كانت تؤخذ من المقابر المصرية القديمة فان الباحث بعد دقة الفحص والإمعان كثيرا ما يميز رسوم العهد الصاوي من العهد القديم ، والسبب في ذلك أن الأولى تحوى بعض الحرية في امتحان جزئياتها كالتماريح الدقيقة والانتعاشات البديعة مما ينقص رسوم الملكة القديمة ، لذلك تجد أن رسوم العهد الصاوي استعاضت عن النقص في الثقل سلامة النوق وطول باع صناعتها من حيث الاتقان والعناية بدقائق الأجزاء . ويجد الباحث أحيانا أن رسوم الأشخاص في العهد الصاوي مع دقة مراعاتها للأصول المرعية في العهد القديم فانها تحوى أحيانا رسما تنصل فيه راسمه من ذلك القيد كرسوم الشخص متناسب الكفين خاليا من تحفظات الملكة القديمة البعيدة عن الصواب . وبديهي أن هذه الحرية في الرسم والكفاية في إظهار تناسق وتناسب أجزاء الصور أعلت كثيرا من متلة رسوم العهد الصاوي على أمثالها من العهد القديم . ومثل هذا الأمر يشاهد كثيرا في رسوم مقابر العهد الصاوي ، فالناظر إليها يجد

صور الأشخاص مطابقة تماما لصور العهد القديم، لكنه يعثر أحيانا على رسم شخص بخالف لمبدأنا وروحه ويمتاز عما حوله من الرسوم بتناسب أعضائه واعتدال رأسه وظهور معالم الحياة عليه (شكل ١٨٦). ولم يقتصر هذا التقدم في رسم المسطحات فقط بل شمل أيضا التماثيل والأجسام، ففي هذه الأخيرة نجد الناقد مهارة كبيرة في اظهار معالم الوجه وبروز عظام الرأس وتجاويد الحيا بشكل تميز يحق دليق لم يفتقر لعل مثله في أى عصر سابق. لذلك كثيرا ما يجد الباحث شبا عظيما بين تماثيل هذا العصر وأنتالهاغنى العهد اليونانى، ففي الاثنين تجسم دقة الصنع ومهارة الإنجاز.

أما صناعة البرنز فقد بلغت في العهد الصاوى منتهاها من حيث الدقة فقد عمل القوم القوالب الفأرقة للحيوانات الكبيرة (شكل ١٨٥) وللإنسان بشكل بديع ولبسوها بالذهب والفضة وخليط هذين المعدنين (Electrum) مما ينطق لهم بطول الباع في هذا الفرع. وانتشرت صناعة البرنز وقتئذ كثيرا ولذلك نجد معظم آثار البرنز المصرية المحفوظة بدور التحف الآن يرجع تاريخها الى هذا العهد.

أما المصنوعات الأخرى ففافت أمثالها في أى عهد سابق من حيث الدقة لدرجة جعلت الصناع المصري في ذلك الوقت عديم النظر في العالم، فصناعة الخرف بلغت أعلى أوجها وتوجد منها الآن أنموذجات في جميع دور التحف. ومن الأسف أن عمارات تلك العصور انهدمت تقريبا لكن نستدل من رسوم الحفار المصري أن فن البناء في العهد الصاوى تقدم تقدما عظيما وأن خسارتنا بدم العثور على شيء منها كبيرة لا تهتر. ويرجح أن عمد معابد البطالسة البدعية الجميلة ترجع في الأصل الى العهد الصاوى.

وفي الوقت الذى كانت فيه الفنون الجميلة تتقدم بسرعة مع المحافظة على مشابها لفنون العهد القديم، كانت ادارة الحكومة أقرب الى النظام الحديث وأقل انصباعا بالأنظمة العتيقة. ولا يزال نجعل أسلوب ادارة الحكومة في العهد الصاوى بالضبط لأن آثار ذلك الزمن الباقية لا تجوى شيئا يترك من ذلك. أما من الوجهة الجغرافية فالوجه البحرى كان دائما مفضلا من حيث الأهمية على الوجه القبلى، لأن التجارة مع العالم الشمالى واتصال القطر بالبلدان الشمالية إستلزاما أن تكون للدنيا أهمية تجارية. وقد استوطن بسامتيك هو وسلفاؤه مدينتهم صا المجر التي اتسع نطاقها وقتئذ وازدادت بالمابيد والقصور على عكس طيبة التي فقدت منزلتها السياسية والدينية، فاستدل من ذلك أن وادى النيل أصبح تابعا في ادارته وكل شؤونته للوجه البحرى.

سبق أن ذكرنا أن وراثة المراكم الحكومية أبطلها بسامتيك الأول لكنه سمح لبعض أمراء مصر الأقدمين مثل منب محت أمير طيبة بالاحتفاظ بمراكزهم طوال حياتهم فقط. وفيما عدا ذلك كانت أراضي القطر كلها ملكا للوك يسخر فيها الأهالى بشرط أن يدفعوا له ٢٠٪ من إيراداتها. أما طائفتنا البهينة والجنود فكانتا معفوتين من الضرائب. وربما كان نظام الحكومة وقتئذ شبيها بنظامها في عهد الإمبراطورية، ويتلخص ذلك في وجود ادارة مركزية يتبعها موظفون لجمع الضرائب وتنفيذ نصوص القانون. والظاهر أن الموظفين نحلوا لأنفسهم القاءا قديمة لا تتشى تماما مع أشغالهم.

الرسمية ، وأن ترتيبهم وتمرينهم كانا على تقيض ما كان عليه كتبة الامبراطورية بلجهم غالبا بالخط الهيروغليفي القديم ، والسبب في ذلك أن كتبة العهد الصاوي استعملوا اختزال الخط الهيراطيقي (الذي ظهر من العهد الإثيوبي) لسهولة كتابته وكثرة موافقته للاعمال الادارية والتجارية ، وقد سمي هذا الخط المختزل وقتئذ بالخط الديموطيقي ولا يزال يعرف بهذا الاسم الآن . واستعمل القوم الخط الديموطيقي في كتابة لغتهم بالأسلوب الدارج وقتئذ واقتصروا في استعمال الخط الهيروغليفي على النصوص القديمة التي يرجع تاريخها الى عدة قرون سابقة ، وبدسى أن مثل هذا الاختزال الكافي صحبه اصلاح وتمير في نظام الحكومة . أما من الوجهة الاجتماعية فكان القوم ينقسمون الى عدة طوائف على حسب المهنة ، لكن هذا التقسيم لم يكن واضح الحدود ولا تام الانفصال كما هي الحال في التاريخ المصري القديم .

كان الكهنة الصاويون أكثر نجاحا في الرجوع الى العادات والاعتقادات القديمة من طائفة الموظفين ، والحق يقال ان الفضل في اصلاح ذلك العصر يرجع الى الكهنة . ولا يخفى أن المركز الديني انتقل من مقره الأصلي كما انتقل المركز السياسي لأن طيبه فقدت أهميتها الدينية العظمى وفاقتها مدن الوجه البحري مثل صا الحجر وبوتو وأتريب (بنا) من حيث ثروة المعابد وتختلف طبقة الكهنة الصاوية عن نظيرتها في المملكة القديمة بامتيازها وانفراد وحدتها وانتقال وظائفها بالوراثة لأفرادها ، ولما كانت هذه الطائفة موضع احترام الرعية اقتضت ضرورة السياسة أن يبرح الكهنة في محبوبية النعم ويمشوا في كنف الحكومة . والمعروف أن هذه الطائفة لم يمد لها نفوذ سياسي كأيام الامبراطورية لكننا مع ذلك نجد على الآثار ما يناقضه ، فخذ مثلا ما ورد من أن الحكومة اقرعت من أمير طينه (القرية من المرابية) دخله القديم من الواحات ومعبر النهر وأضافته الى دخل المعبود أزوريس^(١) . والظاهر أن الحادثة جاءت مستثناة لأن العادة كانت على عكس ذلك كما سيتضح للقارئ فيما يلي ، والسبب في ذلك أن القوم اعتقدوا أن الآلهة لا تخيا من جديد ثم استثنوا من هذه القاعدة أزوريس الذي امتاز بشدة تعلق الأهالي به . أما زوجته لإريس فقد عظم اعتبارها في نظر القوم حتى أصبح لها مذهب خاص ماد عليها في العصور التالية بتبجيل واحترام عموميين . ومن التغيرات الدينية الحديثة وقتئذ أن الحكيم إحتب وزير الملك زوسر الذي يرجع تاريخه الى ٢٥٠٠ سنة قبل العهد الصاوي اعتبر ضمن المعبودات كإبن بتاح ، على جهل الكهنة الصاويين بتحقيقة أمره . ولا يخفى أن الديانة الصاوية جاءت نتيجة مباشرة لديانة أواخر عهد الامبراطورية ، فهي بعبارة أخرى تلتخص في الاحتفاظ بالدين ومراماته في الأعمال الظاهرية وشدة الحرص عليه فيما يتعلق باحتفالاته كما حصل تماما للعقيدة اليهودية التي نشأت في مثل هذه الظروف ، ولهذا السبب أصبحتنا نجد الأمراء والموظفين يشيرون المعابد للمبودات في كل جهات القطر^(٢) ، وصارتا نجلهم بسد ما كانوا يحترمون فردا من طائفة حيوانية أضحووا الآن يقتسون كل أفراد بينهم

(٢) ٩٦٧: ٤ ملاحظة ٩٨٩ و ملاحظة ١٠١٥ ملاحظة

(١) ١٠١٦: ٤ و ١٠٢٤

الطلاقة . وزاد اعتقاد القوم واحترامهم للعجل آيس - أحد أشكال يتاح - فعبوده بمثابة كبيرة وصاروا يذفنون جثته باحتفال مهيب في جبانة السرايوم الخاصة بذلك بجوار منف ، أما تقديس هذا العجل فكان في بدايته في عهد المملكة القديمة، ولكنه أصبح له الآن شأن عظيم لدرجة بلغت حد التعصب الديني بين أهالي الاسكندرية في العهد الروماني . والظاهر أن كهنة العهد الصاوي فسروا هذه المظاهر الخارجية بالفلسفة التي فسروا بها تعارفاتهم الدينية، فأوجدوا بذلك شيئا لم يكن موجودا ولا منسوبا لها سابقا ، ويمجد القارئ مثلا لذلك عند الكلام على عهد الامبراطورية (١) . والحقيقة أننا لا نعلم تماما اذا كان كهنة العهد الصاوي علموا الأهالي كل المعلومات التي نسبتها اليهم اليونانيون، إنما التايت أن التعاليم الدينية كانت في عهد الامبراطورية متمشية مع أحوال العالم ، أما في العهد الصاوي فقد اضطر القوم أن يتعلموا لغة وخطا جديدين وأن يفهموا أدبيات قديمة تركها العالم منذ مدد طويلة ، ولهذا السبب اعتقد الأهالي أن الخط الميروغلفي مقدس فنسبوه الى الآلهة واعتقدوا أيضا أن كل نص مقدس يجب أن يسطر بالخط الميروغلفي ، وهذا هو السبب في اطلاق هذا الاسم عليه لأن لفظ "ميروغلفي" يعنى باليونانية "الخط المقدس" .

هذه التعاليم الدينية حوّلت أذهان الكهنة الى العالم القديم من حيث حكمه ومعارفه، والسبب في ذلك أن أهالي العهد الصاوي اعتقدوا أن أهالي العصر القديم بلغوا من العلم ذروة لا يمكن تعديها، ومثل هذا النظام الرجعي شوهد في تاريخ الصينيين والمسامين في عصورهم المتأخرة . ومن هذا السبب يتجلى للقارئ السر في شدة ولوع الصاويين بالبحث عن النصوص والقراطيس البردية القديمة التي علاها تراب الأجيال العديدة وفي جمعها ولفحصها ثم تنظيمها . ومنه أيضا يتضح للباحث سبب انتصار الماضي على الحاضر وسبب جهل الكهنة المعاصرين لهذه الحركة الرجعية بما هو سائر حولم في العالم . ويمجد القارئ مثلا صادقا لهذا التطور الرجعي في تاريخ مملكة بابل أيام الملك نبوخذ نصر (Nebuchadrezzar) . وقصارى القول أن الباحث في أحوال العالم الصاوي يتجلى له شخص مسن يكرراجمًا في أعماله الى ما قام به وقت صباه البعيد الأمد .

ومع أن الإصلاح الداخلى في العهد الصاوي كان رجعيا في معظمه كما تشير اليه كلمة "الإصلاح" إلا أن سببته الخارجية كانت على التقيض ، والسبب في ذلك أن إسامتيك اهتم كثيرا بالخارج خلافا لما ساد الأمة من الحركة الرجعية وقتئذ، فزاد ثروة البلاد بتنظيم سلطتها المركزية وتحسين مشروعات الري كما كانت سابقا، واستعمال تجاربه التي اكتسبها في أوائل حياته ولما شاهده من كثرة التجارة بين أنحاء امبراطورية آشور . وقد كان جلالته متيقنا تماما بأن التجارة والتعامل مع الأمم الأجنبية من أهم الدطائم لتقدم البلاد الاقتصادي ، فضرب الضرائب المتنوعة على البضائع المختلفة الأخر الذي عاد على مالية القطر بالغم الجزيل . وأرجع إسامتيك العلاقات التجارية القديمة بين مصر وسوريا كما كانت سابقا فتقاطرت السفن الفينيقية على مصبات النيل وكثر التجار الساميون

(١) راجع سابقا صيفى ٢٢٥ - ٢٢٦ .



شكل ١٨٤ - تمثال من الرمرر لأميرة أنارديس أخت يميني بدارتحف القاهرة

الذين صاروا فيما بعد أجدادا للآراميين وكثر عددهم في العهد الفارسي . واستخدم إسامتيك اليونانيين أيضا في ترقية تجارة مصر فأفادوه كثيرا في ذلك كما أفادوه في الشؤون الحربية التي تقدم الكلام عليها .

وقد ذكرنا سابقا أن الأقوام الأجانب المعروفين بأهالي البحر الأبيض المتوسط أخذوا يهاجرون الى مصر جنوبا منذ القرن الثامن قبل الميلاد^(١) . وأقدم ذكر لهؤلاء القوم يرجع تاريخه الى نحوئائة سنة تقريبا قبل العهد الصاوي . أما الهجرة اليونانية فقد ابتدأت أولا من أقاصى شمالي أوروبا الى شبه جزيرة اليونان ثم الى الأرخييل المجاور ومراكزه الصناعية . ولما جاء العهد الصاوي ظهر اليونانيون أمة راقية غنية بحرية تمخر أساطيلها مياه البحار وتنافس مراكبها السفن الفينيقية . بعد ذلك انتشرت المستعمرات والمصنوعات اليونانية بسرعة فعمت سواحل البحر الأبيض المتوسط حتى وصلت الى البحر الأسود ، والظاهر أن إسامتيك هو أول حاكم مصرى شجع في أثناء حكمه هذه المستعمرات التجارية في القطر ، والمعروف أنه لم تمض مدة طويلة على انشائها حتى عم القطر التجار اليونانيون فصارت مصنوعاتهم ترد على مصر وبالأخص غربى الدلتا حيث توجد صا الحجر المقر الملكى . ثم أصبح في منف حى خاص لليونانيين وآخر للكاريين ولا يبعد أن تكون المدن الكبيرة الأخرى حاوية لمثل هذه الأحياء الخاصة بمعاملة التجار الأجانب .

ولما توطلت التجارة بين مصر والولايات اليونانية توقفت هرى الصداقة بين هذين القطرين فكثرت عند الجنود اليونانية باطراد في الجيش المصرى عند الذين استعملهم إسامتيك في غزواته ، واختلط هؤلاء الجنود مع تجار بلادهم النشيطين كثيرا فشرحوا لهم خيرات مصر ونعيمها فنقل هؤلاء التجار هذه المعلومات الى اليونان حيث نشأت الحكايات الخرافية الكثيرة الخاصة بالعالم المصرى الغريب ، ووصلت أخبار عجائب طيبة الى الأغاني الهومرية في آخر عهدنا وظهرت الميودات المصرية في الخرافات اليونانية الدينية .

وقد عرف اليونانيون تماما في آخر الأمر مظاهر الحضارة المصرية لكنهم لم يدرسوا الخط الهيروغليفى جيدا ليفهموا به نقوش المصريين القدماء الباقية ويسرفوا حقيقة تاريخهم . ثم ظهر بعد ذلك مترجمون كثيرون عالمون باللغة المصرية واليونانية صار لهم شأن بمدت فتكوت منهم طائفة مخصوصة تأثر منها المؤرخون كثيرا أمثال هيودوت الذين زاروا القطر المصرى ووضعوا عنه المصنفات . وقد دهش اليونانيون لثبات المصريين وادعاءاتهم اللانهائية ، ومما زاد ذلك ما سمعه هؤلاء القوم من عجائب مصر وعماراتها الشائخة ومعايها المكنونة السر ومنظر الخط الهيروغليفى الغريب الشاغل لمسطحات جدر تلك العمارات ووجود نهر النيل الفرد وديانة مصر المدهشة وقوانينها الغريبة التي ظهرت لهم مبنية على أصول صادقة وكنا كثرة الآثار العظيمة المؤثرة في كل أنحاء البلاد حولهم . كل هذه الأمور وعدم امكان معرفة أصل المصريين وقتئذ وتاريخهم القديم حال بين اليونانيين ومعرفة

(١) راجع سابقا من صحيفة ٢٢٢ الى ٢٢٥

أنهوال القطر المصري الحقيقية مع ذلكهم المقروط وحرصهم الكبير . لذلك لم يفهم اليونانيون حقيقة المصري ومدنيته فكتاباتهم في هذا الموضوع غير مطابقة للضوابط على ما أظهره كتابوها من الهزء بعادات المصريين . وبديهي أن اليوناني أدق كثيرا من المصري من حيث اتباع الصدق والرجح لرواة الحقيقة مع أنه كان شديد الاحترام والتبجيل للمصري . ولما دازت الأيام وأخذت البلاد تمزق في طرقيها السياسي تحت أمين اليونانيين أخذ هؤلاء القوم يقبونها جيدا فعرّفوا حقيقة القطر المصري . وقد عثرنا على عدة روايات يونانية شهيرة يرجع تاريخها الى عهد إسائتيك الأول لوخلصت جيدا لاستتج منها معلومات قيمة عن الأسرة السادسة والعشرين التي حكمت بالبلاد ، ذلك للأقليم المهلك للتاريخ والمدمر للأثار .

ووقف المصري موقف الحزم والرفعة والطهارة والتبسات أمام الجموع الأجنبية التي بدقت على بلاده تبريجا على كرهه الشديد لم ورغيته الصادقة في طردهم ، لكنه كان مضطورا لأن يعاملهم بالحسنى لاستنذاره الخير من هذه المعاملة ، وهذا الموقف يشبه تماما مركز الصيني في الوقت الحاضر . من ذلك يتضح أنه في الوقت الذي كان فراغة العهد الصاوي يعجبون باليونانيين وأخلاقهم كانت الرعية المصرية لا تألف هؤلاء القوم ولا تصبو اليهم . وبديهي أن اليونانيين كتبوا كثيرا من اختلاطهم بحضارة القطر المصري ماديا وأديبا ، وتفسير ذلك أن اليونانيين لما أتوا الى القطر المصري وجدوا فيه العلوم والمعارف مزدهرة فقدحوا أذهانهم الوفاة فيها فيجحت عن ذلك حضارة أرق منزلة وأرفع مقاما من الحضارة المصرية . ولا مشاحة فاليونانيون تعاملوا في مصر أيضا كثيرا من الفنون السياسية ، وأن وادى النيل أثر كثيرا في مصنوعاتهم منذ عهد الأسرة الثانية عشرة (سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد) على الأقل ، فالناظر مثلا الى تماثيل المعبود الشمسي اليوناني أبولو (Apollon) يجدها جارية على المثلك المصري واقفة وقدمها اليسرى مقدمة على اليمنى . وقد يتضح لنا أن اليونانيين تعلموا كثيرا من حفاري العهد الصاوي حتى في أرق عصورهم . أما من حيث العلوم والمعارف فالبراهين التي لدينا قليلة كالمسابقة ولذلك لا يمكننا أن نجزم بالضبط بمقدلو ما اكتسبه اليونانيون من المصريين ، والظاهر أن الرواية اليونانية القائلة أن اليونانيين استمدوا فلسفتهم من مصر تحوى بعض الصدق . ولا غرابة في صدق هذه الرواية لأن الديانة المصرية القديمة تحوى البذور الكافية لنشوء الفلسفة اليونانية في أذهان أصحابها . والمعروف أن علماء اليونان تأثروا كثيرا بأراء المصريين الخاصة بالكون قبل الخلق وفي زمنها قبل أن يتأثروا بشيء من هذا القبيل في بلادهم^(١) ولا شك أن القارئ يعلم أن قدماء المصريين في عهد الأسرة الثامنة عشرة كانوا يفكرون في كيفية خلق هذا الكون . أما ثبات المصري في الرأي واعتقاده في الحياة الأخروية وما ترتيب عليها من استعدادات القبر فقد أثر كثيرا في آراء اليونانيين والرومانيين كما يستدل من انتشار الديانة المصرية وقتئذ في سائر أنحاء العلم . ولا تزال آثار هذه الديانة تكشف الى وقتنا هذا تحت أكوام الآراب على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، ويرجع تاريخ انتشار

(١) راجع سابقا صحتي ٢٣٥ و ٢٢٦

الحضارة والديانة المصريتين في العالم الغربي الى عهد پسامتيك الأول . ومن دلائل اعجاب اليونانيين بالمصريين أن پرياندر (Periander) حاكم كورنث (Corinth) باليونان سمي وارثه وابن أخيه باسم پسامتيك (Psammetichos) ولم يستمر هذا الاسم إلا لمكانة هذا الفرعون المصلح العظيم .

وفي سنة ٦٤٠ أحس پسامتيك بقدرته على تجديد غزوات أجداده بآسيا فأراد أن يسترجع سلطة مصر بسوريا وفلسطين ويسترجع تلك الأقاليم من آشور ، فبدأ بنزو فلسطين وحاصر مدينة أشدود (Ashdod) عدة سنوات لكنه اضطر أن يقف مشروعاته بالنسبة لغزوة السيثيين (Scythians) الذين أتوا من الشمال بعد ما زحفوا الى آشور ثم اقتربوا من حدود مصر . قال هيرودوت ان پسامتيك أرجع هؤلاء الغزاة ببعض النقود والهدايا ونجى وطنه بهذه الطريقة لكن المرجح أنه قهرهم حقا . وتوفى پسامتيك بعد ما حكم أربعا وخمسين سنة نجى في أثنائها بلاده من الانحطاط والاضمحلال اللذين خيما عليهما عدة قرون ، وترك جلالته القطر المصري في رخاء وتعيم لم ير مثلهما من وفاة رمسيس الثالث أى منذ خمسمائة سنة تقريبا .

الفصل الثامن والعشرون

الكفاح النهائي : بابل وفارس

توفي إسامتيك الأول عام ٦٠٩ قبل الميلاد فتولى الملك بعده ابنه نينوا الذي لم يجد أمامه ما يمنعه من استرداد الإمبراطورية المصرية بآسيا ، لأنه في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية المصرية أخذة في التقدم والرفق كانت مملكة نينوى ساقطة مضمحلة . ويرجع ضعف آشور هذا الى غارات السيثيين (Scythians) الآتين من شمالي آسيا ، والى اتحاد بابل وأهالي النوب وأهمهم النبي ناحوم الاسرائيل الذي تنبأ بسقوط آشور وهو فرح مسرور . وقد كانت آشور ضعيفة جدا فلم يتردد في مهاجمتها نينوا حال توليه الملك ولذلك أخذ يحقق مشروعات والده الاستعمارية فشيّد أسطولا بحريا ضخما في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر . وبدأ بغزوة فلسطين في السنة الأولى من حكمه فاستولى على غزة وعسقلون عتوة وفرض عليهما العقاب^(١) ثم زحف شمالا وبلغ مقاطعة يهوذا فوجدتها تحت حكم الأسرة النبوية وقد مضى على تحريرها من آشور مدة طويلة . عند ذلك ظن ملوك يهوذا أنهم سيتمكنون من صد مصر كما تخلصوا من سناشرب منذ قرن تقريبا ، فجمع ملكهم المدعو يوشيا (Josiah) جيوشه وهجم على القوات المصرية بسهولة مجتو حيث وقعت أول معركة حربية منذ تسعمائة سنة تمكن بها المصريون من اخضاع آسيا . وانتهت هذه المعركة الأخيرة بهزيمة يوشيا التامة أصيب هو فيها بجرح توفي منه بيت المقدس . ثم ظن نينوا أن آشور ستحاول استرداد أملاكها الضائعة فزحف مسرعا ميمما نهر الفرات ، لكن آشور كانت في حالة الاحتضار ولذلك لم يجد قوة تقاومه هناك ففضل الرجوع الى مصر ولم يهجم على نينوى لعدم استعداده تماما وقتئذ . بهذه الكيفية تمكن من استرجاع سوريا كلها وجميع مستعمرات مصر التي كانت تابعة لها أيام الإمبراطورية في غزوة واحدة ، وقد بلغ وقتئذ مدينة ربله (Ribleh) على نهر الأورونط بعد ما حارب بمعركة مجتو بثلاثة أشهر ، ثم أرسل الى يوحاز (Jehoahaz) ابن يوشيا الذي عينه اليهوديون (Judeans) ملكا عليهم بعد وفاة والده وكنهه في الحديد وولى مكاه إلياقيم (Eliakim) أحد أبناء يوشيا أيضا وسماه يهوياقيم (Jehoiakim) ثم فرض عليه الجزية وقدرها مائة مئقال (تالنت والتالنت يساوي ٥٧ رطلا) فضة وتالنت واحد من الذهب . أما يوحاز فأرسل الى مصر حيث توفي . ثم أراد نينوا كما دات تلك المصنور أن يظهر شعوره وسروره لخدمات الميليزيين (Milesians) في أثناء انتصاراته الحربية فأهدى اليهم درعه الذي لبسه وقت حروبه . وسرعان ما يتبادر الى ذهن القارئ مناقضة هذه الحادثة لما اعتاده قدماء المصريين الذين نسبوا كل انتصاراتهم لآمون وحده ، فان الحال تغيرت الآن واعتقد القوم أن النصر والفوز يأتيان عن طريق مساعدة الجنود الأجنبية . وحق في صيدا

على أجزاء شاهد حجري يرجع تاريخه الى عهد نينوا، عليه نقوش هيروغليفية خاصة به لما كان مسيطرا على سوريا^(١).

لم تتم امبراطورية نينوا الآشورية طويلا حتى أقل من سنتين تمكن نابوبلاصر (Nabopolassar) ملك بابل بمساعدة سياكساريس (Cyaxares)، ملك ميديا من القضاء على آشور وتحطيم نينوى وشل نفوذها السياسي. بعد ذلك اقتسم ملكا بابل وميديا أملاك آشور فاستولى ملك ميديا على الأملاك الشمالية والشمالية الشرقية واكتفى ملك بابل بالمستعمرات الجنوبية والجنوبية الغربية، وهكذا وقعت سوريا ضمن نصيب نابوبلاصر لكنه كان مسنا فأرسل ابنه المدعو نبوخذ نصر (Nebuchadrezzar) لقتال نينوا. فلما سمع بذلك فرعون مصر جمع قواته وأسرع للاقتحام على الحدود الشمالية على نهر الفرات، وذلك عام ٦٠٥ قبل الميلاد، فالتحم الفريقان بجهة كركيش (Carohemish) حيث انهزم الجيش المصري المختلط. بعد ذلك لم يتمكن نينوا من مقاومة بابل مرة أخرى ولا من الدفاع عن فلسطين فتقهقر مسرعا نحو الدلتا يعقبه نبوخذ نصر. وقد تقهقر نينوا بسرعة في فلسطين فتأثر أهالي مقاطعة يهوذا منه كثيرا، وكان اذ ذاك النبي أرميا يفهم أهالي دمشق أحوال الأمم فأخذ يصب على المصريين المتقهقرين هزءه وسخرته^(٢) وكان منتظرا بل مؤكدا وقتئذ أن اذلال مصر أو غزوتها بأمر كده الشاب أمر محتم، لكن وفاة والده بيابل أجبرت نبوخذ نصر أن يتفق هو ونينوا على فض المشاكن التي بينهما خوفا من بقاءه مدة طويلة بعيدا عن بابل لأنه أراد أن يحضر هناك حفلة تويجه، وبهذه الطريقة انضمت سوريا وفلسطين الى بابل منذ ذلك الوقت.

لا يخفى أن اتفاق نينوا وبابل حدد طمع المصريين بآسيا ولذلك صمم ملك مصر على الاحتفاظ بمملكته دون أن يبدى أية حركة حربية بتلك الجهات. وقد جاءت في التوراة هذه الرواية "ولم يعد أيضا ملك مصر يخرج من أرضه لأن ملك بابل أخذ من نهر مصر الى نهر الفرات كل ما كان ملك مصر"^(٣). ولم تقتصر الحال على ذلك بل أن نينوا لم يتجاسر أن يتدخل في حصار نبوخذ نصر لبيت المقدس واستيلائه عليه ونفى أسر يهوذا الشريفة عام ٥٩٦ قبل الميلاد. ومنذ ذلك الوقت اكتفى نينوا بترقية تجارة مملكته وتوسيع مشروعات والده في هذه السبيل، فأعاد حفر القناة التي كانت موصلة فرع النيل الشرق بالبحر الأحمر. قال هيرودوت ان مائة ألف نسمة هلكت في تنفيذ هذا المشروع حتى اضطر نينوا أن يقفه قبل انجازه. وروى ديودور الصقلي أن المهندسين نصحوا بعدم حفر تلك القناة خوفا من غرق مصر لملئها مياه البحر الأحمر عن سطح الدلتا وهو الأقرب الى الصواب. وبلهيه أن اتصال الملاحة بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط عاد على مصر بالمكسب التجاري العظيم كما أنه ساعد كثيرا من الوجهة الحربية. ويستدل على شدة رغبة نينوا في ترقية الملاحة ببعته الفيديقية التي قال عنها هيرودوت أنه أرسلها لارتبياد سواحل إفريقية المعروفة وقتئذ باسم ليبيا (Libya). وكان اعتقاد المصريين قديما أن الأرض تحيط بها المياه من جميع الجهات وهذه المياه تسمى عند اليونان أوكيانوس وأن مياه النيل متصلة بتلك المياه جنوبا وهذه البعثة الفيديقية استغرقت من الوقت ثلاث سنوات.

Proceedings Soc. of Biblical Arch., XVI (1894), pp. 91 L (١)

(٢) أرميا ١٤٦-١٢ (٣) ٢ ملوك ٢٤ < ٧

وتوفى نينوا عام ٥٩٣ قبل الميلاد فتبعه في الملك ابنه إسامتيك الثاني الذي وجد أن القيام بحركات استعمارية بآسيا أمر مستحيل ولذلك لا يبعد أنه فضل المحافظة على نصوص معاهدة والده مع بابل . ولما أيقن باستحالة الاستعمار شمالا ووجه همه جنوبا لحاول استرجاع النوبة التي انفصلت عن مصر منذ تأسيس مملكة إثيوبيا فعزا ذلك الإقليم وبلغت مقدمة جيوشه إقليم الشلال الثاني حيث تركت جنوده تقوشا يونانية على أحد تماثيل رمسيس الثاني العظيمة أمام معبد أبي سنبل أثبتوا فيها زيارتهم لتلك الجهة . وقد أشرنا فيما سبق الى أن هذه الغزوة كانت من أسباب انتقال عاصمة النوبة الى أعلى الشلالات (أى مروه) ومع ذلك فإن الاستعمار المصرى هناك لم يدم طويلا فلم ينضم أسهل النوبة مطلقا الى المملكة الصاوية . واستمرت علاقات المودة والصفاء سائمة بين المصريين واليونانيين حتى روى هيرودوت أن الإليني (Eleans) أرسلوا وفدا الى إسامتيك الثاني يحكونه في ادارة الألعاب الأولمبية وقتئذ . أما في داخل المملكة فقد بسط إسامتيك الثاني نفوذه على طيبة بأن عين ابنته إنخنس نغراب رع (Enekhneseferibre) رئيسة دينية بدل عمته المسنة ابنة إسامتيك الأول المدعوة يتقريس . ثم أنعم بلقب "رئيس كهنة آمون" على ابنته فتسلمت دخل يتقريس التي توفيت بعد ذلك بتسع سنوات . أما كرمته فبقيت حاكمة لطيبة مدة تقرب من سبعين سنة حتى غزوة فارس (١) .

وتوفى إسامتيك الثاني فتبعه في الملك نجله أپريس (Apris) عام ٥٨٨ قبل الميلاد ويقال له بالمصرية حمبرع (Ha'abre') وباليهودية هوفرع (Hophra) . وورد عن هذا الملك أنه تطلع الى آسيا وأخذ يحقق آمال أسرته القديمة لاسترداد مستعمرات مصر هناك بسرعة . وقد سبقت الإشارة الى حصار نبوخذ نصر لبيت المقدس في سنة ٥٩٧ قبل الميلاد أيام نينوا ، والآن نرجح أن هذا الأخير كانت له يد خفية في إيقاد تلك الفتنة . والمعروف أن هذه المدينة التعمه سلمت لعدوها في السنة التالية فعقب ذلك تقي ما يراوح بين تسعة وعشرة آلاف نسمة راقية الى بابل حتى لم يبق بيت المقدس "إلا مساكين شعب الأرض" (٢) . بعد ذلك عين نبوخذ نصر صدقيا (Zedekiah) عم يهوياكين (Jehoiachin) ملكا على تلك الأرض الخربة فكثت بها تسع سنوات ثم شق عصا الطاعة على بابل . والسبب في هذه السياسة الخرقاء ظاهر واضح فتاريخ هذا العصيان يوافق يوم تولية أپريس ملك مصر الذي أخذ يؤثر في صدقيا للاتحاد مما تخلص امن بابل . وكان صدقيا نحت تأييد رسل صور وصيدا ومواب وآمون الذين كانوا ولا يزالون يحرصونه على ذلك ويدونه بالمساعدة ، فانصاع صدقيا في آخر الأمر الى نصائح أپريس ولكنه أصابه من بابل ما أصاب عصاة حكم آشور لأن محالني صدقيا لم يساعدوه بسرعة في الوقت المناسب . ولا غرابة في ذلك فقد جعل أپريس هذه المساعدة مستحيلة لأنه هم على صور وصيدا بأسطوله رغبة منه في محاربة نبوخذ نصر على نهر الفرات كما فعل جدّه نينوا سابقا . وتفصيل ذلك أن أپريس حارب أولا أسطول صور وقبرص وانتصر عليهما ثم أزل جنده بصيدا فسلمت له مدن فينيقيا على أمر ذلك (٣) . والظاهر أن أپريس قصد بهذه الحركة إبعاد اهتمام نبوخذ نصر

(٢) ديوود ١ : ٦٨

(٢) ٢ : ملوك ٢٤ : ١٥

(١) ٤ : ٩٨٨ J. ٩٨٨-٩٨٨

عن الولايات الجنوبية التي أرسل إليها جيشا في أوائل عام ٥٨٧ قبل الميلاد، وربما أراد بهذا العمل قطع خط الرجعة على جيش بابل الذي كان محاصرا بيت المقدس وقتئذ . فاذا كان هذا هو الواقع كانت هذه الفكرة غاية في الحكمة وسداد الرأي . لكن الحملة التي قام بها أپريس لم تتوغل ببلاد آسيا كثيرا لدرجة أفلقت يال بابل ، كما أن نبوخذنصرار اختار ربله التي هي الى الشمال على نهر الأورونط فأعدته الحربية ، فتمكن بذلك من مراقبة حركات جيش مصر بتلك الجهات بدون خوف ولا وجل . زد على ذلك أن أعداء نبوخذنصرار كانوا يضعفون كل يوم بتراعمهم الداخلي ولذلك لو فرض أن أپريس زحف على ملك بابل وقتئذ فان هذا الأخير كان يوسع ووقف ذلك الزحف بسهولة بقوة من ربله . والظاهر أن الآثار الصاوية التي عثر عليها رنان^(١) في أرواد وصور وصيدا يرجع تاريخها الى هذا العهد القصير الذي كانت فيه فينيقيا تحت حكم فرعون . ويرجح أن فرعون مصر كان مسيطرا وقتئذ أيضا لمدة قصيرة على أحد أقاليم لبنان^(٢) .

وفي ربيع عام ٥٨٦ قبل الميلاد ظهرت جيوش أپريس أخيرا في جنوبي فلسطين . فهتدت قوات بابل المحاصرة لبيت المقدس وبذلك نجحت تلك المدينة مدة قصيرة ، لكن الجيوش المصرية أظهرت وقتئذ عدم كفايتها لمكافئة جيوش آسيا ويرجح كثيرا أن أپريس تخلى وقتئذ عن فلسطين ، بقاء هذا تا كيدا لتنبؤات أرميا الذي نصح دائما بالتخلي وعدم الاعتماد على مصر ورمي كل من يقوم بذلك بالعباوة وقصر النظر . وهذا الرأي السياسي أنعب أرميا وعرضه لخاطر كثيرة اضطر في آخرها أن ينجو منها بحياته . وفي صيف عام ٥٨٦ قبل الميلاد سقط بيت المقدس فخر به جيش بابل تخريبا وأسر الدليل صدقيا الى معسكر نبوخذنصرار بربله حيث شاهد مصرع ولديه قبل فقاء عينيه . بهذه الطريقة ذلت الأمة اليهودية تماما . أما مصر رأس هذه الاضطرابات فلم توجه إليها الضربة القاضية والسبب في تأخير ذلك أن نبوخذنصرار حمم أولا على عقاب صور التي استمرت مستقلة ثلاث عشرة سنة الى أن سلمت له عام ٥٧٣ قبل الميلاد .

وبالرغم من سوء حظ أپريس بآسيا فقد كان طائشا في رفاهية ونعيم لأن مملكته كانت محافظة على رقبها وثروتها كما كانت أيام جدته الأكبر مؤسسها . وورد أن الصحراء الغربية كانت تدفع جزيتها لمصر وأن حاكم الصحراء الشمالية المدعو وح إب رع يوفر (Wahibrenofer) شيد معبدا في تلك الجهة^(٣) ومع كثرة هذا النعيم فقد كتب على أپريس أن يتوفى في ظروف محزنة غير متظرة وتفصيل ذلك أنه عجز عن التوفيق بين أفراد جيشه المتباين الوحدات ، فقد تمردت الجنود اللبية واليونانية والسورية ثم هجرت الجيش المصري رغبة في الانضمام الى التوبة كما حصل أيام يسامتيك الأول . ولا تعرف عدد الهاربين بالضبط وإن كان عظيما حتى جاء بأخبار تلك المصور الرسمية أن الملك فلق لذلك . ووصل الهاربون

(١) Rougé, letter to Bezan, Revue arch. n. s., VII, 1869, pp. 194-8.

(٢) Steindorff, Berichte der phil.-hist. Classe der Königl. Sächs. Gesellschaft der Wissenschaften zu Leipzig, 1900, p. 226.

(٣) ٤ : ٩٧٠

الى الشلال الاقل قابلهم هناك حاكم ذلك الإقليم المدعو نسوحور (Neuhor) فأقنهم بخططهم وأخيرا أرسلهم الى الملك أپريس الذي عاقبهم على هذا الذنب^(١) . ثم تألبت وحدات الجيش المصرى مرة ثانية ولكن هذا المصيان لم يثته بسلام كالسابق ، وسببه أن بعض اليونانيين استوطنوا جهة سيرين (Cyrene) حيث أسسوا مستعمرة غنية راقية أخذت تنمو وتزداد على حساب ليبيا التى هى بينها وبين مصر . ورأى أپريس أن يصد نمو مستعمرة سيرين فأرسل الى ليبيا قوة حربية خالية طبعاً من العنصر اليونانى لمكافئة سيرين . وسار المصريون مستهزئين ومستهترين بأعدائهم لكنهم لما التقوا مع يوناني سيرين فى آخر الأمر دارت رحى القتال بين الطرفين وانتهت بهزيمة المصريين ، فاغتاز الجنود المصريون من هذا الأمر ووطنوا أن أپريس أرسلهم الى سيرين ليتخلص منهم فقامت الثورة بين وحدات الجيش المصرى وأرسل أپريس على أثرها أحد أقربائه المدعو أحمس الذى سماه هيرودوت أمازيس (Amasis) ليخمد الهياج . وكان أحمس هذا زكياً وسياسياً محنكاً فتمكن من اقتاد أپريس من خطر الموقف واستمال الجنود العصاة نحوه فاخثاروه ملكاً عليهم . وأرسل أپريس رسولا الى أمازيس يطلبه لكن الرسول ردّ باحتقار وسخرية ، فاستشاط أپريس غيظاً من ذلك وأرسل شدة غضبه على الرسول المنكود الحظ على كبر مرتبته وأمر بجدع أنفه وقطع أذنيه . ورأى أتباع أپريس من نبلاء ومساعدين ما حل بزميلهم ظالماً فهجروا أپريس وانضموا الى أمازيس . قال هيرودوت ثم نشبت معركة حربية بين الطرفين انتصر فيها أمازيس بجنوده المصريين العديدين على أپريس وجنوده اليونانيين المأجورين وانتهى الأمر بأسر أپريس . والظاهر أن هيرودوت أخطأ فى فهم الموقف بالضبط فخلط بين هذا التزاع والحرب التى حصلت بين هذين الطرفين بعد ذلك بقليل كما تشير الى ذلك آثار تلك العصور . ومهما كان الأمر فقد استمر أمازيس يعامل أپريس بالحسنى فلم يعزله لكنه وضع يده على زمام الحكم وناصية الحال فقسما بذلك الحكم مع أپريس لكن الأول كان طبعاً أقوى من الثانى . وقد عثرنا على بعض آثار يرجع تاريخها الى عهد تزامن هذين الحاكين وقد كتب أمازيس اسمه داخل خانة ملكية لكنه استمر مستعملاً أيضاً ألقابه القديمة التى هى أقل اعتباراً بجانب الخانة المذكورة^(٢) . وفى السنة الثالثة من تزامن هذين الملكين قامت مشاحنة بينهما فاستمال أپريس الى جانبه الجنود اليونانية (كما رواه هيرودوت) واستعان بأسطول بحرى ثم زحف فى الشمال على صا الحجر ، لكن أمازيس أسرع فى الوقت نفسه بجمع جنده وهجم على أپريس وشنت شمال جيشه ومكث أپريس مع جنده بالوجه البحرى ينهبون البلاد وقطعون السبيل فأرسل اليهم أمازيس حملة وكان أپريس ظاهراً وقتئذ يظهر الحارب العاصى ، والمعروف أن أسره انتهى بقتله وهو على ظهر إحدى سفن أسطوله الباقية ، واحتفل أمازيس بيمينازته على الوجه اللائق بالملك ودفنه بين أجداده العظيم بصا الحجر وقدم له الهدايا والقرابين بسخاء^(٣) .

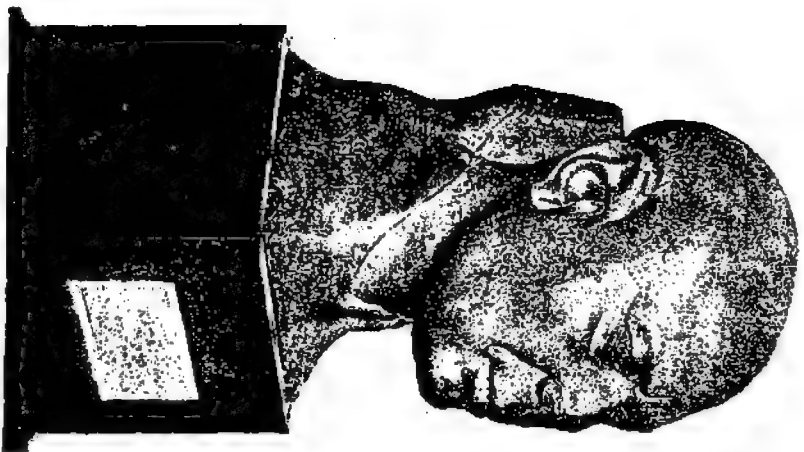
(٢) : ٤ : ٩٩٦ ملاحظة

(٢) : ٤ : ٩٩٩ ملاحظة

(١) : ٤ : ٩٨٩

وربما ينحى الى القارئ أن أمازيس الذى نال مركزه السامى بتبجح الشعور الوطنى العام ضد اليونانيين أخذ لنفسه خطة ضد النفوذ الأجنبى بمصر، لكنه لم يفعل ذلك لأنه كان أحرص وأقل من الوقوع فى هذه المفوة . والحقيقة أنه كان يتظاهر باخضاع النفوذ اليونانى لكنه كان يعطيه فى الحقيقة كل ما يلزمه ، مثال ذلك أنه أصدر أمره الى اليونانيين ألا يتزلوا بضائعهم فى أية جهة من الوجه البحرى يرغبون فيها وقصرهم على جهة معينة هى مدينة قراتينس (Nauroatis) على فرع النيل الكنوبى فى الدلتا . والراجح أن هذه المدينة كانت مستعمرة يونانية صغيرة فى بادئ الأمر فأصبحت بفضل تأسيس أمازيس لها من جديد وبفضل ورود البضائع اليونانية عليها أهم مركز تجارى بمصر بل بها وبالبحر الأبيض المتوسط . وكانت هذه الميناء يونانية بكل صفاتها كما أن مصنوطاتها كانت مصبوغة بالصبغة اليونانية غالبا وليس عليها الا القليل من المسحة المصرية . والمعروف أيضا عن هذه المدينة أن حركتها التجارية والصناعية وتنسيقها وإدارتها اليومية كانت كالمراكز الصناعية والتجارية ببلاد اليونان ، فعلاوا ذلك لأن ارتياح اليونانيين بمصر كان موقوفا على نجاح وثروة هذه المدينة . لذلك لما أريد انشاء معبد كبير بمدينة قراتينس وردت لأجله التبرعات من مدن أيونيا (Ionia) الشهيرة مثل كيوس (Chios) وتيوس (Teos) وفوسيا (Phocaea) وكلازوميني (Clazomenae) وجزيرة رودس (Rhodes) وسيدس (Cnidus) وهاليكارناساس (Halicarnassus) وفاسليس (Phaselis) الدورية (Dorian) ومديله الأيولية (Æolian Metylene) ، كل هذه الجهات اشتركت معا فى تشييد معبد قراتينس المدعو هيلينيام (Hellenium) فكان بناء ضخما شاهقا حوله حوش كبير يحيط به سور عظيم . ثم ان كلا من أقاليم أيجينا (Ægina) ومليتس (Melitus) وساموس (Samos) القوية كان له معبد خاص بمدينة قراتينس . ويبدولنا من ذلك أنه بالرغم من القيود التى فرضت على اليونانيين فقد كانوا يتمتعون بامتيازات عظيمة . وتدلنا قوانين أمازيس أن جلالة لم يعتبرهم خطرا ولا أعداء لمصر ، فقد ورد أنه قدم عليه وفد من الدلفانيين (Delphians) ملتجئين مساعدينه فى تشييد معبد بدلا من الذى التهمته النيران عام ٥٤٨ هـ قبل الميلاد ، فقال لهم مرحبا وتبرع لهم ببدلات الأموال . زد على ذلك أنه أرسل الهدايا الى معابد ليندوس (Lindos) وساموس (Samos) وسيرين (Cyrene) كما أهدى أيضا درعا جميلا الى الاسبارتيين (Spartans) . هكذا وطد جلالاته معاملته مع اليونانيين بأوروبا وآسيا وزاد فى موثقه مع بوليكراتيس (Polycrates) حاكم ساموس الذى حتى ينحى أنه عقد معه معاهدة . هذه الأعمال كلها جعلت أمازيس محبوبا جدا عند اليونانيين داخلا وخارجا فكثرت الحكايات عن أخلاقه ومعاملته مع اليونانيين .

ومن دواعى الأسف أن معظم معلوماتنا عن أمازيس تنحصر فى معاملته مع اليونانيين . والمعروف أنه لم يهمل مصالح مصر بدليل حسن تصرفه وقت المصيبة التى لحقت أيريس وكاد شررها يتطاير الى أنحاء القطر . ومن مآثر هذا الملك أنه شيد بعض ملحقات جميلة بمعابد صا الحجر ومنف وأحضر عمرايا جميلا مصنوتا من صخرة واحدة من محاجر الشلال الأول نصبه بمدينة صا الحجر وقد أعجب به هيروdotus كثيرا . أما أهالى القطر فكانوا فى رخاء عظيم حتى قال هيروdotus "ان القطر وقتئذ كان



شكل ١٨٦ - رأس مجرى لتفحص من العهد السامري
من حجر كافي أخضر - راجع صحيفة ٢٨٦
(دار تحف، برلين)



شكل ١٨٥ - رأس تبول من البرز كان موضوعا بقديم سنية
بمصر كاريبيو الال العهد السامري - راجع صحيفة ٢٨٦
(دار تحف، برلين)

يحوى عشرين ألف مدينة“ . وأصلح أمازيس القانون المدني ”فختم على كل ساكن أن يخبر حاكم مدينته كل سنة بموارد الثروة التي يعيش منها“ وقد أخذ سولون (Solon) هذه المادة عن المصريين وقت زيارته لهم وفضدها في أثينا عند عودته اليها . والظاهر أن ميل أمازيس نحو اليونانيين لم يخف على المصريين لأنه اضطر أن ينقل حامية مدينة دفنه اليونانية (أحد حصني مصر شمالي وشرقي الدلتا)^(١) الى منف القوية النفوذ الكبيرة ، ليرتاح فؤاده من تألبها ويأمن شرها فقد كان قلقا منها لقربها كثيرا من محل اقامته . لكن أمازيس اضطر في آخر الأمر أن يظهر بشوبه الحقيقي لأنه لم يجد بدا من صرف ايراد المعابد على جيشه اليوناني وأسطوله^(٢) ، فاستحال بذلك على كهنة للقطر أن يسترقوا خيرات البلاد كسابق العهد . ولا غرابة في ذلك فأسطول مصر وقتئذ وكثرة جنودها المأجورة كلفت أمازيس أموالا جزيلة حتى اضطر أن يستعين بدخل المعابد . وقد صارت هذه الحركة مبدأ لأنماها فيما بعد في عهد فارس والبطالسة لما ضعفت ثروة الكهنة تدريجا وفرضت الضرائب على أملاك المعابد ، ولما كانت طائفة الكهنة فاقدة النفوذ السياسي وقتئذ خضعت لتلك الظروف التي شملت أيضا طوائف السلاذ الراقية ، لكن أمازيس مضرب الأمثال في الحكمة والترقى تمكن بمواهبه الفكرية من القبض على ناصية الحال والاحتفاظ بقواته حتى اضطر المصريون أن ينصاعوا لرغباته وأوامره .

ومما وطد مركز أمازيس على سواحل البحر الأبيض المتوسط حسن تفاهمه مع اليونانيين . أما في الغرب فكان نفوذه مهسوطا على الواحات وقد شيد معبدا في الواحة البحرية^(٣) . ولم يكن حسن الحظ في تعامله مع الشرق . ثم ان اغتصابه للعرش شجع نبوخذصرار على ادلال مصر لأنه علم بطبيعة الحال أن مثل هذا الاغتصاب لا يحصل الا من انشقاق واضطراب داخلين ، ففي سنة ٥٦٨ قبل الميلاد — أى قبل وفاة أپريس بقليل — ظهر جيش كلدان على حدود الدلتا الشرقية ، لكلا لا تعلم ماذا تم في أمره . والظاهر أن نبوخذصرار أراد وقتئذ غزو مصر فوجدها مخالفة تماما لما كانت عليه تحت الحكم الإثيوبي المضطرب لما التهمت آشور طعنة باردة . والثابت أنه لم يفز مصر وقتئذ ، وطبيعى أن أرميا^(٤) وحزقيال^(٥) اللذين كانا يتوقان الى سقوط فرعون مصر المبهض تكندرا كثيرا لأن الطائفة التي انتظراها وتبأبها لم تحصل . ونجم من حملة نبوخذصرار أن امتنع أمازيس من التدخل في استعمار سوريا وفلسطين ، لكنه تمكن بأسطوله القوي من اخضاع قبرص وقهرها على دفع الجزية . وليلاحظ أن قوة هذا الملك البحرية كانت نواة قوة مصر البحرية في عهد البطالسة لما سيطرت مصر على سواحل البحر الأبيض المتوسط .

Revilleout, Revue égyptologique, I, 59 ff., III, 106. (٢)

١٠١٤:٤ (١)

Steindorff, Berichte der phil.-hist. Classe der Königl. Sächs. Gesellschaft der Wissenschaften (٣) su Leipzig, 1900, p. 224.

١٨-١٠٤٠-١٠٤٠ حزقيال (٥)

١٣-٨٤٣-٨٤٣ أرميا (٤)

وتوفى نبوخذ نصر عام ٥٦٢ قبل الميلاد فاخفى بذلك نفوذه العظيم وضعت هبة بابل تقامت فيها الاضطرابات الداخلية واستحال بقاء المعاهدة مع ميديا كما كانت . وفي عام ٥٥٠ قبل الميلاد أسقط كيروس (Cyrus) ملك أنشان (Anshan) الفارسي الأسرة المالكة بميديا وعزل ملكها المدعو أستياجيس (Astyages) فضعف بذلك مركز بابل كثيرا وأحاطت به المخاطر . وظهر كيروس بعد ذلك في العالم الغربي بشكل يدعو الى الإعجاب مع الرجل ، فتحقق أمازيس خطر هذا الملك الفارسي نحو مصر وكافة أمم الغرب . لذلك اتحد أمازيس عام ٥٤٧ قبل الميلاد هو وكريسوس (Croesus) ملك ليديا والاسبارتيين في الغرب ، وملك بابل المدعو نابو تعيد (Nabuna'id) لصد نفوذ كيروس . وقبل أن يتم هذا التحالف العظيم كان كريسوس هزم وخلع (٥٤٦ - ٥٤٥ قبل الميلاد) فاتجهت بعد ذلك قوات فارس نحو الاستعمار والغزو بعد ما قضت قرونا عديدة بين تلال مملكتها ، وأول غرض لفارس وقتئذ كان إخضاع بابل التي سلمت لها عام ٥٣٩ قبل الميلاد . عند ذلك عجز أمازيس عن صد زحف فارس التي بزغت شمسها الآن في أفق التاريخ على أطلال المملكتين الساميتين اللتين نشأتا ببلاد النهرين وأيضا على أطلال ممالك آسيا الصغرى . وكان ضروريا أن يتجه نظر هذه الدولة الجديدة نحو مصر ، وكان الحزن والكدر يتخالجان قلب أمازيس وهو في آخر أيامه كما فكر في سيادة كيروس المطلقة . لكنه توفى قبل موت كريسوس وذلك بأحر عام ٥٢٦ قبل الميلاد أو أوائل عام ٥٢٥ قبل الميلاد قبل مجيء الطامة الكبرى المنتظرة الى مملكته .

لقد تمكن أمازيس مدة حكمه الطويلة البالغة أربعاً وأربعين سنة من إثبات كفايته السياسية العظيمة للآل ، ويلاحظ أن هذه المواهب السامية والهمة التي لا تعرف الملل كانتا نتيجة المدنية اليونانية والأصل اليوناني . وامتاز هذا الملك بعدم اهتمامه بالعبارات والأصول الدينية العتيقة التي راعاها فراعنة مصر في سابق الزمان ، والتي تجسمت في آثارهم والتي صبغتهم بصبغة واحدة وأزالت من بينهم الفروق لاعتبارهم في نظر الرعية من أصل مقدس . كل هذه الاعتبارات الكهنوتية والعادات الدينية الرسمية التي تحمل بها فراعنة مصر الأقدمون لم يعرها أمازيس اعتبارا كبيرا ، فقد اعتاد مثلا أن يبدأ يومه بإنجاز أعماله الصومية ، ثم يدعو الى مائدته بعض خلائه فيرفع عنهم حجاب الكلفة ويدعوهم لمائدته من دون حشمة ويشرب معهم أحيانا الخمر . ولم يكن كثير الرفاهية بل كان كثيرا ما يضع نفسه تحت المؤثرات والأفراح بدون أن يخرج مركزه ، فكان هذا سببا في رفع منزلته في العالم السياسي كثيرا . وما أكثر الحكايات التي رواها اليونانيون عنه بشأن دهائه ومزاحه اللذين تمكن بهما من سياسة الناس وتصريف الأمور بدرجة أدهشت العالم . ولا بد أن القارئ قد لاحظ من أخلاق وسياسة أمازيس أن حالة القطر المصري وقتئذ كانت مناقضة تماما لحالته القديمة التي انعدمت من الوجود ، وأن وميض تلك الحضارة القديمة الذي لمع في العهد الصاوي لم يابث أن انطفأ بسرعة وإلى الأزل . والسبب في ذلك أن الحكومة الصاوية كانت في الحقيقة هيكلًا اصطناعيا شديدا وحافظ عليه حكام مهرة ، أما الحياة القومية والشعور الوطني اليقظ فكانا معدومين في نفوس الأهالي . لذلك كان سقوط مصر وختم تاريخها الفريد ظاهر الغرب قبل وصول قبيلتي يمشة الجرار الى أبواب بلوسيوم (Pelusium) بمدة طويلة

وامتاز الملوك الصاويون ببعء نظرم فى المستقبل وحبهم للإشاء والتجديد ومقتهم للأخلاق الرجعية ، ولذلك لم يكن هؤلاء الملوك ولا البطالسة الذين حكوا مصر بعد الفرس مصريى الطباع تماما . ولم يكن الغزو الفارسى الذى حصل عام ٥٢٥ قبل الميلاد والذى اغتصب الملك من بسامتيك الثالث نجل أمازيى سوى تغير فى الهيئة الحاكمة ، أو بعارة أخرى لم يكن سوى تغير ظاهرى ، أما المحاولات المصرية التى حصلت عدة مرات للتخلص من الحكم الفارسى وإرجاع الحكم المصرى فكانت أشبه بشئ بتشنجات وفتية تعترى أحد أعضاء الإنسان بعد فقدان صوابه بمدة طويلة . وبسقوط بسامتيك الثالث دخلت مصر فى عالم جديد كانت لها فى إنشائه اليد الطولى ، لكنها أصبحت وتقتذ عازة عن القيام بأى عمل جدى . وقد آمنت مصر مأموريتها الكبيرة بنجاح لكنها عجزت عن الاحتجاب عن العالم كنيوى وبابل فبقيت كأنسة فى حياتها الاصطناعية تحت حكم الفرس والبطالسة ، ثم أخذت تضمحل حتى صارت فيما بعد مزرعة للملكة الرومانية يؤمها سياح اليونانيين والرومانيين لمشاهدة آثارها الضخمة . وقد كتب هؤلاء أسماءهم على تلك الآثار كما يفعل السياح الحديثون لشدة إعجابهم بها ، ومع ذلك فإن أهلها المسلمين بطبيعتهم ما زالوا عاكفين على الفلاحة جاعلين وطنهم حديقة العالم دون أن تبدو عليهم علامات اليقظة والانتباه ، فتحققت بذلك حرفيا نبوة حزقيال الرئيس الاسرائيلى حيث قال "ولا يكون بعد رئيس من أرض مصر" (١) .

قائمة بأسماء ملوك مصر ومدد حكمهم

(راجع "نصوص مصرية قديمة" الجزء الأول من الفقرة ٣٨ الى الفقرة ٧٥)

ملاحظة : التواريخ التي عليها اشارة كالنجمة مضبوطة فلجبا

استعمال السنة في التوقيت	٤٢٤١	قبل الميلاد
تولية مينا ومبدأ حكم الأمر	٣٤٠٠	قبل الميلاد

الأسرتان الأولى والثانية : ٢٩٨٠-٣٤٠٠ قبل الميلاد

عدد ملوكها ثمانية عشر ملكا مدة حكمهم ٤٢٠ سنة

الأسرة الثالثة : ٢٩٨٠-٢٩٠٠ قبل الميلاد

المدة من حكم زوسر الى سفرو تبلغ ٨٠ سنة

الأسرة الرابعة : ٢٩٠٠-٢٧٥٠ قبل الميلاد

مدة حكم خوفو...	٢٣	سنة
» ددف رع	٨	»
» خفرع	سمه (١)	»
» منكاورع...	٣٣	»
» —	سمه	»
» —	١٨	»
» شيسسكاف	٤	»
» —	٢	»

المجموع

أقل مدة معروفة لعهد هذه الأسرة هي ١٥٠ سنة

(١) سمه = مجهول .

الأسرة الخامسة : ٢٧٥٠ - ٢٦٢٥ قبل الميلاد

سنة	مدة حكم أوسركاف
٧	» ساحورع
» ١٢	» نفروريكارع
»	» شيبسكارع
» ٧	» خانفرع
»	» نومرع
» ٣٠ (+ سنه)	» منكوهور
» ٨	» ددكارع إيسى
» ٢٨	» أونيس
» ٣٠	
	المجموع ١٢٢ (+ ٣ سنه)

أقل مدة معروفة لعهده هذه الأسرة هي ١٢٥ سنة

الأسرة السادسة : ٢٦٢٥ - ٢٤٧٥ قبل الميلاد

سنة	مدة حكم حتى الثانى
»	» أوسركارع
» ٢١	» بى الأول
» ٤	» مرزوع الأول
» ٩٠ (+ سنه)	» بى الثانى
» ١	» مرزوع الثانى
	المجموع ١١٦ (+ ٣ سنه)

والمعروف أن هذه الأسرة حكمت لمدة ١٥٠ سنة

الأسرتان السابعة والثامنة : ٢٤٧٥ - ٢٤٤٥ قبل الميلاد

مدة حكم هاتين الأسرتين هي ٣٠ سنة

الأسرتان التاسعة والعاشره : ٢٤٤٥ - ٢١٦٠ قبل الميلاد

تشملان حكم ثمانية عشر ملكا إهناسيا ، قدرت مدد حكمهم بـ ٢٨٥ سنة

الأسرة الحادية عشرة

مدة حكم حوريس وح إنخ إنتف الأول... ..	٥٠	(+ س) سنة
» حوريس نخت نب نفر إنتف الثاني... ..	س	»
» حوريس سنخيب توي متو حوتب الأول... ..	س	»
» نب حابت رع متو حوتب الثاني... ..	س	»
» نب تاورع متو حوتب الثالث... ..	٢	(+ س) سنة
» نب حابت رع متو حوتب الرابع... ..	٤٦	(+ س) سنة
» سنخ كارع متو حوتب الخامس... ..	٨	(+ س) سنة
المجموع	<u>١٠٦</u>	(+ س) سنة

مدة حكم هذه الأسرة ١٦٠ سنة

الأسرة الثانية عشرة : ٢٠٠٠ - ١٧٨٨ قبل الميلاد

مشاركة الحكم		
أممحت الأول (٣٠ سنة) * ٢٠٠٠ - * ١٩٧٠	} مع ابنة	١٩٨٠ - ٢٠٠٠ قبل الميلاد منفردا
* ١٩٧٠ - * ١٩٨٠		١٩٧٠ - ١٩٨٠
سيزوستريس الأول (٤٥ سنة) * ١٩٨٠ - * ١٩٣٥	} مع ابنة	١٩٣٨ - ١٩٧٠ منفردا
* ١٩٣٥ - * ١٩٣٨		١٩٣٥ - ١٩٣٨
أممحت الثاني (٣٥ سنة) * ١٩٣٨ - * ١٩٠٣	} مع ابنة	١٩٣٨ - ١٩٣٥ مع والده
* ١٩٠٣ - * ١٩٠٦		١٩٠٦ - ١٩٣٥ منفردا
سيزوستريس الثاني (١٩ سنة) * ١٩٠٦ - * ١٨٨٧	} مع ابنة	١٩٠٦ - ١٩٠٣ مع والده
* ١٨٨٧ - * ١٨٤٩		١٨٨٧ - ١٩٠٣ منفردا
سيزوستريس الثالث (٣٨ سنة) * ١٨٨٧ - * ١٨٤٩	} مدة اشتراكه مع ابنة مجهولة	مدة اشتراكه مع ابنة مجهولة
* ١٨٤٩ - * ١٨٠١		مدة اشتراكه مع ابنة مجهولة
أممحت الرابع (٩ سنوات) * ١٨٠١ - * ١٧٩٢	} مدة اشتراكه مع ابنة مجهولة	مدة اشتراكه مع ابنة مجهولة
* ١٧٩٢ - * ١٧٨٨		مدة اشتراكه مع ابنة مجهولة
سبك تقروع (٤ سنوات) * ١٧٩٢ - * ١٧٨٨		
المجموع		٢٢٨ سنة
مدد الاشتراك في الحكم بالتقريب	» ١٥	
المجموع الحقيقي	<u>٢١٣</u>	سنة

من الأسرة الثالثة عشرة الى الأسرة السابعة عشرة : ١٧٨٨ * - ١٥٨٠ قبل الميلاد

مدة هذا العهد بما فيه من عهد الهيكسوس ٢٠٨ سنة

الأسرة الثامنة عشرة : ١٥٨٠ - ١٣٥٠ قبل الميلاد

أحمس الأول	٢٢	(+ س) سنة ١٥٨٠ - ١٥٥٧ * قبل الميلاد
أمنحيب الأول : ١٠ (+ س) سنة	}	٥٦	»	* ١٥٥٧ - ١٥٠١	»	»
تحوتمس الأول : ٣٠ (+ س) »						
تحوتمس الثالث	٥٤	»
من ٣ مايو ١٥٠١ * إلى ١٧ مارس ١٤٤٧ * قبل الميلاد (بما في ذلك حكما تحوتمس الثاني وحتشپسوت) .						
أمنحيب الثاني	٢٦	» ١٤٤٨ * - ١٤٢٠
تحوتمس الرابع	٨	» ١٤٢٠ - ١٤١١
أمنحيب الثالث	٣٦	» ١٤١١ - ١٣٧٥
أمنحيب الرابع ١٧ (+ س) سنة	}	٢٥	»	» ١٣٧٥ - ١٣٥٠	»	»
(أول الخناطون ١٣٧٥-١٣٥٨ قبل الميلاد)						
ساكرع						
توت عنخ آمون						
آي ٣ (+ س) »						
المجموع ٢٢٧ (+ ٤ س) سنة						
أقل مدة معروفة لعهد هذه الأسرة ٢٣٠ سنة						

الأسرة التاسعة عشرة : ١٣٥٠ - ١٢٠٥ قبل الميلاد

حرمحب	٣٤	(+ س) سنة ١٣٥٠ - ١٣١٥ قبل الميلاد
ومسيس الأول : ٢	»	»	»	»	»	»	» ١٣١٥ - ١٣١٤
سيتي الأول : ٢١ (+ س)	»	»	»	»	»	»	» ١٣١٣ - ١٢٩٢
ومسيس الثاني : ٦٧	»	»	»	»	»	»	» ١٢٩٢ - ١٢٢٥
منفتاح : ١٠ (+ س)	»	»	»	»	»	»	» ١٢٢٥ - ١٢١٥
أمن مسيس : س	»	»	»	»	»	»	» ١٢١٥
سبتاح : ٦ (+ س)	»	»	»	»	»	»	» ١٢١٥ - ١٢٠٩
سيتي الثاني : ٢ (+ س)	»	»	»	»	»	»	» ١٢٠٩ - ١٢٠٥
المجموع ١٤٢ (+ ٦ س) سنة							
أقل مدة معروفة لعهد هذه الأسرة ١٤٥ سنة							

فترة

فوضى وحكم غاصب سورى : ٥ (+ سنة) : ١٢٠٥ - ١٢٠٠ قبل الميلاد

الأسرة العشرون : ١٢٠٠ - ١٠٩٠ قبل الميلاد

ستخت	١	(+ سنة) ١٢٠٠ - ١١٩٨ قبل الميلاد
رمسيس الثالث	٣١	» ١١٩٨ - ١١٦٧ »
رمسيس الرابع	٦	» ١١٦٧ - ١١٦١ »
رمسيس الخامس	٤	» (+ سنة) ١١٦١ - ١١٥٧ »
رمسيس السادس	...	» ١١٥٧ - ١١٤٢ »
رمسيس السابع	...	
رمسيس الثامن	...	
رمسيس التاسع	١٩	» ١١٤٢ - ١١٣٣ »
رمسيس العاشر	١	» (+ سنة) ١١٣٣ - ١١٢١ »
رمسيس الحادى عشر	...	» ١١٢١ - ١١١٨ »
رمسيس الثانى عشر	٢٧	» (+ سنة) ١١١٨ - ١٠٩٠ »
المجموع	١٠٤	(+ سنة) سنة

أقل مدة معروفة لهذه الأسرة ١١٠ سنة

الأسرة الحادية والعشرون : ١٠٩٠ - ٩٤٥ قبل الميلاد

نسوباتيد	سنة ١٠٩٠ - ١٠٨٥ قبل الميلاد
حرمحور		
إسبب خنو الأول	١٧	» (+ سنة) ١٠٨٥ - ١٠٦٧ »
باى زم الأول	٤٠	» (+ سنة) ١٠٦٧ - ١٠٢٦ »
أمم أويت	٤٩	» (+ سنة) ١٠٢٦ - ٩٧٦ »
سيامون	١٦	» (+ سنة) ٩٧٦ - ٩٥٨ »
إسبب خنو الثانى	١٢	» (+ سنة) ٩٥٨ - ٩٤٥ »
المجموع	١٣٤	(+ سنة) سنة

أقل مدة معروفة لهذه الأسرة ١٤٥ سنة

الأسرة الثانية والعشرون : ٧٤٥-٩٤٥ قبل الميلاد

شيشق الأول	٢١	(+ سـ)	سنة	٩٤٥ - ٩٢٤	قبل الميلاد
أوسركن الأول	٣٦	(+ سـ)	»	٩٢٤ - ٨٩٥	»
تاكلوت الأول	٢٣	(+ سـ)	»	٨٩٥ - ٨٧٤	»
اسركن الثاني	٣٠	(+ سـ)	»	٨٧٤ - ٨٥٣	»
شيشق الثاني	{	-				(توفي عام ٨٧٧ قبل الميلاد في أثناء اشتراكه في الملك مع أوسركن الثاني).
تاكلوت الثاني	٢٥	(+ سـ)	سنة	٨٦٠ - ٨٣٤	قبل الميلاد
						(اشترك سبع سنوات في الملك مع أوسركن الثاني).
شيشق الثالث	٥٢		»	٨٣٤ - ٧٨٤	»
پمو	٦	(+ سـ)	»	٧٨٤ - ٧٨٢	»
شيشق الرابع	٣٧	(+ سـ)	»	٧٨٢ - ٧٤٥	»
المجموع	٢٣٠	(+ سـ)	سنة		
				»		مدة الاشتراك في الحكم بالتقريب ... ٣٠
المجموع الحقيقي	٢٠٠	(+ سـ)	سنة		
						أقل مدة معروفة لهذه الأسرة ٢٠٠ سنة

الأسرة الثالثة والعشرون : ٧٤٥-٧١٨ قبل الميلاد

پديست	٢٣	(+ سـ)	سنة	٧٤٥ - ٧٢١	قبل الميلاد
أوسركن الثالث	١٤	(+ سـ)	»		»
تاكلوت الثالث	سـ		»		»
المجموع	٣٧	(+ ٣ سـ)	سنة		
				»		مدة الاشتراك في الحكم بالتقريب ... ١٠
المجموع الحقيقي	٢٧	(+ سـ)	سنة		
						أقل مدة لهذه الأسرة ٢٧ سنة

الأسرة الرابعة والعشرون : ٧١٨-٧١٢ قبل الميلاد

يكنز أنيف (بوكوريس)	٦	(+ سـ)	سنة	٧١٨ - ٧١٢	قبل الميلاد
						أقل مدة معروفة لهذه الأسرة ٦ سنوات

الأسرة الخامسة والعشرون : ٧١٢ - ٦٦٣ قبل الميلاد

شاباكا ١٢ سنة ٧١٢ - ٧٠٠ قبل الميلاد

شاباتاكا ١٢ » ٧٠٠ * - ٦٨٨ »

طهراقه ٢٦ » ٦٨٨ - ٦٦٣ »

المجموع ٥٠ سنة

أقل مدة معروفة لهذه الأسرة ٥٠ سنة

الأسرة السادسة والعشرون : ٦٦٣ - ٥٢٥ قبل الميلاد

پسامتيك الأول ٥٤ سنة ٦٦٣ - ٦٠٩ قبل الميلاد

بيجتاو ١٦ » ٦٠٩ - ٥٩٣ »

پسامتيك الثاني ٥ » ٥٨٨ - ٥٩٣ »

أپريس (هوفرا) ١٩ » ٥٨٨ - ٥٦٩ »

أحمس الثاني ٤٤ » ٥٦٩ - ٥٢٥ »

پسامتيك الثالث بضعة أشهر ٥٢٥ »

المجموع ١٣٨ سنة

الغزو الفارسي (الأسرة السابعة والعشرون) : ٥٢٥ قبل الميلاد

صارت مصر بعد ذلك ولاية فارسية ثم حاول بعض حكام قصيرى العمر من أهلها تأسيس

عدة أسر (من الأسرة الثامنة والعشرين الى الأسرة الثلاثين) ٥٢٥ - ٣٣٢ قبل الميلاد

استيلاء الاسكندر الأكبر على مصر : ٣٣٢ قبل الميلاد

مصر في عهد الاسكندر وخلفائه البطالسة... .. ٣٣٢ - ٣٠ قبل الميلاد

صارت مصر ولاية رومانية : ٣٠ قبل الميلاد

هذه السلسلة تضم :

- ١ - فتح العرب لمصر
- ٢ - تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
- ٣ - الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
- ٤ - تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
- ٥ - تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
- ٦ - تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر
- ٧ - ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
- ٨ - تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد أول)
- ٩ - تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد ثاني)

- ١٠ - فتوح مصر وأخبارها
- ١١ - تاريخ مصر الحديث مع فزلكة في تاريخ مصر القديم
- ١٢ - قوانين الدواوين
- ١٣ - تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث
- ١٤ - الحكم المصري في الشام
- ١٥ - تاريخ الخديوي محمد باشا توفيق
- ١٦ - آثار الزعيم سعد زغلول
- ١٧ - مذكراتي
- ١٨ - الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
- ١٩ - وادي التطرون ورهبانه وأديرته ومختصر البطاقة
- ٢٠ - الجمعية الأثرية المصرية في صحراء العرب والأديرة الشرقية

- ٢١ - الرحلة الأولى للبحث عن يتايبع البحر الأبيض (النيل الأبيض)
- ٢٢ - السلطان فلاوون (تاريخه - أحوال مصر في عهده - منشأته المعمارية
- ٢٣ - صفوة العصر
- ٢٤ - المماليك في مصر
- ٢٥ - تاريخ دولة المماليك في مصر
- ٢٦ - سلاطين بني عثمان

Bibliotheca Alexandrina



0354380

MADBOULI BOOKSHOP

مكتبة مطبولي

٦ ميّتان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٥٧٥٦٤٢١ Tel. : 5756421 6 Talat Harb SQ.